كيف يحيا الانسان



تأليف : لين يو تانج

تعريب وتعليق : خيري حمّاد

كيف يحيا الإنسان

أهمية الحياة

تاليف : لين يوتانج

تعريب وتعليق : خيري حماد

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٩٦٧

تقدِمَة المعرّب

هذا الكتاب من طراز جديد من الكتب التي اتولى نقلها الى العربية، لاقدمها الى قرائها . ولولا قلة من الكتب التي اخترتها من ميادين الأدب ومجالاته ، والتي قمت بتعريبها في السنوات الماضية . لاضيفها الى عشرات الكتب التي عربتها عن قضايا الوطـــن العربي ، والحرية ، والثورة ، والفكر السياسي والاقتصادي ، والتطبيق الاشتراكي ، لقلت اني طرقت في هذا الكتاب باباً جديداً ، ألجـــه لأول مرة . لاستهل به المجموعة المئوية الثانية من الكتب التي ألفتها وعربتها ، بعد ان انتهت المائة الأولى . مؤكداً انني في كل ما حققت في الماضي ، وما سأحققه في المستقبل ، بعون الله ، لم اتوخّ الا اطلاع قارئنا العربي على ما اتمكن من تزويده به من ثمار الفكر العالمي ونتاجه .

أجل ، انه كتاب جديد ، وفي ميدان جديد . فهو كتاب يجمع بين الفلسفة والواقع، والحياة والطبيعة ، والاحلام والعمل ، والشعر والنثر ، والفكر والعلم، وذلك لأنه يمثل خلاصة تجارب انسان عميق التفكير ، واسع الاطلاع والمعرفة. غزير العلم . ينبض قلبه بحب الحياة . ويتطلع الى انسانية الانسان . وهـو فوق هذا وذاك ، كتاب يجمع بـين تراث حضاري عريق وقديم . وحضارة عصرية

جديدة . وبين حكمة الصين العميقة، وفكرها الانساني الرقيق ، وبين اتجاهات الانسان العلمية والتقنية الحديثة . ليخلق من هذا المزيج الرائع ، مرشداً يهدي الانسان الى الاسلوب الأمثل الذي يتبعه في الحياة ، لننعم فيها بالسعادة المثـــلى .

يقول ناقد غربي قرأ الكتاب ، واعجب به .... هذا الكتاب الوحيد الذي قرأتـــه في حياتي والذي رأيته يطفح بلباب فلسفة الصين وجوهرها . ويربط بينهما وبين متطلبات العالم الحديث الذي نعيش فيه ... ففي كل صفحاته حـكم عميقة ، وومضات من ومضات الفكر الخلاق ، بالاضافة الى ما فيه من متعـة لا تدانيهـا متعة قراءة اي كتاب آخر . فالحكمة فيه غزيرة ، ولا تقارن الا بما فيه من سحر ولذة . ومن مزيجها تتدفق رغبة المؤلف ، في ان يحفظ للحياة الانسانية كرامتها ، وان يصون للانسان آدميته ...

حقاً ، لقد لخص الناقد الغربي في هذه السطور القليلة ، لباب هذا الكتاب ، وجوهره . وقد يخيل الى القاريء انه كتاب جديد ، ولكنه ليس في الواقـــع كذلك ، وانما هو طبعة جديدة ، هي الرابعة والعشرون من كتاب صدر لأول مرة في عام ١٩٣٨ ، وظل طيلة هذه السنوات الطويلة ، يحتل منزلة الكتاب الاول ، في مبيعات الكتب ، فقد صدرت منه اربع طبعات في عام واحـد ، وبيعت منه حتى الآن ملايين النسخ .

وقد يتساءل القارىء الكريم ، عن الاسباب التي دفعتني الى تعريب هـــذا الكتاب . وللرد على تساؤله اقول ...

اولاً : هناك كتب تعيش ولا تموت، وتكتسب في كل يوم يمر على صدورها جدة وظرافة ، وجدارة بالقراءة ، لأن ما فيها من مادة ، ولأن مـا تتناوله من مواضيع ، باقية ما بقي فكر الانسان . ولا شك في ان هذه الحقيقة ماثـلة في هذا الكتاب . الذي صدرت منه كما قلت ، اربع وعشرون طبعة حتى اليوم ، بلغ مجموع نسخها حدود الملايين .

ثانياً : يشهد العالم اليوم في الصين الشعبية ثورة ثقافية كبرى، فرضتها الحتمية الثورية التي عاشتها الصين بعد تحررها ، من ربقة العبودية ، واستبداد الاقطاع والاستغلال ، وسيطرة الاحتكارات الامبريالية والنفوذ الاجنبي . ولقد حققت ثورة الصين العظيمة حتى اليوم ، انتصارات ضخمة في شتى المجالات والميادين السياسية والاقتصادية والعلمية والتقنية ، فقطعت في اقل من حقبتين من الزمن ، ما قطعته البلاد الاخرى ، في عشرات الاجيال ، لتصل الى مرتبة التباري مع الدول المتقدمة في الميدان الحضاري ، في مجالات الانتاج ، والصواريخ والذرة ، وعلوم الفضاء . وكان من الحتمي ان تصحب هذه الثورة التي شملت كل ميدان ، بثورة ثقافية كبرى ، هي التي نشهدها في الصين في هذه الايام . والتي ستقلب موازين الفكر الصيني ومعاييره رأساً على عقب ، لتحل الثقافة الثورية الجديدة، محل ثقافة الصين القديمة والعريقة . ولا شك في ان هذا الكتاب ، الذي يمثل الفكر الصيني قبل الثورة ، ويصوره بابداع تعجز عنه ريشه أي رسام أو قلم أي كاتب آخر ، يحسر النقاب ، بالرغم من انسانية تفكيره ، عن الاسباب التي ادت الى حتمية الثورة الثقافية التي نشهدها في الصين اليوم ، ولذا فإن تعريبه ، يمكن القارىء العربي من اجراء مقارنة موضوعية بين فكر الصين الثورية، وفكر الصين التي كانت ميداناً لمختلف الاصطراعات والتيارات المتضاربة .

ثالثـاً : بالرغم من ان الكتاب لا يمثل صورة للفكر التقدمي الصيني، الا انه يعكس التيارات الـتي كانت تصطرع في افئدة الليبراليين من مثقفي الصين ، في عهـد كانت البلاد تتمخض فيها عن ثورتها الكبرى . ولا شك في ان لي يوتانج ، عكس في كتابه هذا ، ثورة على انحلال الفكر الغربي البورجوازي ، بقـدر ثورته على التزمت العلمـي والمنطقي في الفكر الشيوعي . وعلينا ان لا ننسى ، ونحن نضع هذا التقييم ، ان كتاب لي يوتانج ، ظهر في عهد ، كانت فيه اساليب ستالين، التي انتقدتها المؤتمرات اللاحقة للحزب الشيوعي وادانتها— هي المسيطرة. ولكن الحقيقة التي لا بد من ذكرها بوضوح هنا ، هي ان لي يوتانـج ، من اشد

معارضي الفاشية الديكتاتورية ، لأنه يرى فيها امتهاناً لكرامة الانسان وآدميته .

رابعاً : لا يعرف القراء العرب ، الكثير عن ادب الصين ، وحكمتها وفلسفتها في مختلف العصور ، مع ان الحضارة الصينية ، تمثل حضارة عالية لعلها من اعرق الحضارات واغزرها مادة وفكراً . وقد جمع هذا الكتاب في طياته الكثير من الروائع الادبية الصينية قديمها وحديثها، منذ ايام كونفوشيوس ومينسيوس ولاوتسي وطاو حتى ايامنا هذه . بالاضافة الى ما فيه من مقارنات رائعة بين الشرق والغرب من ناحية وبين الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية والمسيحية من الناحية الاخرى . ولا شك في ان المؤلف بعمق تفكيره وغزارة مادته، يرسم صورة رائعة بل لوحة فنية ممتازة، للحياة كما يجب ان يراها المفكر الصيني العصري .

خامساً واخيراً . ان مكتبتنا العربية بحاجة ماسة الى الانفتاح على التفكير العالمي ، بشتى مجادلاته وآفاقه ، ولا سيما اذا كان من طراز هذا الكتاب ، الذي يتحدث عن الانسان وعظمته وكرامته ووجوده ، والذي يحدد لهذا الانسان طريقه في السعادة . ولا يعني تعريبنا لأي كتاب ، اتفاقنا مع مؤلفه في كل ما يراه ويقوله . فلقد دأبنا على مناقشة هذه الآراء التي نختلف فيها مع الكاتب او المؤلف ، والرد عليها . وهي ظاهرة تمثل في هذا الكتاب ، كما تمثل في غيره من الكتب التي عربتها . واذا كنت في هذا الكتاب قد اقللت من هذه الهوامش ، فلانه يتناول قضايا حياتية وفكرية عميقة ، لا يمكن مناقشتها في مجرد هامش او بضعة سطور . ولكنني ارى ان لا بد من التأكيد هنا ، على ناحية جد مهمة وهي ان تعلق الكاتب الشديد والقوي ، بالحرية على انها الاساس في انسانية الانسان قد دفعه احياناً ، الى تغافل الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي يفرضها تحول الانسان في طريق بناء مجتمع الكفاية والعدل . كفاية للتحول الاشتراكي .

والمؤلف غني عن التعريف ، فله شهرة عالمية لا تدانيها شهرة أي كاتب من كتاب الشرق على الصعيد العالمي . ولد لين يوتانج في مدينة شانجشاد في عـــام ١٨٩٥ ، وتلقى دراسته في جامعة هارفرد الامريكية ، حيث حصل على شهادة الدكتوراة منها . ولقد عمل بعد تخرجه استاذاً في جامعة بكـــين ، فعميداً في كليـــة الاداب فيها ، فصحفياً كبيراً اصدر عدداً من المجلات الفكرية والادبية في الصين . وهاجر الى الولايات المتحدة في عام ١٩٣٦ ، حيث عمـــل استاذاً في عـــدد من جامعاتها ، الى ان انضم الى هيئة اليونسكو الدولية في عام ١٩٤٨ ، ليصبح رئيساً لدائرة الاداب فيها .

وللمؤلف عشرات الكتب ، وكلها من التي حققت رواجاً ضخماً في العالم ، وترجمت الى معظم اللغات . ومن اهمها كتب « بلادي وشعبي » و «حكمة الصين والهند » ، و « ورقة في العاصفة » ، و «وتبين الدموع والضحك» ، و «العبقري المرح » و « من المسيحية الى الالحاد » و « اهمية الفهم » ، وغيرها كثير .

يقع الكتاب في مقدمة واربعة عشر باباً . فهو يحدد في مقدمته الغاية التي من اجلها وضع كتابه . اذ يقول ... « هذه شهادة . انها شهادة شخصية ، عن التجارب التي مرت بي في حياتي وفكري . وانا لا اهدف منها الى الموضوعية ، ولا الى ادعاء وضع حقائق حياتية ، اذ انني في الواقع، ازدري ادعاء الموضوعية في الفلسفة ، لانني اركز اهتمامي علي الرأي » . وهو يتواضع فلا يدعي الابتكار وانمـــا يقول ان ما تضمنه كتابه من آراء ، تواردت الى خواطر الكثيرين من مفكري الشرق والغرب على مدى الاجيال ، واحسنوا التعبير عنها ، ولكنها اصبحت الآن جزءاً من افكاره ووجوده ، لانها تمثل جزءاً اصيلاً في نفسه . وهو ينهي مقدمته ، بأنه اراد ان يتحدث الى الناس كانسان عصري يشترك مـــع المعاصرين في حياتهـم العصرية ، لا كمجرد انسان صيني ، يعرض ما استوعبه في وجوده العصري . وانمـــا كمفكر يريد ان ينقل اليهم ، ما قاله حكماء الصين وفلاسفتها وشعراؤها .

ويتألف الباب الأول من ثلاثة فصول . يعرض فيه فيها مؤلفه وجهة نظر الصينيين في الحياة ، كما عبروا عنها في حكمهم الفولكلورية المأثورة ، وكتاباتهم الرائعة . فهي نظرة تجمع بين الواقعية والخيالات الشعرية ، لأنها تصور احساسهم بما في الحياة من شجن وجمال ، وخوف وضحك ، ومرح وسعادة ، وحزن واسى . فالفيلسوف الصيني في رأيه هو ذلك الانسان الذي يحلم ، وقد فتح احدى عينيه ، يتطلع بها الى الحياة ليرى ما فيها من حب وسخرية حلوة . وليخلط استخفافه بها بشيء من التسامح العطوف . ثم يفيق من حلم الحياة ، ليعود فيروح في اغفاءة ، وهو يحس بأنه في حلمه ، اكثر منه حياة في يقظته .

ويتناول المؤلف في الباب الثاني الذي يتألف من خمسة فصول اراءه في الجنس البشري ، مقارناً بين الفكر الصيني والمسيحي والاغريقي ، ومؤكداً واقع الانسان واتصاله بالارض . بعد تحليل رائع . يستند الى الفكر العلمي الحديث . المستمد من علم الحياة . للعلاقة بين الروح والبدن . وليست الحياة الانسانية في نظره ، الا قصيدة شعرية ، لها وزنها ولها جرسها ، ولها دوراتها الصاعدة والهابطة . فهي تبدأ بالطفولة البريئة ، لتعقبها مرحلة الشباب التي تتميز بالمحاولة الغريبة في التكيف مع نضوج المجتمع ، والعواطف والحماقات الفنية والمثل والمطامح ، وتنتقل الحياة بعد ذلك الى مرحلة الرجولة التي تتميز بالنشاطات الجمة ، مستمدة النفع من التجارب والتعلم عن المجتمع والطبيعة الانسانية . وتصل الحياة اخيراً الى مرحلة غروبها ، فتقلل الغدد الصماء من افرازاتها ، وتحل لحظات الهدوء والطمأنينة والاستقرار ، والراحة والرضى ، قبل ان تنطفىء شعلة الحياة ليمضي الانسان الى نومه الابدي الذي لا يفيق منه .

ويناقش المؤلف في الباب الثالث الذي يضم ستة فصول ، نظرية داروين في اصل الانسان ، وعلاقته بالقرد ، مناقشة علمية رائعة . ويصل من كل ذلك الى تأكيد نظريته في فناء الانسان وفي ان من واجبه ، ان يعرف كيف يحيا حياته الوحيدة هذه ، مستفيداً من تركيبه البدني ، ومن حواسه ، وقدرته

التفكيرية الرائعة . فهو يؤكد قدرة العقل الانساني على معالجة موضوع الكون الطبيعي ، بالاضافة الى معالجته لموضوع العلاقات الانسانية . وهو ينشد توصل الانسان الى مرحلة من الهدوء والتفهم ، يتفوق فيها على تحكم العواطف وسيطرتها ، وعلى غرائزه الحيوانية القوية . فروح التعقل ، والتفكير الدافيء والمشرق والعاطفي والملهم ، المصحوب بالعاطفة ، هو الذى يضمن للانسان عدم الرجوع الى صورته القديمة ، حيث كان واقعاً تحت سيطرة غرائزه .

ويتحدث المؤلف في الباب الرابع ذي الفصول الستة ، عن الوجود الانساني مركزاً على كرامة الانسان ، ونشوء الحضارة الانسانية ، والحقيقة تبين واقع الانسان واحلامه ، وطريقة تكييفه لهذا الواقع مع متطلبات السعادة ، بحيث تعتز بواجبه كفرد في بناء المجتمع . ولا شك في ان حديث المؤلف في هذا الباب عن دور المرأة كأم ، وكخالقة للانسانية من امتع المواضيع التي عالجها ، اذ يربط فيه بين غريزة الجنس وغريزة الأمومة . ويؤكد ان انثى الانسان اكثر انوثة ، عن طريق الوعي ، من انثى الحيوان . فهي تنشر البقاء عن طريق الحب والجمال ، وهي تجتذب وتستهوي ، بدلاً من ان تصد وتهاجم ، وبدلاً من تحقيق ما تريد بالقوة ، راحت تسعى اليه باللين والنعومة . وهنا يكمن لباب الحضارة الانسانية التي بدأت عند المرأة لا عند الرجل .

ويضمن المؤلف في الباب الخامس ذي الفصول الخمسة ، اراء كبار فلاسفة الصين وحكمائها في التمتع بالحياة، من امثال مينسيوس ولاوتسي وتسيسي وطاو يواغينج فالأول ينادي بالعاطفة والحكمة والشجاعة ، بينما يؤكد الثاني اللامبالاة والاستخفاف . ويعبر الثالث على الاعتدال ، أو ما يسميه المؤلف بفلسفة « كيت وكيت » ، بينما يؤكد الرابع ضرورة حب الحياة كاساس للتمتع بها . وهنا يبرز المؤلف فلسفته في ضرورة عثور الانسان على نفسه، اذ ان الفيلسوف ينظر الى الحياة بعين الفنان الذي يتطلع الى منظر عبر قناع او ضباب ، مستنداً الى تفاصيل الواقع في صقل رؤياه، ليتبين المعاني الكافية وراءها . وفي هذا يقول

كونفوشيوس ... « لا ادري ما افعل بالانسان الذي لا يسائل نفسه عما يجب ان يفعله » .

ويتناول المؤلف من الباب السادس ذي الفصول الخمسة ، موضوع عيد الحياة ، فيحلل مشكلة السعادة ويصفها بانها حسية ، ويقرر ان النظرة المادية المجردة قد اساءت فهم السعادة الانسانية ، لأنها لا تفي بالمتع العقلية . وينقل لنا المؤلف في هذا الباب فصلاً كتبه حكيم صيني يدعى ستين ، عن لحظات السعادة الثلاث والثلاثين التي عاشها في حياته . ويصل من ذلك كله ، الى ان الهدف الصحيح للحياة الانسانية هو التمتع الواقعي بها . ولا يكون هذا الهدف صورة واعية يجسدها موقف طبيعي من الحياة الانسانية نفسها . فهناك متع حسية ، واخرى روحية ، ولكنهما تمتزجان في رأيه وتلتقيان في حدود الشعر والفن والخيال والواقع . ولعل اروع ما ناقشه المؤلف في هذا الباب موضوع مفهوم السعادة في الأديان ، واعتماده على خيال الدنيا الثانية لا على واقع الحياة الدنيا .

ويعالج المؤلف في الباب السابع ، ذي الفصول الستة ، موضوع اوقات الفراغ وضرورة التمتع بها ، مؤكداً ان هذه الارض هي الجنة الوحيدة . ولا شك في انه كان موفقاً كل التوفيق في نقده لما في المجتمع الامريكي من عيوب . فاوقات الفراغ في رأيه لا تعني الكسل ، لأن هذا الكسل ليس بالشيء المستهجن ... وهنا يقتبس من شاعر صيني كبير قوله ... « انا اكسل من ان اقرأ روائع طاو ، لان الطاوية لا توجد في الكتب وانما يكمن لبابها في الفراغ والوضوح والجمود . وانا اكسل من ان اقرأ الشعر ، اذ عندما اتوقف عن القراءة ، يختفي الشعر من خاطري . وانا اكسل من ان اعزف على القيثار ، لأن الموسيقى تموت على الوتر عندما تولد . وانا اكسل من ان اشرب الخمر ، اذ هناك انهار وبحيرات وراء احلام الثمل ... » . فالحياة في رأيه فانية اذ انها « تمضي كحلم من احلام الربيع دون ان تخلف اثراً ، ولذا فعلينا ان نعمل كل ما في وسعنا للتمتع بها الى اقصى حدود التمتع » .

ويتحدث المؤلف في الباب الثامن ذي الفصول الخمسة ، عن التمتع بحياة البيت . فهو يعالج موضوع الاسرة وبنائها ، ونظرة الصينيين اليها . ونداء الجنس ، وحتمية الزواج ، وجلال الشيخوخة ، والعناية بالابوين . فهو يرى ان المرأة لم تعط حقها في هذه الصورة من الشعارات التي تطالب لها بالمزيد من الحقوق والامتيازات. فالبيت هو مملكة المرأة، وهي ملاكه الحارس. والمرأة في ملابسها الحريرية الناعمة ، اجمل منها في لباس العمل . وبالرغم من حتمية اشتراك المرأة مع الرجل في العمل ، ومن حتمية ظهورها في الحياة العامة الذي اضفى على هذه الحياة الكثير من السحر واللطائف، الا ان من واجب المرأة ان لا تنسى مهمتها الأولى ، وهي انها امرأة . ومن هنا كان العيب الكبير في الحضارة الغربية ، وهي انها تعنى بالمرأة كجنس لا كامرأة .

ويتناول المؤلف من الباب التاسع ذي الفصول العشرة ، موضوع التمتع بالعيش . فهو يتحدث عن طرائف الاستلقاء ، والجلوس والحديث ، وشرب الشاي والصداقة والتدخين ، والبخور ، والشراب ، والعاب الخمر ، والطعام ، واجزاء البيت الداخلية . وهو يهاجم بعض العادات الغربية الغريبة ، واللانسانية في الملابس الغربية . ولا شك في ان الصور التي يرسمها في هذا الباب من اروع الصور . فهو يدافع عن التدخين ويرى انه ساعد في حفز القوة الخلاقة عند الانسان . وهو يصور لنا مجالس الشراب والحديث ، والمناقشات التي تدور فيها ، مقتبساً صوراً شعرية رائعة من اقوال شعراء الصين عن المتع التي احسوا بها فيها .

ويصل المؤلف في بابه العاشر ذي الفصول السبعة الى موضوع التمتع بالطبيعة. وهنا تبلغ ذروة الابداع في الكتاب عندما يتحدث عن الفردوس الضائع ، وجمال الطبيعة، والجبال ، والصخور والاشجار والازهار ، وعندما يقتبس من شاعرين صينيين الصورتين الرائعتين اللتين رسماهما لحياتهما مع الطبيعة ومع الجمال

الجسد في رفيقي حياتيهما . وينهي هذا الباب بحكم شعرية رائعة لشانج شاو ، لعل بعض النماذج منها هنا كافية للتدليل على مـــا فيها من جمال ، اذ يقول الشاعر ... « لا بد للازاهير من فراشات ، وللجبال من ينابيع ، وللصخور من طحالب ، وللماء من نباتات ، وللاشجار السامقة من المتسلقات ، وللبشر من هوايات . على المرء ان يتمتع بالازاهير في صحبة الجميلات . وان يثمل في ضوء القمر مع الصحاب ، وان ينعم بلون الثلوج في صحبـــة كبار المفكرين . تفضل الجميلات الأزهار ، لانهن يفهمن لغـة الانسان ، ولكن الازهار تفضل الجميلات لانها تتضوع اريجاً . واذا لم يستطع الانسان ان يوفر لنفسه المتعتين ، فليؤثر الجميلات على الازهار » .

ويتناول المؤلف في الباب الحـــادي عشر ذي الفصلين ، موضوع السياحة والاسفار ، والتمتع بالمناظر . وهو يقتبس في هذا الباب ، شطراً لا بأس به من كتاب رحلات ميخيليا ولش ، الذي يعتبر من اعظم كتب الرحلات في الصين . لما تضمنه من وصف رائع ، واحاديث ممتعة شيقة .

ويعالج المؤلف في الباب الثاني عشر ذي الفصول الاربعة ، موضوع التمتع بالثقافة . فهو يركز على حسن الذوق في المعرفة . وعلى ان الفن لهو وشخصية ، كما يتناول الفن في القراءة والكتابة . فالرجل الذي لا يألف القراءة ، سجين في عالمه المباشر ، والقريب منه في الزمان والمكان . وليس لهذا الرجل من خلاص من سجنه الا بالكتاب ، الذي يتصل عن طريقه بمفكر عظيم . فالقارىء يحمل دائماً الى عالم من الفكر والتفكير ، ولو كان مـــا يقرؤه الانسان شيئاً يتعلق بالاحداث المادية ، فهناك فرق بين رؤية هـــذه الاحداث وبين العيش معها . وتتكون القراءة في رأيه من فريقين ، هما المؤلف والقارىء . ويكون الكسب من القراءة ، ناتجاً عن اسهام القارىء في فائدتها ، بخبرته واستشفافه . ولا شك

في ان القراءة النافعة هي تلك التي تتمثل في اكتشاف القارىء للكاتب الذي يؤثره .

ويتحدث المؤلف في الباب الثالث عشر ذي الفصلين عن علاقة الانسان بالله. ولا ريب في ان حديثه عن تطور تفكيره الديني من المسيحية التي نشأ عليها ، الى الالحاد الذي اعترف به ، من اصدق الصور التي يرسمها أي كاتب للاصطراع الذي يواجهه فيحياته الفكرية . فهو يرى ان الدين قضية فردية وشخصية ، وان على الانسان ان يكون لنفسه نظرياته الخاصة بالدين . ولو كان الانسان صادقاً مع نفسه ، لما لامه الله على هذه الاراء مهما كانت . فهو يعترف بأنه ملحد . وان هذا الاعتراف قد يعني ثورة على المسيحية ، ولكنه يؤثر عليها هنا فكرة اتضاح الحقيقة ، لأنه وصل الى هذه النتيجة ، بعد ان مر بمراحل من التطور المتدرج ، خطوة اثر اخرى ، بعيداً عن المسيحية ، بعد ان كان قد نشأ ليكون كاهناً من كهنتها .

ويصل المؤلف في بابه الرابع عشر والاخير ذي الفصول الثلاثة الى فن التفكير . فهو يؤكد حاجة المجتمع الانساني الى أنسنة التفكير وعودة الناس الى سلامته . وهو يلخص جماع نظريته في قوله بان على الانسان ان يكون معقولاً . فأنسنة التفكير تعني التمسك بروح العقل التي تتعارض مع التعصب والتزمت . وهو هنا ينهي كتابه قائلا بأن روح العقل التي تناقض المنطق ، هي خير ما تستطيع الصين تقديمه الى العالم ، لانها لباب الحضارة الصينية ، والجانب الرائع فيها .

هذا هو الكتاب الذي اقدمه الى قراء العربية ، راجياً ان اكون قد وفقت في تعريبه . ولعل خير ما اختم به مقدمتي هذه ان اقتبس ما قاله المؤلف نفسه عنه ... « انني احس بشيء من الرهبة وانا احاول الكتابة في الفلسفة . وقد

اسمع من يقول ، ان عباراتي ليست طويلة الى حد كاف ، وانني ابسط القضايا التي اعالجها كل التبسيط ليفهمها القارىء . ولكنني اود ان اقول ، انني لا اهمس بصوت خفيض ، ولا اخطو خطوات متلصصة في معبد الفلسفة المقدس . مضفياً هالة من القداسة على نفسي . لكن الشجاعة هي اندر الفضائل عند الفيلسوف الحديث ... »

والله ولي التوفيق

القاهرة في ٧ اكتوبر ١٩٦٦ خيري حماد

مُقَـدّمة المؤلّف

هذه شهادة . انهـــا شهادة شخصية عن التجارب التي مرت بي في فكري وحياتي . وانا لا اهدف منها الى الموضوعية، ولا الى ادعاء وضع حقائق حياتية. فانا في الواقع ازدري ادعاء الموضوعية في الفلسفة ، اذ انني اركز كل اهتمامي على الرأي . وكنت اوثر ان اسمي ما اكتبـه « بالفلسفة الغنائية » مستعملاً هذه الصفة على اعتبار انها انعكاس لوجهـــة نظر ذاتية وفردية . ولكن مثل هذا الوصف مفرط في الجمال . ولذا فعليّ ان اتجنبه ، مخافة ان اكون قد غاليت في الأمل، وحملت القارىء بعيداً معي فيه، بحيث ادفعه الى توقع اكثر مما استطيـع، لا سيما وان المحتوى الاساسي لفكري هو نـــثر واقعي ، وعلى مستوى تسهل المحافظة عليه لأنه اكثر انسجاماً مع الطبيعة . فانا لا اطمع في الارتفاع ، وانما اوثر ان اظل متعلقاً بالارض، وان اكون اشبه بالتربة التي تلتصق بها . وتطوف روحي هانئة بالتربة وبالرمال . وتحس بالسعادة في طوافها . وعندما يثمل المرء احياناً بحب هذه الارض ، تأخذ به النشوة . فيتصور نفسه وقـد حلق في اجواء السماء ، ولكنه لا يعلو من الواقع عن سطحهـــا مسافة تزيد على ستة اقدام .

وكنت اوثر ان اضع كتابي هذا كله على شكل حوار ، كحوار افلاطون . فالحوار وسيلة سهلة من وسائل العرض البطيء الشخصي ، لما ينطوي عليه من سرد للتفاهات البارزة في حياتنا اليومية، ومن طواف متثاقل في مراعي الافكار الحلوة الصامتة . ولكنني على أي حال لم الجأ الى هذا الاسلوب ، ولست ادري علة لترددي في اللجوء اليه . ولعلي خفت ان لا اجد من يقرأني ، اذ ان هـذا المنحى الادبي لم يعد مستعملاً اليوم . مع ان اول ما يتطلع اليه الكاتب هو ان يجد له قراءً كثراً . وعندما اقول الحوار ، انا لا اعني الاسئلة والاجوبة كالمتبع عادة في المقابلات الصحفية ، أو في تلك المقالات التي يلخصها كاتبوها في بضعة اسطر قصيرة، وانما اعني به المطارحات الطويلة الرائعة المتأنية التي تمتد صفحات وصفحات، تتخللها وقفات ولفتات كثيرة ، للعودة الى نقطة البداية في النقاش ، عن طريق قصير ومفاجيء ، تماماً كما يعود الانسان الى بيته عن طريق ارتقاء سياج يثير في تجاوزه دهشة رفيقه . ولقد كنت دائمـاً مولعاً بالعودة الى بيتي ، من بابه الخلفي . والطواف في طرق غير مطروقة . فرفيقي يظن بأنني اعرف طريقي الى البيت ، واعرف كل ما يحيط به من أرياف ... ولكنني في الحقيقة لا اعرف ما يظنه .

ولست ادعي الابتكار . فالافكار التي اضمنها هـذا الكتاب ، تواردت الى خواطر الكثيرين من مفكري الشرق والغرب على مدى الاجيال واحسنوا التعبير عنها . وما اقتبسه من افكار الشرق شائع في الاستعمال هناك ، ولكنها على أي حال افكاري ، لأنها اضحت جزءاً من وجودي . واذا قدر لهـا ان تتأصل جذوراً في قرارة وجودي ، فلانها الانعكاس لشيء اصيل في نفسي ، وعندما طافت بخاطري لأول مرة ، وجدت الاستجابة الفطرية لها في فؤادي . واني لأميل اليها كافكار ، لا لأن صاحبها الاصلي ، رجل له وزنه وخطره . فانا الفت في قراءاتي وكتاباتي طرق الدروب غير المطروقة . وقد تكون الاسماء التي اقتبس من كتاباتها مغمورة وغير معروفـة بل ان بعضها ليثير دهشة حتى اساتذة الادب الصيني . واذا قـــدر لبعض اصحاب هذه الاسماء ان يكون

مشهوراً ، فاني اقبل افكار هذا البعض اذا انسجمت مع احاسيسي، لا لأن افراده من المشهورين . ولقد جرت عـادتي على ابتياع الطبعات الرخيصة من الكتب القديمة المغمورة ، باحثاً عن شيء قد اكتشفه فيها . واذا قدر لاساتذة الادب ان يعرفوا مصدر افكاري ، فقد يعروهم الذهول منه ، ولكنني اقول ان التقاط لؤلوة صغيرة من منفضة سجائر امتع للنظر من التطلع اليها في واجهة العرض من حانوت صائغ يبيع الجوهرات .

وانا لا ادعي العمق او وفرة المطالعـة . ولو افرط الانسان في المطالعة ، لعجز عن تمييز الخطـأ من الصواب . وانـــا لم اقرأ لوك[١] أو هيوم[٢] او بيركلي[٣] ، كما لم اقرأ الفلسفة في الجامعة . ولو شئنا الدقة الفنية في التعبير لقلنا ان منهجي وتدريبي خاطئان كل الخطأ ، اذ انني لا اقرأ الفلسفة في الواقع، وانما اقرأ الحياة على الطبيعة . وهذه طريقة غير مألوفة في دراسة الفلسفة ، بل لعلها الطريقة الخاطئة . وتتلخص اهم مصادري من السيدة هو ساغ وهي أمة عرفتها في اسرتنا ، وقـــد جمعت كل الافكار التي تشترك في تكوين شخصية

---

(١) جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) - فيلسوف انجليزي ، آمن بالفلسة الاختبارية . ودرس الطب في اكسفورد . عاش امـــداً في فرنسا ، ووضع رسالة عن الحكم ، واخرى عن المفاهيم الانسانية وثالثة عن التسامح ، والف كتاب « منطق المسيحية » . يعتبر من اول المؤمنين بالنظرية المادية .

(٢) ديفيد هيوم (١٧١١ - ١٧٧٦) - فيلسوف ومؤرخ اسكوتلندي ، درس القانون في بدء حياته ثم عدل عنه لسوء صحته . اهم كتبه « اطروحة عن الطبيعة البشرية » « ومقالات في السياسة والاخلاق »، ومطارحات سياسية . وتعتبر اراؤه في الفلسفة من النوع الشكي بالنسبة الى المتزمتين من ذوي العقائد الدينية .

(٣) جورج بيركلي (١٦٨٥ - ١٧٥٣) - فيلسوف ايرلندي . من اسرة من النبلاء . درس في جامعة دبلن، ثم اصبح استاذاً فيها. وارتكز في فلسفته على ان المادة والجوهر لا يختلفان عن الروح الواعية . من اشهر كتبه « اسس المعرفة الانسانية » و « الفلسفة الدقيقة » و « نظرية جديدة في الرؤيا » .

المعرب •

السيدة الطيبة في الصين ، وفي امرأة من سوشاد تؤجر قاربها ، وقد الفت حشو كلامها بالايمان ، وفي سائق سيارة في شنجهاي ، وزوجة طباخي ، وفي شبل أسد من حديقة الحيوانات، ومن سنجاب في حديقة « سنترال بارك » للحيوانات في نيويورك ، وفي ندل في احدى البواخر التي الفت استخدامها في رحـــلاتي ، وكاتب في الفلك توفي منذ سنوات كان يكتب عموداً في احدى الصحف ، وفي الاخبار البارزة في اطاراتها ، بل وفي كل كاتب لا يقتل احساسنا بالاهتمام بالحياة ولم يقتله في نفسه... هذه هي مصادري ،وهناك كثير غيرها لا استطيع تعدادها.

وهكذا وقد حرمت من الدراسة الاقاديمية في الفلسفة ، فانني أحس بشيء من الرهبة وانا احاول الكتابة فيها . ويبـــدو كل شيء بصورة اكثر وضوحاً وبساطة في نظري ، اذا كان في هذا أي تعويض مقبول عند الفلسفة المترمتة . ولكنني اشك في ذلك . وانا اعرف انني سأسمع من يقول أن عباراتي ليست طويلة الى حد كاف ، وانني ابسط الأمور كل التبسيط ليفهمها القارىء ، واخيراً انني افتقر الى الحذر والحرص ، فلا أهمس بصوت خفيض ، ولا اخطو خطوات متلصصة في معبد الفلسفة المقدس ، مضفياً هالة من القداسة على نفسي كما يجب ان افعل. ويبدو ان البسالة هي اندر الفضائل عند الفيلسوف الحديث . ولكنني كثيراً ما طفت خارج حدود الفلسفة ، ولعل هـــذا هو السبب في شجاعتي . وهناك اسلوب في لجوء الانسان الى قدرتـــه الفطرية على التمييز ، وفي صياغة الانسان للافكار التي يريدها لنفسه وتكوين احكامه الخاصة المستقلة بـــه ، ثم الاعتراف بها علنا أمام الناس بشيء من نزق الطفولة . لتجد القبول عند اناس آخرين في طول العالم وعرضه ، يحملون نفوساً تشبه نفوس صاحبها . وكثيراً ما يصاب المرء الذي يصوغ افكاره على هذا النحو بالذهول . عندما يكتشف ان كاتباً آخر قد قال نفس ما قاله ، وأحس نفس احساسه ، وان كان قد عبر عن افكاره بصورة اكثر بساطة واشراقاً . وهنـــا يكتشف الانسان مؤلفه القـــديم ، ويصبح هذا المؤلف دليـــلاً يستشهد به ، وتقوم بينهما صداقـــة روحية دائمة ..

وهنا تبرز قضية الالتزامات التي احس بهـــا لهؤلاء المؤلفين ولا سيما من اصدقائي الصينيين في الروح . وقد شاركني في وضع هذا الكتاب عدد من ذوي الأرواح اللطيفة الوادعة ، الذين آمل في ان يكونوا قد احبوني كما احببتهم . فقد عاشت هذه الارواح في الواقع معي، في الشكل الوحيد من اشكال الاشتراك الروحي الذي اعترف بصحته ولا سيما عند ما تفصل القرون الطويلة بين رجلين يفكران نفس التفكير ويحسان بنفس الاحساس ، ويفهم كل منهما صاحبه . وقد اعانني في اعداد هذا الكتاب نفر من خيرة اصدقائي بصورة خاصة ، بمـا زودوني به من اراء ونصائح ، وفي مقدمتهم بوشيي الذي عاش في القرن الثامن ، وس تونج بو الذي عاش في القرن الحادى عشر ، واصحاب تلك الارواح الاصيلة المبتكرة الذين عاشوا في القرنين السادس عشر والسابع عشر من امثال توشيشوبي الرومانسي الذرب اللسان ، ويوان شونج لانج ، اللعوب والكثير الابتـكار ، ولي شو وو الانسان العميق والرائع، وشانج شاو الانسان الحساس والمتفلسف ، ولي ليونيج الابيقوري ، ويوان تسيتساي الهيـدوني المرح العجوز ، وشينج شينجتان ، السريع الدعابة ، الدائم النشاط والحيوية . اجل كل هؤلاء من ذوي الأرواح غير المألوفة ، ومن ذوي الاستقلال في الرأي ، والاهتمام بالامور التي لا يرضى عنها النقـــاد المتزمتون ، ومن المفرطين في طيبتهم بحيث لا يعتبرون خلوقين عند الكونفوشيين أو مفرطين في خلقهم بحيث لا يعتبرون من الطيبين عند نفس هؤلاء الناس . ولا ريب في أن قلة عدد هؤلاء الاصحاب قـد جعلت متعة وجودهم ، اكثر اهمية وصدقاً . وقد لا اقتبس في هذا الكتاب شيئاً من بعض هؤلاء ، ولكنهم معي دائماً في كل جزء منه . وليست عودتهم الى الظهور أمام الناس في الصين ، الا قضية وقت ليس الا ... وهناك آخرون ، ولعلهم من ذوي الاسماء الاقل شهرة . ولكن ترحيبي بهـــم لا يقل عن ترحيبي باولئك لملاحظاتهم البارعة ، ولانهم يعبرون تمـام التعبير عن نفس ما أحس بـه من احاسيس . وانا اعرف انهم لا يتحدثون كثيراً ، ولكنهم إن تحـــدثوا ، فان حديثهم يكون منطقياً ومعقولاً ، واني لاحترمهم . وهناك آخرون يمتون الى

زمرة المغمورين الذين يمتون الى مختلف البلاد والاجيال ، والذين قد تصدر عنهم في بعض لحظات الالهام ، اقوال اكثر حكمة من كل ما يعرفونه تماماً كالادباء المغمورين الذين ينجبون عظماء الرجال . وهناك اخيراً لفيف من الناس الاكثر عظمة والذين اعتبرهم اساتذة لي في الروح ، لا مجرد رفاق ، والذين تجمع جدية تفهمهم للأمور بين الانسانية والقدسية ، والذين تبدو الحكمة النابعة عنهم ، غير مصطنعة ، لانهـا جسدت الطبيعة بصورتها الصحيحة وبين هؤلاء بالطبع شوانجتسي ، وتاويوا غينبج ، والاخير يثير ببساطة روحه ، البأس في قلوب من هم دونه معرفة وحكمة . وقد سمحت لامثال هؤلاء احياناً بالحديث مباشرة الى القارىء ، عن طريق اقتباس بعض اقوالهم ، بينما أخذت على عاتقي احايين اخرى التحدث عنهم ، متظاهراً بأني اتحدث عن افكاري . وكلما تأصلت صداقتي مع هؤلاء ، كلما زاد فضلهم علي في افكارهم من الطراز المألوف وغير المرئي ، تماماً كتأثير الوالد غير المرئي على اولاده من اسرة تنشأ نشأة طبيعية . وقد يكون من العسير على المرء ان يحدد تمام التحديد اوجه الشبه بينهم وبيني . وقد اردت احياناً ان اتحدث كانسان عصري ، يشترك مع المعاصرين في حياتهم العصرية لا كمجرد انسان صيني ، عارضاً ما استوعبته في وجودي العصري ، وغير مكتف بأن اترجم للقراء ما قاله الاقدمون . وقد تكون لمثل هذه الطريقة اخطاؤها وعيوبها ، ولكن في وسع المرء على أي حال ، ان يكون جاداً في تطبيقها . ومن هنا يكون العامل الشخصي قد لعب دوراً كبيراً في اختيار بعض المواضيع . كما لعب دوراً في رفض بعضها . ولم احاول هنا ان اقدم للقارىء صورة كاملة عن أي شاعر من الشعراء أو فيلسوف من الفلاسفة ، ومن العسير على القارىء ان يحكم عليهم على ضوء ما يقرؤه في هذه الصفحات . وهنا لا بد من ان انهي هذه التقدمة كالعادة بالقول بأني مدين بحسنات هذا الكتاب ان كانت فيه حسنات للذين اعانوني بمقترحاتهم ، أما السيئات والعيوب فيه ، فانا المسؤول عنها وحدي .

لين يوتانج

« ليست الحقيقة هي التي تجعـــل الانسان عظيماً ، بـــل انه الانسان الذي يضفي على الحقيقة عظمتها »

كونفوشيوس



« لا يستطيع الاهتمام بمـــا يلهو به الناس في العالم، الا اولئك الذين يلهون بما يهتم به الناس»

شانج شاو

١

اليقظة ...

١ – كيف نحيا ...

سأعرض في الصفحات التاليـــة ، وجهة نظر الصينيين في الحياة . لانني لا استطيع ان افعـل سوى ذلك . وجل ما اهتم به هنا ، هو ان اعرض النظرة التي حملهـا عقلاء الصين وحكماؤها للحياة والاشياء ، وكما عبروا عنها في حكمهم الشعبية المأثورة وفي كتاباتهم . وانا لا انكر ان هذه الفلسفة كانت متراخيـــة لحياة متراخية ، نشأت في عصر يختلف عن عصرنا . ولكنني لا استطيع ان انكر احساسي باصالة هذه النظرة الى الحياة وصدقها ، ولما كنا لا نختلف في حقيقة وجودنا ، فان ما يمس شغاف القلب الانساني في بلاد ما ، لا بد ان يمس جميع القلوب . وسأعرض هنا نظرة الى الحياة حملها شعراء الصين واساتذتها ، واشتركوا في حملها بما تميزوا به من واقعية واحساس شعري . وسأحاول حسر النقاب عن بعض مـــا كان في العالم الوثني من جمال ، ومن احساس بما في الحياة من شجن وجـــمال ورعب وضحك ، على النحو الذي تصوره اولئك الناس الذين

احسوا احساساً قوياً بما في وجودنا من قيود ، ومع ذلك فقد احتفظوا بمعنى كرامة الحياة الانسانية .

وليس الفيلسوف الصيني الا ذاك الانسان الذي يحلم وقد فتح احدى عينيه ، والذي يتطلع الى الحياة بعين الحب والسخرية الحلوة ، فيخلط استخفافه بشيء من التسامح العطوف ، ثم يفيق من حلم الحياة ليعود فيروح في اغفاءة ، وهو يحس بأنه اكثر حياة في حلمه منه في يقظته ، مستثمراً حياة اليقظة في حلم عالمي الطابع . وهو يرى بعين مغمضة واخرى مفتوحة تفاهة الكثير مما يدور حوله . وتفاهة ما يقوم به من محاولات . ولكنه يحتفظ بكثير من الاحساس بالواقع يمكنه من تقرير المضي فيه . وهو لا يشعر بخيبة الأمل قط لأنه لا يعيش على الآمال والاوهام ، ولا يحس باليأس لأنه لا يفرط كثيراً في التمنيات . وهو يحقق بهذا الاسلوب انطلاق روحه وتحريرها .

فبعد ان استعرضت آفاق الادب الصيني والفلسفة الصينية توصلت الى الاستنتاج بأن اسمى اهداف الحضارة الصينية ، كان دائماً الاحساس بالانفصال عن الحياة ، مع ارتكاز هذا الاحساس على شعور من الواقع الحكيم في استبعاد الاوهام. وينبثق عن هذا الانفصال طراز في التعالي يمكن الانسان من ان يخوض خضم الحياة بشيء من الاستخفاف المتسامح ، مع النجاة من غوايات الشهرة والثراء والانجازات، والتقبل النهائي لكل ما يحدث . وينبع من هذا الانفصال ايضاً الاحساس بالحرية ، وتعشق حياة التشرد ، والانفة ، واللامبالاة . ومثل هذا الاحساس بالحرية واللامبالاة هو الذي يؤدي في النهاية الى التمتع الكبير بالحياة .

وقد لا يفيدني ان اقول . ما اذا كانت فلسفتي صالحة للغربيين ام غير صالحة. وعلى المرء اذا اراد فهم الحياة الغربية ، ان ينظر اليها ، كما ينظر الانسان الذي ولد غربياً ، وان يكون له عين مزاجه ، وطبائعه البدنية ، ونفس تركيبه

العصبي . ولست اشك في ان اعصاب الامريكي تستطيع احتمال اشياء كثيرة لا تحتملها اعصاب الصيني ، والعكس بالعكس ، ولا ريب في ان من المفيد ان تكون الامور على هذا النحو ، وان نولد مختلفين تمـام الاختلاف . فالقضية لا تعدو أن تكون نسبية . واني لعلى ثقة من ان ضوضاء الحياة الامريكية تنطوي على الكثير من القلق ، والرغبة الصادقة عند البعض في ان يستلقوا بعض الايام وقت الظهيرة على ارض معشوشبة ، وفي ظلال بعض الاشجار ، دون ان يفعلوا شيئاً . ولا ريب في ان ما نسمعه من صيحات شائعة في الحياة الامريكية تهتف بالناس ان يستيقظوا وان يعيشوا ، ليست الا دليلاً صحيحاً على ان ثمة شطراً من الناس في امريكا يؤثرون ان يقضوا ساعات ايامهم يحلمون . وانا لا اقول بأن الانسان الامريكي على هذا النحو من السوء بوجه عام . ولا يعدو الموضوع ان يكون محاولة للجمع بين هذه الحياة وتلك ، ومحاولة لتنظيم هذا الامتزاج فيها . وقد يكون الامريكي مخلاً في تعبير « التبلّد » ، في عالم لا يخلو من العمل لكل انسان ، ولكنه على أي حال ، لا يعدو ان يكون ايضاً ، حيواناً ، يود ان يرخي عضلاته احياناً ، وان يستلقي على الرمال ، أو ان ينبطح على الارض وقد ثنى احدى ساقيه تحت الاخرى ، ووسّد رأسه احدى ذراعيه . واذا صح هذا فانــه لا يختلف كثيراً عن بين هيوي ، الذي كان يتمتع بهذه الفضيلة ، والذي كان فيلسوفنا كونفوشيوس ، يؤثره على جميع حوارييه الآخرين . وكل مـا ارغب فيه هو ان يكون الامريكي صادقاً مع نفسه ومع الآخرين ، وان يعترف للعالم بأنه يحب هذا الاسترخاء اذا كان يرتاح اليه ، وان يعترف ايضاً ، بان روحه تقر بجمال الحياة عندما يكون في هذا الوضع من الاسترخاء ، لا عندمـا يعمل في مكتبه .

ونحن على ضوء هذا، على وشك ان نصل الى فلسفة وفن للحياة، من الطراز الذي فهمه الشعب الصيني . واني لأميل الى الظن ، بأن هــذا الطراز فريد في نوعه في العالم الى حد ما . فنحن نواجه نظرة الى الحياة ، تختلف كل الاختلاف

عن نظرات الآخرين لانها نابعة عن تفكير جد مختلف . فمن الأوليات المسلم بها في علم المنطق ، القول بأن حضارة أية امة ، هي ثمرة تفكيرها . وينشأ عن هذا انه عندما يكون هناك تفكير قومي عام يختلف مثل هـذا الاختلاف عنصرياً وتاريخياً عن العالم الحضاري الغربي ، فان من حقنا ان نتوقع حلولاً مغايرة لمشاكل الحياة ، بل طرائق جديدة في محاولة حلها وعرضها . ونحن نعرف بالطبع بعض حسنات هذا التفكير وعيوبه ، كما عرضه لنا تاريخنا السابق. فقد تميز بفن مجيد ، وبعلم تافه ، كما تميز بحكم سليم رائع على الامور ومنطق صبياني بفلسفة علمية صحيحة ، و « دردشات » نسوية تافهة عن الحياة . ومن المعروف ان العقل الصيني عقل عملي للغاية وشديد المراس ، كما ان بعض عشاق الفن الصيني يرون فيه عقلاً عميق الاحساس كما يرى فيه آخرون عقلاً شعرياً وفلسفياً عميقاً . فالمعروف عن الصينيين انهم ينظرون الى الحياة نظرة فلسفية ، وهذا يعني اكثر من انهم اصحاب فلسفة عظيمة ، أو انهم خلقوا بعض عظماء الفلاسفة. وليس من الغريب على اية امـة من الامم ، ان تخرج الى العالم بعض الفلاسفة ، لكن الرهيب ان تنظر الأمة كلها الى الحياة نظرة فلسفية . ومن الواضح على اي حـال ان الصينيين كأمة ، اكثر ميلاً الى الفلسفة منهم الى الفاعلية ، ولو لم يكن الوضع على هذا النحو ، لما استطاعوا ان يصمدوا اربعة الاف عام أمام ما تحمله الحياة الفعالة من ضغوط عنيفة . ولا ريب في ان اربعة الاف عام من الحياة الفعالة كافية لتحطيم أية امة . ولعل من اهم نتائج هذا الوضع ، ان عدد المجانين في الغرب كبير ، مما يتطلب وضعهم في المصحات العقلية ، أما في الصين فهم قلة نادرة ، ولذا فنحن نعبدهم ، وهذا ما يعرفه كل من يفهم ادبنا . ولعل هذا هو ما أسعى الى الوصول اليه هنا . فللصينيين فلسفة مرحة ، ولا ريب في ان اصدق دليل على مزاجهم الفلسفي هذا يمثل في فلسفتهم المرحة والحكيمة عن الحياة .

٢ — معادلة شبه علمية

ولنبدأ اولاً بدراسة التركيب العقلي الصيني الذي انتج مثل هـــذه الفلسفة للحياة وهي التي تجمع بين الواقعية العظيمة والافتقار الى المثالية ، وحب الدعابة والاحساس الشاعري الرفيع بالحياة والطبيعة .

ويبدو ان الجنس البشري ينقسم الى واقعيين ومثاليين وان الواقعية والمثالية هما القوتان العظيمتان اللتان تصوغان التقدم الانساني . ولا ريب في ان تراب الانسانية يترطب ويرخو بماء المثالية ، لكي يتحول خزفاً ، لكن هناك قـــوة تمسك الخزف وتشده الى بعضه ، والا تبخر كله وراح في السماء . وتتصارع قوى الجاذبيـــة والمثالية في جميع مجالات النشاط الانساني من فردية واجتماعية وقومية ، ولا يتحقق التقـــدم العقلي ، الا بالمزج مزجاً صحيحاً بـين هذه العناصر . بحيث يظل « الجص » الذي يصنع منه الخزف في حالة نموذجية من المرونة والقدرة على التكييف ، يجمع بين الرطوبة والجفاف ، فلا يجف ويقسو بحيث تصعب صياغته ، ولا يرخو ويميع متحولاً الى مجرد « طـــين » . وتجمع الأمم العاقلة بين الواقعية والمثالية بنسب صحيحة ، اشبه بذلك « الجص » الذي تحدثنا عنـــه . فلا يقسو ليصبح عسيراً على ايدي الفنان الذي يحوله الى خزف ، ولا يرخو الى الحد الذي يفقد فيه شكله . وهناك بلاد اخرى ، تجد نفسها في خضم الفتن المتعاقبة الدائمة لأن سائلاً من الافكار الاجنبية قد اختلط في جصها دون ان تحافظ على النسبة الصحيحة للتركيب ، ولذا فهي تعجز كل العجز عن المحافظة على شكلها .

ولست اشك في ان الافراط في المثالية الغامضة غـــير المتفحصة ، يحول صاحبها الى ان يغـدو موضع السخرية . كما ان تطبيقه على نحو عام يمثل خطراً على الجنس البشري كله . اذ يؤدي الى نشدان عنيف وغير مجد للمثل الخيالية . ولو وجد مثل هؤلاء المثاليين الخياليين على نطاق واسع في اي مجتمع ، أو عند

اني شعب ، فانّ الفتن والثورات ستصبح الشيء الشائع . ويكون المجتمع الانساني اشبه بالزوجين المثاليين اللذين يكثران من الملل من المكان الذي يقيمان فيه ، ولا ينفكان يتنقلان من مكان الى آخر ، مدة كل ثلاثة اشهر ، لسبب بسيط واحد ، وهو ان ليس ثمة مكان مثالي واحد ، وان المكان الذي لا يكون فيه الانسان يبدو افضل له . لانه ليس فيه . ومن حسن حظ الانسان انه محبو دائماً بروح النكتة . ومهمتها كا اراها ، نقد احلام الانسان واعادته الى الاتصال بالواقع الذي يعيش فيه . وقد تكون الاحلام مهمة للانسان احياناً ، ولكن ما هو اهم منها ان يستطيع الانسان الضحك على احلامه . هذه هي الموهبة العظمى ، وهي متوافرة عند شعب الصين .

فروح النكتة التي سأتناولها بالحديث بكثير من الاسهاب في فصل لاحق ، ترتبط ، في نظري ، ارتباطاً وثيقاً مع الاحساس بالواقع او ما نسميه بالواقعية . ولو كان المداعب في العادة قاسياً في تحطيم آمال المثالي ، فانه مع ذلك يؤدي عملاً صحيحاً في منتهى الاهمية ، اذ يحول بين هذا المثالي وبين العيش على اوهامه ليصطدم بالجدار الصخري للواقع مما يسبب له صدمة اقسى . وهو في الوقت نفسه يخفف مما يحس به المتحمس العاطفي من توتر في اعصابه ، فيطيل حياته . ولا ريب في انه بتهيئة ذلك الانسان لتقبل خيبة الأمل ، يخفف من وقع الألم النهائي عليه . اذ ان صاحب الدعابة يكون دائماً اشبه بالانسان الذي يعهد اليه بمهمة نقل الانباء المحزنة برفق الى مريض مشرف على الموت . وكثيراً ما يؤدي التحذي اللطيف من صاحب الدعابة الى انقاذ حياة مريض مشرف على الموت . واذا كان لا بد للمثالية من ان تسير جنباً الى جنب مع خيبة الأمل في هذا العالم ، فان في وسعنا ان نقول بأن الحياة قاسية وفظيعة ، وان لا ننسب هذه القسوة الى صاحب الدعابة الذي يذكرنا بما في الحياة من قسوة .

وكنت دائم التفكير بالمعادلات التي يمكن عن طريقها التعبير عن التركيب

الآلي ، للتقدم الانساني والتبدل التاريخي . وتبدو هذه المعادلات في نظري على النحو التالي :

الواقع − الاحلام = المخلوق الحيواني

الواقع + الاحلام = مرض في القلب يسمى عادة المثالية

الواقع + الدعابة = الواقعية التي تسمى المحافظية

الاحلام − الدعابة = التعصب

الاحلام + الدعابة = الوهم

الواقع + الاحلام + الدعابة = الحكمة .

ويتضح من هذا ان الحكمة وهي اعلى مراتب التفكير ، تتولد من مزج احلامنا أو مثاليتنا باحساس صحيح من الدعابة يدعمه الواقع نفسه .

وفي وسعنا ونحن نغامر بهذا الشكل من المعادلات شبه العلمية ان نمضي في تحليل الخصائص القومية على النحو التالي . وانا اقول انها « شبه علمية » ، لانني لا اثق في قدرة كافة المعادلات الآلية الجامدة على التعبير عن أي شيء يتعلق بالشؤون الانسانية او الشخصيات الانسانية . ولا ريب في ان صياغة الشؤون الانسانية في معادلات دقيقة تظهر في حد ذاتها افتقاراً الى روح الدعابة وبالتالي افتقاراً الى الحكمة . وانا لا اقول ان ليست هناك معادلات من هذا النوع ، فهناك في الواقع معادلات . ولعل هذا هو التفسير لكثير من اشباه العلوم اليوم . وعندما يصبح في وسع عالم النفس ان يقيس نفس الانسان ، فأننا نغدو وكأننا نعيش في عالم شقي ، يقفز فيه الاخصائيون لاغتصاب الدراسات الانسانية . ولكن عندما نرى في هذه المعادلات مجرد وسائل تعبيرية سهلة لتجسيد بعض الافكار المعنية ، ولا نستخدم اسم العلم المقدس في الاعلان عن بضاعتنا ، فان مثل هذه المعادلات لا تكون ضارة . واني لاستخدم المعادلات

التالية للتعبير عن خصائص بعض الشعوب ، وهي معادلات شخصية خاصة بي ، ولا استطيع العثور على ادلة تثبت صحتها . وفي وسع اي انسان ان يعارضها أو يعدل فيها أو يستبدلها بغيرها من عنده ، شريطة ان لا يزعم قدرته على البرهنة على ارائه الخاصة بمجموعة من الحقائق والارقام الاحصائية . ولنفرض ان حرف « س » يمثل الاحساس بالواقع ، وان حرف « د » يمثل الاحلام أو المثالية وان « ش » يمثل الدعابة او روح النكتة وان « س » يمثل شدة الاحساس او الحساسية وان رقم (٤) يمثل الأفراط غير العادي في الوفرة ورقم (٣) يمثل الوفرة ورقم (٢) يمثل الشيء المعتدل ورقم (١) يمثل الشيء المنخفض ، فان في وسعنا ان نضع معادلات شبه علمية عن خصائص عدد من الشعوب . فالناس والمجتمعات يسلكون سلوكاً متبايناً طبقاً للصور المختلفة في تركيبهم ، تماماً كما يختلف سلوك العناصر الكبريتية والكربونية في اوضاع مماثلة . ولما كنا عاجزين عن ابتكار الاسماء الكيماوية للسلوك الانساني فان في وسعنا ان نعبر عما نريد قوله عن طريق الوحدات فنقول (س$_{٣}$) لنعني ثلاث وحدات من الواقع و (د$_{٢}$) لنعني وحدتين من الاحلام و (ش$_{٢}$) لتمثل وحدتين من الدعابة و (س$_{١}$) لتمثل وحدة من الحساسية وهلم جرا . وتصبح المعادلات على هذا النحو ...

الانجليزي = ي$_{٣}$ د$_{٢}$ ش$_{٢}$ س$_{١}$

الفرنسي = ي$_{٢}$ د$_{٣}$ ش$_{٣}$ س$_{٣}$

الاميركي = ي$_{٣}$ د$_{٣}$ س$_{٢}$ س$_{٢}$

الالماني = ي$_{٣}$ د$_{٤}$ ش$_{١}$ س$_{٢}$

الروسي = ي$_{٢}$ د$_{٤}$ ش$_{١}$ س$_{١}$

الياباني = ى$_{٢}$ د$_{٣}$ ش$_{١}$ س$_{١}$

الصيني = ي$_{٤}$ د$_{١}$ ش$_{٣}$ س$_{٣}$

وانا لا اعرف الكثير عن الاسبان والايطاليين والهنود وغيرهم من الشعوب ولا استطيع وضع معادلات عنهم ، معترفاً بأن هذه المعادلات التي اوردتها

مهزوزة الى حد ما ، وهي كفيلة بأن تثير عليّ موجات عاصفة من النقد . وقد تكون هذه المعادلات استفزازية اكثر منها موثوقة . ولكنني اعد بأن اعدلها بصورة متدرجة في كتاباتي ، عندما تصل بعض الحقائق الجديدة الى علمي أو اقع تحت انطباعات جديدة . ولعل كل ما تمثله الآن انها سجل لتقدم معرفتي والثغرات في مجالات جهلي .

وهناك ضرورة ماسة الى بعض الملاحظات . فمن السهل على المرء ان يلاحظ ان هناك تماثلاً الى حد كبير بين الصينيين والفرنسيين في روح النكتة والحساسية ، وهذا واضح من الاسلوب الذي يستخدمه الفرنسيون في وضع كتبهم وطهو طعامهم ، بينما تنبع الطبيعة الهوائية للفرنسيين من اغراقهم في المثالية . وهو اغراق يبدو في تعشقهم للافكار المطلقة ، كما يبدو في بيانات حركاتهم الادبية والفنية والسياسية ولا ريب في ان اعطائي رقم (ي٤) للصينيين ، يعني انني اعتبرهم اكثر الشعوب واقعية ، وان اعطائي رقم (د١) لهم ، يعني وجود بعض التحول في صورتهم عن الحياة . ولا ريب في ان الارقام العالية التي سجلتها لروح النكتة والحساسية والواقعية عند الصينيين ناشئة عن كوني واحداً منهم ، وعن وضوح انطباعاتي عنهم . وقد لا احتاج الى اكثر من التبرير لما اقوله عن حساسية الصينيين ، اذ ان قصة النثر الصيني والشعر والرسم تؤكد هذه الحساسية . ويتشابه اليابانيون والألمان في افتقارهم النسبي لروح النكتة . وهذا هو الانطباع العام عن الشعب كله . ولكن من المتعذر على اي حال ، اعطاء رقم « الصفر » لاية خاصية واحدة في أي شعب ، حتى ولا للمثالية عند الشعب الصيني . والقضية كلها نسبية ، ولا يرتكز أي قول بالافتقار الكامل الى هذه الخاصة او تلك عند أي شعب على اية معرفة وثيقة بالشعوب . ولعل هذا هو السبب الذي دفعني الى اعطاء اليابانيين والالمان رقم (١) بدلاً من « الصفر » لروح الدعابة عندهم . ولا ريب في انني محق في رأيي هذا . ولكنني اعتقد ان اليابانيين والألمان يعانون سياسياً في الوقت الراهن ، كما عانوا في الماضي من افتقارهم الى

مزيد من روح الدعابة . فالعسكري الالماني يجب ان يكون عسكرياً ويتعشق بزته العسكرية . وكثيراً ما يطوح به ايمانه بالضرورة المنطقية المقدسة . ورغبته في الوصول الى هدفه من اقصر طريق ، في مفاوز كثيرة . وليس المهم ما يؤمن بـه الانسان ، وانما المهم هو الطريقة التي يؤمن بها والتي يسير منها لترجمة ذلك الايمان الى عمل . واني لاعبر برقم (د٣) لليابانيين ، عن ولائهـم المتعصب لامبراطورهم ودولتهم ، وهـو الولاء الذي بات ممكناً من جراء افتقارهم الى روح النكتة ، فالمثالية تعـني اشياء مختلفة في البلاد المختلفة ، كما ان الاحساس المزعوم بالدعابة يضم في الواقـع عدداً متنوعاً ومختلفاً من العناصر .. وهناك تجاذب طريف بين المثالية والواقعية في امريكا . وقد اعطيت رقماً عالياً لكل منهما ، ولعل هذا هو الذي يخلق الحيوية التي تميز الامريكيين ، ولعل من الخـير ان اترك للامريكيين انفسهم تحديد ما يعنونه بواقعيتهم ، ولكن ما اود قوله ، هو انهم يتحمسون دائماً لشيء او لآخر . وقد ينطوي الكثير من هـذه المثالية على شيء مـن الفعل على اعتبار ان المثل والعبارات النبيلة تستهوي الامريكيين دائماً ، ولكن فيها ايضاً الكثير من السذاجة والبلاهة . وتعني روح النكتة عند الامريكين ايضاً ، شيئاً يختلف عنها عنـد ابناء القارة الأوروبية ، ولكنني اعتقد حقاً ، انها وهي تعني روح الدعابة والحكم السليم الواسع ، اعظم رأسمال عنـد الشعب الامريكي . ولا ريب في ان الامريكيين سيكونون في السنوات المقبلة من التبدلات الهامة ، في حاجة ماسة الى ذلك الحكم السليم الواسع الذي اشار اليه جيمس برايس[1] ، والذي يمكنهم من التغلب على الازمات الحرجة التي سيواجهونها . وقد اعطيت الامريكيين رقماً منخفضاً في حساسيتهم ، لأنني

---

(١) اللورد جيمس برايس (١٨٣٨ - ١٩٢٢) سياسي وكاتب بريطـاني . درس في جلاسجو واوكسفورد . اشتغل بالمحاماة في لندن واصبح استاذاً للقانون في اكسفورد ، ثم نائباً في مجلس العموم عـن حزب الاحرار ثم اصبح وزيراً للتجارة ، فسفيراً في واشنطن . من اشهر كتبه « الجمهورية الامريكية » و « قرنان من تاريخ ايرلندة » ، و « دراسات في التاريخ وفقـه القانون » . — المعرب —

اعتقد انهم قادرون على احتمال الكثير من المصاعب. وقد لا نجد فائدة في الاختلاف حول هذه النقطة، اذ اننا سنختلف على التعبير ليس الا. ويبدو لي ان الانجليز هم اسلم الشعوب ، فاذا قارنا بين رقم ($ي_{٣}\ د_{٢}$) عند الانجليز و ($ي_{٢}\ د_{٣}$) عند الفرنسيين ، فانني اعتقد ان الرقم الأول هو الافضل لانه يعني الاستقرار . واني لاعتقد ان المعادلة النموذجية هي ($ي_{٣}\ د_{٢}\ ش_{٣}\ س_{٢}$)، اذ ان الافراط في المثالية او الحساسية ليس بالشيء الطيب ، واذا كنت قـــد اعطيت الانجليز رقم (١) لحساسيتهم ، وهو رقم منخفض ، فان اللوم في ذلك يقع على الانجليز انفسهم . وكيف يمكـــن لي ان اقر ، ان الانجليز يحسون بأي شيء كالفرح ، والسعادة والغضب والرضى بينما هم ينظرون نظرة عابسة الى كل شيء .

وفي وسعنا ان نطبق نفس المعادلة على الكتاب والشعراء . وهذه نماذج قليلة منهم . . .

$ي_{٤}\ د_{٤}\ ش_{٣}\ س_{٤}$ = شكسبير

$ي_{٣}\ د_{٣}\ ش_{٤}\ س_{٣}$ = هايني[١]

$ي_{١}\ د_{٤}\ ش_{١}\ س_{٤}$ = شيلي[٢]

$ي_{٣}\ د_{٤}\ ش_{١}\ س_{٤}$ = بو[٣]

---

(١) هنريخ هايني (١٧٩٧ — ١٨٥٦) — شاعر وصحفي الماني . ولد من اصل يهودي . عمل في الصيرفة مع عمه في همبورج ، ثم درس القانون في بون وظهرت مواهبه الادبية. تتلمذ على هيجل . من اشهر دواوين شعره « ماتيلدا » . وله عدد من المسرحيات الشعرية .
— المعرب —

(٢) بيرسي بيسي شيلي (١٧٩٢ — ١٨٢٢) شاعر انجليزي كبير . درس في ايتون حيث اشتهر بشيء من الشذوذ والجنون . تعلم الاغريقية واللاتينية بسرعة هائلة ، ثم نبغ في الشعر . من اشهر دواوينه وقصائده « الملكة ماب » و « روزاليند وهيلين » و « ادونيس وهيلاس » .

(٣) ادجار الان بو (١٨٠٩ — ١٨٤٩) — شاعر امريكي وكاتب وناقـــد ، ولد في بوسطن . عمل في التجارة في صباه ثم تحول الى الادب. نظم الكثير من الشعر ومن اشهر قصائده « انا بيل لي » و « الاجراس » و « وتيمورلنك » وغيرها . — المعرب —

$ي_{١}$ $د_{٣}$ $ش_{٢}$ $س_{٤}$ = لي بو[١]

$ي_{٣}$ $د_{٣}$ $ش_{٢}$ $س_{٤}$ = توفو

$ي_{٣}$ $د_{٢}$ $ش_{٤}$ $س_{٣}$ = سوتونجبو

وليست هذه المعادلات اكثر من مجرد افتراضات تفتقر الى التثبيت والتأييد ولكن من الواضح ان جميع الشعراء يتميزون بحساسية طاغية والا لما كانوا شعراء على الاطلاق . واني لاعتقد ان بو عبقري عظيم بالرغم من طبيعته الخيالية الغريبة . او لم يكن يميل الى الاستدلال والاستقراء ؟

ويتضح من هـــذا ان معادلتي للانسان الصيني بوجه عام تكون على النحو التالي $ي_{٤}$ $د_{١}$ $ش_{٣}$ $س_{٣}$.

ولنبدأ برقم ($س_{٣}$) الذي يمثل الكثير من الحساسية التي تضمن اسلوبـــاً فنياً مناسباً للحياة ، وتفسر تأكيد الصينيين على ان هذه الحياة الدنيوية جميلة ، وان من واجبنا والحالة هذه ان نحبها اشد الحب . ولكن هذا الرقم يعني اكثر من هـــذا ، فهو يرمز في الواقع ايضاً الى النهج الفني في الفلسفة . وهو يعني ايضاً ان نظرة الفيلسوف الصيني الى الحياة ، هي عين نظرة الشاعر ، وان الفلسفة في الصين مشتركة مع الشعر لامع العلم كما هو وضعها في الغرب . ويتضح من كل ما ينشأ عن هذا الاشتراك ، ان تكون هذه الحساسية الزائدة ، تجاه مسرات الحياة وآلامها ، وتجاه تبدل الوانها وثباتها ، هو الاساس الذي يمكن الصين من خلق فلسفة مرحة . فاحساس الانسان بما في الحياة من مأساة انمـــا ينبع من ادراكه الحسي لمأساة الربيع الذي يوشك على الانصراف . واحساسه بالاشفاق الرقيق على الحياة، ينبع من اشفاقه على الاغصان الذابلة التي كانت يانعة ومزهرة

---

(١) لي بو (٧٠٥ – ٧٦٢) – شاعر الصين العظيم . اشتهر بالأسى الذي ساد شعره ، والذي عكس فيه حياة المكائد والدسائس في القصر الذي كان احد افراده.

المعرب

بالأمس . فهناك اولاً الحزن والاحساس بالهزيمة ثم اليقظة والضحك من جانب ذلك الفيلسوف الوغد العجوز .

وقد اعطيت الصيني ايضاً رقم (ي٤) ، لأعني به افراطاً في الواقعية ، وموقفاً من التقبل للحياة على علاتها ، واعتبار ان « العصفور في اليد خير من عشرة على الشجرة » . ولا ريب في ان هذه الواقعية تعزز وتكمل تأكيد الفنان بأن هذه الحياة جميلة للغاية ، كما تجنبه وتجنب الشاعر ايضاً محاولة الفرار من الحياة . يقول الحالم ... « ليست الحياة الا حلماً » فيرد عليه الواقعي ... « اجل انها حلم ، ولكنها حلم جميل ، وعلينا ان نعيش هذا الحلم باقصى ما نستطيع من ارادة » . ولكن واقعية هذا المستيقظ من الحلم ، هي واقعية الشاعر لا رجل الاعمال ، كما ان ضحكات ذلك الوغد العجوز ليست بضحكات ذلك الشاب الطامع الذي يشق طريقه الى النجاح مرحاً ، رافعاً رأسه ، وحازماً ارادته ، وانما هي ضحكات ذلك الرجل العجوز الذي يمرر اصابعه في ذقنه ممعناً في تفكيره ، ومتحدثاً بصوت يكاد يشبه الهمس . ويحب مثل هذا الحالم الهدوء والسلام . اذ لا يمكن للمرء ان يناضل بقسوة من اجل مجرد حلم . وهو يؤثر ان يعيش هادئاً وبصورة منطقية مع زملائه من الحالمين . وهكذا يضعف ما في الحياة من توتر شديد .

ولكن المهمة الرئيسية لمثل هذا الاحساس بالواقعية تكون في القضاء على كل ما هو تافه في فلسفة الحياة، والهبوط بالحياة والتعلق بها، مخافة ان تحملها اجنحة الخيال الى عالم وهمي قد يكون جميلاً ولكنه يخلو من الواقع . وتتألف حكمة الحياة على أي حال من القضاء على كافة التوافه ، والتقليل من عدد مشاكل الفلسفة، والاحساس بالتنعم في حياة البيت مع المرأة والاطفال، والتمتع بالعيش والطبيعة والثقافة ، واستبعاد كافة الانظمة العلمية التي لا صلة لها بالانسان والمجالات الاخرى غير المجدية من المعرفة . وهكذا تغدو مشاكل الحياة عند الفيلسوف الصيني قليلة وبسيطة الى حد يثير الدهشة .وهي تعني في الوقت

نفسه الضيق بالغيبيات، والملل من المعرفة التي تؤدي الى اي اثر عملي على الحياة نفسها . وهي تعني ايضاً ، وجوب اخضاع كل نشاط انساني ، سواء أتمثل في اكتساب المعرفة او اكتساب اي شيء آخر، فوراً الى محك تجربة الحياة نفسها، وتسخيره لخدمة اهداف العيش . وهنا لا بد من التأكيد على نتيجة في منتهى الاهمية ، وهي ان غاية الحياة، ليست كياناً غيبياً ، بل هي العيش نفسه .

وهكذا تغدو الفلسفة عند الصينيين وقد حبيت بهذه الواقعية ، وبهذا الانكار العميق للمنطق والادراك نفسه ، قضية احساس مباشر ووثيق بالحياة نفسها ، وترفض ان يضمها اي نظام . فهناك احساس قوي بالواقع ، انه احساس حيواني صاف، بل انه روح من العقلانية التي تسحق العقل نفسه وتجعل من المتعذر خلق اي نظام فلسفي ثابت . وهناك اديان الصين الثلاثة وهي الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية ، وكلها اديان رائعة في حد ذاتها ولكن الحكم السليم والقوي على الامور يضعف منها ، ويحولها كلها الى شيء عادي ، هو مجرد البحث عن حياة انسانية سعيدة . والصيني الناضج ، هو ذلك الانسان الذي يرفض دائماً ، الاصرار على فكرة ، او الايمان برأي واحد ، او عقيدة او فلسفة ايماناً كاملاً . وعندما سمع كونفوشيوس من احد اصدقائه ، بأنه يفكر ثلاث مرات قبل ان يعمل اي عمل ، رد هذا بقوله ان التفكير مرتين امر كاف للغاية . والطالب في احد معاهد الفلسفة ليس الا تلميذ فلسفة ، اما الانسان فهو تلميذ بل استاذ في الحياة نفسها .

ويمكن تلخيص الثمرة النهائية لهذه الثقافة والفلسفة فيما يلي : يعيش الانسان في الصين عند مقارنته بانسان الغرب ، حياة اقرب الى الطبيعة ، والى الطفولة ، تتحدر فيها الغرائز والعواطف ، وتتجسد اكثر من تجسيد حياة الادراك ، مع مزيج غريب من الاخلاص للجسد ولغطرسة الروح ، ومن الحكمة العميقة والمرح الاعمق ، ومن التفلسف الرفيع والسذاجة الصبيانية . واني لأود ان اقول والحالة هذه ان هذه الفلسفة تتميز اولاً بالقدرة على رؤية الحياة كلها في

الفن ، وثانيا بالعودة الواعية المتعمدة الى البساطة في الفلسفة ، وثالثاً بنموذج من العقلانية في الحياة . وليست الثمرة النهائية ، وهنا مكمن الغرابة ، الا عبادة الشاعر والفلاح والافـاق .

٣ – المشاكس كنموذج

وانا كرجل اجمع بين الشرق والغرب ، ارى ان كرامة الانسان تتمثل في الحقائق التالية التي تميز الانسان عن الحيوان . اولى هـذه الحقائق ان الانسان يتميز بفضول كثير الحركة وبعبقرية طبيعية في استكشاف المعرفة . أما الحقيقة الثانية فهي ان له احلاماً ومثالية رفيعة قد تكون غامضة أو مشوشة أو بذيئة احياناً ولكنها كريمة في الغالب . أما الحقيقة الثالثة والاكثر اهمية فهي انه قادر على تقويم احلامه بشيء من روح النكتة ، فيكبح بذلك جماح مثاليته بواقعية اكثر قوة وسلامة . واما الحقيقة الرابعة والاخيرة ، فهي انـه لا يتأثر ببيئته تأثراً آلياً وبصورة موحدة كالحيوانات وانمـا يملك القدرة والحرية على تقرير تأثراته وتغيير بيئتـه بمحض ارادته . ولا ريب في ان الحقيقة الاخيرة تعني ان الشخصية الانسانية هى اقل الأمور خضوعاً للقوانين الآلية . فالعقل الانساني يتصف بالمرونة الدائمة ، وعدم الثبات ، وهو يستطيع الخلاص من القوانين الآلية او المادية التي يحاول بعض علماء النفس والاقتصاد فرضها عليه . ولذا فالانسان مخلوق غريب حالم محب للدعابة ومشاكس .

ويمكن تلخيص ما اعتقده ، بان الانسان في نظري هو اكثر مخلوق مشاكس في العالم . ومن الواجب الربط بين الكرامة الانسانية وبين فكرة المشاكسة ، لا بينها وبين فكرة الجندي المطيع والمنضبط ، والمنسجم مع غيره من فرقـة واحدة . ويعني هـذا المفهوم ان المشاكس هو ارفع طرار من المخلوقات وان

المطيع هو ادناهـــا . ويبدو ان كثيرين من الذين قرأوا كتابي الاخير « وطني وشعبي » . خرجوا بانطباع واحد ، وهو انني احاول تمجيد شخصية « الوغـد العجوز » . وكلي أمل في ان يخرج قراء هذا الكتاب بانطباع آخر وهو انني احاول تمجيد شخصية الافاق أو المشاكس . فالامور ليست من البساطة كما تبدو احياناً . ففي هذا العصر الذي تتهدد فيه الحرية الفردية ، فان روح المشاكسة هي وحدها القادرة على انقاذنا من ان نغدو جد طبعيين وامعّات ، ومغرقين في الانضباط . وستكون المشاكسة هي آخر واقوى عدو للاستبداد . وسيظل المشاكس حامي الكرامة الانسانية والحرية الفردية ، كما سيظل امنع انسان على الرضوخ ، ولذا فان الحضارة العصرية كلها تعتمد عليه .

ويبدو ان الله الخلاق عندما خلق الانسان على هذه الارض ، كان يعرف انه يخلق مخلوقاً مشاكساً . ولا ريب في ان خصائص المشاكسة عند الانسان هي افضل خصائصه . ولا ريب في ان هذا المشاكس الذي خلقه الله ، انسان لامع حقاً فهو انسان عسير القياد ، غريب الطباع ، يظن نفسه اكثر حكمة واعظم قدراً من حقيقته ، وهو مجبول على الشر والاذى والخواء وحب الحرية . ولكنه مع ذلك ينطوي على الكثير من الطيبة بحيث ركز الخالق فيه آماله ، كما يضع الوالد احياناً جماع آماله ، في ولد له في العشرين من عمره ، كثير الاخطاء ولكنه لامع الذكاء . ترى هل يفكر الخلاق في الانسحاب يوماً مـا ليكل امر ادارة هذا الكون الى هذا الولد ؟ لا ادري . . .

واذا تحدثت كصيني ، فانني لا ارى في الامكان اطلاق صفة الكمال على اية حضارة ، الا اذا انتقلت من مرحلة التفلسف الى مرحلة الخلاص منه ، وعادت عودة واعية الى البساطة في التفكير والعيش . وانا لا انعت أي انسان بالحكمة الا اذا انتقل هذا الانسان من حكمة المعرفة الى حكمة الحماقة ، واصبح فيلسوفاً ضاحكاً ، يحس أول ما يحس بمأساة الحياة ثم بملهاتها . فعلينا ان نتعلم البكاء قبل

ان نتعلم الضحك . فاليقظة تنطلق من الحزن ، وضحك الفيلسوف ينطلق من يقظته ، مشفوعاً بالعطف والتسامح .

والعالم مغرق في الجد ، ويتطلب هذا الاغراق في الجد فلسفة حكيمة ومرحة . ويمكن تسمية فلسفة فن الحياة عند الصينيين باسم « العلم المرح » ، اذا كان في الامكان تسمية أي شيء بذلك التعبير الذي استخدمه نيتشه[1] . فالفلسفة المرحة هي على أي حال الفلسفة العميقة ، أما الفلسفات الجادة في الغرب ، فلم تشرع بعد في فهم ما تعنيه الحياة . والمهمة الوحيدة للفلسفة في رأيي ، هي ان تعلمنا كيف ننظر الى الحياة نظرة اكثر مرحاً من نظرة رجل الاعمال العادي اليها ، اذ لا يمكن لأى رجل اعمال لا يتقاعد عن العمل عندما يبلغ الخمسين من عمره ، اذا استطاع ان يكون فيلسوفاً في نظري . وليست هذه الفكرة عارضة عندي ، وانما هي من الاراء الاساسية التي احملها . ولا يمكن للعالم ان يصبح مكاناً هادئاً ومعقولا يعيش فيه الانسان الا اذا سيطرت عليه هذه الروحية المرحة . فالانسان العصري ، يفرط في النظرة الجدية الى الحياة ، ولا ريب في ان هذا الافراط فيها ، يجعل العالم مليئاً بالمتاعب في نظره . وعلينا والحالة هذه ان نجد الوقت الكافي للتحري عن جذور هذا الموقف ، اذ ان مثل هذا التحري يساعدنا على التمتع تمتعاً صادقاً بالحياة ، ويجعل من امزجتنا أكثر عقلا وهدوءاً واقل التهاباً .

---

(١) فريدريك ويلهلم نيتشه (١٨٤٤ – ١٩٠٠) – فيلسوف الماني يمت الى اسرة بولونية عريقة . اصبح استاذاً في جامعة بال وهو في الرابعة والعشرين . اصيب بالجنون في اخريات ايامه، تقوم فلسفته على اعتبار الانسانية مؤلفة من طرازين ، يختلف احدهما عن الآخر اختلافاً بينا ، هما طراز الاقوياء وطراز الضعفاء ، أو السادة والعبيد ، أو النبلاء والدهماء . ويقوم الصراع بينهما على اساس الاخلاق التي يؤيد نيتشه قوتها ، ولذا فقد حمل على المسيحية لانها تدعو كما قال الى اخلاق العبيد .

المعرب

ولعل من حقي ان اطلق على هذا الاتجاه اسم فلسفة الشعب الصيني ، لا اسم أية مدرسة فلسفية اخرى . فهي فلسفـــة اعظم من كونفوشيوس واعظم من لاوتسي[1] إذ انها سبقت في ظهورها هذين الفيلسوفين وغيرهما من الفلاسفة القدامى. وهي تستمد حياتها من ينابيع الفكر ، مكيفة نفسها في كل منسجم ، وخالقة من الخطوط العريضة والمطلقة لحكمتها فن الحياة يرتبط في كيان الانسان العادي الذي يحس به ويتذوقه ويفهمه . ولما كنت قد رجعت الى آداب الصين وفنونها وفلسفتها ، فقد اتضح لي ان الرسالة التي تشترك في حملها وتعليمها ، تتلخص في تمتع صادق بالحياة ، ولامبالاة حكيمة ، وعاقلة ، وتتجسد في فكر صيني ثابت ومستقر ومتميز .

٢

آراء في الجنس البشري

١ – الآراء المسيحية والاغريقية والصينية

هناك عدة آراء مختلفة عن الجنس البشري ، منها الرأي المسيحي الديني التقليدي ، والرأي الاغريقي الوثني ، والرأي الصيني الطاوي – الكونفوشيوسي. ولم اذكر الرأي البوذي هنا ، لأنه رأي جد حزين . واذا اخذنا الناحية الرمزية بعين الاعتبار . فان هذه الاراء ، لا تختلف عن بعضها كبير اختلاف ، ولا سيما عندما يتناولها الانسان العصري الذي توافرت له المعرفة الحياتية والجنسية الفضلى بتفسيرات اكثر شمولاً . ولكن مثل هذه الفروق قائمة في اشكالها الاصلية الأولى .

ويقول الرأي المسيحي التقليدي المستقيم ان الانسان خلق اول ما خلق كامل الصورة ، بريء الطباع ، يجمع بين الحمق والسعادة ، ويعيش عارياً في جبة عدن . وسرعان ما ظهرت المعرفة والحكمة ، ووقع الانسان في الخطيئة

التي نتجت آلامه بسببها ومنها اولاً عمل الرجل وعرقه من اجل كسب عيشه وثانياً ما تنحمله المرأة من آلام في حملها . وقد ظهر عنصر جديد يفسر ما طرأ على براءة الانسان الاصلية وكماله من مناقضة ومفارقة، ويشرح ما فيه من عيوب راهنة ، وهو عنصر الشيطان بالطبع ، الذي يؤدي عمله في جسم الانسان ، بينما تعمل طبيعته السامية في روحه . ولا اعرف بالضبط الموعد الذي تم فيه ابتكار تعريف «الروح» في تاريخ اللاهوت المسيحي ، ولكن ما اعرفه ان هذه الروح باتت اكثر من مجرد «وظيفة » من الوظائف ، وغدت كياناً قائماً بنفسه ، لا حالة من الحالات ، وفصلت فصلاً واضحاً بين الانسان والحيوانات التي لا تملك أي روح تستحق الخلاص . وهنا يتوقف عمل المنطق . فأصول الشيطان في حاجة الى الايضاح ، وعندما شرع علماء اللاهوت في القرون الوسطى بما تميزوا به من منطق دراسي معهود ، في معالجة المشكلة ، راحوا يقعون في ورطة محيرة . فلم يكن في وسعهم ان يعترفوا بأن الشيطان الذي لا يعتبر الهاً ، قد خلق من الله نفسه ، كما لم يستطيعوا الموافقة على ان الشيطان في عالم الخليقة ، وهو ليس باله ، يشترك في خلوده مع الله . وهداهم يأسهم من العثور على حل ، الى الاتفاق على ان الشيطان « ملاك مذنب ضال » ، ولكن هذا التفسير ما زال يفتقر الى حل مشكلة اساس الشر في العالم ، اذ لا بـــد من وجود شيطان آخر تولى غواية هذا الملاك المذنب . ولكنهم آثروا الوقوف عند هذه النقطة غير المقنعة . ولكن نبع من كل هذا الانفصام الغريب بين الروح والجسد ، وهو مفهوم اسطوري ما زال سائداً وقويـــاً حتى اليوم عند الكثيرين ويؤثر على فلسفتنا عن الحياة والسعادة [١] .

---

(١) ادى تطور الفكر العصري في العالم المسيحي الى الخلاص من نظرية الشيطان . واني لأعتقد ان اقل من خمسة في المائة من المسيحيين المتحررين الذين ما زالوا يؤمنون حتى اليوم بالله بصورة او بأخرى ، ما زالوا يؤمنون بوجود الشيطان الا في شكل مجازي . وبدأ الايمان بوجود جهنم فعلية يختفي قبل اختفاء الايمان بوجود الجنة .

المؤلف

وسرعان ما ظهرت عقيدة « الافتداء » او « القربان » ، وقـد اقترضت جذورها من المفهوم الشائع عن « خروف القربان » ، وهو المفهوم الذي يعود الى فكرة قديمة وهي ان الله كان يحب رائحة الشواء ، وان الغفران لا يمكن ان يتم بلا مقابل . وهكذا حققت نظرية « الافتـداء » بضربة واحدة . العثور على وسيلة واحدة لغفران جميع الخطايا ، والوصول الى طريق مؤد الى عودة الكمال الانساني من جديد . ولا ريب في ان فكرة الكمال ، تعتبر اكثر ناحية غرابة في الفكر المسيحي . ولما كانت هذه الفكرة قد ظهرت ابان فترة انهيار العوالم القديمة ، فقد نشأ ميل لتأكيد ما بعد الحياة ، وحلت فكرة الخلاص محل قضية السعادة أو مجرد العيش . وتلخصت الفكرة في طريق الخروج على قيـد الحياة من هذا العالم الذي بدا وكأنه يغرق في الفساد والفوضى ويؤول الى الفناء . ومن هنا برزت الاهمية التي علقوها على الخلود . ويعتبر هـذا الرأي مناقضة لقصة الخليقة الاصلية ، وهي ان الله لم يرد للانسان الخلود في الحياة . ولا ريب في ان السبب الذي تورده قصة الخليقة عن سبب خروج آدم وحواء من الجنة لم يكن لانهما قد اكلا من شجرة المعرفة ، كما هو معروف وشائع ، بل خشية ان يعودا الى المعصية مرة ثانية فيأكلا من شجرة الحياة ، ويضمنا الخلود .

وفي هذا يقول سفر التكوين ... « وقال الربّ الاله ، هوذا آدم قد صار كواحد منا يعرف الخير والشر ، والآن لعله يمد يده فيأخذ من شجرة الحياة ايضاً ، ويأكل فيحيا الى الدهر . فاخرجه الرب الآله ، من جنة عدن ليحرث الارض التي اخذ منها . فطرد آدم واقام شرقي جنة عدن الكروبين ، وبريق سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة » (سفر التكوين – الفصل الثالث – ٢٢ – ٢٤) .

ويبدو ان شجرة المعرفة كانت في مكان ما في وسط الجنة ، أما جنة الحياة فكانت على مقربة من مدخلها الشرقي حيث نعرف ان « الكروبين » ما زالوا يقومون ليحولوا دون وصول الانسان اليها .

وهناك بالاجمال ايمان لا يزال قائماً بالحرمان . وان التمتع بهذه الحياة ، خطيئة وشر ، وان احتمال الشقاء فضيلة ، وان الانسان لا يستطيع ان يخلص نفسه الا بمساعدة قوة خارجية عظمى . وما زالت عقيدة الخطيئة هي الفرضية الاساسية في المسيحية على النحو الذي تطبق فيه في يومنا هذا ، ونحن نرى ان الارساليات التبشيرية المسيحية ، وهي تحاول التبشير بدينها ، تركز عملها أول ما تركزه بصورة عامة ، على فرض الوعي على من تسعى الى تحويلهم الى المسيحية ، بالخطيئة ، وبشرور الطبيعة الانسانية ، وذلك لتبين لهم ان العلاج موجود في جيبها وهو التحول الى المسيحية . ويتضح من هذا انه لا يمكن حمل الانسان على التحول الى المسيحية ، قبل حمله على الاعتقاد بأنه والغ في الخطيئة . وقد وصف احدهم هذا الوضع بشيء من القسوة فقال ... « ضاقت آفاق الدين في بلادنا الى حد انه اصبح مجسداً في الخطيئة ، ولذا فقد بات الرجل الذي يحترم نفسه ، لا يجرؤ على الظهور في الكنيسة » .

أما العالم الوثني الاغريقي فكان عالماً جد مختلف ، ولذا فإن مفهومه عن الانسان يختلف كثيراً عن المفهوم المسيحي . ولعل ما يثير استغرابي ان قدماء الاغريق حاولوا ان يصوروا آلهتهم بصورة البشر ، بينما سعى المسيحيون الى تصوير البشر على صورة الله . ولا ريب في ان تلك الجماعة من الآلهة التي كانت تقيم على جبل الاوليمب ، كانت مجموعة من الرموز المرحة والعاشقة والمحبة ، والكاذبة ، والكثيرة الشجار ، والنكث بالعهود ، والمشاكسة . فهي تعشق الصيد وتركب العربات وتقذف السهام تماماً كالاغريق انفسهم ، وهي تكثر من التزاوج ، وتلد العديد من الاولاد غير الشرعيين . ولعل الفروق الوحيدة بين الآلهة والناس ، هي ان الآلهة كانت تملك سلطات سماوية في ارسال الصواعق من السماء ، وانبات الزرع في الارض ، وكانت تتمتع بالخلود ، وتشرب الرحيق القدسي بدل الخمر . وفي وسع المرء ان يتصور نفسه واحداً من هذا الجمع من الآلهة ، وان يذهب الى الصيد مع الاله « ابولو » او الالهة « اثينا » ، أو يوقف

عطارد وهو في طريقه ليتحدث اليه كما يتحدث الى أي فراش عادي من فراشي مؤسسة امريكية، فاذا ما طال امر الحديث وتشعب، سمع عطارد يقول له...

« حسن ... اني آسف، فعلي ان اسرع لنقل هذه الرسالة التي احملها الى الشارع الثاني والسبعين » . ويتبين من هذا ان انسان الاغريق لم يكن مقدساً ، وان آلهتهم كانت انسانية . حقاً انها تختلف كل الاختلاف عن الاله المسيحي الكامل . وهكذا كانت الآلهة مجرد عنصر آخر من الناس بل من العمالقة ، حبي افراده بالخلود . بينما لم يحب انسان الارض بهذه النعمة . ونبعت من هذه الجذور قصص من اروع القصص بينها قصص ديميتر[1] وبروسربينا[2] واورفيوس[3]. وكان الايمان بالآلهة أمراً يسلم بـــه الجميع حتى سقراط نفسه ، اذ عندما اشرف على ارتشاف السم ، أهرق قليلا من الخمر على الارض تقرباً الى الالهة لتسرع به في رحلته منهذا العالم الى العالم الثاني. وكان هذا الوضع شبيها بموقف كونفوشيوس. كان هذا هو الوضع الحتمي في تلك الايام ، أما موقف الروح الاغريقية في العالم المعاصر من الانسان والله ، فليس في امكان احـد تصويره او تقديره . فالعالم

---

(١) و (٢) من اساطير الاغريق . كانت ديميتر ابنة كرونوس وربا واخت زيوس كبير الالهة. وقد ولدت بروسبيرين ، التي قيل ان بلوتوس اله العـالم السفلي قـد خطفها وهي تجمع الازاهير . وعندما سمعت ديميتر بنبـأ الخطف هجرت جبل الاولمب ونزلت الى الارض حيث عاشت مع البشر ، وان كان غضبها قد حمل القحط الى الدنيا . وعندما وعدها زيوس بان تزورها ابنتها ثلثي السنة من كل عام خف غضبها ، وعادت الى الارض وفرتها .

(٣) اورفيوس -- من اساطير الاغريق ايضاً ابن اياجاروس من الهـة الشعر كاليوبي . اشهر شعراء الاغريق قبل هومر . عاش في تراقيا . وقد تلقى قيثارة هدية من ابولو كان يعزف عليها باستمرار ، فتثير الحـانه شجن الانهار والصخور ، بروائعها . وقد تزوج يوريديس وهي احدى عرائس البحار ، فماتت بعد ان لدغها ثعبان وراح اورفيوس يهبط الى العالم السفلي لانقاذها وساعده عزفه في الدخول الى الجحيم كما سمح له بحمل حبيبته والصعود بها شريطة ان لا يتطلع وراءه حتى يصل العالم العلوي . ولكنه خالف الشرط فعادت زوجته الى مكانها .

المعرب

الوثني الاغريقي ، لم يكن معاصراً ، كما ان العـــالم المسيحي المعاصر ليس بالاغريقي . وهنا تكمن الصعوبة .

وقد ارتضى الاغريق الفكرة القائلة بعـــدم خلود الانسان وانه كثيراً ما يتعرض الى القضاء القاسي والفظيع . ولما كان الانسان قد ارتضى هذه الفكرة ، فقد احس بالسعادة ، وذلك لأن الاغريق احبوا هذه الحياة وهذا الكون ، وكانوا كثيري الاهتمام بتفهم كل ما هو خير وصحيح وجميل في الحياة ، بالاضافة الى انشغالهم الكامل في التفهم العلمي للعالم المادي . ولم تكن لديهم اية اسطورة عن « العهد الذهبي » في جنة عدن ، ولا اية صورة رمزية لخطيئـة الانسان . فالهلينيون ليسوا الا مخلوقات بشرية تحولت من الحصى التي قذف بها دوقاليون وزوجته بيرا وهما يهبطان من السماء الى السهل بعد الطوفان الكبير . وكانوا يفسرون الامراض والهموم تفسيراً ساخراً ، اذ انها نبعت من الرغبة الجامحة عند امرأة شابة هي باندورا في ان تفتح صندوق الجوهرات لترى ما بداخله . وكان خيـال الاغريق في منتهى الجمال . فقد قبلوا الطبيعة الانسانية كما هي ، وقد يقول عنهم المسيحيون انهم ارتضوا طبيعتهم الفانيـــة لانهم لم يستطيعوا رفضها . ولكنهم كانوا يرون الجمال في هذه الطبيعة الفانية ، ففيها مجال فسيح لممارسة الفهم ، وتحرك الروح الحرة الواسعة التأمل . وقد رأى بعض الصوفيين الخير في الطبيعة الانسانية بينما رأى بعضهم الشر فيهـا ، ولكن لم يكن بين هؤلاء واولئك ، نفس الخلاف الواضح الذي قـــام بين هوبس[١] وروسو[٢] .

(١) توماس هوبس (١٥٨٨ - ١٦٧٩) - فيلسوف بريطاني . درس في اكسفورد . تتلخص فلسفته السياسية في كتابه « العملاق » بأن الشهوات والرغبات هي التي تحرك الانسان . ولما كان جميع الناس يندفعون في سبيل تحقيق رغباتهم ، تغدو الايثارية مفقودة ، ويكون الصراع هو اساس الحياة . ولذا على الانسـان ان يجد العلاج ، بالاتفاق مع رفاقـــه على الاذعان لسلطة اقوى وهي الحكومة .

(٢) جان جاك روسو (١٧١٢ - ١٧٧٨) - فيلسوف فرنسي ، اشتهر بكتابة « العقد الاجتماعي» وتقوم نظريته على ان من واجب الفرد ان يتخلى عن حقوقه الطبيعية الى المجموع كله، تحت اشراف وتوجيه « الارادة العامة » لهذا المجموع . المعرب

ورأى افلاطون اخيراً ان الانسان مجموعة من الرغبات والعواطف والافكار ، وان الحياة الانسانية المثالية ، تتمثل في الانسجام الحياتي بين هذه الاجزاء الثلاثة من وجود الانسان بتوجيه من الحكمة أو التفهم الصادق. واعتقد افلاطون بخلود الافكار ، أما الارواح الفردية فتختلف بين النبل والضعة باختلاف حبها للعدل والعلم والاعتدال والجمال . واكتسبت الروح عند سقراط كما يحدثنا على لسان فيدو شيئاً من الوجود الخالد والمستقل فهو يقول ... « وعندما توجد الروح وحدها ، متحررة من الجسد ، ويتحرر الجسد من الروح . الا يعني هذا الموت ؟ » . ومن الواضح ان النظريات المسيحية والاغريقية والطاوية والكونفوشيوسية تشترك في الايمان بخلود الروح الانسانية، ومن واجب المؤمنين المعاصرين بخلود الروح ان لا يجادلوا على أي حال التمسك بهذا القول . فايمان سقراط بالخلود قد لا يعني شيئاً للرجل الحديث . اذ ان الكثير من النظريات التي اوردها للتدليل على صحة هذا الايمان كعودة الحلول مثلاً ، لا يؤمن بها الرجل الحديث .

وتوصلت النظرة الصينية الى الانسان الى نفس الفكرة ، وهي ان الانسان سيد الخليقة . فالانسان في الفلسفة الكونفوشيوسية يعتبر معادلاً للسماء والارض في « ثالوث الخليقة » . والاساس في هذه النظرة هو الروح ، فهي موجودة وحية في كل شيء ، من جبال وانهار بل وكل شيء طاعن في العمر . وما الرياح والرعود الا ارواح في حد ذاتها ، وهناك روح تملك كل جبل عظيم او كل نهر كبير وتتحكم فيه ، ولكل زهرة جنيّتها الخاصة بها في السماء . تعني بمواسم تفتحها وسعادتها ، كما ان هناك « ملكة الازاهير كلها » التي يصادف عيد ميلادها اليوم الثاني عشر من الشهر القمري الثاني، وتحصل كل شجرة من اشجار الصنوبر أو السنديان أو السرو تعيش مئات السنين ، بل وكل ثعلب أو سلحفاة يطعنان في السن، على مرتبة الخلود، وترتفع هذهالشجرة او ذلك الثعلب او تلك السلحفاة الى مرتبة الروح المعبودة المسيطرة .

ومن الطبيعي مع وجود هذا الاساس الروحي ، ان يعتبر الانسان ايضاً مجسداً للروح . وتنتج هذه الروح كأي حياة في الكون كله عن الاتحاد بين العنصر الموجب الفعّال والمذكر وبين العنصر السلبي والجامد والمؤنث . وهي عملية تشبه الى حد كبير عملية التزاوج بين السالب والموجب في توليد الكهرباء . وعندما تتجسد هذه الروح في جسم بشري، يطلق عليها اسم « بو » ، اما عندما تكون منفصلة عن الجسد وتسبح كروح في الفضاء فانها تسمى « هوين » . ويقال للرجل صاحب الشخصية او الروح القوية انه يملك الكثير من « البولي » او من «حيوية الروح» . وتواصل هذهالروح المنفصلة بعد الموت طوافها وتجوالها. وهي لا تضايق الناس عادة ، ولكن اذا لم يدفن الناس موتاهم ، ولم يقدموا القرابين عنها ، فان ارواحها تصبح « اشباحاً جائلة » ، ولهذا يخصص يوم لجميع الأرواح في اليوم الخامس عشر من الشهر القمري السابع ، نقدم فيه القرابين العامة عن اولئك الذين غرقوا في الماء او ماتوا دون ان يدفنوا في بلاد غريبة . واذا كان الميت قتيلاً ، أو مات متأثراً من اذى لحق به ، فان الاحساس بالظلم عند الشبح يرغمه على الاستمرار في الطواف خالقاً المشاكل الى ان يتم الانتقام للاساءة ، وترضى الروح . وآنذاك تتوقف المشاكل .

ويملك الانسان في حياته ، وهو روح تتجسد في جسد ، بحكم الحتمية ، عواطف ورغبات ، وفيضاً من الحيوية الجياشة « أو اذا ما شئنا التبسيط في التعبير « حيوية عصبية » . وقد لا تكون هذه الحيوية سيئة او طيبة في حد ذاتها ، ولكنها على أي حال شيء لا ينفصل عن الحياة الانسانية المميزة . فلجميع الرجال والنساء عواطفهم ورغباتهم الخاصة ، ومطامحهم النبيلة ، كما ان لهم ايضاً ضمائرهم . ولهم كذلك رغباتهم الجنسية واحساسهم بالجوع والخوف والغضب ، وتعرضهم للمرض والألم والعناء والموت . وتكون مهمة الثقافة خلق التعبير المنسجم عن هذه العواطف والرغبات ، وهذا هو الرأي الكونفوشيوسي الذي يؤمن اننا بعيشنا بانسجام مع هذه الطبيعة الانسانية

المتاحة لنا ، نستطيع ان نصبح معادلين للنعيم والجحيم كما سنذكر في نهاية الفصل السادس . ويعتقد البوذيون ، كما اعتقد مسيحيو القرون الوسطى ان الرغبات الفانية للجسم ليست الا مزعجات يجب الخلاص منها . ويقبل الاذكياء من الرجال والنساء أو الذين يميلون الى الاكثار من التفكير ، هـــذا الرأي ويتحولون الى رهبان وراهبات، ولكن الحكم الكونفوشيوسي السليم على الأمور يحول دون ذلك . وهنا وبلمسة طاوية تعتبر الفتيات الجميلات والموهوبات اللائي يتعرضن الى مصير قاس ، « جنيات مذنبـــات » عوقبن لحملهن أفكاراً دنيوية فانية ، أو لإهمالهن القيام ببعض واجباتهن في السماء ثم بعثن الى هــذه الارض ليعشن حياة مقدرة من الآلام البشرية .

ويعتبر ادراك الانسان فيضاً من فيوض الحيوية . وليس هذا الادراك في الوقع الا « الروح الحامية » على اعتبار أن للثعلب روحه الحامية وللصخرة روحها الحامية ولشجرة الصنوبر روحها . ولعل اقرب تعبير انجليزي مرادف هو « الجيشان الحيوي » كما قلت أو « الحيوية العصبية » ، التي تمـد وتجزر ، في اوقات مختلفة من النهار ومن حياة الشخص . ويبدأ كل انسان يخلق في هـذا العالم حياته بقدر من العواطف والرغبات وهذه الحيوية الجياشة ، وكلهـا تسير في طرقهـا الخاصه بها وفي حلقات مختلفة عبر سني الطفولة والشباب والنضج والكهولة والموت . وتحدث كونفوشيوسي فقال ... « وعندمـا يحس الصغار بالقتال والاقوياء بالجنس والكهول بالامتلاك » ، فـان هذا يعني ان الصبي يحب القتال ، والشاب يحب النساء والكهل يحب المال .

ويواجه الصيني هـــذه المجموعة من الموجودات المادية والعقلية والخلقية ، فيتخذ موقفاً من الانسان نفسه ، يشبه موقفه من كافـــة المشاكل الاخرى ، ويمكن تلخيصه في عبارة واحدة « فلنكن معقولين » ويعني هذا الموقف ان الصيني لا يتوقـــع الكثير ولا القليل . فالانسان في رأيه محصور بين الارض والسماء ، وبين الواقعية والمثالية ، وبين العواطف الوضيعة والافكار السامية .

ولا ريب في ان هذا الحصر هو اساس وجود الانسانية. فمن الأنسنة ان يتعطش الانسان للمعرفة كتعطشه للماء ، وان يحب الفكرة الطيبة كحبه لطبق شهي من الطعام ، وان يعجب بالقول الجميل اعجابه بالمرأة الجميلة . ولما كان هذا هو الوضع ، فان عالمنا الذي نعيش فيه مفتقر الى الكمال . وهناك مجال بالطبع للأخذ بيد المجتمع الانساني واصلاحه ، ولكن الصيني لا يتوقع الكمال لا في الهدوء ولا في السعادة . وهناك قصة تروى ، تشرح هذه النظرة . فقد قيل ان رجلاً كان في الجحيم ، وكانت روحه على وشك التناسخ . وقال هذا الرجل لملك التناسخ ... « اذا اردت مني ان اعود الى الارض كانسان . فاني اشترط العودة على النحو الذي اراه » وسأله الملك « وما هو النحو الذي تراه ؟ » فقال الرجل «يجب انأولد ابناً لوزير ووالداً لعالم يفوز بالجوائز في المسابقات القومية . ويجب ان يكون لدي عشرة الاف فدان من الارض تحيط بداري . وتضم عدداً من برك الاسماك المختلفة الاشكال ، واشجار الفاكهة من كل نوع . ويجب ان تكون لدي زوجة جميلة، وعدد من الجوراي الفاتنات وكلهن يحببنني ويقمن على خدمتي باخلاص . ويجب ان تكون لدي غرف ملأي حتى سقوفها بالذهب والمجوهرات . وكرّارات ملأى بالقمح ، وصناديق معبأة بالمال . ويجب ان اكون رئيساً لمستشاري الدولة ، او نبيلاً من الدرجة الأولى، وأن اتمتع بالشرف والرخاء ثم اعيش حتى ابلغ المائة عام»، ورد ملك الأرواح قائلاً ... « لو كان مثل الذي تتحدث عنه موجوداً على الارض ، لذهبت بنفسي اليها ، بعد ان تحل روحي انا في احد الناس ، ولما منحتك كل هذه السعادة التي اشتهيها لنفسي » .

ويتلخص الموقف المعقول ، في انه طالما كانت لنا هذه الطبيعة الانسانية فعلينا ان نبدأ بها. يضاف الى هذا ان ليس ثمة سبيل للخلاص منها . والعواطف والغرائز ، قد تكون طيبة او سيئة منذ البداية ، ولكن أثمة فائدة في الحديث عنها ؟ يضاف الى هذا ان ثمة خطراً في ان نتعرض لاستعبادها . اذن فعلينا ان

نقف في وسط الطريـق . ويخلق مثل هذا الموقف المعقول طرازاً من الغفران الفلسفي ، بحيث تصبح أية خطيئة انسانية . أو أي سوء سلوك مهما كان نوعه ، قانونياً أو خلقياً او سياسياً ، مغفورا ، لان الانسان المثقف الواسع الافق الذي يعيش متمشياً مع روح المنطق . يرى في هذه الخطيئة او سوء السلوك ، « طبيعة انسانية شائعة » . ويمضي الصينيون الى ابعد من هذا فيقولون ان السماء أو الله نفسه ، مخـلوق معقول . وان الانسان اذا عاش حياة معقولة ، طبقاً لافكاره الصالحة ، فلن يخشى شيئاً ، اذ ان صفاء الضمير هو اعظم النعم ، وان الانسان ذا الضمير المرتاح لا يخشى شيئاً حتى الاشباح . ومع جود الاله المعقول الذي يشرف بنفسه على اعمال الناس من معقولين وغير معقولين ، فسيسير كل شيء على ما يرام في هذا العالم . ويموت الطغاة ، وينتحر الخونة ، ويبيـع الشحيح املاكه ، ويبيـع ابناء جباة الضرائب الاقوياء والاغنياء ، الذين تروى القصص عن جشعهم وابتزازهم ، كل مـا صرف آباؤهم الحياة في جمعه ، حاصرين افكارهم ومحتملين العناء في سبيل جمعه ، ليوزع ما جبوه على الأسر الاخرى . ويلقى القبض على القتلة ، ويتم اخذ الثأر للموتى وللنساء اللائي يساء الى شرفهن . وينطلق صوت المظلوم احياناً صارخاً ان « السماء لا ترى » ، وان العدل اعمى . ولكن الهدف النهائي والاسمى لهذه الفلسفة في كل من الكونفوشيوسية والطاوية هـو التفهم الكامل للطبيعة والانسجام معها ، والوصول الى ما يمكن تسميته بالطبيعة المعقولة » ، اذا جاز لنا استعمال هـذا التعبير ، وفي امكان الانسان الطبيعي المعقول ، ان يخلد الى هذه الحياة وقد أحس بشيء من الرضى الحيواني . وتقول سيدة صينية ، معبرة عن هـذه الفلسفة ... « ولدتنا اخريات ، وسنلد نحن آخرين . أفهناك ما نفعله سوى هذا ؟ »

ولا ريب في ان هذا القول ينطوي على فلسفة رهيبة . فالحياة تغدو مجرد عملية حياتية عضوية ، وتغدو قضية الخلود أمراً جانبياً مهملاً . وهـذا هو الشعور الذي يحس به الجد الصيني وهو يمسك بيد حفيده ، ماضياً معه الى

السوق ليبتاع له بعض الحلوى ، فهو يفكر بأنه لن تنقضي خمس سنوات أو عشر ، حتى يكون في طريق عودته الى قبره ليجتمع الى اسلافه . ولعل افضل ما نأمل به في هذه الحياة ، هو ان لا يكون لنا أولاد أو احفاد ، نخجل منهم ، ولا ريب في ان تركيب الحياة الصينية كلها، يتم تنظيمه طبقاً لهذه الفكرة.

٢ – الانسان متصل بالارض

ويمكن على ضوء هذا تلخيص الوضع على النحو التالي ... يريد الانسان ان يعيش ، ولكن يتحتم عليه ان يظل متصلاً بالارض . ومن الضروري استبعاد أية فكرة بالحياة في السماء . ومن الواجب عدم السماح للروح بان تحمل اجنحتها وان تحلق في السماء الى مساكن الالهة ، ناسية الارض ومن عليها . أو َلسنا فانين ولا بدلنا من الموت ؟ ومجال الحياة المتاح لنا لا يزيد على السبعين ، وهي مدة قصيرة اذا كانت الروح ، تتحول الى الكبرياء وتتطلع الى الخلود في الحياة ، ولكنها مدة طويلة ، اذا تواضعت هذه الروح . وفي وسع الانسان ان يتعلم الكثير وينعم بالكثير في سبعين عاماً ، ولا ريب في ان ثلاثة اجيال ، وقت كاف للاطلاع على حماقات الانسان وتعلم حكمته . ولا ريب في ان من واجب كل حكيم يعيش وقتاً كافياً لرؤية ما يقع من تبدلات في الازياء والاخلاق والسياسات في ثلاثة اجيال متعاقبة ، ان يرضى بالقيام من المقعد الذي يجلس فيه ، وان يمضي قائلاً ... بعد ان يهبط الستار ... « حقاً كانت التمثيلية رائعة » .

فنحن من الارض ، ولدنا منها ، وسنعود اليها . وليس ثمة ما يشقينا في الحقيقة الواقعة، في اننا جئنا الى هذه الارض الجميلة كضيوف مؤقتين. ولو فرضنا ان هذه الارض زنزانة مظلمة ، فان علينا ، ان نحاول التمتع بها جهد طاقتنا ، ولا ريب في ان من الانكار للجميل من جانبنا ، ان لا نفعل ذلك ، ونحن ننعم

بهذه الارض الجميلة لا بزنزانة ، نعيش فيها اطول مدة ممكنة من القرن . وكثيراً ما يبعد بنا الطموح ، فنزدري الارض الكريمة والمتواضعة . ولكن على كل فرد منا ، اذا اراد ان ينعم بالانسجام الروحي ، ان يحمل احساساً كريماً لأمنا الارض ، وان يشعر نحوها بالحب والتعلق ، لأنها المقر المؤقت لارواحنا واجسادنا .

ولهذا يجب ان نجمع بين شكية الحيوان وايمانه ، ونحن نقبل الحياة الارضية على حقيقتها . وعلينا ان نحتفظ بصفاء الطبيعة ونقائها ، على النحو الذي ذكره ثورو (Thoreau)[1] اذ وجد نفسه قريباً من الارض ، مشابهاً لها في صبرها الطويل . عندما تنتظر في الشتاء شمس الربيع ، ومال حتى في اوضع حالاته ، الى القول بأن ليس من واجب الانسان ان يبحث عن روحه ، وانما واجب الروح هو ان تبحث عن الانسان ، وان سعادة الانسان ليست الا كالاغصان الهشة الذابلة . فالارض على اي حال ، شيء واقعي ، بينما السماء شيء غير واقعي ، ولا ريب في ان من حسن حظ الانسان ان يولد بين الارض الواقعية والسماء غير الواقعية .

ويجب ان تبدأ أية فلسفة عملية بالاعتراف بان لنا جسداً . ولقد حان الوقت ليعترف كل منا بأننا من الحيوانات ، اذ ان هذا الاعتراف حتمي بعد ثبوت صحة النظرية الداروينية[2] وبعدما حققه علما الحياة والكيمياء العضوية

---

(١) هنري ديفيد ثورو (١٨١٧ — ١٨٦٢) — عالم امريكي كبير بالطبيعة ، درس في جامعة هارفرد. عاش بعد تخرجه في مزرعة له،حيث اغرق نفسه في دراسة الطيور والحيوانات، وفي التفكير الطويل بالحياة . له مؤلفات عدة منها « اسبوع في كونكورد » و « رحلات » .

(٢) شارل داروين (١٨٠٩ — ١٨٨٢) — من اكبر الفلاسفة البريطانيين ومن علماء الطبيعة . وقد اشتهر بالنظرية التي عرفت باسمه ، واولع منذ حداثته بعلم الحياة بالنسبة للحيوان والنبات ، واخذ يجمع الفراش . وتعرف نظرياته بعلم اصول الاجناس عن طريق الاختيار الطبيعي . درس في ادنبره وكمبريدج .

— المعرب —

من تقدم عظيم . ولعل من سوء حظنا ان كبار حكمائنا وفلاسفتنا يمتون الى ما نسميه بالطبقة المثقفة، مع اعتزازهم الحرفي بسمة مدار كهم، وكان علماء الروح يعتزون بالروح اعتزاز صانع الاحذية بالجلد الذي يصنع منه احذيته . وكثيراً ما وجدوا ان عبارة « الروح » ليست غريبة ولا مطلقة ، فراحوا يستعيضون عنها بتعابير اخرى « كالجوهر » او « الفكرة » او « اللباب » . ويتم ترشيح الجسم البشري في هذه الآلة الدراسية الى روح ، ثم تتركز هذه الروح في ما يسمى بالجوهر ، ناسين ان المشروبات الكحولية نفسها يجب ان تجد « جسماً » لها ، اذ لا بد من تخفيفها بالماء لتصبح صالحة للشرب . ولكن هؤلاء العلماء كانوا يريدون منا ، نحن العاديين من النـاس أن نشرب تلك الروح المركزة من الكحول دون تخفيفها. وكان هذا الافراط في التأكيد على الروح مضراً للغاية. فقد قضي علينا بأن نصطرع مع غرائزنا الطبيعية، ولا ريب في ان اهم ما أوجهه من نقد في هذا الميدان ، هو ان هذا التأكيد جعل من المتعذر ظهور نظرة كاملة عن الطبيعة البشرية . وقد بدأ هذا التأكيد من معرفة ناقصة بعلمي الحياة والنفس ، وبمواضع الاحساس والعواطف بل وبالغرائز في حياتنا . فالانسان مخلوق من جسم وروح ، ومن واجب الفلسفة ان تضمن الانسجام بين العقل والجسم ، وان يقوم التوفيق بينهما .

٣ – الروح والبدن

لعل اكثر الحقائق التي يرفض الفلاسفة رؤيتها وضوحاً ، هي ان لنا ابداناً . ويتعب بعض واعظينا احياناً من رؤية نواقصنا وغرائزنا وحوافزنا المتوحشة ، فيعربون عن تمنياتهم لو اننا خلقنا كالملائكة ، بالرغم من اننا نجهل تمام الجهل ، الصورة التي يعيش فيها الملائكة . ونحن اما ان نتصور ان للملائكة ابداناً وهيئات كهيئاتنا تماماً مع اضافة اجنحة اليها او لا نتصور ذلك . ومن الطريف ان الصورة العامة التي ما زلنا نحملها للملاك هي انه على صورة جسم انساني مع

جناحين . ويخيل الي احياناً ان من المفيد حتى للملائكة ان تكون لهم ابدان فيها الحواس الخمسة. ولو قدر لي ان اكون ملاكاً ، لكنت اوثر ان اكون في صورة طالبة مدرسة . ولكن كيف يمكن لي ان اغدو طالبة دون ان تكون لي بشرة؟ ولا ريب في انني كنت سأستمر في حبي لعصير البرتقال المثلج او عصير الطماطم ، ولكن كيف يمكن لي ان التذ بشربها اذا كنت لا أحس بالعطش ؟ وكيف يمكن ان اتمتع بطعامي اذا كنت لا أحس بالجوع ؟ وهل يمكن للملاك ان يرسم بدون الوان ، او يغني دون ان يسمع الاصوات ، او يستنشق نسيم الصباح العليل دون انف ؟ وكيف يمكن له ان ينعم بمتعة حك جلده ، اذا كان جلده لا يهرش ؟ وما مدى الخسارة الفظيعة في قدرته على السعادة اذا حدث هذا . فاما ان تكون لنا اجسادنا ونسد جميع متطلباتها ، واما ان نكون مجرد ارواح ، فلا نشعر بالرضى لسد متطلباتنا ، اذ ان الرضى لا يكون الا اذا كانت هناك متطلبات .

وكثيراً ما فكرت بالعذاب الرهيب الذي يحس به الشبح أو الملاك لعدم وجود بدن لهما ، اذ يتطلعان الى جدول من الماء البارد العذب دون ان تكون لهما اقدام يغرقانها فيه ، وينعمان بسعادة « البرودة » من مياهه ، أو ينظران الى طبق من البط الصيني ، دون ان ينعما به لعدم وجود اللسان الذي يتذوقان به ، او يريان الكعك اللذيذ دون ان يتلذذا به لافتقارهما الى الاسنان التي تمضغه ، أو يبصران بالوجوه المحببة للاغراء ، دون ان يحسا بعواطفهما تجاهها . ولا ريب في ان من الفظاعة ان نعود في يوم ما الى هذه الارض كاشباح . وان ندخل متلصصين الى غرف اطفالنا ، لنرى طفلاً نائماً هناك . فلا نستطيع مداعبته ، اذ لا اصابع لدينا ، ولا ضمه الى صدورنا ، اذ لا اذرع لنا ، ولا صدور ينفذ منها دفء جنبا له ، ولا اعناق يتوسدها ، ولا آذان تسمع صوته الحبيب .

ولا ريب في ان الدفاع عن نظرية الملائكة الذين لا اجساد لهم ، دفاع ضعيف ومبهم . وقد يقول المدافع عن هـذه النظرية ... « ولكننا لا نحتاج في عالم

الروح الى الرضى عن طريق سد المتطلبات » . واذا ما سأله محدثه عن البديل ، صمت لا يحير جواباً أو رد قائلاً ... « الفراغ والهدوء والسلام » . واذا ما سأله المحدث بقوله ... « وما الفائدة من ذلك ؟ » ردانهـا « غياب العمل والألم والحزن » . وانا لا انكر ان مثل هذا النعيم يستهوي العبيد . ومثل هذا المثل السلبي عن مفهوم السعادة خطر بل يقرب في خطورتـه من البوذية ، ويمكن العثور عليه في آسيا الصغرى اكثر منه في اوروبا .

وليس ثمـة من شك في ان هذه الأوهام فارغـة ، ولكن هذا المفهوم عن « الروح التي لا تحس » ، يفتقر الى الدليل ، طالمـا اننا اخذنا نحس وبصورة متزايدة بأن الكون نفسه ، مخلوق يحس . وقـد تكون الحركة لا الجمود هي الصورة المميزة للروح ، وان من متع الملائكة الذين لا ابدان لهم ، ان يدوروا كالآلة الصغيرة التي تدور حول محورها بسرعة تبلغ عشرين او ثلاثين الف دورة في الثانية . وقد يكون في هذا النظر بعض المتعة ، بل لعلها تفوق في متعتها ، ما يحس به الانسان من متعة في ركوب القطار الطائر . فالمنظر جد مثير . أو قد يكون الملاك الذي لا بدن له ، سريعاً في خطوه كالضوء أو كالاشعة الشمسية التي تحملها موجات الاثير في الفضاء بسرعة ١٨٣ الف ميل في الثانية . ولا بد ان تكون هناك عند الملائكة صباغات روحية لتنعم بلذة الرسم والخلق ، وان تكون لها ذبذبات اثيرية لتحس بالنغم والصوت واللون ، ولا بد ان يكون هناك نسيم اثيري ، يداعب وجنات الملائكة . وما لم يحدث هذا فان الروح نفسها ستأسن كما يأسن المـاء في المستنقع ، أو ستحس ، كما يحس الرجل في يوم خانق حار من ايام الصيف ، لا يجـد فيه نسمة من هواء . فالحياة تتطلب الحركة والاحساس ، ولا تتطلب السكون الكامل وعدم الاحساس .

٤ – نظرة عضوية حياتية

تتيح لنا المعرفة الفضلى بواجبات اعضائنا البدنية ، وعمليات تفكيرنا نظرة اصدق واوسع لانفسنا ، كما تعري تعبير « الحيوان » من بعض معانيـه السيئة

السابقة . وتنطبق الحكمة القديمة القائلة بان «الفهم هو الغفران » على جميع اعمالنا البدنية والعقلية . وقد يكون ما اقوله غريباً ، ولكنها الحقيقة ، وهي ان زيادة فهمنا لوظائف البدن ، تجعل من المتعذر علينا ان ننظر الى هذه الوظائف بعين الزراية . وليس المهم ان نقول ، ما اذا كانت العملية الهضمية كريمة أو معيبة ، وانما المهم هو ان نفهمها ، وبذلك تصبح كريمة في نظرنا الى حد كبير ، وينطبق هذا القول على كل وظيفة أو عملية عضوية في ابداننا ، ابتداءاً بالعرق ، واتلاف الفضلات ، وانتهاء بوظائف العصارة البنكرياسية ، والمرارة والغدد الدرقية والعمليات الاحساسية والتفكيرية . ولم يعد المرء يزدري الكلى ، وانما بات يحاول فهمها ، ولم يعد المرء ينظر الى سن تالفة كرمز لانحلال الجسد في النهاية وكحافز على العناية بالروح ، وانما يمضي الى طبيب الاسنان ، ليتولى فحصها ، وايضاح ما فيها من عيب لصاحبها ، واصلاحها . ولا يزدري الرجل الذي يخرج من عيادة طبيب الاسنان اسنانه ، وانما يرتفع احترامه لها ، لأنه سيقضم بها تفاحته ، أو يستخدمها في الامساك بعظم الدجاجة التي يأكلها بشيء من الشهية . أما بالنسبة الى الأطباء الروحيين الذين يقولون ان الاسنان من صنع الشيطان ، أو الافلاطونيين الجدد الذين ينكرون وجود الاسنان الفردية ، فاني كثيراً ، ما أحس بالفرح التهكمي من رؤية فيلسوف يشكو من الم اضراسه ، أو رؤية شاعر متفائل يعاني من التهاب لثته . وينشأ هذا الفرح من رؤيتي لأي منهما يتوقف عن عروضه وتعليلاته الفلسفية ، ويضع يده على خده تماماً كما افعل انا أو انت أو جارتنا القريبة منا . فلم يبدو التفاؤل امراً غير مقنع لشاعر مصاب بالتهاب اللثة ؟ ولم يتوقف هذا الشاعر عن انشاد قصيدهِ ؟ اولا يبدو ناكراً للجميل ان ينسى لثته وان يغني عن الروح ليس الا ، مع ان لثته هذه لا تسبب له ألماً او ضيقاً ؟

ولست انكر ان العلم قد علمنا ان نزيد من احترامنا لبدننا ، وذلك عن طريق تعميقه الاحساس بما يقوم به من عجائب ، وما يحيط به من اسرار . فنحن نبدأ

أول ما نبدأ بفهم الناحية الجنينية ، وكيف نتولد ونخلق ، ونعرف اننا بدلاً من ان نصنع من تراب نجلس على قمة الشجرة التناسلية في المملكة الحيوانية . ولا ريب في انه احساس رائع ، مُرض الى حد كبير لأي انسان لا تسكره روحه . ولا يشترط في فهمي لانتصاب قامتي اليوم وسيري على ساقي على وجه الأرض ، ان اومن بان حيوان « الدنصور » وهو من الحيوانات المنقرضة ، كان يعيش على سطح هذه الدنيا قبل ملايين من السنوات ثم انقرض . وعلينا ان لا نغرق في ادعاءاتنا ، فعلم الحياة لم يحطم أية قيمة من قيم الكرامة الانسانية ، أو يزرع بذور الشك في الحقيقة الواقعة وهي اننا اروع الحيوانات التي ظهرت على سطح هذه البسيطة . ولا ريب في ان مثل هذه الفكرة كافية لارضاء اي رجل يريد الاصرار على اهمية الكرامة الانسانية ،وقد بتنـا من الناحية الثانية اكثر تأثراً من أي وقت مضى بجمال الجسم الأنساني واسراره . وتفرض علينا اعمال اجهزة الجسم الداخلية ، والترابط المدهش بينها احساساً بالمشقة الكبيرة التي يتطلبها تحقيق هذا الترابط ، والبساطة المتناهية والحسم اللذين يصاحبان تحقيق الترابط والعلم لا يبسط هذه العمليات الكيماوية الداخلية عن طريق ايضاحها ، وانما يعقدها بحيث يصبح من المتعذر تفسيرها . ولاريب في ان هـذه العمليات اكثر صعوبة مما يتخيله أي انسان عادي يفتقر الى الاطلاع على عـلم وظائف الاعضاء . ولا ريب في ان السر العظيم للكون في الخارج مشابه تمامـاً في نوعه وكيفه للسر العظيم للكون في الداخل .

وكلما حاول عـالم وظائف الاعضاء ان يحلل ويدرس العمليات الفيزيائية العضوية والعمليات الكيمائية العضوية لعلم وظائف الاعضاء عند الانسان ، كلما زاد تعجبه واستغرابه . ويحدث هذا الى الحد الذي يدفع عالم وظائف الاعضاء احياناً بالرغم من سعة افقـه ، الى قبول النظرة الغيبية في الحياة ، كما حدث للدكتور اليكسيس كاريل . وسواء أوافقنا كاريل على ارائه التي كشف عنها في كتابه « الانسان – ذلك المجهول » أم لم نوافقه ، فان علينا ان نتفق معه ، في

أن هناك حقائق لم تفسر بعد، وهي غير قابلة للتفسير . ونحن نشرع في اكتساب شيء من الادراك عن القضية نفسها اذ يقول ...

« تترابط اعضاء الجسم الانساني عن طريق السوائل العضوية والجهاز العصبي . ويكيف كل عنصر من عناصر الجسم نفسه مع العناصر الاخرى . كما تتكيف هذه العناصر معه . ولا ريب في ان هذا الاسلوب في التكيف غائي . ولو نسبنا الى انسجة الجسم ادراكاً من طراز ادراكنا ، كما يفعل القائلون بالمذهبين ، الآلي والحيوي، فان العمليات الفيسيولوجية (عمليات وظائف الاعضاء) ، تبدو مترابطة مع بعضها لتحقيق الهدف الذي تنشده . وليس ثمة من ينكر وجود الغائية ضمن التركيب البدني . فكل جزء من الجسم يعرف المتطلبات الراهنة والمقبلة للكل ، ويعمل على ضوء معرفته هذه . وليست لعاملي المكان والزمان اهمية عند انسجتنا كاهميتها عند عقولنا . ويدرك الجسم كل ما هو قريب وبعيد ، وكل ما هو آني ومقبل »[1] .

وفي وسعنا ايضاً ان نذهل مثلاً ، اذا عرفنا ان احشاءنا تضمد جراحها كل التضميد ، دون أي جهد نبذله كما يقول العالم ...

« يصبح المنفذ الداخلي الجريح اولاً عاجزاً عن الحركة . ويصاب بنوع من الشلل المؤقت ، وبذلك يحال بين المادة البرازية الصديدية وبين الانسياب الى البطن . ويقترب منفذ داخلي آخر في الوقت نفسه او غشاء الترب(Omentum) من الجرح، ويلتصق بالجرح بما لديه من خصائص البريتون . ولا تمضي اربع

(١) كتاب « الانسان ذلك المجهول » ص ١٩٧ .

ساعات او خمس حتى يندمل الجرح تماماً . ولو فرضنا أن مثقاب الجراح هو الذي خاط اطراف الجرح الى بعضها ، فان الفضل في الاندمال . يعود الى التصاق الغطاء البريتوني بالجرح . » [1] .

فلِمَ نقابل الجسد بهذا الاحتقار في الوقت الذي يبدي فيه البدن الانساني مثل هذا الادراك ؟ فنحن قد حبينا على أي حال بجسد ، ذاتي التغذية ، ذاتي التنظيم والاصلاح ، وذاتي الآلية في العمل والانتاج ، وقد تم تركيبه عند الولادة ، على أن يستمر في العمل كالساعات القديمة ثلاثة ارباع القرن ، دون ان يحتاج الا الى القليل من العناية . وهو آلة مجهزة بادوات خاصة للرؤية والاستماع اللاسلكيين ، وفيها جهاز معقد من الاعصاب واللنف ، بل لعله اكثر تعقيداً من أي جهاز هاتفي أو برقي في العالم . وفيه جهاز لحفظ الوثائق تقوم به مجموعة مركبة من الاعصاب ، تدار بطريقة متناهية في الكفاية ، بحيث تحفظ بعض الوثائق القليلة الاهمية في علبة منزوية ، بينما تحفظ الوثائق الاكثر اهمية في مكتب قريب ومع ذلك تظل الوثائق المحفوظة في العلبة ، وبعضها قد يعود الى اكثر من ثلاثين عاماً ، في متناول صاحبها ، ويستطيع العثور عليها في منتهى السرعة والدقة . وهو يستطيع ايضاً مواصلة السير كالسيارة ، ولكن دون أي صوت لمحركها ، وعن طريق ثني المفاصل ليس إلا ، ولو قدر للسيارة ان يصاب بحادث ، وان ينكسر زجاجها ، أو مقودها . فان هذه السيارة الانسانية تصلح بصورة آلية الشيء المكسور ، أو تخلق بديلاً عنه ، أو تستعيض عنه بشيء آخر . فنحن نعرف انه في حالة اجتثاث احدى الكليتين ، تنتفخ الكلية الاخرى فوراً وتتمدد وتزيد من نشاطها ، لتضمن استمرار السير الطبيعي للبول . وهي تحافظ في الوقت

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٠٠ .

نفسه على حرارتها العادية ، وتصنع بما فيها من عصارات كيماوية ، العملية اللازمة لتحويل الغذاء الى انسجة انسانية .

ولهذا الجسم ايضاً احساس بما في الحياة من وزن وجرس . وبأهمية عنصر الزمن فيها لا على صعيد الساعات والايام فحسب ، بـل وعلى صعيد الحقب ايضاً ويتولى الجسم تنظيم طفولته وبلوغه ، ورشده ، ثم يوقف نموه عندما يجب ان يتوقف ، ثم ينبت « اسنان العقل » في وقت لا يفكر فيه أي منا بها ، وليس لحكمتنا الواعية أية علاقة باسنان العقل . وهو في الوقت نفسه يصنع الواناً من الترياق ضد السموم ، بنجاح كامل وبارز ، ويعمل كل هذا بصمت متناه ومطلق ، ودون أي ضجيج من النوع الذي تحدثه المصانع ، فلا يتضايق طبيبنا الغيبي من أي شيء ، وانما يكون حراً في التفكير بروحه وجوهره .

٥ – الحياة الانسانية قصيدة شعرية

اذا نظرنا الى الحياة الانسانية من الزاوية الحياتية (البيولوجية) . بدت لنا وكأنها قصيدة شعرية . فلها وزنها وجرسها ولها دوراتها الصاعدة والهابطة . وتبدأ هذه الحياة بالطفولة البريئة ، لتعقبها مرحلة البلوغ الغريبة ، التي تتميز بالمحاولة الغريبة في التكيف مع نضوج المجتمع ، والعواطف والحماقات الفتية ، والمثل والمطامح . وتنتقل الحياة بعد ذلك الى مرحلة الرجولة التي تتميز بالنشاطات الجمة ، مستمدة النفع من التجربة والتعلم عن المجتمع والطبيعة الانسانية ، وعندما تصل الحياة الى اوسط العمر ، تقل حدة التوتر بعض الشيء ، وترتخي الشخصية كالثمرة الناضجة أو كارتخاء الخمر الجيد ، ويبدأ بصورة متدرجة اكتساب النظرة الاكثر تسامحاً والاكثر شكاً ورقة الى الحياة . وعندما

تصل الحياة الى مرحلة غروبها ، تقلل الغـــدد الصماء من افرازاتها وانشطتها . ويكون هذا السن بالنسبة إلينا، اذا كنا قد بلورنا فلسفتنا الخاصة بالشيخوخة ، ونظمنا حياتنا على اساسها ، مرحلة الهـــدوء والطمأنينة والاستقرار والراحة والرضى . ثم تنطفىء شعلة الحياة ، ويمضي الانسان الى نومـــه الابدي الذي لا يضيق منه . وعلى المرء ان يحس بجمال هذا الوزن والايقاع في الحياة ، وان يعجب بها ، تماماً كما يعجب بالسيمفونيات العظيمة ، بما فيها من فكرة ، ومن صراعات ، لا تلبث ان تنتهي بالقرار الاخير . وليس ثمة من شك في ان حركات هذه الدورات متشابهة ، ولكن على الفرد نفسه ، ان يعزف موسيقاه من حياته العادية . وقـد يغدو النغم النشاز عند بعض الارواح ، اقوى واقوى . الى ان يطغى اخيراً على النغم الاصيل . وكثيراً ما يحدث ان تشتد حدة هذا النشاز ، فلا تستطيع الموسيقى المضي في طريقها ، ويلجأ الفرد الى قتل نفسه برصاصة يطلقها على رأسه او بالقاء نفسه في خضم نهر كبير . ولكن هذا لا يحدث الا اذا طغى الافتقار الى التعليم الذاتي الاصيل على الموضوع الرئيسي للمعزوفة الموسيقية الحياتية . وما لم يقع هـــذا فان الحياة الانسانية العادية تسير الى نهايتها العادية الطبيعية ، في صورة حركة وعملية كريمتين ومتكبرتين . وكثيراً ما تنطوي حياتنا على بعض الايقاعات المنفردة والقوية ، ولذا ينعدم اتزان النغم ، ويفقد قدرته على امتاع الاذن ، ولكن قـد تتميز هذه الحياة ايضاً بالايقاع الرائع المنساب كانسياب نهر الكنج وهدوئه وهو يواصل السير متجهاً الى الابـــد ، الى البحر .

وليس ثمـــة من يستطيع القول ان الحياة بطفولتها ورجولتها وشيخوختها ليست تنظيماً جميلاً ، فلكل يوم صباحه وظهره ومغيبـــه ، وللسنة فصولها الاربعة ، وهو تقسيم جد طيب وجميل . وليس ثمـــة اطلاق في جمال الحياة وبشاعتها ، الا على ضوء مراحلها وفصولها . ولو قبلنـــا هذه النظرة الحياتية

للحياة ، وحاولنا ان نعيشها على ضوء فصولها ، فليس ثمة من يستطيع انكار القدرة على جعلها قصيدة شعرية جميلة ، الا اذا كان الفكر احمق دعياً أو مثالياً معقداً . ولقد رسم شكسبير هذه الصورة رسماً رائعاً في المقطوعة التي قسم الحياة فيها الى سبع مراحل ، وهو رأي شاركه فيه كثيرون من كتاب الصين . ومن الغريب ان شكسبير لم يكن في يوم ما من المتدينين ولا من المهتمين بالدين . ولا ريب في ان هذا هو سر عظمته . فقد قبل الحياة الانسانية على حقيقتها ، ولم يحاول ان يبعد افكاره عن حقائقها ووقائعها كما فعل في شخصيات مسرحياته . فقد كان شكسبير الطبيعة نفسها مجسدة ، ولعل هذا هو اعظم ما نستطيع قوله في اطراء كاتب او مفكر . وقد عاش شكسبير ، ولاحظ الحياة ناعماً بها ، ثم مضى عنها .

٣

تُراثُنا الحَيَواني

١ – قصة القرد

واذا كانت النظرة الحياتية (البيولوجية) ، تساعـــدنا على تقدير ما في الحياة من جمال وايقاع ، فان لهـــذه النظرة ايضاً عيوبها المضحكة . وهي تمكننا بما تعرضه علينا من صورة صحيحة لواقعنا كحيوانات ، مـــن ان نفهم انفسنا وسير شؤوننا الانسانية بصورة امثل . وهنا يبرز موقف اكثر سخاء في العطف، وفي التسامح في الشك، مصحوباً بتفهم اصدق واعمق للطبيعة الانسانية يجد جذوره في اسلافنا من عالم الحيوان . وهذه النظرة تذكرنا ايضاً باننـــا من احفـــاد الانسان الاول الذي يعود في جذوره الى « الانسان القرد » ، ثم تمنحنا القدرة على ان نضحك على اخطائنا وعيوبنـــا ، وان نعجب بذكائنا الفردي ، الذي نطلق عليه اسم الاحساس بالملهاة الانسانية ولا ريب في ان هذه الفكرة جميلة ، وقد جاء بها كلارينس دي في مقاله الرائع الذي حمـــل عنوان « عالم

القرود » . وفي وسعنا اذا قرأنا هذا المقال ، ان نصفح عن جميع زملائنا من المراقبين ورؤساء الدعاية ، والمحررين الفاشيين والمذيعين النازيين ، واعضاء مجلس الشيوخ ، وصانعي القوانين ، والديكتاتوريين والخبراء الاقتصاديين ،والوفود الى المؤتمرات الدولية وجميع الهيئات العاملة التي تحاول التدخل في حياة الناس الآخرين . أجل ان في وسعنا ان نصفح عنهم ، لاننا نبدأ في فهمهم .

ولا ريب في انني على هذا الصعيد ، بدأت افهم ما لدى القصصي الصيني هسيوشي الذي تحدث كثيراً عن القرود من حكمة وبعيد نظر . وفي وسعنا ان نفهم تقدم التاريخ الانساني بصورة افضل عن طريق هذه النظرة ، فهي تشبه كل الشبه رحلة تلك المخلوقات الناقصة شبه الانسانية الى الجنة الغربية ، من امثال القرد ووكونج الذي يمثل الذكاء الانساني ، والخنزير باشيا الذي يمثل الغرائز الدنيا والقرد ساند الذي يمثل المنطق والراهب هسوتانج الذي يمثل الحكمة .وقدارتحل هسوتانجمصحوباً بحاشية غريبة منالصين الى الهندللحصولعلى بعض الكتب البوذية المقدسة. ولا ريب في ان قصة التقدم الانساني تشبه الى حد كبير ، رحلة هذه الزمرة المتعددة من المخلوقات الناقصة كل النقص ، والتي تجد نفسها وباستمرار متورطة في اخطار واوضاع غريبة عن طريق حماقتها ، وطبيعتها الشريرة . فنحن نرى الراهب كثيراً ما كان يجد نفسه مضطراً الى معاقبة القرد الشرير والخنزير الفاسق ، ومحاولة اصلاحهما ، لا سيما وانهما كانا ينساقان وراء تفكيرهما الناقص، وغرائزهما الدنيا الى مختلف الاخطار . وتظهر غرائز الضعف الانساني بصورة دائمة ، من الغضب ، والثأر ، والفسق ، والعهر ، والافتقار الى الغفران، والغرور والافتقار الى التواضع، في هذه الرحلة الانسانية الى القداسة . وتسير الزيادة في الروح التدميرية جنباً الى جنب مع الزيادة في البراعة الانسانية ، وذلك لاننا كالقرد ذي القوى السحرية ، قادرون اليوم ، على ان نسير فوق السحاب ، وان نتشقلب في الهواء ، وان نقتلع شعر القرود من سيقاننا القردية لنحيلها الى قرود صغيرة نرهب بها اعداءنا ، وان نقرع ابواب

السماء نفسها ، وان نزيح حراسها من طريقنا ، وان نطلب لانفسنا مكاناً بين الآلهة .

ولا ريب في ان القرد كان ذكياً ، ولكنه كان مغروراً ايضاً . فقد كانت لديه قوة كبيرة من سحر القرود استطاع بواسطتها ان يشق طريقه الى السماء ، ولكنه لم يكن يملك ما يكفي من الطهر والاتزان والاعتدال الروحي ليعيش بهدوء وسلام هناك . ومن المحتمل ان يكون اكثر طيبة من الصلاح للعيش على هذه الارض مع احيائها الفانين ، ولكنه لم يكن طيباً الى الحد الكافي لعيشه في السماء في صحبة الخالدين . ففي شخصيته الكثير من الغلظة والشر والثورة ، بل كان معدنه غير صاف تماماً ، ولذا فقد خلق عند دخوله الى السماء ، رعباً فظيعاً هناك ، تماماً كالرعب الذي يخلقه الاسد المتوحش اذا افلت من قفصه ، ليسير في شوارع مدينة مكتظة، وذلك في المرحلة الاولى قبل انضمامه الى رحلة الحجاج. وتمكن بما فيه من طبيعة سيئة كامنة ، من افساد مأدبة العشاء السنوية التي تقيمها الملكة الوالدة للسماء الغربية تكريماً لجميع الآلهة والقديسين والخالدين في السماء. وقد ثار لانه لم يدع الى هذه الوليمة ، فادعى انه رسول الاله ، وراح يضلل « الجنية العارية القدم » والتي كانت في طريقها الى المأدبة ، فيرشدها الى الناحية المعاكسة ، بعد ان ابلغها ان مكان المأدبة قد تبدل ، ثم تنكر هو في صورة تلك الجنية ، ومضى الى المأدبة . وكان قد ضلل عدداً آخر من الجنيات بنفس الطريقة . وعندما دخل الى الفناء ، وجد انه كان اول الوافدين . ولم يكن هناك الا الخدم يقومون على حراسة الجرار التي تضم خمر الجنيات في الدهليز . وسرعان ما اتخذ صورة حشرة تؤدي لدغتها الى النوم ، فلسع الخدم ، ودفع بهم الى النوم ثم شرب ما في الجرار من خمر . وخرج الى القاعة وهو نصف ثمل ، فأكل الخوخ السماوي ، الموضوع على المائدة . وعندما وصل الضيوف ، الى المأدبة، ورأوا ما حل بها من افساد، كان هو قد انتقل الى مغامرة اخرى في بيت لاوتسي ، محاولاً ان يأكل عقار الخلود الموجود لديه . واخيراً فارق

السماء ، وهو لا يزال متنكراً لخوفه من نتائج مغامرات سكره ، ولغضبه لانه لم يدع الى المأدبة السنوية. وعاد الى ملكوت القرود ، حيث نصب نفسه ملكاً على صغارها ، ورفع راية العصيان على السماء بعد ان كتب عليها عبارة « الحكيم الاعظم الند للسماء » . وسرعان ما دارت معارك رهيبة بين هذا القرد وبين محاربي السماء ، وظل القرد صامداً فيها الى ان اصابته الهة الرحمة ، بطاقة من الزهر بعثت بها من وراء السحب .

وهكذا فنحن دائمي الثورة كالقرد ، ولن ننعم بالهدوء والتواضع الا بعد ان تهزمنا الهة الرحمة ، التي تجند لنا زهورها التي تقذف بها من السماء . ولن نتعلم درس التواضع الصحيح الى ان يكون العلم قد اكتشف اطراف الكون . وذلك لأن هذه القصة ذكرت ان القرد واصل ثورته ايضاً بعد اسره ، وراح يسأل امبراطور السماء عن الاسباب التي تحول دون اعطائه لقباً أسمى بين الالهة : ولم يتعلم درس التواضع الا بعد رهان اخير مع بوذا أو الله نفسه . فقد راهن بوذا على ان في استطاعته بما لديه من قوى سحرية ان يمضي الى اقصى اطراف الارض، وان ينال اذا حقق ذلك لقب « الحكيم الاعظم الند للسماء » ، والا كان جزاؤه الخضوع الكامل . واراد ان يسجل وصوله الى ذلك المكان ، فراح يبول عند سفح القمة الوسطى ، ولما ارضى غروره بعمله هذا ، عاد ليحدث بوذا عن رحلته . وفتح بوذا آنذاك احدى يديه ، وطلب منه ان يشم « بوله » عند قاعدة اصبعه الاوسط ، مبيناً له ، انه لم يستطع طيلة رحلته مغادرة راحة يده. وهنا أحس القرد بالوضاعة ، وبعد ان ظل مقيداً الى صخرة خمسمائة عام ، اطلق الراهب سراحه لينضم اليه في رحلته .

ومهما يكن فان هذا القرد الذي لا يعدو ان يكون صورة منا ، مخلوق لطيف ، بالرغم من غروره وشروره . اذن فهل في استطاعتنا ايضاً ان نحب الانسانية بكل ما فيها من مظاهر ضعف وعيوب .

٢ – في صورة القرد

وهكذا بدلاً من التعلق بما قالته التوراة من ان الانسان خلق في صورة الله ، نجد اننا خلقنا في صورة القرد ، واننا بعيدون عن كمال الله ، بعد النملة الصغيرة عنا . ونحن في غاية الذكاء ، وهذا أمر نثق به كل الثقة ، وكثيراً ما نكون مغترين بذكائنا . ذلك ان لنا عقلاً . ولكن عالم الحياة ، يطلع علينا ليقول ان العقل تطور جديد متأخر ، وذلك بالنسبة الى التفكير الناطق . وانه بالاضافة الى الاشياء التي تدخل في تركيب نسيجنا الفاني ، وهناك بالاضافة الى العقـل ، مجموعة من الغرائز الحيوانية او المتوحشة ، وهي اقوى بكثير ، بل هي في الواقع المفسّـر لاسباب سوء سلوكنـا في حياتنا الفردية والجماعية على حد سواء ، وهي تمكننا في الوقت نفسه من فهـم طبيعة ذلك العقل الانساني الذي نزهو به فهماً افضل . فنحن نرى اولاً انه بالاضافة الى ما يتميز به من ذكاء نسبي ، يفتقر في الواقع الى الكمال . ويظهر لنا تطور الجمجمة البشرية ، انها ليست اكثر من توسع في العمود الفقري ، وان عملها يشبه عمـــل هذا العمود في الاحساس بالخطر ، ومواجهة البيئة الخارجية والحفاظ على الحياة ، دون التفكير . ولا يقع التفكير الا في نطاق ضيق وسيء. ولا ريب في ان اللورد بلفور قد اصاب الحقيقة عندما قـال ذات يوم ان « العقل الانساني عضو لا يختلف في بحثه عن الطعام عن انف الخنزير » وانا لا اطلق على هـــذا القول ، فلسفة شكية ، وانما هو تفهم اصيل لواقعنا .

ونحن نشرع في فهم النقائص البشرية من الناحية العضوية . نحـن ناقصون ؟ أجل ، لأن الله لم يعطنا صفة الكمال . ولكن النقطة المهمة لا تمثل هنا . فالنقطة المهمة هي ان اسلافنا القدماء ، كانوا يزحفون او يطيرون أو يسبحون من غصن الى آخر ، على النحو الذي يفعله طرزان ، أو كانوا يتعلقون بالشجرة كما يفعـل

القرد بذراعه او بذنبه .[1] لكنني ارى ان الكمال كان قائماً في كل مرحلة من مراحـل تطور الانسان ، وان كان يطلب الينا بين الفينة والاخرى ، ان نؤدي مهمة اكثر صعوبة من التكييف والتعديل .

وعندما يخلق الانسان حضارة له ، فانه يسير في طريق من التطور قـد تؤدي من الناحية الحياتية (البيولوجية) . الى ارهاب الخالق نفسه . ويمكن القول على صعيد التكيف مع الطبيعة ، ان جميع مخلوقاتها تتميز بالكمال المدهش ، وذلك لأنها تقضي على اولئك الذين لا يتكيفون معها ، وتبيدهم . ولكن لم يعد يطلب الينـا الآن ان نكيف انفسنا مع الطبيعة ، وانما يطلب الينا ان نكيف انفسنا مـع انفسنا أو مع ما نسميه بحضارتنا . وكانت الغرائز في الطبيعة كلها طيبة وسليمة . أما في المجتمع فنحن نصمها بالوحشية والشر ، ويلجـأ كل فأر الى السرقة . ولا تؤثر السرقة على مدى خلقيته . وينبح كل كلب ، ولا تعود كل قطة الى البيت في الليل ، لتمزق كل ما تضع عليه ايديها ، ويقتل كل اسد مـا يجده امامه ، كما يفر كل جواد من رؤية الخطر ، وتنام كـل سلحفاة معظم ساعات النهار ، كما تلد كل حشرة وزاحفة ، وطير ، وفأر اولادها علناً . ومن هنا فان كل فأر يصبح لصاً على الصعيد الحضاري ، وكل كلب يغـدو مثيراً للضوضاء ، كما يغدو كل قط ، زوجاً خائناً وان كان غير متوحش ، وكل أسد او نمر قاتـلاً ، وكل جواد جباناً ، وكل سلحفاة صورة للكسل . وكل حشرة او زاحفة او طير او حيوان ، فاقداً للخجل عندما يؤدي عملياته الحياتية الطبيعية . انه تحول بالجملة للقيم . ولعل هذا هو السبب الذي يدعونا الى التفكير في الطريقة التي خلقنا الله فيها مفتقرين الى الكمال .

---

(١) ترى أيكون هذا هو السبب عندما نتأرجح الى الخلف ثم الى الأمام ، نحس بوخز في نهاية عمودنا الفقري ، أي في المكان الذي كان ينتهي بذيل اسلافنا ؟ وما زال الاثر قائماً بالرغم من اختفاء المؤثر وهو الذيل منذ امد بعيد ؟ – المؤلف –

٣ – فناء الانسان

تنتج عن وجود جسدنا الفاني ، عدة نتائج خطيرة . اولى هذه النتائج ، اننا لن نعيش ابداً ، وان لنا معدة وعضلات وعقلاً في منتهى الغرابة . وتؤثر هذه الحقائق بسبب طبيعتها الرئيسية تأثيراً عميقاً على صورة الحضارة الانسانية . ولما كان هذا أمراً واضحاً تمام الوضوح . فاننا لا نطيل التفكير فيه . ولكننا لا نستطيع فهم انفسنا وحضارتنا الا اذا رأينا هذه النتائج بوضوح .

واني لاعتقد ان كل مـا في الكون من ديمقراطية وشعر وفلسفة ، ينبع من هذه الحقيقة التي رسمها الله ، وهي ان جميع الناس امراء وصعاليك ، يعيشون في جسد يتراوح طوله بين الخمسة اقدام والستة ، ويحيون حياة يتراوح طولها بـين الخمسين والستين عاماً . ولا ريب في ان هذه النسبة معتدلة تماماً . فنحن لسنا مفرطين في الطول أو في القصر ، والسنوات التي نعيشها كافية اذ انها تضم جيلين او ثلاثة اجيال، وقد جرت سنة الخليقة على ان نرى عند مولدنا جدودنا، من الشيوخ ، فاذا كبرنا ، مـات هؤلاء ، لنصبح بدورنا جدوداً نشهد ولادة احفادنا . وفي هذا الترتيب شيء من الكمال. وتمثل الفلسفة في هذه القضية كلها، في القول الصيني المأثور ... « قد يملك الرجل الف فدان من الارض ، ولكنه ينام على سرير لا يتجاوز طوله خمسة اقـدام » . ولا يتجاوز طول سرير الملك نفسه السبعة اقدام ، لينام عليه في الليل . ومن هنا يكون كل انسان ملكاً . ومهما بلغ المرء درجة كبيرة من الثراء ، فان سنه لن يتجاوز ما حددته التوراة بسبعين سنة على وجه الغالب. وتجاوز سن السبعين نادر وفي هذا يقول الصينيون « من النادر منذ اقدم العصور ان يعيش الانسان اكثر من سبعين عاماً » .

هذا بالنسبة الى الثراء . اما بالنسبة الى الحياة ، فلكل انسان سهم فيهـا ، وان كان لا يستطيع ان يسترهنها لنفسه . ومن هنـا نستطيع ان ننظر الى الحياة نظرة اقل عبوساً . فنحن لا نستطيع العيش على هذه الارض بصورة

دائمة ، وانما نحن ضيوف مؤقتون . اجل نحن ضيوف جميعاً على هذه الارض ، وان كنا نملك اجزاءها ، ونشترك في جني محاصيلها . ولكننا لسنا بملاكها الحقيقيين . ولا يملك أي منا في الواقع بيتاً أو حقلاً . وفي هذا يقول الشاعر الصيني :

« ما اجمل هذه الحقول الذهبية القائمة عند المرتفع ...

فالوافدون حديثاً اليها يجنون ما زرعه آخرون

ولكن لا تفرحوا ايها الوافدين ، بما جنيتموه ...

اذ ان هناك آخرين من الوافدين بعدكم ينتظرون دورهم . »

ولا يفهم الناس تمام الفهم ما في الموت من ديمقراطية ، ولو لم يكن الموت ماثلاً لما عنت جزيرة « سنت هيلانه » شيئاً لنابوليون ، ولماعرف انسان ما كان سيحل بأوروبا . ولو لم يكن هناك موت ، لما كانت ثمة سير للابطال والفاتحين ، ولو وجدت مثل هذه السير ، لكان كاتبوها أقل تسامحاً وعطفاً على من ارّخوا سير حياتهم . فنحن نغفر لعظماء هذا العالم ، لأنهم غدوا في عداد الأموات . ونحن نشعر بانهم وقد ماتوا ، فقد سددوا حساباتهم لنا ، وتساووا معنا ، وتحمل كل جنازة نشهدها راية كتبت عليها عبارة «المساواة بين البشر» ترى أي فرح في الحياة يبدو في الاغنية التي نظمها شعب الصين المضطهد عند موت شين شيه هوانج ، الامبراطور الطاغية الذي بنى سور الصين العظيم ، والذي كان يعاقب بالموت كل صيني « كان يحمل اراء ثورية في قلبه » ، ويحرق الكتب الكونفوشيوسية ، ويدفن مئات العلماء الكونفوشيوسيين احياء ، والتي تقول ...

« اشرف شين شيه هوانج على الموت ...

وقد فتح بابي ...

وجلس على ارض داري

وشرب من حسائي

ثم طلب المزيد ...

رشف شيئاً من خمري

ولم يستطع أن ينبس ببنت شفة ...

وسأعد قوسي

واطلق سهمي عليه عند الحائط ...

وعندما يصل الى شاشيوي

فسيسقط ميتاً ... »[1]

وينبع الاحساس الانساني بالملهاة من هـــذه الاوضاع ، كما ينبع الشعر الانساني والفلسفة . فكـــل من يدرك الموت ، يحس باحساس الملهاة الانسانية ويتحول بسرعة الى شاعر . وقد اصبح شكسبير شاعراً عميق الشاعرية عندما جعـــل هملت يتابع آثار اكيلراندر النبيل فوجده يحاول « وقف سدادة برميل الحياة » ... ومات اكيلراندر ، ثم دفن ، وعاد من جديد الى التراب .. تراب الارض الذي نصنع منه الطين الذي نحاول ان نسد به برميل الجعة ... وليس ثمة من احساس بالملهاة اعمق من احساس شكسبير عندما جعـل الملك ريشارد الثاني يتحدث عن القبور والهـوام والديدان والنقوش على الاضرحة . والمهرجين الذين يضعون التيجان على رؤوسهم ويعيشون في هياكل الملوك الفانين،

---

(١) روى المؤرخون الصينيون هذه الاغاني على شكل نبوءات تكهنية عبرت عن صوت الله عن طريق صوت الشعب ، وهذا يفسر صيغة المضارع في القصيدة . وقـــد مات الامبراطور في شاشيوي فعلاً .

– المؤلف –

أو عندما يتحدث « عن المشتري العظيم للارض بقوانينه وشعاراته والغرامات التي يفرضها ، وخزائنه الضخمة ، واستيفاءاته » ، وقد انتهت جميع غراماته « الى دماغ مليء بالقاذورات » . واستمد عمر الخيام وصنوه الصيني شيافوشي كل ما لديهما من روح هازلة ، ومن تفسير ساخر للتاريخ من الاحساس بالموت نفسه ، عن طريق القول بان الثعالب تقيم مساكنها في قبور الملوك . واكتسبت الفلسفة الصينية اول عمق لهـا وأول احساس بالدعابة عند شوانجتسي ، الذي اقام جماع فلسفته كلها على تعليق منه على منظر جمجمة انسانية رآها فقال ...

«مضى شوانجتسي الى شاو حيث رأى جمجمة خالية ، بغطائها الاجوف اليابس . وراح يضربها بسوطه ويسألها ..: « أوصلت الى هـــذه الحالة لانك كنت تحبين اللهو ، وتعيشين حياة فاسقة ؟ أو كان صاحبك انساناً مشرداً طريد القانون ؟ أو قام باخطاء واقترف سيئات تنزل العار بأبويه واسرته ؟ أو هل مات صاحبك جوعاً ، أو وصل الى ارذل العمر ثم مات ميتة طبيعية ؟ . » وبعد ان انهي شوانجتسي هذه الاسئلة ، حمل الجمجمة ثم توسدها مريحاً رأسه عليها .

« وذهب هويتسي لتعزية شوانجتسي عندما ماتت زوجته ، فرآه مقعياً على الارض ، ينشد اغنية ، ويقرع اللحن المصاحب لها على جرّة من الفخار ، فقال هويتسي ... « الم تعش هـــذه المرأة معك ، وتنجب لك بعض الاطفال . في وسعك في اسوأ الحالات ان تمتنع عن البكاء عليها عندما يموت جسدها العجوز . أوَليس من العار ان تقرع اللحن على الجرة وان تغني ؟ »

« ورد شوانجتسي قائلاً ... « انك لعلى خطأ ... فعندما ماتت ، لم استطع للوهلة الأولى أن احبس نفسي عن الاحساس

بالأسى والتأثر ، ولكن سرعان ما فكرت بأنها لم تكن حية في البداية ، ولم يكن لها جسد ، بل ولم يكن لها شبح ايضاً . ولكنها سرعان مـــا وقعت في هذا السيل الدائم التحول ، فانقلبت الى شبح ، ثم تحول الشبح الى جسد ، وسرت الحياة في هذا الجسد . وها هي تتبدل ثانية فتموت ، وتعود ثانية الى الانضمام الى السير الدائم لتقلب الربيـــع والصيف والخريف والشتاء. فلماذا اثير الضجة وابكي وانوح بينما ينام جسدها بهدوء في ذلك البيت الكبير ؟ ان مثل هذا البكاء ينشأ عن الفشل في فهم سير الاحداث . وهذا هو السبب الذي دعاني الى التوقف عن البكاء » .

وهكذا نجد ان الشعر والفلسفة بدءا بادراك عنصر « الفناء » عند الانسان ، والاحساس بزوال الزمان . ولا ريب في ان هذا الاحساس بزوال الحياة يقوم وراء كل شعر صيني ، بل وراء الشطر الغالب من الشعر الغربي ، اذ انه احساس يتلخص في ان الحياة ليست الا حلماً ، واننا نجذّف بقاربها لنسير مع تيار نهرها عند مغيب امسية جميلة ، وان الازاهير لا يمكن ان تظل يانعة الى الابد ، وان القمر يشحب ويتضاءل ، وان الحياة الانسانية نفسها تشترك مع الموكب الخالد لعالمي النبات والحيوان ، في مراحل الولادة والنمو والنضوج ثم الموت لافساح المجال لحياة انسان آخر . ولم يبدأ الانسان بالنظر فلسفياً الى الحياة الا بعد ان رأى ما في الوجود الدنيوي من غرور وتفاهة . وقال شوانجتسي انه حلم ذات يوم بأنه كالفراشة ، وبينما كان غارقاً في حلمه ، أحس بأن في قدرته ان يصفق بجناحيه ، فتحول كل شيء الى واقع ، وعندما افـــاق ، ادرك انه ليس الا شوانجتسي ، وان شوانجتسي هذا شيء حقيقي . وراح بعد ذلك يفكر متسائلاً عن الحقيقة ، أتراه فعلاً شوانجتسي الذي يحلم بأن يكون فراشة ، او انه فراشة تحلم بأن تكون شوانجتسي ... اذن فالحياة ليست الا حلماً ، ولسنا نحن البشر

الا كالمسافرين ، نطوف فوق نهر الزمن الخالد ، نستقل الزورق في نقطة معينة ، لنهبط منه عند نقطة اخرى ، لنفسح المجال لآخرين ينتظرون على شاطىء النهر ركوب الزورق . وسيختفي اكثر من نصف شعر الحياة ، اذا لم نحس بأن الحياة اما حلم او رحلة مع مسافرين مؤقتين ، او مجرد مسرح لا يدرك الممثلون عليه الا نادراً انهم يمثلون دورهم عليه . وهذه هي الصورة التي رسمها عالم صيني هوليوتاشينج في رسالة بعث بها الى صديقه يقول فيها ...

« لعل من اكثر الأمور جدية في الحياة ان يحس الانسان بواجبه الرسمي ، وان يعتبر نفسه ممثلاً يؤدي دوره على المسرح في الرواية . لكن هذه الصورة في منتهى الحمق . ولقد سبق لي ان رأيت الممثلين على المسرح وهم يغنون ويبكون ويؤنب احدهم الآخر ، ويتبادلون النكات والضحكات معتقدين انهم يمثلون الواقع . وليس الشيء الواقعي في المسرحية ، تلك الشخصيات القديمة التي يصور الممثلون ادوارها ، وانما شخصيات اولئك الممثلين انفسهم . فلكل ممثل منهم والداه ، وزوجته ، واطفاله ويحتاج كل منهم الى اطعامهم ، وهو يحقق هذا عن طريق الغناء والبكاء والضحك والتوبيخ وتبادل النكات . فهم اصحاب تلك الشخصيات القديمة التي يحاولون تصويرها . ومسبق لي ان رأيت عدداً من هؤلاء المثلين الذين يرتدون الطيلسانات والقبعات ، يؤدون ادوارهم ، وقد اعتقدوا انهم اصحاب الشخصيات التي يؤدون ادوارها ، وان ليس ثمة من يشك في هذه الحقيقة . وهم لا يدركون وهم يتبادلون الانحناءات ، ويجلسون متحدثين الى بعضهم البعض كشخصيات بارزة ، ترتجف امامها الاسرى والسجناء ، انهم ليسوا الا مجرد ممثلين يحاولون اطعام آبائهم ونسائهم واطفالهم عن طريق الغناء

والبكاء والضحك وتبادل التوبيخ والنكات ! ومن المؤسف ان هناك اشخاصاً يتمسكون بمسرحية معينة ، بل بدور معين ، بل وبلهجة معينة او نص معين في الالقاء الى ان تصبح الرواية متسلطـــة على كل شيء فيهم حتى وعلى احشائهم ، دون ان يدركوا انهم ليسوا الا مجرد ممثلين » .

٤ - حول معدة الانسان

لعل من ابرز خصائصنا الحيوانية ، ان لنا هذا التجويف الذي لا قرار له والذي يسمونه المعدة . وقد صبغت هذه الحقيقة حضارتنا كلها بصبغتها . وقد كتب الفيلسوف الابيقوري الصيني لي ليوينج متذمراً من وجود هذا التجويف ، في المقدمة التي استهل بها الفصل الذي كتبه عن الغذاء في كتابه عن فن العيش بصورة عامة فقال ...

« اجـــد لكل من اجهزة الجسم الانساني كالاذن والعين والانف واللسان واليد والقدم والجسم نفسه ، مهمة ضرورية . ولكن هناك جهازين لا ارى لهما اية ضرورة ، وان كنا قد حبينا بهما، وهما الفم والمعدة ، اذ انهما السبب في كل ما أحس به الجنس البشري طيلة العصور من قلق وما واجهه من مشاكل. وتتعقد قضية الحصول على ما يعيش عليه الانسان بوجود هذين الجهازين ، وعندما تتعقد هذه القضية ، نرى ان الخديعة والحيلة وعدم النزاهة اصبحت المظاهر التي تسود الشؤون الانسانية . ومع بروز هذه المظاهر ، يظهر قانون العقوبات ، بحيث يصبح الملك عاجزاً عن شمول الناس برحمته ، ويصبح الآباء عاجزين عن احاطة اولادهم بحبهم ، كما يصبح الخلاق الرحيم مضطراً الى فرض عقوبات تخالف طبيعته وارادته . وقد نتج كل هذا عن

بعض الافتقار الى بعـــد النظر في تصميم الجسم الانساني عند الخليقة ، وعن وجود هـذين الجهازين اللذين لا ضرورة لهما . فالنباتات تعيش دون افواه ومعدات ، كما ان للصخور والتربة وجودها دون حاجة الى غذاء . اذن ما الذي يدعو الى وجود الفم والمعدة عند الانسان الذي حبي بهذين الجهازين الاضافيين؟ ولو فرضنا انه كان لا بد من وجودهما ، اما كان بوسع الخالق ان يجعلنا نعتمد في غذائنا على ما تعتمد عليه الاسماك في قوتها من الماء ، أو الصراصير وحشرات الحصاد في قوتها من الطلّ والندى ، وكلها تستطيع الحصول على غذائها بهـــذه الطريقة لتمضي بعد ذلك سابحة في الماء أو طائرة في الهواء تقفز وتغني. ولو كان خلقنا على هذا النحو ، لمـــا تحتم علينا ان نجاهد في حياتنا ، ولاختفت آلام الجنس البشري . يضاف الى هذا ان الخالق لم يحبنا بهذين العضوين فحسب وانمـــا حبانا ايضاً بعـدد كبير من الشهوات والرغبات ، كما جعل هذا التجويف — وهو المعدة — لا قرار له ، بحيث بات كالوادي او كالبحر الذي لا يمتلىء ابداً . وكانت النتيجة اننا نجهد انفسنا في هذه الحياة ، ونحمل اجهزتنا الاخرى على بــذل كل ما لديها من طاقات وحيوية ، لتسد بصورة كافية متطلبات هذين العضوين. وقد فكرت في هذا الموضوع المرة تلو المرة ، ولا استطيع ان امنع نفسي عن لوم الخالق على ما خلقه . ومن المحتمل ان يكون قد ندم ، ولكن بعد فوات الاوان ، اذ لم يعد ثمـــة مجال للاصلاح ، طالما ان تركيب الجسم البشري قد تحدد ولم يعد في الامكان تعديله . ويتضح من هذا ان على الانسان ان يكون حريصاً كل الحرص عندما يفكر في وضع مفاهيمه عن القانون او عن اي تنظيم » .

وليس ثمة ما يستطيع الانسان ان يعمله وهو يحمل هذا التجويف الذي لا قرار له ، لا سيما وان وجود هـــذا التجويف قد خلق لوناً خاصاً لسير التاريخ الانساني . وتفهم كونفوشيوس الطبيعة الانسانية تفهماً كاملاً ، فلخص رغبات الانسان الكبرى في صورتين وهمـــا التغذية والاخصاب ، أي الغذاء والشراب والنساء . وهناك من استطاع التحايل على الجنس وتجنبه ، ولكن ليس ثمة قديس في العـــالم استطاع التحايل على الغذاء والشراب . وهناك زهاد عودوا انفسهم على القناعـة في العيش ، ولكن ليس في وسع أي انسان مهما كان تعلقه بالأمور الروحية ، ان ينسى الغذاء اكثر من اربع أو خمس ساعات . ولعـل اكـثر الافكار التي تنتاب الانسان مرة كل بضع ساعات هو التساؤل عن موعد الطعام ، اذ ان هذا التساؤل يقع ثلاث مرات في اليوم أو اربعاً او خمس مرات في بعض الحالات. وكثيراً ما توقفت المؤتمرات الدولية في خضم اعنف المناقشات التي تدور حـــول اكثر القضايا السياسية تعقيداً وصرفاً للاذهان ، ليذهب المؤتمرون لتناول الغداء . ويتحتم على البرلمانات ان تحدد برامج جلساتها على ضوء ساعات الطعام . وكثيراً ما توصف حفلة التتويج التي تستغرق اكثر من خمس ساعات أو ست ،أو تتعارض في موعدها مع وجبة الغداء ، كمصدر من مصادر الضيق العام . ولما كنا قد حبينا بهذا الشيء الذي يسمونه معدة ، فان خير ما نفكر فيه ، اذا اردنا ان نظهر اجلالنا وحبنا ، لجدّ لنا ، هو ان نقيم له حفـــلة عيد ميـــلاد .

وهناك سبب لهذا . فالاصدقاء الذين تضمهم وجبات الطعام ، يسيطر عليهم الهدوء . ولا ريب في ان مذاق حساء لذيذ ، او طبق شهي من الطعام ، يخفف من حدة مناقشاتنا ، ولهجتها ، ويضعف من التعارض بين وجهات نظرنا . ولو جمعت بين صديقين من خيرة الاصدقاء ، وهما جائعان ، فان لقاءهما لا بـد وان ينتهي الى خصام. ولا يدوم اثر الوجبة الطيبة مجرد ساعات بل اسابيع وشهوراً. فنحن نتردد في ان ننقد كتاباً وضعه شخص اقام لنا وليمة طيبة قبل ثلاثـــة

اشهر او اربعة . ولعل هذا هو السبب الذي دفع الصينيين بمـــا عرف عنهم من تعمق في دراسة الطبيعة الانسانية ، الى حل جميع مشاكلهم وخلافاتهم حول موائد الطعام لا في قاعات المحاكم . وتتمثل صورة الحياة الصينية ، في اننـا لا نسوي خلافاتنا ومشاكلنا حول موائد الطعام بعد ظهورها ، بل اننا نحول ايضاً دون ظهور هذه المشاكل بنفس الطريقة والاسلوب . ونحن في الصين نكسب ثقـة الآخرين عن طريق دعوتهم الى الطعام . ولا شك في ان هذا الاسلوب ، هو السبيل الامين الوحيد لتحقيق النجاح في السياسة . ولو ان شخصاً ، حمل نفسه عبء جمع الارقام الاحصائية ، لوجد ان هناك ترابطاً كاملاً بـــين عدد الولائم التي يقيمهـــا لاصدقائه وبين سرعة ارتقائه في المناصب الرسمية التي يشغلها .

ولكن بالنظر الى التركيب الذي نمثل فيه ، أفي استطاعتنا ان نفعل غـــير ذلك ؟ لا أظن ذلك ، اذ ان هذا السلوك ليس خاصاً باهل الصين . فهل يمكن لمدير دائرة في امريكا ان يرفض طلباً خاصاً لصديق له ، اذا كان هذا المدير قد تناول خمساً او ستاً من اشهى الوجبات في بيت ذلك الصديق ؟ فالامريكان ليسوا الا بشراً كالصينيين . ولعل الفرق الوحيد ان الامريكان لم يؤتوا عمقاً في بعد نظرهم في دراسة الطبيعة الانسانية . أو انهم لم يسيروا بطريقة منطقية في تنظيم حياتهم السياسية طبقاً لهـــذا العمق . واني لاعتقد ان هناك الكثير من التشابه بـــين عالم السياسة في امريكا وعالمها في الصين ، اذ انني اومن بوحدة الطبيعة الانسانية وتشابهها. لكن هذا التشابه لا يبدو بشكل واضح في امريكا كما هو في الصين . وكل ما سمعته ان المرشحين للمناصب الانتخابية في امريكا ، يتقربون الى العائلات في المناطق التي يرشحون انفسهم فيها بتقديم المرطبات الى اطفالها. ولا ريب في أن الانطباع الذي يتولد لدى الناس عنه بعد هذا التصرف انه «رجل طيب ، مرح » . ولا ريب في ان هذا التصرف ، شكل آخر موروث عما كان يمارسه لوردات ونبلاء القرون الوسطى في اوروبا الذين كانوا في مناسبات افراحهم

او اعياد ميلادهم يقيمون افخم الولائم التي تضم اشهى المآكل والمشارب لعمالهم ورقيق ارضهم .

وليس ثمة من شك في اننا نتأثر تأثراً جوهرياً بموضوع الطعام والشراب ، اذ انه يؤثر على قضايا الثورات والحرب والسلام والوطنية والتفاهم الدولي والحياة الاجتماعية الانسانية . ترى ما السبب في الثورة الفرنسية ؟ أهو روسو[1] او فولتير[2] أو ديدرو[3]. لا.. انه الطعام ليس الا. وما السبب في الثورة الروسية والتجربة السوفياتية ؟ انه الغذاء ايضاً . اما بالنسبة الى الحرب ، فقد اظهر نابوليون منتهى الحكمة عندما قال ... « ان الجيش يحارب دفاعاً عن معدته » . أو : «هناك فائدة من الدعوة الى السلام ، اذا كان هذا السلام بعيداً عن البطون». انه قول ينطبق على الامم بقدر انطباقه على الافراد . فقد حطم الجوع اعتى الامبراطوريات ، وقضى على اكثر العهود الارهابية قوة وبطشاً . فالرجال يرفضون العمل اذا كانوا جياعاً ، كما يرفض الجنود القتال ، وترفض مغنيات الاوبرا الغناء ، واعضاء مجلس الشيوخ المناقشة ، ورؤساء الجمهوريات الحكم اذا كانوا جياعاً. ولِمَ يَعمل الزوج ويكد طيلة يومه في مكتبه ان لم يكن يتطلع الى

---

(١) جان جاك روسو (١٧١٢ -- ١٧٧٨) - فيلسوف فرنسي . اشتهر بكتابه « العقد الاجتماعي » وتقوم نظريته على ان من واجب الفرد ان يتخلى عن حقوقه الطبيعية الى المجموع كله تحت اشراف وتوجيه « الارادة العامة » لهذا المجموع .

(٢) جان فرانسوا ماري فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٤) - كاتب فرنسي ومؤرخ ومؤلف مسرحيات وفيلسوف متشكك . ولد في باريس . نفي من بلاده مرات ، وسجن في الباستيل مرات اخرى وضع عدداً من الكتب والمسرحيات ، واشهرها « رسالة عن التسامح » و « معجم الفلسفة » و « كانديد » .

(٣) دينس ديدرو (١٧١٣ - ١٧٨٤) - من حكماء فرنسا ومؤلفيها . ولد في مقاطعة شمبانيا ، ودرس عند الاباء اليسوعيين ، وكان يطمع في دراسة اللاهوت ، ثم تحول الى فقه القانون ، وزاول عدداً من المهن ، وقاوم الجوع بما يكتبه في شتى المواضيع ، ومن اشهر مؤلفاته « افكار فلسفية » .

المعرب -

وجبة فاخرة يتناولها في منزله بعد عودته ؟ ومن هنا يصدق المثل ان « بطـــن الانسان اقرب طريق للوصول الى قلبه » . فعندما تسد متطلبات الجسد ، تهدأ الروح وتصبح اكثر اطمئناناً ، ويصبح الرجل اكثر حباً لزوجته وتقديراً لها . وكثيراً ما نسمع الزوجات يشكين من ان ازواجهن لا يلاحظون ما يرتدينه من ثياب او احذية جديدة ، ولا طريقه ترجيجهن لحواجبهن ، او ترتيب بيوتهن . ولكن هل سمعنا بامرأة واحدة ، تشكو من ان زوجها لا يلاحظ الطعام الجيد الذي تطهوه له؟وما حب الوطن اذا لم يكن التغني بما نعم به الانسان في طفولته؟ ولقد سبق لي ان قلت ان ولاء الاميركي « للعم سام » ناشيء عن ولائه للطعام الذي يأكله في امريكا ، وان ولاء الألماني لوطنه ، هو الولاء لنوع الطعام الالماني. أما بالنسبة الى التفاهم الدولي ، فانا اعتقد ان « المكرونة » كانت سبباً ابرز في تعرف الناس على ايطاليا من موسوليني. وهناك من يقول ان موسوليني قد حطم لايطاليا في العالم الخارجي ما حققت « المكرونة » لها من حب . ولعل السبب في ذلك اننا نحس بالاخوة الانسانية في ميدان الطعام كما نحس بها في الموت .

ترى كيف تطرب الروح الصينية لمرأى وليمـــة فاخرة ؟ وكيف يهتف الصيني بجمال الحياة عندما تمتلىء معدته واحشاؤه . فمن المعدة الملأى تشع السعادة التي تكون روحية في طابعها . ويعتمد الصيني على غرائزه التي تؤكد له ان كل شيء يستقيم اذا امتلأت المعدة . ولعل هذا هو الذي يحفزني الى القول بأن حياة الصيني قريبة من الغريزة ، وان فلسفته تقوم على الاعتراف بوجودها. وتتركز فكرة الصيني عن السعادة كما سبق لي ان قلت في مكان آخر ، في الاحساس بالدفء والشبع ، والهدوء والظلام والنوم الحالم ، اي عندما يذهب الى فراشه لينام بعـد عشاء دسم . ولعل هذا هو الذي حفز الشاعر الصيني الى القول بأن المعدة الملأى شيء عظيم حقاً ، وان ما عداها ترف لا قيمة له .

ولا ريب في ان هذه الفلسفة هي التي تدفع الصيني الى عـــدم الخجل من الطعام أو التقزز منه . وعندما يحتسي الصيني ملعقة من الحساء اللذيذ يعبر عن

لذته بصوت يصدر عن فمه ، وهو ما يعتبره الغربيون منافياً للسلوك المهذب . ولكنني اعتقد ان آداب المائدة عند الغربيين التي تفرض علينا احتساء حسائنا وتناول طعامنا دون أي صوت ، هي التي تحول دون تطور فن الطهاية. فلم يكون حديث الغربيين خافتاً ، ويكون مظهرهم واجماً ومحتشماً وهم يتناولون وجباتهم ؟ ولا يميل معظم الامريكيين الى تناول « جناح دجاجة» في ايديهم ليتذوقوا لذته ، وانما يواصلون التظاهر ، بتقطيعه بالشوكة والسكين ، بالرغم من احساسهم بالكبت والضيق . انه تظاهر اجرامي ، ولا سيما اذا كان « الجناح » طيب المذاق . اما بالنسبة الى آداب الطعام ، فانا اعتقد ان الطفل يمارس اول متاعب الحياة ، عندما تمنعه والدته من التلمظ بشفتيه ، فمن قواعد علم النفس الانساني ، اننا نتوقف عن الاحساس بالفرح والمرح اذا منعنا من التعبير عنهما وسرعان ما تتولد لدينا مجموعة من امراض سوء الهضم والسويداء والنورستانيا ، والاوجاع العقلية التي تتميز بها الحياة بعد بلوغ سن الرشد . وعلى المرء ان يقلد الفرنسيين وان يقول « آه » معرباً عن اعجابه ، عندما يحمل له الندل ، طبقاً من اللحم الشواء ، وان يقول « اوم » عندما يتذوق منه القطعة الأولى . أو هناك عار في ان يتمتع الانسان بغذائه ، وان تكون له شهية عادية صحية ؟ لا . ان الصينيين يختلفون عن غيرهم وقد يقال ان آدابهم في الطعام سيئة ، ولكنهم يحسنون التمتع بالمآدب السخية .

واني لاعتقد ان السبب في اخفاق الصينيين في تطوير علمي النبات والحيوان، ان البحاثة الصيني لا يستطيع ان يظل متفرساً بجمود خال من الاحساس في سمكة دون ان يبادر الى التفكير في طعم مذاقها في فمه ، ودون ان يشتهي اكلها . ولعل السبب الذي يدعوني الى عدم الثقة بالجراح الصيني ، انني اخشى انه اذا قام بشق كبدي بحثاً عن « حصوة » فيها . قد ينسى الحصوة ، ويسارع الى وضع الكبد في مقلاة . ولا يستطيع الصيني ان ينظر الى الدلدل دون ان يبادر الى التفكير بطريقة طهوه واكل لحمه دون ان يتسمم . ولعل الحرص من

التسمم هو الناحية المهمة والعلمية والوحيدة عند الصيني . ولا ريب في ان مذاق لحم الدلدل لديه ، مهم كل الاهمية اذا كان يضيف شيئاً من المتعة الى المأكولات الصينية ، ولا يهتم الصيني باشواك الدلدل ، ولا بطريقة ظهورها او عملها ، او علاقتها بجلده ، او طريقة اختفائها اذا ما واجه عدواً . وينطبق هذا على سائر الحيوانات والنباتات ، اذ ان جل ما يهم الصيني البحث عن التمتع بها دون الاهتمام بحقيقتها. ونحن نهتم بتغريد الطائر، وبلون الزهرة واوراق «الأوركيد» وألياف لحم الفراخ ، فعلى الشرق ان يتعلم من الغرب كل ما في علمي النبات والحيوان، ولكن على الغرب ان يتعلم من الشرق كيفية التمتع بالاشجار والازاهير والاسماك والطيور والحيوانات ، وان يفهم التركيبات المختلفة لانواع الحيوان والنبات ، رابطاً بينها وبين مختلف الامزجة والمشاعر .

فالطعام من المتع القليلة الواقعية في الحياة الانسانية . ولعل من حسن الطالع ان الاعراف الاجتماعية والتقاليد لا تحيط بغريزة الجوع كما تحيط بغريزة الجنس ، وان ليس ثمة من قضايا خلقية تتعلق بموضوع الطعام . والحياء من الطعام اقل من الحياء من الجنس. ولعل من اسعد الاوضاع ان الفلاسفة والشعراء والتجار والفنانين يستطيعون ان يجتمعوا عادة على عشاء ، وان يؤدوا واجب تغذية انفسهم في العلن دون حياء ، وان كانت هناك بعض القبائل الأولية قد أنمت احساساً بالخجل من الطعام ، وراح افرادها يمارسون الاكل ، وهم وحيدون . وسنناقش موضوع الجنس فيما بعد ، ولكننا نجد هنا غريزة على الاقل ، تخلق نظراً لانطلاقها ، عدداً اقل من حالات الانحراف والجنون والسلوك الاجرامي . ولا شك في ان هذا التباين بين غريزة الجوع وبين غريزة الجنس من ناحية آثارهما الاجتماعية ، تباين طبيعي . ولكن الحقيقة تظل ماثلة هنا ، وهي ان هذه الغريزة بالرغم من عدم تعقيدها لحياتنا النفسية تعتبر نعمة من نعم الانسانية . ولعل السبب في ذلك انها الغريزة الوحيدة التي تكون البشرية صريحة معها . فانعدام الخجل منها يؤدي في الواقع الى انعدام مرض

الذهان والعصاب والانحراف . وقد تكون ثمة انزلاقات بين الكاس والشفة ، ولكن اذا ما وصل الطعام الى الشفة ، لم يعد هناك ، ما يحول بينه وبين الاستمرار . فالكل يعترفون بأن من حق كل انسان ان يحصل على الطعام ، وهو ما لا ينطبق على غريزة الجنس . واذا ما أشبعت غريزة الجوع . فان اشباعها لا يؤدي الى اية متاعب . وقد يسوق بعض الناس في اسوأ الحالات انفسهم الى سوء الهضم ، أو الى تقرح المعدة او تليّف الكبد ، كما ان هناك من يحفرون قبورهم باسنانهم ، ولكن هؤلاء أو اولئك لا يخجلون مما يفعلونه .

ولا ريب في ان هذه الاسباب نفسها هي التي تجعل الجرائم الاجتماعية الناشئة عن الغذاء اقل من تلك التي تنشأ عن الجنس ، وليس في قانون الجزاء ، مواد تعالج جرائم الطعام اللاشرعي أو اللااخلاقي او الخائن ، بينما يضم القانون بنوداً كثيرة على الزنا والطلاق والاعتداء على النساء . وقد يتلف الازواج الثلاجات وينهبونها في اسوأ الحالات ، ولكن الرجل لا يشنق لأنه افرغ ما في الثلاجة . ولو حدث وعرضت مثل هذه القضية أمام محكمة ما ، فان القاضي سيحس بكثير من العطف على المتهم . والسبب في ذلك ان في وسع المتهم ان يعترف صراحة بضرورة حصول كل انسان على ما يقيم أوده . ولا ريب في ان قلوبنا تحس بالاشفاق على من يتضورون جوعاً ولكنها لا تشفق على الراهبات السجينات في اديرتهن .

ولا شك في جدوى هذه الصور . اذ ليس ثمة من جهل على الصعيد العام في موضوع الغذاء ، اذا ما قورن بالجهل العام في موضوع الجنس، وهو امر رهيب. وهناك أسر في مانشو تعلم بناتها فن الحب كما تعلمهن فن الطهاية قبل الزواج ، ولكن أهناك اسر كثيرة مماثلة لها في العالم ؟. ويتمتع موضوع الغذاء باشراق المعرفة ، أما موضوع الجنس فما زال محوطاً بالخرافات والاساطير ، والقصص الخيالية . فهناك الكثير من الاشراق في موضوع الطعام ، أما في موضوع الجنس فلا اشراق على الاطلاق .

ولعل من حسن الطالع من النـــاحية الاخرى ، ان الانسان لا يملك حوصلة كحوصلة الدجاج ، أو كرشاً ككروش الحيوانات المجترة . ولو كان لنا هذا او تلك لتغير المجتمع الانساني كل التغير ، ولكان البشر غـــير البشر . ولو كانت للانسان حوصلة كحوصلة الطير ، او بلعوم كبلعوم الخروف ، لكانت طبيعته وادعة ، راضية هانئة . ولو اختلفت طبائعنا لكان لنا سنام ، يضيع احساسنا بالجمال ، فالحبوب والفواكه ستكون كافية لنا ، أو اننا سنعيش على الكلأ عند التلال الخضراء . ولن نحمل الطبيعة المحاربـــة التي نحملها اليوم ، لاننا لن نجد انفسنا مرغمين على الصراع من اجل غذائنـــا او استخدام اسناننا في نهش لحم عدونا المنهزم .

وهناك علاقة اوثق مما نظن على صعيد الطبيعة بين الغذاء والمزاج . فجميع الحيوانات النباتية كالحمل والحصان والبقرة والفيل والسنونو ، هادئة بطبيعتها ، أما الحيوانات التي تعيش على اللحوم كالذئب والاسد والنمر والنسر ، فضارية في مزاجها . ولو كنا من النباتيين لكنا في مزاجنا اشبه ما نكون بوداعة الفيل . فالطبيعة لا تخلق مزاجاً مقاتلا ، عندما لا تكون ثمة ضرورة للقتال . وقـــد تتقاتل الديكة مع بعضها ، ولكنها لا تتصارع على الطعام بل على الانـــاث . وما زال هنـــاك صراع على الجنس ، في المجتمع الانساني ، ولكنه يختلف عن القتال على السلع المعلبة الذي نشهده في اوروبة اليوم .

وانا لا اعرف عن قرود تأكل القرود ، ولكنني اعرف عن بشر يأكلون البشر ، وهناك دلائل عدة في علـم اصول الاجناس البشرية تشير الى ان اكل الانسان للانسان كان عملية مألوفة في العالم كله . وهنـــا يبرز تراثنا اللحمي . فهل من غرابة اذا كنا لا نزال نأكل بعضنا على الصعدان الفردية والاجتماعية والدولية ؟ وهناك الكثير مما يقال عن اكلة لحوم البشر ، اذ انهم يفلسفون قتل الانسان . فاذا اقر هؤلاء بأن القتل شر حتمي بالرغم من انه مكروه ، فانهم

يمارسون هذه الحتمية باكل احشاء اعدائهم القتلى واضلعهم واكبادهم . والفرق بين اكلة لحوم البشر والناس المتحضرين ، ان الاول يقتلون اعداءهم ليأكلوهم ، بينما يقتل الآخرون اعداءهم ، ثم يدفنونهم ، ويضعون الصلبـــان على اجسادهم ويقيمون الصلوات على ارواحهم . وهكذا نجد اننا نضيف البلادة الى الخديعة والمزاج السيء .

وانا ادرك اننا ما زلنا نسير في طريق الكمال ، مما يعني اننا لسنا كاملين بعد . اجل هذه هي حقيقتنا . وما لم ننم في نفوسنا مزاج الحيوانات النباتية ، فسنظل مفتقرين الى الحضارة . واني لأجد بين ابناء هذا الجيل من النباتيين وأكلة اللحوم ، اناساً يحملون مزاجاً طيباً وآخرين يحملون اسوأ الامزجة . فبينما يمضي النباتيون في حياتهم لا يهتمون الا بشؤونهم ، نجـد ان أكلة اللحوم ، يهتمون بشؤون الآخرين . واذا كنت قـد كرهت السياسة قبل عشر سنوات بعد ان ذقتها لبضعة اشهر ، فلانني اكتشفت مبكراً ، انني لست في طبيعتي من أكلة اللحوم ، وان كنت احب اكل شواء شهي . ويقضي نصف سكان العالم اوقاتهم ينتجون ، بينما يقضي النصف الآخر اوقاتهم وهم يدفعون الناس الى ان ينتجوا لهم ، أو يحولوا بين الآخرين والانتاج .

٥ – حول عضلات الانسان القوية

هناك نتيجة اخرى لوجودنا الحيواني ، وللاجسام الفانية التي نحملها ، وهي اننا معرضون للقتل ، وان الرجل العادي يكره القتل . ومن الحق ان يقال ان الانسان يرغب رغبة قدسية في المعرفة والحكمة ، ولكن مع المعرفـــة تظهر التباينات في وجهات النظر ويقوم النقاش . وفي عالم من الخالدين ، يستمر النقاش حتى الابد ، اذ لا اجـد وسيلة لتسوية أي خلاف اذا كان أي من الفريقين

المتخاصمين لا يرغب في الاعتراف بأنه على خطأ . أما في عالم الفانين من الناس فان الوضع جد مختلف . وكثيراً ما يبدو احد الجانبين المتخاصمين ، ممقوتاً في عيني خصمه ، وكلما ازدادت هذه الصورة وضوحاً ، كلما غدت حججه اكثر صدقاً وصحة ، مما يدعو الخصم الى قتله ليضع حداً للنقاش . ولو قتل « س » من الناس « ص » فانه يكون على حق ، والعكس بالعكس . ولسنا في حاجة الى تذكير انفسنابأن هذا الاسلوب هو القديم للغاية في تسوية الخلافات بين الوحوش. ففي مملكة الحيوان ، يكون الاسد دائماً على حق .

ويصح هذا القول على المجتمع الانساني ايضاً ، ويعتبر تفسيراً صالحاً للتاريخ الانساني طيلة مسيرته حتى يومنا هذا . ولكن جاليليو[١] تراجع بعد ان اكتشف بعض الآراء المتعلقة بكروية الارض والنظام الشمسي . وكان تراجعه ناتجاً عن انه صاحب جسد فان معرض للقتل أو العذاب ، وكان من العسير النقاش مع جاليليو ، ولو لم يكن صاحب جسد فان ، لما استطاع أحد اقناعه بأنه على خطأ ، وان ما قاله مصدر ازعاج دائم . وكان في امكان غرفة تعذيب او زنزانة سجن ، او منظر مقصلة ، ان يقنعه بأنه على خطأ بالغ . وكان الاكليروس ونبلاء تلك الايام على استعداد للمضي في مخاصمة جاليليو حتى النهاية . ولكنه تراجع عن آرائه ، واعرب عن اقتناعه بخطئه ، مما عزز اعتقاد الاكليروس في تلك الايام بأنهم هم على حق ، وهكذا تمت تسوية الموضوع بصورة نهائية .

---

(١) جاليلي جاليليو (١٥٦٤ – ١٦٤٢) . عالم وفيلسوف ايطالي كبير ومن رجال الفلك . درس الفلسفة التجريبية ، واكتشف البوصلة وجهاز قياس الحرارة والمرصد وله نظريات اثرت في اكتشاف الجاذبية الارضية ، وكانت له اكتشافات اخرى في عالم الاجرام السماوية ، وكان اول من آمن بان الكون يسير وفقاً لظواهر طبيعية آلية ، منها دوران الارض حول نفسها وحول الشمس . اتهمته الكنيسة بالزندقة . وسجن بامرها ما تبقى من حياته .

المعرب

ولا شك في ان هـــذا الاسلوب في فض المنازعات ينطوي على كثير من الملاءمة والسرعة والكفاية . وليست حروب السلب والاستغلال ، والحروب الدينية ، والقتــال بين صلاح الدين والصليبيين ، ومحـــاكم التفتيش ، واحراق الساحرات ، والتبشير الحديث بالنصرانية ، واستخدام السفن الحربية في التبشير بالنصرانية ونشر مــا يسمونه برسالة الانسان الابيض ، واستخدام طائرات موسوليني ودباباته في تمدين الحبشة ، الا صوراً مختلفة من شريعة الغاب هذه التي ورثها الانسان عن عــالم الحيوان . ولو كانت مدافع الايطاليين هي الأفضل ، وكانت دقتهم في الاصابة وقتل الناس احكم ، فان موسوليني هو الذي ينقل الحضارة الى الحبشة ، أما اذا كانت مدافع الحبشيين افضل ، وكانوا ابرع في قتل المزيد من الناس ، فان هيلاسلاسي كان سينقل الحضارة الى ايطاليا .

وفي كوامن نفوسنا يقبع شيء من نبل الاسد الذي يرفض النقاش . ومن هنا يكون تمجيدنا للجندي الذي يستخدم اقصر الطرق في الخلاص من مخالفيه . فاسرع طريقة لاسكات انسان يؤمن انـــه على حق ، ويظهر الميل للحوار والنقاش ، تكون في قتله . ولا يلجأ الناس الى الكلام الا عندما لا يجدون القوة اللازمة لفرض معتقداتهم على الآخرين ، اما الرجال الذين يعملون والذين يملكون القدرة على العمل ، فانهم نادراً ما يتكلمون ، اذ انهم يزدرون المناقشة والحوار . فنحن لا نتكلم على أي حال ، الا بقصد التأثير على الناس ، فــاذا عرفنا ان في وسعنا ان نؤثر على الناس او نسيطر عليهم ، فما الحاجة الى الكلام ؟ انه شيء يدعو الى الرثاء . وهناك شيء يدعو الى الرثاء يحيط بطبيعة عصبة الأمم ، لكن هذا الاسلوب في تقرير الأمور عن طريق القوة ، يمكن ان يغالى به الى حـــد السخف ، اذا لم يكن مشفوعاً باحساس من حب النكتــة ، تمامــاً كما يعتقد اليابانيون ان في وسعهم اخماد المشاعر المعادية لهم بين الصينيين عن طريق قذفهم بالقنابل وتوجيه نيران مدافعهم الرشاشة اليهم . ولعل هذا هو السبب الذي يجعلني أبطىء في الاقرار بأننا حيوانات معقولة .

ولقد كنت ارى دائماً ان عصبة الامم مدرسة ممتازة للغات الحديثة ، يتخصص فيها الناس في ترجمة الالسن الحديثة ، اذ بعد ان يصغي المستمعون الى خطاب رائع في الانجليزية الصحيحة ، ويستمرئون ما فيه من محتوى وقوة تعبير ، يعودون فيصغون الى نفس الخطاب في فرنسية سهلة ومنسابة وكلاسيكية من مترجم محترف يتقن التعبير الفرنسي . حقاً انها مدرسة تفضل مدرسة بليتز في تعليم اللغات الحديثة والقاء الخطب العامة . ويقول احد اصدقائي انه بعد ان قضى ستة اشهر في جنيف ، تمكن من التغلب على عادة التمتمة التي كانت مصدر ازعاج له سنوات طويلة ، ولكن الحقيقة المذهلة تظل قائمة . وهي ان عصبة الأمم التي اقيمت لتبادل الآراء ، ليست في الواقع الا منظمة تهدف الى الكلام ، حيث يميز فيها بين المتكلمين الكبار والمتكلمين الصغار ، اذ ان الاول هم الذين يملكون قبضات كبيرة ، والاخرين هم الذين يملكون قبضات صغيرة ، مما يظهر ان الموضوع كله سخف ان لم يكن مجرد بطلان ، وكأن الأمم الصغيرة لا تستطيع الحديث بنفس الطلاقة كالامم الاخرى . ولا استطيع ان امنع نفسي عن التفكير بأن هذا الايمان الكامن ببلاغة ذوي القبضات الكبيرة ليس الا صورة من تراث شرعة الغاب التي تحدثنا عنها .

ويتلخص لباب الموضوع بالطبع في الحقيقة الواقعة وهي ان الجنس البشري محبو بغريزة الثرثرة كما هو محبو بغريزة القتال . ولا ريب في ان اللسان قديم من الناحية التاريخية قدم القبضة او الساعد القوي . وتميز القدرة على الكلام ، الانسان عن الحيوانات ، ولا ريب في ان المزج بين الكلام والوعيد ، خصيصة من خصائص الانسان . وتشير هذه الحقيقة الى دوام بعض المؤسسات كعصبة الأمم أو مجلس الشيوخ الامريكي او المؤتمرات النقابية ، وكلها مجالات تتيح للناس الفرصة للكلام . ويبدو ان القدر قد شاء لنا نحن البشر ان نتحدث لنعثر على وجهة النظر الصحيحة . فالمعروف ان الثرثرة من خصائص الملائكة . ولعل الميزة المميزة للانسان تمثل في الحقيقة الواقعة ، وهي اننا نظل نهذر ونثرثر حتى

نقطة معينة يحس فيها احـد الجانبين في أي خلاف كلامي ، بأن ذراعه اقوى من ذراع خصمه ، ويشعر بالضيق او الغضب ، وان هذره قد تجاوز الحد ، فيقرع المائدة بقبضته ويمسك بخناق خصمه ، ثم يصيبه بلكمة ، ويعود فيتطلع الى من حوله ، سائلاً اياهم ، وكأنهم هيئة من المحلفين بقوله ... هل انا على صواب ام على خطأ ؟ ويرد هـذا الجمع ... انك على حق . والناس وحـدهم هم الذين يسوون خلافاتهم على هذا النحو ، اذ ان الملائكة يسوونها بالهـــذر والكلام ، بينما تسوي الوحوش خلافاتها بالعضلات والمخالب . أما الناس فيسوونها بطريقة تمزج بين العضلات والكلام . ويعتقد الملائكة بالحق المطلق ، بينما تؤمن الوحوش بالقوة الصارخة ، أما الناس فيؤمنون ان الحق للقوة . ولا ريب في ان غريزة الكلام والبحث عن الحقيقة ، انبل بالطبع من غريزة القوة . وسيحل اليوم الذي نلجأ فيه جميعاً الى الكلام ، وآنذاك يكون انقاذ البشرية وخلاصها . أما اليوم فعلينـا ان نرضى بطريقة المقاهي ونفسيتها ، حيث يلجأ الانسان في تسويتـه للخلافات الى المزج بين الكلام والقوة . وقد لا يكون ثمة فرق بين تسوية خلاف في مقهى أو في عصبة الامم ، حيث أن الانسان يظل انساناً في كل مكان .

ولقد شهدت منظرين من مناظر المقاهي هذه ، اولهما في عام ١٩٣١–١٩٣٢ والثاني في عام ١٩٣٦ . والغريب في كلتا الحالتين ، انه كان فيهما ثمـه مزيج من الغريزتين مع غريزة اخرى وهي الوضاعة . فقد كنا في عـــام ١٩٣١ ، وكان هناك حوار بين فريقين ، بينما كنا نمثل نحن دور المحكمين . وكانت التهمة تتعلق بعمل من اعمال السرقة أو اللصوصية . وقد انضم الرجل ذو الذراع القوية اولاً الى النقاش ، وراح يلقي خطبة يبرر فيها نفسه ، ثم تحدث عن صبره الذي نفذ مع جاره ، واشار الى ما عاناه من ضبط النفس ومن عدم الاثرة ومن الكرم في محاولته زراعة حديقة جاره . ولعل الشيء المضحك انه شجعنا على ان نمضي في هذرنا ، بينما تسلل هو متلصصاً خارجاً من المقهى ، واكمل سرقته لارض خصمه عن طريق اقامة سياج حولها ، ثم عاد يسألنا ان نمضي الى هناك لنرى بانفسنا

أن كان على حق. وخرجنا جميعاً لنرى ان السياج الجديد كان قد تحرك باستمرار باتجاه الغرب، وتطلع الرجل الينا وقال... والآن هل انا على حق أم على خطأ ؟ ورد بعضنا عن حمق ... انـك على خطأ . وهنا ثار الرجل ذو القبضة القوية لكرامته ، وقال انه قد اهين وان شرفه قـد مس . وخرج من المقهى غاضباً ومتكبراً ، وقد ضرب الارض برجليه متعجرفاً ليطرد الغبـار عن حذائه ، متصوراً اننا لا نليق بصحبته . ايمكن ان تتصور ان مثل هذا الرجل يمكن ان يحس بالمهانة ؟ ولعل هذا هو الدافع الذي حملني الى التحدث عن غريزة الوضاعة الثالثة التي تعقد الموضوع . وفقد المقهى السمعة التي كان يتمتع بهـا في الماضي كالمكان العلمي الصالح لتسوية المنازعات .

ودعينا في عام ١٩٣٦ ، لتسوية خلاف آخر . وقال احدهم وهو من ذوي السواعد المفتولة القوية ، انـه سيعرض حقائق الخصومة على الموجودين طالباً العدل . واصبت بما يشبه « الرعـدة » وانا استمع الى تعبير العدل . وصدقنا الرجل ، لما رافق الوضع من غرابة ، ولاننـا لم نكن جديرين بأن نكون من المحكمين . ومع ذلك فقد حزمنا أمرنا ، على ان نظهر كقضاة عادلين أكفاء ، ورحنا نقول له جميعاً، وفي وجهه بانه على خطأ ، وانه ليس الا « كذاب مفتر» . واحس الرجل ايضاً بأن كرامته قد امتهنت، وان احساسه بالتواضع قد مس ، وان شرفه قد لوّث، وراح على الفور يمسك بخناق خصمه ، ويدفعه الى الخارج ، ليقتله ، ثم يعود ، وقد وجه سؤاله الينا ... « أأنا على حق أم على باطل ؟ » . ورددنا جميعاً ، وبصوت واحد ، وقد احنينا رؤوسنا .. « انك على حق » . وعاد وكأن ردنا لم يرضه يسألنا ... « وهل انا صالح لصحبتكم الآن » ... وكان جوابنا بلسان واحد ... « طبعاً طبعاً » . حقـاً يا له من تواضع من جانب القاتل .

هذه هي الحضارة الانسانية في عام ١٩٣٦ . واني لاعتقد ان تطور القانون

والعدل قد مر بمناظر من هذا الطراز منذ فجره المبكر ، عندما لم نكن اكثر من مجرد وحوش . ويبدو ان هناك طريقاً طويلاً ، وطويلاً جداً من التطور بين ذلك المنظر في المقهى وبين محكمة العدل العليا ، التي لا يحتج فيها المتهم بانه قد أهين لأن الاتهام قد وجه اليه . وكنا قبل عشر سنوات ، قد اردنا ان نجعل من المقهى طريقنا الى الحضارة . ولكن الهاً اكثر حكمة منـــا ، ويعرف عن الطبيعة الانسانية خيراً منا بكل مـــا فيها من خصائص وغرائز ، خطط لهذا المقهى نكساته . ولا بد انه كان قد عرف مدى ما سنمنى به من فشل وتردد في البداية ، لاننا نصف متمدنين في حاضرنا . وانتهت سمعـــة المقهى كمكان لحل المشكلات ، وعدنا الى الامساك بخناق بعضنا البعض، ونهش لحوم بعضنا بعد ان أخذنا من جديد نعود الى شريعة الغــاب ... ومع ذلك فأنا لا أحس باليأس المطلق . فغريزة التواضع او الاحساس بالخجل شيء طيب اذ ما رافقت غريزة الكلام . ولعل تفسيري للوضع اننا لا نحس بالخجل الحقيقي الآن . ولكن علينا ان نواصل ادعاء الاحساس بالخجل والقدرة على الكلام . ولا ريب في اننا عن طريق الكلام سنصل ذات يوم الى مرتبة الملائكة المباركة .

٦ – حول عقل الانسان

يقول الكثيرون ان عقل الانسان هو انبل ما خلقه الله . ولا ريب في ان غالبية الناس تقر بهذه الفرضية ، ولا سيا عندما يكون في تصورها عقل كعقل انيشتاين ، يستطيع البرهنة على انحناء الفضاء بمعادلة حسابية معقدة ، أو كعقل اديسون الذي استطاع اختراع الحاكي (الجرامافون) والصور المتحركة ، أو عقول غيرهما من علماء الطبيعة الذين يستطيعون قياس اشعة كوكب يدنو او يبتعد عن مـــدار الارض ، او تحليل موضوع تركيب الذرة غير المرئية ، او يخترعون اجهزة تصوير الاشرطة السينمائية الملونة . واذا مـــا قارنا انفسنا بما

يتمتع به القرود من فضول لاهادف ورجراج ، ففي وسعنا ان نقر بأننا نحمل ادراكاً نبيلاً مجيداً ، يستطيع فهم الكون الذي نعيش فيه .

ولا يتصف العقل العادي على أي حال بالنبل وان كان يتصف بالروعة . فلو كانت عقول جميع البشر من النوع النبيل ، لكانوا جميعاً عقلانيين لا يخطئون ولا يتميزون بأي ضعف أو سوء تصرف ، ويكون العالم كله ملهماً . ولكننا نفقد في هذه الحالة ، ما نتميز به من سحر كمخلوقات . واني لاعرف انني انساني الى الحد الذي لا اكترث فيه بالقديسين . ولكن سحرنا يتركز في لا عقلانيتنا ، وفي عدم استقرارنا وحماقاتنا ، وفي مرحنا وافراحنا ، وحزازاتنا وتعصبنا ، وتنكرنا للجميل . ولو كانت جميع عقولنا تتميز بالكمال ، لما تحتم علينا ان نتخذ قرارات جديدة في مطلع كل عام . ويتمثل جمال الحياة الانسانية في الحقيقة الواقعة ، وهي اننا عند ما نستعرض في ليلة رأس السنة الجديدة قراراتنا للعام المنصرم ، نجد اننا حققنا ثلثها ، وتركنا الثلث الثاني دون تحقيق ، ونسينا الثلث الاخير تمام النسيان . فانا لا اهتم بالخطة التي ستنفذ كاملة وفي كل تفاصيلها ودقائقها . والقائد الذي يمضي الى المعركة واثقاً كل الثقـــة من نصره مسبقاً ، ومتوقعاً بالدقة عدد الاصابات التي سيمنى بها ، سيفقد كل اهتمام بالمعركة ، وقد يتخلى عنها ، ولن يقدم لاعب شطرنج على مباراة خصم له ، اذا كان يعرف ان عقل خصمه عاجز عن مباراته . ولن يقرأ احـــد اية رواية اذا كان يعرف مسبقاً مــا يفكر فيه جميع شخصياتها ، وبات قادراً على التكهن بنتيجتهـا ، وليست قراءة الرواية ، الا متابعة لعقل يتميز بالتطواف وحرية الحركة ، ويتخذ قراراته غير المتوقعة في لحظات معينة وضمن اطار متاهات من الظروف المتحولة . ولا شك في ان القراءة عن والد عابس لا يعرف الصفح والغفران ، ولا يلجأ احياناً الى الانطلاق من هذه الصورة ، تفقدنا الاهتمام به كانسان ، كما ان القراءة عن زوج خائن دائم الخيانة لزوجته ، تدفع القارىء الى عدم الاهتمام بــه . ولكن لنتصور ملحناً موسيقياً مشهوراً ومتعجرفاً ، عجز الجميع عن اقناعه بان يضع

ألحـــان « أوبريت » لكوكب ساطع جميل ، لا يـــكاد يسمع بأن منافساً له يكرهه ، يفكر في أن يضع لها هذا اللحن ، حتى يبـادر إلى سبقه ، أو عالماً ظل يرفض طيلة حياته ان ينشر كتاباته في الصحف ، ولكنه لا يكاد يرى عالماً منافساً له ينشر رسالة في احدى الصحف ، حتى ينسى هو القاعدة التي وضعها لنفسه ، ويبادر الى المطبعة . اننا في تصورنا هذا نكون قد لمسنا المزية الإنسانية الخاصة التي يتفرد بها العقل الإنساني .

فالعقل الإنساني رائع في لا عقلانيته . وفي اهوائه المتـــأصلة . وشذوذه . وعدم انضباطه للقياسات . وإذا كنا لم نعرف هذه الحقيقة ، فاننا لم نتعلم شيئاً من القرن الذي انقضى في دراسة نفس الانسان . فما زالت عقولنا بعبارة أخرى تحتفظ بالخصائص اللاهادفة والمتقلبة التي تتميز بها عقول القرود .

ولندرس تطور الفكر الإنساني . كان عقلنا في البـــداية ، مجرد جهاز للاحساس بالخطر والحفاظ على الحياة . واني لأعتبر وصول هذا العقل في النهاية إلى مرحلة تقدير المنطق والمعادلات الحسابية الصحيحة ، مجرد ظرف عارض . فالعقل الإنساني لم يخلق بالتأكيد لهذا الهدف . ولقد خلـق ليستشم الطعام ، فإذا استطاع بعد اداء هذه المهمة . ان يستشم أيضاً المعادلات الحسابية المطلقة ففي هذا كل خير وصلاح . وإني لأرى في العقل الإنساني ، شأنه في ذلك شأن عقول الحيوانات الأخرى . مجرد اخطبوط أو سمكـــة نجمية ذات مجسّات تلمس بها الحقيقة لتأكلها . وما زلنا حتى يومنا هذا نتحدث عن « الإحساس » بالحقيقة لا عن « التفكير » . بها ويمثل الدماغ بمـا يتصل به من اجهزة الاحساس الأخرى . هذه المجسّات . وما زال إدراك الطريقة التي يتم فيها هـــذا الجس للحقيقة لغزاً من الغاز علم الطبيعة . تماماً كحساسية الضوء الأحمـر على شبكية العين . وفي كل مرة ينفصم فيها الدماغ عن اجهزة الاحساس المتعـــاونة معه

ليغرق في التفكير المطلق . يبعد عمـــا يسميه ويليام جيمس [1] بالواقع المرئي ليفر إلى الواقع الادراكي ، فاقداً بذلـــك حيويته وإنسانيته . ومتعرضاً إلى التدهور والانحلال . ونقع جميعنـــا في المفهوم الخاطىء القائل بأن التفكير هو العمل الصحيح للعقل ، ويقودنا ذلك إلى أخطاء خطيرة في الفلسفة إلا إذا اعدنا النظر في مفهوم « التفكير » نفسه . ولا ريب في ان هـــذا المفهوم الخاطىء ، يؤدي إلى خيبة أمل الفيلسوف عندما يخرج من محرابه ليتطلع إلى الجمـــاهير المحيطة به في السوق ، إذ لا يرى كبير ارتباط بين التفكير وبين أعمال الإنسان اليومية العادية .

وحاول المرحوم جيمس هارفي روبنسون أن يبين في كتابه « خلق العقل » كيف تطور عقل الانسان بصورة متدرجـــة ، وكيف انه ما زال يعمل فوق أربع طبقات تطور منها وهي عقل الحيوان ، وعقل الانسان المتوحش ، وعقل الطفل ، وعقل الانسان التقليدي المتحضر ، ثم عاد يبيّن لنـا ضرورة خلق عقل أكثر قدرة على النقد ، إذا أريد للحضارة الإنسانية الراهنة أن تعيش . وقد أميل في اللحظات التي أغرق فيها في العلم إلى تقبل هـذا الرأي ، ولكنني ، في اللحظات الأخرى . التي تغلبني الحكمة ابانها . أشك في عملية مثل هذه الخطوة من خطى التقدم ، العام ، بل وحتى في صلاحها . فأنا أوثر أن يظل عقلنا على ما هو عليه الآن من لا عقـلانية رائعة . وإني لأكره أن أرى عالماً نصبح فيه جميعنا من الكاملين في العقلانية . ترى هل أشك في التقدم العلمي؟ لا . ولكنني أشك في القداسة . ترى هل أنا ضد النزعة الإدراكية ؟ ربمـا

---

(١) ويليام جيمس (١٨٤٢ – ١٩١٠) – فيلسوف امريـــكي . درس في هارفارد وأصبح محاضراً في التشريح وعلم وظائف الأعضاء فيها ثم أصبح استاذاً للفلسفة وعلم النفس . من أهم كتبه « مبادىء علم النفس » ، و « إرادة الإيمان » و « الخلود الانساني » و « الذرائعية » و « معنى الحقيقة » .

المؤلف

أكون ، وربما لا أكون . فأنا أحب الحياة . مجرد الحيـاة ، ولما كنت أحبها ، فأنا أشك في الادراك اعمق الشك . ولنتصور عالمـا . لا تحفل فيه الصحف بقصص القتل ، ويكون فيه كل إنسان عالماً بكل شيء . ولا تشتعل النيران فيه في أي بيت ، ولا يقع فيه حادث لطائرة ، ولا يهجر رجل زوجته ، ولا يفر منه قس مع إحدى فتيات الجوقة الدينية ، ولا يتخلى فيه ملك عن عرشه من أجل الحب ، ولا يغيّر فيه أي إنسان رأيـه ، ويمضي فيه كل فرد ليحقق بدقة منطقية الخطة التي رسمها لحياته ومستقبله وهو في سن العاشرة . حقاً انه عالم لا يطاق ، لأنه عالم لا إنساني ، إذ يفقد كل ما في الحياة الانسانية من اثارة وشكوك . ولن يكون في مثل هذا العالم أي أدب ، لأنه يخلو من الخطيئة ومن سوء السلوك ، ومن الضعف الانساني ومن المشاعر المثيرة والاهواء والحـالات الشاذة والمفاجئات . انه سيكون اشبه بسباق الجيـاد ، الذي يعرف فيه كل واحد من الاربعين الفاً أو الخمسين الجواد الفائز قبل بداية السباق. فالزللية الانسانية لباب ما في الحياة من متعة تماماً كما تكون الكبوات مصدر الاثارة والجمال في أي سباق للحواجز. وهل في وسع المرء أن يتصور الدكتور جونسون [١] دون حزازاته المتعصبة. ولو اننا أصبحنا جميعاً من الكاملي العقلانية ، لتحولنا بدلاً من الوصول إلى الحكمة الكاملة ، إلى مرحلة الانحطاط إلى أجسام آلية ، يقوم فيها العقل الانساني بتسجيل بعض الحوافز تماماً كأية آلة من آلات تسجيل الغاز . ولا ريب في ان هذا الوضع يتعارض مع الانسانية ، ولا ريب في ان كل ما هو لا إنساني يتصف بالسوء .

---

(١) الدكتور صموئيل جونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤) - من أشهر الكتـاب والشعراء والنقاد الإنجليز . كان والده صاحب مكتبة ، فنشأ مولعاً بالقراءة . درس في اكسفورد حيث بز أقرانه في الاداب القديمة . عمل في الصحافة حقبة طويلة . من أشهر قصائده « تفاهة الرغبات الانسانية » ومن أشهر كتبه « تصورات » و « حياة شعراء انجلترا » .

المعرب

وقد يخيّل إلى بعض القراء انني اجاول جاهداً الدفاع عن مظاهر الضعف الانساني ، وانني احاول تحويل رذائل الانسان إلى فضائل ، ولكن هذه ليست الحقيقة على أي حال . فما نكسبه من صواب السلوك عن طريق تطوير العقل الكامل العقلانية لا بد وان نخسره في ما نفقده من زهو الحياة ومتعها . وليس أبلد على الانسان من أن يقضي حياته متزوجاً لرمز من رموز الفضيلة المطلقة . وقد لا أشك في ان مجتمعاً من هذه المخلوقات العقلانية سيكون صالحاً للبقاء والعيش . ولكنني أشك في أن هذا البقاء جدير بأن يحياه الانسان. ونحن ننشد قيام مجتمع حسن النظام في كل شيء . ولكننا لا نريده مجتمعاً مفرطاً في حسن النظام . وهنا يعود النمل إلى خاطري . وهي أكثر المخلوقات عقلانية . وليس ثمة من شك في ان النمل قد تمكنت من الوصول الى أكثر المجتمعات الاشتراكية كمالاً ، وانها عاشت على هذا النحو مليون سنة على الأقل . واني لأرى ان الناس يحتلون المنزلة الثانية في الكمال العقلاني بعد النمل في سلوكهم . فالنمل مخلوقات جادة وعاقلة ومقتصدة ونشيطة . وهي تمثل المخلوقات المنظمة اجتماعياً والمنضبطة فردياً . ولا يهمها أن تعمل اربع عشرة ساعة في اليوم من أجل الدولة أو المجموع . فهي تحس بواجبها ولا تحس بحقوقها ، ولا تتميز بالاصرار والنظام والبسالة والشهامة والانضباط . ولا ريب في انها تبزنا في جميع هذه النواحي إلى حد كبير .

ولو شخصت بنظرك إلى أية قاعة من قاعات التكريم المكتظة بتماثيل عظماء التاريخ ، وهي واقفة في كل مكان ، لوجدت ان عقلانية السلوك هي على الغالب آخر ما كان يتميز به هؤلاء العظماء . فهنا يقف يوليوس قيصر الذي وقع صريع هوى كليو باطرة ، انه قيصر النبيل الذي تميز باللاعقلانية في حبه حتى انه نسي كما نسي انطونيو من بعده الامبراطورية في سبيل امرأة . وهنا يقف النبي موسى الذي حطم في سورة منسورات الغضب الحجر المقدس الذي قضى أربعين يوماً على طور سيناء يكتب عليه شرائعه بوحي من الله ، ولم يكن يزيد

في ذلك عقلانية عن الاسرائيليين الذين هجروا عبادة الله وأخذوا يعبدون العجل الذهبي في غيابه . وهنا يقف الملك داود . الذي عرف بالوحشية حيناً والكرم حيناً آخر . وبالتدين آناً وبالهرطقة آناً آخر ، والذي عبد الله ثم صبأ وعاد يكتب أشعار التوبة والندم ليعود إلى عبادة الله . وهنا النبي سليمان ، الصورة المجسدة للحكمة والذي فشل في إصلاح اخطاء ولده ... وهنا كونفوشيوس الذي بعث يقول لزائر له انه ليس موجوداً في البيت ، ثم عاد يرفع صوته بالغناء قبل أن يفارق الزائر الدار ليسمعه انه موجود .... وهنا المسيح بدموعه في الجثمانية وبشكوكه وهو يقف على الصليب ... وهنا شكسبير الذى أوصى بسريره التالف لزوجته .... وهنا ملتون الذي لم يستطع العيش مع زوجته البالغة السابعة عشرة من عمرها . ولذا فقد كتب رسالة عن الطلاق . ولما تعرض للحملات ، انفجر مدافعاً عن حرية الكلام في كتاب وضعه .... وهنا جوته الذي لم يعقد زواجه في الكنيسة إلا بعد أن كان ولده قد بلغ التاسعة عشرة من عمره . وهنا جوناثان سويفت دسفيلا ، وأيبسين واميلي بارداخ وغيرهم .

أو ليس من الواضح ان العواطف لا العقل هي التي تسيطر على العالم ؟ أو ليس افتقارهم إلى العقلانية لا العقلانيه هو الذي يجعل هؤلاء العلماء محبوبين من الناس ؟ وتبدو اعلانات النعي التي يكتبها الصينيون ، وكذلك الصور الحياتية التي يرسمها الابناء عن آبائهم ، غير مفهومة ، بل وغير ممتعة ، وغير صحيحة ، إذ انهم يجعلون اسلافهم يبدون مخلوقات فاضلة إلى حدود تفوق المعقول . وكان النقد الرئيسي الذي وجهه مواطنيّ إليّ على كتابي عن الصين ، هو انني جعلت من ابناء الصين مفرطين في بشريتهم وانني رسمت في هذا الكتاب اوجه ضعفهم واوجه قوتهم . ويعتقد البيروقراطيون الصغار في بلادي ، انني لو كنت قد رسمت من الصين جنة يقيم فيها القديسون الكونفوشيوسيون وحدهم ، ويعيشون في عهد خيالي من السلام والعقلانية فانني أكون بذلك قد قدّمت خدمة دعائية

كبرى لبلادي . ولكن ليس ثمة من حدود لبلاهة البيروقراطيين . ولكن ما في تواريخ حياة الناس من سحر وروعة ، هو في صلاحها للقراءة ، وفي اعتمادها على اظهـــار الجانب الانساني لشخصية عظيمة لا تختلف كثيراً عن شخصيتنا . ولا ريب في ان كل لمسة من لمسات السلوك اللاعقلاني في اية سيرة من سير الحياة ، تعتبر لمسة فنان في رسم الواقع المقنع . ولا ريب في ان نجاح ليتون ستراشي[1] في صورة يعتمد على مثل هذه اللمسات .

ويؤمّن الانجليز صورة ممتازة للعقل السليم . وبالرغم من انهم يتميزون بسوء المنطق الا انهم يملكون مجسّات ممتازة للغاية في ادمغتهم ، تمكنهم من الاحساس بالخطر ، وحماية ارواحهم . فلم اتمكن من اكتشاف اي منطق في سلوكهم القومي او في تاريخهـم العقلاني . وليست جامعتهم ودستورهم وكنيستهم الا اجزاء في ثوب « مرقع » ، اذا انها لا تعدو ان تكـون صوراً للتكاثر المستمر والمنظم في عملية النمو التاريخي . وتقوم قوة الامبراطورية البريطانية في افتقار الانجليز الى المخ وفي عجزهم الكامل عن تفهم وجهات نظر الآخرين ، وفي ايمانهم المتين بأن الطريقـة الانجليزية هي الطريقة الوحيدة ، وان الطعام الانجليزي ، هو الطعام الجيد الوحيد . وعندما يتعلم الانجليز التفكير منطقياً ، ويفقدون ثقتهم المطلقة بانفسهم ، فان امبراطوريتهم ستنهار . فليس في امكان احد ان يظـل مسيطراً على العالم اذا كان يشك في نفسه . وليس في وسعك ان تفهم شيئاً عن موقف الانجليز من ملكهم ، وولائهم ، وحبهم له ، مـع انهم يحرمونه حتى من حرية التعبير ، ويصدرون اليه امرهم ، اما بأن يحسن سلوكه او يتنازل عن عرشه . وعندما كانت انجلترة في عهد الملكة اليصابات في حاجة الى القراصنة للدفاع عن

---

(١) ليتـون ستراشي (١٨٨٠ - ١٩٣٠) - مؤلف انجليزي . درس في كمبردج . اشتهر بكتبه « روائع الادب الفرنسي » و « شخصيات بارزة في عهد فكتوريا » ، و « حياة الملكة فكتوريا » و « اليصابات ولورد ايسكس » . كان من الكتاب الانسانيين.

- المعرب -

الامبراطورية ، تمكنت من خلق عدد كبير منهم ومجدتهم . ولقد تمكنت انجلترا في كل عصر من العصور من ان تخوض الحرب المناسبة لها ، ضد العدو الصحيح ، ومعهـا الحليف الصحيح . وان تقف في الجانب المناسب ، في الوقت المناسب ، مطلقة على تلك الحرب اسماً غير صحيح .[١] انها لا تحقق ذلك بالمنطق ، بل بما تميزت به من احساس .

ويتميز الانجليز بالوجوه الحمراء ، التي كان الضباب ولعب « الكريكيت » من اسبابها . وليس ثمـة من شك في ان مثل هذه البنية السليمة لا بد وان تلعب دوراً هاماً في تفكير الانجليز ، أي في عملية تعرفهم على طريقهم في الحياة . وكما تلعب البنية السليمة دوراً في تفكـير الانجليز ، تلعب الاحشاء العميقة دوراً في حياة الصينيين ، وهذه حقيقة نقر بها . فنحن نعرف اننا نفكر ببطوننا ، ونحن نقول ان هذا البحاثة « حاشد البطن بالافكار أو الدراسات الجامعية او الشعر او الادب» . وان هذا الانسان «حاشد البطن بالألم او الغضب او الندم او الحقد» او اللهفة » . فالصينيون يمدون افكارهم في بطونهم ، وهو ما انا على ثقة منه . وفي الامكان البرهنة علمياً على هـــذه الحقيقة ، ولا سيما اذا شرع علماء النفس المحدثون في تفهم المزية العاطفية لتفكيرنا . ولكن الصينيين ليسوا في حاجة الى الدليل العلمي . انهم يحسون بهذه الحقيقة . واذا عرف المرء ان المزية العاطفية في الالحان الصينية تنبع من انها صادرة من الالحان الخفيفة ، فان المرء يستطيع ان يفهم الموسيقى الصينية بكل ما فيها من الوان عاطفية عميقة .

وعلى المرء ان لا يستهجن ابـــداً قدرة العقل الانساني عندما يعالج موضوع الكون الطبيعي أو اي شيء آخر بالاضافة الى العلاقات الانسانية . ولما كنت

---

(١) اعتقد ان هذا لم يعد يصح على بريطانيا بعد انهيار امبراطوريتها وهيبتها وعظمتها بعـد الحرب العالمية الثانية . ولا ريب في ان معركة السويس وفشل عدوان بريطانيا مثـــل الضربة القاضية لهذه الاسطورة عن سلامة تقدير بريطانيا .

المعرب

احس بالتفاؤل تجاه ما حققه العلم من فتوحات ، فانني في الوقت نفسه اقل تفاؤلاً في موضوع التطوير العام للعقل الناقد في معالجة الشؤون الانسانية ، او في موضوع وصول الجنس البشري الي مرحلة من الهدوء والتفهم ، يتفوق فيها على تحكم العواطف وسيطرتها . ومن المحتمل ان يكون الجنس البشري كافراد قد وصل الى ذرى رفيعة : ولكنه كتجمعات اجتماعية ما زال خاضعاً للعواطف البدائية ، والى ظهور عارض للغرائز الحيوانية ، والى موجات عارضة من التعصب والهستيريا الجماعية .

ولما كنا نعرف مظاهر ضعفنا الانسانية ، فان من حقنا ان نكره ذلك المنكود الاخرق الذي يحاول الافادة باسلوبه الغوغائي من مظاهر هذا الضعف لدفع الانسانية الى حرب عالمية جديدة ، وان نكره ذلك الانسان الذي يمجد العظمة الذاتية والمصلحة الانانية وهو موجود في كل مكان ، وان نمقت كل من يستصرخ غرائزنا الحيوانية وحزازاتنا العنصرية ، والذي يشجع تدريب الشباب على القتل والحرب ، وكأننا لسنا من المخلوقات الميالة الى الحرب بفطرتنا ، والذي يسوط ويستفز عواطفنا الفانية ، وكأننا لم نقترب من المرحلة الحيوانية .[1] ولا ريب في ان هذا العقل الانساني مهما اتصف بالدهاء ، والحكمة والتعقل، ليس الا مظهراً من مظاهر «الوحش» الكامن في نفوسنا . وهكذا تشد روح الحكمة الرائعة في نفوسنا الى مظهر الوحش او الشيطان . وهو مظهر بتنا نعرف على وجه التأكيد الآن انه ليس الا مجرد التراث الحيواني الذي ورثناه عن اسلافنا ، أو انها تقيد هذا الشيطان بحبل قديم ومتآكل، وتجعله خاضعاً بصورة مؤقتة لنا . ولكن الحبل قد ينقطع ، وقد يخرج الشيطان من اساره ،

---

(١) يشير المؤلف هنا الى افكار هتلر النازية . فقد وضع كتابه هذا في وقت كانت تسيطر فيه هذه الافكار على المانيا ، وكانت تسيطر على العالم ايضاً .

المعرب

وتنطلق عربة المعبود المقدس وسط التهليل والتسبيح فوق رؤوسنا لتذكرنا من جديد ، اننا كنا طيلة المدة قريبين من الحيوانية ، وان حضارتنا زائفة مصطنعة. وتتحول الحضارة آنذاك الى مسرح رائع. يقتل فيه العرب النصارى ، والنصارى العرب ، ويذبح فيه البيض السود وبالعكس ، وتخرج الجرذان فيه من اوكارها لتأكل الجثث البشرية ، بينما تحلق بزاة الطير مطوفة فوق هذه الولائم السخية ، مذكرة ايانا بما في مملكة الحيوان من تشابه . حقاً ان الطبيعة قادرة على خوض مثل هذه التجارب .

ويقوم المحللون النفسيون بشفاء مرضاهم من المصابين بالامراض العقلية ، عن طريق حملهم على عرض ماضيهم ، ورؤية حياتهم بصورة موضوعية . ولو ان البشرية فكرت اطول بماضيها لرأت ان هناك سيطرة له عليها . فلعل معرفتنا بان لنا تراثاً حيوانياً ، واننا قريبون من الوحوش قد تساعدنا على كبح جماح سلوكنا المتوحش . ولا ريب في ان هذا التراث الحيواني يجعل من السهل علينا ان نرى انفسنا على حقيقتنا التي تظهر في الاقاصيص والصور النقدية للحيوان « كاساطير عيسوب » و « برلمان الطير » لشوسر و « رحلات جليفر » لسويفت و « جزيرة بنجوين » لاناتول فرانس . ولقد كانت هذه الاقاصيص الحيوانية صالحة في ايام عيسون ، وستظل كذلك حتى عام ٤٠٠٠ بعد الميلاد .

فكيف نستطيع اصلاح هذا الوضع ؟ ان العقل الناقد يتميز بالضحالة وضيق الافق والجمود ، كما ان التفكير قد لا يجدي كثيراً ، والمنطق لا يكون نافعاً . ولا ريب في ان روح التعقل ، والتفكير الدافىء والمشرق العاطفي والمهم ، المصحوب بالعاطفة ، هو الذي يضمن لنا عدم الرجوع الى صورتنا القديمة. ولعل السبيل الوحيد لانقاذنا يمثل في تطوير حياتنا لجعلها منسجمة مع غرائزنا . واني لأرى ان تهذيب حواسنا وعواطفنا اهم بكثير من تهذيب افكارنا.

٤

عَن الوُجُودِ الإنسَاني

١ – حول كرامة الانسان :

سبق لنا أن درسنا في الفصل السابق تراث الانسان الفاني، والدور الذي يشترك فيه مع عالم الحيوان ، واثر ذلك على طبيعة الحضارة الانسانية . لكن الصورة لم تكمل بعد على اي حال. وما زالت الصورة الكاملة للطبيعة الانسانية والكرامة الانسانية تفتقر الى الكثير . والكرامة الانسانية هي العبارة التي اتوخاها . فهناك حاجة ماسة الى تأكيد هذه العبارة ، كما ان هناك حاجة الى معرفة ما ينطوي عليه تعبير الكرامة ، مخافة ان ترتبك القضية في عقولنا وان نضيعها . فهناك خطر واضح في احتمال خسارة تلك الكرامة في القرن العشرين، ولا سيما في الحقب الاخيرة .

ولو سألني احدهم ... « اتظن ان الانسان اكثر الحيوانات اثارة للدهشة . هذا إذا اصررت علي اننا من الحيوانات » ، لرددت على ذلك بالموافقة . فالانسان

وحده من دون الحيوانات ، صاحب حضارة . وهذا أمر علينا ان لا ننساه . وقد تكون هناك حيوانات اجمل من الانسان في شكلها وصورتها كالجياد مثلاً ، وقد تكون هناك حيوانات اخرى تتميز بعضلات اقوى واشد من الانسان كالاسود ، او تتميز بحاسة شم اقوى ، وبمزيد من الوفاء والولاء كالكلاب . او ببصر اكثر حدة كالنسر ، أو باحساس افضل في تمييز الاتجاه كالحمام الزاجل ، أو بمزيد من الكد والانضباط والقدرة على العمل كالنمل ، أو بمزيد من المزاج الناعم العذب كالغزال أو الحمام، أو بمزيد من الصبر والتحمل كالبقر والجواميس، أو بأصوات اجمل كالبلابل والعنادل ، أو بالزي الجميل كالطاووس والببغاء . ومع ذلك فهناك في القرد خصائص تجعلني اوثره على سائر الحيوان ، كما ان هناك في الانسان شيئاً من فضول القرد وذكائه يجعلني أوثر ان اكون انساناً . ولو قررنا ان النمل تفضلنا عقلانية وانضباطاً ، كما سبق لي ان اوضحت ، وان لها حكومة تفضل في استقرارها حكومة اسبانيا الحالية ، الا اننا لا نستطيع ان نقول ، ان للنمل مكتبات او متاحف . ولو قدر للنمل أو الفيلة ان تخترع تلسكوباً ضخماً ، او تكتشف كوكباً جديداً ، او تتوقع كسوفاً شمسياً ، ولو قدر للزعانف ان تكتشف حساب التكامل والتفاضل أو للزواحف ان تقطع قناة باناما ، لمنحتها البطولة واشهرتها للعالم والخليقة . اجل من حقنا ان نفخر بانفسنا ، ولكن علينا ان نكتشف اولاً مصدر اعتزازنا ، ولباب الكرامة الانسانية .

وقد سبق لي ان بينت في مستهل هذا الكتاب ان الكرامة الانسانية تتألف من اربع خصائص يتميز بها الانسان الذي مجده الادب الصيني ، وهي الفضول الواضح، والقدرة على الاحلام ، وروح النكتة لاصلاح هذه الاحلام ، واخيراً شيء من الغرابة والشذوذ في السلوك . وتمثل هذه الخصائص الاربعة ، الصورة الصينية للعقيدة الامريكية عن الفرد . ولعل من المستحيل ان ترسم صورة اكثر اشراقاً للأفاق كانسان تفردي النزعة ، من تلك التي رسمها الادب الصيني.

وليس من قبيل الصدفة العارضة ان يطلق على وولت ويتمان [1] ، الداعية الفذ من رجال الأدب الأمريكي للتفردية ، اسم « المتعطل الرائع » .

٢ – حول الفضول المتحرك – نشوء الحضارة الانسانية

فكيف بدأ هذا الأفاق الانساني الذي يسمونه « الإمَّعة » لتفاهته يظهر في عالم الحضارة ؟ وما الدلائل الأولى على تطوير ادراكه ، والتفاؤل بمستقبله ؟ يمكن العثور على الرد على هذا السؤال ، في غريزة الفضول المتحرك عند الانسان ، وفي محاولاته الأولى للتسكع حوله ، ماداً يديه ليقلب بهما كل شيء يراه ، هادفا إلى تفحصه ، تماماً كما يفعل القرد في لحظات تعطله ، عندما يدور ويتلفت ، لا لأي هدف آخر سوى التلفت ، وعندما يأخذ في مداعبة زميل له . ولو مضى المرء الى حديقة للحيوان ، لرأى قردين يمسك الواحد منهما باذن رفيقه ، وهناك يرى فيهما صورة اسحق نيوتن وألبرت اينشتاين .

ولا ريب في أن هذه الصورة للنشاطات اللعوبة المتحركة للعبر الانسانية ، المستقصية الباحثة اكثر من مجرد صورة . انها حقيقة علمية . فالحضارة الانسانية نفسها بدأت بتحرك اليدين بعد ان اتخذ الانسان صورة قوام مستقيم واصبح من ذوي الرجلين . ونحن نجد مثل هذا الفضول المتحرك في القط ايضاً ، وذلك عندما يتحرر قائماه الأماميان من واجب المشي ، واسناد

---

(١) ويتمان وولت (١٨١٨ – ١٨٩٢) شاعر امريكي ولد وتعلم في لونج ايلند . خرج على قواعد الشعر وقوانينه ، اتهم بالعهر والفسق للمواضيع التي عالجها . من أشهر دواوينه الشعرية « أوراق العشب » ، و « دقات الطبول » ، و « اغصان الخريف » .

– المعرب –

جسمه . وقد يكون من الممكن بالنسبة الى أية حضارة ، ان تنشأ عن القطط كما تنشأ عن القرود . لولا ان هناك حقيقة واقعة بالنسبة إلى القرود ، وهي ان أصابعها كانت قد نمت كأصابع نتيجة الامساك بفروع الأشجار ، بينما ظلت مخالب القطط على ما كانت عليه منذ الأزل .

وعلي ان أنسى لحظة واحدة ، انني لست من علماء الحياة المؤهلين للبحث في هذا الموضوع ، وان أتصور نشوء الحضارة الانسانية منذ تحررت يدا الانسان . لأخرج بأشياء لم يسبقني اليها أحد ، لأنه لم يلحظها على الغالب . فلا ريب في أن افتراض استقامة الجسم الانساني ، وما تبع ذلك من تحرير اليدين تركت اثاراً ضخمة في حياة الانسان ، اذ مكنته من استخدام الآلات ، والاحساس بالتواضع ، واخضاع المرأة . وكذلك تطوير اللغة ، والزيادة البالغة في الفضول المتحرك وفي غريزة البحث والتنقيب . فالثابت علمياً ان حضارة الانسان بدأت بكشف الأدوات ، وقد تحقق هذا الكشف من تطور اليد الانسانية . وعندما شرع القرد الانساني يهبط من مكانه فوق الأشجار ، لما أصاب جسمه من ثقل ، كان عليه ان يتبع احدى طريقتين ، اما طريقة « النسناس » الذي يسير على اربع ، أو طريقة قرد « الأورانج — اوتانج » الذي تعلم السير على رجليه . ولا يمكن للانسان ان يكون قد تطور عن « النسناس » لأن هذا من ذوات الأربع ، ولأن قائميه الأماميين كانا دائماً مشغولين لكنه كان أقرب الى الأورانج اوتانج في انتصاب قامته ، ولذا فقد تحررت يداه ، وكان لتحررهما أثر ضخم في الحياة الانسانية . وفي غضون ذلك كان القرد الانساني قد تعلم التقاط الثمار بيديه بدلاً من فكيه . ثم خطا الانسان خطوة بسيطة عندما شرع يحيا في كهف يقوم فوق صخرة عالية . حيث يمسك بالأحجار في يديه ويدحرجها فوق المرتفع ليصيب بها اعداءه . وكانت هذا الأحجار اولى الأدوات التي استخدمها . وهنا بدأ شكل من أشكال النشاط عند الانسان عن طريق استخدام اليدين ، بصورة

هادفة او لا هادفة . ولعله في هذه الفترة من اللهو بكل شيء ، اكتشف قطعاً حادة من الصخر . تبيّن منها بصورة عارضة انها انفـــع في قتل اعدائه من الأحجار المدورة . ولا ريب في ان ما ألفه في هـــذه الرحلة من تقليب كل ما يراه بين يديه ، قد زاد من قدرته على رؤية الامور في مجموعها . وكذلك على زيادة الصور التي يحملها في دماغه ، فضاعف ذلك من عدد التجاويف الأمامية في دماغه .

واني لأعتقـــد ان السر في ظهور الحياء الانساني من موضوع الجنس ، وهو حياء لا يوجد في الحيوانات على الاطلاق ، يعود الى قامة الانسان المنتصبة . فقد أدى هذا التركيب الانساني الجديد ، الى ظهور بعض الأعضاء التي كانت خفية في جسم الانسان وهو يسير على اربع ، لتصبح الآن مكشوفة تحتـــل جسد الانسان . وكانت هناك تبدلات اخرى ، ولا سيما بالنسبة الى النسوة ، رافقت هذا الوضع الجديد . وسببت الكثير من عمليات الاجهاض والمتاعب الشاذة ، فلقد خلقت عضلاتنا من الناحية التشريحية ، ونمت وتطورت لتلائم أوضاع ذوات الاربع ، فالخنزيرة الحامل ، مثـــلاً ، تحمل اجنتها من الخنازير معلقة في سلسلتها الفقرية ، تماماً كالغسيل المعلق بصورة متوازنة على حبل للغسيل . ولا ريب في ان مطالبة المرأة الحامل ، بأن تظل منتصبة القامة ، تمثل تماماً رفع حبل الغسيل بصورة عمودية ، وتوقع ما عليه بأن يظـــل على حاله دون ان يهوي ، ولا ريب في ان كل من يعرف شيئـــاً عن التركيب العضوي لرحم المرأة ، يدهش من بقائه في وضعه دائماً ، مؤدياً مهمته ، دون ان تقع هناك حالات كثيرة من الاجهاض . وما زال لغز الحيض الشهري للمرأة ، يفتقر الى التفسير الكافي ، ولكنني على ثقة من انه اذا فرضنا ان تجدد البيوض أمر لا بـــد منه بين فترة وأخرى ، فعلينا ان نقر بأن هذا العمل يتم دائماً بطريقة مؤلمة وطويلة ومفتقرة الى الدقة ، واني لعلى يقين من ان ذلك يعود الى انتصاب قامة المرأة .

وأدت هذه الأوضاع كلها الى اخضاع المرأة للرجـــل ، والى تطور المجتمع الانساني على النحو الذي يقوم فيه وبخصائصه الراهنـــة . ولست أظن بأن المرأة كانت ستخضع لزوجها ، لو انها ظلت قادرة على السير على اربع . فقد ظهر عاملان تداخلا في وقت واحد ، أولهما ان الرجال والنساء كانوا قـــد أصبحوا متعطلين يتحكم فيهم الفضول ، ويتميزون بالحركة المستمرة . وولدت الغريزة الجنسية تعبيرات جديدة . ولم تكن عادة التقبيل قد غـــدت ممتعة او ناجحة ، تمـــاماً كشأنها الآن بين ذكر الشمبانزي وانثاه . ولكن اليد التي تحررت أنمت وطورت حركات جديـــدة حساسة وناعمة من الربت والضم والمداعبة ، نتيجة انشغال اليد الانسانية في العصور القديمة جداً في البحث عن الهوام في الجسد . ولست أشك في أن الشعر الفنائي ما كان لينمو لو أن أجساد اسلافنا التي يغطيها الشعر كانت خاليـة من الهوام . ولا ريب في أن وجودها ساعد كثيراً على تطوير غريزة الجنس .

اما العامل الثاني فهو ان الأم الانسانية الحامل وذات الرجلين ، اصبحت الآن معرضة ولفترة طويلة للغاية ، لحالة من العجز المؤلم . واني لأتصور ان المرأة الحامل كانت في المراحـــل المبكرة من تحول الانسان الى وضع القامة المنتصبة ، تجد ان من الصعب عليها ، ان تسير على قدميها وهي تحمل جنينها ، لأن الأرجل والأيدي لم تكن قد تكيفت بعد تكيفاً كاملاً ، ولأن عظام حوض المرأة لم تكن قد اندفعت الى الخلف لموازنة الحمل الذي تحمله في جانبها الأمامي . وليس ثمة من شك في ان وضع السير على الرجلين كان شاقاً في البداية ، حتى ان الأم الحامل آنذاك كانت تتحين الفرص التي تتوهم فيها ان أحـــداً لا يراها لتسير على أربع ، وتريح عمودها الفقري الذي يؤلمها . ولا ريب في ان هـــذه الأوضاع ، وما تحمـــله من متاعب ، دفعت الأم الانسانية الى استعمال الوسائل الأخرى ، ونشدان الحب عند الرجل ، مضيعة بذلك شيئاً من استقلالها . فقد كانت في تلك الأوقات من الحمل ، في حاجة الى حنان الرجـــل ومداعبته ،

وأطال انتصاب قامة الانسان ايضاً فترة الطفولة قبل ان يتعود الطفل الرضيع السير على قدميه . فبينما نجد ان وليد الفيل أو العجل ، يهرول راكضاً على أرجله الأربع بعد ولادته ، نرى ان الطفل الانساني الرضيع يحتاج الى سنتين أو ثلاث قبل أن يتعلم السير وحيداً ، مؤكداً حاجته في هذه الفترة الطويلة الى عناية الشخص الطبيعي الذي ينتظر منه ان يرعاه ، وهو أمه .

ومضى الانسان بعد ذلك في طريق جديد من التطور . فلقد تطور المجتمع الانساني من الحقيقة الواقعة التي تقول بأن الجنس أصبح يزيّن الحياة اليومية للانسان، الى الحقيقة التي تقول ان انثى الانسان اكثر انوثة عن طريق الوعي من انثى الحيوان ، فالزنجية اكثر انوثة من النمرة ، والنبيلة المتحضرة اكثر انوثة من اللبؤة . وبدأت الفروق المتخصصة تظهر بين الرجل والمرأة ، واخذت الأنثى تزين نفسها ، بقلع الشعر من وجهها وصدرها . وكانت هذه الاجراءات كلها ، وسائل في سبيل الحفاظ على البقاء ، اذ اننا نراها الآن بوضوح بين الحيوانات ، فالنمر يهاجم خصمه في سبيل البقاء ، بينما تختفي السلحفاة في قوقعتها ، ولغير الجواد . فالمرأة تنشد البقاء عن طريق الحب والجمال . ويتمتع الرجل لساعد أقوى من ساعد المرأة ، ولذا فقد يئست من مشاكسته ومقاتلته . ووجدت ان من الخير لها في سبيل بقائها ان ترشوه ، وتخدعه وترضيه . وهذه هي طبيعة حضارتنا في هذه الأيام . فلقد تعلمت المرأة ان تجتذب وتستهوي بدلاً من ان تصد وتهاجم ، وبدلاً من تحقيق ما تريد بالقوة راحت تسعى اليه باللين والنعومة . والنعومة على أي حال هي الحضارة . ولذا فأنا اعتقد ان الحضارة الانسانية بدأت عند المرأة لا عند الرجل .

وليس في وسعي ان اقاوم الرغبة في الظن بأن المرأة لعبت دوراً اكبر من الرجل في تطوير الكلام الذي نطلق عليه اسم اللغة اليوم . فغريزة الكلام قوية عند المرأة الى الحد الذي اعتقد فيه انها ساعدت على خلق اللغة الانسانية

بصورة تفوق دور الرجل في خلقها . واني لأتصور ان الرجال الأول كانوا مخلوقات صامتة عابسة . واني لأفترض ان اللغة البشرية بدأت اول ما بدأت ، عند ما كان الرجال الأول غائبين عن بيوتهم طلباً للصيد ، وكانت زوجتان جارتان تجلسان امام كهفيهما . تحاولان المقارنة بين زوجيهما ، وكانت الواحدة منهما تريد أن تحدث الاخرى عن حب زوجها لها في الليلة الماضية وعن تصرفها الذي اساءه . أجل لا ريب في ان اللغة البشرية بدأت على هذا النحو ، لا في اية صورة اخرى . يضاف الى هذا ان ما وقع في الانسان من تطور ، دفعه الى حمل الطعام بيديه ، بعد ان كان الفك يقوم بحمل الطعام ومضغه في البداية مما ادى بصورة متدرجة الى تقلص الفك الانساني وتضاؤل حجمه وساعد في تطوير اللغة الانسانية .

ولكن النتيجة الهامة لهذا الوضع الجديد ، تمثلت في تحرير اليدين ليمسك بهما الاشياء ويقلبها . وهو عين ما تفعله القرود في البحث عن الهوام في اجساد بعضها البعض . وادى البحث عن هذه الهوام الى تطور روح الاستقصاء طلباً للمعرفة عند الانسان . وما زال التقدم الانساني يتمثل حتى اليوم والى حد كبير في البحث عن شكل أو آخر من اشكال الهوام التي تضايق المجتمع الانساني . فقد نمت مع الانسان غريزة الفضول التي تدفع العقل الانساني الى البحث الحر والمتحرك ، عن جميع المواضيع والامراض الاجتماعية . وليس لهذا النشاط الانساني اية صلة بالبحث عن الطعام ، وانما هو تدريب بسيط وصريح للروح الانسانية . ولا تبحث القرود عن الهوام لانها تريد ان تأكلها . بل لانها تريد ان تلهو بها . وهذه هي الميزة الرئيسية للتعلم الانساني والبحث البشري ، لانها ترمز الى الاهتمام بالاشياء لمعرفة حقيقتها وطبيعتها . لا لأن هذه المعرفة تساعد بصورة مباشرة وفورية على اطعام المعدة . واذا كنت اناقض هنا الطبيعة الصينية ، فاني سعيد كصيني في ان اناقض نفسي . ولا شك في انني اعتبر ان هذه الميزة قد ساعدت الى حد كبير في خلق الكرامة الانسانية . فالمعرفة او

نشدانها ، ضرب من ضروب اللهو ، وهذه حقيقة بالنسبة الى جميع العلماء والمخترعين من ذوي الاهمية او الذين يحققون نتائج مهمة . ويكون المهرة من اطباء البحث الطبي اكثر عناية بالجراثيم منهم بالناس ، كما يحاول علماء الفلك تسجيل حركات كوكب سيار يبعد عنا مئات الملايين من الاميال ، بالرغم من ان هذا الكوكب لا يستطيع التأثير على الحياة الانسانية على الكوكب الذي نعيش فيه . وتتميز جميع الحيوانات ولا سيما الضعيفة منها بالرغبة في اللهو ، لكن الفضول المتحرك ، لم يتحول الى المدى المهم الا عند الرجل البالغ .

ولعل هذا هو السبب الذي يدعوني الى كره الرقابة على الكلمة وجميع اجهزة الحكم وصوره التي تحاول السيطرة على تفكيرنا . ولا استطيع الا ان ارى في مثل هذا الرقيب او الحاكم شخصاً يريد عن عمد او بصورة عفوية الاستهانة بالفكر الانساني . ولو كانت حرية الفكر هي اعلى نشاط للعقل الانساني . فان كبت تلك الحرية يعتبر استهانة بنا كبشر . ولقد عرف يوربيديس[1] العبد بأنه رجل فقد حرية تفكيره ورأيه . وليس الحكم الاستبدادي الا مصنعاً ينتج عبيداً من الطراز الذي عرفه يوربيديس . أوليست هناك نماذج من هؤلاء العبيد في الشرق وفي الغرب . في القرن العشرين وفي مقر الحضارة الانسانية . ولا ريب في ان كل حكم مستبد مهما كان شكله يعتبر محطاً من الناحية الفكرية . ولقد سبق لنا ان رأينا صوراً منه في القرون الوسطى بصورة عامة وفي محاكم التفتيش الاسبانية بوجه خاص . وقد يعتقد

---

(١) يوربيديس (٤٨٠ – ٤٦٠ ق م) – ثالث المشاهير من كتاب المسرحية عند الاغريق وهم ايسكليس وسوفوكليس ويوربيديس . ولد في جزيرة سلاميس من اسرة يختلف الرواة في تقدير مرتبتها بالنسبة الى الحياة الاجتماعية . وكان يوربيديس واقعياً في مسرحياته التي عكست عواطف الحياة اليومية ومهازلها . من اشهر مسرحياته « نساء كريت » و « نساء فينيقيا » و « افيجينيا في عوليس » وغيرها .

المعرب

الساسة ورجال الدين من قصار النظر ان وحدة الفكر والاعتقاد تؤدي الى السلام والنظام ، ولكن النتيجة كانت دائماً وتاريخياً محطة ومزعجة للشخصية الانسانية . ولا ريب في ان مثل هؤلاء الاوتوقراطيين يزدرون الشعوب بوجه عام . عندما لا يحصروا انفسهم في تنظيم سلوك الأمة الخارجي وحده فحسب ، بل يعملون على توحيد افكار الناس الداخلية ايضاً ومعتقداتهم . وهم يثقون ثقة ساذجة بان افكار الناس ستجاري هذه الوحدة الفكرية وانهم سيطيعون أمر الداعية الرسمي في حب او كره أي كتاب او لحن موسيقي او صورة موسيقية . ولقد حاولت كل حكومة اوتوقراطية المزج بين الادب والدعاية والفن والسياسة ، وعلم الاجناس والوطنية ، والدين وعبادة الفرد الحاكم .

ولكن هذا لا يمكن ان يحدث ، واذا كان المسيطرون على الفكر يفرطون في العمل ضد الطبيعة الانسانية نفسها فانهم بذلك يبذرون بذرة سقوطهم . ويقول مينسيوس [1] ... « اذا كان الحاكم يعتبر شعبه من اوراق العشب ، فان العشب سيعتبر حاكمه مجرد لص أو عدو » . وليس ثمة من لص في العالم اكبر من ذلك اللص الذي يسرق منا حرية فكرنا . ولو اننا حرمنا من حرية التفكير ، لعدنا نسير على اربع ولاعتبرنا تجربتنا الراهنة في السير على قدمين خطيئة من الخطايا ، ولعدنا الى الوضع الذي كنا عليه قبل نحو من ثلاثين الف عام . ولا ريب في ان مينسيوس قد عنى بأن الشعب سيثور على هذا اللص . كما يحتقر هذا اللص الشعب وبنفس النسبة . وكلما زاد ما ينهبه اللص كلما زادت كراهية شعبه له . ولما كانت حرية فكرنا ومعتقداتنا هي اثمن ما نملكه من الأمور

---

(١) مينسيوس - الاسم اللاتيني لمينج تسي (٣٧٢ - ٢٨٩ ق . م) - حكيم من حكماء الصين . يلي كونفوشيوس في المرتبة بين حكماء الصين . ألف احد « الكتب الاربعة » التي تؤلف كتاب الصين الديني . قامت والدته بتربيته . وتعتبر في الصين الصورة المثالية لجميع الامهات .

- المعرب -

الشخصية . فليست ثمة كراهية اشد من تلك التي تتولد في نفوسنا ضد ذلك الحاكم الذي يحاول الحد من هذه الحرية . ولكن مثل هذا القصر في النظر ، شيء طبيعي في الحاكم المستبد ، اذ ان هؤلاء المستبدين يكونون متخلفين من الناحية الفكرية . ولا شك في ان تصميم الشخصية الانسانية ، وما يتمتع به الضمير الانساني من حرية لا يمكن اخمادها . يعودان الى الظهور ليقضيا على الحاكم المستبد ويثأرا منه .

٣ ـ حول الاحلام

كثيراً ما يقال بأن عدم الرضى شيء سماوي ، ولكنني اقول انه شيء بشري . ولقد كان القرد اول حيوان عابس مكفهر ، ولم يسبق لي ان رأيت وجهاً حزيناً بين الحيوانات كوجه الشمبانزي . وكان يخيل الي ان في حزن الشمبانزي شيئاً من الفلسفة ، اذ ان الحزن والتفكير صنوان بل توأمان . واني لأقرأ الكثير في الوجه المعبر عن التفكير . ويبدو ان الابقار لا تفكر ، ولا تحاول فلسفة الأمور . لانها تظهر الرضى دائماً ، وبالرغم من ان الفيل قد يخفي احياناً غضباً مريعاً ، الا ان الحركة الدائمة لخرطومه ، وهي التي تحل محل التفكير ، تستبعد أية فكرة عن عدم الرضى . ولعل القرد هو الحيوان الوحيد الذي يبدو ضيق الصدر بالحياة . حقاً ان القرد حيوان عظيم .

وليس ثمة من شك في ان الفلسفة قد نشأت مع الاحساس بضيق الصدر . ولعل من خصائص الانسان ان يكون له وجه حزين مغلق ومتلهف للوصول الى مثل اعلى . ويميل الانسان الذي يعيش في عالم الواقع ، الى ان يحلم بعالم آخر . ولعل الفرق الوحيد بين الانسان والقرد ، ان القرد يحس بالضيق وفروغ الصبر ليس إلا بينما يضيف الانسان الخيال اليها . فكلنا يرغب في الخروج من واقعه

الضيق ، وكلنا يرغب في ان يصبح شيئاً آخر ، وكلنا يحلم . فالجندي يحلم بأن يصبح عريفاً ، والعريف يحلم بان يغدو نقيباً ، والنقيب يحلم بان يغدو رائداً او عقيداً . ولو كان العقيد يستحق ان يكون عقيداً فعلاً ، فانه لا يعتبر هذه الرتبة شيئاً ، وانما يعتبرها فرصة يخدم مواطنيه عن طريقها . ولا ريب في انه يكون محقاً في ذلك . فجوان كروفرد مثلاً ، لا تعتبر نفسها شيئاً كبيراً في عالم السينما ، كما ان جانيت جينور ، لا ترى في نفسها مــا يراه الناس فيها . ويسأل الناس الشخص العظيم عادة ... « ألست بارزاً حقــاً ؟ » فيرد العظيم ، اذا كان عظيماً حقاً . . «وما العظمة فيّ يا ترى؟». وليس العالم الا كمطعم ، يؤدي الطعام لزبائنه حسب طلبهم ، حيث يظن كل انسان ان ما طلبه الشخص الآخر الجالس على المائدة المجاورة خير ممــا طلبه واشهى . ويقول استاذ صيني معاصر عن موضوع الرغبة ... «يفضل الانسان زوجات الآخرين على زوجته ، بينما لا يرى كتابة اخرى تفضل كتابته» . ويتضح من هذا انه يندر وجود القناعة في العالم . فكل انسان يريد ان يكون شخصاً آخر غير شخصه .

وتعود هذه النزعة البشرية حتماً الى قدرة الانسان على الخيال ، وقدرته على الحلم . وكلما ازدادت قدرة الانسان على الخيال والتصور كلما ازداد سخطه وعدم رضاه . ولعل هــذا السبب هو الذي يجعل الطفل الواسع الخيال ، دائماً ولداً عصياً شاقاً ، اذ انه يكون أميل دائماً الى الحزن والتهجم كالقرد ، لا الى السعادة والرضى كالبقرة . ولا ريب في ان الطلاق يكون ايضاً اكثر شيوعاً بين الخياليين والمثاليين منه لدى المفتقرين الى الخيال . ويكون لتصور الزوجة المثالية كرفيقة حياة قوة لا تقاوم عند الشخص الخيالي منها عند الانسان الاقل خيالاً وتعلقاً بالمثل . ولا ريب في ان الانسانية تضل كثيراً كما ترتقي عن طريق هذه القــدرة على المثالية ، كما ان التقدم الانساني يصبح مستبعداً بدون هذه الموهبة على الخيال .

وللانسان كما يقال تطلعاته . والتطلبات شيء مستحب ، لانها تعتبر دائماً من

الأمور النبيلة . ولم لا يكون ذلك ؟ فنحن كافراد وكأمم ، نحلم ونعمل طبقاً لاحلامنا . وهناك من يحلمون اكثر من غيرهم ، تماماً كما ان في كل اسرة طفل يحلم الكثير ، وآخر يحلم القليل . وانا اعترف بأنني اكثر ميلاً وتحيزاً الى الطفل الذي يحلم . وبالرغم من انه يبدو في الغالب اكثر حزناً من رفيقه الا انه اقدر منه ايضاً على الفرح والنشوة . فانا ارى اننا اشبه ما نكون بجهار استقبال للافكار ، تماماً كما تستقبل اجهزة الراديو ، الموسيقى من الهواء . وتكون الاجهزة الدقيقة اكثر استعداداً لالتقاط الامواج القصيرة التي لا تلتقطها الاجهزة الاخرى ، وبذلك تلتقط الموسيقى الناعمة من الاجزاء البعيدة .

ولا تكون احلام الطفولة ، بعيدة عن الواقع كما قد نتصور . فهي على أي حال تظل معنا طيلة حياتنا . ولعل هذا السبب يدفعني ان أوثر ان اكون هانز كريستيان اندرسون[1] لا غيره لو قدر لي ان اختار ان اكون مؤلفاً . ولا ريب في ان كتابته لقصة « حورية البحر » ، بعد ان تصور نفسه احدى هذه الحوريات يفكر تفكيرها ، ويحلم في ان يطغى في السن ليخرج الى سطح الماء ، دليل على احساس رائع يعتبر من اروع ما تستطيع الانسانية تقديمه من احاسيس .

وهكذا نجد ان الطفل يحلم دائماً ، اينما كان ، وان احلامه تكون واقعية .

---

(١) هانز كريستيان اندرسون (١٨٠٥ – ١٨٧٥) كاتب دنياركي ذو شعبية كبيرة ومن اعظم كتاب قصص الاطفال في العالم . بدأ حياته في اعداد مسرح للعرائس للاطفال . له عدد من دواوين الشعر وقصص الاساطير .

– المعرب –

وهكذا حلم توماس اديسون[١] ، وكذلك روبرت لويس ستيفنسون[٢] والسير وولتر سكوت[٣] . اجل كثيراً ما حلم الثلاثة في طفولتهم . وقد نسجوا من هذه الاحلام ، نتاجاً يعتبر من اروع ما حققته البشرية . ولكن هناك اطفالاً آخرين اقل اهمية من هؤلاء ، يحملون مثل هذه الاحلام . وبالرغم من ان رؤاهم واحلامهم تكون مختلفة ، الا ان ما تنطوي عليه من مسرات ومباهج تكون عظيمة . فلكل طفل روح متلهفة ، يضمها في حضنه عندما يمضي الى النوم ، آملاً ان يجد حلمه قد تحقق عندما يصحو في الصباح . وهو لا يحدث احداً بما يحلم به ، لأنها احلامه هو ، ولانها تؤلف جزءاً من ذاتـــه الداخلية النامية . وتكون بعض احلام هؤلاء الاطفال اوضح من غيرها ، وهي تملك قوة فرضها وتحقيقها . أما الاحلام الاقل وضوحاً فتنسى مع نمو الطفل وكبر سنه ، ونحن نعيش حياتنا كلها نحاول ترديد ما حلمناه في طفولتنا ، وكثيراً ما انتهت حياتنا قبل ان نجد القدرة على التعبير عن احلامنا .

وينطبق هذا القول على الأمم ايضاً ، فللأمم أحلامها ايضاً ، وتعيش هذه الأحلام عبر الأجيال والقرون . وقد يكون بعض هذه الأحلام من النوع النبيل

---

(١) توماس اديسون (١٨٤٧ – ١٩٣١) – مخترع امريكي . ولد في اوهـايو من اصل هولندي . تعلم العمل على اجهزة البرق من صغره . وبدأت عبقرياته الاختراعية تظهر فيما بعد . وكانت معظم اختراعاته اولاً في اجهزة البرق ثم انتقل الى الحاكي ، واجهزة الهاتف ، والبرق اللاسلكي . ويقال انه اسهم الى حد ما في اختراع السينما .

(٢) روبرت لويس ستيفنسون (١٨٥٠ – ١٨٩٤) – كاتب اسكوتلندي مشهور . درس الهندسة في الجامعة ثم انتقل الى القانون ولكنه لم يمارس المحاماة بل بدأ يعمل في الكتابة في الصحف . وضع عـدداً من كتب الرحلات . من اشهر كتبه « جزيرة الكنز » و « المخطوفة » و « السهم الاسود » و « الامير اوتو » .

(٣) السير وولتر سكوت (١٧٧١ – ١٨٣٢) من اشهر شعراء انجلترا وقصاصيها ومؤرخيها . ولد في ادنبره ، واصيب بالعرج في صباه . وظل ملازماً له طيلة حياته . درس الحقوق واصبح محامياً . من اشهر مؤلفاته « سيدة البحيرة » و « ايفانهو » و « الدير والراهب» .

– المعرب –

بينما قد يكون بعضها من النوع الشرير والمعيب . ولا ريب في ان أحلام الغزو والفتح والتوسع من الأحـلام السيئة ، لا سيما وان الأمم التي تحلم بمثل هـذه الأحلام ، تجـد ما يضايقها ويزعجها اكثر من الأمم ذات الأحلام السلمية . ولكن هناك احلاماً اخرى أفضل وأنبل ، الأحلام بخلق عالم أفضل ، وباحلال السلام بين الأمم والتعايش بينها ، والأحلام بالخلاص من الظلم والفاقة ، والألم والقسوة . وتميل الأحلام السيئة الى تحطيم احلام الانسانية الطيبة ، وهناك دائماً صراع بين الأحـلام الطيبة والسيئة . وتقاتل الناس دفاعاً عن احـلامهم كما يقاتلون دفاعاً عن ممتلكاتهم . وهكذا تهبط الأحلام من عالم الرؤى التي لا جدوى فيها ، وتدخل عالم الواقـع ، وتصبح قوة فعلية في حياتنا . ومهما اتصفت الأحلام بالغموض فأنها تملك القدرة على اخفاء نفسها ، دون ان تتيح لنا الهدوء والراحة ، الى ان تتحول الى واقع ، تماماً كالبذور التي تتولد داخـل الأرض ، وتنمو ، لتندفع شاقة طريقها الى السطح باحثة عن النور . حقاً ان الاحلام من امور الواقع .

وهناك خطر في ان نخلط بين احلام الواقع ، وبين الأحلام التي لا تتصل به على الاطـلاق . وكثيراً ما تكون الأحلام وسيلة للهرب ، وكثيراً ما يحلم الانسان ليخلص من عالمه الراهن دون ان يعرف الى اين المفر . وهناك رؤى تجتـذب دائماً خيالات الرومانسيين . وهناك رغبة انسانية في ان يختلف الانسان عمّا هو عليه ، وان يخرج من الوضع الذي هو فيه ، معتقداً ان كل ما يضمن له التغيير ، يستثير هوى ضخماً عند الانسان العادي . وتستهوي الحرب بعض الناس لأن الكاتب العادي في مكتب ، يرى فيها فرصة لارتـداء البزة العسكرية ، والسفر المجاني ، كما تستهوي الهـدنة بحثاً عن الصلح الناس الذين أضنتهم السنوات الطويلة من الحرب والاقامة في الخنادق ، لأنها تتيح للجندي الفرصة للعودة الى داره ، وارتداء الملابس المدنية من جديد . وتحتاج الانسانية الى مثل هـذه الاثارة ، واذا ارادت الحكومات تجنب الحرب ، فان على

الحكومات ان تجنـــد الناس بين سن العشرين والخامسة والأربعين طبقاً لنظام التجنيد الاجباري ، وان تبعث بهم في رحلات الى اوروبا لرؤية المعارض أو غيرها من المباهج مرة كل عشر سنوات . وتنفق الحكومة البريطانية خمسة بلايين من الجنيهات على تسلحها وهو مبلغ كاف لارسال كل انجليزي ، في جولة يطوف ابانها ساحل الريفييرا . ولكن خصوم هذا الرأي يقولون بالطبع ان الانفاق على التسلح ضرورة ، بينما الانفاق على السياحة من الامور الكمالية . واني لأميل الى الاختلاف مـــع هذا الرأي . فالسياحة في رأيي ضرورة بينما الحرب من الامور الكمالية .

وهناك احـلام اخرى ايضاً . فهناك من يحلم بالعالم الطوبائي المثالي ، أو من يحلم بالخلود البشري . ولا ريب في ان حلم الخلود ، من الصور البشرية الشائعة في العالم ، وان كان لا يختلف في غموضه عن غيره من الأحـــلام ، لا سيما وان كثيرين من الناس لا يعرفون ما سيحـــل بهم فيما اذا تحقق لهم الخلود فعلاً . فالرغبة في الخلود على أي حال ، تعتبر النقيض الصحيح للنفسية الانتحارية ، ولكنها تشترك معهـا في بعض الخصائص ، فكلتاهما تفترض ان العالم الذي نعيش فيه ليس بالشيء الصالح لنا . ترى ما السبب في ذلك ؟ ان مثـــل هذا السؤال لا الرد عليه سيثير دهشتنا لو اننا كلفنا انفسنا عناء الخروج لزيارة الريف في يوم من أيام الربيـع .

وينطبق هذا على الأحلام الطوبائية ايضاً . فالمثالية هي تلك الحالة العقلية التي تؤمن بنظام عالمي آخر ، طالمـــا ان هذا العالم يختلف عن عالمنا الحالي . وليس الليبرالي المثالي الا ذلك الانسان الذي يظن ان بلاده اسوأ بلاد في العالم ، وان المجتمع الذي يعيش فيه هو اسوأ صور المجتمعات كلها . انه نفس ذلك الانسان في المطعم الذي يقدم الطعام لزبائنه حسب الطلب ، والذي يظن ان الطعام الذي قدم الى المائدة المجاورة خير من الطعام الذي قدم اليه . ويقول محرر باب « العناوين » في صحيفة النيويورك تايمز ، ان سد نهر الدينيبر في روسيا

هو السد الحقيقي في عيون اولئك الليبراليين والديمقراطيين الـــذين لم يبنوا قط سداً في حياتهم . ولا ريب في ان السوفيات أقاموا ايضاً شبكة مواصلات تحت الأرض . أما الصحافــة الفاشية فكانت تقول من الناحية الأخرى لشعبها ان بلادها وحدها سجلت اكتشاف الجنس البشري للنظام الوحيد المعقول والفعّال والصحيـــح من انظمة الحكم . وهنا يكمن خطر الليبراليين الطوبائيين وخطر الدعاة الفاشيين ، ولعل السبيل الوحيد لتصحيح اخطائهم ، هو ان يكون لهم احساس بالنكتة .

٤ – حول الاحساس بالنكتة

يتطرق الى ذهني الشك في ان العالم قدر تقديراً كاملاً اهمية النكتة وأهمية استعمالها في تغيير طبيعة حياتنا الثقافية كلها وصفاتها ، ومكانها في السياسة والبحث العلمي والحياة . ولما كانت مهمة النكتة كيماوية اكثر منها طبيعية . فأنها تعمل على تغيير الصورة الأساسية لأفكارنا وتجاربنا . وفي وسعنا ان نعتبر أهميتها في حياتنا القومية حقيقة يسلم بها . والمعروف ان عجز القيصر الألماني غليوم عن الضحك كلفه امبراطوريته . أو كلف الشعب الألماني ، على حد قول الأمريكيين بلايين الدولارات . ومن المحتمل ان يكون غليوم هو هنز و لرن من الناس الذين يضحكون في حياتهم الخاصة ، ولكنه كان يبدو امام الناس دائماً في مظهر كريه ، بشاربه الكث ووجهه العابس وكأنه غاضب من انسان معين . ولا ريب ايضاً في ان نوع ضحكـــه والأشياء التي يضحك لها كالنصر والنجاح والتغلب على الآخرين ، كانت عوامل مهمة في تقرير طوالع حياته . ولا شك في ان المانيا خسرت الحرب الأولى لأن غليوم لم يكن يعرف متى يضحك ، أو ما الذي يضحك له ، فلم يكن للضحك اثر في تحديد احلامه .

ولعـــل اسوأ تعليق على نظم الحكم الديكتاتوريـــة ، ان الديمقراطيين يستطيعون ان يضحكوا ، بينما يبدو الديكتاتوريون جادين دائماً ، وقد تصلب فكهم ، واندفعت شفتهم السفلى ، وكأنهم يحققون عملاً مهماً ، وان انقاذ العالم لا يتم إلا على أيديهم . فالمعروف ان روزفلت كان دائم الابتسام ، وقـــد قربه هـــذا من قلوب أبناء الشعب الأمريـــكي . ولكن اين كانت ابتسامات هتلر وموسوليني ؟ أو لم يكن شعباهما يريدان منهما ان يبتسما ؟ او كان من الضروري بالنسبة اليهما ان يظلا عابسين ، وقد بدا عليهما التقزز او الغضب او الجـــد ، ليظلا قادرين على حكم شعبيهما ؟ ولعل خير ما قرأته عن هتلر ، انه كان دائماً طبيعياً في حياتـه الخاصة ، ولكن لا بـد وان يكون النظام الديكتاتوري خاطئاً ، اذا كان لا بد للديكتاتور من ان يظل غاضباً ومتصنعاً الأمجاد ، حقاً انه مزاج خاطىء .

وليس الحـــديث عن ابتسامات الديكتاتورين بالشيء التافه ، فلعـــل من الخطورة بمكان ، ان يظل الحكام عابسين ، وكأن المدفع في أيديهم . ويمكن ادراك أهمية النكتة في عالم السياسة ، اذا تصورنا عالمـــاً يسيطر عليه حكام ساخرون . ولو ارسلنا خمسة او ستة من خيرة الساخرين في العالم الى مؤتمر دولي ، وفوضناهم بصلاحيات الحكام الأوتوقراطيين ، فسيكون في الامكان انقاذ العالم . ولما كانت النكتة تسير جنباً الى جنب مع المنطق السليم والروح المعقولة . ولمـــا كانت تصحب عادة بالقدرات العقلية المـــاكرة والخارقة على إكتشاف التناقضات والحماقات وسخف المنطق ، ولما كان هـــذا الوضع يعتبر أرفع صورة من صور الادراك الانساني . فسنكون على ثقة من ان كل دولة ستمثـــل في مثل هذه الحالة في المؤتمر بأكثر عقول ابنائها حكمـــة ومنطقاً . ولنفرض ان برناردشو يمثـــل ارلندة ، وستيفان ليكوك يمثل كندا ، وان وودهاوس او الدوس هكسلي يمثل انجلترا ، وروبرت بينشلي أو هيوود برون يمثل الولايات المتحدة ، وان امثال هؤلاء يمثلون ايطاليا وفرنسا والمانيا وروسيا ،

واننا بعثنا بهم جميعاً الى مؤتمر عشية نشوب حرب عالمية ، فسنرى انهم عاجزون عن اشعال الحرب ، حتى ولو عملوا كل ما في جهدهم لاشعالها . أفي وسع الانسان ان يرى مثل هذه المجموعة من الدبلوما تيين الدوليين تشن حرباً او تتآمر على شن حرب ؟ ان احساسهم بالنكتة يمنعهم من ذلك. فالذين يعلنون الحروب يكونون اما نصف مجانين او مغرقين في الجدية ، اذ انهم يكونون على ثقة من انهم على حق ، وان الله يقف الى جانبهم . اما الانسان صاحب النكتة ، فيكون اوسع عقلاً ، ولا يفكر هذا التفكير . وسيجد المرء جورج برنارد شو يقف في هذا المؤتمر ليصرخ ان بلاده ارلندة مخطئة ، كما يجد رساماً كاريكاتورياً من برلين يحتج بان الخطأ كله يقع على عاتق المانيا ، بينما يقول هيوود براون ان الخطيئة تقع على عاتق امريكا ، ويقوم ستيفان ليكوك وهو في مقعد الرئاسة بالاعتذار عن الانسانية كلها ، مذكراً كل انسان ان ليست هناك امة تفوق الأمم الاخرى في موضوع البلادة والحمق . فكيف يمكن لنا ان نشن حرباً باسم النكتة في مثل هذه الظروف ؟

وهنا نتساءل ، من الذي يشرع في الحروب للناس ؟ انهم اولئك الذين يتميزون بالطموح والقدرة والذكاء والدهاء والحرص والحكمة والتكبر والاغراق في الوطنية ، والذين تحرقهم « الرغبة » كما يقولون لخدمة الجنس البشري ، والذين يتطلعون الى بناء مستقبل لهم ، والى ترك اثر لهم في العالم ، والذين يأملون في ان يتطلعوا الى التاريخ في عيني تماثيل من البرونز تقام لهم وهم يمتطون صهوات جياد برونزية وسط الميادين العامة . ولعل من الغريب ان الذين يتميزون بالقدرة والذكاء والطموح والترفع ، هم في الوقت نفسه اكثر الناس جبناً ، اذ انهم يفتقرون الى ما يتميز به اصحاب النكتة من شجاعة وعمق ودهاء . فهم لا يهتمون الا بالتوافه من الأمور بينما يهتم اصحاب النكتة والمزاج بعقولهم الواسعة الأفق بالقضايا الواسعة . فهناك رأي بأن الدبلوماتيين الذين لا يتكلمون همساً والذين لا يظهرون فزعين وخائفين ، وحريصين ومستقيمين لا يعتبرون من

الدبلوماتيين على الاطلاق ... ولكن على أي حـال لسنا في حاجة إلى مؤتمر دولي لذوي النكتة والمزاج لانقاذ العالم . فهناك مخزون كاف من هذه السلعة المرغوبة التي يسمونها الاحساس بالنكتة في كل منا . ففي وسعنا اذا كان العالم يقف على شفير حرب مدمرة مفجعة، ان نرسل الى المؤتمرات اسوأ الدبلوماتيين، واكثرهم تجارب وثقة بالنفس ، وطموحاً ، واكثرهم رغبة في الهمس ، واظهاراً للفزع والخوف والحرص والاستقامة ، بل واكثرهم تلهفاً على التظاهر « بخدمة » الانسانية . ولكن كل ما يطلب منا لتجنب الحرب في مثل هذه الحالة ، ان نعرض عليهم في مستهل كـل جلسة صباحية ومسائية ، ولمدة عشر دقائق ، شريطاً سينمائياً من اشرطة « ميكي ماوس » نفرض على جميع الدبلوماتيين ان يروه .

وهذه هي المهمـة الكيماوية للنكتة او الهزل في رأيي ، وهي تحويل طبيعة افكارنا . واني لاعتقد انها تصل الى جذور حضارتنا وتمهد الطريق لمجيء «العصر المعقول » في مستقبل العالم الانساني ، ولست ارى ثمة من مثـل اعلى واعظم للانسانية من قيام « العصر المعقول » . فهذا العصر على اي حال هو الشيء المهم الوحيد ، اذ يعني قيام جيل من الناس مشبعين بالروح المنطقية العاقلة ، وبتغليب الخير ، والتفكير البسيط ، والمزاج الهادىء ، والنظرة المتحضرة . ولن يكون العالم المثالي الذي تتطلع اليه البشرية ، عالماً عقلانياً، ولا عالماً كاملاً بمعني الكمال، وانما سيكون عالماً تبدو فيه العيوب لتوها ، وتسوى فيه الخلافات فوراً. ولعل هذا هو خير ما نأمل به للجنس البشري ، والحلم النبيل الذي نتوقع تحقيقـه . ويبدو ان هـذا قد يعني اشياء عدة ، منها البساطة في التفكير ، والمرح في الفلسفة ، والمنطق الحاذق وهي امور لا بد منها لتحقيق الحضارة المعقولة . لكنها في الوقت نفسه خصائص تتعلق بحب النكتة ويجب ان تنبع منها .

وقد يكون من العسير تصور هذا الطراز من العالم الجديد، لأن العالم الراهن

تختلف عنه كل الاختلاف . فحياتنا في مجموعها مركبة ومعقدة ، وبحوثنا جدية للغاية ، وفلسفتنا حزينة ، وافكارنا مشغولة تماماً . ولا ريب في ان هذا الجد وهذا التركيب لافكارنا وبحوثنا يجعلان عالمنا الراهن ، عالماً جد تعيس .

وعلينا ان نسلم بان بساطة الحياة والفكر ، هي اسمى مثل حضاري واكثره عقلاً ، وان الحضارة تصبح حاشدة بالمتاعب ومنحطة ، اذا فقدت بساطتها ... ولم يتخلى السفسطائيون عن سفسطتهم . فالانسان يصبح في مثل هذه الحالة عبداً لافكاره وآرائه ومطامحه ونظمه الاجتماعية ، وكلها من ثمار خلقه . ويبدو ان الجنس البشري الذي تثقله هذه الاحمال من الآراء والافكار والمطامح والنظم الاجتماعية ، يعجز عن الارتفاع فوقها . ولكن هناك قوة للعقل الانساني تستطيع لحسن الحظ ان تحلق فوق هذه الآراء والافكار والمطامح ، وان تنظر اليها نظرة ساخرة ، وهذه القوة هي ما يتميز به صاحب النكتة والمزاج من حذق ومهارة . فهو يعامل الآراء والافكار كما يعامل بطل الجولف أو البليياردو كراته ، أو كما يداعب رعاة البقر انشوطاتهم . فهناك ثقة عنده بنفسه ، وخفة في لمسه لهذه الافكار تنبع من براعته . وعلى كل حال ، فالرجل الذي لا يهتم كثيراً بافكاره هو الذي يستطيع السيطرة عليها ، وهو في الوقت نفسه القادر على التحرر من استعبادها . وليس الجد على أي حال الا دليلاً على الجهد . وليس الجهد الا دليلاً على نقص السيطرة . ويحس الكاتب الجاد بالشقاء في ملكوت الفكر تماماً كما يحس غني الحرب بالاستغراب والشقاء في المجتمع . وليس هذا الجد الذي يتميز به الا نابعاً من احساسه بأنه لا يألف افكاره .

ولعل من المفارقات الغريبة ان تصبح البساطة والحالة هذه العلاقة المظهرية على عمق التفكير . ويبدو لي ان البساطة هي اصعب ما يصل اليه الانسان في البحث والكتابة . فوضوح الفكر شيء عسير ، لكن البساطة لا تتحقق الا اذا تحقق هذا الوضوح . وعندما نجد كاتباً يقارع فكرة من الافكار ، ندرك ان هذه الفكرة تجلده بسوطها . ويمكن التدليل على صحة هذا الرأي ، بما نراه عند

الأساتذة الشبان ، المتخرجين حديثاً من تعقيد وصعوبة في محاضراتهم الجامعية، بينما تبدو بساطة التفكير وسهولة التعبير واضحة كل الوضوح في محاضرات كبار الاساتذة . وعندما يتجنب الاستاذ الشاب اللهجة التعالمية، يكون حتماً، من الايجابيين في ذكائهم ، ويكون في وسع الانسان ان يتوقع منه الكثير . ولا ريب في ان ما تنطوي عليه عملية التحول من التقنية الى البساطة، ومن التخصص الى التفكير ، انما هو في الواقع شيء من الهضم للمعرفة ، بل عملية استطيع تشبيهها بما تسمى في علم النبات بعملية الأيض او التمثيل . وليس في وسع اي بحاثة متعلم ان يقدم الينا معرفته المتخصصة ، في عبارات انسانية مبسطة ، الا اذا كان قد هضم تلك المعرفة نفسها ، وخلق الصلة بينها وبين ملاحظاته عن الحياة . وهناك وقفات بين ساعات متابعته المتحمسة للمعرفة ، تجدد نشاطه ، وتفعل كما يفعل الشراب البارد للانسان بعد رحلة طويلة مجهدة . ولا بد لكل متخصص انساني ان يوجه الى نفسه في تلك الوقفات سؤالاً مهماً للغاية ، يتناول تحديد الموضوع الذي يتحدث عنه . فالبساطة تفترض مسبقاً ان يكون هناك هضم ونضوج ، وعندما نقطع سنوات العمر ، تزداد افكارنا وضوحاً ، وتختفي النواحي الخادعة والتافهة منها كما تتوقف عن مضايقتنا ، وتتخذ آراؤنا شكلاً اكثر تحديداً ، وتتحول افكارنا المتلاحقة بصورة متدرجة ، الى صيغة مناسبة تبدو واضحة امامنا في اي يوم ، ونصل الى ما في المعرفة من نور صادق نطلق عليه اسم الحكمة . ولا يعود ثمة اي جهد ، اذ تصبح الحقيقة سهلة على الفهم لوضوحها ، ويحس القارىء بمتعة ما في الحقيقة من بساطة ، وما في صياغتها من شكل طبيعي . ويطلق على هذه الطبيعية في الفكر والاسلوب ، التي يتعشقها شعراء الصين ونقادها ، اسم عملية التطور المتدرج في طريق النضوج . ونحن عندما نتحدث عن النضوج المتزايد في نثر سوتونجبو ، نقول بأنه اقترب بصورة متدرجة من الطبيعية ، في اسلوب عرض حبه الفتي للفخامة ، والتعالمية ، والفراهة الفنية والتظاهر الادبي .

ومن الطبيعي الآن ان يقوم الاحساس بالنكتة بتغذية البساطة في التفكير ، فيميل صاحبه الى الاتصال الوثيق بالحقائق ، بينما يركز الانسان النظري على الافكار ، وعندما يعالج المرء الآراء ، تصبح افكاره كثيرة التعقد ، اما صاحب الاحساس بالنكتة ، فيمارس ومضات من المنطق والذكاء ، تظهر ما في آرائنا من تناقض سريع مع الواقع مؤدياً بذلك الى تبسيط الامور . ولا ريب في ان الاتصال المستمر بالواقع يضفي على صاحب النكتة ، شيئاً من التباهي ، والمكر والدهاء . وتصبح جميع صور المرئيات والمعلومات والسخف الاقاديمي ، طيعة لديه . ويغدو الانسان حكيماً لانه يغدو ماكراً وذكياً ، فكل ما فيه بسيط وواضح . ولعل هذا السبب هو الذي يدفعني الى الاعتقاد بان الروح العاقلة والمعقولة، التي تميزها بساطة العيش والتفكير ، لا تتحقق الا عندما تكون هناك سيطرة كبيرة للتفكير المازح الهازل .

٥ ـ حول العناد والخروج على المقاييس

يبدو ان الجندي اصبح يمثل اليوم المثل الأعلى للانسان ، فبدلاً من الانسان المعاند المشاكس ، الذي لا يمكن تقديره ، والحر الذي يصعب تحديده ، يبدو ان هناك ميلاً الى خلق الجنود المنضبطين ، الموحدين ، والمنظمين ، والمتحمسين، الذين تمكن السيطرة عليهم بصورة فعالة ، والذين يمكن تنظيمهم بحيث تغدو لدينا امة تضم خمسين او ستين مليوناً من الناس يؤمنون بفكرة واحدة ، ويفكرون نفس التفكير ، ويحبون نفس الطعام . وهناك كما هو واضح ، رأيان متعارضان في الكرامة الانسانية ، يتعلق اولهما بالآفاق ، والثاني بالجندي كمثل اعلى ، ويؤمن أولهما بان الرجل الذي يحتفظ بحريته وتفرديته هو الطراز الانبل، بينما يؤمن ثانيهما بان الشخص الذي فقد حريته في الحكم ، وتنازل عن جميع حقوقه في آرائه الخاصة ومعتقداته الى الحاكم أو الدولة ، هو المخلوق الافضل .

ويمكن الدفاع عن وجهتي النظر ، عن طريق العقل بالنسبة الى الأولى ، والمنطق بالنسبة الى الثانية . وقد لا يكون عسيراً الدفاع عن طريق المنطق ، عن صورة الانسان الآلي المتحمس لوطنه كنموذج للمواطنين ، وان يقال ان هذا الانسان نافع كوسيلة في خدمة هدف خارجي آخر ، وهو قوة الدولة ، التي توجد لتحقيق هدف آخر ، وهو سحق الدول الاخرى . اجل يمكن الدفاع عن كل هذا عن طريق المنطق الذي يتميز بالبساطة والسذاجة بحيث يخدع به جميع الحمقى . ولعل مما لا يكاد يصدقه العقل ان مثل هذا الرأي كان مسيطراً على عدد من البلاد الاوروبية « المتحضرة » « والمتنورة » ، فالمواطن المثالي هو ذلك الجندي الذي حارب في الحبشة او وجد نفسه يقاتل في الحرب الاهلية الاسبانية دفاعاً عن فرانكو . وهناك طرازان من الناس هما « م » « ب » يمكن التعرف عليهما بين المواطنين المثاليين . فالطراز الاول وهو طراز « م » يضم خيرة المواطنين من وجهة نظر الدولة او حكامها ، وهم الذين يكتشفون ان البواخر قد انزلتهم الى اسبانيا ، ومع ذلك يحتفظون بهدوئهم واعصابهم ، ويوجهون الشكر الى الله اما مباشرة او عن طريق قسيس الجيش لأنهم ارسلوا تنفيذاً لمعجزة الهية الى هناك ليخوضوا غمرة القتال ، دفاعاً عن دولتهم ايطاليا . أما الطراز الثاني وهو طراز « ب » ، فيضم اولئك من الذين تنقصهم الحضارة ، والذين يحسون بشيء من النقمة لدى اكتشافهم انهم وصلوا الى اسبانيا . ولا شك في ان هذه النقمة الداخلية ، هي في رأيي الدليل الوحيد على الكرامة الانسانية والومضة الوحيدة من الامل التي تضيء لي تلك الصورة الرهيبة والعابسة ، لأنها تشير الى الامل في استعادة الكرامة الانسانية في عالم مقبل اكثر تحضراً .

ويتضح من هذا ، انني ما زلت أوثر الافاق ، بالرغم من كل منطق . اجل انني اميل الى ذلك الافاق الذي يتناقض في افكاره ، لأني ارى فيه صورة الأمل الوحيد للحضارة . والسبب في ذلك في منتهى البساطة ، اذ أننا تطورنا من القرود لا من البقر . ولأن القرد الأفضل هو الذي يتناقض في تفكيره . وقد

اكون كانسان من الانانية على جانب كبير . عندمـا ارغب في ان تكون للبقر امزجة اكثر رضى وعذوبة ، اذ يمكن سوقهـا اما الى المرعى او الى المذبح ، تلبية لرغبة الانسان . ومدفوعة برغبـة مفردة في التضحية بذاتها من اجل سيدها . ولكنني في الوقت نفسه محب للانسانية الى الحد الذي لا ارغب فيه ان يتحول البشر الى بقر . ففي اللحظة التي تثور فيها الابقار وتحس بشيء من مشاكستنا وعنادنا ، وتشرع في التصرف بصورة أقل آلية واكثر غرابـة ، لتصبح قريبة ، من الانسان . ولعل السبب الحيـاتي (البيولوجي) . هو الذي يجعل الانظمـة الديكتاتورية على خطأ دائماً . فالدكتاتورون يحبون الابقار ولكنهم لا يحبون القرود .

واني لأقول ان احترامي للحضارة الغربية قد هبط الى حد كبير منـذ عشرينيات القرن الحـالي . وكنت في الماضي أحس بالخجل من حضارتنـا الصينيـة ، وكنت احترم الغرب . اذ ارى ان مما يصم الحضارة الصينية اننا تقاعسنا عن وضع دستور يضمن الحقوق المدنية لشعبنـا . وكنت ارى ان الحكم الدستوري . جمهورياً كان أم ملكياً . يعتبر تقدماً في الحضـارة الانسانية . ولكنني أرى الآن وفي قلب الحضارة الاوروبية . والسرور يفعم قلـبي، ان ما نتمتع به هنا في الصين من حقوق انسانية وحريات فردية . وحرية في اختيـار المعتقد . قد اصبح مفقوداً في اوروبا ، اذ لم يعد النـاس فيها يعتبرون الحكم الدستوري كأرفع اشكال الحكم، وان هناك في اوروبا عدداً من عبيد يوربيديس يفوق عددهم في الصين الاقطاعية وان عدداً من الأمم الغربية تؤمن بالمنطق أكثر من ايمانها بالعقل ، على النقيض منا نحن الصينيـين [١] . وهل ثمة ما هو اسهل

---

(١) وضع المؤلف كتابه هذا في ثلاثينيات القرن ، عندما كان النظام الفاشي مسيطراً على المانيا وايطاليا . ويبدو كره المؤلف لهذا النظام من حديثه هذا واضحاً كل الوضوح .

- المعرب .

لدي من ان ألعب ورقتي الرابحة . باخراج النموذج الصيني للرجل السعيد الافاق والوغد الذي يعتبر المثل الحضاري الرفيع للانسان طبقاً للمفاهيم الصينية. او هناك لدى الغرب ، ورقة رابحة اخرى يمكن له ان يقدمها ليظهر عن طريقها ان عقائده عن الحرية الفردية والحقوق المدنية ، عقائد جادة وعميقة الجذور او غرائز تتمتع بكثير من الحيوية القادرة على اعادة الميزان الى وضعه السابق . بعد ان تزول « الموضة » الراهنة الجديدة عن الجنود الممجدين . انني ما زلت في انتظار ظهور هذه الورقة .

ومن السهل على المرء ان يرى كيف ان التقاليد الغربية عن الحرية الفردية قد نسيت تماماً . وكيف ان شاقول الميزان يتجه الى الجهة الخاطئة في هذه الايام . ولعل هناك سببين لهذا الاتجاه . اولهما النتائج المترتبة على الاتجاه الاقتصادي الراهن نحو الجماعية وثانيهما التراث الذي تحقق لنا من النظرة الآلية التي تولدت منذ اواسط العصر الفيكتوري . ويبدو ان عصرنا الراهن هذا . باتجاهاته الى الجماعية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . يشهد نسيان الجنس البشري لحقوقه في الحرية الفردية . ولا ريب في ان تفوق المشاكل الاقتصادية والتفكير الاقتصادي على كل ما سواه في الفكر الانساني ، قد جعلنا نجهل أو نتجاهل بعض ضروب المعرفة الاكثر انسانية ، بما فيها الفلسفة الانسانية التي تعالج مشاكل الحياة الفردية . وهذا أمر طبيعي . فكما ان الانسان المصاب بقرحة في معدته . يحصر افكاره كلها في معدته . فان المجتمع الذي يعاني من اقتصاده المريض لا بد وان يظل مشغولاً بالتفكير الاقتصادي . وتكون النتيجة اننا نهمل تمام الاهمال ، الفرد ، وننسى انه موجود . وقد بتنا ننظر اليه على انه شخص آلي يطيع القوانين المادية . فنحن لم نعد نفكر بالانسان على انه

انسان [1] . وانما نفكر فيه كترس في آلة ، او عضو في نقابة او طبقــة ، وكغريب يستورد بنظام الكوتا ، أو بورجوازي يشار اليه بالزرايــة ، أو رأسمالي لا بد من استئصاله ، أو عامل ، نعتبره رفيقاً لأنه من العمال . فنحن لم نعد افراداً او رجالاً ، وانما بتنا طبقات . ولعل في هذا اغراقـاً في تبسيط الأمور . فلم يعد الافاق قائماً كمثل ، كما لم يعد هناك الرجل ذو المزايا الخاصة ، الذي يتجاوب بحرية ، ودون حساب مع البيئة ، الخارجية المحيطة به . فقد بات هناك افراد الطبقة يحلون محل الرجال . وبتنا نرى المذهبيـــات والافكار الطبقية تحـل محل الافكار الشخصيـــة والاهواء ، والقوى العمياء بدلاً من الشخصيات . كما بتنا نرى الجدل الماركسي يتحكم في جميع نشاطـات الانسان بكثير من الدقة .

وانا ادرك انني في حديثي هذا لا اعدو اعطاء صورة عن التفردية الديمقراطية الطراز . ولكنني اود ان اذكر الماركسيين ايضاً بان كارل ماركس نفسه تتلمذ على منطق هيجيل الذي سبقه بنحو من قرن وعلى علماء الاقتصاد الكلاسيكيين الانجليز الذين ظهروا في اواسط العهد الفيكتوري . ولسنـــا نرى الآن ما هو اقدم في طرازه من المنطق الهيجيلي أو من مدرسة عصر فيكتوريا الاقتصادية ، وليس كذلك ما هو ابعد على الاقناع والبعد عن العقـل من وجهــة النظر الانسانية الصينية . ولكن في وسعنـــا ان نفهم كيف ظهرت هذه النظرة الآلية للانسان نتيجة تطور العلوم الآلية واعتزازها بما حققته من انتصارات على الطبيعة . ولكن العلم قد سرق، وتحول منطقه الآلي الى المجتمع الانساني، واصبح

---

(١) لا يعني التفكير بالقوانين الاقتصادية التي تتحكم في تنظيم المجتمع ، اننا نسينا انسانية الانسان . وانما يعني ان هذه القوانين انما هي وسائل ، يراد منهـا في مرحلة بناء الاشتراكية عن طريق الثورة ان تؤمن الطريق الى قيـــام مجتمع الكفاية والعدل . الذي تعود فيه للانسان انسانيته الكاملة . بعد تحررها من عوامل الخوف والجوع والمرض والاستغلال .

– المعرب –

علماء الشؤون الانسانية يبحثون عن تطبيق ما يسمى بالقوانين الطبيعية . ومن هنا برزت النظرية الشائعة ، وهي ان بيئة الانسان اعظم منه ، وان في الامكان تحويل الشخصيات الانسانية الى معادلات . وقد يكون هذا التحويل صالحاً من وجهة نظر الاقتصاد ، ولكنه سيء من وجهة نظر علم الحياة . فعلم الحياة يدرك قدرة الفرد على رد الفعل كعامل مهم في تطوير الحياة ، وانها لا تقل عن اهمية البيئة المادية ، تماماً كما يعترف الطبيب الحكيم ، بأن مزاج المريض وردود فعله الفردية من الامور المهمة في مقاومته للمرض . ولا ريب في ان اطباء اليوم باتوا يتبينون اهمية عامل الخروج على الحسابات المقررة في حياة الفرد . وهناك عدد كبير من المرضى ، يوحي المنطق ، وتوحي السوابق بانهم لا بد وان يموتوا ، ومع ذلك ، فهم يظلون احياء . ويذهلون اطباءهم بشفائهم . ولا ريب في ان الطبيب الذي يصف علاجاً متشابهاً لمريضين متشابهين في مرضهما ثم يتوقع تطوراً مماثلاً لديهما ، يجب ان يعتبر خطراً اجتماعياً . ولا ريب في ان الفلاسفة الاجتماعيين الذين ينسون الفرد وقدرته على رد الفعل بصورة تختلف عن الآخرين ، وانه انسان يتصرف تصرفاً غريباً وخارجاً على الحسابات المقررة ، يمثلون خطراً اجتماعياً ايضاً .

وقد لا افهم الاقتصاد ، ولكن الاقتصاد لا يفهمني ايضاً . ولعل هذا هو السبب الذي يحول دون تقرير الاقتصاد كعلم متحقق حتى الآن . ولعل الشيء المؤسي هو ان الاقتصاد ليس بالعلم اذا كان يتوقف عند بحث السلع دون المضي الى بحث الحوافز عن طريق المعدلات الاحصائية . ويبدو انه لم يخلق حتى الآن اسلوباً صالحاً لدراسة العقل الانساني . ولو فرضنا انه وصل الى ملكوت النشاطات الانسانية ، فان الطريقة الحسابية التي يعمل بها وميله الى وضع المعدلات الاحصائية يجعلانه يتخبط في مجالات الجهل . ولعل هذا السبب هو الذي يدفع دائماً أي خبيرين من خبراء الاقتصاد الى الوقوف موقف التعارض ، عند البحث في تبني أي اجراء اقتصادي مهم . فالاقتصاد يرجع على أي حال ،

الى ما يتميز به العقل الانساني من فطرات وجبلات ، لا يعرف عنهـا خبراء الاقصاد شيئاً على الاطلاق . فهنـاك عالم اقتصادي يعتقد ان انجلترا ستصاب بكارثة اذا خرجت على معيار الذهب ، بينما هناك عالم آخر ، يؤمن ان خروجها على هذا المعيار هو السبيل الوحيد لانقاذها . ولا ريب في ان شروع النـاس في عمليات البيع والشراء يؤلف مشاكل لا يستطيع أحسن الخبراء حلها بسهولة . ولعل السبب في ذلك راجع الى احتمال المضاربة في الاسواق المالية . وهنـاك حقيقة واقعة ، وهي ان هذه الاسواق ، لا تستطيع التكهن بصورة علمية حتى ولو حشدنا فيها جميع المعلومات الاقتصادية من العالم ، بارتفاع اسعار الذهب والفضة او السلع او سقوطها ، كما يتوقع خبراء الارصاد الجوية تقلبات الطقس . ولعـل السبب يكمن في حقيقـة وجود العنصر الانساني . فعندما يقبـل الكثيرون على البيع ، يقل عدد المقبلين على الشراء . والعكس بالعكس . وهنـا يبرز العنصر الانساني في التردد وعدم اليقـين . وعلينا ان نفترض بالطبع ان الانسان الذي يبيع ، يعتبر ذلك الذي يقبل على الشراء ، من الحمقـى ، والعكس بالعكس . أما من الاحمق ، فالمستقبل وحده هو الذي يقرر . ولعل هذا هو التفسير الذي اردته لغرابة السلوك الانساني وعدم تطابقه مع المقاييس الحسابيـة ، وهو لا ينطبق على المعاملات التجارية القاسية فحسب ، بل وعلى قيام النفس الانسانية برسم صورة سير التاريخ ، وكذلك على جميع ردود الفعل الانسانية على الاخلاق والعادات والاصلاحات الاجتماعية .

٦ – عقيدة الفرد

قد يعيش الانسان في بلاد ديمقراطية وهو مهدد الى حـد ما بوقوع تبدلات اجتماعية كبيرة . أو قد يعيش في بـلاد شيوعية ، وهو يميل الى الوصول الى

الهدف الديمقراطي ، أو قد يعيش في ظـل نظام ديكتاتوري لا يـلبث ان يزول [١] . لكن حياته الفردية تظل اينما عـاش كلاً متكاملاً ، يصوغـه سير الاحداث ، وان احتفظ بتفرديته .

ولا تبدأ الفلسفة بالفرد فحسب وانما تنتهي بـه ايضاً . فالفرد هو اجمل حقيقة في الحياة . انه غاية في حد ذاته ، وليس بالواسطة للوصول الى مبتكرات اخرى للعقل الانساني. وتوجد الامبراطوريات الكبرى في العالم ، كالامبراطورية البريطانية فعلاً ، ليستطيـع الانجليزي المقيم في مقاطعة سسيكس ان يعيش حياة سعيدة ومعقولة الى حد ما ، بينما تفترض الفلسفة الكاذبة ان الانجلـيزي في سسيكس يعيش ليضمن وجود الامبراطورية البريطانية العظيمة . ولا تدعـي خيرة الفلسفات الاجتماعية وجود أي هدف اعظم من ان تعيش المخلوقـات البشرية الفردية التي تحيا في ظل مثل هذا النظام حياة فردية سعيدة . واذا كانت هناك فلسفات اجتماعية تنكر ان سعادة الحياة الفردية هي الهدف النهـائي للحضارة . فان هذه الفلسفات تكون ثمرة عقول مريضة وغير موزونة .

واني لأميل بالنسبة الى الثقافة ، الى القول بأن أي حكم نهـائي على أي طراز معين من الثقافة ، يجب ان يصـدر على طراز الرجال والنساء الذين

---

(١) يقصد المؤلف بالديمقراطية هنا مفهومها البورجوازي الذي يعني سيطرة ذوي السلطان الاقتصادي على المقدرات السياسية عن طريق ما يسمونه بالديمقراطية البرلمانية . ولكن هـذه الديمقراطية زائفة في واقعها . وليس ادل على هذه الحقيقة ، من كتاب « الحكومة الخفية» الذي صدر في امريكا والذي يؤكد ان الحكم الديمقراطي هناك مركز في ايدي قلة من ذوي السلطـان الاقتصادي .

– المعرب –

تنجبهم . ولعل هذا هو الذي دفع وولت ويتمان [1] الذي يعتبر من اكثر الامريكيين حكمة وبعد نظر ، الى ان يحاول في رسالته « الوهم الديمقراطي » ، تحديد مبدأ الفردية أو « الشخصية » كنهاية الحضارة كلها ، اذ يقول ...

« ولو فكرنا في الموضوع . تساءلنا عما تستند اليه الحضارة وعن هدفها من الاديان والفنون والمدارس وغيرها ، اذا لم يكن تحقيق الشخصية الثرية والمترفة والمتنوعة ؟ فكل شيء يتجه الى هذا الهدف . ولعل الوصول الى هذه النتيجة ، هو الذي يدفع الديمقراطية وحدها على الصعيد الطبيعي . الى حراثة الارض البشرية التي لا حدود لها ونثر البذار فيها ، والعمل فيها ، وجعلها كما تدعي متفوقة على غيرها . وتعتبر آداب أي بلاد واغانيها ، واحساسها بالجمال في منتهى الاهمية ، لأنها تزود نساء تلك البلاد ورجالها بالمواد والمقترحات اللازمة لخلق الشخصية ، ولأنها تفرضها بالف طريقة فعالة وطريقة ».

وتحدث ويتمان عن الفردية كحقيقة نهائية فقال ...

« تبرز هناك في لحظات العقل والوعي فكرة تتميز بالاستقلال والترفع عن كل ما عداها ، والهدوء، اذ تشرق بصورة ازلية كالكواكب الساطعة . انها فكرة تحديد الشخصية بحيث تكون لكل انسان شخصية . وقد تكون

---

(١) وولت ويتمان (١٨١٨ - ١٨٩٢) شاعر امريكي . ولد في لوغ ايلاند . درس في نيويورك . شرع في كتابة الشعر ونشر ديوانه الأول « اوراق العشب » خرج على موازين الشعر وقواعده . اتهم بالخروج على الاعراف الخلقية لتحدثه عن موضوعات ممنوعة . تميز شعره بالعواطف المتدفقة. له كتب عدة .

– المعرب –

هذه الفكرة معجزة المعجزات التي يقف الانسان عاجزاً عن التعبير عنها . اذ انها من اكثر رؤى الارض روحية وغموضاً ، ومع ذلك فانها من اصلب الحقائق الاساسية اذ انها المدخل الوحيد الى جميع الحقائق . وتنهار في مثل تلك اللحظات المتهجدة ، وفي وسط عجائب الارض والسماء ، العقائد والاعراف ، وتفقد قيمتها أمام هذه الفكرة البسيطة . فهي المسيطرة وحدها في ظل ما في الرؤية الواقعية من نور ، وهي وحدها صاحبة القيمة الفعلية . وعندما تتحرر كما تحرر القزم الشيخ في الاسطورة ، تتمدد لتشمل الارض كلها ، وترتفع الى كبد السماء » .

واني لأحس بميل شديد الى المضي في اقتباس الكثير من هذا الفيلسوف الامريكي النموذجي الذي يبز غيره في تمجيد الفرد . والذي الخص ما قاله على النحو التالي ...

« وكنتيجة نهائية وايجاز لكل ما قلت ، تتبين الفكرة البسيطة ، وهي ان خير اعتماد وآخره يجب ان يكون على الانسانية نفسها ، وعلى ما فيها من خصائص كامنة وطبيعية ونامية دون أي دعم خرافي مهما كان نوعه .....

«ولا ريب في ان هدف الديمقراطية بعد تحولاتها الكثيرة ، وفي خضم ما يحيط بها من مساخر وحجج ومظاهر فشل واضحة ، ايضاح هذه العقيدة والنظرية بالرغم من كل ما يحيط بها من مخاطر ، والقول بان الانسان اذا احسن تدريبه ضمن اطار من الحرية العاقلة والسامية . يجب ان يتحول الى قانون بل إلى مجموعة من القوانين » ...

ولا تتمثل الاهمية في البيئة التي تحيط بنا ، وانما في ردود فعلنا على هذه البيئة . فبالرغم من ان فرنسا والمانيا وانجلترا وامريكا تعيش جميعاً في ظل نفس الصورة الحضارية ، الا ان صور الحياة فيها وصور مذاقها متباينة ، كما تتباين في طريقة حلها لمشاكلها . ومن الحمق ان نفرض ان الانسان يجب ان يصبح نموذجاً لصورة آلية واحدة ، اذا كنا ندرك ان هناك مجالات للتنوع في الحياة . ولا شك في ان الوالد الذي يؤمن نفس الفرص التعليمية لولديه ، ويضمن لهما نفس البداية في الحياة ، يرى انهما يختلفان بصورة متدرجة في صياغة حياتيهما طبقاً للقانون الذاتي الداخلي لوجودهما . وبالرغم من انهما قد يصبحان مديرين لمصرفين يتساويان في رأس المال ، الا ان الولدين يختلفان في معظم الامور المهمة وتلك التي تحقق السعادة ، أي في لباسهما وطريقة حديثهما ومزاجهما ، وكذلك في سياستهما وطرق معالجتهما للأمور ، واسلوب معاملتهما لموظفيهما ، ومدى حب هؤلاء الموظفين لهما أو خوفهم منهما ، ومدى دقتهما وقسوتهما وحسن معاشرتهما . كما يختلفان ايضاً في طريقة توفيرهما للمال وانفاقهما ، وفي اسلوب الحياة التي يعيشانها وهواياتهما واصدقائهما والنوادي التي يرتادانها ، وقراءتهما وزوجتيهما . هذا هو التنوع الكبير في نفس البيئة . بحيث يندهش المرء عند قراءته لاسماء الموتى في صفحة الوفيات . اذ يجد ان اشخاصاً عاشوا في نفس الجيل ، وماتوا في نفس اليوم . عاشوا صوراً مختلفة من الحياة ، وان بعضهم اختاروا مهنة واحدة ركزوا نشاطهم فيها ، بينما وجد آخرون السعادة في اداء مهن مختلفة ، وان بعضهم يخترع أو يكتشف بينما يحب آخرون النكتة او يؤثرون التجهم . وان البعض منهم كان يتطلع الى الشهرة والثراء . بينما أثر البعض الآخر ان يموتوا دون ان يحس بهم انسان وان تركوا وراءهم عشرات الالوف من الدولارات الذهبية . أجل ما زالت الحياة الانسانية غريبة الى حد يثير الدهشة حتى في العصر الصناعي الذي نعيش فيه . وطالما ان الانسان سيظل انساناً ، فان التباين سيظل نكهة الحياة .

وليس ثمة من تصميم مطلق في الشؤون الانسانية ، سواء في صورتها السياسية أم في ثورتها الاجتماعية . وما زال العامل الانساني هو الذي يقلب حسابات اصحاب النظريات والنظم الاجتماعية ، رأساً على عقب . فمزايا الزوجين اهم بكثير من قوانين الزواج والطلاق ، ولا ريب في ان الرجال الذين يشرفون على تنفيذ القوانين وحمايتها اهم من القوانين نفسها .

لكن اهمية الفرد لا تنبثق من الحقيقة الواقعة وهي ان الحياة الفردية هي غاية جميع الحضارات فحسب ، وانما تنبثق ايضاً من الحقيقة الاخرى وهي ان تحسين حياتنا الاجتماعية والسياسية وعلاقاتنا الدولية يصدر عن العمل الموحد ، وعن ميول الافراد الى تكوين الامة ، وانه والحالة هذه يعتمد على مزاج الفرد ومزاياه . ولا ريب في ان امزجة الناس تعتبر العامل المقرر في السياسات القومية وفي تحول البلاد من مرحلة الى اخرى . فطريقة الامة في تنفيذ متطلباتها وحل مشاكلها اهم بكثير من قوانين التطور الصناعي . وكان روسو قد توقع قيام الثورة الفرنسية وظهور شخصية كشخصية نابليون كما ان كارل ماركس توقع التطور الفعلي لنظرياته الاشتراكية وظهور شخصية كشخصية ستالين . ولم تقرر شعارات الحرية والمساواة والاخاء سير الثورة الفرنسية ، وانما تقرر هذا السير بفعل خصائص معينة في الطبيعة الانسانية بوجه عام وفي المزاج الفرنسي بوجه خاص . ولم تتحقق جميع نبوءات كارل ماركس عن سير الثورة الاشتراكية بالرغم من جدله المنطقي الرفيع الطراز . فقد قادته قوانينه المنطقية الى ظهور الثورة البروليتارية في البلاد ذات الحضارة الصناعية المتقدمة والتي تقوم فيها طبقة قوية من العمال البروليتاريين كانجلترا اولاً وبالتالي الولايات المتحدة والمانيا . ولكن الشيوعية ظهرت اول ما ظهرت كتجربة في بلاد زراعية كروسيا ، لا وجود فيها لطبقة بروليتارية كبيرة . ويبدو ان كارل ماركس نسي حساب العامل الانساني في انجلترا والولايات المتحدة ، كما نسي حساب الطريقة التي يستخدمها الانجليزي او الامريكي في تصريف اموره وحل مشاكله . ولعل

العيب الكبير في جميع النظريات الاقتصادية اهمالهـــا النص على عامل الجهل بالشؤون العامـــة . ولا ريب في ان شك الانجليزي بالنظريات والشعارات ، وطريقته البطيئة في التعرف على طريقته وحبه لحريته الفردية واعتزازه بنفسه وبمنطقه وبحبه للنظام ، كلها عوامل تعتبر على جانب كبير من القوة في صياغة سير الاحداث في انجلترا وامريكا تفوق في اثرها قوة الجدل المنطقي الالماني .

ويتبين من هذا ان سير الأمـــة في تصريف شؤونها وفي تحديد تطورها الاجتماعي والسياسي ، يعتمد في النهاية على الافكار التي تتحكم في الافراد . وليس هذا الميل العنصري المتمثل في شعار «عبقرية شعب» ، الا تجمعاً لميل افراده الذين يؤلفونه ، اذ انه ليس اكثر من طبيعة ذلك الشعب في ميدان العمل وفي مواجهته للمشاكل والازمات التي تعترض طريقه .. وليس ثمة ما هو اكثر زيفاً وخطئاً ، من الفكرة القائلة بأن هذه « العبقرية » كيان اسطوري يشبه كيان « الروح » في لاهوت القرون الوسطى ، من حيث انـه اكثر من مجرد استعـارة تعبيرية وبلاغية . وليست عبقرية الأمة اكثر من صورة لطبيعة سلوكها وطريقتها في تصريف الأمور . ولا يمكن رؤية هذه العبقرية الا وهي في مجالات العمل ، اذ انها ابعد ما تكون عن الوجود المطلق المستقل ، كما يحلو لنا ان نصور احياناً «مصير» هذا الشعب او ذاك وقدرهما . انها قضية خيار ، فيها القبول وفيها الرفض ، وفيها الايثار والكره ، وكلها عوامل تقرر في النهاية سير الامـة في عملها تجاه أية ازمة او وضع من الاوضاع . ويميل مؤرخو المدرسة القديمة الى التفكير على النحو الذي قرره هيجيل ، من ان تاريخ الامة ، ليس الا تطويراً لفكرة معينة ، يسير وفقاً لحتمية مقررة ، بينما ترى النظرة الواقعية والحاذقة للتاريخ ، انه ليس اكثر من ثمرة لعوارض معينة . ويتحتم على الأمة في كل فترة حرجة من فترات تاريخها ان تختار ، ونحن نرى في هـــذا الاختيار اصطراعاً بين مختلف القوى المتعارضة والعواطف المتصارعة ، وكان في إمكان المزيد من هذا الاحساس او ذاك ان يقلب كفة الميزان الى هذه الناحية او تلك . وليست العبقرية المزعومة

لأية امة في أية ازمة من هذه الازمات الا القرار الذي تتخذه الامة ، وهي تحزم امرها على ان ان يكون لها المزيد من هذا الشيء او ذاك . فكل امة تسير قدماً على أي حال في الطريق الذي تختطه ، أو الذي يتفق مع احاسيسها وترفض كل ما لا تستطيع استساغته . ولا ريب في ان هذا الخيار يرتكز الى تسلسل من الافكار او مجموعة من الاحاسيس المعنوية والاهواء الاجتماعية .

ولا ريب في اننا شهدنا في الازمة الدستورية البريطانية التي ادت الى اجبار ملك على التنازل عن عرشه ، هذه الحقيقة التي يسمونها بطبيعة الشعب وهي في مرحلة العمل ، في اجلى صورها ، اذ رأينا تصارعاً بين الاعتراض والموافقة ، وتياراً من المشاعر المتبادلة ، وتضارباً بين مجموعة من الدوافع المتحركة ذات الصلاح المفترض . وكانت هذه الدوافع تتلخص في الولاء لملك محبوب ، وفي معارضة الكنيسة الانجيلية لموضوع الطلاق ، وفي المفهوم التقليدي الانجليزي عن الملكية ، وفي موضوع ما اذا كانت الشؤون الخاصة للملك ، تعتبر خاصة فعلاً ، وفي تقرير ما اذا كان من واجب الملك ان يكون اكثر من رأس إسمي للدولة ، وان تكون عواطفه ميالة الى العمال بصورة محددة . ولا ريب في أن اية زيادة في هذه الاحاسيس المتضاربة كانت كافية لتحقيق حل مختلف للازمة .

وينطبق هذا القول على جميع احداث التاريخ المعاصرة كموضوع اعدام زينوفييف وكامينيف وبياتاكوف في روسيا وسجن راديك ، والثورات والمؤامرات على عهد ستالين ، والخلاف بين الكنيسة والنظام النازي ، واحتمال تحول انجلترا الى جانب حزب العمال، ونمو الحزب الشيوعي في امريكا او ضعفه . وكلها امور تقررها الافكار والمشاعر وطبيعة الفرد في كل من الدول المعنية . ولا ارى في هذه الصور المتتابعة والمتحركة من التاريخ الانساني الا التبدل والتمدد ، اللذين يقررهما خيار الانسان الغريب والذي لا يمكن حسابه او تقديره .

ولقد ربطت الكونفوشيوسية على هذا الصعيد بين موضوع السلام العالمي وتعهد الحياة الشخصية بالعناية . ويتضمن الدرس الأول الذي قرر الباحثون الكونفوشيوسيون تدريسه للطفل منذ ايام اسرة سونج المالكة الفقرة التالية ...

« على الشعب العريق الذي يرغب في ان ينسجم انسجاماً معنوياً واضحاً مع العالم ان ينظم حياته القومية . وعلى الذين يرغبون في تنظيم حياتهم القومية ان ينظموا اولاً حياتهم البيتية ، وعلى اولئك الذين يرغبون في تنظيم حياتهم اليومية ان يتعهدوا اولاً حياتهم الشخصية ، وعلى اولئك الذين يرغبون في تعهد حياتهم الشخصية ان يقوّموا قلوبهم اولاً . وعلى اولئك الذين يرغبون في تقويم قلوبهم اولاً ، ان تصدق ارادتهم ، وعلى اولئك الذين يرغبون في صدق الارادة ان يصلوا اولاً الى التفهم الذى يتحقق من استنباط المعرفة . وعندما تتحقق المعرفة بالامور ، يمكن الوصول الى التفهم ، وآنذاك تصبح الارادة صادقة . واذا ما صدقت الارادة ، استقام القلب . واذا ما استقام القلب ، حسنت العناية بالحياة الشخصية ، ونظمت الحياة البيتية . واذا ما نظمت الحياة البيتية تنظمت الحياة القومية ، واصبح العالم يعيش في سلام . وهكذا نجد ان تعهد الحياة الشخصية ، هو اساس كل شيء ، سواء اكان التعهد لحياة الامبراطور او حياة الانسان العادي . ومن المستحيل ان يستقيم البنيان العلوي اذا كانت اسسه غير مستقيمة . وليس ثمة في العالم شجرة يكون جذعها رقيقاً وتكون فروعها العليا ثقيلة وقوية . فللامور اسبابها ونتائجها ، وبداياتها ونهاياتها في الشؤون الانسانية . ولا ريب في ان تمييز نسق الاولوية يعتبر بداية الحكمة .

٥

مَنْ أقدر على التمتّع بالحياة ؟

١ – جد نفسك ...

قد يكون الفيلسوف في حياتنا العصرية، اكثر الناس في العالم تعرضاً للتكريم وعدم الاهتمام في الوقت نفسه ، ان كان ثمة في العالم شخص على هـــذا النحو . واصبحت عبارة « الفيلسوف » تطلـق على بعض الناس كتقدير اجتماعي لهم . فكل انسان غامض ومستغلق على الفهم يسمى فيلسوفاً . و كل امرىء لا يبدي اهتماماً بالحاضر يدعى فيلسوفاً. ومع ذلك فهناك بعض الحقيقة في المعنى الاخير ، فعندمـا جعل شكسبير « توشستون » يسأل الراعي في مسرحيته « كما تحبها » بقوله ... « أفيك شيء من الفلسفة أيها الراعي » ، كان يعني بها المعنى الاخير . وتكون الفلسفة على هذا الصعيد وجهة نظر مشتركة . وجاهزة وغير مصقولة ، في الامور أو في الحياة بوجه عام ، ويكون لكل انسان نصيب فيها ، و كل من يرفض قبول ما يراه من نظرة عامة الى الواقع على حقيقته بل وكل من يرفض

تصديق كل كلمة قد تظهر في الصحف ، يعتبر فيلسوفاً الى حد ما . فالفيلسوف هو الانسان الذي يرفض الانسياق الكامل .

وهناك مظهر من مظاهر رفض الأوهام في الفلسفة. فالفيلسوف ينظر الى الحياة بعين الفنان الذي يتطلع الى منظر عام؛ عبر قناع أو ضباب. وتصقل تفاصيل الواقع الخام بعض الصقل لكي يصبح في امكاننا رؤية معناها . ولعل هذا هو ما يظنه على الأقل الفنان الصيني أو الفيلسوف الصيني . فالفيلسوف والحالة هذه هـو النقيض المباشر للواقعي الكامل ، الذي يعتقد وهو منهمك في عمله اليومي بأن ما يحققه من نجـاح او يمنى به من فشل ، وما يصيبه من خسائر وارباح امور مطلقة وواقعية . وليس في الامكان عمل أي شيء مع مثل هذا الانسان ، لأنه لا يشك ، وليس فيه ما يدعو الى الاهتمام . ويقول كونفوشيوس ... « لا ادري ما افعل بالانسان الذي لا يسائل نفسه عما يجب ان يفعله » . ولعل هذا القول من العبارات الذكية الواعية القليلة التي صدرت عن كونفوشيوس .

واني لأهدف في هذا الفصل الى عرض بعض ما صدر عن فلاسفة الصين من آراء في تخطيطهم للحياة . وكلما زاد الخلاف بين هذه الفلاسفة ، كلمـا زاد اتفاقهم ، على ان من واجب الانسان ان يكون حكيماً وان لا يخشى من الحياة السعيدة . ولا ريب في ان نظرة مينسيوس الايجابيـة ونظرة لاوتسي السلامية تختلطان في فلسفة ما يسمى « كدة وكدة » ، التي تعتبر الدين المقبول لرجل الصين العادي . وينتهي الصراع بين الفاعلية واللافاعلية في حل وسط يتمثل في القناعة بسماء ناقصة على الارض . ويؤدي ذلك الى فلسفة حكيمة ومرحة للحياة تتمثل بصورة نموذجية في حياة « ثاو يواغينج » الذي اعتبره اعظم شاعر انجبته الصين واكثر شخصية انسجاماً .

ولعل المشكلة الوحيدة التي رأى فيها جميع فلاسفة الصين بصورة لاواعية ، أمراً ذا اهمية ، هى التساؤل عن كيفية التمتع بالحياة ، وعمَّنْ هو الاقدر على

التمتع بها . واذا ما نحينا السعي الى الكمال جانباً، ولم نجر وراء تحقيق المستحيل أو اكتشاف المجهول ، واخذنا الطبيعة الانسانية الفانية والمسكينة على حقيقتها، جاز لنا بعد ذلك ان نتساءل ... كيف نستطيع تنظيم حياتنا والعمل بهدوء ، والتحمل بأنفة والعيش في سعادة ؟

أجل من نحن ؟ هذا هو السؤال الأول . انه سؤال تستحيل الاجابة عليه . ولكننا نقر جميعاً ، بان الذات المنهمكة في النشاطات اليومية ليست في الواقع بالذات الحقيقية . فنحن على ثقة من ان هناك ما ينقصنا ونحن ننشد متابعة الحياة . وعندما نرى شخصاً يركض في كل اتجاه في ملعب من الملاعب ، فان في وسع الانسان ان يضع سؤالاً محيراً للنظارة وهو تحديد ما يبحث عنه ذلك الشخص . فهناك من يقول انه يبحث عن ساعته التي فقدها ، وهناك من يقول انه يبحث عن اسورة ماسية، كما ان هناك عشرات التكهنات الاخرى. وعندما تفشل جميع هذه التكهنات في الوصول الى كبد الحقيقة، ينطلق الرجل الحكيم الذي لا يعرف في الواقع عم يبحث ذلك الشخص قائلاً لمن حوله ... « ساقول لكم ... انه يبحث عن التقاط نفسه » . وليس ثمة من يستطيع نفي ما قاله . فنحن كثيراً ما نفقد ذاتنا الحقيقية في البحث عن العيش ، تماماً كالطير الذي ينسى الخطر الذي يحيط به وهو يبحث عن حشرة يأكلها ، أو كتلك الحشرة نفسها التي تنسى الخطر الذي يلفها وهي تبحث عن فريسة اخرى . وقد اعرب شوانجتسي[1] عن هذا ، بحكمة رائعة قالها ...

« كان شوانجتسي يجوب ارجاء الحديقة في تياو لينج ، عندما رأى طائراً غريباً كان قادماً من الجنوب . وكان طول

(١) شوانجتسي (توفي سنة ٣٠٠ ق. م) - فيلسوف صيني تتركز شهرته في كتابه الذي حمل اسم شوانجتسي . لا يعرف الكثير عن حياته . ويعتبر هذا الكتاب ، من الكتابات الرائدة في الفلسفة الطاوية الصينية التي تقوم على التحرر من كل شيء .

- المعرب

كل جناح من جناحيه نحواً من سبعة اقدام ، كما كان محيط عينه نحواً من بوصة . ورفرف الطائر بجناحيه على مقربـة من رأس شوانجتسي ، ليهبط على شجرة كستناء قريبة .

وهتف شوانجتسي قائلاً ... « أي نوع من الطيور هذا ، انه باجنحته الكبيرة لا يستطيع الطيران ، وبعينيه الكبيرتين لا يستطيع الرؤية »

وراح شوانجتسي يسرع بالخطى نحو الطير ليلقي عليه نظرة. وفجأة . رأى زيز الحصاد ، يلهو بنفسه في الظل وقد نسي كل ما حولة . وفجأة رأى حشرة تطير وتمسك بهذا « الزيز » ، ناسية في الوقت نفسه الخطـر المتمثل في ذلك الطائر الذي انقض عليها ليجعل منها فريسته . وكان هذا هو الذي دفـع الطير الى نسيان طبيعته .

وهتف شوانجتسي ... وهو يتأوه ... « يا لهذه المخلوقات التي يؤذي الواحد منهـا الآخر ...و الخسارة هي التي تعقب الكسب »

ووضع شوانجتسي قوسه ، وعاد الى بيته ، بعد ان طرده حارس الحديقة ، اذ اراد ان يعرف ما يفعله في الحديقة .

ولم يفارق شوانجتسي منزله ثلاثة اشهر بعد هذا الحادث ، واخـيراً سأله لين شو ... « ايها الاستاذ ... ما الذي حدث حتى انك لم تخرج من منزلك كل هذه المدة الطويلة ؟ »

ورد شوانجتسي قائلاً ... « بالرغم من انني لا ازال احافظ

على بنياني ، الا انني فقدت رؤية ذاتي الحقيقية . وعندما اتطلع الى الماء الموحل ، لا استطيع ان ارى القعر الواضح . يضاف الى هـذا انني سبق لي ان تعلمت من استاذي قوله: .. اذا اقتحمت هذا العالم ، فلا تخرج على مألوفه . وعندما مضيت الى حديقة تياو لينج نسيت ذاتي الحقيقية. وقـد نسي ذلك الطائر الغريب الذي طار على مقربة مني متجهاً الى شركة الكستناء ، طبيعته . وحسبني حارس الحديقـة لصاً ، ولذا لم اخرج من منزلي » .

وكان شوانجتسي الطالب النابه للاوتسي[1] كما كان مينسيوس الطالب النابه لكونفوشيوس ، ويفصل بين الواحد منهما واستاذه قرابة قرن كامل . وكان شوانجتسي معاصراً لمينسيوس ، كما كان لاوتسي معاصراً على الغالـب لكونفوشيوس . واتفق مينسيوس مع شوانجتسي في اننا فقدنا شيئاً ، وان مهمة الفلسفة اكتشاف ما فقدناه واستعادته ، وهو ما اسماه مينسيوس «بقلب الطفل». ويقول هذا الفيلسوف ... « ان الرجل العظيم هو ذاك الذي فقد قلب الطفل». ويعتبر مينسيوس اثر الحياة الحضارية المصطنعة على القلب الفتي الذي يحمـله الانسان كاثر قطع الغابات التي تغطي التلال على هذه التلال ويقول ...

« حدث ان كانت غابات جبـل نيو في منتهى الجمال والروعة ، ولكن أفي الامكان احتفاظ هذه الجبال بجمالها ،

---

(١) لاوتسي – فيلسوف صيني . يقال انه ولد في عام ٤ ٦ ق. م. وكان اميناً للمكتبة الملكية في بلاط شاو في مقاطعة هونان . لقي كونفوشيوس في عام ١٧ ، . وتركزت فلسفته في الحديث عن جمال العمل المتحرر من الحوافز الانانية . وهو يقول ان على العالم ان يواصل سيره دون جهد أو ندم .

– المعرب –

بعـد ان راح الحطابون يقطعون اشجارها لوقوعها على مقربة من مدينة كبيرة . وأضفى عليها تعاقب الليل والنهار شيئاً من الراحـة ، كما واصلت الأمطار والطل انعاشها ، ولكن سرعان ما شرعت الأغنام والماعز في الرعاية فيها . وهذا هو السبب في ان جبال نيو تبـدو عارية ، وعندما يرى الناس عريها ، يخيل اليهم انها لم تكن مكسوة بالأشجار في أي يوم الأيام . ولكن أهذه هي طبيعة الجبل الصادقة ؟ أوليس في قلب الانسان شيء من الحب والاستقامة ايضاً ؟ وكيف يمكن للطبيعة ان تحتفظ بجمالها ، عندما تتعرض للتقطيع كل يوم ، تماماً كما يفعل الحطاب بالاشجار بفأسه ؟ ولكن تعاقب الليل والنهار ، يشفي الانسان مما يعانيه ، كما ينعشه هواء الفجر العليل ، الذي يبقي على صحته في شكل عادي . ولكن هذا النسيم رقيق ، وسرعان ما تتحطم آثاره بما يفعله الانسان في يومه . وكنتيجة لهذا التقطيع المتواصل للروح الانسانية ، لا تظـل الراحة والانتعاش اللذين يحققهما في الليل كامنين للحفاظ على مستواها ، وسرعان ما ينحط وضع الانسان الى مرتبة الوحوش . ويرى الآخرون انه يتصرف كوحش ، وسرعان ما يتصورون ان طبيعته لم تنطوِ قط على أي شيء حقيقي . ولكن أهذه هي الطبيعة الحقة للانسان ؟

٢ – العواطف والحكمة والشجاعة – مينسيوس

لعـل الروح الدافئة الناجية من الهموم والمتخلصة من الخوف هي الصورة المثالية للقدرة على التمتع بالحياة . وقال مينسيوس ان « الحكـمة والعاطفة

والشجاعة « هي » الفضائل الناضجة الثلاث للرجل العظيم . ومن حسن الحظ ان في الانجليزية تعبير العاطفة ، الذي يماثل في استعماله تعبير « شينج » الصيني تماماً . فكلا التعبيرين يبدأ بالمعنى الضيق للعاطفة الجنسية ، ولكنه لا يلبث ان يتميز باهمية أوسع مدى . ويقول شانج شاو ... « ان الطبيعة العاطفية تحب النساء دائماً ، ولكن كل من يحب النساء لا يكون بحكم الضرورة ذا طبيعة عاطفية » . ويقول شاو ايضاً « ان العاطفة تحتل قاع العالم ، بينما تزين العبقرية سقفه » . ولو كنا محرومين من العاطفة ، لما كان ثمة اساس تبدأ به الحياة . فالعاطفة هي روح الحياة ، وهي الضوء في النجوم ، واللحن العذب في الموسيقي والغناء ، والبهجة في الأزاهير ، والجمال في الطيور ، والسحر في النساء ، والحياة في الدراسة . ومن المتعذر الحديث عن روح دون عاطفة ، إذ انه كالحديث عن الموسيقى دون تعبير . فالروح هي التي تضفي علينا ذلك الدفء الداخلي والحيوية الغريزية التي تمكننا من مواجهة الحياة بمرح وبهجة .

ترى أأنا مخطيء اذ اخترت تعبير العاطفة للحديث عما يعنيه كتاب الصين بتعبير « شينج » . ترى هل أفضل عليه تعبير « الاحساس » الذي قد يكون اكثر رقة ، والذي يوحي بالخلو مما في العاطفة من عنف وجيشان . أو ترى هو يعني التعبير الذي استخدمه الرومانسيون الاول والذي اسموه « بالمشاعر الرقيقة » التي توجد عند ذوي الارواح الدافئة والكريمة والغنية . ولعل من الغريب ان عدداً قليلاً من الفلاسفة الغربيين اذا استثنينا ايمرسون [1]

(١) رالف ايمرسون (١٨٠٣ – ١٨٨٢) – شاعر امريكي ومحاضر وكاتب . ولد في بوسطن ، ودرس في جامعة هارفرد . زار اوروبا عدة مرات . ثم اصبح استاذاً للفلسفة من اشهر كتبه « فلسفة التاريخ » . وتحسر كتاباته النقاب ، عن افتقار الى الانسجام في الاسلوب ، والى البساطة . من كتبه ايضاً « الخيال والشعر » و « الخصائص البريطانية » و « الطبيعة » و « الاخلاق الادبية » .

وآميل[1] وجوبرت[2] وفولتير[3]. لم يطروا تعبير العاطفة كل الاطراء . ومن المحتمل ان يكون خلافنا على التعبير بينما نحن نعني نفس المعاني. ولكن لو اختلفت العواطف عن الاحاسيس وكانت تعني شيئاً من الهيجان والاندفاع . فاننـــا والحالة هذه لا نجد تعبيراً صينياً يقابلنا وتحتم علينا ان نعود الى تعبير « شينج » القديم . فهل يؤلف هذا دليلاً على وجود فرق في الأمزجـــة العنصرية ، وعلى افتقار الشعب الصيني الى العواطف العظيمة والطاغية التي تستبد بروح الانسان وتؤلف مادة المأساة في الادب الغربي ؟ أو يكون هذا هو السبب في ان الادب الصيني لم يطور المأساة على النحو الذي طورها فيـــه ادب الاغريق ، او في ان الشخصيات الصينية المؤسية تبكي في اللحظات الحرجة وتتخلى عمن تحبـــه لاعدائها ، او يقتل صاحبها معشوقتـــه كما فعل شو باوانج ، ثم يخمد الخنجر في صدره ؟ وقد تكون مثل هذه النهاية غير مرضية للنظارة الغربيين . أما الادب الصيني فيتفق مع الحياة الصينية . فالانسان يصطرع مع القدر . ويتخلى عـــن المعركة ، وتأتي المأساة في اعقابها ، في شكل طوفان من الذكريات ومن الندم الذي لا طائل فيه واللهفة ، تماماً كما نرى في مأساة الامبراطور تانج مينجهوانج ، الذي سمح للملكته التي يحبهـــا بأن تنتحر لتهدئة جيشه الثائر ، ثم عاش في عالم

---

(١) هنري فريدريـك أميـل (١٨٢١ – ١٨٨١) – فيـــلسوف سويسري . ولد في جنيف واصبح استاذاً في جامعتها .
له كتب عدة من اهمها كتابه « يوميات في حينها » .

(٢) جوزيف جوبيرت (١٧٥٤ – ١٨٢٤) – فيـــلسوف فرنسي وناقد . درس في الكلية اليسوعية في طولوز ثم اصبح استاذاً فيها . له عدة مؤلفات منها « مقـــالات مدروسة » و « مراسلات » و «مقالات في النقد » .

(٣) جان فرنسوا ماري (١٦٩٤ – ١٧٧٨) – الكاتب المسرحي الفرنسي المشهور – والمؤرخ . ولد في باريس ودرس في كلية الاباء اليسوعيين ومكنته مواهبه الادبية من اقتحـــام الاوساط الادبية منذ نعومة اظفاره . من اشهر مسرحياته « اوديب » و « العـــذراء » . وله عدة مؤلفات فلسفية وتاريخية .

– المعرب –

احلامه . لا ينفك عن تذكرها . ويظهر المعنى المؤسي في الجزء البـــاقي من المسرحية الصينية بعد الختام في ذلك التصاعد المتضخم من الحزن . وبينما يرتحل الامبراطور بعيداً في منفاه ، يسمع من بعيد موسيقى اجراس الابقار في التلال في يوم ممطر . فينظم انشودته عن « المطر واجراس الابقار » تكريماً لذكراها فكل ما يراه أو يلمسه ، حتى ذلك الوشاح الصغير المعطر ، يذكره بملكته التي احبها . وتنتهي المسرحية بالامبراطور الحزين يبحث عن روحها بمساعـــدة الرهبان الطاويين في مقر الخـــالدين . ويتضح من هذا اننا نجد هنا مشاعر رومانسية رقيقة ، اذا لم تكن مما نسميه بالعواطف . ولكنها العاطفة في الواقع وقد انضجت بالاشراق الرقيق . ويتضح من هذا ان من خصائص فلاسفة الصين بالرغم من استهانتهم بالرغبات الانسانية ان لا يستخفوا بالعواطف أو الاحاسيس نفسها ، وانما يجعلون منها اساس الحيـــاة الانسانية العادية ، حتى انهم يعتبرون « العاطفة التي تقوم بين الرجل وزوجه اساس الحياة العادية الانسانية » .

وقد يكون صحيحاً لسوء الحظ ، ان هذه العاطفة او ذلك الاحساس يولدان معنا ، واننا لما كنا لا نختار آباءنا وامهاتنا فأننا نولد ونحن نحمـل طبيعة باردة او حارة . لكن الطفل لا يولد عادة وهو يحمل قلبـاً بارداً في الواقع ، وكل ما في الأمر اننا ونحن نفقد ذلك القلب الفتي ، نفقد ما فيه من حرارة ذاتيـــة . وتموت طبيعتنا الحسية عند ما نكبر في السن أو تختنق أو تبرد أو تدفن نتيجة البيئة القاسية التي تحيط بنا ، ونتيجة اهمالنـــا في الابقاء عليها حية ، أو عجزنا عن البقاء بعيدين عن تلك البيئة . وتتعرض طبيعتنا الاصلية ابان تعـلمنا لتجارب الحياة لكثير من الضعف ، وذلك عندما نتعـلم كيف نقسو ، وكيف نصطنع بل وكيف نجمد عواطفنا ، وعندما يحزم الواحد منا أمره على اكتساب المزيد من التجارب الدنيوية ، تصبح اعصابه اكثر حساسية وحذراً ، ولا سيما في عالم التجارة والسياسة . وهكذا تظهر أمامنا صورة ذلك الانسان الطموح الذي يدفع نفسه نحو القمة . مبعداً من طريقـه كل شيء ، وصورة ذلك الرجل

الذي يتميز بالارادة الحديدية والتصميم القوي ، والذي تموت في قرارة نفسه وبصورة متدرجة بقايا الاحاسيس التي يسميها المثالية الحمقاء أو المشاعر الرقيقة. وفي العالم كثيرون من ذوي القلوب الجامدة . واذا كان لا بد من اصلاح غير الصالحين كسياسة من سياسات الدولة ، فعلينا ان نبدأ بأولئك الحمقى ، والجامدين ، والمثقلي القلوب ، والقساة في نجاحهم ، والعنيدين في تصميمهم ، وجميع اولئك الذين فقدوا احساسهم بالتمتع بالحياة ، بدلاً من ان نبدأ بالمجانين والمرضى بالسل . ويبدو لي انه في الوقت الذي قد يرتكب فيه صاحب العاطفة والاحساس الكثير من الحماقات والاعمال المتهورة ، فان الرجل الذي يخلو منها يكون اضحوكة وصورة هزلية . واذا ما قارناه بشخصية سافو لدوديه [١] فانه يكون حشرة أو آلة ، أو انساناً آلياً او مجرد لطخة على هذه الارض . وهناك كثيرات من العاهرات يعشن حياة انبل من تلك التي يعيشها رجل اعمال ناجح فلنفرض ان سافو قد اخطأت ، الا انها احبت ، ولا ريب في ان هناك غفراناً لمن يحب . وعلى أي حال فقد خرجت من البيئة التي كانت تعيش فيها ، تحمل قلباً اكثر شباباً من قلوب الكثيرين من اصحاب الملايين . وقد يكون تقديس مريم المجدلية صحيحاً . ومن المحتوم ان تقودنا العاطفة ومعها الاحساس الى اخطاء قد نعاقب عليها على الفور ، ومع ذلك فهناك عدد من الامهات اللائي يغرقن في ملذاتهن ، ويجعلن حبهن يتحكم في عقولهن وفي احكام هذه العقول ، ومع ذلك تشعر الواحدة من هذه الامهات في ثقة وطمأنينة ، في شيخوختها ، بأن حياتها مع اسرتها كانت اسعد كثيراً من حياة الكثير من الارواح الضالة

---

(١) الفونس دوديه (١٨٤٠ - ١٨٩٧) - من الروائيين الفرنسيين . ولد في نيس وكان والده من اصحاب مصانع النسيج ثم اصيب بكارثة مالية . ترك بلدته ومضى الى باريس ليعيش مع اخيه ارنست الصحفي . عمل في الفيجارو . نشر عدداً من القصص منها « الشيء الصغير » و « الملك في منفاه » و « ثلاثون سنة في باريس » و « الخالدون » و « انا واخي » و « سافو » وعشرات غيرها .

- المعرب -

والغريبة . وحدثني صديق لي بقصة سيدة عجوز في الثامنة والسبعين من عمرها قالت له .. « عندما اعود بذاكرتي الى الثمانية والسبعين عاماً التي قطعتها من عمري ، فانني مع ذلك احس بالسعادة عندما اتذكر المرات التي اخطأت فيها ، ولكن عندما اذكر المرات التي كنت بليدة فيها بحيث ضيعت فرصة الخطيئة ، لا استطيع ان اسامح نفسي أو اغفر لها ، حتى هذا اليوم » .

ولكن الحياة قاسية ، وفي امكان الانسان الذكي ان يسيطر على زميله ذي الطبيعة السمحة والعاطفة الدافئة . فالكرماء بطبيعتهم كثيراً ما يرتكبون الاخطاء بكرمهم ، وسماحتهم ، وبنظرتهم السمحة الى اعدائهم ، وايمانهم باصدقائهم . وكثيراً ما يعود الرجل السمح الى بيته خائب الأمل ، لينظم قصيدة يضمنها مرارته . وينطبق هذا على كثيرين من الشعراء والباحثين في الصين ، ولا سيا على شانج تاي الذي عرف باغراقه في شرب الشاي ، والذي بدد ثروته بسخائه ، ثم خانه اصدقاؤه واقرباؤه . وضمّن اثنتي عشرة قصيدة نظمها مرارته التي تفوق كل ما قرأته ، ولكنني اعتقد انه ظل على سخائه حتى اللحظة الاخيرة من حياته ، حتى بعد ان غدا فقيراً محرماً . واشرف اكثر من مرة على التضور جوعاً ، اذ ان هذه المشاعر المتألمة مرت كسحابة صيف عابرة وظل محتفظاً بسعادته حتى النهاية .

ولكن لا بد من حماية هذا الكرم الدافىء للروح من الحياة عن طريق فلسفة ، خاصة ، اذ ان الحياة قاسية ولا يكفي فيها دفء الروح . ولا بد من الجمع بين العاطفة والحكمة والشجاعة . وانا ارى في الحكمة والشجاعة شيئاً واحداً ، اذ ان الشجاعة تنبثق من تفهم الحياة ، ولأن الذي يفهم الحياة فهماً كاملاً يكون شجاعاً دائماً . الا ان أي طراز من الحكمة لا يمنحنا الشجاعة ، لا يستحق ان نتعلق به . ولكن الحكمة تؤدي الى الشجاعة عن طريق ممارسة « حق النقض » مع مطامحنا الحمقاء . وتحرير انفسنا مما في العالم من خداع حديث سواء أكان خداعاً في الفكر أو في الحياة .

وهناك ثروة من الخداع في الحياة . وان كان البوذيون الصينيون قد صنفوا كل ما في العالم من مظـــاهر الخداع الصغيرة ، في صنفين كبيرين هما الشهرة والثراء . وهناك قصة تروى عن الامبراطور شيينلونج ، فقـد صعد ذات يوم تلاً يطل على البحر اثناء جولته في الصين الجنوبيـــة ، ورأى عدداً من السفن الشراعية تمخر عباب هذا البحر جيئة وذهاباً . وسأل الامبراطور احد وزرائه عما يفعله الناس في هذه المئات من السفن ، فرد وزيره بأنه لا يرى الا سفينتين وهما ، « الشهرة » و « الثراء » . وهناك كثيرون من المثقفـــين يستطيعون الخلاص من استهواء الثروة ، ولكن قلة من العظماء ليس الا تستطيع الخلاص من سحر الشهرة . وكان احد الرهبان يتحدث ذات يوم الى طالب من طلابه عن هذين المصدرين من مصادر متاعب الانسان . فقال ... « لعل من الاسهل على المرء ان يخلص من تشهيه للمال ، من ان يخلص من لهفته على الشهرة . فحتى المتقاعدين من الباحثين والرهبان يرغبون في ان يبرزوا وأن يعرفوا عنـــد رفاقهم . وهم يودون ان يلقوا خطباً عامة على جمهرة كبيرة من المستمعين ، وان لا ينسحبوا الى الدير الصغير . ومعهم طالب واحد من طلابهم . كما فعـــلت انا معك .» ورد الطالب قائلاً... « حقاً يا سيدي الاستاذ ، انك الرجل الوحيد في العالم الذي استطاع قهر الرغبة في الشهرة » . وابتسم الراهب الحكيم .

ولكن ملاحظاتي على الحياة تؤكد ان هذا التصنيف البوذي للمظـــاهر الخادعة في الحياة ناقص ، اذ ان هذه المظاهر تتلخص في ثلاثة لا في مظهرين ، وهي الشهرة والثراء والسلطان . وهنـــاك تعبير امريكي صالح يجمع بين هذه المظاهر الخادعة الثلاثة في مظهر واحد وهو النجاح . ولكن هناك كثيرين من الحكماء يعرفون ان الرغبات في النجاح والشهرة والثراء هي اسماء مستعـــارة للمخاوف من الفشل والفقر والحياة المغمورة . وان هذه المخاوف تسيطر على حياتنا . فهناك كثيرون من الناس تمكنوا من تحقيق الشهرة والثراء . ولكنهم ما زالوا يصرون على وجوب التحكم في الآخرين . انهم من الرجال الذين كرسوا

حياتهم لخدمة بلادهم ، مقابل ثمن غال للغاية . ولو طلبت الى رجـل حكيم ، ان يحيي بقبعته الحريرية الجماهير ، وان يلقـــي سبع خطب في اليوم ، على ان يصبح رئيساً ، لرفض خدمة بلاده . ويعتقد جيمس برايس [١] ان نظام الحكم الديمقراطي في امريكا من الطراز الذي لا يستطيـع اجتذاب خيرة ابناء البلاد الى ميدان السياسة. واني لا اعتقد ان ما في حملة الانتخابات الرئاسية في امريكا من جهد هائل يكفي لبعث الفزع في نفوس حكماء امريكا ، وقبول أي منصب عام يتطلب من الانسان ان يحضر ست حفلات عشاء في الاسبوع ، تحت ستار تكريس حياته لخدمة الناس . ولكن لمَ لا يكرس نفسه لعشاء بسيط يتناوله في منزله ، وللنوم في فراشه وارتداء بيجامته ؟ فسرعان ما يتعرض الانسان تحت سحر خداع الشهرة او السلطان للوقوع فريسة لمظاهر خادعة اخرى وعرضية . ومثل هذه المظاهر لا تنتهي ابداً ، اذ انه سرعان ما يشرع في المطالبة باصلاح المجتمع ، وبالرفع من اخلاق الآخرين والدفـــاع عن الكنيسة والقضـــاء على الرذيـــلة ، ووضع البرامج لغيره لينفذوها ، والحيلولة دون تنفيذ مخططات الآخرين ، وقراءة تقرير حافل بالاحصاءات التي اعدها له الآخرون من العاملين في حكومته ، أمام أي اجتماع عام ، والجلوس في اللجان التي تدرس مسودات البرامج ، وفتح مستشفيات الامراض العقلية للناس ، والتدخل في حياة غيره . وسرعان ما ينسى ان مثل هذه المسئوليات والواجبات المفروضة ، وان هـذه

---

(١) جيمس برايس لورد ديشمونت (١٨٣٨ - ١٩٢٢) -- سياسي وكاتب بريطاني . ولد في بلفاست في سكوتلندة. ودرس في جامعة اوكسفورد . وضع كتاباً عن الامبراطورية الرومانية المقدسة اكسبه الشهرة . اصبح استاذاً في اوكسفورد . انتخب نائبـــاً في مجلس العموم في عام ١٨٨٠ ، اصبح وزيراً للتجـــارة في عام ١٨٨٩ ثم عين سفيراً لبريطانيا في الولايات المتحدة . حاضر كثيراً في امريكا في موضوع العلاقـات الدولية . من اهم كتبـــه . « الحكومة الامريكية » و « قرنان من تاريخ ايرلندة » و « دراسات في التاريخ وفقه القانون » و « الديمقراطيات الحديثة » .

المعرب

المشاكل المتعلقة باصلاح الناس، واداء هذا العمل ، ومنع المنافسين من ادائـــه ، لم تخطر له على بال من قبل ، ولم تكن معروفة لديه . وليس ثمة من شك في ان القضايا المتعلقة بالعمالة والبطالة والتعرفات الجمركية تبعد عن تفكير أي مرشح فاشل في الانتخابات الرئاسية ، بعد انقضاء اسبوعين ليس الا على موعـــد الانتخابات. او هناك من يريد بعد فشله اصلاحهم او رفع اخلاقهم ، او ارسالهم الى مستشفيات الامراض العقـــلية ؟ أما اذا نجح في الانتخابات ، فان هذه المظاهر الخادعة ، اساسية كانت ام ثانوية ، تظل تشغله ، وتوهمه بأنـــه يحقق شيئاً بالفعل ، وانه والحالة هذه رجل « مهم » .

ومـــع ذلك هناك خـــداع اجتماعي ثانوي ، لا يقل قوة وشمولاً عن مظاهر الخداع الرئيسية ، واعني به « خداع الموضة » . فالشجاعة فى ان يظهر الانسان بمظهره الحقيقي امر نادر . ويعتقد الفيلسوف الاغريقي ديموقريطس[1] انه قدم خدمة عظمى للانسانية عن طريق تحريرها من كابوس خوفين ضخمين هما الخوف من الله والخوف من الموت . ولكن هذا لا يحررنا من خوف ثالث كبير آخر ، وهو الخوف من الجيران . فهناك كثيرون تحرروا من الخوف من الله والموت ، ولكنهم لم يستطيعوا التحرر من الخوف من الانسان . فنحن عن وعي منا ، أو دون وعي ، نمثل على مسرح هذه الحياة ، ادواراً للنظارة بطريقة يرضون عنها .

وليست هذه الموهبة التمثيلية وما تنطوي عليه من قدرة على التقليد ، الا مظهراً رئيـسياً من مظاهر تراثنا الذي ورثناه عن القرود . وهناك مزايا تتحقق عن طريق هذا التمثيل ، ولعل اوضحها تصفيق النظارة وتهليلهم . ولكن كلما

---

(١) ديموقريطس (ولد في عـام ٤٦٠ ق.م) - فيلسـوف اغريقي ، ومن اعظم الفلاسفة قبل ارسطو . ورث عن ابيه مالاً عريقاً انفقه في البحث عن المعرفة في اوروبا وافريقيا وآسيا، وضع عدداً من الكتب في الفلك والرياضيات والفن والادب والاخلاق . وقد وضعها في حديقة تقع على مقربة من مسقط رأسه في ايديرا .

المعرب

زاد عدد المصفقين والهاتفين كلما زاد عدد المداجين المنافقين وراء الكواليس . يضاف الى هذا ان هذا التمثيل يساعد المرء على كسب رزقه ، ولذا لا يلام أي انسان على تمثيل دوره بشكل يرضي جمهور النظارة .

ولعل الاعتراض الوحيد هو ان الممثل يتقمص احياناً صورة صاحب الشخصية ويصبح واقعاً تحت تأثيرها . فهناك بعض المختارين من الناس يستطيعون ان يتزيوا بازياء ذوي المراكز والشهرة ، وان يحتفظوا بشخصياتهم الحقيقية ، اذ انهم يعرفون انهم يمثلون ، ولذا فلا يخضعون لما في الشخصية الزائفة التي يمثلونها من اغراءات المنزلة واللقب والثراء والوجاهة ، وعندما تعترض طريقهم مثل هذه المظاهر يواجهونها ، بابتسامة متسامحة ، لانهم يرفضون ان يصدقوا انهم متميزون عن الناس العاديين . ولا ريب في ان هذه الفئة من الناس العظماء في ارواحهم ، هي التي تتميز بالبساطة في حياتها الخاصة . ولا ريب في ان عدم تعلقهم بمثل هذه الاوهام هو السبب الذي يجعل من بساطتهم مظهراً صحيحاً من مظاهر عظمتهم الحقة . وليس ادل على العقل الصغير من ذلك الموظف البيروقراطي الحكومي الصغير الذي يعاني من اوهام العظمة ، أو من تلك المرأة الحديثة العهد بالمجتمع والتي تحاول التدليل على مكانتها بما تحمله من جواهر ، أو ذلك الكاتب التافه الذي يتصور نفسه واحداً من الخالدين ، فيفقد بساطته وطبيعته كانسان .

ولا شك في ان غريزتنا التمثيلية عميقة الى الحد الذي يدفعنا إلى ان ننسى اننا نعيش حياة حقيقية خارج المسرح . وهكذا فاننا نكد ونكدح ونقطع سبيل الحياة ، ونحن لا نحيا لانفسنا وطبقاً لغرائزنا الحقيقية بل لننال رضى مجتمعنا تماماً « كالخياطة العجوز التي تكد بابرتها ايل نهار لتصنع ملابس الزفاف للاخريات » كما يقول المثل الصيني .

٣ – الاستخفاف والحماقة والتعمية – لاوتسي

لعل من اغرب المتناقضات ، ان فلسفة لاوتسي الشريرة عن « الافاق العجوز » كانت المسؤولة عن خلق اسمى المثل عن السلام والتسامح والبساطة والرضى ، وتتضمن تعليماته الفلسفية الحديث عن حكمة الحمقى ، ومزايا التعمية والتضليل ، والقوة في الضعف ، والبساطة في اكثر الناس تفلسفاً . ولا يمكن للفن الصيني نفسه بخيالاته الشعرية وتمجيده للحياة البسيطة التي يعيشها الحطابون والصيادون ان يكون في معزل عن هذه الفلسفة . وفي جذور هذه النزعة السلامية الصينية تبرز الرغبة في التغلب على الخسائر المؤقتة ، ومجاراة الوقت ، والاعتقاد بان الطبيعة على ضوء قوانينها وفي مجالات فعلها وردود فعلها ، لا تضمن لأي انسان ميزة دائمة على غيره ، او ان هناك انساناً يتصف بالحمق طيلة الوقت . وفي هذا يقول لاوتسي :

« تبدو الحكمة العظمى وكأنها بلادة
وتبدو البلاغة القصوى وكأنها تلعثم
وتتغلب الحركة على البرودة
ولكن التريث يتغلب على الحرارة .
وهكذا يتمكن بهدوئه الرائق الشفاف
من ان يضع كل شيء في موضعه الصحيح تحت السماء »[1]

فاذا عرفنا والحالة هذه ، ان لا ميزة دائمة لأي انسان في سبل الطبيعة على الآخرين ، وان ليس ثمة انسان دائم الحمق ، فان النتيجة الطبيعية التي نتوصل اليها ، هي انه لا فائدة من المنازعة والخصام . ويقول لاوتسي ان «الرجل العاقل

---

(١) اقتبست هذه الابيات وما يتلوها من ترجمة ارثر ويلي الممتازة للاوتسي في كتابه « الطريق وقوتها » – اللين واونوين – لندن .

الحكيم لا ينازع الآخرين ، ولذا فلا يوجد في الدنيا من يريد منازعته » . وهو يقول ايضاً ... « أرني شخصاً يتبع العنف ، قد حقق نتيجة طيبة ، وسأعتبره آنذاك استاذاً لي » . وفي وسع أي كاتب معاصر ان يضيف الى ذلك قائلاً .. « أرني حاكماً ديكتاتوراً واحداً ، يستطيع الاستغناء عن خدمات شرطته السرية ، وسأكون تابعاً له » . ولعل هذا هو السبب الذي دفع لاوتسي الى القول ... « عندما تفقد الفلسفة الطاوية سيطرتها ، تتحول الجياد الى ميادين التدريب على الحرب ، أما عندما تسيطر هذه الفلسفة ، فان هذه الجياد تدرب على سوق العربات » ويقول ...

ان خيرة سائقي العربات لا يسرعون في سيرهم
كما ان خيرة المحاربين لا يظهرون غضبهم الجامح
ويكسب اعظم الفاتحين الانتصارات دون ان يخوضوا المعارك
كما ان افضل الناس استخداماً للآخرين يتظاهرون بانهم دونهم
فهذا هو السلطان الذي يتحقق دون نزاع
بل انه القدرة على استخدام الناس
بل والسر في الاقتراب من السماء كما كان الاقدمون يقولون ...

ويخلق قانون الفعل ورد الفعل عنفاً يقابله عنف آخر كما يقول لاوتسي ...

ان كل من تدفعه فلسفته الطاوية الى مساعدة الحكام
لا بد وان يقاوم كل فتح يتم عن طريق استخدام القوة .
فهذه الأمور لا بد وان ترد على بعضها البعض .
وتنمو الاشواك والعواسج حيث توجد الجيوش
ولا بد ان تتلو سنة من القحط ...
عملية حشد جيش كبير .

ولذا فان القائد العسكري الصالح ينفذ هدفه ثم يتوقف
ولا يحاول اكتساب المزيد من الفوائد من نصره .
فهو يحقق هدفه ولا يفاخر بما فعله ...
أجل يحقق هدفه دون ان يزهو ويمجد نفسه ...
انه يحقق هدفه دون كبر أو تعال ...
ويعتبر ذلك خطوة لم يكن في الامكان تجنبها .
انه يحقق هدفه ولكن بدون عنف .
اذ ان ما يتميز بالحيوية ينطوي على اوقات من الانحلال .
فالعنف ضد الطاوية ...
وكل ما لا تقره الطاوية لا بد وان يزول فوراً .

واني لأحس بأنه لو دعي لاوتسي لتولي الرئاسة في مؤتمر فرساي لما ظهر هتلر فيما بعد . وقد ادعى هتلر ، « ان الله قد باركه وبارك عمله » ، مؤيداً ادعاءه هذا بالطريقة المعجزة التي اوصلته الى الحكم . واني لأميل الى الظن بان القضية ابسط من ذلك بكثير ، فــان البركة التي حلت عليه كانت من روح كليمنصو وتفكيره . وليست السلامية الصينية انسانية بطابعها ، وانما هي مستمدة من الفلسفة القديمة التى لا تقوم على الحب الانساني الشامل وانما تقوم على طراز مقنع من الحكمة البارعة . وفي هذا يقول لاوتسي ...

على كل شيء مصيره الى الانكماش
ان يتمدد اولاً .
وعلى كل ما لا بد من اضعافه في النهاية
ان يكون قوياً منذ البداية ...
وعلى كل ما يطلب الاطاحة به

ان يبدأ بعملية بناء وقيام ،
وعلى كل من يرغب في ان يأخذ
ان يبدأ حياته بالعطاء .
ولعل هذا ما نسميه باطفاء الانسان لنوره .
وهذا هو السبب في انتصار النعومة على القسوة
والضعف على القوة .
ومن الخير ان نبقي على الاسماك في حوضها
وان نبقي على اكثر اسلحة الدولة مضاء
خفية عن عيون الناس جميعاً »

وكان لاوتسي اكثر الواعظين فعالية في الدعوة الى ما في الضعف من قوة ، والى انتصار حب السلام ، والفائدة من التواضع . فالماء في رأيه سيظل دائماً رمز قوة الضعيف ؛ اذ ان الماء الذي يتساقط بنعومة يثقب الصخر ، كما ان الماء يتميز بحكمة طاوية عظيمة تهدف الى البحث عن المستويات الخفيضة . وفي هذا يقول لاوتسي ...

او ما رأيت كيف تمكنت الانهار والبحار العظيمة
من تحقيق سيطرتها على مئات الجداول الصغيرة ؟
انها تمكنت من ذلك ، بفضل وقوعها في مكان أخفض من تلك
الجداول ... اجل هذا هو سبيلها .

هناك رمز مشترك آخر هو « الوادي » الذي يمثل التجويف ، بل رحم الحياة ومصدر وجودها . انه تجويف الانثى ... وفي هذا يقول لاوتسي ...

تظل روح الوادي حية الى الابد
انها تسمى الانثى الخفية ...

ولا ريب في ان بوابة هذه الأنثى
هي القاعدة التي انطلقت منها الارض والسماء .
انها موجودة فينا دائماً ...
وفي وسعك ان تستمد منها ما تريد باستمرار ،
اذ انها لن تجف ابداً .

وقد لا يكون من الاصطناع في شيء ان نقول ان الحضارة الشرقية تمثل العنصر المؤنث ، وان الحضارة الغربية تمثل العنصر المذكر . فهناك شيء يشبه الرحم أو « الوادي » في قوة الصين السلبية . وان هذا الوادي يتلقى على حد تعبير لاوتسي ، « كل ما تحت السماء ، وينطوي بوصفه وادياً على قوة كافية دائماً » . ويعارض لاوتسي رغبة يوليوس قيصر في ان يكون الرجل الأول في قريته ، ويتقدم بنصيحة تقول ان على الانسان ان لا يكون الرجل الأول في العالم . وقد عرض شوانجتسي هذه الفكرة عن خطورة البروز في قصيدة هجا فيها كونفوشيوس وعرضه للمعرفة . ولا ريب في ان كتاب شوانجتسي انطوى على كثير من الحملات التي تعرض صاحبها لخطر الادانة بالقذف ، ولكن كونفوشيوس كان ميتاً عندما وضع شوانجتسي كتابه ، ولذا لم يتعرض لمثل هذه الادانة . وهو يقول ...

« كان كونفوشيوس محصوراً بين شين وتساي ، حيث قضى سبعة ايام بلا طعام .

« ومضى اليه الكاهن جين ليسري عنه ، ثم قال له ... لقد كنت مشرفاً على الموت يا سيدي .

ورد كونفوشيوس ... حقاً لقد اشرفت على الموت .

وسأله جين ... أوَتخشى الموت يا سيدي ؟

– اجل انني اخشاه .

– اذن فسأحاول ان اعلمك الطريقة التي تنجو بها من الموت ...

« هناك انواع معينة من الطير في البحر الشرقي يطلق عليها اسم « ايبريه » . وهي تتصرف بطريقة متواضعة تخلو من الادعاء ، وكأنها مفتقرة الى كل قدرة . فهي تطير جماعة وفي وقت واحد ، وترقد على بيضها جماعة ايضاً . وعندما تطير ، لا يحاول احدها ان يسبق زملاءه ، أما عند تراجعها فلا يغامر أي منها في أن يكون الاخير . وعندما تتناول طعامها ، فلا يبدأ أي منها قبل الآخرين ، اذ ان اكل ما يتركه الآخرون فضيلة . ولذا تحس هذه الطيور بالسعادة في صفوفها ، ولا يستطيع احد من العالم الخارجي ان يلحق بها الاذى . وبهذه الطريقة تنجو من المتاعب .

« وتتعرض الاشجار المستقيمة الى القطع قبل غيرها ، كما تنضب آبار المياه العذبة قبل غيرها . وفي وسعك ان تظهر معرفتك لتذهل الحمقى . وانت تقوم بتعهد نفسك وتثقيفها بالنسبة الى ما يلحق بالآخرين من حط في مقامهم . واذا ما سطع نورك ، ظهرت وكأن الشمس والقمر اصبحا تحت ذراعيك . ولن يكون في وسعك تجنب المتاعب. » ورد كونفوشيوس قائلاً ... « حسن ما قلت » . وسرعان ما ودع اصدقاءه وصرف حوارييه ، ولجأ الى الغابات معتزلاً ، حيث ارتدى جلود الحيوانات وعاش على ثمار البلوط والكستناء . وكان يمر بين الوحوش والطيور فلا تكترث به وبوجوده . »

ولقد نظمت قصيدة لخصت فيها رسالة الفكر الطاوي ...

« هناك في الحمق طراز من الحكمة
« وفي البطء شيء من الجلال ...
« وهناك في البلادة بعض المكر
« كما ان هناك فائدة في ان يختار المرء الاماكن الخفيضة »

وقد يبدو هذا القول للقراء المسيحيين شبيهاً بموعظة الجبل . وقد لا يولونه كثير اهتمام . ولا ريب في ان لاوتسي اضاف لمسة بارعة الى هذه الصورة عندما قال ... « طوبى للمجانين فهم اسعد من على الارض من الناس » . وسار شوانجتسي على غرار الحكمة المشهورة التي صدرت عن لاوتسي عندما قال بان « اعظم الحكمة ما يشبه البلادة ، وان اعظم البلاغة ما يشبه التلعثم » ، فوصف انساناً بانه «يبصق الذكاء » . واطلق ليو شونجيوان في القرن الثامن على التل المجاور له اسم « التل البليد » وعلى النهر القريب منه اسم « النهر البليد » . واطلق شينج بانشياد في القرن الثامن عشر . الملاحظة المشهورة التالية ... « قد يكون عسيراً على المرء ان يكون مشوش الفكر . وقد يكون عسيراً عليه ان يكون ذكياً ، ولكن اصعب شيء في الوجود هو ان ينتقل المرء من الذكاء الى تشويش الفكر » . ولم يتوقف ادباء الصين قط عن اطراء الحمق . وتبدو حكمة هذا الموقف على الفور في فهم التعبير الامريكي العامي ... « لا تكن كثير الذكاء » . فأعقل الناس هو ذاك الذي يدعي دائماً انه من الحمقى .

ونرى من هذا في الحضارة الصينية الظاهرة الغريبة للفكر الرفيع الذي يأخذ في الشك في نفسه ، وينمّي تلك النظرية الداعية الى الجهل ، والنظرية السابقة التي تقول ان التعمية هي خير سلاح في معركة الحياة . ولا شك في ان نصيحة شوانجتسي « ببصق الذكاء » . ليست الا خطوة قريبة للغاية من تمجيد الحمقى ، وهو التمجيد الذي ينعكس باستمرار في الفن الصيني وفي الصور الادبية للشحاذة ،

أو للانسان الفاني المتنكر ، او للراهب المجنون ، أو للناسك الشاذ ، وهي صور نراهـا في الفصل الحادي عشر من كتاب « رحلات مينجلياوتس » . ويتلقى عدم استهواء الحياة لمسة رومانسية أو دينية ، ويدخـل في ملكوت الخيالات الشعرية ، عندما يصبح الراهب الفقير ذو الاسمال البالية ، ونصف المجنون،رمزاً يمثل لنا اسمى الحكمة ، نبل الشخصية .

ولا شك في ان الاعجاب بالحمقى حقيقة لا تنكر . وليس ثمـة من شك في ان العالم بشرقه وغربه ، يكره الرجل الكثير الذكاء عندما يتعامل مع الآخرين. وكتب يودان شونجلانج مقالاً فسر فيه لم آثر هو واخوته ان يبقوا على اربعة من خدمهـم في منتهى البلادة ومنتهى الوفاء . واذا عاد الانسان بفكره مستعرضاً اسماء اصدقائه ومن يعملون معه ، يتثبت من هذه الحقيقة بنفسه ، يرى ان الذين يحبهم ليسوا اولئك الذين يحترمهم لكفايتهم النادرة ، وان الذين يحترمهم لكفايتهم النادرة ، هم غير اولئك الذين يحبهم ، وانه يؤثر الخادم البليد ، لأنـه يستطيع الاعتماد عليه ، ولأنه يستطيع في وجوده ان يسترخي ويستريح دون ان يجد نفسه مضطراً في صحبته لاعداد العدة للدفاع عنها امام ذكائه . ويؤثر العقـلاء من الناس عدم الزواج من ذكيات ، كما تؤثر الفتيات العاقلات ان لا يتزوجن من رجال مفرطي الذكاء .

ولقد كان هناك عدد من اشهر الحمقى في التاريخ الصيني ، وقد اكتسبوا جميعـاً الشهرة والحب لما تميزوا به من جنون واقعي او مزعوم . ولعل اشهر هؤلاء على سبيل المثال الرسام المشهور مي في المسمى « بالمجنون » ، وقد الصق به هذا الاسم بعد ان رأوه يتعبد في ملابسه التقليدية قطعـة من الصخر اسماها « حماه » . وتميز هذا الرسام وزميله ني يونلين بشيء من الهلوسة أو عقـدة النظافـة . وكان هناك الراهب الشاعر المجنون هانشان ، الذي ظل يجوب انحاء البـلاد بشعره الطويل المشوش ، وقدميه العاريتين ، يؤدي بعض الخدمات في مطابخ الاديرة التي يمر بها لينال منها فضلات الطعام ، ويكتب قصائده الخالدة

على جدرانها . ولعل اكثر الرهبان جنوناً واستهواء لخيال الشعب الصيني هـو شي نيين ، الذي اصبح بطـل قصة رومانسية شعبية . ظلت تطول باستمرار ، عن طريق ما يلحق بها من اضافات الى ان غدت تعادل في حجمها ثلاثة اضعاف قصة دون كيشوت ، مع استمرار الزيادة فيها . وكان يعيش في عالم من السحر والطب والشعوذة والسكر الدائم ، ويملك موهبة الظهور في مـدن مختلفة في وقت واحد ، مع انها تبعد عن بعضها البعض مئات الاميال . وما زال المعبد الذي اقيم تخليداً له يقوم في هو باد على مقربة من بحيرة هانشاو الغربية . وظهر في القرنـين السادس عشر والسابع عشر ، عدد من عباقرة الرومانسية ، كانوا يتظاهرون ، بالرغم من حقيقتهم الطبيعية ، بما يقومون به من اعمال غير عادية في سلوكهم وتصرفاتهم ولباسهم . ليحملوا الناس على الاعتقاد بانهم من المجانـين من امثال هسو وينشانج ولي شواو وشين شينجتان .

٤ – فلسفة « كيت وكيت » – تسيسي...

ليس لدي من شك في ان الفلسفة التي تجمع بين الاستخفاف وبين حياة راحة الضمير ، تميل ميلاً شديداً ، الى الخروج بنا من حياة الافراط في العمل ، وتحمل الكثير من المسؤوليات . وتتجه بنا تبعاً لذلك الى التقليل من الرغبة في العمل . يضاف الى هذا ان الرجل العصري يحتاج الى هذه الريح المنعشة من الاستخفاف ، لانها لا بد وان تحقق له بعض الخير . ولعل الكثير من الاذى يتحقق من الفلسفة الصريحة التي تدفـع بالانسان الى حيـاة من النشاطات المبددة وغير المجدية ، اكثر من تحققه عن فلسفات الاستخفاف القديمة والحديثة مجتمعة . وهناك الكثير من الحوافـز الفيسيولوجية على العمل عند كل انسان ، وهي على استعداد لمقاومة هذه الفلسفة ، وبالرغم من شيوع فلسفة التـكاسل عند الصينين فما زال الشعب الصيني من اكثر شعوب الارض جداً ونشاطاً . فهناك حقيقة واقعـة وهي ان

غالبية الناس لا يستطيعون ان يكونوا من المتكاسلين ، لان غالبية الناس ليسوا من الفلاسفة .

ولا استطيع والحالة هذه ان ارى كبير خطر من تحول الاستخفاف الى « موضة » شائعة عند الجميع . ففي الصين ، حيث تجد الفلسفة الطاوية تجاوباً غريزياً في فؤاد كل صيني ، وحيث ظلت هذه الفلسفة تعمل عملها الوف السنين مطلة علينا في كل قصيد شعري بل وفي كل صورة طبيعية ، نجد ان الحياة ما زالت تتسم بالمرح ، وان هناك الكثيرين من الناس يؤمنون بالثراء والشهرة والسلطان ، ويتلهفون على العمل في خدمة بلادهم . ولو لم يكن الوضع على هذا النحو ، لما كان في امكان الحياة الانسانية ان تواصل سيرها . فالصينيون في الواقع لا يستخفون بالحياة ، ويميلون الى الخيال الشعري ، الا عندما يفشلون في الحياة ، وما زال الكثيرون منهم رجالاً عاملين بمعنى الكلمة . ولم تترك فلسفة الاستخفاف الطاوية من اثر سوى الابطاء في غذ الحياة ،والايحاء بالثقة في اوضاع النكبات العامة ، وحالات سوء الحكم البشري ، بأن هناك قانوناً للفعل ورد الفعل ، وان هذا القانون لا بد ان يحقق العدل والانصاف في النهاية .

ومع ذلك فهنالك مؤثر مضاد في الفكر الصيني بصورة عامة ، وهو يقف موقف التعارض من هذه الفلسفة الاستخفافية ، واعني به فلسفة « الأفاق الطبيعي » . فهناك فلسفة « التهذيب الطبيعي » التي تقف متعارضة مع فلسفة « التهذيب الاجتماعي » . وهنالا الكونفوشيوسية التي تقف موقف التعارض من الطأوية. ولما كانت الطاوية والكونفوشيوسية تمثلان النظرتين السلبية والايجابية للحياة ، فان هاتين الفلسفتين ليستا مقتصرتين على الصين وحدها ، وانما تمثلان في الطبيعة الانسانية . كلها . فالناس جميعاً يولدون نصف طاويين ونصف كونفوشيوسيين . والنتيجة المنطقية لأي انسان يؤمن ايماناً كاملاً بالطاوية ، هي ان يمضي الى الجبال ، ليحيا حياة النسك والعزلة ، وليقلد الى امضى حد ممكن حياة الاستخفاف التي يعيشها الحطاب وصياد السمك ، اذ يظن الأول نفسه

ملكاً على التلال الخضراء ، بينما يعتبر الثاني نفسه مالكاً للمياه الزرقاء . ويطل هذا الناسك الطاوي ، وهو نصف مختف وراء السحب التي تغطي قمم الجبال ، على الحطاب وصياد السمك وهما يتجاذبان اطراف الحديث الذي لا طائل تحته ، فيسمع احدهما يقول ان الخضرة دائمة في التلال ، ويسمع ثانيهما يؤكد أن المياه ستستمر في جريانها ، دون ان يسمح لهما برؤياه . ويحس وهو يفكر في هـذا الحديث الذي يسمعه بشعور من السلام الكامل . ولكن هذه الفلسفة سيئة مع ذلك لأنها تدعونا الى الفرار من المجتمع الانساني .

فهناك فلسفة اعظم من هذه الفلسفة الطبيعية ، واعني بها فلسفة الانسنة . والمثل الاعلى عند الصينيين هو ذلك الانسان الذي لا يهرب من المجتمع الانساني والحيـــاة الانسانية ليحتفظ بطبيعته السعيدة الاصيلة . فهو انسان ناسك من الطبقة الثانية ، اذ انه يجمع بين العبودية لبيئته ، وبين الرغبة في الفرار من المدن ليحيا حياة العزلة في قمم الجبال . ويقول احدهم ان « الناسك الاعظم هـــو ناسك المدينة » ، لأنه قادر على التحكم في نفسه وعلى مواجهة ما يحيط به دون خوف . فهــو والحالة هذه « الراهب الاعظم » الذي يعود الى المجتمع الانساني ليطعم ويشرب الخمر ، يلقى النساء ، دون ان يمس ذلك روحه بـأي اذى . ويتضح من هذا ان في الامكان الجمع بين الفلسفتين . وليس التناقض بـــين الكونفوشيوسية والطاوية الا امر نسبي ، اذ ان العقيدتين ، تمثلان الجانبــين المتضادين ، اللذين تقوم بينهما عدة مراحل متداخلة .

ولا ريب في ان انصاف المستخفين. هم احسن المستخفين بالحياة. ولا ريب في ان اسمى طراز في الحياة، هو طراز الحياة التي تتميز « بالتعقل العذب » والتي دعـا اليها تسيسي حفيد كونفوشيوس ، في كتابه « الوسط الذهبي » . وليست هناك فلسفة قديمة او حديثة تعالج مشاكل الحياة الانسانية ، اكتشفت حقيقـة اكثر عمقاً من عقيدة هذه الحياة المنظمة التي تقوم وسطاً بين الطرفين المتناقضين، وهي عقيدة « النصف والنصف » او « كيت و كيت » . انهـــا الحياة المثالية

الحكيمة التي اكتشفها الصينيون والتي تتمثل في روح « التعقل العذب » التي تصل الى الموازنة الكاملـــة بين العمل واللا عمل . والتي تظهر في صورة رجل يعيش نصف مشهور ونصف مغمور . نصف نشيط ونصف متكاسل ، ليس من الفقر على تلك الدرجة التي لا تمكنه من دفع ايجار مسكنه ، ولا من الغنى بحيث يجـــد نفسه في غنى عن العمل وفي غنى عن معونة اصدقائه ، يعزف البيانو ، ولكن الى حد ما يرضي خيرة اصدقائه ونفسه ، ويجمع المـــال ولكن الى الحد الذي يكفيه ليس إلا ، ويقرأ ولكن لا يفرط في القراءة ، ويتعلم ولكن ليس الى الحد الذي يجعل منه متخصصاً ، ويكتب المقالات لصحيفة التـايمس ، فتنشر بعضها وتهمل البعض الآخر . انه في الواقع صورة ذلك الانسان الوسط في كل شيء . ولا ريب في هذه الصورة هي التي رسمها تسيسي في انشودته عن « رجل الكيت وكيت » اذ يقول ...

« آه انه النصف العظيم
« الذي رأيته في هذه الحياة العائمة ...
« ان كلمة النصف ، كلمة سحرية
« لانها غنية بالمعاني ...
« انها تأمرنا بان نتذوق من المرح
« اكثر مما نستطيع ان نحظى به ...
« والوسط من كل شيء هو احسن حالات الانسان
« عندما تسمح له خطواته المسترخية بان يستريح
« ويقوم عالم واسع وسطاً بين الارض والسماء
« فعليك ان تعيش وسطاً بين المدنية والريف ،
« وان تكون لك مزرعتك وسطاً بين الجداول والتلال ...
« ولتكن نصف عالم ، ونصف سيد ، ونصف تاجر
« بل عش حياة وسطاً في كل شيء ، بين النبل والتواضع

« وليكن بيتك وسطاً بين الاناقة والبساطة .
« بل وسطاً بين الاثاث الفاخر ، والارض العارية
« ولتكن ملابسك وسطاً بين الجدة والقدم
« وطعامك وسطاً بين الترف والبساطة .
« وليكن خدمك وسطاً بين الذكاء والبلادة
« ولتكن زوجتك وسطاً بين البساطة والذكاء .
« فاذا حققت ذلك كنت نصف بوذا الاله
« وكنت في الوقت نفسه نصف انسان طاوي .
« ولتكرس نصف حياتك لأخراك
« ونصفها الثاني لدنياك واولادك .
« وليكن نصف تفكيرك في التخطيط لذريتك وتأمين معاشها
« والنصف الثاني للرد على حساب الله عندما تموت
« ونصف السكر هو اعقله واكثره حكمة
« والزهرة نصف المتفتحة هي اجمل الازاهير
« ويكون القارب الشراعي ثابت السير عندما يفتح نصف شراعه
« وتركض الجياد أحسن ركضها عندما يكون عنانها نصف مشدود
« واذا كنت تملك الكثير سادك القلق
« اما اذا كنت تملك القليل جداً ، بت متلهفاً على التملك
« ولما كانت الحياة تجمع بين العذوبة والشقاء
« فان من يتذوق نصفهما يكون احكم الناس واكثرهم عقلاً

ونجد في هذه الاغنية جمعاً بين الاستخفاف الطاوي والنظرة الايجابية الكونفوشيوسية ، وذلك من فلسفة « النصف والنصف » ولما كان الانسان قد خلق وسطاً بين ارض الواقع وسماء الخيال . فان هذه الفلسفة ، حتى وان بدت

للوهلة الاولى غير مرضية للغربي ذي النظرة المباشرة للحياة ، هي خير الفلسفات لانها اكثرها انسانية . واني لاعتقد ان ليندبرج لو طار نصف المسافة التي طارها فوق المحيط الاطلسي لكان اسعد حالاً . ولو سلمنا جدلاً بان هناك حاجة الى وجود عدد في الناس من طراز « السوبرمان » في وسطنا ، سواء أكانوا من المكتشفين او المخترعين اوالفاتحين او الرؤساء او الابطال الذين يغيرون مجرى التاريخ ، فان الحقيقة تظل قائمة ، وهي ان الانسان الوسط سيظل اسعد الناس، اذ ان موارده القليلة كافية لتأمين استقلاله الاقتصادي ، ولانه بعمله القليل يحقق خدمة للانسانية ، ولانه بمركزه المتواضع ذو اثر في مجتمعه . ولا ريب في ان الحياة الانسانية تكون اكثر سعادة في هذا الوسط من الجمع بين المتضادين، ومن المزج بين الاستخفاف والجد ، وتكون هذه السعادة وسيلة لتحقيق نجاح اكبر . على اي حال ، علينا ان نمضي في حياتنا ، ولذا فواجبنا يدعونا الى الهبوط بفلسفتنا من السماء الى الارض .

٥ – حب الحياة – طاو يوانمينج

بينت حتى الآن ان المزج السليم بين النظرتين الايجابية والسلبية الى الحياة ، يؤدي الى تحقيق فلسفة منسجمة من طراز فلسفة « النصف والنصف » التي تقوم وسطاً بين العمل واللاعمل ، وبين الانقياد الاعمى الى حياة العمل وبين الهروب من مسؤوليات الحياة ، وان هذه الفلسفة كما نرى في ضوء جميع الفلسفات في العالم هي المثل الاحكم والأسعد لحياة الانسان على الارض . وهناك نقطة اخرى اكثر اهمية ، وهي ان المزج بين هاتين النظرتين المختلفتين يجعل من الامكان خلق شخصية منسجمة ، تكون الهدف المعترف به لكل ثقافة وتعليم . وقد نعثر في هذه الشخصية المنسجمة ، وهذا هو الأمر المهم ، على حب للحياة وتمتع بها .

وقد يكون من العسير عليّ ان اشرح مـــا في هذا الحب للحياة من مزايا ، وقد يكون من الاسهل التحدث بالالغاز ، او رواية قصة محب صادق للحياة ، ورسم صورة حياته الواقعية . وهنا تمثل في مخيلتي صورة طاو يوانمينج اعظم من انجبته الحضارة الصينية من شعراء . وليس ثمة في الصين من يستطيع ان يعترض عليّ عندما اقول ان طاو يمثل لنـــا الشخصية الكاملة الانسجام ، والبروز في تاريخ الادب الصيني كله . فما زال هذا الرجل الذي لم يحقق الكثير من البروز في الحياة الرسمية ، والذي كان محروماً من السلطان ومن الشهرة الرسمية والذي لم يخلف لنا تراثاً ادبياً رفيعاً سوى مجلد صغير من القصائد الشعرية ، وثلاث او أربع مقالات نثرية ، المشعل الذي ظل نوره يشع عبر الاجيال ، كالرمز الذي يتعلق به صغار الشعراء والكتاب . لانه يمثل لهم ، اسمى صورة للشخصية الانسانية . وتتميز حياته بالبساطة ، وهي صفة يتميز بها اسلوبه ايضاً الذي يوحي بالاحترام ، والذي يمثل تأنيباً دائماً للطبائع الاكثر اشراقاً واكثر تفلسفاً . وهو يمثل اليوم الصورة الكاملة للانسان المحب للحياة ، وذلك لان الثورة فيـــه على الرغبـات الدنيوية لم تؤد به الى اية محاولة للفرار الكامل ، بل وصلت بـه الى مرحلة من التوافق مع حياة الغرائز والاحاسيس . ولا ريب في ان قرنين من الرومانسية الادبية والعقيدة الطاوية عن حياة الفراغ والثورة على الكونفوشيوسية قد عملا في الصين عملهما ، واشتركا مع الفلسفـــة الكونفوشيوسية الـتي عملت في الصين قروناً سابقة طويلة من امكان ظهور هذه الشخصية المنسجمة . ونحن نجد عند طاو ان النظرة الايجابية قد فقدت استسلامها الاحمق ، وان الفلسفة الاستخفافية قد فقدت ثوريتها العنيفة وهي مزيـة نجدها عند تورو المفتقر الى النضوج ، كما نرى ان الحكمة البشريـــة قد وصلت لأول مرة الى النضوج الكامل في روح من السخرية المتسامحة .

ويمثل لي طاو تلك الخاصية الغريبة للثقافة الصينية التي تظهر في شكل جمع غريب بين الاخلاص للجسد ، وغطرسة الروح ، وبين الروحية الخـــالية من

الجمالية ، والمادية الخالية من الاحساس ، بحيث باتت الاحاسيس والروح قادرة على العيش معاً في توافق وانسجام . فالفيلسوف المثالي هو ذلك الذي يستطيع فهم ما في المرأة من سحر . دون أن يكون جافاً أو رخيصاً ، وهو الذي يستطيع أن يحب الحياة من كل قلبه ، ولكن دون أية تحفظات أو قيود ، والذي يرى ما في النجاح والفشل في الحياة العملية من لاواقعية ، ثم يقف متعالياً إلى حد ما ، ومعزولاً عنها ، دون أن يعاديها . ولما كان طاو قد وصل إلى التوافق الصحيح في التطور الروحي ، فاننا نجد فيه افتقاراً كلياً إلى الاصطراعات الداخلية ، كما نجد ان حياته كشعره خاليين من كل جهد ومنسجمين مع الطبيعة .

ولد طاو في نهاية القرن الرابع ، وكان الحفيد البعيد لرجل من الموظفين عرف بواسع دراساته ، وكان ليقي نفسه من خطر البطالة والكسل ، ينقل كومة من الطوب في كل صباح من مكان إلى مكان آخر ، ليعيدها في المساء الى مكانها السابق . وقبل طاو في شبابه وظيفة صغيرة ، ليعيل عن طريقها والديه العجوزين ، ولكنه سرعان ما استقال منها وعاد إلى المزرعة يحرث أرضها بنفسه كأي فلاح ، مما أدى إلى اصابته ببعض الأوجاع . وراح ذات يوم يسأل أصدقاءه وأقاربه إذا كان من المناسب له أن يعمل كشاعر يطوف الأرجاء ليكسب مالاً ، يستخدمه في الانفاق على حديقته . وعندما سمع بعض أصدقائه بذلك ، تمكنوا من تعيينه في منصب قاضٍ للصلح في بلدة بينجشيه القريبة من كيوكيانج . ودفعه ولعه بالخمر إلى التوصية بزراعة جميع الحقول التي تملكها الحكومة المحلية بالأرز اللزج الذي يستخدم في صناعة الخمور ، ولم يوافق على زراعة سدسها بنوع آخر من الأرز إلا تحت ضغط زوجته والحافها . وعندما جاء إلى البلدة أحد مندوبي الحكومة ، راح سكرتيره ينصحه بأن يستقبل الزائر بلباسه الرسمي ، مما دعا طاو إلى التنهد قائلاً ... « لا أستطيع الانحناء من أجل خمس بوشلات من الأرز » . وراح يستقيل من منصبه على الفور ويضع قصيدته المشهورة ...

« آه انني ملزم بالعودة إلى الوطن » . وراح يعيش منذ ذلك التاريخ حيـاة الفلاحين ، رافضاً قبول أي منصب . وكان يحيا حياة الفاقة ، ويشاطر الفقراء كل ما يملكه ، وعبر عن أسفه الأبوي في رسالة وجهها إلى أولاده ، طلب منهم فيها أن يلبسوا ملابس الفقراء ، وان يعملوا كالفلاحين العاديين . وعندما تمكن من أن يبعث إليهم بأحد أولاد الفلاحين ، عندما كان بعيداً عن المزرعـة ، ليساعدهم في العمل ، وفي نقل الماء وجمع الحطب ، وجه اليهم رسالة قال فيها... « عاملوه بالحسنى ، فهو ابن أحد الناس أيضاً » .

وكان شغفه الوحيد يمثل في شغفه بالخمر . ولما كان يحب الوحدة ، فانه كان نادراً ما يستقبل أي ضيوف ، ولكن إذا وجد الخمر ، جلس مع الرفاق ، يحتسيها ، حتى ولو لم يكن يعرف صاحب الدعوة . وكان في أحيان أخرى ، إذا كان هو صاحب الدعوة ، وانتشى بما شربه من خمر ، يقول لضيوفه .... « لقد ثملت ، وبت أفكر بالنوم . وفي وسعكم أن تذهبوا » . وكانت لديه آلة موسيقية وترية ، تقطعت أوتارها لقدمها. وكان العزف عليها من النوع البطيء ، ويتطلب من عازفها هدوءاً عقلياً كاملاً . وكان إذا ما حن إلى الموسيقى بعـد إحدى الولائم ، يعبر عن حنينه هـذا ، بالنقر باصابعه على الآلة التي تقطعت أوتارها . وكان يقول ... « إنني أحس بالنغم دون أن اسمعه ، ولذا فلا حاجة بي إلى الأوتار » .

وكان يتميز بالتواضع والبساطة والاستقلال ، ولذا فكان بخيلاً بصداقاته . وأراد أحد القضاة ويدعى وانج ، وكان معجباً أشد الاعجاب به ، ان ينمّي صداقته معه ، ولكنه وجد ان ذلك من الصعوبة بمكان ، وان من العسير عليه أن يلقاه . وكان بما عرف عنه من بعد كامل عن التصنع قد قال له .... « انني أعيش منعزلاً ، إذ انني بطبيعتي لم أخلق لحيـــاة المجتمع . كما انني معتكف في منزلي لانني مريض . وان مما يناقض طبيعتي تمـــاماً ، ان يقال عني انني أفعل ذلك لأشتهر بانني مترفع ومتكبر » . ولذا وجد وانج نفسه مضطراً إلى التآمر

مع آحد اصدقائه ، ليعمل على رؤيته . وراح هذا الصديق يقنعه بالخروج من منزله عن طريق دعوته إلى وليمة ، وإلى لقـــاء عارض مع وانج ، ومضى طاو في طريقه إلى مكان الوليمة ، ولكنه ما لبث أن توقف في منتصف الطريق عند سرادق كانوا يقدمون فيه الخمر . وأشرقت أسارير طاو فرحـاً ، وانكب على الشراب ، وسرعان ما خرج وانج الذي كان مختفياً ، ليلقاه . وسر طاو بالرفيق العارض ، وظل يتحدث اليه طيلة الأمسية ، حتى نسي الذهاب إلى مأدبة صديقه . ورأى وانج ان طاو لا يلبس حذاء في قدميه ، فأمر أتبـــاعه بأن يصنعوا له الحذاء . وعندما طلب هؤلاء الاتباع من طاو أن يحـدد لهم مقاسات قدميه ، مد لهم رجله ، طالباً قياسها . ودأب وانج منذ ذلك التـــاريخ ، إذا رغب في لقاء طاو ، على انتظاره في الغابة أو على مقربة من البحيرة ، فلعله يلقاه عرضاً. وأراد رفاقه ذات يوم تقطير بعض الخمور ، فأخذوا عمـامته ليستخدموها في التقطير ، وعندما اتموا عملهم ، عاد فلـّف عمامته حول رأسه .

وكانت هناك مجموعة من البوذيين تعيش على جبـــال لوشان العظيمة ، التي كان الشاعر يقيم عند سفوحها . وأراد زعيم هذه المجوعة ، وهو عالم كبير ان يحمل الشاعر على الانضمام إلى المجموعة . ودعي طاو ذات يوم إلى وليمة أقاموها له ، فاشترط عليهم أن يقدموا اليه الخمر . وخرق البوذيون قوانينهم وسمحوا له بذلك . وعنـدما أرادوا تسجيل اسمه عضواً في مجموعتهم ، ظهر التجهم على وجهه وفر من المكان . ومما يجدر ذكره أن الشاعر العظيم هسييه لينجون ، سعى إلى الانضمام إلى هذه المجموعة فلم يتحقق له ما أراده . ومع ذلك ظـــل زعيم المجموعة ينشد صداقته ، وراح يدعوه ذات يوم إلى الشراب مع صديـــق طاوي عظيم آخر . وهكذا اجتمع الرجال الثلاثة ، وكان زعيم المجموعة يمثل البوذية ، وطاو يمثل الكونفوشيوسية ، والصديق الثالث يمثل الطاوية . وكان الزعيم البوذي قد اقسم يميناً مغلظة ، على أن لا يتجاوز جسراً معيناً في مسيرته اليومية ، ولكن حدث ان كان يسير مع الرفيق الثالث ، ليصحبا طـــاو في

عودته الى مسكنه، فنسي نفسه في خضم الحديث الممتع ، وتجاوز الجسر دون ان يدري . وعندما لفت رفيقه نظره الى ما فعله . ضحك الرجال الثلاثة . واصبحت ضحكة هؤلاء الرجال الشيوخ الثلاثة موضوعاً طرقه الرسامون الصينيون . اذ ان الضحكة جسدت ما تحس به ثلاث ارواح حكيمة خالصة من الهموم والمتاعب من مرح وسعادة . كما جسدت توحيد ثلاث ديانات مختلفة عن طريق الاحساس بالنكتة .

وهكذا عاش هذا الشاعر العجوز الفلاح ، المتميز بالحكمة والمرح . ومات ، خالياً من الهموم ، مرتاح الضمير . ولكن شيئاً من ديوانه الشعري الصغير الذي تحدث فيه عن الشراب وحياة الرعيان ، وفي مقالاته الثلاث او الاربع ، وفي رسالته الى اولاده ، وفي الصلوات التي وضعها ، وفي الملاحظات التي رويت عنه ، والتي تناقلتها الاجيال اللاحقة ، اظهر فيه احساساً وعبقرية في فن الحياة المنسجمة وصلا حدود الفطرة الكاملة ، التي لم يتفوق عليها انسان لاحق . وقد عبر عن هذا الحب للحياة في قصيدة كتبها ذات يوم من ايام شهر نوفمبر عام ٤٠٥ ميلادية ، عندما قرر ان ينضو عن عاتقه اعباء المنصب الحكومي اذ قال ...

« آه انني اسير عائداً الى بيتي ... ولم لا اذهب الى هناك
وانا ارى ان الاعشاب والاشواك قد ملأت حقلي وحديقتي ؟
ولقد جعلت من نفسي أمة لجسدي . فلمَ الندم والعويل ؟

« لا تندم على ما فات . وامض في طريقك ايها الشاعر .
فانا لم اضل الطريق الا لمسافة قصيرة ، واني لأعرف اليوم انني
على حق . اذا كنت مخطئاً كل الخطأ في أمسي » .

« ويسير الزورق تقوده النسائم الخافتة . كما يخفق الوشاح

الذي ارتديه ، بهبات هذه النسائم . فانا اشد طريق الجوابين واخاف من ظلام الفجر .

« وعندما تقع عيناي على مسكني القديم ، سيدفعني الفرح الى غذ خطاي نحوه . وسيكون هناك خدمي يرحبون بي . والى جانبهم اطفالي يحيونني .

« ومن المحتمل ان تكون الازاهير التي زرعتها قد تحولت الى بذور ، ولكن اشجار الصنوبر وشجيرات الاقحوان باقية في مكانها . وسأقود اصغر اولادي ، لأقف معه امام المائدة التي يعلوها قدح طافح بالخمر .

« وامسك بالقدح ، لأحتسي الخمر منه ، وقد غمرت السعادة فؤادي لأني ارى في باحة الدار الغصون الوارفة. واتكىء بمرفقي على النافذة الجنوبية ، وقد غمرتني مشاعر الرضا ، واحس بأن المكان الصغير يحلو فيه المشي .

« ومع كل مسيرة ، في كل صباح . تزداد الحديقة جمالاً وقرباً من نفسي . ترى ماذا يحدث ، لو لم يقرع احد دائماً ذلك الباب المغلق ! وتطوف نظراتي وقد حملت عصاي ، بكل ما حولي ، لأعود فأتطلع الى السماء الزرقاء .

« وهناك في السماء ، ارى السحب تسير الهوينا بعيدة عن قنن الجبال . دون هدف أو غاية . كما ارى الطيور وقد اضناها التجوال تفكر بالعودة الى اعشاشها . وسرعان ما تبدأ ظلال الظلام بالظهور ، وأستعد للعودة الى البيت . مغازلاً ما أمر به من اشجار الصنوبر .

« آه ، انني اعود الى البيت . وعليّ ان اتعلم منذ الآن كيف اعيش وحيداً . فأنا لم اخلق للعالم ، كما لم يخلق العالم لي ، فلِمَ أمضي في طريقي باحثاً عن شيء لا اجده ؟ .

« وستسعدني احاديثي مع اهلي وصحبي . وسأعيش في رفقة الموسيقى والكتب ، اقضي الساعات الطوال . وسيأتي المزارعون ، ليقولوا ان الربيع قد حل ، وان العمل واجب في المزرعة الغربية .

« وهناك العربات المغطاة . وهناك قوارب تدفعها مجاذيفها . وكثيراً ما نطوف بحثاً عن البحيرات الصغيرة المجهولة ، أو نخرج لتسلق الجبال السوداء العالية . . .

« وعلى هذه الجبال ، ترتفع الاشجار . تغمرها السعادة ، فتعيش دائمة الخضرة ، وتندفع مياه الينابيع متفجرة بخرير دائم مستمر . ويعجبني ان كل شيء ينمو ويزدهر في مواسمه ، وهكذا أحس بأن حياتي ستمضي في طريقها لتكمل جولتها .

« كفى ! كفى ! لقد مللت من هذه الصورة الفانية التي أعيش فيها ، فلم لا نأخذ الحياة على علاتها بعجرها وبجرها ، ونتوقف عن الضجيج وكأننا موفدين في مهمة ؟ » .

« ولا يستهويني السلطان او الثراء ، كما ان منزلة الآلهة بعيدة عن متناول يدي . وسأمضي قدماً في الأصبحة والامسيات ، متكئاً على عصاي . اقتطع الاعشاب ، أو احفر الارض .

« وقد اجلس الى جانب جدول رقراق ، انظم ابياتاً من الشعر ، أو اصعد جبل تونجاو ، لأصرخ على قمته بأعلى صوتي . وهكذا اصبح سعيداً في ان احيا وأموت ، واقبل ارادة السماء ، دون تذمر او تساؤل » .

وقد يقال عن طاو انه كان « انهزامياً » ، ولكنه لم يكن كذلك في الواقع . فقد حاول الفرار من السياسة لا من الحياة . ولو انه كان من علماء المنطق . لآثر الفرار من الحياة كلها ، عن طريق التحول الى الرهبنة البوذية . ولكن طاو كان يحب الحياة حباً جماً ، ولم يكن راغباً في الفرار منها . فقد كان يحب زوجته واولاده . وكان يحب حديقته والاشجار التي تظللها ، ولما كان انساناً عاقلاً ، لا منطقياً . فقد اجتذبته الأمور التي احبها . ومن هنا نبع حبه للحياة ، وحرصه عليها . ولا ريب في ان هذا الاحساس الايجابي والمعقول بالحياة ، أوصله ، الى الاحساس بالتوافق معها ، وهو الاحساس الذي طبع ثقافته . وادى هذا التوافق مع الحياة ، الى انطلاق اعظم شعر عرفته الصين . فقد نبع طاو من الارض ، وكانت النتيجة التي توصل اليها ، لا ان يهرب منها ، بل ان يمضي قدماً في الاصبحة والامسيات . متكئاً على عصاه ، يقتطع الاعشاب او يحفر الارض . وهكذا اكتفى طاو بأن يعود الى مزرعته واسرته . وكانت النهاية التي توصل اليها ، التوافق مع الحياة لا الثورة عليها .

٦

عيد الحياة

١ – مشكلة السعادة :

يشمل التمتع بالحياة عـــدة أمور ، منها التمتع بالنفس ، وبالحيـــاة البيتية ، والأشجار والأزاهير والسحب والانهـــار المتعرجة ، والشلالات المتساقطة ، والأشياء الجميلة في الطبيعة ، ومنها التمتع بالسفر والفن والخيـال والصداقة والحديث والقراءة وكلها تشكل صورة أو اخرى من صور التعامل بين الأرواح . وهناك أمور واضحة منها التمتع بالغذاء ، أو بحفلة مرحـــة ، أو بالتئام شمل الأسرة ، أو بالنزهة في يوم جميل من أيام الربيـع ، كما ان هنـاك اموراً أقل منها وضوحاً ، منها التمتع بالسفر والفن والخيال . وقد وجدت من المستحيل ان اطلق نعتي « المادي » « والروحي » على هاتين الفئتين من التمتع ، والسبب الأول في ذلك انني لا أومن بوجود هذا التمييز ، أما الثاني ، فهو انني أحس بالحيرة عندما أشرع في اجراء هذا التصنيف. فكيف يمكن لي أن أميز وأن

أشهد جمعاً حافلاً مرحاً من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال في نزهة خلوية، بين المتع المادية والروحية التي يحسون بها ؟ فهناك طفل يتمرغ على العشب ، وآخر يقوم بحركات بهلوانية ، بينما تقف أمها تقطم شطيرة في يدها ، ويقف عمها يقضم تفاهة حمراء شهية ، ويجلس الأب متطلعاً إلى السحب الماخرة عنان السماء ، والجد ممسكاً بغليون في يده . وقد يكون هنـــاك انسان على مقربة ، يدير جهاز الحاكي فتتصاعد من بعيد أنغام الموسيقى الحالمة ، ممزوجة بصوت هدير الأمواج. ترى أي هذه المتع مادي وايها روحي؟ أو من الممكن التمييز بين التمتع بشطيرة وبين التمتع بالمناظر المحيطة بنا، وهو ما نسميه شعراً؟ أو من الممكن أن نعتبر التمتع بالموسيقى الذي نسميه فناً، طرازاً أرفع من التمتع بتدخين الغليون الذي نسميه متعة مادية ؟ ولذا فأنا أرى في هذا التمييز بين المتع المادية والروحية أمراً محيراً ، وغير واضح بل وغـــير صحيح أيضاً . وهو ينبع كما اعتقد من فلسفة كاذبة تفصل بين الروح والجسد ، ولا يدعمها أي درس مبـــاشر عميق لمتعنا الحقيقية .

أو هل أبدو كثير الأفتراض في محاولتي التوصل إلى الغاية الصحيحة للحياة الانسانية ؟ ولقد قلت دائماً ان غاية العيش هي التمتع الفعلي به . هذا هو الوضع على بساطته ، لأنه بسيط فعلاً . وأنا كثيراً ما أتوقف عند عبـارة « غاية » أو « هدف » . فمثل هذه الغاية أو الهدف من الحياة . وأعني بها التمتع الصحيح بها ، لا يمثلان هدفاً واعياً يجسده موقف طبيعي من الحياة الإنسانية . فعبارة « الهدف » نفسها توحي بكثير من الجهد والدأب . والمشكلة التي تواجـــه كل إنسان يولد في هذا العالم لا تتمثل في تحديد الهـدف الذي يجب عليه أن يسعى لبلوغه ، بل في تبيّن ما يجب عليه ان يفعله في هذه الحياة التي منحها لفترة قد لا تعدو خمسين أو ستين عاماً . ولا ريب في ان القول بأن عليه أن ينظمها بحيث تحقق له أقصى ما يمكن من السعادة ، مسألة عملية للغاية ، تشبه إلى حـد ما ، طريقة قضاء الإنسان لعطلة نهاية الاسبوع أكثر من شبهها بالفرضية الغيبية عن الهدف الباطني للحياة ضمن إطار الكون ونظامه .

وإني لاعتقد ان الفلاسفة الذين يحاولون حل مشكلة هدف الحياة . يعالجون الموضوع منذ البداية على أساس الأفتراض بأن لكل حياة هدفاً . ولا ريب في ان هذه القضية التي عالجها الكثيرون من المفكرين الغربيين ، قد حققت اهميتها عن طريق تأثير علم اللاهوت المسيحي ، واني لاعتقد اننا نفرط في التخطيط ، وفي رسم الأهداف . ولا شك في ان محاولة الناس حل هذه المعضلة، والاختلاف حول طريقة حلها ، وحيرتهم تجاهها ، كلها تشير إلى انها معضلة لاجدوى منها ولا ضرورة لها . ولو كانت هناك خطة للحياة أو هدف لها ، لما كانت هذه الخطة أو ذلك الهدف من الطراز المحيّر والغامض والعسير على الاكتشاف .

ويمكن تقسيم الموضوع إلى شقين ، أولهما الهدف السماوي الذي يحدده الله للبشر ، وثانيهما الهدف الإنساني الذي يجب أن يحدده الجنس البشري لنفسه . أما بالنسبة إلى الشق الأول ، فأنا لا أريد الخوض فيه ، إذ ان ما يخيل الينا ان الله يفكر فيه هو من بنات أفكارنا ، ومن العسير على العقل البشري ، ان يتكهن بما يفكر به الله. وكل ما ننتهي اليه عن طريق هذا الطراز من التفكير ، هو أن نجعل من الله ، رئيس عرفاء جيشنا ، وأن نعتبره شوفينياً في عواطفه ، فهو في رأينا لا يملك « هدفاً مقدساً » أو « قدراً » للعالم ، أو لأوروبا ، بل يقع هذا القدر لنا ولوطننا . ولا أستطيع ان أتصور ان النازيين يفكرون بالله ، إلا على انه يضع شارة الصليب المعقوف على ذراعه . وهم يقولون دائماً « إن الله معنا ، وليس معهم » . ولكن الألمان ليسوا بالشعب الوحيد الذي يفكر على هذا النحو .

أما بالنسبة إلى الشق الثاني فان موضوع الخلاف لا يكون في تحديد الهدف القائم للحياة البشرية ، بل في تحديد ما يجب أن يكون عليه هذا الهدف ، ولذا فالموضوع عملي لا عيني . وعلى كل إنسان ان يبرز في موضوع ما يجب أن يكون عليه الهدف الانساني ، مفاهيمه ومقاييسه عن القيم . ولعل هذا هو السبب الذي يدعونا إلى الاختلاف حول هذا الموضوع ، وذلك لأن مقاييسنا

عن القيم تختلف وتتباين . واني من ناحيتي أكثر قناعة بالميل إلى النـــاحية العلمية مني إلى الناحية الفلسفية . فانا لا أفترض حتيمة وجود هدف أو معنى للموجود الانساني . ويقول والت ويتمان [1] ... « أنا راض بحالي » . فيكفي أنني أحيا ، وأنني سأحيا عدة حقب أخرى ، وأن الحيـــاة الإنسانية موجودة . وإذا ما نظرنا إلى الموضوع من هذه الزاوية بدا مدهشاً في بساطته ، ولم يعد يحتمل صورتين . أهناك من هدف آخر للحيـــاة الانسانية سوى التمتع بهذه الحياة ؟

ومن الغريب ان مشكلة السعادة التي تمثل القضية الكبرى التي احتلت عقول كافة الفلاسفة الوثنيين ، قد اهملت كل الاهمال من المفكرين المسيحيين ، وليست القضية الكبرى التي تشغل عقول علماء اللاهوت هي قضية السعادة الإنسانيـــة . بل « الخلاص » الانساني ، وهي عبارة مفجعة . واني لأجد في هذه العبـــارة مذاقاً لا استسيغه ، لأن الناس أكثروا من التحدث عن « الخــلاص الوطني » . فهناك كثيرون يريدون خـــلاص الصين . وهي تمثل احساس اناس يقفون على سفينة موشكة على الغرق ، يرون القضاء المحتوم ، ويفكرون في خير السبل للخلاص منه . ولا ريب في ان المسيحية . التي وصفت بانها « التنهدة الأخيرة لعـــالمين مشرفين على الموت » هما العالم الأغريقي ، والعالم الرومـــاني ، ما زالت تحتفظ بشيء من تلك الخصائص عن طريق انشغالها بموضوع الخـــلاص ، وأمام الحديث عن البقاء أحياء بعد الموت ، نسي الناس الحديث عن العيش في هـــذه الحياة . وهل يفكر الانسان كثيراً بالخلاص . الا اذا كان يحس بالقدر المحتوم ؟ وهكذا نجد ان عقول علماء اللاهوت مشغولة بموضوع الخلاص ، ولا تهتم بموضوع السعادة ، وكل ما يستطيعون قوله لنا عن المستقبل هو ان هناك حياة أخرى غامضة ، وعندما نسألهم عمّا سنفعله فيها ، وكيف تتاح لنـــا السعادة فيها ،

---

(١) وولتر ويتمان (١٨١٨ – ١٨٩٢) شاعر امريكي سبق لنا أن تحدثنـــا عنه في هامش سابق .

ردوا ردوداً غامضة تتمثل في انشاد الاغاني الدينية، وارتداء الملابس البيضاء. أما النبي محمد فقد رسم صورة مشرقة للسعادة في الحياة الاخرى ، اذ وصفها بانها حافلة باحسن الخمور ، والشراب ، والحور العين من ذوات الشعور السود ، والعيون الدعج[1]. وما لم تصور لنا الحياة الاخرى بوضوح اكثر اقناعاً . فليس ثمة ما يدعونا الى المغالبة للانتقال اليها على حساب اهمالنا لوجودنا الدنيوي . ويقول البعض ان « البيضة اليوم خير من الدجاجة في الغد ». ونحن عندما نعد العدة للمضي في اجازتنا الصيفية ، نشرع على الفور في السعي الى الوصول الى بعض التفصيلات عن المكان الذي نعتزم الذهاب اليه . واذا لم نستطع العثور على ما نريده من معلومات من مكاتب السياحة آثرنا عدم الذهاب ، والبقاء حيث نحن . فهل سنكد ونكافح في الحياة الاخرى كما يعتقد الذين يؤمنون بالكد والكفاح المطلقين ؟ ولكن كيف يمكن لنا ان نكافح لنصل الى التقدم ، ونحن قد بلغنا مرتبة الكمال كما يقولون ؟ أو هل سنكتفي بالتعطل والكسل ، والامتناع عن اي عمل أو قلق ؟ اذا كانت هذه هي النتيجة او ليس من الخير لنا ان نتعلم التعطل ، ونتدرب عليه ، ونحن على هذه الارض ، استعداداً للحياة الابدية ؟.

واذا كان لا بد لنا من نظرة الى الكون ، فان علينا ان ننسى انفسنا ، وان لا نحصرها في الحياة الانسانية. اجل، علينا ان نمد نظرتنا هذه بعض الشيء، وان نضمنها ، هدف الخليقة كلها ، بما فيها من صخور واشجار وحيوانات . فهناك منهج للأمور ، أو غاية او هدف ، أي ان هناك تركيباً لهذه الخليقة ، وفي وسعنا ان نكون عنه فكرة مهما كانت مفتقرة الى التحديد في النهاية، وعن هذا

---

(١) لم تكن هذه هي الصورة الوحيدة التي رسمها النبي محمد (صلعم) للحياة الثانية ، وانما كانت هناك صور اخرى منها ما هو للصالحين ومنها ما هو للطالحين . وفي الاولى السعادة والهناء والسلام وفي الثانية العذاب والويل والتكفير عما ارتكب المرء في دنياه من آثام .

— المعرب —

الكون كله ، لنحدد مكاننا فيه . ويجب ان تكون هـذه النظرة الى الطبيعة ومكاننا فيها ، طبيعية ، طالما اننا نؤلف بحياتنا جزءاً حيوياً معها ، وطالما اننا سنعود اليها عندما نموت . وفي وسع علوم الفلك وطبقات الارض والحياة والتاريخ . ان تزودنا بالمعلومات الصالحة والكافية لمساعدتنا في تكوين رأي سليم الى حد ما ، اذا لم نحاول الافراط في التطلع ، والقفز في الوصول الى الاستنتاجات . وليس من المهم على الاطلاق ، اذا كانت مكانة الانسان في هذه النظرة الاوسع لهدف الخليقة ، قد انحسرت في اهميتها بعض الانحسار . ويكفيه ان له مكاناً فيها . ويستطيع عن طريق العيش بانسجام مع الطبيعة التي تحيط به ان يكـّون لنفسه وجهة نظر عملية ومعقولة عن الحياة الانسانية نفسها .

٢ – السعادة البشرية حسيّة

تعتبر السعادة البشرية كلها عضوية حياتية . وهـذه نظرة علمية دقيقة . ولكنني اجد من واجبي ، حتى ولو تعرضت الى حد ما الى سوء الفهم ، ان اوضح هذا القول ، بالتأكيد على ان السعادة البشرية كلها حسية . واني لعلى ثقة من الانسان المؤمن بالروح لن يفهمني ، ولا شك ان الروحيين والماديين من الناس يسيئون فهم بعضهم البعض، لانهم لا يتحدثون بنفس اللغة ، ولأنهم يعنون بالكلمة الواحدة ، معاني مختلفة . ولكن أنسمح لأنفسنا في موضوع تحقيق السعادة بأن نقع تحت تضليل الروحيين ، فنقر بان السعادة الحقة هي سعادة الروح ؟ ولكن لو قبلنا هذا الرأي ، تحتم علينا على الفور ان نبادر الى تحديده بقولنا ان الروح هي حالة من حالات الاداء الكامل للغدد الصّماء . فالسعادة في نظري قضية متعلقة الى حد كبير بالهضم . ولكن عليّ ان اتنكر في زي مدير لاحدى الكليات الامريكية لاؤكد مركزي العلمي ومقامي ، عندما اقول بأن السعادة قضية متعلقة الى حد كبير بيسر الهضم . فقد الـف

هذا المدير ان يقول قولاً حكيماً في خطبه للطلبة الجدد في كل عام في كليته . وهو يوصيهم بقوله ... « هناك امران اريد منكم ان تهتموا بهما ، وهما قراءة الكتاب المقدس ، والحفاظ على يسر هضمكم » . ولا ريب في ان هذا الرجل كان في منتهى الحكمة ليصدر عنه هذا القول ... فاذا كان الهضم حسناً ، احس الانسان بالسعادة ، اما اذا بات هضمه عسيراً ، اصبح من التعساء . هذه هي الحقيقة .

وعلينا ان لا نضيع تفكيرنا في المطلقات عندما نتحدث عن السعادة ، وان نهبط الى الحقائق ، فنحلل في تفكيرنا لحظات السعادة الحقة التي نمر بها في حياتنا . وكثيراً ما تكون السعادة في عالمنا الذي نعيش فيه سلبية ، أي بغياب الاحزان او الآلام أو الاوجاع البدنية . ولكن السعادة قد تكون ايجابية ايضاً ، وآنذاك نطلق عليها اسم المرح . ولعل اسعد لحظاتي مثلاً ، هي تلك التي استيقظ فيها صباحاً بعد ليلة من النوم الهادىء ، لاستنشق نسيم الصباح العليل ، وعندما أحس بالرغبة في عب هذا النسيم من رئتيّ السليمتين واشعر بشيء من الحركة الصحيحة من عضلات صدري وسطحه ، وارى نفسي صالحاً للعمل ، أو عندما امسك بالغليون في يدي ، واريح ساقي على المقعد ، سامحاً للطباق بان يحترق ببطء ويسر . أو عندما اسافر في يوم من ايام الصيف القائظ وأحس بجوفي يحترق من الحرارة ، ثم ارى فجأة ينبوعاً صافياً رقراقاً امامي . فيبعث خرير مياهه السعادة في نفسي ثم اخلع جوربي وحذائي ، لاغرق قدمي في مائه البارد المنعش ، أو عندما استلقي مسترخياً بعد عشاء طيب المذاق ، في مقعد مريح ، لا أجد امامي من لا تستسيغه نفسي ، وينتقل الحديث ببطء متناه الى آفاق مجهولة ، واحس بالطمأنينة الروحية والعضوية مع العالم ، أو عندما اشهد بعد ظهر أي يوم من ايام الصيف ، السحب السوداء تتجمع في الأفق البعيد ، فأعرف ان زخة من زخات مطر يوليو لا بد وان تهطل بعد ربع ساعة ، فاسرع مخافة ان يراني الناس اخرج للسير في المطر دون مظلة تقيني ، لاقابل الطل

المنهمر وانا في الحقول ، واعود الى البيت غارقاً في البلل ، لأقول لافراد اسرتي ان المطر قد داهمني .

وكما يتعذر علي ان احدد بالضبط ما اذا كنت احب اطفالي عضوياً او روحياً ، عندما اسمع هذرهم ، أو عندما ارى سيقانهم الملأى ، فانا عاجز كلياً عن التمييز بين مسرات العقل ومسرات البدن . او هناك رجل يحب امرأة حباً روحياً دون ان يحبها حباً جسدياً ؟ وهل من السهل على الرجل ان يحلل مفاتن المرأة التي يحبها وان يفصل هذه المفاتن عن بعضها كضحكتها وابتسامتها ، وطريقتها في تحريك رأسها ، ومواقفها من مختلف الامور ؟ فكل فتاة تحس بمزيد من السعادة تغمرها عندما ترتدي خير الثياب . ولا شك في ان في احمر الشفاه ، ومساحيق التجميل ، مزايا ترفع المعنويات عند المرأة ، كما ان معرفتها بأنها تلبس أحسن الثياب تخلق في نفسها هدوءاً روحياً وسعادة وطمأنينة ، وهي كما نعرف امور واقعية ومحدودة ولا يفهم عنها الانسان الروحي شيئاً . ولما كنا قد خلقنا في صورة هذا الجسد الفاني . فان الحاجز بين روحنا وجسدنا رقيق للغاية ، كما لا يمكن الوصول الى عالم الروح باحاسيسه الجميلة وبتقديره العظيم لجمال الروح الا عن طريق الحواس . وليس ثمة من شيء يسمى الاخلاقية أو اللاخلاقية في حواس اللمس والسمع والبصر . وهناك احتمال كبير في ان يكون فقدنا للقدرة على التمتع بالمسرات الايجابية للحياة ناشئاً الى حد كبير عن ضعف قدرة حواسنا على الاحساس ، وافتقارنا الى استعمالها استعمالاً كاملاً .

ولكن لم نناقش هذه المسألة . فلنضرب امثلة محددة ، ولنستشهد بعظماء المحبين للحياة من اهل الشرق والغرب على حد سواء . ونرى ما الذي يحددونه عند ما يتحدثون عن الاوقات السعيدة في حياتهم . وكيف ان سعادتهم هذه

مرتبطة بحواسهم . ولنسمع مـــا يقوله تورو[1]. عن احساسه الجمـــالي العظيم عندما يسمع صوت الصرصار اذ يقول...

« اول ما يسمع الانسان من الصرصار ، صريره . وهـــو صوت مألوف وسط هذه الصخور. وليس ثمة الا اغنية واحدة تحمل الي معاني اكثر مما يحمله صريره . فهو يوحي الي ، بأنني في ساعة متأخرة ، ولكننا لا نعرف معنى الخلود الا بعد ان نتعرف الى الزمن . وليس هذا التأخير الا بالنسبة الى تفاهات الحياة وعواجلها . انه يوحي بحكمة ناضجة ، لا تحمل معنى التأخير وانما تسمو فوق جميع الاعتبارات الزمانية ، وتملك كل ما في الخريف من نضج وبرود ، ومـــا في الربيع من تطلع ، والصيف من حرارة . وهو يقول للطير ... آه ، انك تتحدثين كالاطفال ، بدافع الغريزة ، فالطبيعة هي التي تتحدث عن طريقك ، ولكن حديثك بالنسبة الينا ، معرفـــة ناضجة . فالفصول لا تدور من اجلنا ، وانما نحن نهدهدها بالغفـــاء » . وهكذا يظل الصرصار ينشد دائماً لجذور الاعشاب . والمكان الذي يعيش فيه هو جنينة ، فلا حاجة به الى التطلع الى غيره . انه مكانــه المفضل دائماً في مايو وفي نوفمبر . وفي صريره كل الحكمة ، فغناؤه ، نثر صادق ، وهو لا يثمل بالخمر ولكن بالضباب . وهو لا يعبر به عن ضنى الحب الذي يخفته عندما

---

(١) يعتبر تورو من اكثر الكتاب الامريكيين شبهاً بالصينيين في نظرتهم الى الحياة ، ولذا فأنا اعتبر نفسي قريباً منه في الروح . ولم اكتشف هذا الكاتب الا منذ عدة اشهر ولذا فان متعة اكتشافه ما زالت حديثة في فكري . وفي وسعي ان انقل فقرات كاملة من اقوال تورو الى الصينية ، وان انسبها الى احد شعراء الصين ، دون ان يشك في صحتها اي انسان .
— المؤلف —

يمر موسم الفقس ، وانما يمجد به الله ، متمتعاً بحبه الى الابد . وهو لا يكترث بدوران الفصول . ولا تنوع في جهـــده ، كالحقيقة التي لا تقبل التنوع . ولا يسمع الانسان هذا الصرير الا في لحظات حكمته وعقله » .

ولنسمع الآن ما يقوله وولت ويتمان وهو يحس بشمه وبصره وسمعه ، فيسهم احساسه هذا في انتعاش روحه ، وما يعلقه عليه من اهمية ...

« هبت عاصفة ثلجية في الصباح واستمرت طيلة النهـار . ومع ذلك فقد رحت أمشي زهاء ساعتين ... انها نفس الغابات ونفس الطرقات ، ونفس الثلوج المتساقطة . والريح هادئـة ، ومع ذلك فهناك حفيف اوراق الصنوبر الموسيقي، يعلو ويهبط، وفيه غرابة كهدير الشلالات حيناً وهدوء وانسياب حيناً آخر. وتحس جميع حواسي من بصر وشم وسمع بالمتعة والراحـة . وتتساقط الثلوج ، فتظل في الاماكن الخضراء التي تهبط عليهـا وكأنها اكاليل من الغار ، وتبدو الاوراق والاغصان التي لاعد لها ولا حصر ، وقد كساها البياض ، ومع ذلك ظلت اطرافها واضحـة كالزمرد . وارى اعمدة من اشجار الصنوبر البرونزية السامقة المستقيمة ، وقد فاح فيهـا عبير يختلط برائحة الثلج . فلكل شيء رائحته ، حتى الثلج له رائحة ، يستطيع الانسان ان يتميزها . ولكـن هذه الروائح مختلفة كاختلاف الاماكن والازمنة . فرائحة الظهيرة غير رائحة المساء ، ورائحة الشتاء غير رائحة الصيف » .

اهناك الكثيرون منـا يستطيعون التمييز بين رائحتي الظهيرة والمساء ، أو بين رائحتي الشتاء والصيف ، أو بين رائحة الريح ، والهواء الساكن ؟ واذا كان

الانسان في المدن اقل منه سعادة في الريف . فلأن هـــذه التباينات في البصر والرائحة والصوت اقل وضوحاً هناك، ولأنها تضيع في رتابة الحياة بين الجدران المغبرة الشاحبة والشوارع المرصوفة .

ويتشابه الصينيون والامريكيون عندمـــا يتحدثون عن الحدود الصحيحة للحظات السعادة واحتمالاتها ومزاياها ، واری قبل ان أترجم اللحظات الثلاث والثلاثين التي حددها مفكر صيني ان اقتطف على سبيل المقارنة ، فقرة أخرى من ويتمان يحدد فيها كنه حواسنا ، اذ يقول ...

« انه يوم هش صاف ، يطفح بالاوكسجين والجفـــاف والنسائم .وهنـــاك الكثير من المعجزات الجميلة والصامتة والطافحة بالحكمة ، تلفني من كل جانب ، وتستهويني ، كالاشجار والمـــاء والعشب وأشعة الشمس والصقيع المبكر ، ولكنني اليوم اكتفي بالتطلع الى السماء . ففي السماء تلك الزرقة الناعمة الشفافة التي يتميز بها الخريف ، وفيهـــا تلك السحب البيضاء أو الصفيرة ، مضفية بحركتها شيئاً من الهدوء الروحي على ما خلفها من تقعّر ... وتظل السماء زرقاء صافية طيـــلة ساعات النهـار المبكرة . ولكن عندما تدنو الظهيرة ، يصبح اللون باهتاً ، ويظل شاحباً ، ساعتين أو ثلاث ساعـات ، ثم يستمر في الشحوب حتى تهبط الشمس التي اراهـا تتمايل وراء الاشجار العالية ، وفجأة تنطلق السنة من اللهب ، في الافـق البعيد ، وتختلط الوان الصفرة بالاحمرار ، مـــع الانعكاسات الفضية على الماء البعيد ، فتبدو الظلال ، والخطوط ، والروعة ، في الالوان الجميلة المختلطة بيد رسام بارع .

« وقـــد لا اعرف السبب ، ولا الكيف ، ولكنني احس

اني بفضل هذه السماوات ، التي اظن كلما رأيتها انني اراهـا للمرة الاولى . انني تمتعت بلحظات من السعادة العاملة في هـذا الخريف . وقد قرأت ذات يوم ان بايرون[1] قال قبيل وفاته لصديق له ، انه لم يعرف الا ثلاث ساعات من السعادة طيـلة حياته . وهناك ايضاً تلك الاسطورة الألمانية القديمة عن جرس الملك . وعندمـا كنت هناك في الغابة ، في ذلك اليوم ارقب المغيب عبر الاشجار ، فكرت بما قاله بايرون وبقصة الجرس ، وداهمتني فكرة عاجلة ، بانني احس بالسعادة في تلك الساعة . ولكنني لا اسجل لحظات سعادتي ، اذ انني اخشى ان افقد ما فيها من سحر . عن طريق تدوين المذكرات . وكل ما افعله ، انني اسلم نفسي الى سجيتها ، واتركها تحلق حيث شاءت حاملة اياي معها الى حدود النشوة ...

« ترى ما السعادة على أي حال ؟ أهذه ساعة من ساعاتها ، أو انها تشبهها ؟ انهـا قصيرة ، اشبه بنفس خاطف أو لمسة عابرة . انني لا اعرف ، فلأنتفع من مزية الشك . الديك ايتها السماء الزرقاء الشفافة ، وفي اعماقك ترياقاً لمـا اعانيه ... أو رحت ، بطريقة غامضة اجهلها ، تبعثين بهذا الترياق في الهواء ، ليتسلل الى نفسي ... »

---

(١) جورج بايرون (اللورد) ١٧٨٨ – ١٨٢٤ - من اشهر شعراء انجلترا ، ولد في اسرة عرفت منذ امد طويل بالتحلل الاخلاقي . ولد في لندن . درس في هـارو وجامعة كمبريدج . عـاش لاهياً عابثاً طيلة حياته حتى قيل انه عشق اخته غير الشقيقة . اشترك في حرب تحرير اليونان . له عدة دواوين شعرية منها دون جوان .

– المعرب –

٣ – لحظات سعادة شين الثلاث والثلاثون

بتنا اكثر استعداداً الآن لدراسة لحظات السعادة عنـــد الصيني كما وصفها وتفهمها . فقد عدد لنا شين شينجتان ، ذلك الناقد التأثيري العظيم الذي عاش في القرن السابع عشر ، في ملاحظاته على مسرحية « الغرفة الغربية » لحظات السعادة التي عاشها ، كما حسبها مع صديق له ، عندما ظلا عشرة ايام يعيشان في عزلة في معبد مهجور . اذ حبسها المطر فيه . وهذه هي اللحظات التي يعتبرها سعيدة حقاً في الحياة الانسانية ، والتي ترتبط فيها الروح ارتباطاً وثيقـــاً بالحواس ...

١ – كان يوماً حاراً من ايام شهر يونيو ، وكانت الشمس محلقة في كبد السماء ، وليس ثمة نأمـــة من ريح او من نسيم . ولا أثر لأية سحب في السماء . وكانت الباحتان الامامية والخلفية للمنزل ، حارتين وكأنهما فرن ، ولا وجود لطائر يجرؤ على الطيران في السماء . ويتصبب العرق على جسدي كله ، وكأنه يسيل في انهار صغيرة . وامامي وجبة الظهيرة ، ولكنني عاجز عن مد يدي اليها بسبب الحرارة القائظة . وطلبت منهم ان يأتوني بحصيرة فرشتهـا على الارض لاستلقي عليها ، ولكن الحصيرة كانت رطبة بالماء ، فسارع الذباب يهبط على انفي ووجهي رافضاً ان يغادرني . واحسست باليأس في تلك اللحظة ، وفجـأة دوى قصف الرعد ، وظهرت سحب كثيفة في السماء تتهاوى وكأنهـا جيش عظيم يزحف الى ميدان المعركة . وسرعان ما تساقط المطر من السماء ، وكأنه الشلال . وتوقف العرق المتصبب ، واختفت حرارة الارض . وفر الذباب ليختبيء ، واصبح في مكنتي ان اتناول طعامي ... ترى اليست هذه هي السعادة ؟

٢ – وجاءني ذات يوم صديق لم اكن قد رأيته منذ عشر سنوات ، وقد هبط عليّ بصورة مفاجئة عند الغروب . وفتحت الباب ارحب به ، ودون ان اسأله ان كان قد جاء بطريق البر أو البحر ، وقبل ان اسأله الجلوس اما على السرير او الاريكة ، خلفته هناك لامضي الى داخل المنزل اسأل زوجتي ... ألديك دن من الخمر كدن زوجة سو تونجبو ؟ وراحت زوجتي ، تخلع من رأسها ، مشبكاً من الذهب لتبيعه . وقدرت ان ثمنه سيكفينا ثلاثة ايام ... أليست هذه هي السعادة ؟

٣ – كنت جالساً على انفراد في غرفة خالية ، وكان منظر فأر يلهو على مقربة من فراشي قد ضايقني ، ورحت اتساءل عما يمثله ذلك القضم الخافت الصوت ، ترى أيقضم حاجة من حوائجي ، أو كتاباً من كتبي ؟. وبينما كنت في هذه الحالة من التفكير لا اعرف كيف افعل واتصرف ، رأيت فجأة امامي ، قطة قاسية النظرات ، تهز ذيلها ، وتتطلع بعينيها المفتوحتين ، الى شيء امامها . والتقطت انفاسي ، وانتظرت لحظة ، هدأت فيها تمام الهدوء ، ولم اسمع الا صوتاً مباغتاً ، اختفى الفأر بعده ... أليست هذه هي السعادة ؟

٤ – اقتلعت بعض الاشجار والعواسج من امام مكتبي ، وزرعت بدلاً منها عشرين شجرة من اشجار الموز الخضراء ... أليست هذه هي السعادة؟

٥ – كنت اشرب مع زمرة من رفاق الخيال ، في ليلة من ليالي الربيع ، واحسست انني نصف ثمل ، ووجدت من الصعوبة بمكان ان اتوقف عن الشراب ، او ان امضي فيه . وفجأة ، أحس غلام ذكي كان يخدمنا ، بما انا فيه ، فجاء بعلبة للاسهم النارية فيها نحواً من اثني عشر سهماً ، ورحت اقوم من مكاني ، لاطلق هذه الاسهم . وهاجمت رائحة

الكبريت النقي ، ودخلت الى دماغي ، واحسست بالراحة تغمرني . أليست هذه هي السعادة ؟

٦ – كنت اسير في الشارع ، فرأيت أفاقين فقيرين يشتبكان في نقاش حاد ، وقد احمر وجهاهما ، وانطلقت من عيونهما نظرات الغضب ، وكأنهما عدوين لدودين ، ومع ذلك فقد ظلا يتظاهران بالكياسة مع بعضهما ، ويستخدمان في نقاشهما عبارات مهذبة . ولكن سيل الكلمات لم يكن لينقطع. وفجأة ظهر رجل ضخم قوي البنية يلوح بيديه ، وهو يقترب منهما . وسرعان ما صرخ بهما ، طالباً الى كل منهما ان يمضي في سبيله . أليست هذه هي السعادة ؟

٧ – يسمع الانسان اطفاله يروون الآداب الكلاسيكية بطلاقـــة ، وفي صوتهم ما يشبه خرير الماء وهو يصب من القدح . آه ! أليست هذه هي السعادة ؟

٨ – اشعر بالفراغ بعد وجبة الطعام ، فامضي الى السوق ، ويعجبني شيء صغير في احد الحوانيت . وأساوم الصبي البائع على ثمنه ، ويظل الفرق بيننا صغيراً ، ومع ذلك يرفض الصبي بيعه لي بالثمن الذي حددته . وسرعان ما أخرج من كمي شيئاً صغيراً ، يعادل ثمنه الفرق بين سعري وسعر الصبي ، واعطيه له ، فتنفرج اساريره ، ويحني رأسه بدماثة قائلاً ... « انك كريم للغاية يا سيدي ! » . أليست هذه هي السعادة ؟

٩ – اشعر بملل بعد وجبة طعام ، فأحاول ، رؤية ما تحتويه بعض الحقائب القديمة في منزلي . واجد عشرات بل مئات من السندات من اناس تدين لاسرتي بالمال . وقد مات بعض هؤلاء الناس ، وما زال بعضهم على قيد الحياة ، الا انه لا أمل على أي حال في سداد هذه الديون . واخرج

هذه الاوراق ، دون ان يحس بي احد ، واضعها في كومة ، ثم اشعل النار فيها ، واتطلع الى دخانهـا وهو يذوب مختفياً في السماء . آه ، أليست هذه هي السعادة ؟

١٠ -- انه يوم من ايام الصيف . اخرج حاسر الرأس ، حافي القـدم ، احمل مظلتي في يدي ، لأرقب الناس وهم ينشدون الاغاني الشعبية عندما يديرون سواقيهم . ويندفع الماء فوق الساقية كالتيار المتفجر ، اشبه ما يكون بالفضة المذابـــة ، أو الثلج الذائب ... آه . أليست هذه هي السعادة ؟

١١ -- افيق في الصباح ويخيل الي انني اسمع انساناً يتنهد في البيت ويبكي ، قائلاً ، ان انساناً ما قد مات في الليل . وابادر الى السؤال عن الميت ، وسرعان ما اعرف انه اكثر انسان في المدينة ذكاء وحساباً ... آه اليست هذه هي السعادة ؟

١٢ -- واستيقظ مبكراً في صباح يوم من ايام الصيف ، وارى الناس ينشرون عموداً ضخماً من شجر البامبو ليجعلوا منـه « ماسورة مياه » . أوَ ليست هذه هي السعادة ؟

١٣ طل المطر ينهمر شهراً كاملاً ، واظل مضطجعاً في الصباح من فراشي كانسان ثمل او مريض ، أرفض مغادرته . وفجأة اسمع الحان الطير معلنة قدوم يوم مشرق جميل . وسرعان مـــا افتح الستائر ، وادفع النافذة على مصراعيها ، لأرى الشمس الجميلة تبعث باشعتها الرائعة . والغابة وكأنها تستحم في الشمس . آه اليست هذه هي السعادة ؟

١٤ -- يخيل اليّ في الليل احياناً انني اسمع صوت انسان من بعيد وهو يذكرني.

وامضي في صبيحة اليوم التالي للقائه . وادخل منزله ، فأجـــد هذا الانسان يجلس الى مكتبه متجهاً الى الجنوب ، يقرأ وثيقة امامــــه . ويراني الرجل أمامه ، فيحييني برفق ، ويجرني من كمي ، داعياً اياي الى الجلوس وهو يقول ... « ما دمت قـــد اتيت ، فتعال ، لترى هذه » . ونضحك معاً ، ونظل في سرور الى ان تختفي الظلال على الجدران . ويحس بالجوع ، ويسألني بهـــدوء ... « هل انت جائع ايضاً ؟ » . آه ، اليست هذه هي السعادة ؟

١٥ -- لم اكن قد فكرت جدياً قط في بناء مسكن لي ، وفجأة رأيت نفسي اشرع في بناء هذا المسكن بعد ان جاءني مبلغ من المال لم اكن اتوقعه. ورحت اسمع منذ ذلك اليوم ، ليلاً ونهاراً ، انني في حاجة الى شراء الخشب والحجارة ، والاسمنت ، والآجر والمسامير . ورحت اجهد نفسي في البحث عن كل سبيل المحصول على المال ، وكل ذلك بسبب هذا المسكن ، ودون ان اتمكن من العيش فيه طيلة الوقت ، الى ان الفت هذا الطراز من الاوضاع . واخيراً انتهى بناء المسكن ذات يوم ، وتم طلاء جدرانه ورصف ارضه ، واعداد نوافذه ، ووضع الرسوم في ارجائه . وانتهى جميع العمال من اعمالهم ، وفارقوني ، وجاء اصدقائي ليجلسوا على الارائك المرتبة . آه ، اليست هذه هي السعادة ؟

١٦ -- كنت احتسي الخمر ذات مساء . وفجأة تبينت ان برودة الطقس قـد اشتدت الى حد كبير . وفتحت نافـــذتي فرأيت الثلج يتساقط على اوراق اشجار الصنوبر ، وقد ارتفع الثلج ثلاث بوصات او اربع فوق الارض ، آه ، اليست هذه هي السعادة ؟

١٧ -- قطعت بعد ظهر يوم من ايام الصيف بموسى حـادة ، بطيخة خضراء كبيرة ، وضعتها على طبق ارجواني كبير . اليست هذه هي السعادة ؟

١٨ – كنت متلهفاً دائماً على ان اغدو راهباً ، ولكنني كنت اخشى من ذلك مخافة ان احرم من اكل اللحم . آه لو سمح لي ان اغدو راهباً على أن آكل اللحم علناً ، فانني سآتي بقدر من المـاء الحار ، واحلق رأسي بموسى حادة في أي شهر من اشهر الصيف . اليست هذه هي السعادة !

١٩ – ابقيت على ثلاث اماكن او اربعة في الجزء الخفي من جسدي مصابة بالاكزيما ، وكنت احكها بين الحين والآخر ، او اغسلها بالماء الساخن وراء الابواب المغلقة . اليست هذه هي السعادة ؟

٢٠ – عثرت عرضاً على رسالة خطية من صديق قديم لي ، كان قـد بعث بها الي ، واحتفظت بها في احدى حقائبي . آه ! اليست هذه هي السعادة ؟

٢١ – جاءني عالم فقير يطلب اقتراض بعض المال مني، ولكنه يحس بالخجل من اثارة الموضوع ، ولذا فقد ظل يتحدث في جميع الأمور من زوايا عدة دون ان يشير الى ما جاء من اجله . وأحس بحرجه ، وانأى به الى زاوية لنكون في نجوة من ان يسمعنا احـد ، واسأله عن المبلغ الذي يطلبه . وأدخل الى المنزل ، فآتي له بما طلبه ، ثم اسأله ... «او عليك ان تمضي بسرعة لتسوية مشكلتك ، ام في وسعك البقاء قليلاً معي لتحتسي كاساً من الخمر ؟ » . أو ليست هذه هي السعادة ؟

٢٢ – أجلس في زورق صغير . هناك ريح لطيفة تدفع الزورق في الاتجـاه الذي نقصده ، ولكن زورقنا يخلو من الاشرعة . وارى فجأة سمكة كبيرة تسابق الريح في سيرها . واحاول صيـــد السمكة بصنارتي ، فتمسكها ونشدها، ونبدأ في غناء ابيات « توفو» ... « تجعلني الخضرة أحس بالرقة نحو قمم الجبال، بينما توحي لي الحمرة بوجود البرتقال »... وتنفجر ضحكاتنا في قهقهة متلاحقة . آه ... اليست هذه هي السعادة؟

٢٣ – كنت منذ امد طويل ، اتطلع الى مسكن اشاطر صديقاً في سكناه ، ولكنني لم اعثر على البيت المناسب . وفجأة جاءني احدهم يقول انه عثر على البيت في مكان ما ، وانه ليس بالبيت الكبير ، ولكنه يضم نحواً من عشر غرف ، وإنه يطل على النهر وتحيط به الاشجار الخضراء من كل ناحية . واطلب الى هذا الرجل ان يتناول معي العشاء ، ونمضي بعد العشاء لنرى المنزل ، دون ان تكون لدي فكرة عنه . وما كدنا ندخل من البوابة حتى رأيت مساحة فسيحة من الارض في داخل اسواره ، فقلت لنفسي ... « لن اقلق بعد اليوم على حاجتي من الخضروات والبطيخ » . آه . اليست هذه هي السعادة ؟

٢٤ – يعود مسافر الى وطنه بعد سفرة طويلة فيرى مدينته القديمة ، ويسمع النسوة والاطفال على ضفاف النهر يتحدثون بلهجته . آه . اليست هذه هي السعادة ؟ .

٢٥ – عندما تتحطم قطعة من الصيني الفاخر ، تدرك ان ليس ثمة أمل في اصلاحها . وكلما قلبتها بين يديك ، وتطلعت اليها ، كلما ازداد ألمك . واسلم القطعة المكسورة الى الطباخ ، سائلاً اياه ان يستخدمها كوعاء قديم ، على ان لا أراها بعد اليوم . آه . اليست هذه هي السعادة ؟ .

٢٦ – انا لست بالقديس ، ولذا انا لا اخلو من الخطيئة . وكثيراً ما اخطىء في الليل ، فاستيقظ في الصباح ، وتبكيت الضمير يقض علي مضجعي . وفجأة أتذكر تعاليم البوذية ، وهي ان الجهر بالخطيئة يعادل التوبة . واشرع في التحدث عن خطيئتي الى جميع رفاقي سواء اكانوا من اصدقائي القدامى ام من الغرباء ، آه ! اليست هذه هي السعادة ؟

٢٧ – يرقب المرء احياناً انساناً يدون احرفاً كبيرة في مكان مرتفع . آه ! اليست هذه هي السعادة ؟

٢٨ – يفتح المرء النافذة احياناً ليسمح ليعسوب النحل بالخروج من الغرفة . آه ! اليست هذه هي السعادة ؟

٢٩ – يطلب القاضي من اعوانه قرع الطبول ، معلناً لهم ان اليوم عيد . آه ! اليست هذه هي السعادة ؟

٣٠ – تشهد خيط طائرة احد الاطفال وقد انقطع . اليست هذه هي السعادة ؟

٣١ – يشهد المرء احياناً ناراً شديدة تندلع في الفيافي . اليست هذه هي السعادة ؟

٣٢ – يسدد الانسان جميع ما عليه من ديون . آه . اليست هذه هي السعادة ؟

٣٣ – يقرأ المرء قصة كيرلي بيرد ، الذي اعان عشيقين على الهرب ، ثم اعطاهما بيته ليقيما فيه في مدينة نائية . اليست هذه هي السعادة ؟

* * *

مسكين بايرون ، اذ لم يشهد سوى ثلاث ساعات سعيدة في حياته . ويبدو انه كان اما انساناً ذا طبيعة غير متوازنة ، أو كان يصطنع ظاهرة « الحزن الشامل » التي كانت « موضة » عصره . ولو لم تكن هذه « الموضة » شائعة في تلك الايام ، لاعترف على الاقل بثلاثين ساعة سعادة في حياته بدلاً من ثلاث ساعات . ولا يتضح مما سبق ان العالم يمثل عيداً للحياة ، فتحت صفحاته امامنا لنتمتع بها ، عن طريق حواسنا ، وان هناك طرازاً من الثقافة يعترف بهذه المتع الحسية ، ويجعلنا قادرين على الاعتراف بها . واني لأشك في ان السبب في

اغلاق عيوننا عامدين عن هذا العالم الضخم الذي يعج بالشهوات الحسيـة ، هو ان الروحيين قد جعلونا نخشاهم كل الخشية . وعلى الطراز الاكثر نبلاً من الفلسفة ان يعيد الينا ثقتنا في هذا الجهاز المستقل الرائع الذي نملكه والذي نطلق عليه اسم الجسد ، وان يبعد عنا اولاً ، الزراية بحواسنا والخوف منها . وما لم يستطع هؤلاء الفلاسفة فعلاً ان يسموا بالمادة ، وان يرتفعوا بالجسد ليجعلوا منـه أثيراً روحياً لا اعصاب فيـه ولا ذوق ولا شم ولا احساس باللون والحركة واللمس ، وما لم نستطع المضي الى اقصى الطريق مع الفلسفة الهندوكية في تعذيب الجسد فعلينا ان نواجه حقيقتنا بشجاعة على علاتها . فالفلسفـة التي تعترف بالواقع هي وحدهـا التي تستطيع ان توصلنا الى السعادة الحقة . وهذا الطراز من الفلسفة وحده هو الصحيح والسليم .

٤ — اساءة فهم المادية

لا شك في ان وصف شين للحظات السعيـدة التي مر بها من حياته ، قـد اقنعنا ان الملذات العقلية والبدنية ، مرتبطـة ببعضها البعض ارتباطاً وثيقاً . ولا تصبح المتع العقـلية واقعية الا اذا احس بها الجسد . ولا شك في انني اضم اليها هنا المتع المعنوية ايضاً . فكل من يبشر بأي مذهب فكري يجب ان يكون متأهباً لقبول اساءة فهمه . تماماً كما حصل بالنسبة الى دعاة الفلسفتين الابيقورية والرواقية . وكثيراً ما يعجز الناس عن فهم اللطف الاساسي الذي تتمتع بـه روح انسان رواقي من امثال ماركوس اوريليوس [١] كما ان الفلسفـة الابيقورية

---

(١) ماركوس اوريليوس (١٢١ — ١٨٠ م) — من اباطرة روما . نشأ نشأة صالحـة . يعتبر كتابه « تأملات » من اشهر كتب الفكر القديم وقد ضمنها اسس فلسفته الرواقية ، وقد ترجم الكتاب الى معظم اللغات

— المعرب —

التي تتمثل في الحكمة ، والكبت ، كثيراً ما فسرت على انها فلسفة رجل الشهوات . وكثيراً ما عورضت هذه الفلسفة بالنظرة المادية الى الامور ، وفسرت على انها انانية ، وانها تفتقر كل الافتقار الى الاحساس بالمسؤولية الاجتماعية ، وانها تعلم الانسان مجرد التمع بنفسه . وينبع هذا الطراز من المنطق من الجهل ، ويجهل الذين يستخدمونه الموضوع الذي يتحدثون به . فهم لا يعرفون ما يتميز به الشاكّ من لطف ، ولا ما يتمتع به محب الحياة من دماثة في الخلق . ويجب ان لا يمثل حب المرء لرفاقه عقيدة او مذهباً ، او مادة من مواد الايمان ، أو قضية من قضايا الاعتقاد الفكري ، او نظرية تدعمها الحجج . ولا يعتبر حب الانسانية ، الذي يتطلب اسباب هذا الحب ، حباً صادقاً . فمن الضروري ان يكون هذا الحب طبيعياً ، وان تكون هذه الطبيعية للانسان كطبيعية تصفيق الاجنحة للطير . ويجب ان يكون شعوراً مباشراً ينبع بصورة طبيعية من روح صادقة سليمة ، تعيش على اتصال وثيق بالطبيعة . وليس في امكان انسان يحب الاشجار حباً صحيحاً مثلاً ، ان يكون قاسياً مع الحيوانات أو مع اخوانه من البشر . فالدماثة في الروح السليمة الكاملة ذات النظرة الواضحة للحياة وللناس والمعرفة الصادقة والعميقة بالطبيعة هي الشيء الطبيعي . ولا تتطلب مثل هذه الروح وجود فلسفة او ديانة صنعها الانسان لتطلب اليها ان تكون دمثة . ويستطيع صاحب هذه الروح عن طريق تغذيتها بحواسه ، وببعده عن الحياة المصطنعة ، وعن الاصطناع في فهم المجتمع الانساني ، ان يحتفظ بسلامة عقله ومعنوياته . ولذا فلا يمكن ان نتهم والحالة هذه بتعليم الانانية عندما نشرع في حفر الأرض لتوسيع الفجوة التي سينطلق منها ينبوع هذا العطف بصورة طبيعية .

واسيء فهم المادة اساءة بالغة . واني لأوثر في هذا الصدد ان اترك جورج

سانتيانا [1] الذي يسمي نفسه مادياً بل لعله المادي الوحيد . يتحدث نيابة عنا . اذ انه كما اعرف احد اصحاب الارواح العذبة القليلة في جيلنا . فهو يقول ان ما نحمله من هوى ضد الفلسفة المادية ، انما هو هوى الانسان الذي ينظر اليهـا من بعيد . ويكاد المرء يحس بالذهول من رؤية بعض العيوب التي لا تظهر الا عند مقارنتها بعقيدة الانسان القديمة . ولكن الانسان لا يستطيع فهم اية عقيدة اجنبية او ديانة او بلاد الا عندما يدخل ذلك العالم الجديد ليعيش فيه في روحه . وهناك مباهاة بل وفرح ، وسلامة في الاحساس في هذه الظاهرة التي يسمونها المادية والتي يعجز عن رؤياها بصورة كلية . ويقول سانتيانا ان المادي الصادق يشبه دائماً ديموقريطس [2] . الفيلسوف الضاحك . فنحن « الماديون غير الصادقين » الذين نتطلع الى الروحية ليس الا ، ومع ذلك فنحن نعيش حياة مادية اذ اننا كنا على وجه العموم غريبي التفكير وعاجزين عن الضحك » ثم يقول ...

« ولكن المادي الصادق . الذي يولد مؤمناً بالمادية ، لا متعمداً بها يكون اشبه بديموقريطس ، الفيلسوف الضاحك . ويجب ان يكون فرحه بهذا الجهاز الذي يستطيع ان يتخذ اشكالاً جميلة ورائعة مختلفة ، والذي يستطيع ان يخلق الكثير من الاحاسيس المثيرة ، معادلاً في ادراكه لما يحس به الزائر لمتحف من متاحف التاريخ الطبيعي ، حيث يرى عشرات الالوف من الفراشات

---

(١) جورج سانتيانا (١٨٦٣ - ١٩٥٢) فيلسوف امريكي من اصل اسباني . ولد في مدريد . تخرج من جامعة هارفرد بعد ان درس الفلسفة فيها ثم اصبح استاذاً فيها . من اشهر كتبه « الاحساس بالجمال » و « تفسير الجمال والدين » و « حياة العقل » و « رياح العقيدة » و « الشكية وعقيدة الحيوان » .

(٢) ديمقريطس (ولد ٤٦٠ ق م) - فيلسوف اغريقي ، واشهر الفلاسفة قبل ارسطو. كتب في الفلك والرياضيات والفن والادب والاخلاق .

المعرب

في صناديقها والطيور المائية ، واسماك الحار والماموث والغوريلا . ولا شك في ان تلك الحياة التي لا عد لها ولا حصر انطوت على الكثير من الآلام ، ولكنها سرعان ما نسيت ، ومع ذلك فقد ظل المنظر رائعاً ، وظل التداخل في الكون مثيراً للاهتمام ، وظلت هذه العواطف الصغيرة المطلقة حتمية وحمقاء . ومن المحتمل ان تثير المادية في العقل المتصف بالحيوية شيئاً من ذلك الاحساس الفعّال المرح واللاشخصي ، دون ان يخلو بالنسبة الى الاوهام الخاصة من لمسة من لمسات الزراية .

« ولم تكن القواعد الخلقية التي ترافق المادية ، غير معقولة في اي يوم ما بالنسبة الى الآلام الاصيلة التي يعاني منها الاحياء ، بل انها على النقيض من ذلك ، وكغيرها من النظم الرحيمة ، كانت ترتجف كثيراً من الألم ، وتميل الى سحب الارادة زهداً وتقشفاً مخافة اصابة الارادة بالهزيمة . وينحصر ازدراء آلام الدنيا بأولئك الذين يشتركون وهم يهللون في سحب السيارة الضخمة بكثير من التفاؤل المطلق . ولكن الضحك هو السلاح الدفاعي الصالح ضد الشرور التي تولدت من الغرور المجرد وخداع النفس ، وضد التعبيرات التي يقنع الانسان بها نفسه بأنه هدف الكون وغايته . وللضحك ايضاً هذه المزية الماكرة ، وهي انه لا يحتاج الى البقاء دون ان ترافقه نغمات من العطف والتفهم الاخوي ، كتلك الضحكات التي تقابل بها سخافات دون كيشوت ومغامراته السيئة والتي لا تؤثر على نوايا البطل . ولا شك ان الانسان يعجب بحماسته ، ولكن على المرء ان يفهم العالم قبل ان يحاول اصلاحه ، ويجب ان يكون السعي لتحقيق السعادة ضمن حدود العقل والمنطق [١] » .

---

(١) من مقال بعنوان « عواطف الانسان المادي » في مجموعة مقالات سانتيانا من اعداد لوجان بيرسول سميث .

اذن ما حياة العقل او الروح ، التي كنا دائمي الاعتزاز بها ، والتي كنـــا نقدمها دائماً على حياة الحواس ؟ لعل من سوء الحظ ان علم الحياة الحديث يميل الى البحث عن جذور الروح ، ليجد انها مجموعة من الانسجة والسوائل والاعصاب . ولقد كنت دائم الاعتقاد بأن التفاؤل سائل . أو انه على الأقل وضع من اوضاع الاعصاب يكون نتيجة لسوائل دائرة معينة . وما مصدر الحياة العقلية ، وما أسس وجودها ، وينبوع تجددها ؟ طالما اشار الفلاسفة الى ان المعرفة الانسانية كلها تنبع من التجربة الحسية . فنحن عاجزون عن الوصول الى أي شكـل من اشكال المعرفة ، دون حواس النظر واللمس والشم ، تماماً كما تعجز آلة التصوير عن التقاط أي رسم دون عدسات أو لوحة حساسة . والفرق بين الرجل الذكي والبليد هو ان الأول يملك مجموعة من العدسات الرائعة ، وجهازاً للرؤية يحصل بهما على صورة اكثر وضوحاً للأمور ، كما يتمكن من الاحتفاظ بها مدة اطول . واذا انتقلنا من معرفة الكتب الى معرفة الحياة ، لا يعتبر مجرد التفكـــير أو التأمل كافيين ، اذ يتحتم على المرء ان يتلمس طريقه ، وان يحس بالاشياء كما هي ، وان يحصل على انطباع صحيح عن عشرات الامور المتعلقة بحياة الانسان وطبيعته . لا كأجزاء متفرقة ، بل ككل متكامل . وتتعاون جميع حواسنا في هذه القضية من الاحساس بالحياة ، ومن اكتساب التجارب . ويؤمن لنـــا هذا التعاون مع وجود العقل والقلب شيئاً من الدفء الفكري . وهذا الدفء هو الشيء المهم ، اذ انه الدليل على وجود الحياة ، تماماً كما تشير الخضرة في اوراق النبات الى وجود الحياة. ونحن نتميز وجود الحيــاة في فكر الانسان ، عن طريق وجود الدفء أو انعدامه ، تماماً كما نكتشف الحياة في شجرة نصف جافة ، تكافح بعد حادث تعيس في سبيل البقاء ، عن طريق دفع الخضرة والماء الى بعض اوراقها وانسجتها .

ﻫ – عن المتعة العقلية

ولننتقل الآن الى المتع التي يفترض انها اسمى ، والتي يحس بها العقل والروح. لنرى مدى ارتباطها الجوهري بحواسنا لا بادراكنا . ترى ما هذه المتع الروحية السامية التي نميزها عن متع الحواس الدنيا ؟ او ليست هذه المتع كلها من سامية ودنيا ، تؤلف نفس الشيء ، وتجد جذورها ، ونهاياتها في الحواس نفسها ولا تنفصل عنها ؟ ولو استعرضنا هذه المتع العقلية العليا ، كالادب والفن والموسيقى والدين والفلسفة ، نجد ان الادراك يلعب دوراً ثانوياً فيها اذا قدرت بدور الحواس والمشاعر . وما الذي تتركه رؤية رسم جميل سوى ان نرى فيه منظراً طبيعياً او صورة انسان ، فيعيد الى ذاكرتنا المتع الحسية التي شعرنا بها عندما رأينا ذلك المنظر والوجه الجميل في حقيقتها ؟ وما الذي يحققه الادب اكثر من خلق صورة للحياة ، وحملنا على ان نعيش في جوها ووسط الوانها ، وان نحس بما في المروج الخضر من روائح عطرية عابقة ، وما في اعشاش المدن واكواخها من روائح قذرة ؟ ونحن نجمع على ان هذه القصة او تلك اقتربت من مستويات الادب الصحيح ، اذا كانت تصور لنا الواقع من الناس ومن الاحاسيس . والكتاب الذي يبعدنا عن هذه الحياة الانسانية ، او الذي يفصلنا بجمود عنها ، لا يعتبر ادباً على الاطلاق ، وكلما كان الكتاب اكثر صدقاً مع الواقع ، كلما كان اصدق ادباً . وهل يمكن لأية رواية ان تستهوي القارىء اذا كانت لا تضم الا تحليلاً جامداً ، واذا عجزت عن اعطائنا ما في الحياة من ملح ولذعة ونكهة ؟.

أما بالنسبة الى الامور الاخرى ، فليس الشعر الا الحقيقة مكسوة بالعاطفة ، وليست الموسيقى الا الاحساس الخالي من التعبير اللفظي ، وليس الدين الا الحكمة التي يعبر عنها بالخيال . ولما كان الرسم يعتمد على الاحساس باللون وعلى الرؤية ، فان الشعر يعتمد على الاحساس بالصوت والنغم والجرس الموسيقي ، بالاضافة

الى ما فيه من حقيقة عاطفية . وتكون الموسيقى احساساً صافياً في حد ذاتها اذ انها تتجنب تجنباً كاملاً لغة الألفاظ التي يعتمد العقل عليها وحدها في عمله . وفي وسع الموسيقى ان ترسم لنا اصوات اجراس البقر ، واسواق السمك وميادين القتال ، وفي وسعها ان ترسم لنا ايضاً رقة الازاهير ، وحركات الامواج ، وهدوء الليل ونعومته ، ولكنها في اللحظة التي تخرج فيها عن نطاق الحواس ، وتحاول ان ترسم لنا فكرة فلسفية ، نحكم عليها بالانحطاط ، وبانها تمثل عالماً منحطاً .

او لم يبدأ انحلال الدين نفسه عن طريق سيطرة حكم العقل ؟... يقول سانتيانا ان عملية انحلال الدين ترجع الى الافراط في التفكير العقلي ، وان الدين توقف لسوء الحظ منذ امد بعيد عن ان يكون الحكمة يعبر عنها بالخيال ، لتصبح اساطير يبددها التفكير العقلي . ويعود انحلال الدين الى الروح المثالية ، والى اختراع العقائد والنظريات ومواد الايمان ، والمذاهب ، والتبريرات . ولا شك في اننا نفقد الكثير من ورعنا وتقوانا عندما نحاول استعقال معتقداتنا وتبريرها ، ونصبح على ثقة من اننا على حق . ولعل هذا هو السبب الذي يجعل كل دين من الاديان ، تشيعاً ضيقاً منغلقاً ، اذ يعتقد انه وحده هو الذي اكتشف الحقيقة . ولعل النتيجة هي اننا كلما بررنا معتقداتنا ، كلما ضاق افق تفكيرنا ، وهذا أمر شائع في مختلف الشيع الدينية . ولا ريب في ان هذه الحقيقة هي التي جعلت الدين يرتبط باسوأ صور التعصب ، وضيق الافق ، وكذلك بالانانية المجردة في الحياة الشخصية . فمثل هذه الديانات المتعصبة هي التي تغذي انانية الانسان ، لا عن طريق تضييق افقه بالنسبة الى الشيع الاخرى فحسب ، بل وبالنسبة ايضاً الى تحويل الدين الى مساومة خاصة بين الله والانسان ، يمجد فيها الفريق الاول عن طريق انشاد الفريق الثاني للاناشيد الدينية والدعوة باسمه في كل مناسبة ، مقابل حصول هذا الفريق ، أي الثاني على بركة الفريق الاول له ولاسرته ، بصوورة تفوق ما يمنحه من بركة لأي شخص آخر واسرته . ولعل

هذا هو السبب الذي يجعلنا نكتشف الانانية المجردة مجسدة في بعض العجائز من السيدات المتدينات والدائبات على ارتياد الكنائس . واخيراً في ان حس التبرير الذاتي ، الذي يجعل أي دين يقول انه وحده هو الذي اكتشف الحقيقة ، يحل محل جميع الاحاسيس الذاتية التي ينبع منها الدين نفسه .

ولست ارى مبرراً آخر لوجود الفن والشعر والدين سوى ميلها كلها الى ان تعيد الينا الاحساس من جديد بالرؤية ، والمزيد من الاثارة العاطفية ، ومن الاحساس الفعلي بالحياة . فنحن مع تقدمنا في السن ، تتخدر حواسنا بصورة متدرجة ، وتقسو عواطفنا تجاه الألم والظلم والغلظة ، وتصبح رؤيتنا للحياة مغلفة بكثير من المشاغل بالواقع التافه والجامد . ومن حسن حظنا ان هناك عدداً قليلاً من الشعراء والفنانين الذين لم يفقدوا بعد ذلك الاحساس المرهف . وذلك التجاوب العاطفي الرائع ، وتلك الجدّة في الرؤية، والذين تمثل واجباتهم تبعاً لذلك ضميرنا المعنوي ، وان يمسكوا بالمرآة امام انظارنا التي ضعفت وان يقووا اعصابنا الذابلة . ويجب ان يكون الفن نقداً لاذعاً لاحاسيسنا المشلولة ، وانذاراً لها وكذلك لتفكيرنا المتبلّد ، وحياتنا التي فقدت صورتها الطبيعية . فهو يعلمنا عدم التفلسف والتقعّر في عالم متفلسف ومتقعّر . وعليه ان يعيد الينا صحتنا وسلامة حياتنا وان يمكننا من الشفاء مما يخلقه فينا الافراط في النشاط الفكري من حمّى وذهول . وعليه ان يرهف حواسنا ، وان يعيد العلاقة بين عقلنا وبين طبيعتنا البشرية ، وان يعيد تجميع الاجزاء المهدمة من حياتنا المضطربة ، عن طريق اعادة طبيعتنا الى اصلها . ولا شك في انه عالم تعس ، ذلك العالم الذي تتوافر لنا فيه المعرفة دون فهم، والنقد دون تقدير ، والجمال دون حب ، والحقيقة دون عاطفة ، والعدل دون رحمة ، والدماثة دون دفء .

اما بالنسبة الى الفلسفة التي تعني ممارسة الروح ، فان الخطر اعظم من ان نفقد عن طريقها الاحساس بالحياة نفسها . وفي وسعي ان افهم ان مثل هذه

المتع العقلية تنطوي على حل لمعادلة رياضية طويلة ، أو على مفهوم لنسق عظيم يسود الكون . ولا ريب في ان رؤية هذا النسق هي اكثر متعنا العقلية صفاءً . ومع ذلك فانا على استعداد لاستبدالها بوجبة حسنة الاعداد . فهي من الناحية الأولى مجرد نزوة ناتجة عن مشاغلنا العقلية ، ولا نتمتع بها الا لأنها تلقائية ولا مسوغ لها ، ولا تحمل صورة الحتمية التي تحملها العمليات الحيوية الاخرى . وليست هذه المتعة الادراكية على أي حال ، الا مشابهة لما نحس به من متعة عندما ننجح في حل لغز الكلمات المتقاطعة . ويحتمل من الناحية الثانية ان يقوم الفيلسوف في هذه اللحظة ، اكثر من أي وقت آخر ، بخداع نفسه . وان يقع في هوى هذا الكمال المطلق ، وان يتصور كلاً منطقياً في العالم اكبر مما يستطيع الواقع ان يوفره حقاً . فهي تشبه الى حد كبير التصور الخادع للامور. تماماً كما نرسم النجم ذا خمسة اطراف ، مصغر الحجم ، مستصنعه . مغرقين في ذلك في تبسيط الامور . وما دمنا لا نفرط في اداء ذلك . فان هذه المتعة هي الكمال الصالح ، ولكن علينا ان نذكر انفسنا ان ملايين الناس يستطيعون ان يكونوا سعداء دون اكتشاف هذه الوحدة البسيطة في هذا الرسم . ففي وسعنا حقاً ان نعيش بدونها . واني لأوثر التحدث الى خادمة ملونة على ان اتحدث الى عالم رياضي . فكلماتها اكثر تحديداً ، وضحكتها اكثر حيوية ، كما انني اكسب المزيد من التعرف الى الطبيعة الانسانية عن طريق التحدث اليها . واني من ذلك الطراز المادي ، حتى انني اوثر لحم الخنزير في كل وقت على الشعر . واوثر قطعة اللحم المشوي على قطعة من الفلسفة شريطة ان تكون جيدة الطهي ، والبهارات .

ولا ريب في ان ايثارنا العيش على التفكير ، هو الذي يستطيع ان يبعدنا عن حرارة الفلسفة ، وهوائها المتعفن ، وان يعيد الينا شيئاً من السيطرة على ما في رؤية الطفل الصحيحة من جدة وطبيعية . ويجب ان يخجل كل فيلسوف صادق من نفسه عندما يرى طفلاً ، أو حتى أسداً يدور في القفص الذي حبس فيه .

فاذا نظر اليه وجد ان الطبيعة قد حبته بمخالبه وعضلاته ، وبجلده الرائع من الفراء ، واذنيه المتوثبتين ، وعينيه الدائرتين البراقتين ، وخفته ، واحساسه بالمزاح. وعلى الفيلسوف ان يخجل من ان الكمال الذي صنعه الله، قد تحول احياناً الى نقص من صنع الانسان ، وانه يضع احياناً نظارتيه على اذنيـــه ، ولا يحس بأية شهية الى الطعام ، وانه تعيس في عقله وقلبه ، وانه لا يعي تماماً لما فيه الحياة من لهو ومتعة . ولا شك من ان ليس في وسعنا ان نكسب شيئاً من مثل هـذا الفيلسوف ، اذ ليس فيما يقوله أية أهمية لنا . فالفلسفة الوحيدة النافعة لنا ، هي تلك التي توحد صفوفها بمرح مع الشعر ، وتقيم لنا رؤية صادقة ، للطبيعة اولاً ، وللطبيعة الانسانية ثانياً .

وعلى اية فلسفة صالحة للحياة ان تعتمد على مـــا في حواسنا من انسجام . فالفيلسوف الذي يكون مغرقاً في مثاليته ، لا يلبث ان تدفعه الطبيعـة نفسها الى الزلل، ويقول الكونفوشيوسيون الصينيون ان خير تصور للكرامة البشرية، يكون عندما يحلق الانسان في أعلى ذراه ، معادلاً الارض والسماء ، متفقـــاً في عيشه مع الطبيعة . وهذه هي العقيدة التي عـــبر عنها حفيد كونفوشيوس في الوسط الذهبي عندما قال . . .

« نطلق اسم الطبيعة على كل مـــا خلقه الله ، كما نطلق اسم الطاوية [1] (الطريق) على السير مع الطبيعة ، واسم الثقافة على تعهد الطاوية والعناية بها ، ويطلق على الفرح والغضب والحزن والسعادة قبل التعبير عنها اسم الذات ، كما يطلق عليها اسم الانسجام عندما يتم التعبير عنها الى حد صحيح . وتعتبر الذات

---

(١) هناك عنصر قوي من الطاوية في الكونفوشيوسية ، ويرجـــع السبب فيه الى اثر الفكر الطاوي ، وهي حقيقة غير واضحة دائمـــاً . وهـــذه الفقرة موجودة على أي حال في كتب كونفوشيوس الاربعة .

– المؤلف –

الاساس الصحيح للعالم ، كما ان الانسجام هو الطاوية المشهورة . وعندما تتحقق للانسان الذات والانسجام ، تصبح الارض والسماء منظمتين لديه ، وتتجدد عشرات الالوف من الاشياء لديه وتنمو .

« ويطلق على التفهم عن طريق الانسجام مع الذات الصحيحة اسم الطبيعة ، كما يطلق على الوصول الى الذات الصحيحة عن طريق التفهم اسم الثقافة . وكل من يتصف بالذات الصحيحة يتصف بالتفهم ، وكل من يملك التفهم يجد ذاته الصحيحة . ولا يستطيع تحقيق طبيعته الذاتية الا من ينسجم مع ذاته المطلقة في العالم ، ولا يستطيع تحقيق طبيعته الذاتية الا من يستطيع تحقيق طبيعة الآخرين ، ولا يستطيع تحقيق طبيعة الآخرين الا اولئك الذين يحققون طبيعة الامور ، ويكون هؤلاء جديرين بان يعينوا امّنا الطبيعة في تنمية الحياة وإدامتها ، وهؤلاء يكونون بدورهم معادلين للأرض والسماء ».

٧

أهمّيّة التكاسُل

١ – الانسان هو الحيوان الوحيد العامل

وهكذا نجد امامنا عيد الحياة ووليمتها ، ولعل السؤال الوحيد الذي يقف امامنا هو تحديد شهيتنا لهذه الوليمة . ولا شك في ان الشهية لا الوليمة هي الشيء المهم . ولعل الشيء المحير عن الانسان هو فكرته عن العمل ، والقدر الذي يفرضه على نفسه او الذي تفرضه الحضارة عليه منه. فالطبيعة كلها تتكاسل وتتخاذل ، والانسان وحده فيها هو الذي يعمل من أجل معاشه . وهو يعمل لأنه ملزم بالعمل ، ولأن الحياة تغدو مع تقدم الحضارة اكثر تعقيداً ، بما فيها من واجبات ومسؤوليات ومخاوف وشكوك ومطامح ، لا تنبع من الطبيعة نفسها بل من المجتمع الانساني . وارى وانا جالس هنا الى مكتبي حمامة تطير محوّمة حول برج الكنيسة امام نافذتي ، دون ان تأبه بما ستناله كغداء لها. وانا اعرف ان غدائي موضوع اكثر تعقيداً من غداء الحمام ، وان المواد الغذائية القليلة التي

استعملهـــا ، تتصل بألوف الناس الذين يعملون ، كما تتصل بانظمة معقدة كل التعقيد من الزراعة والتجارة والنقل والتسليم والاعداد . ولعل هذا هو السبب الذي يجعل حصول الانسان على الطعام اصعب من حصول الحيوانات عليه . ومع ذلك لو قدر لحيوان من حيوانات الغاب ، ان ينطلق حراً في مدينة ما وان يفهم شيئاً عن مشاغل الحياة الانسانية ، فانه لا بد وان يحس بكثير من الشكوك والحيرة من هذا المجتمع البشري .

ولعل اول فكرة تخطر في بال حيوان الغاب هذا ، هو ان الانسان هو الحيوان العامل الوحيد . واذا ما استثنينا بعض جياد الجر ، وبعض الجواميس التي تعمل في ادارة السواقي ، فان الحيوانات الاليفة لا تجد نفسها مضطرة للعمل . ولا يطلب الى الكلاب البوليسية ان تؤدي واجبها الا نادراً ، ويقضي كلب الحراسة الذي يفترض فيه ان يحمي البيت معظم وقته في اللعب ، وكثيراً مـا يمضي في اغفاءة في الصباح عندما تتوافر له اشعة الشمس الدافئة الحـارة ، ولا تكد القطة الارستقراطية في سبيل الحصول على قوتها ، ولما كانت محبوة بنشاط بدني يمكنها من تجاهل سياج الجيران ، فانها لا تحس بأي اسر ، وانمـا تمضي الى حيث تريـد ان تذهب . ويتضح من هذا اننا لا نجد الا البشر يكدحون ، وهم يعيشون أليفين في اقفاصهم دون ان يحسوا ، وقـــد اجبرتهم الحضارة والمجتمع المعقد على العمل والعناية بأمر غذائهم . وللبشرية مزاياها بالطبع التي اعرفهـــا وأقر بها ، كمتع المعرفة مثلاً ، ومتع الحديث ، ومسرات الخيال كمشاهدة رواية مسرحية مثلاً . ولكن الحقيقة المهمة تظـــل قائمة ، وهي ان الحياة الانسانية تعقدت كثيراً ، وان موضوع العثور على الغذاء مباشرة او بصورة لا مباشرة يحتل اكثر من تسعين في المائة من نشاطنا الانساني . والحضارة هي الى حد كبير قضية البحث عن الطعام ، بينما التقدم هـو ذلك التطور الذي يعقد مهمة العثور على الطعام . ولو لم يكن العثور على الغذاء يؤلف مهمة عسيرة للانسان ، لما كان ثمة سبب يدعو البشر الى الكدح بقسوة للعثور عليه . والخطر كل الخطر هو ان

نغرق في الحضارة ، وان نصل الى نقطة كما وصلنا بالفعل ، يصبح فيها العثور على الغذاء أمراً شاقاً بحيث نفقد شهيتنا اليه اثناء ما نحتمله من عناء في سبيل الوصول اليه . ولكن ما اقوله لا يتفق لا مع منطق حيوان الغاب ، ولا مع منطق الفيلسوف .

واني لأحس بالفزع كلما اتطلع الى مدينة من بعيد ، أو تقع انظاري على مجموعة من السقوف . وهذا المنظر مدهش الى حد ايجابي . فهناك عدد من خزانات المياه ، والواجهات لعدد من لوحات الاعلانات المصنوعة من الصلب ، وهناك مسلة أو مسلتان ، وسقوف مغطاة بالاسفلت ، أو بالآجر الاحمر ، وواجهات مختلفة الاشكال والصور التي لا ناظم بينها ، والمداخن القذرة السوداء وحبال الغسيل ، واعمدة هوائي اجهزة الراديو . واذا ما هبط الانسان بنظره الى الشارع رأى خيطاً من الجدران المبنية من الطوب الاحمر الذي بهت لونه ، وصفاً طويلاً من النوافذ الصغيرة المظلمة المتشابهة في اشكالها.فتح نصفها والنصف الآخر تخفيه الظلال . وعلى احداها ، زجاجة من اللبن ، وعلى الاخريات بعض الاوعية والاطباق . ويرى المرء طفلة تصعد الى السقف في كل صباح ومعها كلبها الصغير ، فتجلس معه على سلم السطح ، مستقبلة لاشعة الشمس . واعود فأرفع ناظري وارى صفوفاً متلاحقة من السقوف تمتد الى اميال عدة في منظر بشع كريه ، كما ارى المزيد من خزانات المياه ، والبيوت المبنية من الآجر . والناس يعيشون في هذه البيوت . فكيف تعيش اسرة واحدة وراء كل نافذة او نافذتين من هذه النوافذ المغلقة ؟ وما الذي تصنعه هذه الاسرة لتقيم اودها وتكسب رزقها ؟ حقاً انه شيء مذهل . فوراء كل نافذتين او ثلاث نوافذ ، يمضي زوجان الى فراشهما وكأنهما زوج من الحمام يعود الى وكره ، ثم يستيقظان في الصباح ليشربا القهوة معاً ، ويمضي الرجل الى الشارع باحثاً عن عيش اسرته ، بينما تأخذ الزوجة في العمل المجهد ، لتنظيف بيتها والحفاظ على نظافته . وتخرج النسوة في الرابعة أو الخامسة من مساء كل يوم الى عتبات بيوتهن ليتناولن الحديث مع

الجيران ، وليملأن صدورهن بالهواء العليل النقي ، ويحل المساء ويعود الازواج منهكين ويمضون جميعاً الى الفراش . وتمضي الحياة رتيبة على هذا النحو .

وهناك آخرون احسن حالاً ، يعيشون في شقق افضل . انها تضم المزيد من الغرف التي يسودها الفن ، وتحتشد بالاضواء ذات المظلات . انها اكثر ترتيباً ونظافة . وقد تكون اكثر سعة من البيوت الاخرى ، ولكن سعتها لا تزيد كثيراً . ويعتبر مجرد السكن في شقة ذات سبع غرف ، ترفاً ، فكيف بامتلاك مثل هذه الشقة . ولكن هل تضمن مثل هذه الشقة المزيد من السعادة ! حقاً قد تكون المتاعب المالية، والديون اقل ، ولكن هناك ايضاً المزيد من العقد العاطفية وحوادث الطلاق ، و « زوغان » الازواج من بيوتهم في الامسيات ، وصور الخلافات الزوجية . انها الرغبة في التغيير ، وهي عبارة رهيبة . أجل انهم يريدون شيئاً من التغيير في الحياة الرتيبة التي يعيشونها داخل هذه الجدران المتشابهة من الآجر والصفوف الطويلة من النوافذ الخشبية . ان الأزواج يمضون بالطبع لرؤية العاريات من النساء . ويؤدي هذا بالطبع الى المزيد من الامراض العصبية، ومن تناول حبات الاسبيرين، ومن الادواء والاوجاع المضنية والكثيرة التكاليف ، كالقرحات المعوية ، والتهابات الاعور ، وسوء الهضم ، وآلام الرأس ، وتصلب الكبد ، والقرحات المعدية ، والامعاء الملتهبة والتخمة ، والكلى المجهدة ، والمثانات الملتهبة ، وأوجاع الطحال والقلب ، والاعصاب المحطمة ، والرئات ، وارتفاع الضغط ، والسكر ، والروماتيزم ، والارق ، وتصلب الشرايين، والانتحار، والاسهال المزمن والبواسير الشرجية، والاورام، والقبض الدائم ، وضياع الشهية ، وتعب المفاصل . ولو شئنا المزيد من استكمال الصورة لقلنا ، ان هذا المجتمع يعني المزيد من الكلاب ، والاقل من الاطفال . ويعتمد موضوع السعادة على خصال الرجال والنساء الذين يعيشون في هذه المساكن المترفة وامزجتهم . فهناك من يحيون حياة مرحة ، ولكن هناك آخرين لا يحيونها . ولكنهم في الغالب اقل سعادة من الانسان الكادح ، اذ انهم

يحسون بمزيد من الضيق لانهم لا يعملون . ولكن عندهم سياراتهم ومساكنهم الريفية التي يجدون فيهـــا المنقذ والخلاص . وهكذا نرى ان الناس في الريف يكدحون لينتقلوا الى المدينة حيث يجدون المزيد من المال ، ثم يعودون يبحثون عن الريف ثانية .

واذا ما خطا الانسان في المدينة ، رأى مؤخرة الشارع الرئيسي ، وقـــد امتدت فيه معاهـــد التجميل ، وحوانيت بيع الزهور ، ومكاتب الشركات الملاحية، ورأى شارعاً آخر وقد اكتظ بالصيدليات وحوانيت البقالة، ومحلات بيع الصحاف وصالونات الحلاقين، ومحلات الكي والتنظيف، والمطاعم الرخيصة واكشاك بيع الصحف . ويمضي الانسان في مسيرته ، فيرى بعد ساعـــة ، اذا كانت المدينة كبيرة انه ما زال يطوف في مزيد من الشوارع ومزيد من الحوانيت والاماكن . ترى كيف يكسب هؤلاء الناس معاشهم ؟ ولمـــاذا يؤمون هذه الاماكن ؟ والرد في منتهى البساطة ، فصاحب حانوت المكوى يغسل ملابس الحلاقين وندل المطاعم ، بينما يقدم هؤلاء الندل الطعام للحلاقـــين واصحاب حوانيت المكوى ، ويحلق الحلاقون للآخرين شعورهم . هذه هي الحضارة . أوَليست مذهلة حقـــاً ؟ واني لاراهن ان بعض اصحاب حوانيت المكوى والحلاقين وندل المطاعم ، لم يبعدوا كثيراً في حياتهم عن الاماكن التي يعملون فيهـــا . وعليهم ان يشكروا الله ان هناك دوراً للسينما حيث يستطيعون رؤية الطيور مغردة على شاشاتها ، ورؤية الاشجار وهي تنمو ، وتمايل متأثرة بالنسيم. انهم يرون فيها تركيا ومصر وجبال الهملايا ، ونهر السند ، والعواصف ، وغرق السفن ، وحفلات التتويج ، والنمل ، والجراد والجرذان والصراع بين الثعابين والسحالي ، والجبال والامواج والرمال والسحب ، والقمر .

حقاً انهـا بشرية حكيمة ، بل ما احكم هذه البشرية ! انني اتغنى بك . ولا ريب في تعقلها ، اذ ان حضارتها تتمثل في عمل الانسان وجهده ، حتى يشيب شعره . في سبيل الحصول على قوته ، ناسياً كل ما يمت الى اللهو واللعب .

٢ – نظرية الصينيين عن وقت الفراغ

يعرف الامريكي بانه انسان منتج للغاية ، كما يعرف الصيني ، بانه كسول للغاية [١]. وكما ان المتناقضين يعجبان احدهما بالآخر عادة، فأنا أعتقد أن المنتج الامريكي النشيط يعجب بالكسول الصيني ، كما يعجب هذا بدوره بذاك . ويطلق على مثل هذا الوضع اسم محاسن الخصائص القوميـة . وانا لا اعرف اذا كان الشرق والغرب سيلتقيان في النهاية ، الا ان الحقيقة القائمة انهما ملتقيان الآن، وان لقاءهما سيزداد يوماً بعد آخر ، مع انتشار الحضارة الحديثة ومـا تعنيه من زيادة في تسهيلات المواصلات . وليست لنا رغبة في الصين على اي حال في تحدي هذه الحضارة الآلية ، ولكن مشكلتنا ستبرز في دمج هاتين الحضارتين ، أي دمج فلسفة الصين القديمة عن الحياة بالحضارة التقنية العصرية ، وتوحيدهمـا في اسلوب عملي للحياة . وقـد تكون المشكلة اكبر بالنسبة الى الحياة الغربية الـتي تتعرض باستمرار لغـزو الفلسفة الصينيـة . وان لم يكن في وسع أحـد ان يتنبأ بشيء .

وليس من ثمة من شك في ان الحضارة الآلية ، أخذت تقربنا من عصر الفراغ، وسيجد الانسان نفسه مضطراً الى الاكثار من اللعب والاقلال من العمل . ويعتمد كل شيء على البيئة ، وعندما يجد المرء ان وقت الفراغ قد توافر له، فانه سيجد نفسه مضطراً الى المزيد من التفكير ، في خير السبل والوسائل للتمتع بهـذا الوقت ، الذي يمنحه ، بالرغم من ارادته ، عن طريق التحسن السريـع في وسائل الانتاج. وليس في امكان أي انسان على أي حال ان يتكهن بمـا سيقع في القرن المقبل .

---

(١) كان هذا القول يصدق على الصين قبل ثورتها العظيمة عندما كان الشعب الصيني فـريسة المخدرات والامراض والجهل والاوبئة . امـا اليوم وبعد ثورة الصين العظيمة ، ومـا قطعته في السنوات الاخيرة من خطى واسعـة في طريـق التصنيـع والتقـدم ، فـلم يعد هـذا القول يصـح على الاطلاق .

– المعرب –

ولا شك في ان الانسان سيكون في منتهى الجرأة اذا تكهن بما سيقع في غضون ثلاثين عاماً من الوقت الحاضر . ولا شك في ان الاندفاع السريع والمستمر على الحضارة لا بد وان يصل في يوم ما الى نقطة يصبح الانسان فيها مجهداً منه ، ليشرع في الافادة من غزواته في عالم المادة . وليس في وسعي ان اعتقد بأن الانسان سيظل مهتماً بالعمل ، كما هو في الوقت الحاضر ، بعد تحسن الاوضاع المادية للحياة ، وبعد القضاء على المرض والفاقة ، والانتصار على قصر حياة الانسان ، وعلى ما يعانيه العالم من نقص في المواد الغذائية . ولست على ثقة من ان هذه البيئة لن تخلق مزاجاً اكثر ميلاً الى الكسل والتراخي .

ويكون العامل الشخصي بالاضافة الى كل هذا ، دائماً مهما كأهمية العامل الوضعي . وتدخل الفلسفة كطريقة لتغيير وجهة نظر الانسان وتغيير طبيعته وشخصيته . وتعتمد طريقة رد فعل الانسان على هذه الحضارة الآلية على طراز الانسان الذي يمثله . فهناك في ملكوت علم الحياة أمور عدة كمدى الاحساس بالحوافز ، والاسراع أو الابطاء في رد الفعل والصور المختلفة لتصرفات الحيوانات المختلفة اذا وجدت في نفس الوسط أو البيئة . فهناك حيوانات يكون رد فعلها اكثر بطئاً من غيرها . ونحن نرى في هذه الحضارة الآلية ، التي تضم كما اعرف الولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا والمانيا وايطاليا وروسيا ، ردود فعل مختلفة للعصر الآلي نابعة من اختلاف الامزجة العنصرية . ولم تختف فرص ردود الفعل الفردية المعنية لنفس البيئة فيها . واني لاعتقد بالنسبة الى الصين ، ان طراز الحياة الذي سينشأ فيها عن هذه الحضارة الآلية لا يختلف كثيراً عن طرازها في فرنسا الحديثة ، وذلك لأن الامزجة الصينية والفرنسية متشابهة للغاية .

وتعتبر امريكا اليوم متقدمة للغاية في حضارتها الآلية ، وكثيراً ما قيل بأن مستقبل العالم الذي تسيطر عليه الآلة ، سيميل الى الطراز الامريكي الراهن للحياة . ولكنني انزع الى مخالفة هذا الرأي ، اذ ليس ثمة من يعرف ما ستكون عليه حقيقة المزاج الامريكي . ولعل كل ما نستطيع قوله عنه انه سيكون

مزاجاً متغيراً . ولست أعتقد ان بالامكان ان يكون ثمة بعث لحضارة ولايات « نيوانجلند » في عهدها القديم على النحو الذي وصفه كتاب فان ديك بروكس الجديد . وليس في وسع أحد ان يقول ان ازدهار حضارة نيوانجلند لم يكن نموذجاً للحضارة الأمريكية ، وليس في وسع احد ان يقول ايضاً ان المثل الأعلى الذي تصوره وولت ويتمان في كتابه « صور الديمقراطية الخيالية » والذي أشار فيه الى تطور الأحرار من الرجال والامهات الكاملات ، لا يعتبر مثلاً أعلى للتقدم الديمقراطي . وكل ما تحتاج اليه امريكا شيء من الراحة ، وسيكون هناك ، وأنا على ثقة من ذلك ، أشخاص آخرون من طراز ويتمان وتورو ولويل [1] عندما تعود الحضارة الامريكية وقد أثر عليها السباق على الذهب من الناحية المباشرة والناحية المجازية ، الى الازدهار ثانية . أوَ لا يكون المزاج الامريكي والحالة هذه مختلفاً بعض الشيء عن مزاج هذه الايام وقريباً من مزاج ايمرسون [2] وتورو ؟

وليست الحضارة كما افهم ، الا ثمرة رئيسية من ثمار وقت الفراغ . وليس فن الحضارة والحالة هذه الا فن التكاسل ، وتقول وجهة النظر الصينية ان الرجل العاطل عن العمل عن حكمة ، هو اكثر الناس حضارة . ويبدو ان هناك تناقضاً فلسفياً ، بين ان ينشغل الانسان وبين ان يكون حكيماً . فالحكماء لا

---

(١) جيمس راسل لويل (١٨١٩ - ١٨٩١) -- شاعر امريكي وكاتب وسياسي . ولد في ماشوسيت ، درس الحقوق ، ولكنه مارس الكتابة والادب . من اشهر دواوينه الشعرية « حياة سنة ». اصبح استاذاً في جامعة هارفرد ، ثم وزيراً مفوضاً في لندن . ومن كتبه « نافذة مكتبي » و « بين كتبي » .

(٢) رالف والدو ايمرسون (١٨٠٣ - ١٨٨٢) - كاتب ومحاضر وشاعر . ولد في بوسطن . درس في هارفرد . كان صديقاً للفيلسوف الانجليزي توماس كارليل. تأثر بالافلاطونية وبهيجل وفيختة وشيلينج . من اشهر كتبه « فلسفة التاريخ » و « الطبيعة » و « والبحاثة الامريكي » و « سير الحياة » و « المجتمع والفردية ».

– المعرب –

يشغلون انفسهم كثيراً، ولا يمكن لمن يشغلون انفسهم كثيراً ان يكونوا حكماء. ولعل احكم الناس هو ذاك الذي يتكاسل تكاسلاً نابعاً عن الحكمة . وسأحاول هنا ان اوضح لا اسلوب التكاسل واشكاله كما هو مطبق في الصين ، بل الفلسفة التي تخلق هذه الرغبة السامية في التكاسل في الصين ، والتي ينبع عنهـا ذلك المزاج المرح ، المتكاسل ، والشاعري ، عند حكماء الصين ، والى حد ما عند الشعب الصيني عامة . ترى كيف ينبع ذلك المزاج الصيني الذي يتمثل في عدم الثقة في النجاح والانجاز ، وذلك الحب الشديد للعيش ؟.

تتلخص النظرية الصينية عن وقت الفراغ كما عبر عنها كاتب صيني مغمور الى حد ما ، عاش في القرن الثامن عشر ، هو شوبيهسيانج والذي توصـل الى النسيان ، من ان الوقت نافع لأنه لا يستخدم . « فوقت الفراغ في عامل الزمن كالارض الفراغ في أية غرفة ». وتحس الفتاة العاملة التي تستأجر غرفـة صغيرة تفيد من كل شبر في أرضها ، بعدم الراحة الى حد كبير ، اذ أنها لا تجد فراغـاً تتحرك فيه ، وعندما تحصل على زيادة في مرتبها ، تنتقل الى غرفة أوسع منها، حيث تتوافر لها المساحة غير المستعملة ، بالاضافة الى المساحات النافعة للغايـة التي يحتلها سريرها الوحيد ، ومنضدة زينتها ، وموقدها الغازي ذو الفتحتين . ولكن الفسحة غير المشغولة ، هي التي تجعل الغرفة صالحـة للسكن ، كما ان أوقات الفراغ هي التي تجعل حياتنا من النوع الذي يحتمل وأنا أعرف أن هنـاك إمرأة ثرية تعيش في شارع « بارك أفينيو » ، ابتاعت الأرض المجاورة لدارتها ، لتمنع الآخرين من اقامة ناطحة سحاب الى جوارها . وهكذا دفعت مبلغـاً كبيراً من المال لتجعل أرضاً فسيحة ، عاطلة عن الاستعمال ، ويخيّل الي أنها لم تنفق في حياتها أي مال ، اجدى لها مما أنفقته في هذه العملية .

وفي وسعي هنـا أن أروي تجربة شخصية مرت بي . فـلم يسبق لي في نيويورك ان رأيت جمـالاً في ناطحات السحاب ، ولكن عندمـا ذهبت الى شيكاجو ادركت ان في وسع ناطحة السحاب ان تكون جميلة للغاية ومؤثرة على

الانسان اذا كان مدخلها فسيحاً ، وكانت محاطة بنصف ميل من الارض العراء حولها . ولا ريب في ان شيكاجو اكثر حظاً في هذا الصدد من مانهاتان في نيويورك . فهناك اراض فسيحة بين الأبنية الشاهقة ، وفي وسع الانسان أن يراها من اماكن نائية . وفي وسعنا التعبير مجازاً عن هذا بالقول ، بأن حياتنا كثيرة الاكتظاظ ، الى الحد الذي يحول بيننا وبين رؤية متع الحياة الروحية ، اننا في حاجة الى مداخل روحية .

٣ – عقيدة حياة البطالة

ينبع حب الصينيين لوقت الفراغ من مجموعة من الاسباب . فقد نشأ هذا الحب عن مزاج، ثم اتخذ شكل عقيدة ادبية ، ووجد مبرراته في فلسفة خاصة . أجل نشأ هذا الحب، عن ولع بالحياة ، ثم عاش طيلة الاجيال المتلاحقة معتمداً على تيار كامن من الرومانسية الادبية ، ثم تم التعبير عنه تعبيراً صحيحاً في فلسفة للحياة ، يمكن لنا ان نسميها بالطاوية . وليس هذا التقبل العام للنظرة الطاوية الى الحياة ، الا الدليل على وجود الدم الطاوي في المزاج الصيني .

وعلينا هنا ان نوضح من البداية ، نقطة في منتهى الأهمية . فالعقيدة الرومانسية عن حياة البطالة التي وصفناها بأنها ثمرة من ثمار وقت الفراغ ، لم تكن خاصة بالطبقة الثرية كما نعتقد في الغالب . فلا ريب في ان مثل هذا الاعتقاد يمثل خطيئة كبرى في فهم المشكلة . لقد كانت عقيدة للفقراء والفاشلين والعلماء المتواضعين الذين اما أن يكونوا قد آثروا حياة البطالة او أن هذه الحياة فرضت عليهم فرضاً . ولما كنت قد قرأت روائع الفكر الصيني ، ولما كنت اتصور الأساتذة الفقراء، وهم يعلمون طلابهم من الفقراء ايضاً هذه القصائد والمقالات التي تمجد حياة البطالة والبساطة ، فليس في وسعي الا ان افكر بأن

هؤلاء الطلاب قد استمدوا رضى شخصياً بالغاً ، وعزاء روحياً من هذه القصائد والمقالات . ولا ريب في ان البحوث الفنية في عيوب الشهرة ، ومزايا حياة الغموض والنسيان ، كانت ممتعة لأولئك الذين فشلوا في الامتحانات العادية ، كما ان القول بأن « التأخر في الأكل يعني زيادة الشهية الى الطعام ». يجعل المقل في تزويد اسرته بالطعام ، قادراً على انتحال الاعذار . وليس ثمة اكثر تنكراً لتاريخ الادب ، من قيام كتاب الصين من البروليتاريين باتهام شعراء من أمثال سوتونجبو وطاويواغينج وغيرهما بالانتماء الى طبقة المثقفين المولعين بالفراغ والمكروهين ، مع ان سو هو الذي تحدث عن « النسيم العليل يهب على الجدول الرقراق ، واشعة القمر تضيء قمم الجبال ، وان طاو هو الذي تحدث عن « الطلل الذي يبلل لباسه « وعن » الدجاجة التي تفرخ على شجرة توت ». ولكن هل النهر والنسيم والقمر ، والدجاجة وشجرة التوت ملك للطبقة الارستقراطية وحدها . ان هؤلاء العظماء من الأقدمين مضوا في ادبهم الى اكثر من مرحلة الحديث عن أوضاع الفلاحين ، اذ عاشوا حياة فقراء الفلاحين ووجدوا فيها الدعة والهدوء .

واني لاعتبر هذه العقيدة الرومانسية عن حياة البطالة ، على هذا الاساس ، ظاهرة ديمقراطية . وفي وسعنا ان نتفهم هذه العقيدة الرومانسية بصورة أفضل عندما نتصور امامنا لورنس ستيرن [1] وهو يقوم برحلته العاطفية ، او

---

(١) لورنس ستيرن (١٧١٣ - ١٧٦٨) كاتب بريطاني ساخر . درس في كمبردج ، واصبح من رجال الدين . قام برحلات في فرنسا وايطاليا . من اشهر كتبه « رحلة عاطفية » و« تريسترام شاندي » و « رسائل الى اليزا » . تعتبر قصصه عاطفية للغاية .

المعرب

ووردسورث[٢] وكوليردج[٣] وهما يذرعان القارة الأوروبية على اقدامهما، ولقد مر وقت لم يكن الانسان فيه في حاجة إلى الثراء ليقوم بالترحال، كما أن السفر لم يفقد حتى اليوم ترفاً كالياً لا يحظى به الا الاثرياء. فالتمتع بوقت الفراغ اقل تكلفة ولا ريب، من التمتع بالكماليات. وكل ما يحتاج اليه هذا التمتع هو الطبيعة الفنية التي تعمل على البحث عن قضاء أمسية غير مجدية باسلوب غير مجد ولا نافع. ولا شك في ان حياة البطالة كما صورها تورو في كتابه « وولدن » لا تكلف الا القليل للغاية.

وكان الرومانسيون الصينيون على هذا الاساس، رجالاً وهبوا احساساً رفيعاً وطبيعة افاقة، وبالرغم من فقرهم في ممتلكاتهم الدينوية الا انهم كانوا أغنياء بعواطفهم. وكانوا يحبون الحياة حباً جماً، وقد ظهر حبهم لها في كرههم لكل حياة رسمية، ومن رفضهم البات بان يجعلوا من ارواحهم اتباعاً مستعبدين لاجسادهم. وبالرغم من ان حياة البطالة لم تكن في امريكا امتيازاً للاثرياء والاقوياء والناجحين، فانها كانت في الصين من منجزات السمو الفكري الذي يقرب من المفهوم الغربي عن كرامة الافاق الذي يأنف من طلب الاحسان، والذي يرفض العمل لاحساسه بالاستقلال، والذي يفرط في الحكمة الى حد عدم اخذ النجاح الدنيوي على محمل الجد. وقد نبع هذا السمو الفكري وارتبط حتماً بمزية القدرة على التمعن في مطامح الحياة وحماقاتها، وفي اغراءات الشهرة والثراء. واصبح الدراس السامي الفكر الذي يقدر شخصيته اكثر من تقديره

---

(٢) ويليام ووردسوث (١٧٧٠ – ١٨٥٠) شاعر انجليزي. درس في كمبريدج. قام برحلة على قدميه في فرنسا وسويسرا. عاش حياة عاطفية. تعتبر قصائده من امهات الشعر الكلاسيكي البريطاني. من اشهر كتبه « ذكريات طفولة » و « نمو عقل شاعر ».

(٣) صمويل تيكوكوليردج (١٧٧٢ – ١٨٣٢) شاعر وفيلسوف انجليزي. درس في كمبريدج. من اشهر كتبه « البحار القديم » و « كريستابل » و « اغنية الى فرنسا » وغيرها.

المعرب –

لمنجزاته ، ويقدر روحه أكثر من تقديره للشهرة او الثراء ، المثل الأعلى لجميع كتاب الادب في الصين . ولا شك في أنه كان النموذج لحياة البساطة وللاستهانة المتكبرة بالنجاح الدنيوي على النحو الذي يفهمه العالم .

وقد دفعت الاغراءات بعض كبار ادباء الصين من رجال هـذا الطراز من امثال طاو يواغينج وسوتونجبو وبوشوبي ويوان شونجلانج ، ويوان تسيتساي ، الى العمل فترة قصيرة من حياتهم في اعمال رسمية . أدوا واجبهم فيها على أحسن وجه ، ولكنهم سرعان ما ملوا من رتابتها الدائمة ، ومن استقبال زملائهم الموظفين ووداعهم . فراحوا ينضون عن كواهلهم اعباءها ، ويعودون مدفوعين بحكمتهم الى حياة التقاعد والعزلة . وكتب يوان شونجلانج عندما كان قاضياً في سوشاد سبعة استدعاءات متوالية الى رؤسائه يشكو فيها من رتابة حياته ، ويرجوهم ان يسمحوا له بالعودة الى حياة الانسان الحر الذي لا يأبه بشيء .

ولعل من اروع نماذج اطراء البطالة ، ما كتبه شاعر آخر هو بو يوشيان ، يطري مكتبته التي اسماها « قاعة البطالة » اذ يقول ....

« انا اكسل من ان اقرأ روائع طاو ، اذ ان الطاوية لا توجد في الكتب ....

« وانا اكسل من البحث في الكتب الدينية الهندية القديمة ، اذ انها لا تمضي في دراسة الطاوية الى اعمق مما يبدو في مظهرها ....

« فلباب الطاوية يكمن في الفراغ والوضوح والجمود ....

« ولكن أهناك فراغ سوى ان يقضي المرء سحابة يومه كمجنون ؟

« وانا اكسل من ان اقرأ الشعر ، اذ عندما اتوقف عن القراءة .. يختفي الشعر من خاطري .

« وانا اكسل من ان اعزف على القيثار ، اذ ان الموسيقى تموت على الوتر عندما تولد .....

« وانا اكسل من ان اشرب الخمر ، اذ هناك انهار وبحيرات وراء احلام السكير ....

« وانا اكسل من ان العب الشطرنج اذ ان هناك قطعاً اخرى وراء البيادق ....

« وانا اكسل من ان اتطلع الى التلال والجداول ، فهناك صورة لها في اعماق فؤادي .

« وانا اكسل من ان اواجه الريح والقمر ، اذ ان هناك في قرارة نفسي جزيرة للخالدين .....

« وانا اكسل من ان اهتم بالشؤون الدنيوية ، ففي قرارة قلبي يقوم كوخي وممتلكاتي .....

« وانا اكسل من ان اراقب تعاقب الفصول ، فهناك في صميم فؤادي تسير المواكب السماوية ....

« وقد تذبل اشجار الصنوبر . وتتآكل الصخور ، ولكنني سأظل دائماً كما انا ....

« اولا يجوز لي بعد هذا ان اطلق على مكاني اسم قاعة البطالة ؟ »

وهكذا ارتبطت عقيدة البطالة دائماً بحياة الهدوء النفسي ، وبالاحساس بعدم المسؤولية ، وبالتمتع الكلي العميق بحياة الطبيعة . ولقد اطلق الشعراء

والباحثون على انفسهم دائماً اسماء غريبة فوصف توفو نفسه بأنه « ضيف الانهار والبحيرات » ، كما وصف سوتونجبو نفسه « ناسك السفح الشرقي » ، كما وصف آخرون انفسهم بانهم « رجال بحيرة الضباب الخالون من الهموم » أو « بعجائز البرج الذي يغطيه الضباب » .

أجل ان التمتع بحياة البطالة لا يكلف شيئاً . ويضيع هذا التمتع عند الطبقة التي تملك المال ، ولا يوجد حقاً الا عند اولئك الذين يزدرون المال ازدراء تاماً . ويجب ان ينبع من غنى داخلي في الروح عند ذلك الانسان الذي يتعشق البساطة في اساليب الحياة ، والذي لا يصبر على متاعب جمع المال . وهناك اوجه كثيرة للتمتع بالحياة ، تتوافر للانسان الذي يصمم على التمتع بها . واذا كان هناك من يعجزون عن التمتع بوجودنا الارضي ، فان عجزهم هذا نابع عن عدم حبهم للحياة حباً كافياً ، مما يحيلها الى وجود رتيب مزعج . ولقد اتهم لاوتسي ظلماً بانه عدو للحياة ، فأنا أومن بانه بشر بالتخلي عن الحياة الدنيوية ، لأنه احب الحياة حباً رقيقاً دفعه الى الاشفاق على فن العيش من ان ينحط الى مجرد عمل للحياة .

فحيث يوجد الحب ، توجد الغيرة . وكل من يتعشق الحياة تعشقاً كبيراً لا بد ان يكون شديد الغيرة على اويقات السعادة القليلة التي تتوافر له اثناء فراغه . وعليه ان يحافظ دائماً على ما يتميز به الافاق من كبرياء وما يتظاهر به من كرامة . ويجب ان يقدس الساعات التي يقضيها في صيد الاسماك تماماً كالساعات التي يقضيها في العمل . وان يجعل من تقديسه لها ديانة تشبه الديانة التي خلقها الانجليز نتيجة حبهم للرياضة . ويجب ان لا يسمح للناس بالحديث اليه عن سوق الاوراق المالية وهو يقضي وقته في نادي الجولف . تماماً كما يرفض العالم ان يزعجه احد عندما يعمل في مختبره . وعليه ان يعد ايام الربيع المنصرمة ، باحساس من الاسى الحزين لأنه لم يقم بمزيد من الرحلات والجولات تماماً كما يحزن التاجر عندما لا يبيع الكثير من مستودعاته في أي يوم ....

٤ – هذه الارض هي الجنة الوحيدة

هناك لمسة شاعرية حزينة اخرى يمكن ان تضاف الى هذا الحب الشديد للحياة عن طريق ادراكنا ، بان هذه الحياة التي نعيشها فانية . ولعل من الغريب ان اقول أن هذا الاحساس الحزين بفناء الحياة ، يجعل تمتع الباحث الصيني بالحياة اكثر شدة وعنفاً . فعلينا اذا كان هذا الوجود هو كل ما يتوافر لنا ، ان نبذل قصارى جهدنا للتمتع به الى اقصى حدود التمتع طيلة بقائه . ولا شك في ان الأمل الغامض بالخلود ، يقلل من حماستنا للرغبة في التمتع بالوجود الدنيوي . ويقول السير ارثر كيث [١] بشيء من الاحساس الصيني النموذجي ... « ولو اعتقد الناس كما اعتقد ان دنيانا الحالية هي جنتنا الوحيدة لحاولوا كل ما في وسعهم احالتها الى جنة فعلية » . ويقول سو تونجبو في هذا الصدد ... « تمضي الحياة كحلم من احلام الربيع دون ان تخلف اثراً » ، ولعل هذا الإيمان هو الذي دفعه الى التعلق بها بشدة وعنف . ولا ريب في أننا نجد في الادب الصيني بصورة مستمرة هذا الإحساس بالوجود الفاني . ولا ريب في ان هذه الاحاسيس بوقتية الوجود ، وبزوال الحياة ، وهذه اللمسات من الحزن التي تسيطر على شعراء الصين وأدبائها ، هي التي تغلب عليهم في اعيادهم ومرحهم ، فيعبرون عنها بان القمر لا يستطيع ان يظل بدراً بصورة دائمة وان الازاهير لا تستطيع ان تظل يانعة » ، وذلك عندما يرقبون البدر من مكان تحيط بهم فيه الأزاهير الجميلة . ولقد طلع لي بو ببيته المشهور الذي يقول فيه ان « حياتنا العائمة ليست الا احلاماً. فهل يستطيع المرء التمتع بذاته مرات عدة » ، في اطار قصيدة اطرى فيها وليمة فاخرة شهدها وخلدها تحت عنوان « ليلة

---

(١) السير ارثر كيث (١٨٦٦ - ١٩٥٥) عالم اسكوتلندي بالنفس والاجناس البشرية درس في جامعة لندن . من اشهر كتبه « اشكال الانسان القديم » و « الجسد البشري » ، و « اصول الانسان » و « الات الجنس البشري » و « القومية والعنصر » و « دين داروين » .

المعرب

ربيع وسط الزهور » . وكتب وانج هسيشي، مقالته القصيرة الخالدة « حديقة الاقحوان » وسط جمع ضم أصدقـــاءه السعداء والمشهورين ، والتي وصف فيها بصورة نموذجية هذا الاحساس بوقتية الحياة .... إذ قال ....

« في السنة التاسعة من حكم يونجو (٣٥٣ ميــلادية) ، اجتمعنا في باحة الزنابق في شانيـــين من مقاطعة كويشي في مطلع يوم من ايام الربيع المتأخرة ، لنحتفل بعيد المـــاء ، ولنغسل ارواحنا الشريرة ....

« وضم الاجتماع كافة المشهورين من النـــاس ، من شيوخ وشبان . وكان المكان محاطاً بالجبال العالية والقمم الجليـــلة ، والاشجار ذات الاوراق الكثيفة والاغصان الطويلة . وهناك ايضاً الجـــداول الرقراقة والشلالات الهادرة التي تسلب لب الانسان عندما يتطلع اليها على يمينه وشماله . ويلتئم شملنـــا بنظام ، فنجلس إلي جـــانب الماء . ونشرب على التعاقب من كأس طاف على مياه الجدول المتعرج ، وبالرغم من افتقـارنا إلى أية موسيقى وترية أو حتى إلى موسيقى رياح الغابة إلا أننا عن طريق تناوب الغنـاء والشراب ، أصبحنا جد ميالين إلى التمتع بحديث ودود هادىء . والسماء صافيـة اليوم ، والهواء رقيق عليل ، والنسيم لطيف . ولا شك في أن المتعة الكبرى كانت في التطلع إلى الكون العظيم فوقنا ، وإلى الاشياء التافهة الوفيرة العدد تحته ، جائلين بنظراتنا في ذلك المنظر الرائع ، وسامحين لعواطفنا بأن تجول كما تشاء، مستنزفين كل ما يتوافر للعين والاذن من متع .

« وعندما يجتمع الناس الى بعضهم لتصور الحيـاة نفسها ،

يجلس بعضهم ، يتحدثون ، ويخففون عن افكارهم الاعباء التي تنوء بها في ظل ما تخلقه الغرفة التي يجتمعون فيهـا من تقارب ، بينما تتغلب العواطف على البعض الآخر ، فيحلقون في عالم يسمو على وقائع الجسد . وبالرغم من اختيارنا لمتعنا طبقاً لميولنـا ، بحيث يكون بعضها ضاجاً صاخبـاً ، ويكون البعض الآخر هادئاً ووديعاً ، فاننا عندمـا نعثر على ما يسرنا نحس بالسعادة والرضى الى الحد الذي ينسينا اننا نسير في طريق الشيخوخة . وعندما يحـل الاشباع محل الرضى ، وتتغير نزواتنا ورغباتنا بتغير الظروف ، ينطلق من نفوسنا احساس بالندم الحـاد . وهكذا تغدو متعنا السابقة في غمضة عين من حوادث الماضي ، باعثة في نفوسنا ذكريات مريرة . يضاف الى هذا انه بالرغم من ان حياتنا قد تطول أو تقصر ، فانهـا لا بد وان تنتهي الى خواء . ولقد قال القدماء صادقين ... « حقاً ان الحياة والموت امران عظيمان » ... آه ، يا للحزن !

« وكثيراً ما درست افراح الاقدمين واحزانهم ، وعندما انحني على كتاباتهم اقرأ ما فيها ، يغلبني شعور طـاغ من الحزن والعطف ، وتشتد لهفتي على ايضاح كل شيء لنفسي . فانا ادرك ان من الكذب القول بان الحياة والموت يمثلان شيئاً واحداً ، وان طول الحياة والموت المبكر لا يختلفان . وكما ننظر الى اهل الماضي ، ستنظر الينا الاجيال اللاحقة نفس النظرة . ولهذا وضعت هذه الصورة عن معاصريّ وعن اقوالهم في هذا العيد ، وبالرغم من ان الاوقات والظروف ستتبدل ، فان الطريقة التي نستفز بهـا امزجتنا عن السعادة والأسى ، ستبقى على حالها . ترى ما الذي سيحس به قراء الغد عندما تقع انظارهم على ما كتبته » .

واني لأقول ان الايمان بأننا غير مخلدين ، والاحساس بأن شمعة حياتنــــا ستنطفىء في النهاية، من الأمور الرائعة حقاً. فهما يدفعاننا الى الرزانة في التفكير، والى الاحساس بالحزن ، كما يحملان الكثيرين منا على التعلق بالشاعرية . ولكنهما يجعلان في امكاننا قبل كل شيء ، ان نحزم امرنا ، وان نرتب حياتنا بعقـــل وصدق ، وباحساس بالقيود التي يجب ان لا نتخطاها . وهما يخلقـان الهدوء في نفوسنا ايضاً ، اذ ان احساس العقل بالراحة ينبع من تقبله لاسوأ الامور . واني لاعتقد ان هذا الاحساس يعني من الناحية الفيسيولوجية ، انطلاق الطاقة من عقالهـــا .

وعندما يتمتع شعراء الصين، واهلها العاديون بحياتهم ، يغمرهم دائماً احساس لا واع ، بان المتعة لن تدوم . ويقول الصيني دائمـــاً بعد كل اجتماع سعيد ... « هناك نهاية لكل اجتماع مهما طال أو اتسع» . وليست وليمة الحياة إلا وليمة نبوخذ نصر . ويدفع هذا الاحساس بالمزية الحالمة لوجودنا ، الوثني الى التعلـق بشيء من الروحية . فهو يرى الحياة كما يرى فنان الطبيعة منظر الجبال امامه ، وقد غطتها متاهات من الغموض ، واختلط الهواء فوقها احياناً بالرطوبة .

وتصبح فرضية العيش بعد حرمانه من الخلود ، فرضية في منتهى البساطه . وهي تتلخص في ان علينا كبشر ، وقد اتيح لنا ان نعيش في هذه الدنيا امداً لا يزيد على السبعين عاماً في معظم الحالات ، ان نرتب حياتنا بحيث نسعد بها الى اقصى حد تتيحه لنـــا الظروف . وهنا نحن نتفق مع مبادىء كونفوشيوس . فنحن نؤمن بالدنيوية ، وبالارتباط بالارض ، ولذا يمضي الواحد منـا الى العمل بتصميم يشبه الى حـد كبير ما اسماه سانتيانا « بالايمان الحيواني » . ولا شك في ان هذا الايمان الحيواني الذي يدفعنا الى قبول الحياة على علاتها ، يجعلنا نتساءل، دون ان نستعين بما قاله داروين عن العلاقة الاساسية التي تقوم بيننا وبـــين الحيوانات . وهو الذي يدفعنا الى التعلق بالحياة ، حياة الغريزة والحواس ، إيماناً

منا بأن الحيوان فينا ، يجعلنا نحس بالسعادة عندما نرضي جميع غرائزنا العادية. وينطبق هذا القول على التمتع بالحياة في كل صورها ونواحيها .

اذن هل نحن ما ديون ؟ قد يصعب على الانسان الصيني الرد على هذا السؤال. فروحيته التي ترتكز الى شكل من أشكال الوجود المادي المرتبط بالارض ، تجعله عاجزاً عن التمييز بين الروح والجسد . فلا شك في انـــه يحب ملذات المخلوقات ، ولكن هذه الملذات قضايا تتعلق بالحواس . ويستطيع الانسان عن طريق الادراك وحده أن يميز بين الروح والجسد ، ولكن الحواس تمثل مدخليهما، كما رأينا في الفصل السابق . فلا شك في ان الموسيقى التي تعتبر من اكثر فنوننـــا روحية ، اذ تحلق بالانسان في عالم الروح ، هي ايضاً تعتمد على حاسة السمع . ولا يستطيع الصيني ان يفهم لم يكون تذوق الطعام والتمتع به اقل روحية من انغام الصوت . ولا شك في ان هذا الاحساس الواقعي هو الذي يدفعنـــا الى الشعور بالحب نحو المرأة التي نحبها. فمن المستحيل التفريق بين روحها وجسدها. واذا كنا نحب امرأة ما ، فاننا لا نحب فيها مجرد تقاطيعها الهندسية الدقيقة ، وانما نحب فيها طرائقها في الحركة واساليبهـــا في النظرة والابتسامة . ولكن أتكون هذه النظرة وتلك الابتسامة من الامور الروحية ام من الامور البدنية؟ لا احد يدري .

ولا شك في ان الأنسنة الصينية تعزز احساس الصينيين بالواقـع والروح ، لأنهـا تمثل طريقتهم في التفكير والعيش . وقد تعرف الفلسفة الصينية بصورة موجزة ، بأنها انشغال بمعرفة الحياة اكثر منها بمعرفة الحقيقة . واذا ما استبعدنا جميع التصورات الغيبية على اساس انها لا تتصل بعمل العيش ، وعلى انهـا مجرد انعكاسات شاحبة تمر بخواطرنا ، فاننـــا نجد ان فلاسفة الصين يتعلقون بالحياة نفسها ، ويوجهون الى انفسهم السؤال الوحيد الخالد ... « كيف سنعيش ؟ » . ويرى الصينيون في الفلسفة الغربية أمراً تافهـاً . فقد تجاهلت هذه الفلسفة عن طريق انشغالها بالمنطق الذي يهتم باسلوب الوصول الى المعرفة ، وانشغالهـــا

بنظرية المعرفـة التي تعرض مشكلة احتمال المعرفة ، معالجة موضوع التعرف الى الحياة نفسها . وهم يرون فيها الكثير من الهذر بل ومن التفاهة ، اذ انها تشبه خطبة الفتاة ومغازلتها دون الزواج منها وانجـــاب الاطفال ، أو تشبه تلك الطوابير من الجنود ذوي البزات الحمراء الذين يشتركون في العروض العسكرية ، دون ان يمضوا الى المعارك . ولا شك في ان الفلاسفة الألمان هم اكثر الغربيين تفاهة ، فهم يتوددون الى الحقيقة كعشاق ولوعين ، ولكنهم لا يخطبونها بقصد الزواج منها .

٥ - ما هو الحظ ؟

يقوم الاسهام الكبير للفلسفة الطاوية في خلق مزاج البطالة في عدم اعترافها بحسن الطالع أو سوئه. فتعاليم الطاوية تتركز في التأكيد على الوجود لا على العمل، وعلى الطبيعة لا على الانجاز ، وعلى الهدوء لا على الحركة . ولكن الهـدوء الداخلي النفسي لا يتحقق الا عندما لا يتعرض الانسان لشرور الحظ. ولقد رسم لنا لايهتسي ، فيلسوف الطاوية العظيم في رسالته عن « الرجل الشيخ في القلعة ». المثل الرمزي المشهور التالي ...

« كان هناك رجل شيخ يعيش مع ولده في قلعة مهجورة تقع على قمة جبل . وفقد الشيخ ذات يوم جواداً له . وجـــاء الجيران يعزونه على مصيبته، فراح الشيخ يسألهم: .. « ولكن كيف تعرفون انها مصيبة ؟ ولم تمضي ايام حتى كان الحصان يعود الى صاحبه . وقد استصحب معه عدداً من الجياد البرية ، فجاءه الجيران يهنئونه من جديد على هذا الطـــالع الحسن . وسألهم الشيخ ... « وكيف تعرفون انـــه طالع حسن ؟ »

وعندما رأى ولده حوله هذا العدد الكبير من الجياد ، شرع في امتطائها ، فكسرت ساقه . وعـاد الجيران يواسونه على مصيبته فقال ... « وكيف تعرفون انها مصيبة ؟ » . ووقعت الحرب في العام التالي ، واعفي ولده من الجندية لأن ساقه كانت مكسورة » .

ولا شك في ان مثل هذه الفلسفة تمكن الانسان من ان يتحمل عدة ضربات قاسية في حياته ، ايماناً منه بأن مثل هذه الضربات قد تكون نافعـــة . فهي كالمداليات تحمل وجهين . ولا شك في ان مثل هذا الطراز من الفلسفة ، يمكن الانسان من الهـــدوء ، ومن تجنب الضجيج والحركة ، ومن الفرار من النجاح والانجاز ، لانها تقول ... « لا شيء يهم الانسان الذي لا يهتم بشيء ». ولا شك في ان الايمان بان الرغبة في النجاح تعني نفس ما يعنيه الخوف من الفشل ، يقتل الرغبة في النجاح . وكلما حقق الانسان المزيد من النجاح ، كلما زاد خوفه من الهبوط . فهناك تماثل بين غنم الشهرة الوهمي وبين مزايا البعد عنها . وترى الطاوية ان الرجل المتعلم هو ذاك الذي يؤمن بأنه لم ينجح في الوقت الذي يحقق فيه النجاح ، والذي لا يؤمن بانه قد فشل حتى ولو فشل . بينما يتميز الرجل نصف المتعلم بالاعتقاد بأن مظاهر فشله ونجاحه ، مطلقة وحقيقية .

وعلى ضوء هذا يظهر الفرق بين البوذية والطاوية على النحو التالي وهو ان هدف البوذي يتلخص في انه لا يطلب شيئاً بينما يتمثل هدف الطاوي في ان لا يكون الناس في حاجة اليـــه في أي شيء على الاطلاق .. فالرجل الذي لا يحتاج اليه الناس هو وحده القادر على ان يكون فرداً خاليـــاً من الهموم ، ويكون هذا بدوره الانسان السعيد حقاً . ولعل هذا هو السبب الذي دعـــا شوانجتسي اكبر فلاسفة الطاوية الى مواصلة تحذيرنا من ان نفرط في البروز وفي النفع وفي خدمة الآخرين . فالخنازير تذبح وتقدم قرابين عندما تغـــدو وافرة الشحم ، والطيور الجميلة هي التي تجتذب انظار الصيادين لصيدها ، والافادة

من ريشها الجميل . وهو يروي لنـا قصة رجلين ذهبا الى أحـد القبور لنبشه واخراج الجثة المدفونة فيه ليهمشوا رأسها بالمطرقة ويكسروا عظام وجنتيها ، ويحطموا فكيها لأن الرجل كان من الحمق بحيث أوصى بأن تدفن معه وفي فمه احدى الجواهر الثمينة .

ولعل النتيجة الحتمية لكل هذا التفلسف ، هي ان نتساءل ... ولم لا نركن الى حياة التسكع ؟

٦ – ثلاثة عيوب امريكية

يطلع الامريكيون بقول يتعارض تعارضاً غريباً مع الفلسفة الصينية الرائعة التي تقول ... « بان لا شيء يهم الانسان الذي لا يهتم بشيء » . وهل تستحق الحياة كل هذه المتاعب التي تدفعنا الى ان نجعل من روحنا أمة لجسدنا . ان الروحية العالية التي تتميز بها فلسفة التسكع تمنع ذلك منعاً باتـاً . ولعل ابرز اعلان رأيته في حياتي ، هو ذاك الذي صدر عن شركة هندسية ، كتبت بحروف كبيرة تقول ... « لا اكتفاء بالصحة التقريبية » . ولكن الرغبة في كفاية المائة بالمائة امر في منتهى السخف . ولعل المشكلة في الامريكان هي انهم لا يكتفون بأن يكون الشيء صحيحاً تقريباً ، وانما يريدونه كاملاً في صحته ، بينما يكتفي به الصينيون .

ولعل ابرز العيوب الامريكية ثلاثة ، وهي الفاعلية والدقـة والرغبة في الانجاز والنجاح . فهذه العيوب هي التي تجعل الامريكيين محرومين من السعادة ودائمي العصبية . فهي تمنعهم من حقهم الطبيعي في التكاسل والتخاذل، وتحرمهم من التمتع بكثير من الامسيات الجميلة الرائعة والمتكاسلة .. وعلى المرء ان يبدأ اولاً من الايمان بأن ليس ثمة نكبات في هذا العالم ، وانه بالاضافة الى الفن السامي

المتعلق بعمل الأمور ، هناك فن آخر اكثر نبلاً وسمواً ، يتعلق بترك الأمور دون أي عمل أو تحقيق. ولو كان الانسان يرد على الرسائل في حينها ومواعيدها بدقة ، فان النتيجة لا تختلف في خيرها أو شرها ، عن تلك التي تتأتى من عدم الرد على الرسائل اطلاقاً . فعلى أي حال لن يكون ثمة فرق كبير ، وبالرغم من ان الانسان قد يضيع بعض المواعيد المناسبة ، فانه قـــد يتجنب ايضاً مواعيد اخرى غير طيبة وغير ممتعة . ولا شك في ان معظم الرسائل لا يستحق الرد ، لو احتفظ الانسان بها في درج مكتبه ثلاثة اشهر ، ثم عاد فقرأها ، ليتبين ان الرد عليها في حينه كان يعتبر اضاعة لوقته . ويمكن لتدبيج الرسائل ان يصبح رزيلة من الرذائل . فهو يحيل خيرة كتابنا الى دعاة لتسويق بعض السلع ، كما يجعل من خيرة اساتذتنا الجامعيين مديرين صالحين للاعمال التجارية . ولا ريب في انني استطيع على هذا الصعيد ان افهم نظرة الزراية التي ينظر بهـــا تورو الى الامريكي الذي يدأب على الذهاب الى مكتب البريد .

ولعل خلافنا مع النظرة الامريكية لا يقوم في ان الكفاية تنجز الأمور ، ويكون انجازها رائعاً ايضاً. وانا اعتمد على قرب الماء الساخن الامريكية اكثر من اعتمادي على تلك التي تصنع في الصين ، لجودة صناعة الاولى . وهنا يكون مثار تعزيتي لنفسي . فهناك مقابل المفهوم القديم الذي يقول بان علينا ان نكون جميعاً نافعين وفعالين ، وان نصبح من الموظفين ذوي السلطان ، رد يقول بأن هناك دائماً في العالم عدداً كافياً من الحمقى الراغبين في ان يكونوا نافعين ومشغولين وان يتمتعوا بالسلطان ، ويتم عن هذا الطريق دائماً تنفيذ عمل الحياة . والنقطة الوحيدة هي تحديد الحكماء هل هم المتكاسلون أم النشيطون . ولعل خلافنا مع الفاعلية لا يتركز في انها تنجز الأمور ، بل في انها تسرق وقتنا ، اذ انها لا تترك لنا أي وقت فراغ نتمتع به ، وانها تجهد اعصابنا في محاولة تحقيق الكمال في الانجاز . فالصحفي الأمريكي ، يبيض شعره وهو يحاول ان لا تظهر اية اخطاء مطبعية في صحيفته . أما الصحفي الصيني فاكثر حكمة ، اذ انه يريد ان يترك

لقرائه متعة الرضى باكتشاف بعض الاخطاء المطبعية بانفسهم . ويمكن لاية مجلة صينية ايضاً ان تبدأ بنشر مسلسلة روائية ، ثم تتوقف في منتصف الطريق . ولو حدث هذا في امريكا لقامت ثورة على محرري المجلة ، أما في الصين، فلا ضير في ذلك لانه لا ضير فيه فعلاً . ويجري المهندسون الامريكيون وهم يقيمون الجسور حساباتهم بدقة بحيث تتفق التقديرات مع الحقيقة تماماً . أما عندما يبدأ صينيان في حفر نفق من جانبي احد الجبال ، فان كلاً منهما يخرج في الجانب الآخر . والرأي عند المؤسسة الصينية التي ينتمي اليها المهندسان ، ان الامر لا يهم طالما ان النفق قد حفر ، ولا ضير في ان يكون هناك نفقان بدل النفق الواحد . واذا لم يكن ثمة استعجال في الأمر ، فان النفقين ليسا بأقل فائدة من النفق الواحد ، طالما انهما ، قد حفرا ، وان القطار اصبح يسير في احدهما . ويكون الصينيون في منتهى الدقة الزمنية من الانجاز شريطة ان يكون لديهم الوقت الكافي لذلك . وهم ينجزون الامور دوماً طبقاً للخطة المقررة ، شريطة ان تكون المدة التي تحددها الخطة كافية .

ويحول غذ السير في الحياة الصناعية العصرية دون هذا الطراز من التكاسل الرائع والمجيد . ولكن الأسوأ من هذا انه يفرض علينا مفهوماً مغايراً عن الزمن الذي يقاس بالساعة ، ويحيل الانسان في النهاية الى مجرد ساعة . ولا ريب في ان الصين ستشهد هذا التحول ، كما يتضح مثلاً في مصنع يضم عشرين ألف عامل. فالصورة المترفة لعشرين ألف عامل ، يفدون الى المصنع في الوقت الذي يشاؤه كل واحد منهم ، صورة رهيبة الى حد ما . لكن هذا هو الذي يجعل الحياة شاقة وحافلة بالقلق . فالرجل الذي يجد نفسه مضطراً الى ان يكون في مكان معين في الساعة الخامسة مساء، يجد ان ساعات بعد الظهيرة كلها اي بين الواحدة والخامسة ، قد فسدت بالنسبة اليه . ويقوم كل رجل امريكي بتحديد وقته على الصورة التي يتبعها طلاب المدارس ، فهو يعين الساعة الثالثة لأداء هذا، والساعة الخامسة لأداء ذاك ، والسادسة والنصف لتغيير ملابسه ، والسادسة والدقيقة

الخمسين ليستقل سيارة الأجرة ، والسابعة ليكون في أحد الفنادق . حقاً ان مثل هذا الترتيب يجعل الحياة غير صالحة للعيش .

وقد وصل الامريكيون الى حالة محزنة ، فأوقاتهم ليست محجوزة لليوم التالي فحسب ، بل وللأسبوع التالي أو الشهر القادم أيضاً . ولا يعرف الصينيون موعداً يضرب بعد ثلاثة أسابيع . وعندما يتلقى الصيني بطاقة دعوة ، لا يتحتم عليه ان يرد عليها ، بالحضور او بالتخلف . وقد يكتب على القائمة التي يحملها موزع البطاقات عبارة « سأحضر » أو عبارة « شكراً » اذا كان يعتذر عن الحضور ، ولكنه يدون في غالب الحالات في القائمة عبارة « عرف » ، وهو تعبير يدل على أنه عرف بالدعوة ، دون ان يبين نيته بصددها . وقد يقول لي أمريكي أو اوروبي على وشك مغادرة شانجهاي ، انه سيشهد اجتماعاً للجنة ما في باريس في الساعة الثالثة من بعد ظهر التاسع عشر من ابريل من عام ١٩٣٨ وانه سيصل الى فيينا في قطار الساعة السابعة من مساء الواحد والعشرين من مايو . واذا كان لا بد من الحكم بالاعدام على يوم من الايام ، فهل يتحتم علينا ان نعلن هذا الحكم في وقت مبكر ؟ أو لا يستطيع المرء أن يسافر ، أن يكون سيد نفسه ، يصل متى شاء ، ويغادر أنى يريد ؟

لكن عجز الامريكي عن حياة التبطل ، ينشأ مباشرة من رغبته في العمل ، ومن ايثاره اياه على الوجود . ولكن علينا أن نطالب بأن تكون لحياتنا شخصية خاصة كما نطالب بأن يكون لكل فن رفيع شخصيته الخاصة . ولعل من سوء الحظ أن الشخصية شيء لا يصاغ بين عشية وضحاها . فهي كالتعتيق في الخمر ، لا تكتسب الا بالجمود ، وبمرور الزمن . ولا ريب في أن رغبة الشيوخ والعجائز من الأمريكيين في العمل لتحقيق احترامهم الذاتي ، ولكسب احترام الشبان ، هو الذي يدفعهم الى الظهور بمظهر ساخر أمام الشرقيين . فالإفراط في الحركة والعمل من جانب الشيخ أشبه بإذاعة موسيقى راقصة من مكبر يوضع على برج كنيسة أو كاتدرائية . أولا يكفي هؤلاء الشيوخ انهم يمثلون شيئاً ؟ أو من

الضروري بالنسبة اليهم أن يواصلوا العمل الى الأبد ؟ ولا شك في أن فقد القدرة على التبطل عند أواسط الرجال عمراً ، شيء سيء ، امـــا فقده عند الشيوخ فجريمة تقترف في حق الانسانية .

وترتبط الشخصية الخاصة بمفهوم القدم ، وهي تتطلب بعض الوقت لنموها ، تماماً كالتجعدات الجميلة التي تظهر في صورة انسان في أواسط العمر ، إذ انهـــا الخطوط التي تمثل في وجهه انطباعات شخصيته المتطورة . وقد يكون من العسير رؤية أية شخصية في ذلك الطراز من الحياة الذي يشهـد طرح الانسان لسيارته التي اشتراها في السنة الماضية ليستبدل بها سيارة جديدة من طراز السنة الحالية . فنحن لا نختلف كثيراً عما نصنعه . فكل رجل وامرأة يبدوان في عام ١٩٣٧ وكأنهما من طراز ذلك العام ، وكذلك الأمر بالنسبة الى عـــام ١٩٣٨ . فنحن نحب الكاتدرائيات القديمة والأثاث القديم الطراز ، والفضة القديمـــة والمعاجم القديمة ، وكتب التراث ، ولكننا ننسى كل شيء عن جمال الشيوخ . وأنا أعتقد ان تقدير هذا الطراز من الجمال ، أمر حيوي لحياتنا ، إذ أن الجمال في رأيي ، هو الشيخوخة والنضج ، والقدم .

وتطوف في مخيلتي أحياناً صورة تنبؤية رائعة ، أرى فيها « منهاتان » بعد ألف عام، وقد أبطأت في سيرها ، وتحول الامريكي العجول الى متكاسل شرقي . وأرى السادة الأمريكيين يسبحون في سراويلهم الواسعة ، وقد انتعلوا النعال الشرقية ، وراحوا يطوفون أرجاء « برودوي » ، وقـــد وضعوا أيديهم في جيوبهم ، أو أخفوها في أكمامهم كما يفعل الصينيون . وأبصر رجـــال الشرطة يتبادلون التحية مع المشاة عند معابر الشوارع ومفارق الطرق ، والسائقين وقد أوقفوا سياراتهم في وسط الشارع ليتبادلوا التحيات ، وليسأل الواحـــد منهم زميله عن صحة جدتـــه . وأرى رجلاً ينظف أسنانه بالفرشاة امام متجره ، متحدثاً بهدوء الى جيرانه ، ورجلاً ذاهلاً يمر وقد حمل مجلداً في يمنـاه ، يتطلع الى الكون أمامـــه . وتبطل المطاعم السريعة ، ويتعلم الناس الجلوس ساعات

طويلة في مقاعد المطاعم المريحة أو قتل الساعات بعــــد الظهر في المقاهي . ويستغرق احتساء قدح من عصير البرتقال نصف ساعة ، بينما يدأب الانسان على رشف كأس الخمر ببطء وهو يتحدث الى رفاقه ، بدلاً من ان يبتلعــه في جرعة واحدة . وسيلغى التسجيل المسبق في المستشفيات ، وتلغى عيادات الطوارىء ، ويتبادل المرضى الأحاديث الفلسفية ، مع أطبائهم . وتتوقف عربات الاطفاء في طريقها ليتبادل رجالها الحديث عن مجموعة من الطيور في كبد السماء . ولكن من سوء الحظ ، ان لا أمــــل في ظهور هذه الصورة أبداً في « منهاتان » في نيويورك . وستشهد المدنية الصاخبة مزيداً من الأيام التي تضيع ...

٨

التمتّع بحياةِ البيْت

١ – نظرة حياتية ...

بدا لي ان خير اختبار وأصدقه لأيـــة حضارة ، يتمثل في طراز الأزواج والزوجات والآباء والأمهات الذي تخرجه هذه الحضارة . ولا شك في أن كل وجه آخر من أوجه الحضارة كالفن والفلسفة والأدب والعيش المـادي يتضاءل أمام ما في هذا الموضوع من بساطة غريبة .

ولقد كان هذا القول جرعة من الدواء أقدمه دائماً لأبناء وطني الذين تتصدع رؤوسهم من مهمة المقارنة بين الحضارتين الصينية والغربية ، ولا شك في أن ما حققه هذا الدواء من نتائج ، قد أرضاني كثيراً . وكان من الطبيعي ان يصاب الطالب الصيني الذي يدرس حياة الغرب وعلومه سواء في الصين أو في خارجها، بشيء من الدهشة الذاهلة وهو يرى المنجزات الرائعة التي حققها الغرب في مجالات الطب وعلم طبقات الأرض وعلم الفلك وبنـاء ناطحات السحاب وإقامـة طرق

السيارات الرائعة ، واختراع آلات التصوير ذات اللون الطبيعي . ويحس هذا الطالب إما بالحماسة لهذه المنتجات ، أو بالخجل لأن الصين لم تحقق مثلهـا ، أو بالحماسة والخجل معاً . وكثيراً ما يصاب بعقدة النقص ، فيبادر على التو ، الى التمسك بكثير من الغطرسة والشوفينية ، للدفاع عن الحضارة الشرقية دون ان يعرف عمّ يتحدث . وقد يبادر معبراً عن هذه العقدة الى استنكار ناطحـات السحاب أو طرق السيارات الجميلة، وإن كنت لم أجد أحداً حتى الآن يستنكر آلات التصوير الرائعة . وتثير حالته شيئاً من مشاعر الإشفـاق ، إذ أن موقفه يدينه بأنه أساء الحكم على الشرق والغرب من الناحيتين المنطقية واللاعاطفية . ولا شك أن هذه الأفكار الناشئة عن النقص تحيّره وتدهشه وتضايقه ، فيغدو في حاجة ماسة الى ما يسميه الصينيون بالترياق اللازم لتهدئة القلب ، لطرد الحمى التي تنتابه .

واقتراح مثـل هذا الاختبار ، الذي تقدمت بـه يؤدي الى أثر غريب في المساواة بين الناس جميعاً عن طريق طرح جميع ما في الحضـارة والثقافة من أمور لاضرورية ، وإقامة التعادل الواضح والبسيط بينهـــا . وتظهر جميع منجزات الحضارة الأخرى آنذاك وكأنها وسائل لتحقيق غاية وهي انتـــاج طراز أفضل من الأزواج والزوجات والآباء والأمهات . ولما كان الأزواج والزوجات يؤلفون تسعين في المائة من الناس ، ولما كان لمائة في المائة منهم آباء وأمهات ، ولما كانت حالات الزواج وأوضاع البيت تمثل الجانب الأكثر اتصالاً بحيـاة الانسان ، يصبح من الواضح أن الحضارة التي تنتـج طرازاً أفضل من الأزواج والزوجات والآباء والأمهات ، تعمل لخلق حياة انسانية أكثر سعادة ، وتكون بالتالي حضارة أفضل وأسمى . ولا ريب في أن طراز الرجال والنساء الذي نعيش معه أكثر أهمية من العمل الذي يحققونه ، ولا ريب أيضاً في أن من واجب أية فتاة ان تكون أكثر اعترافاً بجميل الحضارة التي تستطيع ان تؤمن لهـــا زوجاً افضل . وهذه الأمور نسبية تماماً ، وفي الامكان العثور على

المثاليين من الازواج والزوجات والآباء والامهات في كل عصر وبلاد . ولعل علم التناسل هو خير طريقة للحصول على الأفضل من الازواج والزوجات ، اذ انـه يوفر علينا الكثير من المتاعب في تعليمهم وتعليمهن . أما الحضارة التي تهمـل البيت أو تهوي به الى مكان ادنى ، فتعجز من الناحية الاخرى عن انتاج طراز جيد من الآباء والامهات والازواج والزوجات .

ويخيل الي انني تحولت هنا الى عالم بالحياة (البيولوجيا) . أجل انني حياتي ، وهو قول ينطبق على كل رجل وامرأة . وليس ثمـة من داع الى القول بان علينا ان نكون حياتيين ، لأننا حياتيون شئنا ام ابينا . وسواء احس الانسان ام لم يحس ، فان سعادته وغضبه وطموحه وتدينه وحبه للهدوء كلها من الأمور الحياتية . ونحن كمخلوقات حياتية ، لا نستطيع ان نتجاهل الحقيقة الواقعـة وهي اننـا نولد كأطفال ونرضع من اثداء امهاتنا ونتزوج ونلد اطفالاً آخرين . فكل رجل يولد من امرأة ، وكل رجل تقريباً يعيش حياته مع امرأة ويكون أبا لأولاد وبنات ، كما ان كل امرأة تولد من امرأة ، وتعيش حياتهـا مع رجل ، وتضع اولاداً وبنات . وقـــد يرفض البعض ان يكونوا آباء وامهات كالاشجار والازاهير التي ترفض انتاج البذور للابقاء على فصيلتها النباتية ، ولكن ليس في وسع أي رجل ان يرفض ان يكون له أب وأم ، تماماً كالشجرة التي لا تستطيع ان ترفض النمو من بذرة . وهكذا نصل الى الحقيقة الاساسية ، وهي ان العلاقة الأولى في الحيـاة تقوم بين الرجل والمرأة والطفل ، وان لا فلسفة للحياة يمكن ان تكون جديرة بهذا الاسم الا اذا عالجت هذه العلاقة الاساسية .

ولكن معالجة العلاقة المجردة بين الرجل والمرأة أمر لا يكفي على الاطلاق ، اذ يجب ان تسفر هذه العلاقة عن اطفال ، والا كانت ناقصة . وليس لأية حضارة

مبرر في حرمان الرجل أو المرأة من حقهما في النسل[١] . وانا اعرف ان النسل يؤلف مشكلة في هـذه الايام ، اذ ان هناك كثيرين من الرجال والنساء اليوم لا يتزوجون ، كما ان هناك آخرين يرفضون الانجاب اذا تزوجوا لسبب أو لآخر . واني لأرى انه مهما كان السبب في عدم الانجاب ، فان أي رجل او امرأة ، يفارقان العالم دون اطفال ، يجرمان في حق نفسيهما . واذا كان العقم ناتجاً عن الجسم ، فان هذا الجسم يكون منحلاً ومريضاً ، اما اذا كان ناتجاً عن ارتفـاع مستوى العيش ، فان هذا الارتفاع يكون خاطئاً ، واذا كان ناشئاً عن المغالاة في رفـع مستوى الزواج ، فـان هذا الرفع يكون خاطئاً ايضاً ، واذا كان ناشئاً عن فلسفة تفردية كاذبـة ، فان هذه الفلسفة خاطئة ، ولعل رجال القرن الحادي والعشرين ونسائه يرون هـذه الحقيقة عندما يحقق علم الحياة مزيداً من التقدم ، ويزداد تفهمهم لأنفسهم كمخلوقات حياتية . وانا اعتقد ان القرن الحالي سيكون قرن علم الحياة كما كان القرن التاسع عشر قرن علم الطبيعة المقارن . وعندما يشرع الانسان في تفهم نفسه بصورة افضل ، ويدرك تفاهة مصارعة غرائزه ، التي حبته الطبيعة بهـا ، فانه يقدر آنذاك اهمية هذه الحكمة البسيطة . ونحن نلاحظ الآن وجود علائم على المزيد من هذه الحكمة الطبية والحياتية ، عندمـا نسمع ان الطبيب النفسي السويسري جونغ ، ينصح مريضاته من النساء الثريات ، بان يعدن الى الارياف ليربين الاطفال والفراخ والجزر . ولعل مرض الثريات يتركز في انهن لا يمارسن واجباتهن الحياتية ، أو ان ممارستهن لهذه الواجبات من طراز متدن وخفيض .

---

(١) الحديث هنا عن الاطلاقية في عدم النسل لا في تحديده . ونحن نقر المؤلف بالطبع في رأيه بالنسبة الى عدم الانجاب ، أما تحديد النسل ، فيصبح ضرورة حياتية واجتماعية ، اذا كانت الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية تتطلبه ، وذلك لان الاكثار من النسل في بعض البلاد التي تضيق طاقاتها الاقتصادية عن تحمل اية زيادات هائلة في السكان ، يمثل جريمة اجتماعية ، اذ يؤدي الى هبوط معدل دخل الفرد بالنسبة الى الدخل القومي ، والى تزايد حالات الفاقة والعجز عن مواجهة متطلبات الحياة .

– المعرب –

ولم يتعلم الرجـــل منذ وعى التاريخ نفسه ، العيش مع المرأة . ومع ذلك فهناك حقيقة غريبة للغاية ، وهي ان الرجل لم يعش بدون المرأة ابداً . وليس في قدرة أي رجل ان يستخف بالمرأة في حديثه ، اذا كان يدرك ان لا رجل هناك في العالم بدون أم . فالرجل محاط بالنساء من مولده الى مماتـــه ، كالأم والزوجة والبنات ،أو كالاخت في حالة عدم الزواج كما فعل ويليام ووردسورث ، أو كالخادمة في حـــالة هربرت سبنسر .[1] وليس في امكان اية فلسفة مهما كانت رائعة ان تنقذ روحه اذا كان عاجزاً عن اقامة علاقة صحيحة مع أمه او شقيقته ، او اذا كان عاجزاً عن اقامة علاقة صحيحة حتى مع خادمته .

ويحس الرجل الذيلم يصل الى علاقة طيبة مع المرأة بشيء من الشجن ، اذ انه يعيش حياة خلقية ملتوية كتلك التي عاشها اوسكار وايلد[2] الذي ظـــل يقول ...«لا يستطيـع الرجل ان يعيش مع المرأة كما لا يستطيع العيش بدونها». ويتضح من هذا ان الحكمة الانسانية لم تتقدم خطوة واحدة بـــين كاتب القصة الهندوكية عن الخليقة قبل نحو من اربعة الآف عام وبين اوسكار وايلد اذ أنهما اعربا عن نفس الفكرة . وتقول تلك القصة ان الله عندما خلق المرأة أخذ من الأزاهير جمالها ، ومن الأمواج ضحكتها ، ومن قوس قزح الوانه ، ومن الطيور اغاريدهـــا ، ومن النسيم قبلاته ، ومن الحمل وداعته ومن الثعلب مكره ، ومن السحب مشاكستهـــا ومن زخات المطر تقلبها ، ونسجها كلها في مخلوقة انثى ، قدمهـــا الى الرجل لتكون زوجته . وسُرّ آدم الهندوكي بما اعطاه الله ، وراح

---

(١) هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) من اشهر فلاسفة انجلترا . وله عدة مؤلفات في الاشتراكية .

(٢) اوسكار وايـلد (١٨٥٦ - ١٩٠٠) - من اشهر ادباء بريطانيا . ولد في دبلين في ايرلندة ودرس في جامعة اوكسفورد حيث اعتنق مذهب الدفاع عن حقائق الحياة . الف عدداً من المسرحيات الرائعة وفي مقدمتها « مروحة الليدي وندرمير » و « امرأة غير ذات قيمة » و«الزوج المثالي » و « سالومي » . وقد ترجمت بعضها الى العربية.

المعرب

مع زوجته الجميلة يطوفان ارجاء الارض الرائعة . ولم تمضي ايام ، حتى جاء آدم الى ربه يقول ... « ابعد عني هذه المرأة ، فانا لا استطيع العيش معها » . ولبى الاله رجاء آدم فاخذ حواء منه . وأحس آدم بالوحدة والشقاء ، ومضت ايام اخرى ، وعاد الى ربه يقول ... « اعد الي حوائي فانا لا استطيع الحياة بدونها » . ولبى الاله طلبه فاعادها اليه . ولم تمضي ايام حتى عاد آدم الى ربه يقول ... « ارجو ان تأخذ حواء التي خلقتها فانا لا استطيع وحقك العيش معها » . ووافقه الله جلت حكمته على رجائه هذا . وعندما اتاه آدم المرة الرابعة ، يطلب استعادة رفيقته ، حمله الله على ان يقسم بان لا يغيّر فكره من جديد ، وان عليه ان يرضى بنصيبه معها ، حسناً كان أم سيئاً ، وان يعيش معها على الارض على أحسن ما يرام . وانا لا ارى ان الصورة قد تغيرت الآن عما كانت عليه قبل اربعة آلاف عام .

٢ – العزوبة نزوة حضارية

يعني الأخذ بوجهة النظر البسيطة والحياتية الطبيعة هذه وجود تناقضين اولهما التناقض بين التفردية والاسرة ، وثانيهما التناقض العميق بين فلسفة الادراك المجدبة والجامدة وبين فلسفة الغريزة الدافئة . فالتفردية وعبادة العقل والادراك تعميان الانسان عن جمال الحياة البيتية ، وان كنت ارى ان الأولى منهما أقل قسوة وفظاعة من الثانية . ففي امكان الرجل الذي يؤمن بالتفردية ، ويصل بها الى نتائجها المنطقية ان يكون انساناً ذكياً ، أما الرجل الذي يؤمن بالرأس الجامد البارد لا بالقلب الدافىء ، فاحمق ومجنون . وقد يجد المرء بديلاً عن جماعية الأسرة كوحدة اجتماعية ، ولكنه لا يجد بديلاً عن التزاوج وعن غريزة الأبوة والأمومة .

ولنبدأ حديثنا بالفرضية القائلة ان الانسان لا يستطيع ان يعيش وحيداً في هذا العالم وان يكون سعيداً ، بل عليه ان يشد نفسه الى مجموعة تحيط به

وتكون اكبر منه ، ولا تنحصر ذات الانسان في أبعاده البدنية ، اذ ان هناك ذاتاً له اكبر تشمل نشاطاته العقلية والاجتماعية . ومهما يكن العصر الذي يعيش فيه الانسان او البلاد التي يكون فيها أو الحكومة التي يحيا في ظلها ، فان الحياة الحقيقية التي تعني له أي شيء ، لا تكون مشتركة في ابعادها مع بلاده أو عصره ، وانما تكون في تلك الحلقة الأصغر التي تضم معارفه ونشاطاته ، والتي نطلق عليها اسم « الذات الكبرى » . فهو يعيش في هذه الوحدة الاجتماعية ويتحرك ، ويحس بوجوده . وقد تكون هذه الوحدة ، ابرشية كنسية او مدرسة او سجناً ، او شركة تجارية ، او جمعية سرية او منظمة خيرية . وقد تحل هذه الوحدة محل البيت كوحدة اجتماعية ، بل انها تحل محلها كلياً احياناً . وقد يستنفذ الدين الذي ينتمي اليه الانسان ، أو الحركة السياسية الكبرى التي ينطوي تحت لوائها ، وجوده كله . ولكن البيت وحده يظل بين هذه الوحدات كلها ، الشيء الحقيقي والطبيعي والحياتي ، والوحدة المرضية وذات المعنى لوجودنا . وتمثل الطبيعية في البيت ، في ان كل انسان يجد نفسه في بيت ما عندما يولد ، ولأنه يظل فيه طيلة حياته ، كما يمثل الواقع الحياتي فيه لان العلاقة في الدم تضفي فكرة « الذات الكبرى » على هذا الواقع الملموس . ولا يمكن للانسان الذي لا يحقق نجاحاً في هذه الحياة المجموعية الطبيعية ، ان يحقق أي نجاح في حياته مع مجموعات اخرى . ويقول كونفوشيوس ... « يجب على الفتيان ان يتعلموا البر في بيوتهم ، والاحترام في مجتمعهم ، وعليهم ان يكونوا ذوي ضمير وشرفاء ، وان يحبوا جميع الناس ، وان يتصلوا بالمهذبين من السادة . واذا ظلت لديهم بقية من حيوية بعد اداء هذه المهام كلها ، فعليهم ان يدأبوا على المطالعة » . ولا شك في ان الانسان بالاضافة الى اهمية هذه الحياة الجماعية ، يستطيع تحقيق ذاته والتعبير عنها بصورة كاملة ، والوصول الى ارفع مرتبة في تطوير شخصيته ، وذلك في الرفقة المنسجمة لشخص صالح من الجنس الآخر .

وتعرف المرأة التي تملك احساساً حياتياً اعمق من الرجل هذه الحقيقة .

فجميع فتيات الصين يحلمن دون وعي بملابس الزفاف الحمراء ، وعربة الزواج ، كما تحلم كل فتيات الغرب بثوب الزفاف واجراسه . فلقد حبت الطبيعة المرأة بغرائز الأمومة القوية التي لا تتمكن أية حضارة مصطنعة من حملها على التخلي عنها . وليس ثمة من شك لدي في ان الطبيعة نظرت الى المرأة كأم اكثر من نظرتها اليها كزوجة ، ولذا فقد حبتها بخصائص عقلية وخلقية تدفعها الى اداء دورها كأم ، وتجد التعبير الصادق عنها والتجسيد في غرائز الأمومة من واقعية وتقدير وصبر على الجزئيات وحب للصغار والعجزة ، ورغبة في العناية بانسان ، والحب الحيواني والكره العميقين ، والأهواء الشخصية والعاطفية ، والنظرة الشخصية عامة الى الامور . ولذا فان الفلسفة تضل كثيراً عندما تخرج على مفهوم الطبيعة ، وتحاول اسعاد النسوة دون أي اعتبار لغريزة الامومة عندهن مع انها المميز المسيطر عليهن ، والتعبير الاهم عن وجودهن . وهكذا لا تخمد غريزة الأمومة لا عند المتعلمات من النساء ولا عند الجاهلات منهن ، فهي تبزغ مع الطفلة عند ولادتها ، ثم تنمو وتنمو عبر الصبى والشباب حتى تصل سن الرشد ، بينما لا تظهر غريزة الابوة عند الرجل الا بعد الخامسة والثلاثين أو بعد ان يكون قد انجب طفلاً بلغ الخامسة من عمره . ويخيّل الي ان ليس ثمة رجل في الخامسة والعشرين من عمره ، يفكر بأن يصبح اباً . وكل ما يحدث انه يعشق امرأة ، فتحمل منه طفلاً ، ثم ينسى كل شيء عنه ، بينما تتركز افكار زوجته كلها بما تحمل في احشائها ، الى ان يكون قد غدا في العقد الرابع من عمره ، فيتذكر بأن له طفلاً او طفلة يستطيع ان يأخذه أو يأخذها معه الى السوق ، ليزهو بما انجب امام اصدقائه ، وآنذاك يحس بالابوة . وقد لا يفرح الا القلة من الرجال في سن العشرين او الخامسة والعشرين بأن يصبحوا من الاباء ، وهم لا يأبهون بذلك مطلقاً ايضاً ، بينما تؤلف الأمومة او توقعها عند المرأة ، اهم شيء في حياتها ، وتمثل تحولاً في وجودها كله يؤدي الى تغيير في طبيعتها وعاداتها . ولا شك في ان العالم يصبح مختلفاً كل الاختلاف عند المرأة التي تغدو حاملاً . فهي لا تشك منذ تلك اللحظة في رسالتها في الحياة أو في الهدف من وجودها .

فهي تحس بأن هناك من يريدها ويحتاج اليها ، وان عليها والحالة هذه ان تعمل . ولقد شهدت فتاة صينية كانت الابنة المدللة واللعوب لاسرة ثرية ، تتحول الى انسانة بطلة ، تأرق الاشهر الطوال سهراً على طفلها المريض . ولا حـــاجة في تركيب الطبيعة الى وجود مثل هذه الغرائز عند الرجل ، ولذا فهي لا توجد ، اذ ان الرجل لا يمثـل في هذا الصدد اكثر من دور ذكر البط أو الاوز الذي لا يهتم بذريته بعد أداء دوره في عملية النسل . ولذا فـــان النساء يعانين الكثير نفسياً عندما لا يكون ثمة تعبير واضح عن هذه القوة الحافزة المهمة ، أو عندما لا تعمل عملاً صريحاً . ولست في حـــاجة الى من يحدثني عن لطف الحضارة الامريكية مع النساء . اذا كانت هذه الحضارة تسمح لعـــدد كبير من النسوة الجميلات ، بالبقاء دون زواج ، دون أية علة او سبب .

وليس ثمة من شك في ان ما يبرز من سوء استجابة في الزيجات الامريكية انما يعود الى هذا التباين بين غريزة الامومة عند النساء ، وغريزة الابوة عنـــد الرجال . ولا يمكن تفسير الظاهرة المسماة «بالمراهقة العاطفية » عند شبان امريكا الا في ضوء هذه الحقيقية الحياتية . فهؤلاء الشبان ينشأون في ظل نظام اجتماعي يدعو الى الافراط في الشباب ، ولا يملك الكابـح الطبيعي للتفكـير المسؤول ، الذي تتميز به الفتيات نتيجة غريزة الأمومة القويـة لديهن . ولا ريب في انـه كان من المفجع لو أن الطبيعة لم تحب النسوة بالكثير من الاتزان الكافي عندمـا تصبحن من الناحية الفيزيولوجية قادرات على ان يتحولن الى امهـات . ولكن الطبيعة تحبوهن بهذا الاتزان . وتدفع الظروف القاسية التي يعيشها ابناء الأسر الفقيرة هؤلاء الشبان الىالتفكير الجاد الذي يصبح متأصلاً في نفوسهم ، ويخلفون بذلك ابناء الاسر الثرية المترفة ، يفرطون في شبابهم في شعب يعبـــد الشباب ويفرط فيـه ، ممـــا يؤدي الى وضع نموذجي في تطوير العيوب الاجتماعيـــة والعاطفية .

ونحن لا يعنينا هنا على أي حال سوى موضوع الطريقة التي تحقق بها الحياة

السعيدة ، ولا يمكن لأية حياة ان تغـدو سعيدة الا اذا تجـاوزت المتحققات المصطنعة للحياة الخارجيـة . ووصلت الى الينابيـع العميقة لشخصيـة الفتى او الفتاة لتجد لها متنفساً ومنطلقاً . ولا تحمل العزوبة كهدف في شكل « حيـاة شخصية » مجرد طابع تفردي . وانما تحمل ايضاً لوثة ادراكية حمقاء لا بـد من ادانتها والحكم عليها . واني لأشك دائماً في ذلك الرجل العازب أو الفتاة العانس اللذين يؤثران البقاء بلا زواج تحت ستـار انشغالهما بالأمور الفكرية والمنجزات الخارجية ، اعتقاداً منهما بأن في امكانهما العثور على السعادة في بديل فعـال عن الحياة البيتية أو في العثور على اهتمامات فكرية او فنية او مهنيـة ترضيهما ، واعتقد انهما في الواقع يفتقران الى الادراك السليم .

فليس في امكانهما ان يحققا ذلك . ولقد كنت ارى شيئاً من المهزلة في هذه الصورة التفردية لأناس لا يتزوجون ولا ينجبون اطفالاً ، ويحاولون الحصول على بديل عن الحياة الكاملة والمرضية في تصرفات خاصة ، بينهـا الرفق بالحيوان . وتظهر هذه الظاهرة النفسية بوضوح في حالة العوانس الطاعنات في السن اللائي يحدثن مدير « سيرك » عن المعاملة الفظة التي تصدر عن رجاله لبعض الحيوانات وبينها النمور . ولا شك في أن احتجاجاتهن تنبع من غريزة الأمومة التي يساء وصفها ، وتطبق بالنسبة الى نوع حيواني آخر . ولا شك في ان مثل هاته النسوة يبحثن عن مكان لهن في الحياة ، ويحاولن محاولة قاسية ان يكون هذا المكان مرضياً لهن وللآخرين .

ويجد اصحاب المنجزات السياسية والادبية والفنية الجزاء الفكري الشاحب عمّا حققوه ، بينما يجد الآباء والامهات الذين يشهدون ابناءهم وقد شبوا ، واشتد عودهم ، جزاء واقعياً لا يمكن ان يوصف . فهناك كثيرون من الادباء والفنانين يحسون بالرضى على مـا حققوه في حياتهم عندمـا يبلغون سن الشيخوخة بينـما هناك آخرون يرون في منجزاتهم مجرد ثمرات لاوقات فراغهم ، لا تبررهـا الا رغبتهم في اكتساب رزقهم . ويقال ان هربرت سبنسر ، وضع قبيل وفـاتـه

بأيام قليـلة ، الثمانية عشر مجلداً من كتابـه « الفلسفة التركيبية » في حضنه ، وعندما أحس بثقلها راح يتساءل عمّا اذا لم يكن من الخير له ، لو انـه انجب حفيداً يضعه في حضنه بدلها . أوَ لم يكن النبي ايليا يؤثر ان ينتج طفلاً بدلاً من اسفاره التي وضعها ؟ وقد يكون الاصطناع في كل شيء سيئاً ، كالسكر الصناعي أو القطن الصناعي أو السمن الصناعي ، ولكن الاولاد الصناعيين أي بالتبني هم أسوأ شيء. وليس ثمة من شك في ان روكفلر حقق لنفسه بعض الرضى المعنوي والجمالي عن طريق اسهامه في المشاريع الخيرية ، لكن هذا الرضى لا يقـاس بشيء عندمـا يقارن بالألم الذي لحق به عندمـا اصيب ولده في ملعب الجولف .

واذا نظر المرء الى الموضوع من زاوية اخرى ، تبيّن له ان السعـادة هي في الواقع قضية العثور على عمل للحياة ، على ان يكون هذا العمل من النوع الذي يحبه الانسان . واني لأتساءل اذا كان تسعون في المائة من الرجال والنساء العاملين في أية مهنة قد وجدوا العمل الذي يحبونه . واني لأرى ان ادعاء الانسان بأنه « يحب عمله » يجب ان لا يحمل على محمل التصديق دائماً. فالانسان لا يقول أنه يحب بيته ، لأن حبه لبيته حقيقة مسلم بها . ولا شك في أن معظم رجال الأعمال يذهبون الى مكاتبهم وقد حملوا نفس المزاج الذي تحمـله المـرأة الصينية عندما تلد اذ تقول ... « ان كل امرأة تلد ، فهل استطيع ان افعـل شيئاً آخر؟». وهكذا يقول كل انسان... «أنا أحب عملي» . ولكن هذا القول أكذوبة عندما يصدر عن عمال المصاعد أو عاملات التليفون أو أطباء الأسنان ، وينطوي على الكثير من المبالغة عندما يصدر عن المحررين ، وسماسرة العقارات والبورصة . ولعل الارتياح الى العمل لاحبـه ، هو الأصدق بالنسبـة الى معظم الناس باستثناء اولئك الذين يعملون في اكتشاف القطب الشمالي أو العلماء الذين يعملون في الكشف عن الحقائق العلمية في مختبراتهم . ولكن حتى لو تجاوزنا عن هذه المبالغات فليس ثمة مجال للمقارنة بين حب الانسان لعمله وحب الأم لأطفالها. فهناك كثيرون يتشككون في المهن التي يزاولونها ، ولذا ينتقلون من مهنة

الى اخرى ، ولكن الأم لا تتشكك مطلقاً بعملها الذي تكرس له حياتها وهو العناية بصغارها ورعايتهم . وكثيراً ما رأينا ساسة ناجحين يتخلون عن السياسة وصحفيين ناجحين ، يتخلون عن عملهم في الصحف ، وطيارين ناجحين يهجرون الطيران ، وملاكمين بارعين يتركون الحلبة ، وممثلين وممثلات يهجرون المسرح ، ولكننا لا نجد أماً واحـــدة سواء أكانت ناجحة ام غير ناجحة تتخلى عـــن أمومتها . انه امر لا يمكن ان يصدق . فالأم تحس بأن هناك من يريدها ، وان لها مكانها في الحياة ، وهي تؤمن ايماناً عميقاً بأن ليس ثمة من يستطيع ان يحـــل محلها ، اذ ان ايمانها هذا اعمق من ايمان هتلر بقدرته على انقاذ المانيا . وهـــل هناك ما هو ادعى للسعـــادة الحقة العظيمة من ان يعرف الانسان ، سواء أكان رجلاً أو امرأة . ان له مكاناً محدداً في الحياة ؟ أوليس من المنطق القول بانـــه بالرغم من ان اقل من خمسة في المائـــة من الناس يسعدهم حظهم بان يجدوا العمل الذي يحبونه ، فان مائة في المائة من الاباء والامهـــات يجدون العمل في العناية باطفالهم ، وهو عمل يمثل اعمق حوافزهم في هذه الدنيـــا ؟ أو ليس من الصحيح والحالة هذه القول بان فرص المرأة في العثور على السعادة الحقة ، اكثر في ادائها دور الأم منها في اداء دور المهندسة ؟ أوليس من الصحيح القول بأن الزواج هو خير مهنة للمرأة ؟ .

ولست اشك في ان المدافعات عن حقوق المرأة ، قد احسسن بكل مـــا قـــلت ، وقد شرعن في الاستشاطـــة غضباً من جراء هذه الحمـــاسة التي ابديها في الدفاع عن البيت . لا سيما وان من واجب النسوة انفسهن ان يحملن في النهاية رايات هذا الدفاع . أجل، ان هذه هي النظرية التي ادعو اليها . وهنا لا بد من ان نتساءل ، من اكثر عطفاً على المرأة ، انا أم المدافعات عن حقوقهـــا ، طالما ان القضية هي تأمين السعادة للمرأة ، لا على صعيد المنجزات الاجتماعية بل على صعيد اعماق الوجود الشخصي ؟ . ولو نظرنا الي الموضوع ، من زاوية الكفاية والصلاح ، فان عدد الرجال الذين يصلحون لإدارة اعمال البنوك اقل بكثير من

عدد النساء اللائي يصلحن لأدوار الامومة . وهناك عدد كبير من مديري الدوائر الذين لا يصلحون للعمل ، ومن المديرين والمصرفيين والرؤساء غير الاكفياء . ولكن يندر ان تكون هناك امهات لا يصلحن لأداء دور الأمومة . وهكذا نجد النسوة يصلحن للأمومة ويرغبن فيها ويعملنها . وعرفت ان هناك تحولاً في الاتجاه الصحيح عند الفتيات الجامعيات الامريكيات بعيداً عن مثل المناداة بحقوق المرأة ، وان غالبيتهن بتن ينظرن الحياة بتعقل اليوم ، بحيث يقلن جهاراً انهن يردن الزواج . ولا شك في ان المرأة النموذجية في نظري هي تلك التي تحب ادوات زينتها بقدر ما تحب دروسها الرياضية ، وتهتم بانوثتها اكثر مما تهتم بحقوقها النسوية . فلتكن للمرأة ادوات زينتها ، واذا ظلت لها بعد ذلك بعض الحيوية كما يقول كونفوشيوس ، ففي وسعها ان تهتم برياضياتها ايضاً .

وعلى القارىء ان يفهم اننا نتحدث عن النموذج العادي للرجل والمرأة عامة . فهناك نساء موهوبات وبارزات كما ان هناك موهوبين وبارزين من الرجال ، ولا شك في ان الطاقات الخلاقة لهؤلاء الموهوبين والموهوبات هي التي تحقق التقدم الحقيقي في العالم . واذا كنت اطلب من المرأة العادية ان تعتبر الزواج مهنتها المثالية وان تنجب الاطفال وتغسل الاطباق ، فإنني اطلب من الرجل العادي ان ينسى الفنون وان يكتفي بكسب قوت اسرته ، اما بحلاقة الشعر او مسح الاحذية او القبض على اللصوص أو الخدمة في المطاعم . ولما كان لا بد من وجود من يعنى بالاطفال وتربيتهم ، ورعايتهم عندما يصابون بالحصبة ، وتنشئتهم ليصبحوا مواطنين صالحين وحكماء ، ولما كان الرجال عاجزين تماماً عن حمل الاطفال ولا يصلحون للعناية بهم بعد ولادتهم ، فانني اتوقع من النساء ان يؤدين هذا الواجب بالطبع . ولست واثقاً من تفضيل أي العملين على الآخر بالنسبة الى الرجل العادي والمرأة العادية ، أهو تنشئة الاطفال ، أو حلاقة شعر الناس أو مسح احذيتهم ، او الخدمة في الحوانيت . ولست ارى سبباً يدعو النسوة الى الشكوى من غسل الاطباق اذا كان يتحتم على ازواجهن ان يخدموا في الحوانيت . وكان الرجال قد الفوا الوقوف وراء ارفف البضائع

في الحوانيت لبيع السلع ، فتدفقت النسوة يحللن محلهم في هذا العمل ، وعهد الى الرجال بفتح الابواب والترحيب بالزبائن ظناً منهم بأن عملهم الجديد ارفع من العمل السابق . واذا ما اعتبرنا العمل وسيلة للعيش ، فليس ثمة من عمل رفيع وآخر وضيع . ولست اظن ان حارسة قبعات الرجال اكثر رومانطيقية من اصلاح جوارب الزوج . والفرق بين حارسة القبعات ، وراتقة جوارب الزوج ، ان الثانية تملك رجلاً مسؤولة هي عن مصيره ومن حقها ان تهتم به ، بينما لاتملك الثانية مثل هذا الرجل . وكل ما يؤمل هو ان يكون صاحب الجوارب جديراً بتعب زوجته ، وان لا يعتبر رتق الجوارب عملاً لا يتناسب مع كرامتها . فليس كل الرجال متساوين في الجدارة والاستحقاق . ولعل النقطة المهمة الوحيدة هي ان الافتراض العام بان الحياة المنزلية ، بما لها من مهام مقدسة وحيوية من انجاب صغار الجنس الانساني وتوجيههم ، هي احقر من ان تهتم بها المرأة ،لا يعتبر موقفاً اجتماعياً سليماً وعاقلاً ، ولا يمكن وجود مثل هذا الافتراض الا في حضارة لا احترام فيها لا للمرأة ولا للبيت ولا للأمومة .

٣ – نداء الجنس

يخيل الي ان المرأة لم تعط حقها في هذه الصورة من الشعارات المطالبة لها بالمزيد من الحقوق والامتيازات الاجتماعية حتى في امريكا نفسها . وكل ما ارجوه ان لا يكون لوهمي نصيب من الصحة ، وان تكون شهامة الرجل ، لم تنقص مع هذه الزيادة في حقوق المرأة.فانا لست ارى توافقاً حتمياً بين الامرين ، أي شهامة الرجل في احترام المرأة ، والسماح لها بانفاق المال ، والذهاب حيث تشاء ، والوصول الى المراكز الادارية الكبيرة وممارسة حق الاقتراع . ويبدو لي كمواطن من العالم القديم يحمل وجهات نظره ، ان هناك اموراً مهمة وأخرى غير مهمة ،وان نساء أمريكا سبقن اخواتهن في العالم القديم في القضايا غير

المهمة ، بينما بقين معهن في نفس الوضع بالنسبة الى القضايا المهمة . وعلى أي حال ، فليس ثمة مظاهر على وجود مزيد من الشهامة في امريكا على تلك الموجودة في اوروبا . وما زالت السلطة الفعلية التي تمارسها المرأة الامريكية مستمدة من البيت وهو مملكتها التقليدية القديمة ، اذ انه العرش الذي ترتقيه كالملاك الحارس له . ولقد رأيت مثل هذه الملائكة ولكن في البيوت الخاصة حيث تعمل النسوة في مطابخهن او باحات منازلهن . سيدات لبيوتهن التي تكرسنها للحب العائلي . وهي هناك أي في البيت تشع دائماً وهو أمر لا يمكن للمرء ان يتصوره في المكتب الذي تعمل فيه .

ترى أهذه الصورة من بنات خيالي ، أم انها نابعة من ان المرأة في ملابسها الشفافة الناعمة اجمل منها في ملابس العمل ؟ يبدو ان لباب الموضوع ، يقوم في الحقيقة الواقعة وهي أن المرأة في البيت كالسمكة في الماء. وعندما يتطلع الرجل الى المرأة في ملابس العمل في المكتب، يراها مجرد زميلة له ، من حقه ان يوجه اليها النقد ، اما عندما يتطلع اليها في البيت تتمايل بملابسها الشفافة من « الجورجيت » او « الحرير » ، بعد خروجه من عمله في مكتبه ، فإنه لا يفكر في منافستها ، وانما يكتفي بالجلوس متطلعاً الى مفاتنها ، متقطع الانفاس لاهثاً . فعندما تخضع المرأة في المكتب لأنظمة العمل ، تكون اكثر انضباطاً من الرجل ، وتؤدي اعمالها الروتينية بدقة اكثر من الرجل . ولكن عندما يتبدل جو المكتب ، كأن يلتقي موظفو المكتب وموظفاته في حفلة عرس ، فان المرأة تعود الى طبيعتها فوراً ، وتمضي في نصيحة زملائها او رؤسائها من الرجال ، بأن يحلقوا شعورهم ، او يستعملوا رائحة عطرية افضل . فالمرأة تتحدث في المكتب بدماثة ولطف . بينما تتحدث في خارجه بسلطة وأمر .

ولو شئنا الصراحة في القول ، لقلنا ان ظهور المرأة في الحياة العامة اضاف الكثير الى سحر الحياة ولطائفها سواء في المكتب أو في الشارع لمصلحة الرجل . وباتت الاصوات في المكاتب انعم ، والالوان ازهى ، والمكاتب

انظف واكثر ترتيباً . ويبدو لي ان ما وفرته الطبيعة من جاذبية جنسية لم يتغير ولم ينتقص ، وان الرجال في امريكا اسعد من غيرهم لأن المرأة الامريكية اخذت تضاعف من جهودها لارضاء الرجل ، اكثر من المرأة الصينية مثلاً في موضوع النداء الجنسي . ولعل الاستنتاج الذي اصل اليه هو ان الناس في الغرب يفكرون كثيراً في الجنس وقليلاً في المرأة .

وتقضي النساء الغربيات في تضفيف شعرهن وقتاً لا يقصر عما كانت تقضيه نساء الصين في مثل هذا العمل . فهن يكثرن من الاهتمام بزينتهن جهاراً وعلانية وبصورة مستمرة ، ويمارسن الحمية والتمرينات الرياضية والتدليك ويقرأن الاعلانات الكثيرة للابقاء على رشاقتهن ، ويرفعن ارجلهن ويخفضنها وهن في اسرتهن للمحافظة على خصورهن الناحلة ، ويقفن امام المرايا ، ويصبغن شعورهن حتى ولو كن في سن لا تحلم فيه المرأة الصينية بأن تفعل شيئاً من هذا الطراز . وهن ينفقن اكثر من الصينيات على الروائح العطرية ، وادوات الزينة والتجميل والمساحيق والكريمات المختلفة الاشكال ، ولعل السبب في هذا ان نساء امريكا يملكن المزيد من الوقت والمزيد من المال ليفعلن كل هذا . ومن المحتمل انهن يلبسن ملابسهن لارضاء الرجال ، ويخلعنها لارضاء انفسهن أو العكس بالعكس او لتحقيق الغايتين معاً . ولعل السبب هو ان المرأة الصينية لا تجد في متناول يديها ما يتوافر للمرأة الامريكية من ادوات الزينة ، اذ انني لا افرق بين الاجناس البشرية في موضوع رغبة المرأة في اجتذاب اهتمام الرجل . وكانت النساء الصينيات يحاولن قصارى جهدهن لإرضاء الرجال عن طريق حبس اقدامهن في احذية ضيقة ، قبل نصف قرن من الزمان ، أما الآن فقد حررن اقدامهن وأخذن ينتعلن الاحذية العالية الكعوب . وانا لا اميل عادة الى النبوءات ، ولكن في وسعي ان اؤكد عن ايمان بان المرأة الصينية ستقوم في المستقبل القريب برياضتها الصباحية لإرضاء زوجها أو نفسها . ومع ذلك فهناك حقيقة واضحة وهي ان نساء امريكا في الوقت الحاضر ، يحاولن قصارى جهودهن ارضاء الرجال عن طريق المزيد من التفكير في محاسنهن البدنية التي

تستثير الجنس . وفي ملابسهن التي تعزز هـــذه الاستثارة . وهناك نتيجة ثانية وهي ان النسوة ككل ، كما يظهرن في الشوارع والحدائق ، بتن ارشق قوامـاً واحسن هنداماً ، بفضل الجهود اليومية التي يبذلنها للابقاء على رشاقة اجسامهن ، مما يزيد الرجل سروراً . ولكنـني لا شك مقدر لما في ذلك من تأثـــير على اعصابهن . وعندما اتحدث عن نداء الجنس فانا اقارنه بنداء الأمومة ، أو نداء الانوثة . واني لعلى يقين من ان هذه الصورة للحضارة الحديثة قد تركت اثرها على الحب الحديث والزواج .

ودفع الفن الرجل المعاصر الى الوعي الجنسي . وليس لدي شك في هـــذه الحقيقة ، وفي ان الوعي نشأ أولاً عن الفن وثانياً عن الاستغلال التجاري لجسد المرأة حتى كل تعريج من تعاريجه ، وكل عضلة من عضـلاته ، بل وكل اظفر من اظافره المدهونة باللون الاحمر . ولم يسبق ان شهد التاريخ مثل هذا الاستغلال التجاري الكامل لكـل جزء من جسد المرأة ، ومن العسير علي ان افهم كيف تستكين نساء امريكا بمثل هذا اللطف لهذا الاستغـلال الذي تتعرض له اجسادهن . ومن العسير على الشرقي ان يعتبر هذا الاستغـــلال التجاري لجسد المرأة ، دليلاً على احترامها . ويطلق الفنانون على هذا الاستغلال اسم الجمـــال ، ويطلق عليه مرتادو المسارح اسم الفن ، بينما يطـلق عليـــه مديرو المسارح والمخرجون ، وهم صادقون ، اسم نداء الجنس . أما الرجال العامة ، فيجدون فيه وسيلة لقضاء وقت طيب . ولا ريب في ان المجتمع الذي خلقه الرجـــل والذي يتحكم فيـــه ، هو الذي عرّى المرأة ليستغل جسدها تجارياً ، بينما لا يستغل جسد الرجل الا في بعض الحركات الرياضية البلهوانية . ويرى الانسان المرأة على المسرح وهي شبه عارية . بينما يرى الرجال ما زالوا يرتـدون الملابس السوداء الرسمية . ولو كانت المرأة هي التي تحكم المجتمع ، لرأى الانسان عكس ذلك . وابصر بالرجال نصف عراة ، وبالنسوة في كامل ثيابهن . ويـــدرس الفنانون تركيب اجسام الرجال والنساء على حد سواء . ولكنهم يجـــدون من العسير عليهم الافـــادة تجارياً من جمال جسم الرجل . وينزع المسرح الثياب

ليثير الشهوات ، ولكنه ينزع عادة ثياب النساء ليثير شهوات الرجال . ولا ينزع ثياب الرجال ليثير شهوات النساء . وقد يحاول مخرجو المسرحيات الرفيعة ان يجمعوا بين الفن والاخلاق في مسرحياتهم ولكنهم يجعلون من النساء مصدر الفن ، ومن الرجال مصدر الاخلاق ، ولا يعملون العكس مطلقاً . وتلتقط الاعلانات التجارية الفكرة ، وتخرجها في صور متباينة لا عد لها ولا حصر ، ولذا فكل ما يحتاج اليه الرجل اليوم عندما يريد ان يكون « فنياً » ، هو ان يأخذ نسخة من مجلة ، ليطالع فيها قسم الاعلانات . وتكون النتيجة ان النساء انفسهم يتأثرن بالغ التأثر بواجب التحول الى الصورة الفنية ، فيقبلن الفكرة بصورة لا واعية ، ويجوّعن انفسهن ، ويخضعن لأقسى صور التدليك والحركات الرياضية ليبقين على رشاقة ابدانهن ، وليسهمن في خلق عالم اجمل . وتميل معظم النسوة الى الاعتقاد بأن السبيل الأمثل للفوز بالرجل والاحتفاظ به ، يكون عن طريق استهوائه جنسياً .

واني لأرى ان هذا الافراط في التأكيد على نداء الجنس ينطوي على نظرة مراهقة وغير صحيحة الى طبيعة المرأة ، مما يؤدي الى نتائج معينة تلحق بطبيعة الحب والزواج ، وتجعل مفهومها كاذباً أو ناقصاً . وهكذا تصبح المرأة كمجرد احتمال للزواج اكثر منها كروح مسيطرة على البيت . فالمرأة هي الزوجة والأم في آن واحد، ولكن مع التأكيد على الجنس على هذا النحو ، تحل المرأة كزوجة محلها كأم ، بينما لا يمكن للمرأة ان تصل الى اسمى اوضاعها الا كأم ، والزوجة التي ترفض باختيارها ان تصبح أماً ، تفقد على الفور قدراً كبيراً من كرامتها ، وجديتها ، وتصبح في خطر التحول الى مجرد لعبة او دمية . فأية زوجة لا اولاد لها هي مجرد عشيقة ، كما ان العشيقة التي تنجب تصبح زوجة في نظري ، مهما كان الوضع الشرعي للزوجة والعشيقة . فالاطفال يرفعون من قدر العشيقة وقداستها ، بينما يحط الافتقار اليهم من قدر الزوجة . فمن البدهيات في علم الجدل ان هناك كثيرات من النساء العصريات يرفضن الحمل والولادة لأنهن يخشين من ان يؤدي الحمل الى تشويه قاماتهن .

ولغريزة الحب اسهامها الصحيح في اثراء الحياة وانجاحها ، ولكننا اذا ما افرطنا فيها تحولت الى عبء يثقل المرأة نفسها . فالجهد في الابقاء على نداء الجنس يقع حتماً على المرأة ويثقل اعصابها ، بينما يظل الرجل مرتاحاً . يضاف الى هذا ان هذا الوضع مجحف وغير عادل ، فان اشتراط الجمال والشباب كأساس للحب ، يدفع النسوة في اوسط العمر الى مهمة شاقة وهي محاربة الشعيرات البيضاء التي تظهر في رؤوسهن ، ومقارعة عامل الزمن . وقد حذرنا شاعر صيني من ان نبع الشباب ليس الا مهزلة او اضحوكة ، فليس في امكان احد ان يشد الشمس بحبل ليمنعها من حركتها وسيرها . وهكذا تغدو الجهود التي تبذلها المرأة النصف للابقاء على نداء الجنس عندها ، مجرد سباق مجهد مع الزمن ، لا معنى له ، ولا منطق فيه . فخفة الروح وحدها هي التي تستطيع انقاذ الوضع . واذا لم تكن ثمة جدوى في شن معركة يائسة ضد الشيخوخة والمشيب ، فلم لا نعتبر المشيب مصدر جمال ؟ هذا ما يقوله شوتو ...

« طلعت مئات الشعرات البيض في مفرقي ...
واذا ما حاولت اقتلاعها ، طلعت المئات بدلاً منها ...
فلم لا اتوقف عن اقتلاعها ، واتركها حرة في رأسي ...
اذ لا وقت لدينا لمحاربة هذا الخيط الفضي » .

ولا شك في ان الموضوع كله مخالف للطبيعة والعدل . انه مخالف للعدل بالنسبة الى الامهات والنساء الطاعنات في السن ، اذ كما يضطر بطل الملاكمة للوزن الثقيل الى التخلي عن لقبه امام متحد اصغر منه سناً ، وكما يضطر الجواد الفائز دائماً بعد مرور بضع سنوات الى اخلاء مكانة لجواد صغير جديد ، فان المعركة التي تخوضها النساء الكبيرات في السن ضد الفتيات الشابات معركة خاسرة ، لا سيما وان المعركة تدور بين بنات جنس واحد . ومن الحمق والخطورة بل واليأس ، ان تنافس المرأة النصف ، الفتاة اليافعة في ميدان استهواء الجنس . وهناك ناحية اخرى تدعو الى الحمق ، اذ ان في المرأة شيئاً اكثر من الجنس .

وبالرغم من ان الخطوبة والصحبة تعتمدان الى حد كبير على الجاذبية الجنسية ، الا ان الناضجين من الرجال ، يستهويهم نضوج المرأة قبل جمالها .

ونحن نعرف ان الرجل هو اكثر المخلوقات حباً في مملكة الحيوان. وبالاضافة الى غريزة الحب الجنسي هذه، فهناك غريزة اخرى لا تقل قوة عند الرجل وهي غريزة الابوة التي تنتج الحياة العائلية الانسانية . ونحن نشترك مع معظم الحيوانات في غريزتي الحب الجنسي والابوة، ولكن بداية الحياة العائلية الانسانية ، وجدت منذ ايام الانسان الاول . ولكن هناك خطراً في ان تتغلب غريزة الحب الجنسي على غريزة تكوين الاسرة في حضارة مغرقة في تفلسفها ، تحيط الرجل دائماً بالحوافز الجنسية في ما يراه من فن وافلام سينمائية ومسرحيات . ويمكن نسيان غريزة العائلة في مثل هذه الحضارة بسهولة ، لا سيما اذا صحبت هذه الغريزة بتيارات من الافكار التفردية . وتكون النظرة الى الزواج في مثل هذا المجتمع غريبة للغاية فهو عملية تقبيل مستمرة ، تنتهي عادة باجراس حفلة الزواج ، وتصبح النظرة الى المرأة على انها مجرد زوجة لا أم . وتصبح المرأة النموذجية في مثل هذا المجتمع ، فتاة شابة متناسقة الاعضاء، ذات سحر وجاذبية . بينما لا ارى الجمال في المرأة الا عندما تقف الى جانب مهد طفلها ، ولا ارى فيها صورة للكرامة والنبل ، الا عندما تضم رضيعها الى ثديها ، أو تقود طفلها من يده ، ولا تجسيداً للسعادة الا كالصورة التي رأيتها ، تمثل امرأة مستلقية على وسادتها تداعب رضيعها . وقد اكون مصاباً بعقدة الأمومة ، ولكن لا بأس ولا ضير في ذلك لان العقد النفسية لا تلحق اذى بالانسان الصيني . واني لارى في مختلف العقد ، كتلك التى تمثل بين الاب وابنته أو الأم وولدها ، شيئاً مضحكاً ، وغير مقنع . واني لاعلن ان نظرتي الى المرأة ليست مستمدة من عقدة الأمومة ، بل من تأثري بمثل الصينيين في بناء الاسرة .

٤ – مثل الصينيين في بناء الاسرة

اعتقد ان الضرورة تقضي باعادة كتابة سفر الخليقة من جديد . ففي القصة الصينية « حلم الغرفة الحمراء » نجد بطل القصة ، وهو صبي عاطفي مخنث ، مشغوفاً للغاية برفقة الاناث ، ويعجب ببنات عمه الجميلات . ويأسف لأنه قد خلق ذكراً فيقول ... « خلقت المرأة من الماء ، وخلق الرجل من الطين » . ولعل السبب في ذلك انه يعتقد ان بنات عمه حلوات وطاهرات وذكيات ، وانه ورفاقه من الفتيان ، بشعون ، مبلبلو الفكر ، سريعو الغضب . ولو ان كاتب سفر الخليقة كان من هذا الطراز ، وكان يعرف ما الذي يقوله ، لكتب قصته بصورة مغايرة تماماً . فقد حمل الله ، كومة من الطين وصاغها في صورة انسان ، ثم نفخ في منخرهـا ، فاخرج آدم الى الوجود . ولكن آدم سرعان ما بدأ يتحطم ويتمزق الى مزق ، ولذا أخذ الله قليلاً من الماء وخلط به الطين ، واطلق على هذا الماء اسم حواء ، وبذلك كملت حياة آدم . ويبدو لي ان هذه الفكرة توحي بصورة رمزية لاهمية الزواج . فالمرأة هي المـاء ، والرجل هو الطين ، والماء هو الذي يبقي على الطين ، والطين هو الذي يمسك الماء ويضفي عليه الوجود المادي الذي يتحرك فيه الماء ويعيش ويجسد وجوده كله .

وكانت السيدة كوان الرسامة والاستاذة في البلاط الامبراطوري ، وزوجة الرسام العظيم في يوان شاو مينجغو ، قد عبرت عن قصة الطين والماء في الزواج الانساني منذ عهد بعيد . فعند ما بدأت حماسة شاو تفتر نحوها ، او عندما بدأ يفكر باتخـاذ عشيقة له ، كتبت السيدة كوان القصيدة التالية التي مست بها عواطفه ، فحملته على ان يغير فكره ...

بيني وبينك ...
الكثير من العواطف المتبادلة .
ولعل هذا هو السبب في الاضطراب الراهن .

خذ كومة من طين ...
واعجنها بالماء ، ثم اربت عليها
واصنع منها تمثالا لي
وتمثالا لك .
ثم خذ التمثالين وحطمها ...
واضف اليها قليلاً من الماء ...
أجل ، هشّم التمثالين واعد صياغتها
في صورة لك
وصورة لي ...
وستجد في صورتي شيئاً منك .
وفي صورتك شيئاً مني .
ولن يفصل بيننا شيء بعد ذلك .
ففي الحياة سننام في نفس السرير
وعند الممات سندفن في لحد واحد »

ومن المعروف تماماً ان المجتمع الصيني والحياة الصينية ، نظمـا على اساس النظام العائلي الذي يقرر صورة الحياة الصينية كلها ويصبغها بصباغه . فمن اين نبع هذا المثل الأعلى في الصين عن الاسرة ؟ . انـه سؤال لم يسأل قط ، لأن الصيني يعتبر الموضوع من الحقائق المسلم بهـا ، بينما لا يحس الطلاب الاجانب بقدرتهم على الخوض فيه . ويقال ان كونفوشيوس قـد أمن الاساس الفلسفي لنظام الاسرة ، وجعل منه قاعدة للحياة الاجتماعية والسياسية كلها ، بكل ما فيها من تأكيد هائل على العلاقة بين الزوجين كأساس لجميع العلاقات الانسانية ، وعلى البر بالوالدين، وعلى الزيارات السنوية لأضرحة الاجداد ، وعبادة الاسلاف، واقامة القاعة التي يذكرون فيها .

ولقد اطلق بعض الكتاب صفة الدين على عبادة الصينيين للاسلاف ، وهو

نعت صحيح الى حد كبير للغاية . لكن الناحية اللادينية فيها تبدو في استبعاد العنصر الغيبي منهـــا . فالعنصر الغيبي لا وجود له ، وفي امكان المؤمن بعبادة الاجداد ، ان يؤمن في الوقت نفسه بديانته النصرانية او البوذية او الاسلامية . وتؤمن طقوس عبادة الاجداد شكلاً من اشكال الدين ، وهذا امر طبيعي وله كل ما يبرره اذ لا بد لجميع العقائد من رمز خارجي وصورة . ولست اعتقد على أي حال ان ما يبديه الصيني من احترام للوح الخشبي المربع الذي لا يعدو طوله خمسة عشر انشاً والذي تنقش عليه اسماء الجدود ، يختلف من ناحية الدين عن استخدام صور الملوك في الطوابع البريدية الانجليزية . فالصيني ينظر من الناحية الأولى الى ارواح اسلافه ، كبشر لا كآلهة ، يجب على الاحفاد ان يخدموها كما كانوا يخدمون اصحابها في شيخوختهم . وليس ثمة ابتهال اليها لعطاء أو شفاء من مرض أو أي شكل من اشكال المساومة المألوفة بين العابد والمعبود . وليس هذا الحفل المتعبد من الناحية الثانية ، اكثر من مجرد فرصة للتذكر الورع للاسلاف الموتى في يوم يكرس لالتئام شمل الاسرة ، وتذكر ما عمله الاسلاف لافرادها من جميل . فهو في أحسن الحالات ليس اكثر من بديل سيء للاحتفال بعيد ميلاد هذا الجد أو ذاك عندما كان حيـــاً ، وان كان من الناحية الروحية لا يختلف كثيراً عن الاحتفال بعيد ميلاد أحد الوالدين أو بعيد الأم في امريكا .

ولعـل الاعتراض الوحيد الذي اثاره المبشرون المسيحيون ، والذي منعوا بموجبه الصينيين المتحولين الى المسيحية من الاشتراك في هـــذه الاحتفالات الجماعية والاعياد التي تقام لعبادة الجدود ، ينبع من ان المشتركين فيها، يركعون أمام تلك الالواح ، مما يتناقض مع الوصية الأولى من الوصايا العشر . ولكن هذا الاعتراض يعتبر دليلاً صارخاً على افتقار المبشرين المسيحيين الى الفهم الصحيح . فالركوع عند الصينيين يختلف عنه عند الغربيين ، اذ اننا نركع امام الاباطرة والقضاة ، والوالدين في رأس السنة الجديدة، ولذا فالركوع الصيني اكثر مرونة وتسامحاً ، ولا يعني ان من يقوم به قد تحول الى وثني ، لمجرد انه ركع امام لوح

صغير من الخشب . يضاف الى هذا ان نصارى الصينيين في القرى والمدن الصغيرة يجدون انفسهم مرغمين على الانعزال عن الحياة الاجتماعية ، لانهم يمنعون من الاشتراك في هذه الاعياد والاحتفالات الجماعية، أو من الاسهام مادياً في العروض المسرحية التي تقام في هذه المناسبات . وعلى هذا يجد الصينيون النصارى انفسهم منبوذين عملياً من عشيرتهم .

وليس ثمة من دليـــل في معظم الحالات على ان هذا الشعور الورع بالالتزام الباطني تجـاه الاسرة ، قد اتخذ شكل موقف ديني عميق . فنحن على علم مثلاً بقصة يين يوان الذي كان يعتبر من اكبر قادة الكونفوشيوسية في القرن السابـع عشر . اذ راح في شيخوخته يطوف ارجاء البلاد في حالة محزنة بحثاً عن شقيقه، أملاً منه بان يكون هذا الشقيق قد خلف ولداً ، يتبناه هو ، لأنه لم ينجب اطفالاً . وكان هذا الزعيم الكونفوشيوسي الذي يؤمن بالسلوك اكثر من ايمانـه بالمعرفة ، يعيش في زيشوين . وكان قد فقد اخاه منذ سنوات بعيدة . وملّ من تعليم عقائد كونفوشيوس ، وأحس ذات يوم ، بمـــا يسميه المبشرون « نداء السماء » ، يدعوه الى البحث عن اخيه الضائع . وكان الموقف يائساً في الواقع . فهو لا يعرف اين يقيم اخوه . ولا يعرف ان كان لا يزال على قيد الحياة . وكان السفر في تلك الايام عملاً ينطوي على الكثير من الاخطار ، وكانت الفوضى تعم البلاد بسبب انهيار حكم اسرة مينج . وبالرغم من كل ذلك ، فقد شرع هـــذا الرجل العجوز في رحلته الدينية حقاً،ولا وسيلة لديه للسؤال عن اخيه الا إلصاق اعلانات على بوابات المدن وفي الخانات التي يؤمها . وارتحل على هـذا النحو من غرب الصين الى الاقاليم الشمالية الشرقية قاطعـــاً نحو الف ميل ، ولم يصل الى بيت اخيـه الا بعد انقضاء سنوات طويلة من البحث اليائس ، اذ اكتشف ابن اخيه اسمه على مظلته التي تركهـــا مسندة الى جدار ، بينما كان في خلوة في مرحاض عام . ووجد العالم ان اخاه كان قد مات ، ولكنه حقق بغيته ، فقد اكتشف انه خلف ولداً ذكراً يبقى على اسم الاسرة .

ولا يعرف احد السبب الذي حمل كونفوشيوس على مثل هذا التأكيد على بر الابناء بآبائهم ، ولكن الدكتور جون سي ود ، ذكر في مقال رائع نشره في العددالأول من المجلد الأول من مجلة «تيان هسيا» عن « كونفوشيوس الحقيقي» ان السبب في ذلك هو ان كونفوشيوس نفسه لم يعرف له اباً ، ولعل السبب النفسي هنا يبدو كالسبب النفسي الذي دعا كاتب قصة « البيت ، ما اجمل البيت » الى كتابة قصته ، مع انه لم يعرف له بيتاً طيلة حياته. ولو ان والد كونفوشيوس كان حياً عندما كان طفلاً ، لما عبر عن عاطفة البر بالابوة بمثل هذا التألق الرومانسي ، ولو ان والده ظل عائشاً بعد ان كبر ، لكانت النتيجة مفجعة ايضاً بل واكثر فجيعة . ولكان في امكانه ان يرى عيوب والده وخطاياه ، وربما كان قد وجد من المتعذر عليه ان يبشر بدعوته للبر بالوالدين على النحو الذي بشر به . لكن والد كونفوشيوس مات قبل ولادته ، ولم يعرف كونفوشيوس قط اين يقوم قبره . وكانت أمه قد حملت به ليلة زفافها، ورفضت ان تعلن له اسم والده . وعندما ماتت امه ، دفنها في « طريق الآباء الخمسة » . ولكن بعد ان عرف من امرأة عجوز مكان قبر ابيه ، عمل على نقل جثماني والديه ، ودفنهما معاً في مكان آخر .

وعلينا ان نقبل بهذه النظرية الرائعة على علاتها . لكن الادب الصيني لا يفتقر على أي حال الى الكتابات عن ضرورة المثل الاعلى للأسرة . فهذا المثل يبدأ من النظرة الى الانسان لا كفرد بل كعضو في وحدة عائلية، ثم يلقى الدعم من نظرية عن الحياة اطلق عليها اسم « جدول الحياة » ، واخيراً يجد التبرير في فلسفة تعتبر تجسيد الغرائز الطبيعية للانسان الهدف النهائي للاخلاق والسياسة .

ولا ريب في ان المثل الأعلى لنظام الأسرة يتعارض تعارضاً حتمياً مع المثل الأعلى للتفردية الشخصية . فليس ثمة من انسان يستطيع على أي حال ان يحيا كفرد وحيداً، كما ان مثل هذه الفكرة عن الفرد لا وجود لها اطلاقاً . واذا كنا

نتصور فرداً ، ولا نعتبره ولداً او اخاً او اباً او صديقاً ، فمن يكون هذ الفرد اذن ؟ انه يصبح اطلاقاً غيبياً . ولما كان الصينيون يفكرون تفكيراً حياتيـاً دائماً ، فان تفكيرهم ينصب اول ما ينصب على العلاقات الحياتية البيولوجية . وتصبح الاسرة هي الوحدة الحياتية الطبيعية لوجودنا ، ويصبح الزواج نفسه موضوعاً يتعلق بالاسرة لا بالفرد .

واوضحت في كتابي السابق « شعبي وبلادي » ما في هذا النظام العائـــلي الشامل من شرور ، وقلت انه قد يتحول الى شكل من اشكال الانانية المجسمة التي تضر بالدولة . ولكن مثـل هذه الشرور كامنة في جميع النظم الانسانية ، فهي موجودة في انظمة الغرب العائلية وفي فلسفاته التفردية والقومية ، وذلك بسبب عيـوب موجودة في الطبيعة الانسانية . وكان الناس ينظرون في الصين دائماً الى الرجل على انه اعظم من الدولة واكثر اهمية منها ، ولكنهم لم ينظروا اليه قط على انه اعظم أو اكثر اهمية من الاسرة ، لانه اذا فصم عنها لم يعد له أي وجود فعلي . وتبدو عيوب القومية بوضوح ايضاً في اوروبا المعاصرة . وفي الامكان تحويل الدولة بسهولة الى شيء مرعب رهيب ، كما هي بالفعل في عدد من البلاد، اذ تبتلع حرية الفرد في الكلام، وحريته في ضميره الديني ومعتقداته، وكرامته الشخصية ، وهدفه الاخير في السعادة الانسانية . وتظهر النتائـج النظرية لهذه الجماعية في الفاشية والشيوعية ، وقد تحدث عنهـا كارل ماركس بكثـير من المنطق . فالدولة الماركسية تهدف الى ازالة غريزة الابوة والولاء البنوي ، على اعتبار انها من العواطف البورجوازية التي لا بد وان تختفي في أية بيئة مادية مختلفة .[1] ولست ادري ما الذي دعا كارل ماركس الى مثل هذه

---

(١) اعتقد ان فيما يقوله هذا الكاتب الصيني الامريكي النزعة الكثير من التجني على الحقيقة في الاتحاد السوفياتي . فالنزعة الابوية لم تختف فيه كما يزعم المؤلف ، وانما تمثل بقوة تفوق مـا تبرز فيه في كثير من الدول الغربية التي تحللت الاسرة فيها تحللاً واضحاً .

– المعرب –

الثقــة من الناحية الحياتية . وانا لا انكر انه كان في منتهى الحكمة في نظرياته الاقتصادية ، ولكنه كان متسرعاً في منطقه . فأي طالب في مدرسة يعرف بأن فترة خمسة آلاف سنة قليلة لدفن غريزة عاشت ملايين السنين، ولكن مثل هذه الفكرة، بالرغم من غرابتها تستهوي الفكر الغربي ويعتبرها منسجمة مع المنطق. ولا شك في ان مفهوم شن الانسان للحرب الطبقية اطاعة منه لقوانــين آلية معينة ، يحرم هذا الانسان من حريته الفردية في الاعتقاد والعمل . ولا شك في ان التفردية في ظل هذا النظام المتطرف تكون اقل من تلك الموجودة في ظـل نظام الاسرة .

وهكذا نجـد ان مقابل تفردية الغرب وقوميته ، هناك مثل نظام الاسرة الذي لا يعتبر الرجل فيه فرداً بل عضواً في اسرة ، وجزءاً اساسياً في الجدول الضخم للحياة العائلية . ولعل هذا هو ما عنيته بنظرية « جدول الحيــاة » . ويمكن اعتبار الحياة الانسانية في مجموعها شاملة لعدة جداول عنصرية مختلفة للحياة ، ولكن الانسان لا يحس مباشرة الا بجدول الحياة في الاسرة . ونحن نتحدث في عرف الغرب والصين على حد سواء عن « شجرة الاسرة » ، ونعتبر ان حياة كل انسان ليست الا جزءاً او فرعاً من تلك الشجرة، تنمو من جذعها، وتسهم عن طريق وجودها ، في المزيد من نموها واستمرارها . ويتضح من هذا ان الحياة الانسانية ، لا تعتبر والحالة هذه من الناحية الحتمية ، الا كاستمرار وامتداد ، يلعب فيه كل انسان دوراً أو يسجل فيه فصلاً من تاريخ الاسرة ، بمـا في ذلك الفصل من التزامات تجاه الاسرة في مجموعها ، وما يحمله من عار أو مجد لحياة الاسرة .

ولعل هذا الوعي بالأسرة وشرفها هو الشكل الوحيد من روح الفريــق أو الوعي المجموعي في الحياة الصينية . وعلى كل فرد في الاسرة ليضمن ان يلعب فريقه لعبة الحياة بشكل يضاهي او يفوق لعب الفريق الآخر ، ان يحرص كل الحرص على عدم افساد اللعبة ، وعلى عدم تثبيط عزائم فريقه عن طريق قيامه

بحركة خاطئة . وعليه ان يحاول بقدر طاقته دفــع الكرة بعيداً في الملعب . ويجلب الولد المنبوذ العار لاسرته ولنفسه ، تماماً كاللاعب في مركز الدفـــاع الذي يفرط في الكرة . اما الولد الذي يأتي في مقدمة الطلبة الناجحين في أي امتحان كان فكاللاعب الذي لا تفلت الكرة منه . ويكون المجد له ولاسرته في الوقت نفسه . ولا شك في ان افراد الاسرة جميعاً، بل وكافة الاقارب وابناء العشيرة بـــل والبلدة يشتركون في الفخر الذي يحققه أي طالب يحقق المرتبة الأولى في الامتحانات العامة . ويظل ابناء البلدة يفخرون حتى بعد مائة عام أو مائتي عام انهم انجبوا شاباً كان الأول في البلاد .

وهناك مجال لكثير من الاختلاف والتلوين في هذه الصورة من الحياة العائلية . فالرجل يمر بالمراحل المتوالية من الطفولة والشباب والرجولة والكهولة، ويكون في البداية موضع عناية الآخرين ، ثم يغدو هو المتولي لرعاية غيره ، ثم يعود في شيخوخته فيصبح محط عناية الآخرين . ويكون في البداية مطيعاً ومحترمـــاً للغير ، ثم يشرع الناس في اطاعته واحترامه عندما يكبر سنه . ولا شك في ان وجود المرأة هو الذي يضفي على هذه الصورة شيئاً من الرواء . فالمرأة تبرز في هـــذه الصورة من استمرار الحياة العائلية لاكزخرف أو كألعوبة، ولا حتى كزوجة ، بل كجزء جوهري واساسي من شجرة العائلة ، لانهـــا الشيء الذي يضمن الاستمرار والدوام . وتعتمد قوة أي فرع معين من الاسرة على المرأة التي تتزوج في البيت ، وعلى مــا تسهم به من دم في التراث العـائلي . ويحرص رب الاسرة الحكيم على اختيار النسوة من ذوات الـتراث السليم ، تمـاماً كما يحرص « الجنائني » علىاختيار « الفرع » الذي يطعم به شجرة عنده. ويعتقد الكثيرون أن المرأة التي يتزوجها الانسان هي التي تقوّم له حياته البيتية أو تفسدها ؛ وانها هي التي تقرر شخصية الاسرة كلها في المستقبل . ولا شك في أن صحة الاحفاد وطراز التنشئة الـتي سيتلقونها ، يعتمدان كل الاعتماد على تنشئـة المرأة الـتي يتزوجها الابن . ويتضح من هذا ان هناك طرازاً من نظام التناسل غير المتبلور ،

يعتمد على الاعتقاد في الوراثة ، ويؤكد كل التأكيد على البيت والتسلسل العائلي ومركز الاسرة، ويرتكز على مقاييس الرغبة في صحة العروس وجمالها وتربيتها، كما يراها الوالدان في الاسرة أو الجدان . فهناك تأكيد على التربيـة العائلية التي تمثل تقاليد الاقتصاد والعمل والسلوك والدماثة . وعندما يكتشف والد ، وهو متألم ، أن ولده قد تزوج من فتاة لا خلاق لها، يروح يلعن اسرتها، لأنها لم تربّها تربية طيبة . ومن هنا يقع على الابوين واجب تدريب بناتهما ، حتى لا يلحقن بهما العـار عندمـا يتزوجن من اسرة اخرى ، بحيث لا يجهلن الطهي او صنـاعـة الحلوى .

ويكون الفناء وعدم الخلود مرئياً وملموساً في نظرية جدول الحياة كما تظهر في نظام الاسرة . فكل جد يرى حفيده متجهاً الى المدرسة وقد حمل حقيبته ، يشعر حقاً بأنه يعيش من جديد في حياة هذا الطفل ، وعندما يلمس يد الطفل ، أو يداعب وجنتيه، يعرف ان لحم الطفل من لحمه ، وأن دمه من دمه . فليست حياته الا جزءاً من شجرة الاسرة، أو من الجدول العظيم لحياتها، يواصل جريانه الى الابد ، ولذا فهو يحس بالسعادة عندما يموت . ولعل هذا هو الذي يجعل اهم ما يشغل الوالد الصيني أن يرى أولاده وبناته وقد تزوجوا وتزوجن قبل موتـه ، ولعل هذه الناحية تهمه اكثر من اختياره لموقع قبره أو الكفن الذي سيلف فيه. فهو لا يستطيع ان يقرر شكل الحياة التي سيحياهـا أولاده وبناتـه حتى يرى طراز الفتيات والفتيان اللاتي والذين سيتزوجون منهن أو يتزوجن منهم . واذا ما رأى أن كنّته وصهره من النوع الصالح، رضي، وأغمض عينيه مرتاحاً وهـو يفارق الحياة .

ولعل النتيجة الصافية لهذا المفهوم عن الحياة ، ان النظرة تكون طويلة الى كل شيء فيها . اذ لا تعود الحياة محصورة في بدايتها ونهايتها بالفرد . فـالفريق يواصل اللعبة حتى وان تعطل قلب الدفاع فيـه . وهنـا يتخذ النجاح والفشل صورتين مختلفتين . ويكون المثل الأعلى للحياة عند الصينيين في ان يحيا الانسان

دون أن يلحق العار باسلافه وان يخلّف اولاداً لا يجلبون له العـار . وكان الموظف الصيني يقول دائماً عندما يعتزل منصبه ...

« أنا راض عن حياتي لأن لي أولاداً
وقد تخففت من اعبائي بعد ان خلصت من وظيفتي ».

ولعل أسوأ ما يمكن ان يحدث للرجل، هو ان يخلف أولاداً ، غير جديرين بالمحافظة على امجاد الاسرة أو حتى على ثروتها . ويرى الاب المليونير الذي خلف ولداً مقامراً ، ان ثروته التي قضى حياته في جمعها ، تسير في طريق التبديد . وعندما يفشل الاولاد ، يكون الفشل مطلقاً . ويمكن للأرملة البعيدة النظر من الناحية الاخرى ان تحتمل سنوات طويلة من الشقاء ومن الهوان والاضطهاد ، اذا كان لهـا ولد طيب في الخامسة من عمره . والتاريخ الصيني وادب الصـين حافلان بهذا الطراز من الارامل اللاتي تحملن كل صور المشاق والاضطهادات ، ولكنهن عشن الى ان رأين اطفالهن ، ينجحون ، ويصبحون من المواطنين البارزين . وكان كايشيك يتيماً عاش مع امه الأرملة معرضين لاضطهاد الجيران ، ولكن امه ، كانت تأمل الكثير في ولدها . ولا شك في أن نجاح الأرامل في تأمين التعليم الصالح لاولادهن ، وخلق الشخصية المتينة والاخلاق القويمة عندهم ، نتيجة احساسهن الواقعي عادة ، قد دفعني دائماً الى الاعتقاد بان لا ضرورة للآباء في تربية الأطفال . ولا شك في أن الأرملة تضحك كثيراً لانها تضحك اخيراً .

ويكون مثل هذا الترتيب في الحياة عند الاسرة مرضياً ، وذلك لأن حياة الانسان تلقى العناية من جميع نواحيها البيولوجية . وكان هذا هو اكثر مـا يهم كونفوشيوس على أي حال . وكان المثـل الأعلى للحكم على ضوء مـا قـرره كونفوشيوس ، بيولوجياً ايضاً فقد قال ... « يجب ان يمهد للشيخ بأن يعيش في سلام واطمئنان . وان يتعلم الشاب كيف يعيش في حب وولاء . ويجب ان لا تكون هناك في الغرفة اية فتيات غير متزوجات ، وان لا يكون في خارجها أي رجال غير متزوجين » . وتتميز اهمية هذا القول ، في أنه لا يعبر عن قضية

جانبية وانما يعبر عن الهدف النهائي للحكم . وهذه هي الفلسفة الانسانية التي يطلق عليها اسم « ارضاء الغرائز ». ويريد كونفوشيوس ان يكون واثقاً من ارضاء كافة الغرائز الانسانية ، اذ ان هذه هي الطريقة الوحيدة التي تحقق السلام المعنوي عن طريق تأمين الحياة المرضية ، ولأن السلام المعنوي هو السلام الفعلي . انه طراز من المثل الاعلى السياسي الذي يهدف الى جعل السياسة امراً لا ضرورة له ، لانه سلام يعني الاستقرار والاستناد الى القلب الانساني .

٥ – جلال الشيخوخة

يبدو لي أن نظام الأسرة عند الصينيين ، يعتبر ترتيباً الى حد كبير يتناول الشباب والشيخوخة بوجه خاص . اذ لما كانت الطفولة والشباب والشيخوخة ، تحتل نصف حياة الانسان ، فمن الضروري ان يعيش الشباب والشيوخ معاً حياة مرضية . وقد يكون صحيحاً ان الشبان أكثر عجزاً من الكهول ، وأقل عناية بانفسهم ، ولكن في وسعهم من الناحية الأخرى ، ان يمضوا في حياتهم دون أية متع مادية اكثر من الكهول . ولا يحس الطفل مطلقاً بالمتاعب المادية ، مما يؤدي الى ان يكون الطفل الفقير اكثر سعادة احياناً أو يضاهي في السعادة الطفل الغني . وقد يسير حافي القدمين ، ولكن السير على هذا النحو قد يكون مريحاً له لا متعباً ، بينما السير بقدمين عاريتين أمر لا يطاق بالنسبة الى الكهول . وتنطلق هذه الحقيقة من حيوية الطفل العظمى وهي من وثبات الشباب . وقد تكون للطفل الفقير احزانه المؤقتة ، ولكنه سرعان ما ينساها . وليست لديه أية فكرة عن المال أو أية عقدة من عقد اصحاب الملايين التي تصيب الشيوخ . وقد يجمع « كوبونات » السجائر في أسوأ الحالات ليشتري بها بندقية لهو ، بينما قد يشتري الغني اسهماً مطلقة . وليس ثمة مقارنة بين ما في هذين الطرازين من الجمع من سخرية . ولعل السبب في ذلك أن الحياة لا تكون قد ارهبت

الطفل ، كما ارهبت الكبيرين في السن . فالطفل لا يكون قد شكل عـاداته بعد ، ولا يكون عبداً لطراز معين من القهوة يشربها ، وانما يتناول أي طراز يتاح له وهو لا يحمل اية حزازات عنصرية أو دينية . يضاف الى هذا ان افكاره وآراءه لاتكون قـد تعفنت . ولذا يكون الشيوخ من الناس ، وهنا وجـه الغرابة ، اكثر اعتماداً على غيرهم من الشبان ، لأن مخـاوفهم محـددة ، ولأن رغباتهم اكثر وضوحاً .

وكانت هـذه الرقة مع الشيخوخة موجودة الى حد ما في الوعي الأولي للشعب الصيني . وهو شعور لا يمكن لي ان اضاهية الا بفروسيـة الغربيـين ورقتهم تجاه المرأة . واذا كان الصينيون الأول قد تميزوا بشيء من الفروسية ، فان فروسيتهم لم تكن تبدو تجاه النساء والاطفال ، بل تجاه الشيوخ . وقـد وجد هذا الاحساس التعبير الواضح عنـه في قول مينسيوس الذي اوضح ان الهدف الاخير للحكم الصالح ، ان « لا يبدو الناس بيض الشعور وهم يحملون اعباء ثقيلة في الشارع » . وشرح مينسيوس ايضاً الطبقـات الاربع لأكثر الناس عجزاً في العالم وهم « الارامل من النساء والرجال والايتـام والشيوخ الذين لا اطفال لهم » . وكان على الاقتصاد السياسي للمجتمع ان يعنى بهذه الطبقـات الاربع ، وان يكون مرتبـاً بشكـل يضمن بأن لا يظل هناك عدد من غير المتزوجين من النساء والرجال . ولم يحدثنا مينسيوس ، بشيء عما يجب ان يعمل مع الايتام ، وان كانت المياتم وجدت في جميع العصور وكانت ملاجيء العجز دائماً بديلاً عن البيوت . ولكن هناك احساساً عاماً ، بان البيت وحـده هو القادر على ان يؤمن لنا ترتيباً مرضياً للشيوخ والصغار على حد سواء . ولكن لا داعي لعمل شيء للصغار . اذ ان هناك دائمـاً الحب الابوي الطبيعي . ويقول الصينيون دائماً .... « يسيل الماء باستمرار الى اسفل لا الى اعلى ، ولذا فـان الحضارة نفسها في حاجة الى تعـليم الصغار حب آبائهم واجدادهم . فالرجل الطبيعي يحب اطفاله . والرجل المتحضر يحب والديه . ولقد اصبح تعليم الناس على حب الشيوخ واحترامهم مبدءاً مقبولاً بصورة عامـة ، واذا كان لنا ان

نصدق ما قاله بعض الكتاب عن رغبتهم في ان يحبوا بامتياز خدمة والديهم في سن الشيخوخة ، فاننا نقول ان هذه الرغبة تحولت عندهم الى عاطفة مشبوهة . وكان اشد ما يأسف له الصيني ان يضيع فرصة خدمة والديه الشيخين ، وتأمين الدواء والحساء لهما وهما على فراش الموت ، أو ان يكون غائباً عند موتهما . وكان تقاعس أي موظف عال في خمسينات العمر أو ستيناته ، عن دعوة والديه الى المجيء من القرية التي يقيمان فيها ، ليعيشا معه ومع اسرته في العاصمة ، « ليعهد بهما ، الى فراشيهما في كل مساء ، ويبادرهما بالتحية في كل صباح » ، يعتبر خطيئة خلقية ، عليه ان يخجل منها ، وان يحاول تبريرها دائماً وتفسيرها لأصدقائه وزملائه . واعرب رجل عن اسفه هذا في بيتين من الشعر قالهما عندما عاد متأخراً الى بيته ليجد ان والديه قد فقدا الحياة ...

« ترغب الشجرة في الراحة ، ولكن الريح لا تتوقف عن هزها
ويرغب الولد في خدمة والديه ، ولكنهما قد فارقا الحياة » .

ويفترض انه لو قدر للانسان ان يحيا حياته كقصيدة شعر ، فيكون قادراً على رؤية غروب حياته ، كأسعد فترة فيها ، وبدلاً من ان يحاول تأجيل الشيخوخة التي يخشاها كثيراً ، يروح يتطلع اليها ، ويبني عليها خططه بوصفها اسعد فترة واحسنها في وجوده كله . ولقد اكتشفت في المحاولات التي قمت بها للمقارنة بين حياة الغرب وحياة الشرق ، ان ليس ثمة فروق مطلقة الا في هذا الموقف من الشيخوخة ، اذ انها من الطراز الواضح والصريح والذي لا يسمح بأية مواقف من الطراز الوسط . فالفروق في المواقف تجاه الجنس والنساء والعمل ، واللهو والانجاز فروق نسبية . ولا تختلف العلاقة بين الرجل وزوجته في الصين عنها عند الغربيين كما لا تختلف ايضاً العلاقة بين الوالد وولده . وليس ثمة كبير اختلاف ايضاً في الفروق بين الآراء حول الحرية الفردية والديمقراطية ، والعلاقة بين الشعب وحكامه . ولكن هناك بوناً شاسعاً في الموقف من السن ، اذ انه مطلق ، ويقف الشرق والغرب في صدده عند قطبين متعاكسين من الرأي .

ويتضح هذا الخلاف بوضوح في قضية سؤال الانسان عن عمره ، او حديثه عنه . فأول سؤال يتبادر الى لسان الصيني عندما يتلقى من آخر زيارة رسمية . وبعد ان يسأله عن اسمه واسم اسرته ، هو « كم عمرك المجيد ؟ ». ولو رد الرجل الذي وجه اليه السؤال معتذراً بانه في الثالثة والعشرين او الثامنة والعشرين ، بادره السائل الى القول ، بانه ما زال ينتظر مستقبلاً مجيداً ، وانه سيصل الى الشيخوخة في يوم ما . أما اذا رد بأنه في الخامسة والثلاثين او الثامنة والثلاثين فان السائل يهتف على الفور بكثير من الاحترام العميق .... « حظ حسن » ، ويزداد الاحترام ، وترتفع الحماسة كلما كان سن المسؤول اكبر واعلى ، واذا كان هذا السن قد تجاوز الخمسين ، فان السائل سرعان ما يخفض صوته احتراماً وتوقيراً . ولعل هذا هو السبب الذي يحتم على جميع الشيوخ ان استطاعوا ان يمضوا الى الصين للحياة فيها ، اذ ان السائح ذا اللحية البيضاء يعامل فيها بمنتهى الاجلال . ويتطلع الرجال في اوسط العمر فعلاً الى الوقت الذي يستطيعون فيه الاحتفال بعيد ميلادهم الواحد والخمسين . أما الموظفون والتجار الناجحون فيحتفلون ايضاً بعيد ميلادهم الواحد والاربعين بمنتهى البذخ والابهة . لكن العيد الواحد والخمسين الذي يمثل نصف قرن ، يكون فرصه للفرح عند جميع الطبقات . ويكون العيد الواحد والستون فرصة اعظم للسعادة والفرح من العيد الواحد والخمسين . كما يكون العيد الواحد والسبعون مجالاً لفرح اكثر شمولاً ومرحاً . ولا شك في ان الناس ينظرون الى الرجل الذي يستطيع الاحتفال بعيده الواحد والثمانين بأنه من سعداء الحظ الذين تنعم عليهم السماء . وتصبح اطالة الذقن الامتياز الخاص لاولئك الذين يصبحون من الجدود . أما الرجل الذي يطيل ذقنه دون توافر المؤهلات اللازمة لذلك كأن يكون جداً ، او يكون قد تجاوز الخمسين ، فانه يتعرض للهزء والسخرية . وتكون النتيجة ان الشبان يحاولون التظاهر بانهم اكبر سناً من حقيقتهم عن طريق تقليدهم للكهول في مشيتهم وجلالهم ، ووجهات نظرهم . ولقد عرفت بعض الكتاب الصينيين الشبان الذين تخرجوا من المدارس المتوسطة وهم بين الواحدة والعشرين

والخامسة والعشرين . يدبجون المقالات في الصحف . ويوجهون النصـائح الى الشبان عما يجب ان يقرأوه أو لا يقرأوه ، ويبحثون في الاخطار التي تواجه الشباب بشيء من اللهجة الابوية .

وفي مكنة المرء ان يفهم الرغبة في الوصول الى الشيخوخة او التظاهر بها ، اذا فهم الانسان بوجه عام ، مكاسب الشيخوخة في الصين . فمن حق الشيوخ في الصين وحدهم اولاً ان يتحدثوا ، وعلى الشبان ان يصغوا اليهم ، وان يمسكوا السنتهم . وهناك حكمة صينية تقول ... « يفترض في الشاب الصيني ان يكون صاحب آذان يسمع بها ، لا لسان يتكلم به » . فيفترض في ذوي العشرين من عمرهم ان يصغوا عندما يتحدث ذوو الثلاثين . وعلى هؤلاء ان يصغوا بدورهم عندما يتحدث ذوو الاربعين . ولما كانت الرغبة في ان يتحدث الانسان ، وان يصغي اليه الآخرون ، رغبة عامة . فمن الواضح انه كلما تقدمت السن بالمرء ، كلما اتيحت له فرص افضل لتحقيق هذه الرغبة . وهذه الرغبة لعبة من لعب الحياة ، لا تفضيل فيها ولا ايثار لأحد . اذ ان هناك فرصة متوافرة لكل انسان ليكبر سنه مع مضي الوقت . وهكذا نجد ان الوالد الذي يحاضر ولده ، يضطر احياناً الى التوقف عن الحديث فجأة، والى تغيير هيئته عندما تفتح جدته فمها لتتحدث . ولست اشك في انه يود لو كان محل جدته . ولا شك في عدل هذا النظام ، اذ لا حق للشبان ان يفتحوا افواههم ، عندما يستطيع الشيخ ان يقول ... « لقد عبرت من الجسور ما يزيد عدده عن الشوارع التي عبرتموها » . أهناك حق للشبان في ان يتحدثوا بعد هذا ؟

وبالرغم من معرفتي بحياة الغربيين وموقفهم من السن ، فما زلت اصاب بالذعر من سماع بعض التعابير التي لست على استعداد لسماعها . وهناك شروح جديدة لهذا الموقف ، تنبع من كل ناحية . وسمعت ذات يوم سيدة عجوزاً تقول ان لها عدداً من الاحفاد ، ولكن مجرد مجيء الحفيد الاول هو الذي اساءها . وبالرغم من ان الانسان يعرف كره الامريكيين لان يعرف الآخرون

حقيقة اعمارهم ، الا ان مثل هذا القول من السيدة العجوز شيء مزعج . فقد يتسامح الانسان مع أولئك الذين لا يزالون دون الخمسين ، اذا رغبوا في التقليل من اعمارهم ، ليتظاهروا بأنهم ما زالوا في منتهى الحيوية والنشاط ، ولكنني لا استطيع ان افهم سيدة عجوزاً ، ذات شعور بيضاء ، تحاول جاهـدة تغيير مجرى الحديث عن العمر الى الطقس ، اذا كان قد انتقل عن غير قصد الى العمر . وكثيراً ما ينسى المرء نفسه ، فيقول لرجل على وشك دخول مصعد أو سيارة ... « بعدك ، فأنت اكبر سناً » . ولكنني اضبط نفسي احياناً فلا اقولها لانسان امريكي مخافة ان اسيء اليه . ولقد نسيت نفسي ذات يوم ، وصدر عني مثل هذا التعبير لرجل شيخ مهيب الطلعة ، فراح بعد ان أخذ مقعده في السياره يتطلع الى زوجته ، ويعلق ساخراً .... « يظن هذا الشاب انه اكثر شباباً مني » .

ولا شك في ان هذا الموقف يخلو من كل منطق ، فانا لا استطيع ان افهمه . فقد افهم موقف المرأة النصف او الشابة اذا كانت عانساً ، ورفضت الافضاء بحقيقة عمرها . اذ ان الاصرار على الشباب في هذه الحالة يمثل نفعاً لها . وتصاب الفتاة الصينية نفسها بالذعر اذا بلغت الثامنة والعشرين دون ان تتزوج او تخطب . فالسنوات تمر دون رحمة او اشفاق . وهناك احساس بالخوف عندها من ان يفوتها القطار . أو كما يقول الألمان من ان تظل وحيدة في الحديقة بعد ان تسد الابواب في الليل . ولذا يقال ان اطول سنة في عمر المرأة هي سنتها التاسعة والعشرون ، اذ تظل في هذا السن ثلاث سنوات او اربعاً او خمساً . واذا ما استثنينا هذه الحالة ، فان الخوف من ان يعرف الآخرون حقيقة سنك أمر لا استطيع فهمه . وهل تنسب الحكمة للانسان الا اذا كان كبير السن ؟ وهل يفهم صغار السن شيئاً في الواقع عن الحياة والزواج والقيم الحقة ؟ وفي وسعي ان افهم ايضاً فوائد الشباب في الحياة الغربية ، وخشية الرجال والنساء من معرفة حقيقة اعمارهم . فالسكرتيرة النشيطة والممتلئة

حيوية ورغبة في العمل ، تصبح فجأة ، وبلفتة ملتوية من لفتات التفكير ، غير جديرة بمنصبها ، اذا عرف ان سنها قد بلغ الخامسة والاربعين . أوَ هناك غرابة بعد هذا اذا حاولت هذه السكرتيرة اخفاء حقيقة سنها ، لتحتفظ بمنصبها؟
ومع ذلك تظل صورة الحياة عند الغربيين ، وما للشباب من منافع عندهم ، خالية من المنطق . أجل انها تخلو في رأيي من كل معنى . ولعل هذه الصورة نابعة عن حياة العمل ، اذ ان الشيخوخة تكون اكثر توقيراً في البيت منها في المكتب . ولست ارى مجالاً للخلاص منها ، الا اذا شرع الشعب الامريكي في احتقار العمل ، والانجاز ، والكفاية . وانى لأشك في ان يتطلع الوالد الامريكي في يوم ما الى البيت لا الى المكتب كمثله الاعلى في الحياة ، وان يقول للناس ، كما يقول الوالد الصيني عادة بمنتهى الاعتزاز للآخرين ، بان له ولداً صالحاً سيخلفه ، وسيشرفه ان يتولى الانفاق عليه ، وانه يتطلع بشوق الى ذلك اليوم ، ويعد السنوات بلهفة حتى يصل الخمسين من عمره .

ولعل من المصائب اللغوية التعبيرية في امريكا ان يقول الشيوخ من ذوي المرح والحيوية للآخرين بانهم من « الشبان » وان يتوقعوا من الآخرين ان يصفوهم بهذا الوصف ، مع أن كل ما يعنونه هو أنهم أصحاء . ولعل أسعد شيء في الوجود الانساني ان يتمتع الانسان بالصحة في شيخوخته ، أي أن يكون شيخاً معافى ، أما أن تنقلب الشيخوخة الى الشباب ، فمحاولة لنزع الكمال من الصورة الكاملة . فليس ثمة اجمل في هذا العالم ، من رؤية شيخ حكيم معافى يتمتع «بوجنتين حمراوين وشعر ابيض» . يتحدث بصوت هادىء عن الحياة حديث العليم بها . ولقد أدرك الصينيون هذه الحقيقة ، وصوروا الشيخ دائماً بهذه الصورة ، وبانه يمثل رمز السعادة الدنيوية . ولا شك في أن كثيرين من الأمريكيين ، رأوا الصور الصينية « لآله العمر الطويل » اذ تمثله شخصاً ذا جبهة عالية ، ووجه أحمر ، ولحية بيضاء ، مع ابتسامة عريضة على شفتيه . انها صورة واضحة للغاية . وهو يمرر اصابعه في لحيته الطويلة البيضاء التي تمتد الى صدره ، ويربت عليها برفق ،

وفي عينيه علائم الرضى وهدوء النفس ، فهو معتز بأن الناس حوله يرعونه بالاجلال والاحترام ، وهو على ثقة من نفسه لأن الآخرين لا يتشككون في حكمته، وهو لطيف لانه رأى الكثير من الاسى الانساني . ونحن لا نتوانى عن اطراء الشيوخ الذين يتمتعون بالحيوية العظيمة.

ولكنني ارى الصورة الامريكية تخلو من الرجال الشيوخ العظام ، ذوي اللحى البيضاء . ولست أشك أن مثل هؤلاء موجودين فعلاً، ولكنهم يتعمدون الاختفاء. ولم اقابل في امريكا شيخاً ذا لحية بيضاء الا مرة واحدة في نيوجيرسي. ولعل أمواس الحلاقة هي التي تزيل هذه اللحى ، في عملية مستنكرة وجاهلة وحمقاء ، تماماً كقيام الفلاحين الجهلاء في شمال الصين ، بقطع الغابات وتعرية الجبال فيها من اشجارها الجميلة ، لتظل جرداء بشعة . ولا شك في أن في وسع الامريكيين ان يكتشفوا منجماً جديداً ، من الجمال والحكمة يفرح العين ، ويهز الروح، وذلك اذا فتحوا عيونهم عليه ، ورأوه ، وشرعوا في تنفيذ برنامج عام لاستصلاح الأرض العارية واعادة تحريجها. فقد اختفى شيوخ امريكا العظام، اختفى العم سام بلحيته البيضاء ، لأنه امسك بموسى الحلاقة واجتثها ، ليبدو في صورة شاب طائش ارعن ، وقد اندفع فكه الاسفل بدلاً من ان يكون مغطى بالذقن الوقور ، وبدت في عينيه اللتين تخفيهما نظارتاه ، نظرة عابسة متجهمة . يا لهذه الصورة البديلة ما ابشعها ! ولا شك في انني اقرر موقفي من المحكمة العليا، من اعجابي الشديد برؤية الوقار مجسداً في احد اعضائها وهو شارلز ايفانز هيوز. ترى هل هو الشيخ العظيم الوحيد الباقي في امريكا أو أن هناك لا يزال عدد من أمثاله ؟ ولا شك في أنه سيتقاعد اخيراً ، فتقاعده يخفف عنه الاعباء ، اما اتهامه بالهرم ، فإهانة لا تطاق . ولا شك في ان له وجهاً من الطراز الذي نطلق عليه اسم « حلم المثّال ».

وليس ثمة من شك لدي في ان اصرار شيوخ امريكا على العمل والنشاط يعود مباشرة الى نظرة تفردية يفرطون في التعلق بها الى حد احمق للغاية . وهذه

النظرة هي مصدر اعتزاز الامريكيين وحبهم للاستقلال ، وخجلهم من الاتكال على اولادهم . ولكن يبدو ان الشعب الامريكي اهمل ان يضمّن بين الحقوق الانسانية الكثيرة التي تضمنها دستوره ، حق الانسان في ان يعتمد في شيخوخته على اولاده ، وهو حق والتزام ، ينبعان من خدمته لهم . أوَ هناك من يستطيع ان ينكر ان الآباء الذين جاهدوا من اجل اطفالهم في صغرهم ، وسهروا الليالي يرعونهم في مرضهم ، واحتملوا ما لا يطاق في سبيل العناية بهم ، وقضوا اكثر من ربع قرن في تنشئتهم واعدادهم للحياة ، ذوو حق في احترام هؤلاء الأولاد وحبهم ، وانفاقهم عليهم في شيخوختهم ؟ أوَ لا يستطيع الانسان ان ينسى فرديته واعتداده بنفسه في خضم خطة عامة للحياة البيتية ، تنص على ان يعنى الآباء بابنائهم ، في صغرهم ، وان يعنى هؤلاء باولئك في شيخوختهم ؟. ولا يحس الصينيون بذلك الشعور من الاستقلال الفردي ، لان مفهومهم عن الحياة يرتكز على اساس المعونة المتبادلة في المنزل . ولذا فلا يحس الصيني بأي عار اذا انفق عليه اولاده ، عندما يبلغ مرحلة الغروب في حياته ، ويعتبر الصينيون ان من حسن حظ الانسان ان يكون له اطفال يعنون به في شيخوخته . وليس ثمة من هدف آخر للصينيين في الحياة .

ويؤثر الشيوخ في بلاد الغرب ، ان ينعزلوا وان يعيشوا لوحدهم في بعض الفنادق التي تضم مطاعم في طوابقها الأرضية ، حباً منهم لأولادهم ، ونتيجة رغبة بعيدة عن الاثرة لديهم ، في ان لا يتدخلوا في حياتهم البيتية . ولكن من حق الشيوخ ان يتدخلوا ، واذا كان التدخل ، غير مستحب ، فهو طبيعي على أي حال ، اذ ان الحياة كلها ، ولا سيما البيتية منها ، ليست الا درساً في كبح الجموح فالاباء يتدخلون في شؤون اولادهم على أي حال ، وهم صغار ، ويظهر منطق عدم التدخل في النتائج التي اسفرت عنها نظرية السلوك الذاتي ودعاتها ، اذ ان هؤلاء يؤمنون بضرورة انتزاع الاطفال من ذويهم . واذا كان الانسان لا يستطيع ان يكون متسامحاً مع والديه عندما يشيخان ويصبحان عاجزين

تقريباً ، وهما اللذان عملا له الكثير في حياته ، فهل يستطيع ان يكون متسامحاً مع أي انسان آخر في بيته ؟ وعلى المرء ان يتعلم كبح جموحه ، والا تحطم زواجه على الصخر . وهل يمكن لنندل الفنادق ، مهما اتقنوا واجبهم ، ان يحلوا محل الابناء الصالحين في حبهم لآبائهم واخلاصهم ، وخدمتهم لهم .

وتتعزز الفكرة الصينية عن تقديم الخدمة للآباء الشيوخ بفضيلة الاعتراف بالجميل. وقد يصعب تعداد ما يحس به المرء من دين لاصدقائه ، أما دينه لوالديه فلا يعد ولا يحصى اطلاقاً . وتتحدث روائع الادب الصيني عن الحب البنوي ، لأن هذا الحب دين متبادل على الرجل لوالديه ، وعلى اولاده له . أو ليس من الحق ان يخدم الابوان في شيخوختهما وان يطعما احسن الطعام ؟ وقد تكون واجبات الولد في خدمة والديه شاقة الى حد ما ، ولكن من انتهاك الحرمات ان تقارن بين تمريض الولد لوالديه ، وبين تمريض الرجل للغرباء في المستشفى . وفيما يلي بعض الواجبات المفروضة على الصغير تجاه الكبير في البيت كما وضعها توهسيشي ، وضمنها كتاباً عن التربية الخلقية اصبح شائع الاستعمال ككتاب مدرسي في المدارس القديمة ...

« على المرء في اشهر الصيف وهو يرعى والديه ، ان يقف الى جوارهما يهش عنهما الذباب والبعوض ويبعد الحرارة، وعليه في الشتاء ان يسهر على دفء فراشهما وتزويده بالاغطية الكافية، وان يموّن الموقد بالحطب باستمرار . وعليه ان يحرص كل الحرص من وجود ثقوب او فتحات في النوافذ والابواب ، ليمنع التيارات الهوائية ، مستهدفاً سعادة والديه وراحتهما .

« وعلى الطفل الذي يتجاوز العاشرة من عمره ، ان يستيقظ قبل والديه في الصباح ، وبعد ان يغسل وجهه ، عليه ان يمضي الى فراشهما يسألهما عمّا اذا كانا قد قضيا ليلة مريحة . فاذا وجد

ان والديه قد استيقظا ، فعليه اولاً ان يحييهما قبل ان يسألهما عن صحتهما ، وان ينسحب من حضرتهما بعد ان يحييهما . وعليه قبل ان يمضي الى فراشه في الليل ، ان يعد لهما فراشهما ، وان يقف الى جوارهما حتى يرى انهما قد اغفيا ، ثم يسدل الستارة عليهما ، وينسحب ».

أوَ بعد هذا نجد في الصين رجلاً لا يحب ان يكون شيخاً ، او والداً عجوزاً ، او جداً ؟ .

وقد يضحك الكثيرون من الكتاب الحديثين من هذا السلوك ، ويصفونه بالسلوك الاقطاعي ، ولكن فيه ما يستهوي النفوس . فهناك نقطة في منتهى الأهمية ، وهي ان كل انسان لا بد ان يشيخ مع الزمن ، اذا قدر له ان يعيش طويلاً ، كما يود ان يعيش . ولو قدر للمرء ان ينسى هذه التفردية الحمقاء التي تدعي ان في وسع الفرد ان يحيا حياة مطلقة ، وان يكون مستقلاً عن غيره ، فان عليه ان يقرّ بأن من واجبنا والحالة هذه ان نخطط لحياتنا بحيث يكون العصر الذهبي فيها في شيخوختنا لا في شبابنا او طفولتنا البريئة . أما اذا اتخذنا الموقف المضاد . فسنجد انفسنا مع مرور الزمن الذي لا يرحم ، قد تحولنا الى شعب يخشى دائماً من الغيب ، ويحس بالعجز ، ويتعرض للهزيمة . فليس في وسع احد ان يمنع زحف الشيخوخة ، وكل ما يستطيع ان يفعله هو ان يخدع نفسه بادعاء انه لم يصل الشيخوخة . ولما كان من المتعذر الاصطراع مع الطبيعة ، فان على المرء ان يتمتع بجلال الشيخوخة . ويجب ان تنتهي سيمفونية الحياة بنهاية عظيمة قوامها الهدوء والوقار والراحة المادية والرضى المعنوي ، وان لا تنطوي على أي قرع للطبول او الصنوج .

٩

التمتّع بالعَيْش

١ – حول الاستلقاء في الفراش :

يبدو ان القدر قد شاء لي ان اصبح فيلسوفاً سوقياً ولكن لاحيلة لي في ذلك . فالفلسفة عامة هي العلم الذي يحاول تعقيد الأمور وجعلها صعبة على الفهم ، ولكنني ارى ان الفلسفة هي العلم الذي يحاول تبسيط الأمور المعقدة ، وبالرغم من الاسماء الكثيرة التي نسمعها « كالمادية » و « الانسانية » و « المثالية التجريدية » و « التعددية » ، وغيرها من الاسماء المماثلة ، فانني ارى ان هذه الفلسفات كلها ، لا تضاهي فلسفتي عمقاً . فالحياة على أي حال ، تتمثل في الاكل والنوم ، ولقاء الاصدقاء ووداعهم ، وحفلات اللقاء والوداع ،والدموع والضحكات ، وحلاقة الشعر مرة في كل اسبوعين ، وري اصيص من الزهر بالماء ، ورؤية جار يسقط من سطح بيته ، والباس افكارنا عن الظواهر البسيطة للحياة ، لباساً اقادمياً متفلسفاً . لنخفي عن طريق ذلك ، اما الوضوح الكامل او الغموض المتطرف في آراء اساتذة الجامعات . ونرى من هذا ان الفلسفة

غدت والحالة هذه علماً اخذ يفقدنا بالتدريج القدرة على تفهم انفسنا. ولعل كل ما حققه الفلاسفة ، انهم كلما امعنوا في الحديث واكثروا منه ، كلما ازددنا حيرة وارتباكاً .

ولعل مما يثير الدهشة ان قليلين من الناس فقط يدركون فن الاستلقاء في الفراش ، وان كانت تسعة اعشار الاكتشافات المهمة في العالم من علمية وفلسفية قد حدثت عندما يكون العالم أو الفيلسوف مستلقياً في فراشه في الساعة الثانية أو الخامسة صباحاً .

وهناك بعض الناس يستلقون في فراشهم نهاراً ، وآخرون يستلقون ليلاً . وانا اعني بكلمة الاستلقاء ، الناحيتين البدنية والمعنوية . اذ انهما يتفقان معاً . وانا اعتقد ان أولئك الذين يتفقون معي في الايمان بان الاستلقاء في الفراش يمثل احدى المتع العظمى للحياة ، هم الشرفاء ، أما الذين لا يؤمنون بذلك فهم الكاذبون ، اذ انهم يستلقون فعلاً في النهار بدنياً ومعنوياً . وما أولئك الذين يستلقون في النهار الا الذين يتولون رفع المعنويات والتعليم في بساتين الاطفال ، وقراء اساطير عيسوب، وما اولئك الذين يقرون معي بان على الانسان ان ينمي عن وعي فن الاستلقاء الا الشرفاء الذين يؤثرون قراءة القصص التي تخلو من التوجيه المعنوي .

ترى ما اهمية الاستلقاء في الفراش عضوياً وروحياً ؟ انه من الناحية العضوية عزلة الانسان مع نفسه ، وابتعاده عن العالم الخارجي ، اذ ان الانسان يتخذ فيه الوضع العضوي الذي يؤدي الى الراحة وهدوء النفس والتأمل . وهناك طريقة صالحة ومترفة للاستلقاء في الفراش . ولم يكن كونفوشيوس ذلك الفنان العظيم الذي فهم الحياة ، يستلقي تماماً في الفراش كجثة هامدة . وانما كان يضطجع على جانب واحد . ولعل ثني الساقين ولفهما فوق بعضهما من اعظم متع الحياة . ولا شك في ان وضع الذراعين ايضاً في منتهى الاهمية ، وذلك لتحقيق

الحد الأقصى من المتعة الجمالية والسلطان المعنوي . وانا اعتقد ان الوضع الأمثل لا يكون في الاستلقاء الكامل على الفراش . وانما في رفع الرأس فوق وسائد ناعمة في زاوية لا تقل عن ثلاثين درجة ، مع تجميع الذراعين وراء مؤخرة الرأس . وفي وسع أي شاعر اذا اتخذ هذا الوضع ان يكتب شعره الخالد ، كما ان في وسع أي فيلسوف ان يحدث ثورة في الفكر الانساني ، وأي عالم ان يحقق اكتشافات ضخمة .

ولعل مما يثير الدهشة ان بعض الناس ليس إلا يحسون بقيمة العزلة والتأمل . ويعني فن الاستلقاء اكثر من مجرد الراحة البدنية للانسان بعد قضاء يوم مجهد وشاق . كما يعني اكثر من الاسترخاء الكامل بعد لقائه للكثيرين من الناس والتحدث اليهم ، وسماعه الى النكات السخيفة من بعض الاصدقاء ، واصغائه الى احاديث اخوانه واخواته عن تقويم سلوكه لضمان انتقاله الى الجنة . انه يعني كل هذه الامور طبعاً ، ولكنه يعني اكثر منها ايضاً . ولو وجد التعهد الصالح والكافي لعنى ايضاً عملية غسيل كامل للمخ . ويبدو ان كثيرين من رجال الأعمال الذين يفخرون بالانتقال السريع من مكان الى آخر ، صباحاً ومساءاً ، والذين يشغلون ثلاثة اجهزة هاتفية تقف على مكاتبهم طيلة الوقت لا يدركون ان في وسعهم ان يضاعفوا ارباحهم لو سمحوا لانفسهم بساعة واحدة من عزلة اليقظة في فراشهم في الساعة السابعة صباحاً او في الساعة الواحدة . وهل هناك ما يحول دون بقاء الانسان في فراشه حتى الساعة الثامنة ؟ فمن الافضل له ان يموّن نفسه بعلبة من السجائر الى جانب فراشه ، وان يقضي وقتاً طويلاً قبل مغادرته للفراش يحل فيه جميع مشاكل النهار قبل ان يشرع في تنظيف اسنانه . فهناك يستلقي الانسان مرتاحاً في بيجامته متحرراً من الملابس الصوفية الثقيلة ومن الياقات المنشاة الخانقة . والاحذية الجلدية الثقيلة ، ولا شك في ان العقل العملي الفعلي يستطيع ان يفكر ، عندما تتحرر القدمان من الحذاء الذي يضايقها طيلة النهار . اذ ان حرية الرأس مرتبطة

بحرية القدمين ، والتفكير مرتبط بحرية الرأس . ويستطيع الانسان في ذلك الوضع المريح ان يفكر بما حققه ، وبأخطاء الأمس ، وان يميز بين المهم والتافه في برنامج يومه القادم . ومن الأفضل للانسان ان يصل الى مكتبه ، سيداً لنفسه في العاشرة ، على ان يصل اليه في التاسعة تماماً او قبلها بربع ساعة ، ليرقب مساعديه . وكأنه نخاس يسوق الرقيق ....

ويحقق الاستلقاء الهادىء في الفراش ساعة للمفكر والمخترع ورجل الرأي اكثر من ذلك بكثير . وفي وسع الكاتب ان يعثر على افكار لمقالاته او قصصه وهو في هذا الوضع ، اكثر من تلك التي يعثر عليها وهو يجلس الى مكتبه في الصباح والمساء . فهناك يتحرر من المكالمات الهاتفية ، ومن الزيارات الودية ومن تفاهات اليوم العادية ، ويرى الحياة في منظار أو عبر شاشة تمر الصور عليها امامه ، ويجد عالم الواقع محاطاً بهالات من الخيال الشعري ، مصبوغة بالجمال السحري . انه يرى الحياة هناك لا في جفافها ، بل بعد ان تتحول الى صورة اكثر واقعاً من الحياة نفسها ، تماماً كرسوم ني يونلين وميفي العظيمة .

وكل ما يقع في الفراش هو في الواقع كما يلي : عند ما يستلقي الانسان ترتاح عضلاته ، وتسير دورته الدموية بانتظام وبهدوء . ويغدو العرق اكثر ثباتاً واستقراراً ، وتصبح اعصاب العين والاذن وغيرهما مرتاحة كل الراحة ، محققة حالة من الهدوء البدني الكامل . ومسهلة للتركيز العقلي السبيل المطلق سواء أكان هذا التركيز على الافكار أو الحواس . ولا شك في ان حواسنا هي خير من جميع مصادر الاحساس حتى بالنسبة الى الشم والسمع . ويجب الاستماع الى كل موسيقى في وضع الاستلقاء . ويقول لي ليوينج في مقالة عن « شجر الصفصاف » ان على المرء ان يستمع الى تغريد الطير في الفجر ، وهو مستلق في فراشه . ما اجمل العالم الذي ينتظرنا ، اذا تعلمنا كيف نستيقظ عند الفجر ، لنستمع الى حفلة الطير الموسيقية . فهناك وفرة من موسيقى الطير في معظم المدن ، وان كان معظم المقيمين فيها لا يحسون بها . ولقد سجلت في

شانجهاي ذات صباح ما سمعته من أصوات على النحو التالي :

« أفقت اليوم في الساعة الخامسة ، بعد نوم ثقيل للغاية ، واستمعت إلى حفل رائع من الأصوات، ولعل أشد ما أيقظني، صوت صافرات المعامل المختلفة الأنواع، والدرجات. واستمعت بعد فترة الى وقع بعيد لحوافر الجياد. انها جياد الفرسان يمرون في شارع لويبين . ولا شك في ان هذه الاصوات اتاحت لي في ذلك الفجر احساساً جمالياً يفوق ما أحس به عندما أستمع إلى سيمفونية لابراهامز . وسرعان ما انطلقت بعض الأغاريد من بعض انواع الطير . وبالرغم من عـــدم خبرتي مع الأسف بأغاريد الطير ، الا انني سعدت بها كل السعادة .

« وكانت هناك اصوات اخرى بالطبع ، بينها صوت غلام غريب ، ظهر بعد ليلة من الضياع في الخارج ، حوالي الساعـة الخامسة والنصف صباحاً ، وشرع في قرع الباب الخلفي لبيت احد الناس. وسمعنا بعد ذلك صوت كناس يكنس الطريق المجاور بمكنسته ذات العصى الطويلة . وسرعان ما يسمع صوت بطـة برية ، تمخر عباب السماء تاركة اصداء خفقات اجنحتهـــا في الهواء . وفي الساعة السادسة والخامسة والعشرين سمعت هـدير قاطرة يتصاعد على سكة حديـد شانجهاي – هانشاو ، وهـي تقترب من محطة جيسيفلد . وسمعت صوتاً أو صوتين يصدران من الأطفال النائمين في الغرفة المجاورة. وسرعان ما دبت الحياة، وأخذ صوت النشاط الانساني يتزايـــد متدرجاً في النواحي القريبة والبعيدة على حد سواء ، وذلك في حجمه وقوتـــه . وأفاق الخدم في الطبقة السفلى من المنزل ايضاً، وشرعوا في فتح النوافذ المغلقة . وجاء أحدهم بكتاب وضعه في مكانه. وسمعت

صوت سعال قريب ، ووقع الخطى الناعم على الدرج ، وبدأ صوت الاكواب والاقداح يعلو . وفجأة هتف طفل رضيع منادياً امه ».

كانت هذه الحفلة الموسيقية الطبيعية التي سمعتها ذات صباح في شانجهاي .

وكان اكثر ما يطربني طيلة ايام الربيع الاستماع الى هديل طائر لعله السّمان. ويتألف نداؤه الى حبيبته من اربعة انغام هي « دو ، مي ، ري ، تي ». وكانت هذه الأغنية هي التي الفت سماعها في الجنوب. وكان اجمل جزء فيها هو ان يشرع الطائر الذكر في النداء وهو واقف على رأس شجرة تبعد عشرين ياردة عن منزلي عند مستهل الفجر ، فترد عليه انثاه وقد وقفت على شجرة اخرى على بعد مائة ياردة. ويقع تبدل في النغم بين الفينة والفينة، وكان النغم قد اصبح سريعاً. ويقف هذا الطائر الفريد ، وقفة واضحة وبارزة بين غيره من الطيور التي تتعدد اشكالها وصورها . وقد يكون من العسير علي ان اصف هذه الاغاني الا اذا لجأت الى الالحان الموسيقية ولكنني اعرف انها تضم اغاني العصافير والزاغ ، وثقاب الخشب ، والحمام . ويبدو ان طيور السنونو تصحو متأخرة ، ولعل السبب في ذلك هو عين ما ذكره شاعرنا الابيقوري العظيم لي ليوينج ، وهو ان على الطيور الاخرى ان تنشد مبكرة، لأنها في خشية دائمة من بنادق الرجال، وحجارة الاطفال طيلة النهار . وفي مكنة هذه الطيور ان تنشد كما تشاء قبل ان يستيقظ هذا الانسان اللعين من سباته ، اما اذا استيقظ ، تعذر على الطيور ان تكمل اغانيها بسهولة . ولكن في وسع السنونو ان يغني كما يشاء لانه لا يخاف الانسان . ولذا ففي وسعه ان يستيقظ في وقت متأخر .

٣ – عن الجلوس على المقاعد

اود ان اتحدث عن فلسفة الجلوس على المقاعد ، اذ انني اشتهرت بالاستلقاء والتراخي . وبالرغم من ان عـــدداً كبيراً من اصدقائي ومعارفي يكثرون من الاستلقاء الا انني اكتسبت شهرة خاصة به في الاوساط الادبية الصينية على الأقل. ولكنني ارى انني لست المستلقي المتكاسل الوحيد في هذا العالم الحديث ، وان هناك الكثير من المبالغة في هذه الشهرة التي اكتسبتها . ويبدو ان هذه الشهرة تكونت على النحو التالي ... اخذت اصدر مجلة اطلقت عليها اسم « المحلل نصف الشهري » ، وقد حاولت فيها جاهداً ان اقيم الدليل على كذب اسطورة الضرر من التدخين . وبالرغم من ان مجلتنا لم تكن تضم أي اعـلان لشركات السجائر ، الا انني نشرت المقالات المتوالية مطرياً فضائل «النيكوتين». وهكذا ولدت اسطورة تقول ، انني لا افعل شيئاً طيلة النهار ، سوى الاستلقاء متكاسلاً على أريكة ادخن سيجاراً. وبالرغم من احتجاجي وتأكيدي بأني من اكثر الناس عملاً في الصين الا ان الاسطورة انتشرت ، انتشاراً واسعاً ، واستخدمت كدليل على انني انتمي الى طبقة المثقفين المترفة الكسولة والكريهة. وزاد الوضع سوءاً بعد عامين من جراء اصداري مجلة اخرى خصصتها لكتابة « المقال المألوف ». فقد اصابني الضجر من الاسلوب الحواري والمصطنع والجزل الذي كان سائداً على المقالات الصينية ، والذي ظهر نتيجة السير على اسلوب الانشاء المدرسي ، ودفع الصبية الذين لا تتجاوز اعمارهم الثانية عشرة والثالثة عشرة الى كتابة مقالات عن « انقاذ البلاد » و « فضائل الفاقة » ، ورأيت ان ادخل اسلوباً مألوفاً في الكتابة احرر به النثر الصيني من تزمتات القواعد الكونفوشيوسية . وحدث عن طريق الخطأ انني ترجمت تعبير « الاسلوب المألوف » الى الصينية بعبارة « اسلوب الترف » وكان هذا الخطأ سبباً في تعرضي لحملات عنيفة من الكتاب الشيوعيين . وأصبحت أمثـــل لديهم أكثر الكتاب المترفين في الصين ترفاً ، وانني والحالة هذه انسان لا يغتفر له « لا سيما ونحن نعيش في هذه الفترة من الذلـّة القومية ».

وانا لا انكر انني استلقي متراخياً في صالات اصدقائي ، ولكن هناك آخرين يفعلون كما افعل . وهل صنعت المقاعد المريحة الا للاستلقاء والاسترخاء؟ ولو كان المفروض في سادة القرن العشرين وسيداته ، ان يظلوا جالسين منتصبي القامة طيلة الوقت وفي وقار ، لما كانت هناك حاجة الى المقاعد المريحة في الصالات ، ولكننا نجلس جميعاً على مقاعد جامدة ، ومرتفعة ، بحيث تظل اقدام السيدات معلقة فوق الارض .

فهناك فلسفة للاستلقاء والتراخي في المقاعد . ولعل تعبير « الوقار » يوضح تماماً اصل البون في اسلوب الجلوس بين الاقدمين وبين المحدثين . فالقدامى كانوا يجلسون ليبدوا وقورين محترمين ، بينما يجلس المحدثون ليكونوا مستريحين . وهناك تناقض فلسفي بين الغايتين ، فالراحة كانت طبقاً للنظريات القديمة التي ظلت قائمة حتى نصف قرن خلا ، خطيئة ، وكان الجلوس جلسة مريحة مخالفاً للوقار . وقد اوضح الدوس هكسلي هذه الحقيقة تمام الايضاح في مقالته عن « الراحة » . فالمجتمع الاقطاعي الذي كان يجعل ظهور المقعد المريح أمراً مستحيلاً على النحو الذي وصفه الدوس هكسلي ، يشبه تمام الشبه المألوف الذي كان يسود الصين حتى جيل مضى . وعلى كل انسان يعتبر نفسه صديقاً لآخر ان لا يخشى من وضع ساقيه على مكتب صديقه ، اذ ان مثل هذا الاجراء يعتبر دليلاً على العلاقة الوثيقة لا على عدم الاحترام ، وان كان مثل هذا العمل في حضور شخص من ابناء الجيل الماضي يعتبر عملاً مخالفاً للذوق والادب .

وهناك علاقة وثيقة بين الاخلاق وبين فن العمارة و « الديكور » الداخلي ، اكثر مما نتصور . ولقد بيّن هكسلي ان السيدة الغربية لم تكن تكثر من الاستحمام لأنها كانت تخشى رؤية جسدها العاري ، وقد اعاق هذا المفهوم الخلقي ظهور الحمامات الحديثة ذات المرمر الابيض قروناً طويلة . وفي وسع المرء ان يفهم السبب في خلو تصميمات الاثاث الصيني القديم من وسائل الراحة البشرية ، اذا تفهم الجو الكونفوشيوسي الذي كان الناس يعيشون فيه .

وكان الاثاث الصيني المصنوع من الخشب الاحمر يصمم لكي يتمكن الناس من الجلوس منتصبين عليه ، اذ ان هذه الجلسة كانت الوضع الطبيعي الذي يقره المجتمع . وكان على اباطرة الصين انفسهم ان يقتعدوا عروشاً ، لا استطيع احتمال الجلوس عليها اكثر من خمس دقائق . ولا شك في ان ملوك انجلترا لم يكونوا أحسن حالاً من هذه الناحية ايضاً . وكانت كليوباترة تتنقل محمولة على محفة ينقلها خدمها ، لأنها لم تكن قد سمعت كما يبدو بشخص يدعى كونفوشيوس . ولوانه رآها تفعل ذلك ، لضرب بالتأكيد قصبة ساقها بعصاه ، كما فعل مع يوان جانج ، احد حوارييه ، عندما رآه يجلس في وضع غير صحيح . فمن المحتم على الرجال والسيدات في المجتمع الكونفوشيوسي الذي عشنا فيه ، ان يحافظوا على انتصاب قاماتهم ، ولا سيما في المناسبات الرسمية . وكان وضع الساق على الاخرى يفسر فوراً على انه دليل على الابتذال والافتقار الى التهذيب . وكان على الفرد ، رغبة منه في اظهار المزيد من الاحترام ولا سيما لرؤسائه من الرسميين ، ان يجلس منتصب القامة على حافة مقعده . كدليل على احترامه لهم ، وعلى ما يتمتع به من واسع تهذيب وثقافة . وهناك ايضاً علاقة وثقى بين التقاليد الكونفوشيوسية وبين خلو فن العمارة الصيني من وسائل الراحة ، ولكننا لن ندخل في تفاصيل ذلك الآن .

ويرجع الفضل الى الحركة الرومانسية في نهاية القرن الثامن عشر ومستهل القرن التاسع عشر ، في انهيار هذا التقليد من العمارة الكلاسيكية ، وفي ان تحوله الى تأمين الراحة ، لم يعد يعتبر خطيئة من الخطايا . ولقد حل من الناحية الاخرى موقف اكثر صدقاً مع الحياة ، ويعود الفضل فيه الى الحركة الرومانسية والى المزيد من تفهم النفس البشرية . ولا ريب في ان تبدل المواقف الذي ادى الى وقف اعتبار المسليات المسرحية اموراً لاأخلاقية ، والى العدول عن اعتبار شكسبير من « البرابرة » ، هو نفسه الذي ادى الى تطوير ملابس استحمام السيدات ، والى خلق الحمامات النظيفة الرائعة ، والمقاعد المريحة والارائك ،

والى ايجاد اسلوب للعيش والكتابة اكثرصدقاً، وانسجاماً مع النفس . وعلى هذا الصعيد يمكن القول بان هناك ارتباطاً صادقاً بين عادتي في الإستلقاء المتراخي على اريكة ، وبين محاولتي ادخال اسلوب جديد سهل ومتحرر في الكتابة في الصحافة الصينية الحديثة .

وإذا اعترفنا بأن الراحة ليست خطيئة ، فان علينا أن نعترف ايضاً ، بأنه كلما كانت الجلسة التي يقتعدها الإنسان على مقعده في مكتب صديقه مريحة ، كلما دلل بذلك على المزيد من الاحترام لصديقه . ولا شك في أن شعور المرء عند مضيفه أو مضيفته بأنه في بيته ، واتخاذ الوضع المريح له ، يمكنان صاحبالبيت أو صاحبته من اداء دورهما الشاق في تأمين حسن الضيافة له . فهناك مضيفات يرتعدن خوفاً من فشل حفلة يقمنها ، إذا كان الضيوف لا يبدون استعداداً للاسترخاء ، والشعور بالراحة . ولقد كنت دائماً أساعد من أكون في ضيافتهم بأن أضع ساقي على ظهر مائدة للشاي أو أي شيء قريب آخر ، فأجبر بهذه الطريقة كل انسان آخر ، على أن يلقي عن عاتقه رداء الكبرياء الزائفة .

وقد اكتشفت معادلة حول الراحة النسبية للأثاث . ويمكن وضع هذه المعادلة على النحو التالي : كلما كان المقعد منخفضاً ، كلما كان أكثر مدعاة للراحة . ويجلس كثيرون من الناس في بعض المقاعد في بيوت أصدقائهم ، ويصابون بشيء من الدهشة لما يلقونه من راحة في هذه المقاعد . وكنت أظن قبل اكتشاف هذه المعادلة أن طلاب « الديكور » الداخلي في المنازل ، يضعون معادلات حسابية للنسب بين ارتفاع المقاعد وعرضها وزاوية ميلها بحيث تؤدي الى الحد الأقصى من إراحة الجالسين عليها . ولكنني بعد اكتشاف معادلتي الجديدة ، وجدت أن الأمر أبسط من ذلك بكثير . فلو أخذت أية قطعة من الأثاث الصيني ، ونشرت من قوائمها بالمنشار بضع انشات ، تصبح هذه القطعة أكثر مدعاة للراحة فوراً ، وإذا ما عدت فنشرت منها بضع انشات اخرى ،

أصبحت أكثر إراحة . وتكون النتيجة المنطقية لكل هذا أن أحسن وضع لراحة الانسان هو استلقاؤه في فراشه . انها مسألة في منتهى البساطة .

وفي وسعنا عن طريق هذا المبدأ الأساسي أن نصل الى الاستنتاج بأنه إذا وجدنا أنفسنا نجلس على مقاعد عالية ، ولم يكن في وسعنا بتر أرجلها ، فكل ما نستطيع أن نفعله ، هو أن نبحث عن شيء أمامنا نريح عليه سيقاننا ، بحيث نقلل نظرياً من البون بين مستوى أوراكنا وبين أقدامنا . وقد عثرت على وسيلة في منتهى البساطة ، وهي أن أسحب أحد أدراج مكتبي لأرخي قدمي عليه . واني لأترك لتفكير كل انسان إيجاد الطريقة البارعة لتطبيق هذا الاستنتاج .

وأجد نفسي مضطراً لإزالة أي التباس قد ينشأ لدى القارىء من أنني أظل مستلقياً باسترخاء طيلة الوقت أي ست عشرة ساعة في اليوم ، بأنني قادر على الجلوس ثابتاً أمام مكتبي أو طاولتي ، لمدة ثلاث ساعات مستمرة وبدون توقف. وبالرغم من أنني أرغب في أن أوضح بأن إراحة عضلاتنا لا تؤلف جريمة ، إلا أنني أود أن أؤكد بأنني لا أعني بذلك ان علينا ان نبقي على عضلاتنا مستريحة طيلة الوقت ، أو أن هذا هو الوضع الصحي الصحيح الذي يجب على الانسان أن يتخذه لنفسه طيلة الوقت . أجل إن هذا لم يجل بخاطري على الإطلاق . فالحياة الانسانية تمضي على أي حال في دوائر متلاحقة من العمل واللهو ، ومن التوتر والاسترخاء . وتمر حيوية عقل الرجل وقدرته على العمل بدورة شهرية تماماً كدورة الحيض عند الانثى . ولقد بين ويليام جيمس أنه عندما تكون سلاسل الدراجة مشدودة كل الشد ، تكون حركتها بطيئة ، وكذلك الحال بالنسبة الى العقل البشري . ويملك الجسم البشري قدرة لامحدودة على التكيّف . ولست أشك في أن اليابانيين الذين ألفوا الجلوس على الأرض وقد تشابكت سيقانهم ، يصابون بآلام إذا ما حملوا على الجلوس على المقاعد . ولا شك في أننا لا نحقق تلك الحكمة السامية من العيش إلا إذا قسمنا حياتنا بين الجلوس منتصبي

القـــامة في ساعات العمل في المكتب وبين الاستلقاء على أريكة بعد ساعات العمل المضنية .

وهنا لا بد من توجيه نصيحة للسيدات .... إذا تعذر عليكن أن تعثرن على شيء ترحن عليه أقدامكن ، فإن في وسعكن أن تتربعن في جلستكن على الأريكة . وأود أن أؤكد لكن ، أن منظركن في مثل تلك الجلسة ، في منتهى السحر والجمال .

٣ — عن الحديث

قال علامة صيني لصديق له بعد حديث طويل دار بينهما ... « حقاً إن التحدث اليك ليلة واحدة أحسن من دراسة الكتب عشر سنوات » . ولا شك في أن في هذا القول كثيراً من الصدق . ولقـد أصبح « حديث الليل » تعبيراً شائعاً في الاستعمال ليمثل حديثاً سعيداً بين صديقين ، حـــدث في الماضي أو سيحدث في المستقبل . وهناك كتابان أو ثلاثة كتب تشبه الكتاب الانجليزي « اوتوبيس عطلة نهـــاية الاسبوع » ، وتحمل أسماء أظنها « حديث ليلة » أو « حديث ليلة في الجبال » . ولا شك في أن المتعـة العظيمة الناشئة عن حديث رائع بين صديقين في الليل ، أمر نادر . فقـــد بيّن لي ليوينج ، أن الحكماء لا يعرفون كيف يتحدثون عادة ، كما ان خيرة المتحدثين لا يكونون إلا نادراً من الحكماء . ولا شك في أن العثور على رجل منعزل في معبـد من معابد الجبال ، يفهم الحياة على حقيقتها ، ويفهم في الوقت نفسه فن الحديث ، أمر يدعو إلى الكثير من السرور الذي يحس به عالم الفلك عندما يكتشف نجماً سياراً جديداً ، أو عالم النبات عندما يكتشف فصيلة جديدة منه .

ويشكو الناس في هذا العصر من ضياع فن الحديث حول المواقد ، أو تبادل الادعاءات ، بسبب غذ الحياة العملية التي نعيشها في سرعتها . وأنا لا أشك في أن لسرعة الحياة دخلاً في ذلك ، ولكنني أعتقد في الوقت نفسه ، أن تشويه البيت وتحويله إلى مجرد شقة تخلو من المواقد ، قد أدى إلى الشروع في تحطيم فن الحديث ثم جاءت السيارة فأكملت العملية . وليس ثمة من شك في خطل السرعة، إذ ان الحديث لا يوجد فقط ، إلا في مجتمع من الناس المولعين بروح الفراغ بما فيه من راحة ولهو وشغف بالتفاهات ، فهناك فرق واضح بين مجرد الكلام ، والحديث . ومثل هذا الفرق موجود في اللغة الصينية بين الكلام والحديث ، إذ أن الأول أكثر جداً من الثاني ، بينما يكون الثاني أكثر تفاهة في المواضيع التي يطرقها . وهناك بون مماثل أيضاً بين رسائل العمل ، والرسائل المتبادلة بين صديقين من الأدباء . وفي وسعنا أن نتحدث عن العمل مع أي إنسان ، ولكن هناك قلة من الناس الذين نستطيع ان نخوض معهم في حديث ليلي . ولذا فإن المتعة التي نحصل عليها في حالة العثور على محدث لبق ، تعادل إن لم تزد على تلك التي نحصل عليها من قراءة مؤلف مبدع ، مع إضافة الاستماع إلى صوته ، ورؤية حركاته . وقد نعثر على هذه المتعة أحياناً عند لقاء الأصدقاء القدامى ، أو عند اجتماع بعض المعارف الذين يتبادلون الذكريات . وقد نعثر عليها أحياناً أخرى في غرفة التدخين في أحد القطارات الليلية ، أو في أحد الحانات إبان القيام برحلة طويلة. وقد تتناول الأحاديث مواضيع الأشباح والأرواح الشريرة، مع رواية القصص الطريفة والتعليقات الناقدة عن النظم الديكتاتورية والخونة ، وقد نستمع أحياناً إلى أضواء تلقى من معلق حكيم ، أو محدث لبق ، على ما يقع في بلاد ما ، مما يشير إلى توقع انهيار نظام الحكم فيها أو تبدله . ولا شك في أن مثل هذه الأحاديث تظل بين أحسن الذكريات التي نتعلق بها طيلة حياتنا .

ولا شك في أن الليل هو أنسب الأوقات للحديث ، إذ أن أحاديث النهار تفتقر إلى شيء من الألق والبريق . ويبدو لي أن مكان الحديث أمر لا يهم

كثيراً ، ففي وسع الانسان أن يتمتع بحديث رائع عن الأدب والفلسفة ، سواء أكان يجلس في صالون من صالونات القرن الثامن عشر ، أو على بعض البراميل في مزرعة من المزارع . وقد تتحقق المتعة في ليلة ماطرة عاصفة ، عندما نكون مسافرين في مركب نهري ، وتكون مصابيح المراكب الراسية على الضفة الأخرى من النهر تلقي انعكاسات أضوائها على صفحات الماء ، إذ يشرع « المراكبي » في سرد القصص علينا عن الملكة عندما كانت فتاة . ولا شك في أن سحر الحديث يمثل فيأن الظروف التي يقع فيها، والمكان والزمان والأشخاص الذين يشتركون فيه ، كلها تمثل عوامل تختلف من وقت إلى آخر . وتعود إلى خواطرنا هذه الأحاديث ، إما في ليلة من الليالي المقمرة ذات النسيم العليل حيث تعبق رائحة أزاهير الأكاسيا ، أو في ليلة عاصفة حالكة الظلمة ، يشع أثناءها الضوء الخافت من الموقد، أو في ليلة أخرى نجلس فيها إلى الشرفة نرقبالقوارب وهي تهبط مع النهر ، فنرى التيار السريع ، يقلب أحدها رأساً على عقب ، أو في ليلة رابعة نقضي فيها ساعات الصباح الباكر في غرفة الانتظار في إحدى المحطات . ولا شك في أن هذه الصور ، تترابط في ذاكراتنا مع ذكرياتنا عن تلك الأحاديث التي اشتركنا فيها . ومن المحتمل أن يكون الحديث قد ضم شخصين أو ثلاثة ، أو خمسة أو ستة ، ومن المحتمل أن يكون شين العجوز سكراناً في تلك الليلة ، أو مصاباً ببرد شديد مما جعل في صوته خنة أضفت على الحديث شيئاً من الرونق . فالحياة الإنسانية لا بد وأن تضم شيئاً من العيب ، فالقمر لا يمكن أن يظل بدراً دائماً، والأزاهير لا يمكن أن تظل يانعة باستمرار، والأصدقاء لا يمكن أن يجتمعوا في كل حين ، ولا أخال الآلهة ستغار منا إذا كنا نمتع أنفسنا ببعض المسليات البسيطة .

ويكون الحديث الممتع معادلاً في العادة للمقالة الطيبة المألوفة . فهو في أسلوبه ومحتواه ، مشابه للمقال . ولعل من أكثر المواضيع التي تطرق في الأحاديث عادة ، الأرواح الشريرة ، والذباب ، وعادات الانجليز الغريبة ،

والفرق بين الحضارتين الشرقية والغربية ، واكشاك بيع الكتب على ضفاف نهر السين ، وعاملة الخياطة ذات الشبق النسوي ، وقصص الحكام والساسة والقادة العسكريين ، وأساليب الحفاظ على الحمضيات . ولعل اسلوب الأحاديث الممتع، هو الشيء الذي تشترك فيه مع المقال . ويظل هـــذا الاسلوب متبعاً حتى ولو كانت المواضيع التي تعالج في منتهى الجـــد والوقار والأهمية كالافكار المتعلقـة بالتبدلات المؤسفة والمضطربة في أي بلاد أو تدهور الحضارة الانسانية نفسها من جراء التضييق على الحرية والكرامة البشرية أو قضايا الحق والعدل. وقد يغضب الانسان ممّن يسرقون حريته ، ولكنه لا يستطيع التعبير عن مشاعـــره الا بابتسامة خفيفة تتراءى على شفتيه ، أو تحت وطأة قلمه . وقـــد لا يسمع الا أقرب أصدقائنا حملاتنا العنيفة القاسية التي نطلق فيها العنان لمشاعرنا ، وعلى هذا الأساس ، يكون المتطلب الأول للحديث الصادق ، قدرتنا على التعبير عن آرائنا ، ونحن في أوقات راحتنا ، في غرفة مـع أقرب اصدقائنا ، دون ان يكون معنا أي انسان لا نحبه .

ومن السهل علينا ان نرى البون بين الطراز الصحيح للحديث وبين الصور الاخرى للتبادل المهذب من الآراء . عن طريق تبيان الفرق بين المقالة المألوفـة الطيبة وبين البيانات التي يصدرها الساسة. فبالرغم من ان هذه البيانات السياسية قد تضم الكثير من الاحاسيس النبيلة عن الديمقراطية والرغبـــة في الخـدمة ، والاهتمام بتحسين احوال الفقراء ، والاخلاص للبلاد والمثـــل السامية ، وحب السلام ، والتأكيد على الصداقات الدولية وعدم التحدث عن السلطان أو المال أو الشهرة ، الا أن هذه البيانات تبدو من بعيد لناظرها كسيدة مفرطـة في زينتها ومغالية في لباسها ، وعندما نستمع إلى حديث صحيح، أو نقرأ مقالاً طيباً مألوفاً، نحس بأننا نرى امامنا فتاة ريفية بسيطة اللباس ، تجلس إلى شاطىء النهر تغسل ملابسها، وقد انتثر شعرها، ومع ذلك ظلت محتفظة بجمالها، وقربها إلى النفس ، والميل اليها . فهذا هو السحر الطبيعي المألوف الذي تهدف اليه المرأة الغربية من

زينتها. ويجب ان يكون هذا السحر الطبيعي نفسه جزءاً من كل حديث طيب، ومقال مناسب .

ويتضح من هذا ان الاسلوب الصالح للحديث ، هو اسلوب اللامبالاة والود، اذ تفقد الاطراف التي تشترك فيه وعيها بذاتها، وتنسى تمام النسيان كيف تلبس وكيف تتكلم وكيف تعطس ، واين تضع ايديها ، ولا يهمها الاتجاه الذي يسير فيه الحديث . وفي وسعنا ان نخوض غمرة الحديث عندما نلتقي بأقرب اصدقائنا إلى انفسنا ونصبح على استعداد لننضو عنا همومنا إلى بعضنا البعض . فـأحدنا يضع قدميه على مائدة مجاورة، والآخر يجلس على حافة النافذة ، والثالث يقتعد الأرض وقد وضع تحته وسادة أخذها من الاريكة ، ليترك ثلثها فارغاً بـلا وسائد . فلا يمكن لفؤاد الانسان ان يحس بالراحة إلا اذا استرخت يداه وقدماه وجسده . وآنذاك يصح قول الشاعر ...

أرى امامي اصدقائي الذين يعرفون حقيقة ما في قلبي
ولا ارى إلى جانبي اياً من اولئك الذين يؤذون عيني .

وهذا هو الشرط المطلق الضروري لكل حديث يستحق اسم الفن . وطالما اننا لا نكترث بما نتحدث عنه ، فان الحديث سيمضي ابعد وابعـد دون نظام ودون اسلوب ، وينفض الجمع والسعادة تغمر جميع القلوب .

هذه هي العلاقة بين اوقات الفراغ وبين الحديث ، وبين هذا وبـين ظهور النثر ، اذ اعتقد ان النثر الرفيع الثقافة لأية امة قد ولد بعد ان يكون الحديث قد تطور إلى فن جميل. ونحن نرى هذه الظاهرة بوضوح في تطور النثر في الادبين الصيني والأغريقي . ولا أستطيع ان اتصور ايضاحـاً لحيوية الفكر الصيني في القرون التي تلت كونفوشيوس ، والتي ولدت مـا يسمى « بالمدارس الفكرية التسع »، سوى تطور الاساس الثقافي الذي شهد ولادة طبقة من البحاثين ، الذين

لم يكن لهم عمل سوى الحديث . ونحن نعثر ، تأكيداً لنظريتي ، على خمسة من النبلاء الاثرياء العظام الذين اشتهروا بالكرم والشهامة وحب الاضياف . وكان منزل كل واحد منهم يضم الالوف من البحاثين الضيوف ، فقد قيل ان بيت مينجشانج من مملكة شي كان يضم ثلاثة آلاف من البحاثين او الضيوف الذين يلبسون الاحذية المرصعة بالجواهر ، والذين يجدون الغذاء في منزله . وفي وسع الانسان ان يتصور الحديث الضوضائي والضجيج في مثل هذه البيوت . وتمثل كتب ليبهتسي وهوينانتسي وشانكوتسيه ولولان ما كان يدور في هذه الاجتماعات من احاديث بين البحاثين . ومن الجدير بنا ان نلاحظ بالنسبة الى الكتاب الاخير ، الذي كتبه على الغالب ضيوف لو ، وان كان قد نشر باسمه ، كما كان يحدث في القرنين السادس عشر والسابع عشر بالنسبة الى رعاة الأدب في انجلترا ، ان هذا الكتاب تضمن تطويراً لفكرة فن الحياة الطيبة على اعتبار ان من الافضل ان يعيش الانسان حياة طيبة ، او لا يعيش مطلقاً . وكانت هناك ايضاً طبقة من السفسطائيين اللامعين او المحدثين المحترفين الذين توظفهم الحكومات المتعادية وتبعث بهم كدبلوماتيين لتجنب ازمة من الازمات ، او لاقناع جيش معاد بالتراجع عن اسوار اية مدينة محاصرة ، أو لتحقيق حلف من الاحلاف كما فعل الكثيرون منهم . وكان مثل هؤلاء السفسطائيين المحترفين يتميزون دائماً بذكائهم ، وبالأحاجي الذكية التي يعرضونها ، وبقوتهم الفائقة في الاقناع . وقد حفظت لنا هذه المناقشات والحوارات الذكية التي اشترك فيها هؤلاء في كتاب « شانكوتسي ». وقد نبعت من هذا الجو من النقاش الحر والضاحك اسماء ضخمة في عالم الفلسفة كاسم يانج شو المشهور بفلسفته الشكية ، وهايفيتسي المشهور بفلسفته الواقعية والذي يعتبر مشابهاً لمكيافلي الى حد كبير ، ويانتسي الدبلوماتي العظيم والمشهور بذكائه .

وتبدو لنا صورة الحياة الاجتماعية المتحضرة التي شهدها القرن الثالث قبل الميلاد ، أي قبيل نهاية هذه الفترة ، في التسجيل التاريخي للحادث الذي تمكن

فيه عالم يدعى لي يوان من تقديم شقيقته المثقفة الى بلاط احد حماة الادب الاثرياء في مملكة شو . وتمكن هذا المحامي الثري من الحصول على الحظوة عند الملك بفضل هذه الفتاة التي تمكنت في النهاية من القضاء على مملكة شو عن طريق الجيش الظافر لأول اباطرة الصين الذي وحد الامبراطورية الصينية . يقول السجل ...

« كان هناك في الماضي شخص يدعى لي يوان يعمل مساعداً للأمير شونشين، رئيس وزراء مملكة شو. وكانت للي هذا شقيقة تدعى نوهوان ، تحدثت اليه ذات يوم على النحو التالي ... « سمعت ان ليس لدى الملك وريث للعرش . ولو قدمتني الى رئيس الوزراء ، لتمكنت من رؤية الملك عن طريقه ». ورد شقيقها بقوله... «ولكن رئيس الوزراء موظف رفيع الدرجة، فكيف أستطيع أن أذكر الموضوع أمامه ؟ » وقالت شقيقته ... « عليك أن تذهب وتراه ، وتدعوه الى زيارتنا ، لأن ضيفاً نبيلاً قد حل علينا . فاذا ما سألك عن هذا الضيف، فقل له أن لديك شقيقة سمع بها رئيس وزراء مملكة لو ، وانه أوفد رسولاً اليك يطلبها منك ، وأن ساعياً وصل من هناك يحمل هذه الانباء . وسيسألك حتماً عما تستطيع شقيقتك أن تفعله ، فقل له انني أعزف على آلة الشين وأقرأ وأكتب ، وأجيد تلاوة الروائع . ولا ريب في انه سيطلبني منك ».

« ووعد لي شقيقته بأن ينفذ لها ما طلبته ، وعندما اجتمع الى رئيس الوزراء في اليوم التالي ، قال له ...: جاءني ساعي من البيت يقول أن ضيفاً حل علينا من بلد بعيد وان علي أن أعود إلى البيت لاستقباله . وسأله رئيس الوزراء ، عن هوية هذا الضيف البعيد فرد لي قائلاً ... « لي شقيقة سمع رئيس

وزراء مملكة لو عن شهرتها، فأوفد رسولاً يطلبها مني ». وقال رئيس الوزراء « هل استطيع رؤيتها ؟ اطلب اليها أن تـأتي لمقابلتي في صرح لي . » ورد لي ... « أمرك يا سيدي ». وعاد لي إلى شقيقته يبلغها بالموعد الذي حدده رئيس الوزراء فقالت.. « عليك أن تذهب الى المكان أولاً ، لتكون هناك عندما اصل اليه ... »

« وجاء رئيس الوزراء في الموعد فطلب مقابلة نوهوان التي قدمت اليه . وشرب الاثنان كثيراً ، وراحت تعزف له على الشين ولم تكد تنهي اغنيتها حتى كان رئيس الوزراء قد طرب للغاية ، وطلب اليها ان تقضي الليل في الصرح ... ».

كانت هذه هي الخلفية الاجتماعية للسيدات المتحضرات والمثقفين المترفين الذين خلفوا لنا أول تطور مهم وقع في النثر في الصين . أجل كانت هنـاك سيدات يحسن الحديث والقراءة والكتابة والعزف على الآلات الموسيقية ، خالقـات بذلك الحوافز الأدبية والاجتماعية والفنية المرحة ، التي وجدت دائماً ، في كل مجتمع يختلط فيه الجنسان . وكان هذا المجتمع ارستقراطياً بطبعه وبيئته ، اذ كان من العسير رؤية رئيس الوزراء ، ولكنه عندما سمـع عن سيدة تحسن العزف وتعرف الكثير من الروائع ، اصر على الاجتماع بها . كانت هـذه هي حياة الترف التي عاشها سفسطائيو الصين القدامى وفلاسفتهـا . ولم تكن كتب هؤلاء الفلاسفة الأول ، إلا ثمرة أحاديث أوقات المرح التي كان يلتقي فيها هؤلاء المفكرون .

ومن الواضح ان فن الحديث لا يترعرع الا في المجتمعات التي تعرف أوقات الفراغ واللهو والمرح ، ومن الواضح كذلك ، ان فن الحديث يخلق الكثير من المقالات المشهورة . ولقد عرف تاريخ الحضارة الانسانية ، فن الحديث وفـن

الكتابة في وقت متأخر نسبياً ، وذلك لأن العقل البشري كان في حـــاجة الى تنمية شيء من رقة اللمس والدهاء ، وهو ما لا يتاح الا في حياة اللهو والمرح ، وأنا أعرف أن بعض الشيوعيين يعتبرون من يحيا حيـاة المرح ، مضاداً للثورة أو مراجعياً ، ولكنني على ثقة من أن الهدف الرئيسي للشيوعية والاشتراكية هو أن يتمكن الناس جميعاً من التمتع بحياة المرح واللهو ، وأن تصبح هـــذه المتعة مشاعاً للجميع . ولذا فالتمتع بحياة الدعـــة والمرح لا يمكن ان يكون خطيئة ، وإنما يعتمد تقدم الحضارة على الافادة افادة ذكية من هذه الحيـــاة ، وليس الحديث الا شكلاً من اشكال هذا التمتع. وليس في امكان رجال الأعمال الذين يكدون جميع ايامهم ، ويمضون إلى فراشهم فوراً بعدالعشاء ، ليشخروا كالبقر ، أن يقدموا أي اسهام للحضارة .

وكثيراً ما يفرض وقت الفراغ على الانسان، ولا ينسجم مع تطلعاته ، ومع ذلك ففي وسعنا ان نقول ، ان الكثير من روائع الأدب قـد خلقت في أجواء من الفراغ المفروض . وعندما نرى عبقرياً من عباقرة الأدب الذين يرجى منهم الكثير ، يبدد طاقاته في الحفلات الاجتماعية التافهة أو في كتابـــة المقالات في الاحداث السياسية الدائرة ، فان خير خدمة نؤديها له ، هي أن نعتقـــله ، ونودعه في السجن . فعلينا أن نذكر ان الملك وين وضع كتابـــه عن « التغير » الذي يعتبر من روائع الكتب الفلسفية عن التغيرات في الحياة الانسانية وهـــو رهين السجن . كما ان سسيما شيين وضع في السجن رائعته « شيكي » التي تعتبر خير تاريخ كتب في اللغة الصينية . وكثيراً مـــا صدم المؤلفون في تطلعاتهم الى مستقبل سياسي ، أو كانت الأوضاع السياسية مثبطة لعزائمهم ، فتم لهم ، انتاج خيرة الروائع في الفن والأدب . ولعل هذا هو السبب في ان خـيرة رسّامي الصين وكتابها المسرحيين ظهروا في يوان في عهد الغزو المغولي ، وفي ان رسامين من امثال شي طاو وباتا شانجين قد ظهروا في فترة غزو المانشو للصين. فقد دفعتهم الوطنية التي اتخذت شكل الاحساس بالاذلال الكامل في ظل حـــكم اجنبي الى

تكريس انفسهم للفن والعلم. ولا ريب في أن شي طاو يعتبر من اعظم الرسامين الذين انجبتهم الصين ، ولا ريب في أن جهل الناس في الغرب به يرجع إلى حادث عارض ، وإلى الحقيقة الواقعة وهي ان اباطرة منشوكو ، لم يكونوا راغبين في انجاح الفنانين الذين لا يعطفون على حكمهم . وهناك عـــدد من كبار الكتاب الذين فشلوا في الحصول على الحظوة عند الأباطرة ، شرعوا في توسيع طاقاتهم ، وتحولوا إلى الخلق، كما حدث لشي‌نايان الذي زودنابكتابه « جميع الناس اخوة » وبوليوهسيين الذين اخرج لنا كتابه « قصص غريبة من مرسم صيني ».

ونجـد في مقدمة الكتـاب الأول المنسوب إلى شي ، وصفـاً من أروع الأوصاف لمتع الحديث بين الاصدقاء اذ يقول ...

« عندما يفد جميع اصدقائي إلى بيتي ، يبلغ عددهم ستة عشر شخصاً ، ولكنهم لا يلتئم شملهم الا نادراً . ولا يتغيبون جميعاً عن المجيء الا في الايام العاصفة او الممطرة . ويكون عددهم في معظم الايام ستة او سبعة اشخاص ، وعندما يفدون لا يشرعون فوراً في الشراب ، بل يرشفون رشفات منه ، ثم يتوقفون ، لأن متعتهم تكون في الحديث لا في الخمر . ونحـن لانتحدث عادة في سياسات القصر الملكي،لا لأن هذه السياسات بعيـدة عن اهتمامنا فحسب ، بل ولأن معظم هذه الأنباء تعتمد لبعدنا عـن القصر على السماع ، والسماع يعتمـــد بدوره على الشائعات ، ولا شك في ان الحديث عن الشائعات اضاعـــة للوقت . ونحن لا نتحدث ايضاً عن اخطاء الناس ، اذ ليست للناس اخطاء . ولا يخلق بنا ان نسيء اليهم . ونحـــن لا نقول شيئاً يثير الناس ويفزعهم ، اذ لا يفزع انسان ، وكل ما نريده من الناحية الاخرى ان نحمل النـــاس على فهم ما نقوله ، ولكن الناس لا يفهمون ما نقوله . وكل ما نتحدث عنـــه ،

يقبع في اعماق النفس البشرية ، ويكون اهل العالم مشغولين كل الشغل عن سماعه » .

وهكذا صدر مؤلف شي العظيم بمثل هذا الاسلوب ، ومنطوياً على مثل هذه الأحاسيس ، ولم يكن هذا ممكناً لولا ان مثل هؤلاء الكتاب العظام كانوا ينعمون باوقات الفراغ .

ولا شك في ان رفعة الكتابة عند الاغريق ، تحققت ايضاً في نفس هذه البيئة الاجتماعية المنطوية على المرح والفراغ . ولا شك في ان ثراء الفكر ووضوح الكتابة عند الاغريق مدينان بوجودهما الى فن احاديث الفراغ وهذا يظهر جلياً في « حوارات افلاطون ». فنحن نجد في المأدبة مجموعة من المفكرين الاغريق مسترخين على الارض ، يثرثرون في مرح في جو من الشراب وتناول الفاكهة ، وكأنهم صبيان يلهون . ولا شك في ان براعة هؤلاء الناس في تهذيب فن الحديث هو الذي خلق لديهم صفاء الفكر ووضوح الاسلوب مما يشير الى تباين واضح مع ما في اسلوب الكتاب الاقاديميين المحدثين من تفخيم وتعالمية . ولا شك في ان هؤلاء الاغريقيين عرفوا كيف يحسنون التصرف في موضوع الفلسفة بسرعة وعدم اهتمام . ولا شك في ان جو الحديث الرائع عند فلاسفة الاغريق ، ورغبتهم في التحدث ، والاهمية التي كانوا يعلقونها على الاستماع الى حديث ممتع ، واختيار الاجواء المناسبة للحديث ، كلها امور وصفت وصفاً رائعاً في مقدمة كتاب « فايدروس » ، التي يحسر النقاب كثيراً لنا عن رقي النثر عند الاغريق .

ولا تبدأ « جمهورية افلاطون » كما كان يود الكثيرون من الكتاب المحدثين ان تبدأ بعبارة تقول « ان الحضارة الانسانية كما تظهر في المراحل المتعاقبة من تطورها ، ليست الا حركة دينامية تبدأ من اختلاف الجنس وتنتهي بتفرده ». أو بعبارات اخرى من هذا الطراز اللامفهوم . فهي على النقيض من ذلك تبدأ

بعبارة عبقرية تقول ... « مضيت بالأمس الى بيريه ، مع جلوكو نجل ارسطو لاقدم الطاعة والولاء للالهة ، وقد طغت علي الرغبة في الوقت نفسه في ان أشهد الطريقة التي يحتفلون فيها الآن بالعيد ، اذ كانت هذه هي المرة الأولى التي يحتفلون فيها به » . ولا شك في اننا نجد نفس الجو الذي عاش فيه فلاسفة الصين القدامى عندما كانوا يفكرون بحيوية وجدية . قائماً عند الاغريق الذين يجتمعون ليناقشوا ما اذا كان في وسع كاتب المسرحيات المؤسية ان يكتب المسرحيات الساخرة ، على النحو الذي تصفه لنا المأدبة . فقد شهدت هذه المأدبة جواً مزيجاً من الجد والمرح ، وحضور البديهة في الردود الودية . وكان الناس يسخرون من قدرة سقراط على الشراب ، ولكنه كان يجلس هناك ، يشرب عندما يشاء . ويتوقف عن الشراب متى اراد . يصب لنفسه كأساً دون ان يأبه بمن حوله . وكان يواصل الحديث طيلة الليل . حتى يغفو الجميع ، ولا يظل هناك بين الرفاق ، صاحياً الا اريستوفانيس واجاثون . وكان اذا ما دفع الجميع باحاديثه الى النوم ، وظل وحده مستيقظاً ، يترك المكان ، ويمضي الى ليسيوم حيث يستحم ، ويقضي النهار متجدد الانتعاش . وهكذا خلقت فلسفة الاغريق في هذا الجو من الاحاديث الودية .

وليس ثمة من شك في حاجاتنا الى وجود عنصر المرأة فى المناقشات المهذبة ، لنضفي على هذه المناقشات الحيوية التي تعتبر روح النقاش . ولو فقد الحديث عنصر الحيوية والمرح ، تحول سراعاً الى ملل وسأم ، وتحولت الفلسفة نفسها الى شيء من الحماقة الغريبة عن الحياة . وقد شهدت جميع البلاد في مختلف العهود والعصور ، تطوراً في اسلوب الترحيب بالمرأة في المجتمع ، عند ما تكون هناك في هذه البلاد ، رغبة في تفهم فن الحياة . وقد صح هذا القول بالنسبة الى اثينا في عهد بركليس ، كما صح بالنسبة الى « الصالونات الادبية » في فرنسة القرن الثامن عشر . وكان المفكرون الصينيون ، يصرون حتى في الصين حيث كان الاختلاط بين الجنسين محرماً بموجب التقاليد المرعية ، على حضور النساء

القادرات على الاشتراك في احاديثهم . وقد ظهر عدد من النسوة البارزات من امثال هسيه طاويون ، وشاويون وليو توشيه وغيرهن في مجالس الحديث في عهود ثلاث اسر مالكة هي اسر شين وسونج ومعين ، اذ كان فن الحديث قد ارتقى واصبح موضة راقية . وبالرغم من ان الرجال الصينيين كانوا يطلبون من نسائهم التمسك بالفيضلة ، والامتناع عن لقاء الرجال ، فانهم ما كانوا يتورعون عن ابداء الرغبة في لقاء الموهوبات من النساء . ولقد امتزج تاريخ الصين الادبي على أي حال ، بحياة الكثيرات من المحترفات من بائعات الهوى . ولا شك في ان تطلب لمسات السحر النسوي في الاجتماعات ابان الحديث ، تطلب عالمي . ولقد قابلت سيدات المانيات يستطعمن المضي في الحديث من الخامسة بعد الظهر حتى الحادية عشرة . كما قابلت سيدات امريكيات او انجليزيات اثرن في نفسي الرعب ، من واسع معرفتهن بعلم الاقتصاد ، وهو موضوع فشلت في ان اجد في نفسي الشجاعة لدراسته . ويبدو انه حتى لو لم يتوافر عدد كاف من النساء يستطيع التحدث في كتابات ماركس وانجلز ، فان هناك على الاقل عدداً كافياً منهن ، يحسن الاستماع الى المناقشات التي تدور حول هذه المواضيع . واني لأجد متعة في رؤيتهن تفوق متعتي في التطلع الى رجال يستمعون وهم متبلدو الفكر والذهن .

٤ - عن الشاي والصداقة

لست اعتقد ، ان التاريخ البشري قد شهد من وجهة نظر سعادة الانسان وحضارته ، اختراعات اكثر اهمية واكثر اسهاماً مباشراً في التمتع باوقات الفراغ والصداقة والحياة الأجتماعية والحديث ، من اختراع التدخين والشراب والشاي . وتشترك هذه المظاهر الثلاث في عدة امور مشتركة ، اولها انها تساعدنا على التطبع اجتماعياً وثانيها انها لا تملأ معدنا كما يفعل الطعام ، ولذا يمكن التمتع بها بين اوقات الوجبات الغذائية ، وثالثها ان التمتع بها يتم عن طريق

حواس الذوق والشم . ولقد كان لها واسع النفوذ على الحضارة الانسانية ، حتى بتنا نخصص عربات للتدخين في القطارات الى جانب عربات الطعـــام ، ونقيم مشارب خاصـــة لاحتساء المشروبات ، ومقاهي لتناول الشاي . ولقد اصبح شرب الشاي في الصين وانجلترا على الأقل ، نظاماً اجتماعياً .

ولا يمكن تنمية التمتع بالتبغ والشراب والشاي الا في جو من حياة الفراغ والصداقة والعيش الاجتماعي . ولا يمكن تحقيق هـذا التمتع بشكل كامل الا لاولئك الموهوبين بموهبة تكوين الصداقات والاحساس بالزمالات ، والمولعين طبيعياً بحياة الفراغ والمرح . ولو فقدنا عنصر الاحساس بالعيش الاجـــتماعي ، لفقدت هذه الامور كل معنى لها . ويجب ان يتم التمتع بهذه الامور كالتمتع برؤية القمر والثلج والازهار ، في رفقة صالحة ، ولعل هذا في رأيي هو ما يصر عليه فنانو الطبيعة من الصينيين ، وهو ان هناك طرازاً معيناً من الناس ، يتمتع بطراز معين من الازهار ، وان يرتبط التمتع برؤية طراز معين من السيدات ، وان التمتع بسقوط المطـر لا يكون كامـلاً ، الا اذا استلقى الانسان على سرير من الخيزران في معبد ناء وواغل في الجبال في يوم من ايام الصيف ، وان المزاج هو الأمر المهم ، وان هناك مزاجاً مناسباً لكل شيء ، وان الرفقة السيئة قـــد تتلف المزاج اتلافاً كاملاً . ومن هنـــا تكون بداية أي فنان من فناني الحيـــاة ، اذا اراد التمتع بها ، متحدة في شرط اولي لا بد منه ، وهو العثور على الاصدقاء الذين يشتركون معه في نفس الطراز من المزاج . وكذلك المعـاناة في الاحتفاظ بصداقاتهم ، كالعناء الذي تحس به الزوجات في الاحتفاظ بأزواجهن ، أو ذاك الذي يتحمله لاعب الشطرنج المجيد ، قاطعاً الوف الاميال ليـــلعب مع لاعب مجيد آخر .

ويتضح من هذا ان الجو هو المهم . وعلى المرأ أن يبدأ بالمفهوم الصالح عن جو المفكر ، والبيئة العامة التي يتمتع بها في الحياة ضمن هذا الجو . فهناك اولاً الاصدقاء الذين يتحتم علينا اشراكهم معنا في هذا التمتع ومن الضروري اختيار

طرز مختلفة من الاصدقاء لمختلف طرز التمتع . فمن الخطأ كل الخطأ ، ان يمضي المرء في رياضة ركوب الخيل مع صديق من النوع الكثير الدرس والتأمل ، كما ان من الخطأ الذهاب الى حفلة موسيقية مع انسان لا يفهم الموسيقى . وقد حدد كاتب صيني ذلك على النحو التالي :

> « على المرء للتمتع بالازاهير ان يختار اصدقاءه من ذوي القلوب الكبيرة . وعليه للتمتع بأماكن الغناء وبالتطلع الى المغنيات ان يرافق اصدقاء من ذوي الأمزجة المعتدلة . وعليه لتسلق الجبال العالية ، ان يصطحب اصدقاء من الخياليين المتعشقين للمغامرات . وعليه للتمتع بركوب البحر ان يصطحب اناساً من ذوى الطبائع الميالة الى التبسط . وعليه للتطلع الى القمر ان يؤمن اصدقاء من ذوي الطبائع الفلسفية الباردة . وعليه عند توقع الثلج ان يكون في رفقة صديقات جميلات ، اما عند الشراب ، فعليه ان يرافق صديقات يتمتعن بالحيوية والجاذبية » .

وعلى المرء بعد ان يختار اصدقاءه للتمتع الصالح بمختلف المناسبات ، ان يتطلع الى الاجواء المناسبة . فليس من المهم ان يكون بيت الانسان مترف الزخرفة ، ولكن من المهم ان يكون قائماً في ريف جميل ، يمكن صاحبه من السير والتجول بين حقول الارز ، أو الاستلقاء في ظلال الاشجار على ضفاف النهر . وتكون متطلبات البيت نفسه في منتهى البساطة . ففي وسع المرء ان يقتني كما قال احدهم ، بيتاً « ذا غرف عدة ، وحقولاً للقمح فيها عدة اهراء . وحوضاً للماء يصلح للاستحمام ، ونوافذ مصنوعة من الآجر المهشم . وجدران لا ترتفع عن الكتف ، وغرفاً لا تزيد مساحتها على كيس الارز ، ومع ذلك فهو يحس بعد التنعم بدفء الفراش القطني ، وبعد وجبة من حساء الخضار ، بأنه عظيم للغاية ، وان روحه ، تتمدد وتنتشر ، لتملأ الكون كله . وعلى المرء

لينعم بالجمال في مثل هذا المكان ، ان يزرع اشجـار الصفصاف في مدخله ، واشجار الخيزران الخضراء في مؤخرته . وقد تمتد طنف البيت في الجنوب الى مسافات بعيدة ، أما في للشمال ، فتكون النوافذ صغيرة ، بحيث يمكن اغلاقها في الربيع والشتاء ، لوقاية ساكن البيت من المطر والريح . وفتحها في الصيف والخريف بقصد التهوية . ولعل جمال شجر الصفصاف ان اوراقه كلها تسقط في الربيع والصيف ، بحيث تسمح للبيت بالتمتع الكامل بدفء الشمس ، بينما تقينا ظلالها في الصيف والخريف من الحر المحرق » . ووصف كاتب آخر ، هــذا الوضع بقوله ... « على المرء ان يشيد بيتاً ذا دعامات عدة ، وان يزرع امامه صفاً من الاشجار ، وان يغطي الدهليز بسقف من القش . وعليـه ان يخصص ثلاثة جوانب من حقله لزراعة اشجار الخـيزران والفواكه والازهـار ، وان يخصص جانبـين منه لزراعة الخضار . وتكون جدران الغرفة الاربعة عارية ، كما تكون الغرفة نفسها خالية ، باستثناء سريرين او ثلاثة اسرة خشنـة في الدهليز . ويجب الاحتفاظ بغلام صغير من الفلاحين لسقاية الخضـار ، وازالة الحشائش الضارة منها. وفي وسعه آنذاك ان يسلح نفسه بالكتب كالسيف الذي يقيه من العزلة ، وان يزود نفسه بالآلة الوترية وبالشطرنج متوقعاً زيارة بعض الاصدقاء » .

وسيعم المكان آنذاك جو من الألفة .... ويقول نفس الكاتب « .. وقد ازلت من مكتبي جميع مظاهر الرسميات ، ولا اقبل فيه الا الاصدقاء المقربين للغاية . وسأقدم لهم مما آكل ، وسأضحك معهم ، واثرثر ، واتحدث ، وقد نسينا ما يحيط بنا من وجود. ولن نبحث في فضائل الآخرين وعيوبهم ، بل سنتجاهل تمام التجاهل كل الامجاد والثروات الدنيوية . وسنبحث في اوقات فراغنـا في شؤون القدامى والمحدثين من الناس ، كما سنلهو في اويقات هدوئنا في الجبال والانهار . وسنؤمن لأنفسنا آنذاك الشاي الخفيف الشفاف ، والشراب الطيب ليكون متفقاً مع جو العزلة المرحة الذي نعيشه . وهذا هو مفهومي عن متعة الصداقة » .

وسنكون في هذا الجو اللطيف ، على استعداد لإرضاء حواسنا . ولا سيما تلك التي تتصل منها باللون والرائحة والصوت . وعلى المرء في مثل هـــذا الوضع ان يدخن وان يشرب . وسنحول اجسادنا آنذاك إلى جهاز حساس يـــدرك ما في الألوان والاصوات والروائح والأذواق التي تؤمنها الطبيعة والحضارة من انسجام رائع . ونحس وكأننا قيثارات على وشك أن يعزف عليها اساتذة العزف على الكمان . ويقول أحد الكتاب ... « وهكذا نحرق البخور في الليالي المقمرة ، ونعزف بعض المقطوعات الموسيقية على آلة قديمة ، وسرعان ما تختفي الوف مظاهر القلق من صدورنا ، وننسى جميع المطامع والرغبات الحمقاء . وسنتساءل آنذاك عن رائحة هذا البخور ، وعن نوع دخانه ، وعن ذلك الظل الذي ينفذ من النوافذ المغطاة بالورد الأبيض ، وعن هذا الصوت الذي ينبع من تحت أصابعي ، وعن هذه المتعة التي تسعدنا كل هذه السعادة ، والتي تجعلنا ننسى كل شيء ، وعن أوضاع الكون الذي لا نهاية له » .

وهكذا يصبح الانسان وقد تهذبت روحه ، وهدأ عقله ، وأحاط نفسه بالرفقة الصالحة ، في وضع صالح لتناول الشاي . فقد اخترع الشاي ليتناوله الناس في هدوء . كما اخترع الخمر ليتناوله في حفلات صاخبة . وهناك شيء في طبيعة الشاي ، يدفعنا الى عالم من التأمل الهادىء في الحياة . وقد يكون من المفجع ان يتناول الانسان الشاي ، وقد احاط نفسه بالاطفـــال يبكون ويصرخون حوله ، أو بنسوة يتحـــدثن باصوات عالية ، أو برجال يناقشون القضايا السياسية ، كما ان من المفجع ان يختار المرء شرب الشاى في يوم ممطر أو ملبد بالسحب . وعندما يتناول المرء الشاي عند الفجر في يوم صاف ، وعندما يكون نسيم الصباح ، يداعب قمم الجبال برقته ونعومتـــه ، وتكون اوراق الاشجار ما زالت محملة بعبق الطلل والندى ، يصبح ما يتناوله ، ممتزجـــاً برائحة هذا الطل السحري . وتصور الفلسفة الطاوية في اصرارها على العودة الى الطبيعة ، وفي مفهومها عن ان حياة الكون تعتمد على التزاوج بين القوى

المذكرة والمؤنثة في الطبيعة ، الطل على انه « عصارة السماء والارض » وذلك عندما يتحد العنصران في الليل ، كما ان هناك فكرة شائعة وهي ان الطل هو الغذاء السحري الذي يتميز بالوضوح والجمـــال والاثيرية ، وان كل انسان او حيوان يشرب الكثير منه يستطيع ان يحقق شيئاً من الخـــلود . ويقول دي كوينسي [١] ، وهو صـــادق ، ان الشاي سيظل خير شراب للمثقفين ، أما الصينيون ، فيمضون الى ابعد من ذلك ويربطون بين الشاي وبـــين النسك الرفيع .

ويكون الشاي على هذا الاساس، رمزاً للطهر الارضي الذي يتطلب اعداده منتهى النظافة ، في التقاط اوراقه وتجفيفها وحفظها ، وتخميرها وشربها ، اذ ان مسّه بالايدي القذرة ، أو وضعه في الأكواب الملوثة بالزيت ، يتلف طعمه . ويكون التمتع به في التالي ، صالحاً في جو تختفي فيه من عين الانسان وفكره كل مظاهر الترف المصطنعة . ويتمتع المرء بالمغنيات عنـــدما يشرب الخمر لا الشاي ، وعندما تصبح الواحدة منهن صالحة لشرب الشاي ، تغدو منتمية الى الطبقة التي يؤثرها شعراء الصين وباحثوها . ولقد شبه سوتونجبو ذات يوم الشاي بالفتاة الحسناء ، ولكن ناقداً لاحقاً هو تيين ينيهينج مؤلف« رسالة عن غـــلي الشاي [٢] » ، قال ان في الامكان مقارنة الشاي ، اذا كان لا بد من مقارنته بالنساء ، « بالجنّية ماكو » اذ ان من الواجب « وضع الجميلات من ذوات الوجنات المتوردة ، والصدور الناهدة في فرش تغطيها الستائر ، دون السماح

---

(١) توماس دي كوينسي (١٧٨٥ – ١٨٥٩) – مؤلف انجليزي أدمن منذ شبابه على تعاطي الافيون . اشغل عدة مناصب صحفية . من اشهر كتبه « اعترافات انجليزي يتعـــاطى الافيون » . و « القتل من الفنون الجميلة » و « عربة البريد » .

(٢) هناك عدة روائع صينيـــة عن الشاي منهـــا شاشينج للويو (٨٠٤ م) وشالو لتساي هسيانج (١٠١٢ – ١٠٦٧) وشاسو لهسو تسيهشو وشوشوان لتيان ييهنيج (١٥٧٠ م) . وشاشيه لتولولنج (١٥٩٢ م)

– المعرب –

لهن بالطواف وتلويث الصخور والينابيع ». ويقول نفس المؤلف.... « يشرب المرء الشاي لينسى اصوات العالم . وهو ليس بالشراب الذي يحبه من يأكلون الاطعمة الدسمة ، ويلبسون البيجامات الحريرية » .

ويقول شالو ان «اهمية التمتع بشرب الشاي تمثل في استلطاف لونه ورائحته ومذاقـــه ، وان اسس اعداده تتلخص في النظافة ، والاتقان والسمو » . ولا شك في ضرورة عنصر الهدوء لاستلطاف هذه المزايا ، وهو الاستلطاف الذي ينبع من الرجل القادر « على التطلع الى العالم الساخن ، برأس باردة » ، وقـد اعتبر اهـل الخبرة ، منذ ايام اسرة سونج ، القدح من الشاي الاصفر ، أحسن شيء في الوجود ، ويمكن للانسان الذي تشغـــله افكاره ، أو تجتذب ضجة الجيران ، أو خصومات الخـــدم اهتمامه ، أو الذي تقوم على خدمته ساقيات بشعات الصورة ان لا يحس بما في الشاي الاصفر من نعومة المذاق . ولذا يجب ان يكون الجمع الذي يتناول هذا الشاي قليل العدد . فمن المهم قلة عدد الضيوف في تنــاول الشاي . ويقول أحد الكتاب ... « اما اذا كثر الضيوف ، تحول الحفل الى ضجة صاخبة ، تنزع من جلسة الشاي كل ما فيها من سحر . ويكون شرب الشاي على انفراد ، عزلة معتية ، أما مع رفيقين فهو امر مريح ، ومـع ثلاثة او اربعة من الرفاق فهو أمر رائع ، ومع خمسة او ستة شيء عادي ، امـا اذا زاد العدد عن ذلك اصبح امراً سيئاً» . ويقول مؤلف شاسو ... « ويكون صب الشاي والطواف به مثنى وثلاث ورباع من قدر كبير ، وشربه في جرعة واحدة ، وتسخينه الفينة بعد الفينة ، وتحوله الى شاي قوي اسود ، أمراً يشبه ما يطلبه الفلاحون والعمال من شرب الشاي ليملأوا به بطونهم بعد العمل الشاق الذي يقومون به . ويتعذر في مثـــل هذه الحالة التحدث عن مذاق الشاي او رائحته او لذته » .

ولعل هذا هو السبب الذي دعا كتاب الصين الى الاصرار على نظافة اعداد الشاي واتقانه وغليه ، ولذا فقد نصحوا بتدريب صبيين من الخدم دائماً تدريباً

خاصاً على اعداده . ويغـلى الشاي عادة على موقد صغير منعزل في الغرفة أو بعيداً عن المطبخ . ويجب تدريب الغلمان على اعداد الشاي امام صاحب المنزل الذي يشرف بنفسه على نظافة الاعداد والاقداح ، دون تجفيفها ، مشترطاً ان يكـون هؤلاء الغلمان في منتهى النظافة . ويقول احد الكتاب ... « ويكون الموقد الواحد كافياً عندما لا يتعدى عدد الضيوف ثلاثة اشخاص ، اما اذا زاد هذا العدد الى خمسة او ستة ، توجب ان يكون هناك موقدان ، وغلايتان ، على ان يقوم غلام بتعهد كل غلاية منها اذ ان الاكتفاء بغلام واحد قد يؤدي الى التأخير والارتباك » . ويصف الخبراء ، عملية اعداد الشاي بالمتعة المريحة . وتعتبر هذه العملية ، شريطة عدم تطورها الى نظام صارم ، كما هـو الوضع في اليابان ، من العمليات الممتعة والمهمة والبارزة . ولا شك في ان الاعداد يؤلف نصف عمليه المتعة من شربه ، كما ان « قزقزة اللب » بين اسنان الانسان تؤلف نصف المتعة من اكله .

ويكون الموقد الذي يعد عليه الشاي عادة امام النافذة ، وقد ملىء بالفحم الصلب الجيـد . ويحس صاحب البيت الذي « يهش » فوق الموقد ، ويرقب البخار صاعداً من « الغلاية » ، بشيء من الاهميـة . ويقوم على الفور باعداد الاكواب الصغيرة التي تقـل في حجمها عن حجم اقداح القهوة على « صينية » خاصة بهذه الاكواب . وهو يقوم بكل هذا ، ويعـد الاكواب ، والشاي ، مستعداً لصبه فيهـا ، اثناء تحدثه الى ضيوفه ، على ان لا يصرفه الحديث عن اداء واجباته . ويظل متطلعاً الى الموقد ، وعندما يسمع صوت الصفير صادراً عن « الغلاية » ، لا يتركها لحظة واحدة ، وانما يواصل « الهش » على الموقـد بصورة اقوى من ذي قبل . وكثيراً ما يرفـع غطاء « الغلاية » ليتطلع الى فقاعات الماء الغالي وهي تتصاعد الى السطح. وتكون هذه هي « الغلية الاولى». ويظل مصغياً الى صوت الصفير وهو يتزايد مع تزايد تصاعد الفقاعات ابان « الغلية الثانية » . وتشتد مراقبته للغلاية والبخار يتصاعد منها ، وقبل ان

تصل مرحلة « الغلية الثالثة » التي تعتبر مرحلة الكمال ، يرفع الغلاية عن النار ، ويحركها جيئة وذهابا ، اثناء وضع اوراق الشاي فيها . ويكون الشاي الذي يشرب بهذه الطريقة في مدينة فوكيين ، مكثفاً . ولا تكفي الغلاية في مثل هذه الحالة لملأ اكثر من اربعة اقداح ، ولكن الشاي يصب على الفـــور ويحتسى . ويعود صاحب البيت فيملأ الغلاية بالماء ، ليضعها من جديد على الموقد ، مستعداً لصنع الشاي ثانية . وتعتبر الشحنة الثانية من الشاي اجود الشحنات ، اذ تشبه الأولى بالفتاة في سن الثالثة عشرة والثانية بالفتاة في سن السادسة عشرة . أمـا الثالثة فتكون كالمرأة التي فقدت انوثتها . ويجمع الخبراء على عدم السماح بشحنة ثالثة . وان كان في وسع المرء ان يحاول العيش مع المرأة الكاملة .

ويصور هذا الوصف عملية اعداد نوع معين من الشاي . كما رأيتها في المقاطعة التي انتمي اليها ، وهي عملية غير معروفة على الاطلاق في شمال الصين . وتكون غلايات الشاي في الصين عامة ، كبيرة إلى حد ما ، ويكون لون الشاي فيهـــا اصفر وصافياً على النقيض من الشاي الأحمر الغامق الذي يشربه الانجليز .

ونحن نتحدث بالطبع عن الشاي كما يشربه الخـــبراء ، لا عن الشاي الذي يقدمه اصحاب المقاهي بصورة عامة . فـــلا يمكن ضمان مثل هذا الاتقان من جميع الناس ، عندما يقدم الشاي لجميع الوافدين . ولعـل هذا هو السبب الذي دفع هسوتسيشو مؤلف « شاسو » إلى القول ... « وعندما تكون هناك حفـلة كبيرة ، يفد اليها الزائرون ويخرجون ، لا يستطيع المضيف ان يتبادل معهم الا كؤوساً من الشراب ، كما لا يمكن للانسان أن يقدم للغرباء الذين يلقاهم للوهـــلة الأولى ، أو للاصدقاء العاديين الا الشاي العادي . أمـــا عندما نلقى أصدقاءنا المقربين الذين يشبهوننا في امزجتهم ، ونحس في وجودهم معنا بالسعادة ، ونتبادل واياهم الاحاديث الشيقة ، مبعدين عنا جميع الرسميات ، فإن في وسعنا آنـذاك ان نطلب إلى الغلام الذي يخدمنا ان يشعل النار ، وان يأتي بالماء ، ثم نقرر عدد

المواقد والكؤوس التي يجب استخدامها في اعداد الشاي وتقديمه ». ولعل مؤلف شيبيه ، يتحدث عن هذا الوضع نفسه عندما يقول ... « كنا نجلس ذات ليلة في صرح جبلي ، ونعد الشاي من الماء الذي نستمده من النبع الجبلي . وعندما تهاجم النار الماء ، ويبدأ الغليان، نستمع إلى صوت يشبه نشيد الرياح بين اشجار الصنوبر . ونصب الشاي في الأقداح ، وينطلق الضوء منه ليعم المكان كله . ولا يمكن اشراك الناس العاديين في مباهج هذه اللحظات ».

ويحس عاشق الشاي الأصيل بالمتعة عند الامساك بجميع الأدوات التي تستخدم في اعداده ، وهذا ما حدث لتساي هسيانج ، الذي اصبح عاجزاً في شيخوخته عن شرب الشاي ، ومع ذلك فقد ظل يتمتع باعداد الشاي كعادة يومية ألفها . وكان هناك مفكر آخر يدعى شو وينفو ، كان يعد الشاي ويشربه ست مرات في اليوم ، وفي ساعات محددة من الصباح حتى المساء ، وكان يحب « غلايته » كل الحب ، حتى انه اوصى بدفنها معه عند موته .

ويتضح من هذا ان فن التمتع بالشاي واسلوبه ينطوي على ما يلي : اولاً : لما كان الشاي معرضاً لالتقاط الروائح الغريبة عنه بسرعة هائلة ، فإن من الضروري التصرف فيه واعداده بمنتهى النظافة ، والابقاء عليه بعيداً عن الخمر والبخور وجميع المواد ذات الرائحة ، والاشخاص الذين يتعاملون بها . ثانياً : يجب الابقاء على الشاي في اماكن باردة وجافة ، ويجب في الفصول الرطبة الابقاء على كميات صغيرة منه للاستعمال في « قدور » صغيرة خاصة يستحسن ان تكون مصنوعة من مادة القصدير ، بينما تحفظ الكميات الكبيرة في قدور كبيرة ، لا تفتح الا عند الحاجة ، واذا ما تعرضت كميات منها الرطوبة ، تحتم تجفيفها على نار بطيئة ، على ان تظل مكشوفة ومتعرضة للتهوية ، للحيلولة دون اصفرار اوراقها ، او فقدها للونها . ثالثاً : يعتمد نصف فن اعداد الشاي على الحصول على الماء الجيد الذي يستحسن ان يكون اولاً من ينابيع الجبال ، وثانياً من مياه

الأنهار، وثالثاً من مياه الآبار. رابعاً:.. للتمتع بالاقداح النادرة، يجب ان يكون الرفاق قليلي العدد ، هادئي الطباع . خامساً : يكون اللون الاثير للشاي عادة الاصفر الذهبي ، اما الشاي الاحمر الغامق فيجب ان يمزج باللبن أو الليمون او النعناع او اية مادة اخرى لاخفاء مذاقه اللاذع . سادساً : يكون مذاق الشاي الصالح بطيئاً ، اذ لا يحس به المرء الا بعد نصف دقيقة من ارتشافه ، وبعد ان تكون عناصره الكيمائية قد تفاعلت مع لعاب غدده . سابعاً : يجب ان يعد الشاي جديداً في كل مرة ، وان يشرب على الفور ، ولذا يجب ان لا يبقى على الشاي الجيد طويلاً في غلايته . ثامناً :.. يجب ان يعد من الماء الذي وصل الى درجة الغليان . تاسعاً : يحظر مزج الشاي بأي شيء ، وان كان يسمح للبعض بخلطه بزيت الياسمين او الاكاسيا . عاشراً : يعتبر المذاق المتوقع من الشاي الصالح ، شبيهاً بالمذاق الذي يحس به الانسان عندما يأكل الشواء من صغار الخراف .

وهناك رسالة عن الشاي تدعى « شاسو » ، تلخص طبقاً للاسلوب الصيني ، أحسن الأوقات الصالحة لشرب الشاي . والبيئة اللازمة للتمتع به على النحو التالي ...

الأوقات الصالحة لشرب الشاي :

عندما يكون قلب الانسان ويداه عاطلين ،
وعندما يكون قد أحس بالتعب من قراءة الشعر ،
وعندما يحس باضطراب في افكاره ،
وعندما يكون مصغياً للاغاني والاناشيد ،
وعندما ينتهي من سماع اغنية ،
أو يغلق الباب على نفسه في يوم عطلة ،

أو يعزف على « الشين » ويتطلع إلى الرسوم الفنية ؛
أو يشترك في احاديث ممتعة في ساعات الليل المتأخرة ،
أو يجلس امام نافذة مضيئة او على مكتب نظيف ،
أو يتسامر مع صديقات ساحرات او غانيات مترفات ،
أو يعود من زيارة لبعض اصدقائه ،
أو عندما يكون النهار مشرقاً والنسيم عليلاً ،
أو في يوم لا يخلو من زخات المطر الخفيفة ،
أو يجلس في قارب تملؤه الصور على مقربة من جسر خشبي ،
أو في غابة ملأى باشجار الخيزران العالية ،
أو في دهليز يطل على ازاهير اللوتس في يوم من ايام الصيف ،
أو يكون قد اشعل البخور في مكتبه الصغير ،
أو بعد انتهاء الوليمة وذهاب الضيوف ،
أو عندما يكون الأطفال في المدرسة ،
أو يكون الرجل في معبد هادىء منعزل ،
أو على مقربة من ينابيع مشهورة او صخور فارهة .

اللحظات التي يجب التوقف فيها عن شرب الشاي :

أثناء العمل ،
وعند التطلع إلى مباراة ،
أو فتح الرسائل ،
أو في أيام المطر الشديد والثلوج ،
وفي مآدب الشراب الزاخرة بالناس ،
أو عند قراءة بعض الوثائق ،
أو في الأيام المكتظة بالعمل ،

الأمور التي يجب تجنبها :

المـاء الآسن .
الأدوات السيئة .
المعالق النحاسية .
الفلايات النحاسية .
الدلاء الخشبية للماء .
الخشب لايقاد النار مخافة الدخان .
الفحم الهش .
الخادم البشع .
الخادمة الحادة الطبع .
المناشف القذرة .
جميع انواع البخور والأدوية .

الأمور والأماكن التي يجب الابتعاد عنها :

الغرف الرطبة .
المطابخ .
الشوارع الصاخبة .
الأطفال الباكون .
الرجال الحادو المزاج .
الخدم الذين يتشاجرون .
الغرف الحارة .

٥ – عن التدخين والبخور

ينقسم العالم اليوم إلى فئتين ، فئة المدخنين وفئة غير المدخنين . وقد يكون صحيحاً ان المدخنين يسببون ضيقاً لغير المدخنين، الا ان هذا الضيق بدني ، بينما يكون الضيق الذي يسببه غير المدخنين للمدخنين من النوع الروحي . وهناك بالطبع عدد من غير المدخنين يحاولون عدم التدخل مع المدخنين ، كما ان في الامكان تعويد الزوجات على التسامح مع ازواجهم الذين يدخنون في الفراش . ولعل هذه العادة هي الدلالة الصادقة على نجاح الزواج وسعادته . ويفترض البعض احياناً ان غير المدخنين يتفوقون من الناحية الخلقية على المدخنين ، وان من حقهم ان يزهوا وان يفخروا عليهم ، ولكن هؤلاء لا يدركون ، انهم بامتناعهم عن التدخين قد حرموا انفسهم من متعة تعتبر من اعظم متع الانسان. وانا لا ارفض الفكرة القائلة بان التدخين عيب خلقي ، ولكن علينا في الوقت نفسه ، ان نجد انساناً يخلو بصورة كاملة من العيوب. وفي وسعنا ان نقول، ان مثل هذا الانسان ان وجد ، ليس خليقاً بالثقة . فهو دائم الميل إلى الحزن ، ولا يمكن ان يرتكب خطيئة واحدة . فطباعه تكون منظمة ، ووجوده آلي ، وعقله دائم التفوق والغلبة على فؤاده . وكما احب الناس المعقولين ، فأنا اكره العقلانيين كل الكره ، ولعل هذا هو السبب الذي يجعلني احس بالخوف والضيق، كلما دخلت بيتاً يخلو من « منافض » السجائر . ففي هذا البيت ، تكون الغرف نظيفة إلى حد لا يطاق ، ومغالية في تنظيمها ، كما تكون الوسائد فيها في أماكنها الصحيحة ، ويكون الناس فيها جد مستقيمين ، وخالين من كل عاطفة . وسرعان ما أحس في هذا البيت ، بأنني بعيد عن طبعي وسلوكي ومزاجي .

ولا شك في ان هذه الأرواح المستقيمة والصالحة واللاعاطفية واللاشاعرية ، لم تقدر في يوم ما المنافع الروحية والخلقية لعادة التدخين . ولكن لما كنا نحن المدخنين نتعرض عادة إلى الهجوم من الجانب الخلقي لا الفني ، فسأشرع بالدفاع

عن اخلاق المدخن، التي ارى أنها اسمى وارفع من اخلاق غير المدخنين . فأنا احب الرجل الذي يضع الغليون في فمه ، اذ انني اراه اكثر اصالة وودا ، ورغبة في الحياة الاجتماعية ، وميلا إلى الكشف عن المكنونات ، كما ارى انه اكثر براعة في الحديث ، وانني احس بحبه لي ، كحبي له . ولا ريب في انني اتفق تمام الاتفاق مع ثاكاري [1] عندما يقول ... « يخرج الغليون الحكمة من شفتي الفيلسوف ، ويقفل على الحمقى افواههم . وهو يخلق طرازا من الحديث يتميز بالتصور والتفكير والخير ، وعدم التأثر » .

وقد تكون اصابع المدخن صفراء قذرة ، ولكن هذا ليس بالأمر المهم اذا كان فؤاده دافئا ، ولا ريب في ان الحصول على الحديث الذي يتميز بالتصور والتفكير والخير وعدم التأثر ، أمر نادر ، حتى ان الانسان يستعد لدفع اي ثمن مهما غلا في سبيل التمتع به . ولعل الاهم من كل هذا ، ان الرجل الذي يضع غليونه في فمه ، يحس دائما بالسعادة ، وهذه هي اسمى الفضائل الخلقية على اي حال . ويقول دبليوماجين ، «ان ليس ثمة من مدخن للسيجار قد انتحر قط »، كما ان مدخن الغليون لا يتشاجر مع زوجته ابدا . ولعل السبب في ذلك واضح كل الوضوح ، اذ ليس في امكان من يضع الغليون بين شفتيه ، ان يصرخ بأعلى صوته في نفس الوقت . ولم يحدث ان رأيت مدخنا للغليون يصرخ ، بل انه يتكلم دائما بصوت خافت . وكل ما يحدث عند ما يغضب زوج مدخن من زوجته ، يتمثل في اشعال سيجارته أو غليونه ، مع « تكشيرة » تبدو في وجهه . لكن

---

(١) ويليام ماكبيس ثاكاري (١٨١١ ١٨٦٣) روائي انجليزي وكاتب مقال . ولد في كلكتا في الهند حيث كان والده موظفا هناك ، درس في كمبريدج بعد ان ورث عن ابيه ثروة كبيرة . طاف كثيرا بارجاء اوروبا . وضع عددا من الكتب ومن اهمها « كاثرين » و « صور من باريس » و « قصص ساخرة » و « كرة السيدة بيركنز » و « ايزموند » و « الوردة والخاتم » و « مغامرات فيليب » و « دنيس دوفال » وكثير غيرها .

– المعرب –

هذا التقطيب لا يدوم طويلاً ، اذ ان انفعالاته وجدت متنفساً لها . وبالرغم من انه قد يرغب في مواصلة الظهور بمظهر الغضب ، ليبرر سخطه او احساسه بالاهانة ، الا انه يعجز عن ذلك ، وذلك لأن دخان الغليون الرقيق يهدىء من ثائرته ، وعندما ينفث هذا الدخان من صدره ، يحمله كل ما في هذا الصدر من غضب مختزن . ولعل هذا هو الذي يحتم على الزوجة العاقلة ، ترى زوجها يوشك على التفجر غاضباً ، ان تدفع بغليونه إلى شفتيه بنعومة ورقة ، وهي تقول ... « خذ غليونك ، وانس ما حدث ». انها عملية دائمة النجاح . فقد تفشل الزوجة في ارضاء زوجها ، ولكن الغليون لا يفشل في ارضاء صاحبه .

ويمكن تقدير القيمة الفنية والأدبية للتدخين تقديراً صحيحاً عندما نتصور ما يخسره المدخن عندما يتوقف عن التدخين لفترة قصيرة . وليس ثمة من شك في ان كل مدخن يحاول في فتراته الحمقاء ، التحلل من الولاء للسيدة « نيكوتين » ، ولكنه لا يلبث بعد قليل من الاصطراع مع ضميره الخيالي ان يعود ثانية الى عقله وحواسه . ولقد بلغ بي الحمق مرة ان توقفت عن التدخين لمدة ثلاثة اسابيع ، ولكن ضميري ما لبث ان دفعني بعد انقضاء هذه الفترة الى العودة إلى الطريق الصحيح ثانية ، واقسمت ان لا اتوقف عن التدخين ثانية وان اظل على عبادتي واخلاصي للسيدة « نيكوتين » إلى ان ابلغ مرحلة الطفولة الثانية من حياتي . وأقع في الغالب فريسة لزوجات اعضاء جمعية من جمعيات محاربة التدخين . وعندما يصل المرء إلى تلك المرحلة من الشيخوخة ، لا يغدو بالطبع مسؤولاً عن الأعمال التي يقوم بها ، ولكن طالما بقيت لدي نتفة من الارادة والاحساس العقلي ، فلن اقوم بمثل هذه المحاولة ثانية . فقد خبرت بنفسي ما في هذه المحاولة من حمق ، وتبينت مدى اللااخلاقية في ان يحاول الانسان ان ينكر على نفسه القوة الروحية ، والاحساس بالسعادة المعنوية اللذين يؤمنهما هذا الاختراع النافع . ويقول هولدين عالم الكيمياء العضوية

البريطاني الشهير ان التدخين يعتبر أحد الاختراعات الانسانية الاربعة في تاريخ الجنس البشري التي قدر لها ان تترك اثراً عضوياً عميقاً في الحضارة الانسانية .

ولا ريب في ان قصة هـذه الاسابيع الثلاثة التي مثلت فيها دور الجبـان بالنسبة إلى ذاتي وانكرت عليها شيئاً اعرف تمام المعرفة انه ذا قوة منعشة للروح، كانت من القصص المخزية . أمـا وقـد بات في وسعي ان اعود الآن الى الوراء لافكر بطريقة عقلانية وواقعية ، فإني لم اعد قادراً على ان افهم على الاطلاق ، كيف طالت تلك النوبة من اللامسؤولية الخلقية معي ، مثل هذه المدة الطويلة . ولو اردت ان اسرد بالتفصيل رحلتي طيلة هذه الاسابيع الثلاثة في الليل والنهار ، في الاسلوب الذي استخدمه «هومر» في عرض «الاودلسي» ، فأنا على ثقة من ان هذا السرد سيستوعب ثلاثة آلاف بيت من الشعر «الهومري» ، أو مائة وخمسين صفحة مطبوعة من النثر . ولا شك في أن الهدف من قراري كان منذ البـداية هازلاً ومضحكاً . ترى ، بحق السماء وحق البشرية ، أهناك مـا يدعو الانسان إلى وقف التدخين ؟ ليس في وسعي ان ارد على هـذا السؤال فوراً . ولكن الانسان يتعرض لحالات من امزجة اللامعقول احياناً ، اذ يحاول ان يفعل شيئاً يخالف به ما ألِفه لمجرد التمتع بالتغلب على المقاومة ، مستخدماً في ذلك كل ما لديه من طاقات معنوية . ولا أرى سبباً غير هذا لقراري المفاجىء وغير السليم بوقف التدخين ، فقد كنت راغباً بعبارة اخرى في ان اختبر معنوياتي تمـاماً كما يفعل الناس عندما يغرقون انفسهم في العاب الجمبـاز السويدية ، فيتحركون لمجرد الحركة ودون ان يحققوا شيئاً يفيد المجتمع . ولا شك في ان هذا الـترف المعنوي هو ما توخيته من هذا القرار ليس الا .

وشعرت في الايام الثلاثة الاولى بالطبع باحساس غريب من الهبوط في القناة الهضمية ولا سيما في الجزء العلوي منها . ورحت لازالة هـذا الاحساس استعمل اللبان الممزوج بالنعناع ، وارتشف الشاي ، وامصّ بعض حبـوب « الملبس » .

واستغرقت عملية التغلب على ذلك الاحساس وقتله نحواً من ثلاثة أيام . وكان هذا الجزء البدني من المعركة اسهل ما فيها بل واكثرها وضاعة . ولا شك في أن اولئك الذين يخيل اليهم ان هذا الجزء يمثل كل الصراع غير السليم ضد التدخين ، لا يعرفون شيئاً عمّا يتحدثون عنه. فهم ينسون ان التدخين عمل روحي ، وليس من حق أولئك الذين يجهلون الأهمية الروحية للتدخين ان يتناولوا الموضوع بالبحث. وواجهت المرحلة الثانية بعد ثلاثة أيام ، أي عندما بدأت المعركة الروحية الفعلية . وتهاوت المقاييس امام ناظري ، وادركت ان هناك فئتين من المدخنين، احداهما لا تستحق هذا الاسم على الاطلاق . فالمرحلة الثانية لا تمثل لافراد هذه الفئة على الاطلاق . وبدأت افهم ما نسمعه عن « الانحرافات السهلة » لكثيرين من المدخنين الذين تخلوا عن التدخين دون أي صراع على الاطلاق . ولا شك في ان قدرتهم على وقف هذه العادة بسهولة تضاهي السهولة التي يجدونها في استبدال فرشاة أسنانهم القديمة بأخرى . تدل على انهم لم يعرفوا التدخين قط ، معرفة صحيحة . ويحاول بعض الناس وصفهم بأنهم من ذوي الارادات الصلبة ، بينما يشير الواقع إلى أنهم لم يكونوا في أي يوم من الأيام من المدخنين الصادقين . فالتدخين بالنسبة اليهم عمل عضوي ، كغسل الوجه في الصباح أو تنظيف الأسنان ، أي انه مجرد عادة عفوية حيوانية ، لا شأن لارضاء الروح بها . واني لا أشك في ان مثل هذه الفئة من الناس الواقعيين قادرة في أي يوم، على التجاوب تجاوباً منتشياً مع اشعار شيلي [١] او الحان شوبان [٢]. ومثل هؤلاء لا يفقدون

---

(١) بيرسي بيسي شيلي (١٧٩٢ – ١٨٢٢) شاعر انجليزي مشهور . درس في ايتون واكسفورد ، كان ملحداً في معتقداته ، وثورياً في اتجاهاته . ايد ثورة ايرلنده . من اشهر قصائده « الملكة ماب » و « الدستور » . اقام اخيراً في ايطاليا . وغرق اخيراً عند سبيزيا حيث دفن هناك .

(٢) فردريك فرانسوا شوبان (١٨١٠ – ١٨٤٩) موسيقار بولندي . ولد في دارشو، ثم ارتحل الى باريس ولكنه ظل محتفظاً بطابعه السلافي هناك في موسيقاه ، معبراً عن عواطف الفلاح البولندي واحاسيسه . له عدد من الروائع الموسيقية .

– المعرب –

شيئاً عندما يتوقفون عن التدخين. ولعلهم يكونون أسعد حالاً بقراءة « اساطير عيسوب » بعد ان يتقبلوا احكام جمعيات تحريم التدخين .

لكن هناك مشكلة تبرز لنا نحن المدخنين الصادقين ولا يعرفها قراء اساطير عيسوب أو المتقيدون باحكام جمعيات تحريم التدخين . فنحن نرى ما في التوقف عن التدخين من ظلم وبعد عن المنطق والعقل. وسرعان ما يشرع منطقنا وعقلنا في الثورة ،فيتساءلان عن الأسباب الاجتماعية والسياسية والخلقية والنفسية والمالية التي تدعو الانسان إلى ان يستخدم واعياً ارادته لينكر على نفسه حقها في الحصول على تلك السعادة الروحية الكاملة، وعلى ذلك الوضع من الحيوية النشطة والادراك البعيد الافق ، الذي يتطلبه تمتعنا تمتعاً كاملاً بالاصغاء إلى حديث صديق على مقربة من المدفئة ، أو باستخلاص ذلك الدفء الواقعي من قراءة كتاب قديم ، أو من التفكير تفكيراً عميقاً في أية قضية من القضايا . ويحس الانسان في مثل هذه اللحظات بدافع الغريزة ، ان الامساك بسيجارة هو الشيء الصحيح من الناحية الخلقية ، وان استبدالها بمضغ اللبان أمر اجرامي فظيع . ولا استطيع ان اروي عن هذه اللحظات هنا الا القليل .

جاءني صديقي (ب) من بكين وزارني . وكان قد مضى على آخر لقاء لنا اكثر من ثلاث سنوات. وكنا قد الفنا في بكين السمر معاً والتدخين طيلة الليل، مستعرضين في احاديثنا شؤون السياسة والفلسفة والفن الحديث . وها هو قد جاءني الآن ، ورحنا نغوص معاً في اعماق ذكرياتنا. وتناولنا في حديثنا جميع الأساتذة والشعراء والصعاليك الذين سبقت لنا معرفتهم في بكين. وكنت اجد نفسي بعد كل ملاحظة قيمة ، امد يدي لاتناول سيجاراً ، ولكني لا البث ان اعود إلى نفسي فأمنع يدي . واكتفي بالوقوف والجلوس من جديد . وكان صديقي على النقيض مني غارقاً في متعة الدخان المتصاعد من سيجاره . وكنت قد ابلغته انني توقفت عن التدخين . وكنت شديد الاعتداد بنفسي بحيث لم

ارغب في ان اظهر ضعفي امامه ، واعدل عن ذلك التوقف . ولكنني كنت احس في قرارة نفسي بعدم الرضا ، وكنت احاول التظاهر بالعقلانية ، بالرغم من رغبتي في ان امتزج كلياً في الحديث مع هذه الروح التي احبها، عن طريق الاستسلام لعواطفي . ومضى بنا الحديث ، وكان اكثره من جانب واحد اذ انني كنت نصف موجود ، ثم مضى عني صديقي ، وقد لمس مني الوجوم . ومن المحتمل ان اكون قد « انتصرت » بارادتي الاسطورية ، ولكنني كنت اعرف انني غير سعيد . وعاد صديقي فكتب إلي بعد بضعة ايام يقول انه لم يجدني هذه المرة كما عهد في الماضي انساناً دافقاً بالحيوية كثير الرضى . واضاف انه يعتقد ان حياتي في شنجهاي هي السبب في كل ذلك . وما زلت حتى يومي هذا ، لا اغفر لنفسي امتناعي عن التدخين في تلك الليله .

وكان ثمة في ليلة اخرى ، الموعد المألوف لاجتماع اعضاء ناد من المثقفين ، وهو يمثل فرصة يكثرون فيها التدخين . وكان احدنا يشرع بعد ان ننتهي من تناول وجبة العشاء الفخمة في قراءة محاضرة اعدها . وكان المتحدث هذه الليلة صديقنا « س » وموضوعه عن « الدين والثورة » ، وقد ضمنه بعض النقدات اللاذعة منها ان « فينج يوهسيانج » قد انضم الى الكنيسة الميثودية الشمالية بينما آثر « تشيانج كايشيك » الانضمام إلى الكنيسة الميثودية الجنوبية . وعلق احدنا ان «وربيفو» لا يلبث والحالة هذه ان ينضم إلى الكنيسة الميثودية الغربية. واشتدت كثافة الدخان مع تبادل هذه النقدات ، وخيل الي ان الجو حافل بالأفكار العنيفة القاسية . وكان الشاعر « هـ » يجلس في وسط الحلقة ، محاولا تصعيد حلقات متتابعة من الدخان ينفثها في الهواء ، تماماً كالسمكة التي تدفع فقاقيع الهواء من خياشيمها في الماء ، وقد غرق كما يبدو في افكاره وسعادته . وكنت الوحيد الذي لا ادخن ، واحسست وكانني ذلك المنبوذ الذي لفظته الآلهة . وبدأت الافكار تراودني عن لا معقولية ما افعله . وادركت في تلك اللحظة من لحظات الالهام ، انني قد جننت حتى امتنع عن التدخين . وحاولت ان افكر

في الاسباب التي دفعتني إلى اتخاذ ذلك القرار ، وتبينت ان ليس فيهـا سبب منطقي واحد .

وأخذ ضميري يعذب روحي بعد تلك الليلة . ورحت اقول لنفسي ، كيف يمكن للفكر ان يوجد دون خيال ، وكيف يمكن للخيال ان يحلق على الاجنحة المهيضة لروح جامدة ممتنعة عن التدخين . وقمت بعد ظهر احـد الايام بزيارة سيدة اعرفها . وكنت على استعداد من الناحية العقلية . للخروج على ما قررته . ولم يكن ثمة شخص آخر ، وكنا على استعداد لحـديث ودي مباشر . وكانت السيدة الشابة تدخن وقد وضعت احد ذراعيها على ساقيها المتقاطعتين . ملقية بنفسها الى الامام ، وقـد بان الرضى في عينيها ، وهي على احسن ما يرام . واحسست ان اللحظة التي اتطلع اليها قد حلت وقدمت الي صفيحـة التبغ ، فتناولت سيجاراً منها بعزم واصرار ، وادركت انني بعملي هذا قد شفيت من تلك النوبة المؤقتة من الانحطاط المعنوي التي اصبت بها .

وعندما عدت الى بيتي ، اوفدت غـلامي ، ليبتاع لي صفيحـة من التبغ . وكانت هناك الى الجانب الايمن من مكتبي علامة واضحـة ، وهي من اثر ما يخلفه عقب السيجارة المحترق على الخشب . وكنت قد قررت ان سنوات سبعاً او ثماني ستمضي قبل ان يتسع هذا الاثر المحترق ، ليمتد مسافـة بوصتين فوق المكتب ، وأسفت اشد الاسف بعد قراري المعيب الاخير ، بأن هـذا الاثر سيبقى على حاله . وقد غمرني الآن شعور طاغ من الفرح ، بعـد ان وضعت سيجارتي المحترقة على ذلك الاثر ، لتشرع في توسيع مداه. ولتعود الى قطع تلك الرحلة الطويلة التي كنت اتخيلها .

وليس ثمة في الادب الصيني الكثير من الاطراء للتبـغ ، على النقيض من الشراب ، لأن التدخين عادة حملها الينا البحارة البرتغاليون في القرن السادس عشر . وقمت بتمشيط الادب الصيني كله لأعثر على ما اريده من اطراء للتدخين

فلم اجد الا اسطراً قليلة مبعثرة ، ليست جديرة بتلك العشبة الزكية الرائحة . ولا شك في ان احد طلاب جامعة اكسفورد . لا بد وان ينظم اغنيـــة في مدح التبغ ، لكن الشعب الصيني على أي حال ، كان دائم الاحساس بالرائحة الزكية ، كما يبدو من تقديره الجم للشاي والشراب والطعـام . وكان الصينيون قبل تعرفهم الى التبغ ، قد انموا فن احراق البخور الذي وضعه الادب الصيني في مصاف الشاي والخمر . وبدأ استعمال البخور منذ اقدم العصور أي منذ ايام اسرة هان المالكة ، عندما اتسعت الامبراطورية الصينية وسيطرت على الهنـد الصينية ، وأخذت تتلقى البخور كجزية من اهـل الجنوب ليستعمله رجـــال البلاط ، واثرياء القوم . وهناك فصول كاملة في الكتب التي وضعهـا الصينيون عن فن الحياة ، تتناول البحث في انواع البخور وجودته واعـداده . ونرى في فصل خاص عن البخور في الكتـــاب الذي وضعه تولونج بعنوان « كابو آن يوشي » ، الوصف التالي للتمتع بالبخور اذ يقول ....

«هناك فوائد عدة لاستعمال البخور . ويحس المفكرون المعتزلون الذين يشغلون انفسهم بالبحث عن الحقيقة ومناقشة امور الدين . بشيء من صفاء الفكر ورضى الروح عندمـا يحرقون عوداً من الند . وعندما يكون الليل في ربعه الاخـير ؛ ويكون القمر الوحيد محلقاً في السماء ، ويحس الانسان بالبرودة والبعد عـــن الحيـــاة . يحرر احراق البخور قـلب الانسان من اصفاده ، فينطلق مصفراً بشفتيه ليعلن فرحه . ويساعـــد البخور الانسان على دفع شيطان النعاس عن شفتيه عندما يكون غارقاً في قراءة بعض المخطوطات القديـمة على ضوء نافذتـــه ، أو منشداً بعض الشعر وقد امسك بمنشة الذباب في يـــده ، أو جامعاً انتباهه في قراءة كتاب في يده على ضوء المصباح . وفي وسع المرء والحالة هذه ان يسميه « بالرفيق القـديم للقمر » .

ويساعد البخور في تدفئة فؤادك وزيادة عشقك عندما تكون سيدة ترتدي بيجامة حمراء تقف الى جوارك ، وقد امسكت بيدها فوق « مجمرة » البخور ، واخذت تهمس في اذنها كلمات الهوى والهيام . وفي وسعك والحالة هذه ان تطلق عليه اسم « الحافز القديم للعواطف » . وعندما يستيقظ المرء من قيلولته ، ويجلس الى جوار نافذته المغلقة في يوم ممطر ، يتفحص بعض المخطوطات القديمة ، ويرتشف جرعات من الشاي اللذيذ المذاق ، يحس بالرضى عندما تكون « مجمرة » البخور امامه ، ويكون اريجها قد احاط بروحه وجسده . وتكون للبخور لذته ايضاً عندما يفيق المرء الى نفسه بعد حفلة شراب ، فيرى البدر معتلياً كبد السماء . ملقياً باضوائه الساطعة على الليل المنير ، وتتحرك اصابعه عازفة على اوتار قيثارته ، مشفعاً الحانه بالصفير الخافت. وقد بدت امامه التلال الخضراء في نور البدر ، بينما ارتفع الدخان من بقايا الفحم في الموقد ، ليلف جنبات الباب . وينفع البخور ايضاً في طرد الروائح السيئة التي تعبق في اجواء المستنقعات البشعة ، بل انه ينفع في كل آن ومكان . وأجود انواعه هو« الشيانان » ولكن من من الصعب الحصول عليه ولا سيما بالنسبة الى رجل يعيش في الجبال . أما النوع الثاني الذي يليه في الجودة فهو عود الند ، ويكون عادة في ثلاث درجات . وللدرجة الرفيعة منه عادة رائحة قوية حادة ونفاذة ، أما الدرجة الخفيفة فكثيرة الجفاف والدخان . أما الدرجة الوسطى ولا تكلف سوى ستة او سبعة سنتات للآونس الواحد ، فمريحة وزكية الرائحة ، ويمكن ان تعتبر ممتازة . وفي وسع المرء بعد ان يغلي ابريقان من الشاي ان يستخدم الفحم المحترق ، وان يضعه في مجمرة

البخور ، لتخرج الرائحة منـــه ببطء ويحس في مثل هذه اللحظات المرضية وكأنه قد انتقل الى جنة في السماء في صحبة الخالدين ، ناسياً الوجود الانساني كله . حقاً انها متعة ضخمة للغـــاية . ويفتقر الناس في هذه الايام الى تقدير الرائحـــة الاصلية ، اذ يبحثون عـــن اسماء غريبة وضخمة ، محاولين التفوق على بعضهم البعض باستخدام مزيج من انواع مختلفة ، وقد تناسوا أن رائحة الند طبيعية للغاية ، وان أحسن انواعه ، يحتوي على النعومة » .

ويشرح لنا «ماو بيشيانج» في كتابه « ذكرياتي مع جاريتي » الذي يتحدث فيه عن فن حياته كشاعر ثري ، مع خليلته ،الرفيعة الثقافة والتهـــذيب ، مختلف نواحي التمتع بالبخور .... وهذه صورة مما قاله ....

« وكثيراً ما كانت جاريتي تجلس بهدوء معي في غرفـــة نومها الزكية الرائحة ، لنختـــبر انواعاً مشهورة من البخور ونحكم عليها . ويكون الطراز المسمى « ببخور القصر » مثيراً للجنس في نوعه ، أما الطريقة المألوفة في اعداد الند فرخيصة ، فهذه الطريقة لا تفشل في اخراج الرائحة الزكيـة وحسب ، وإنما تخلف رائحة خانقة عابقة بالدخان ايضاً . وللنوع القاسي ذي الحبوب المستطيلة والمسمى ، «كينجو ستين» ، رائحة فائقة للغاية ، اذ انه من أنواع الند الاربعة وان كانت خيوطـــه مستطيـــلة . وهنـــاك نوع آخر من هذا الخشب . يدعى بينجسليهسيانج ، وهو يبلغ في حجمـــه حجم حبة الفطر (عش الغراب) ويفتقر الى النضج الكامل . وكنا نحتفظ بهذه الانواع كلها ، وكانت هي تحرقها على نار بطيئـــة ، بحيث لا يتصاعد منها أي دخان . وكانت رائحتها الزكية الناعمة تملأ

الغرفة كلها ، وتلفها بنسيم عذب مريح ، يحمل رائحة الورد أو العنبر الذي يفوح اريجه نتيجة الاحتكاك . وعندما يتم تعطير الفراش بهذه الطريقة يختلط اريجه بما يفوح من بدن الحسناء من رائحة زكية ، ويشمل المرء ، وكأنه يعيش في حلم سعيد » .

٦ – عن الشراب والعاب الخمر

لا اعتبر نفسي من الشاربين ، ولذا فلا اصلح للحديث عن الأنبذة والخمور. وكل ما استطيع احتساءه ثلاثة اقداح من خمر الارز ، وكثيراً ما أحس بالشمول من قدح من الجعة . وليست القضية في هذا الشأن الا موضوع موهبة طبيعية ، ويبدو ان موهبة شرب الخمر لا تسير جنباً الى جنب مع موهبة شرب الشاي أو التدخين . وكان لي عدد من الاصدقاء من خيرة الشاربين ، ولكنهم كانوا يحسون بالرغبة في التقيؤ اذا دخنوا نصف سيجار ، بينما ادخن انا آناء الليل واطراف النهار ، دون ان اجيد احتساء الخمور . ولقد بين « لي ليوينج » رأيه بمنتهى الوضوح اذ كتب يقول ان كبار شاربي الشاي لا يكونون عادة من كبار شاربي الخمور والعكس بالعكس. وكان «لي» نفسه من اعظم خبراء شرب الشاي ، وان كان قد اعترف بأنه لا يستطيع الادعاء بأنه من ذواقي الخمور . ولذا فأنا أحس بالسعادة اذ اكتشف ان هناك عدداً كبيراً من خيرة كتاب الصين الذين احبهم ، لم يكونوا من شاربي الخمور والمدمنين عليها ، وقد افضوا باعترافات من هذا الطراز . وقد قضيت وقتاً طويلاً في جمع هذه الاعترافات من رسائلهم أو كتاباتهم الاخرى. ومن بين هؤلاء «لي ليوينج» «ويوان تسيتساي» و«وانج يووانج» و «يوانج شونجلانج» وغيرهم . وكانوا جميعاً على أي حال من ذوي الاحساس بمتعة الخمر ، وان لم تكن لهم قدرة فعلية على احتسائه .

وبالرغم من انني لا اعتبر نفسي اهــلاً للحديث عن الشراب ، الا انني لا استطيع تجاهل هذا الموضوع ، اذ إنه اسهم اكثر من غيره ، اسهاماً هامــاً في الادب الصيني ، وقــد ساعد الى حد كبير ، كما ساعد التدخين في المناطق التي الفته على حفز القوة الخلاقة عند الانسان، ودفعها الى تحقيق نتائج دائمة. و كثيراً ما واجهت في الادب الصيني الحديث عن متعة شرب الخمر ، ولا سيما عن متعة « القليل من الشراب » الذي كثيراً ما يتحدث عنه الصينيون ، وكنت اجد في هــذا القول كثيراً من الغموض ، الى ان سمعت سيدة جميلة من اهل شانجهاي تتبسط في الحديث عن فضائل الخمر ، وهي نصف سكرى ، بكثير من الاقناع، فآمنت ان لا بد من ان تكون هذه الاوضاع التي تصفها واقعية . فقد سمعتهــا تقول ... « وكل ما يحدث هو ان الانسان يثرثر ويثرثر، وهو نصف ثمل في وضع يعتبر في منتهى السعادة » . ويبدو ان الانسان يحس في هذا الوضع بالترفع وبالثقة في قدرته على التغلب على كافة العقبات ، كما ترتفع حساسيته . وقدراته الخلاقة ، وذلك لأن هذه القدرات تقوم في المنطقة الواقعة بين الحقيقة والخيال ، وتصل الى منزلة ارفع من تلك التي تكون فيها في الاوقات العــادية . ويبدو ان الانسان يتميز في ذلك الوقت بقوة الثقة بالنفس والتحرر وهما امران لا بد من وجودهما في لحظات الخلق . وسنتحدث بشيء من التفصيل عندمــــا تصل الى موضوع الفن عن اهمية الاحساس بالثقة بالنفس والتحرر من القواعد والاجراءات المرعيــــة .

وهناك الكثير من الحكمة في القول بأن الديكتاتورين العصريين في اوروبا ، يمثلون خطراً كبيراً على الجنس البشري لانهم يشربون الخمر . ولعل خير مــــا قرأت في العام الماضي،واكثره حكمة وصواباً،مقال كتبه «شارل فيرجوسون» في عدد يونيو لعام ١٩٣٧ من مجلة « هاربر » بعنوان « الديكتاتورون لا يشربون». ولا شك في ان الفكرة التي انطوى عليها المقال، جديرة بالمتابعة ، وان الاسلوب في منتهى الجودة والروعة ، حتى انني احس بما يغريني على ان اقتبس هنا كل ما

قاله ، ولكنني اجد نفسي مضطراً الى الامتناع عن ذلك بسبب ضيق المجال .
يبدأ المستر فيرجوسون مقاله بالفكرة القائلة بان«ستالين وهتلر وموسوليني ، يمثلون نماذج للجد والرصانة ... ولا شك في ان الحكام الذين يمثلون الاستبداد بالمعنى العصري ، والذين يمثلون الحكم العصري للبشر ، هم اناس يتطلع الى تقليدهم الشبان الطامحون الراغبون في التقدم حقاً . فكل منهم يصلح لأن يكون صهراً باراً وزوجاً صالحاً . وهم يمثلون النموذج الانجيلي للنسك الخلقي ... فهتلر لا يأكل اللحم ولا يشرب ولا يدخن . وهو يضيف الى هذه الفضائل الخانقة ، فضيلة اخرى وهي التعفف .[1] أما موسوليني فرجل أكول ، ولكنه يمتنع بكثير من الاحتمال عن المشروبات الروحية ، ويكتفي بين الآونة والاخرى بكأس من النبيذ الخفيف ، على ان لا يسمح لما يشربه بالتدخل تدخلاً جدياً في القضايا العليا التي تشغله ، وفي مقدمتها اخضاع الشعب الذي يحس بتدنيه عنه . ويعيش ستالين مقتصداً في شقة ذات ثلاث غرف ، ويرتدي الملابس التي تعتبر دون العادية ، والتي تجافي الذوق ، بينما لا يأكل الا وجبات خفيفة ، وان كان يحتسي الكونياك كأحد خبرائه . ولعل القضية هنا ، هي ما تمثله هذه الحقائق لنا ؟ ترى هل توحي باننا نعيش في هذه الايام في قبضة مجموعة من الرجال ، الحسني الهندام الى حد ما ، والمغالين في محاسبتهم لانفسهم ، والواعين لنسكهم الهائل ، والخطرين الى حد يدعو العالم الى التفكير بما اذا لم يكن من الافضل ان يغريهم لكي يصبحوا مدمنين على الخمر » . ويمضي فيقول ... « ولا يمكن للانسان ان يكون ديكتاتوراً اذا كان فاضلاً بطبعه وذلك لان نزعاته الديكتاتورية تحطم كل احساس لديه بمخافة الله . ويحس بشيء من الغضب والاهانة اذا وجد رعاياه معه . ولو لم يكن ديكتاتوراً ، لكان واحداً من الجماهير ، بل واحداً من

---

(١) يبدو ان التعفف كان تصنعاً عند هتلر . فقد اثبتت الوثائق والسجلات والكتب التي وضعت عن حياته ، انه اولع بعدد من النساء في حياته وكانت الاخيرة فيهن ، «ايفا براون» ، التي عقد عليها في اليوم الاخير من حياته وقبل انتحاره .

— المعرب -

احطها منزلة ، وكانت التجربة كافية لعمل شيء مع غروره الذي لا يطاق » . ويقول الكاتب « انه لو قدر وكانت هناك حفلة كوكتيل دولية يحضرها هؤلاء القادة المختارون والهدف الرئيسي منها ان يسلقوا بعضهم بعضاً بألسنة ناعمة ولكن بسرعة ، فان هؤلاء الرجال يغدون عند الصباح بعيدين عن طبيعة الرجل «السوبرمان» كما يظهرون اليوم . ويغدون من الناس العاديين ، الذين يتأثرون كأتباعهم ، ويصبحون في وضع عقلي يدفعهم الى معالجة القضايا كبشر لا كأنصاف آلهة » .

ولعل السبب الرئيسي الذي يدعوني الى كره الديكتاتور لا انسانيته ، اذ ان كل لاانساني يعتبر سيئاً . فالدين اللاانساني لا يعتبر ديناً ، والسياسة اللاانسانية سياسة حمقاء . والفن اللاانساني يعتبر فناً رديئاً ، والطريقة اللاانسانية في الحياة هي طريقة الحيوان في العيش . ولا شك في ان الاختبار الانساني عالمي الشمول ويمكن تطبيقه في جميع دروب الحياة ونظم التفكير . ولعل المثل الاعلى الذي يستطيع المرء التطلع اليه لا يتمثل في التظاهر بالفضيلة بل في ان يكون انساناً دمثاً ومحبوباً ومعقولاً .

ويستطيع الصينيون ان يتعلموا من الغرب شيئاً عن الشراب تماماً كما يتعلم الغرب عنهم شيئاً عن الشاي . ويحس الصيني بالذهول عندما يدخل حانوتاً امريكياً لبيع المشروبات من تعدد الانواع والاصناف والزجاجات ، اذ انه لا يجد في الصين حيثما ذهب الا طرازاً واحداً هو طراز «شاوهسينج» . وقد تكون هناك ستة اصناف او سبعة اخرى ، كما ان هناك بعض المشروبات المقطرة من الذرة بالاضافة الى بعض الخمور الطيبة ، ولكن القائمة سرعان ما تنتهي . ولم يتقن الصينيون بعد مهمة تقديم الانبذة المختلفة مع مختلف انواع المأكولات . يضاف الى هذا ان لهذا الشراب ، «شاوهسينج» ، شعبية واسعة عند الصينيين ، فعندما تولد البنت ، يعد أبواها لها جرة منه ، وعندما تصبح في سن الزواج يكون لديها جرة من النبيذ عمرها عشرون سنة تقدم كجزء من جهاز عرسها .

ويطلق على هذا النوع اسم « هواتياو » الذي يعني « المزدانة بالزهور » نسبة الى ما في الجرة من زينة .

ويعوض الصينيون على هذه القلة في انواع الخمور بالتأكيد الكبير على الوقت الصالح لشربها والجو المناسب لذلك . فالاحساس بالحاجة الى الخمر من الامور الضرورية للغاية . ولعل المقارنة بين الشاي والخمر تظهر في القول المأثور بان « الشاي يشبه الرجل الزاهد ، بينما يشبه الخمر فارس المجتمعات ، وان الخمر يكون للرفقة الصالحة ، بينما يكون الشاي للرجل ذي الفضيلة الهادئة » . ويحدد كاتب صيني الامزجة والاماكن الخاصة بالشراب فيقول ... « يجب ان يكون الشراب في الحفلات الرسمية بطيئاً ومريحاً ، أما الشراب غير المقيد فيجب ان يكون رومانطيقياً وجميلاً . وعلى المريض ان يشرب القليل ، بينما يجب على الرجل الحزين ان يشرب حتى يثمل. ويجب ان يكون الشراب في الربيع في باحة البيت ، أما في الصيف ففي ضواحي المدينة ، وفي الخريف في زورق يمخر عباب النهر ، وفي الشتاء في البيت . ويجب التمتع بالشراب في الليل بوجود نور القمر » .

ويقول كاتب آخر ... « هناك المكان والزمان الصالحان للشراب . فعلى المرء ان يسكر امام الازاهير في النهار ، لينعم بروائها وجمالها ، وعليه ان يسكر في فصل الثلوج في الليل ، ليجلو افكاره . وعلى المرء اذا شرب وهو سعيد بنجاحه ان يغني لان الغناء ينسجم مع روحه ، وعليه اذا شرب في حفلة وداع ان يعزف لحناً موسيقياً ليقوي معنوياته . وعلى المفكر الثمل ان يكون حذراً في سلوكه مخافة التعرض للمهانة ، وعلى العسكري الثمل ان يصدر الاوامر . ويرفع على صدره الاوسمة ليزيد من رونقه العسكري. ويجب ان يكون الشراب في الابراج العالية في الصيف للافادة من الطقس البارد ، أما الشراب على الماء فيجب ان يكون في الخريف ، ليوسع الانسان من احساسه بالحرية . هذه هي اساليب الشراب الصالحة بالنسبة الى المزاج والمكان ، ولا شك في ان مخالفة هذه القواعد تعني فقد لذة الشراب » .

وانا لا استطيع فهم موقف الصينيين من الشراب وسلوكهم في حفلاته ، وان كنت الومهم على نواحٍ منه ، واعجب ببعض النواحي الاخرى . ولعل اكثر شيء الومهم عليه هو ما يحسون به من سرور عندما يرغمون رجلاً على ان يشرب ما يزيد على طاقته . وانا لا اعرف ان مثل هذا الاجراء موجود او شائع في المجتمعات الغربية . والمألوف عند الشاربين ان يضفوا قيمة غيبية على كمية الشراب سواء ذاك الذي يتناوله الفرد وحده أو مع رفاقه . وليس ثمة من شك في ان الشراب يكون مصحوباً بشيء من الصخب ، ولكنه يكون من الطراز المرح والودي ، ويؤدي في العادة الى الكثير من الصراخ والضجيج والفوضى مما يزيد في الجو الهازل للمناسبة . ولعل من الطريف ان يتفرج المرء على حفلة شراب ، عندما يكون الشاربون قد وصلوا الى الوضع الذي ينسون فيه انفسهم ، والذي يصرخ فيه الضيوف مطالبين بالمزيد من الشراب ، ثم يتركون مقاعدهم او يتبادلونها ، وقد نسي الواحد منهم من هو صاحب البيت ومن هو الضيف . وكثيراً ما تتحول مثل هذه الحفلات الى مباريات في الشراب ، يشترك فيها المتبارون بكثير من الاعتزاز والمكر ، وقد سادتهم الرغبة في ان يروا منافسيهم وقد أعماهم السكر ودفعهم الى الاختفاء تحت المائدة. وعلى المرء في هذه المباريات ان يحذر من الغش ، وان يرقب اساليب منافسه . وقد تكون المتعة الماجنة في روح التنافس التي تسود الجميع .

اما الجزء الذي أعجب به من طريقة الصينيين في الشراب ، فهو الضجيج الذي يحدثونه . وكثيراً ما يتصور المرء نفسه وهو يتناول طعامه في مطعم صيني، وكأنه يشهد مباراة في كرة القدم . فهو يسمع اصواتاً من كل ناحية ، ذات جرس موسيقي جميل تشبه الهتافات والصرخات التي تنطلق في أية مباراة من مباريات كرة القدم . وينشأ هذا الصراخ عادة عن «لعبة الاصابع» اذ يخفي كل فريق عدداً من الاصابع في نفس الوقت ، ثم يصرخ معلناً مجموع الاصابع المخبأة عند الفريقين كما يتصورها . ويسمع المرء التعداد في نغمات شاعرية وكأنه يسمع

مَن يتحدث عن « النجوم السبعة » أو « الجياد الثمانية » او « الخالدين الثمانية الذين يعبرون البحر » . ويكون الرهان في العادة على الفريق الخاسر بأن يقدم للفريق الرابح عدداً من اقداح الشراب . ويكون التخمين عادة مبنياً على درس عادة الخصم وميله الى أعداد معينة ، مما يتطلب شيئاً من التفكير . ويعتمد ما في اللعبة من مرح على السرعة في التعداد وعلى الجرس الموسيقي في تعدادهم .

وها نحن قد وصلنا الى النقطة الحقيقية المتعلقة بمفهوم حفلة الشراب ، إذ ان هذا المفهوم وحده هو الذي يوضح لنا سبب استطالة مآدب الصينيين ، كما يوضح لنا عدد الاطباق التي تقدم في الحفلة وطريقة تقديمها . فالصيني لا يشهد المأدبة لمجرد الاكل ، وانما يشهدها ليتمتع بالوقت الذي يقضيه فيها وذلك عن طريق تبادل القصص والنكات والأحاجي الادبية والالعاب الشعرية بين دورات تقديم الاطباق . وتظهر المأدبـــة وكأنها المكان الصالح للالعاب اللفظية التي يتخللها ظهور الاطباق على المائدة بين فترات زمنية لا تزيد الواحدة منها على الدقائق السبع أو العشر . وينتج عن هذا اثران واضحان اولهما، ان ما يرافق الألعاب اللفظية من صخب وصراخ ، يساعد على تبخر المشروبات الروحية من الرأس ، وثانيهما ، ان المرء لا ينتهي من المأدبة التي تستغرق نحواً من ساعة ، الا ويكون قد هضم جزءاً من طعامه ، بحيث يشتد جوعه ، كلما كثر أكله . والصمت على أي حال اثناء الاكل رذيلة يجب تجنبها ، وهو عمل لا اخلاقي لانه منافٍ للصحة . وعلى كل اجنبي يزور الصين ، وتنتابه الشكوك بأن الصينيين ليسوا شعباً سعيداً مرحاً ، ويعتقد بانهم ميالون الى الصمت والوجوم والبعـد عن العاطفة ، ان يرقبهم وهم يأكلون ، اذ يكون الصيني آنذاك على سجيته ، وتظهر صفاته الخلقية الكاملة . فالصيني يرى ان وقت الطعام هو أحسن الاوقات للمرح والاحساس بالسعادة .

وبالرغم من ان الصينيين يشتهرون بلعبات الالغاز والاحاجي فان العابهم اثناء الشراب غير معروفة للخارج . ولما كان الخمر محرماً عندهم ، فقد اخترعوا

عدداً من الألعاب لتبرير شربها . وتسجل الروايات الصينية ، اسماء الأطباق التي يجب تقديمها في وليمة عشاء ، كما تشرح المباريات الشعرية التي تقام اثنـــاء هذه الولائم ، والتي يمـــلأ شرحها مواد فصل كامل من أي كتاب ، وتصف الرواية المنسوبة إلى « شينجهوا يوان » عدداً من الالعاب التي تقوم بها الفتيات ، مما يجعل هذه الالعاب لباب هيكل الرواية .

ولعل ابسط هذه الالعاب ، لعبة « شيهفو » ، التي تتمثل في اخفاء مقطع يؤلف بداية كلمة ونهاية كلمة اخرى عن طريق جمع المقاطع الاخرى في كلمة واحدة ، وسؤال اللاعبة عن المقطع المحذوف . فمقطع « درام » مثلاً مشترك بين كلمتي « هام درام » و « درام ستيك » ، وتكون الاحجية في تقديم عبارة « هام ستيك » للمسؤول ليعثر على المقطع المحذوف وهو « درام » . وعندمـــا يلفظ السائل عبارة « آ — ستارش » على المسؤول ان يجد المقطع الوسطي الضائع وهو « كورن » ليؤلف عبارة « آكورن — كورن ستارش » . واذا ما وجد المسؤول هذا المقطع لا يعلنه وانما يوجه لغزاً آخر لسائله مستعملاً مقطع« كورن» فيرد بعبارة « بوب — اير » وهو يعني « بوب — كورن — كورنر » او « بوب — موفين » فيدرك السائل الاول ان المسؤول قد عرف الرد الصحيح ، الذي يظل لغزاً بالنسبة الى بقية الموجودين . وفي امكان السائل والمسؤول ان يتبادلا توجيه الاسئلة في وقت واحد . وتكون بعض الاحاجي بسيطة ، بينما هناك اخرى معقدة كل التعقيد . فعبارة « آ — آونس » صعبة عند اكتشاف الجزء الضائع منها وهو « برون » ، بينما من السهل معرفة الجزء الضائع في « كام — ايفانت » وهو « ايل » لتصبح الكلمة الاولى « كاميل » والثانية « ايليفانت » . وفي الامكان استعمال كلمات نادرة وصعبة ، كما يمكن للمفكرين استعمال كلمات تاريخية نادرة لاختبار معلومات بعضهم البعض كاختيار اسماء من مسرحيات شكسبير او روايات بلزاك .

وليس ثمة حصر لانواع الالعاب الادبية . ومن الالعاب الشائعة عند المفكرين ،

أن يتلو كل واحد منهم بيتاً من الشعر التافه مؤلفاً من سبع كلمات وان يطلب الى الشخص الثاني ان يتلوه ببيت آخر موزون ، بحيث تنحط القصيدة كلها في النهاية الى مرتبة السخف . وتبدأ الابيات عادة بتعليق على شيء أو شخص او منظر يراه الجميع . وعلى كل حاضر للجلسة ان يقول بيتين يكون اولهما تكملة لمقطع يبدأه الشخص الآخر ، أما ثانيها فيؤلف مقطعاً جديداً يكمله شخص آخر . ويحدد البيت الأول ، الوزن والقافية ، وعلى الابيات الثالث والخامس والسابع وهلم جرا ان تحافظ عليها . ويطلب في اوساط المفكرين الذين يحفظون كل اسم و كل عبارة في « الكتب الاربعة » أو « كتب الشعر » عن ظهر قلب ، تلبية لأمر محدد الانخـاب ، ان يتلوا مقتطفات تتناول موضوعاً من المواضيع كموضوع « الفتاة الخجلى » أو « الفتاة السعيدة » او « الفتاة الباكية » . وكثيراً ما تتضمن هذه المقتطفات اسماء بعض الاغاني الشائعة او ابياتاً من اشعار تانج . ويطلب الى الندامى احياناً ان يحددوا اسماء بعض العقاقير أو الازاهير التي تفي بالمعاني التي تتضمنها عناوين انغام شائعة ، وتعتمد هذه الالعاب على جمال الاسماء المعطاة للزهور والعقاقير والاشجار وغيرها . وتستخدم اسماء الأسر الانجليزية احياناً للتعبير عن اسماء اغان شائعة . وتعتمد القدرة في هذه اللعبة على براعة الانسان ، وقدرتـه على الخيال والتنوع . وفي وسع طلبة الجامعات ان يعدوا عدداً من العاب الشراب من اسماء اساتذتهم .

وتتطلب الألعاب المدروسة المزيد من الحيل اللفظية . ويجـد الانسان على سبيل المثال في رواية « حلم بستان » ، وصفاً للعبة الثالثة . هناك ثلاث مجموعات من الكلمات تكتب كل كلمة منها في ورقة ، ثم تؤخذ ورقـــة من كل مجموعة لتؤلف عبارة تعني شخصاً معيناً يقوم بعمل معـــين في مكان معين ... وهذه هي الكلمات ...

داندي	يركب الجواد	في الطريق العام
القس	يتلو صلواته	في غرفة القس

السيدة تزخرف غرفة السيدة
الجزّار يتشاجر في الشارع
بنت الهوى تغازل في شارع الاضواء الحمراء
الشحاذ ينام في المقبرة .

وقد تؤلف الاوراق الثلاث التي التقطت كل واحدة منها من مجموعة . اغرب العبارات كأن تكون « القس يغازل في غرفة السيدة » و « بنت الهوى تتلو صلواتها في المقبرة » و « الشحاذ ينام في شارع الاضواء الحمراء » و « الجزار يزخرف الشارع العام » و « السيدة تتشاجر في غرفة القس » وهلم جرا ، وكلها عبارات تصلح عناوين رئيسية في الصحف .

وليس من الغريب والحالة هذه ان تمتد حفلة الشراب ساعتين ، فالهدف من مأدبة العشاء المرح والصخب لا الأكل والشراب . ولعل هذا هو الذي يجعل الانسان الذي لا يكثر من الشراب اكثر الحاضرين مرحاً وسرعة بديهة . فالاحساس بالنسبة الى الشارب هو كل شيء كما كان العزف على آلة لا اوتار لها هو كل شيء للشاعر طاويوانمينج. وقد يتمتع المرء باحساس الخمر دون ان تكون لديه طاقة على الشراب . ويقول احدهم ... « هناك اناس لا يستطيعون قراءة كلمة واحدة، ولكنهم يملكون احساساً بالشعر ، واناس لا يعرفون صلاة واحدة، ومع ذلك يملكون احساساً بالدين ، واناس لا يشربون جرعة واحدة، ومع ذلك يملكون احساساً بالخمر ، واناس لا يفهمون شيئاً عن الصخور ، ومع ذلك يملكون احساساً بالرسم » .

ولا شك في ان مثل هؤلاء الناس هم الذين يصلحون لصحبة الشعراء والقديسين والشاربين والرسامين .

٧ – عن الطعام والدواء

على النظرة الواسعة للطعام ، ان تعتبره كل ما يستعمل في تغذيتنا ، كما ان النظرة الواسعة للبيت ، تنطوي على كل ما يتصل باوضاع العيش . ولما كنا جميعاً من الحيوانات ، فان من المنطق ان نقول اننا نمثل ما نأكله . ولا تكون حياتنا في احضان الآلهة بل في احضان الطباخين . ولذا يحاول كل سيد صيني مهذب ان يصادق طباخه ، اذ ان في وسع الطباخ ان يؤمن لنا الحد الاقصى من التمتع بالحياة او يحرمنا منه . ويحاول الأبوان الصينيان كما يحاول الأبوان الغربيان ، مصادقة مرضعة طفلهما ، ومعاملتها باحترام ، لانهما يدركان ان صحة الرضيع تعتمد على مزاجها وسعادتها واوضاعها الحياتية . ومن هنا يتبيّن ان علينا ان نوفر للطباخين الذين يتولون اطعامنا ، نفس المعاملة التي تنطوي على الاحترام ، اذا كنا نعنى بصحتنا عنايتنا بصحة اطفالنا . ولو وجد انسان ذات صباح نفسه في منتهى العقل والمنطق ، وراح يحسب على اصابعه وهو مستلق في فراشه ، الاشياء التي يلقاها في الحياة والتي تؤمن له المتعة ، لوجد نفسه يعتبر الطعام اولها . ولذا فان خير محك للانسان الحكيم يتمثل في معرفة جودة الطعام في بيته او رداءته .

ولقد باتت سرعة الحياة التي نعيشها في المدن ، تمنعنا من اضفاء الكثير من التفكير وتخصيص الكثير من الوقت لموضوع الغذاء والطبخ . ولا يمكن توجيه اللوم الى السيدة المتزوجة التي تحتل مركزاً مرموقاً في الصحافة ، اذا كان ما تقدمه من طعام الى زوجها لا يعدو الحساء المعلب ، والخضروات المحفوظة . لكن من الجنون في الحياة على أي حال أن يأكل الانسان ليعمل ، لا أن يعمل ليأكل . وعلينا ان نعلم انفسنا اللطف والكرم معها ، قبل ان نعلمها اللطف والكرم مع الناس الآخرين . وما الخير الذي تستطيع السيدة تقديمه الى بلدها وتحسين الاوضاع الاجتماعية فيه ، اذا كان طهي طعامها وتناوله ، لا يستغرقان

منها اكثر من عشر دقائق ؟ ولو كانت هذه المرأة زوجة لكونفوشيوس لطلقها كما طلق زوجته لانها لا تجيد اعداد الطعام .

وهناك شيء من الغموض يحيط بقصة كونفوشيوس وزوجته ، وهل طلقها فعلاً ؟، او انها هي التي فرّت منه للخلاص من طلبات هذا الفنان المتأنق والولوع بالحياة . فهو يرى « ان الارز لا يمكن ان يكون تام البياض، وان اللحم المفروم لا يمكن أن يخلو تماماً من الشوائب ». وكان يرفض « اكل اللحم اذا لم يكن مصحوباً بالصالصة المناسبة ، أو إذا لم يكن مقطعاً في شرائح مربعة ، أو كان لونه أو مذاقه يختلفان عما يراه » . وأنا على ثقة أن زوجته كانت قادرة على احتمال كل هذا من زوجها ، ولكنها عجزت في يوم ما عن الحصول على لحم طري طازج لطهوه ، فبعثت بولدها «لي» إلى مطعم أنيق قريب ، وأتت لزوجها ببعض اللحم البارد والنبيذ ، ولما قدمتها اليه قال أنه « لا يستطيع أن يشرب النبيذ المصنوع في خارج البيت ، أو يأكل اللحم المشترى من المطاعم ». وهنا لم تستطع المسكينة صبراً ، فحزمت متاعها ، وتركت له البيت . وقد اشفق من الناحية النفسية على زوجة كونفوشيوس ، ولكن آثاره الأدبيه ما زالت تتحدث عن الظروف القاسية التي فرضها عليها .

وإذا ما عرفنا ان الصينيين يعتبرون الطعام في نظرتهم الواسعة غذاء ، تبين لنا أنهم لا يميزون مطلقاً بين الطعام والدواء . فما ينفع الجسم يعتبر دواء وطعاماً في آن واحد . ولم يشرع العلم الحديث في تبيّن اهمية « الحمية » في معالجة الأمراض الا في القرن الأخير ، أما اليوم فقد باتت جميع المستشفيات الحديثة مزودة بخبراء في الحميات الغذائية . ولو ان الاطباء العصريين خطوا خطوة اخرى واوفدوا هؤلاء الخبراء للتدرب في الصين. لقلّ عدد زجاجات العلاج التي يستعملونها . وكتب عالم قديم في الطب عاش في القرن السادس للميلاد ويدعى سون سيمياو يقول ... « يجد الطبيب الماهر اولاً ، اسباب المرض ، ثم يحاول علاجه عن طريق الطعام. فاذا ما فشل في ذلك لجأ إلى الدواء ». وهكذا

نجد ان أقدم كتاب صيني عن الطعام كتبه طبيب الامبراطور في البلاط المغولي في عام ١٣٣٠ اعتبر ان الغذاء شرط اساسي من شروط حفظ الصحة ، وقدم لذلك بالملاحظات التالية ... « على كل من يريد العناية بصحته ان يقتصد في أذواقه ، وان يطرد همومه ، ويعتدل من شهواته ، ويكبح عواطفه ، ويعنى بقواه الجنسية ، ويوفر كلماته . ولا يكترث كثيراً بالنجاح والفشل ، ويتجاهل الاحزان والمتاعب ، ويطرد الاطماع الحمقاء ، ويتجنب الافراط في الحب والكره ، ويهدىء من تصوراته ومن مسموعاته ، ويكون صادقاً مع حميته . وكيف يمكن للمرء ان يمرض اذا كان لا يثقل على نشاطه ، ولا يزعج روحه ؟ ولذا فعلى كل من يعنى بنفسه ان لا يأكل الا اذا جاع ، وان لا يشبع اذا أكل ، وان لا يشرب الا اذا عطش ، ولا يرتوي اذا شرب . وعليه ان لا يكثر من الاكل ، وان يكون أكله في فترات متباعدة . وعليه ان يجعل هدفه ان يحس بالجوع عندما يطعم ، وان لا يطعم الا القليل عندما يجوع . فالتخمة تضر الرئتين ، كما ان الجوع يؤذي قوى الانسان ونشاطه » . ولا شك في ان هذا الكتاب الصيني عن الطعام كغيره من الكتب المماثلة ، يعتبر من كتب العقاقير الطبية .

واذا ما سار المرء في شارع هونان في شانجهاي وتطلع إلى الحوانيت التي تبيع الدواء الصيني ، رأى من العسير عليه ان يميز ما اذا كانت هذه الحوانيت تبيع المزيد من الدواء أو الطعام . ففي هذه المحلات يجد المرء قشور القرفة جنباً إلى جنب مع لحم الخنزير ، والعقاقير إلى جانب الاسماك ، وقرون الغزلان الصغيرة إلى جانب الطحالب والتمور . ولا شك في ان جميع هذه الأشياء مفيدة للجسم ، وصالحة للتغذية . وقد يكون من العسير التمييز بين الطعام والدواء . ولعل من حسن الحظ ان المقويات الصينية لا تضم ثلاثة غرامات من الهيبوفوسفات و ٠٫٠٠٢ من الزرنيخ ، وانما تتألف من حساء الدجاج المطبوخ مع الخضار . ويعود هذا إلى طريقة إعداد الدواء عند الصينيين ، اذ بينما تكون الادوية عند الغربيين في شكل حبات أو أقراص ، تكون عند الصينين في شكل حساء . ويتم إعداد الدواء

الصيني بنفس الاسلوب الذي يعد فيه الحساء العادي ، ومع العناية المطلقة بعملية المزج والمذاق والمحتويات. وهناك نحو من سبعة أو ثمانية عناصر تدخل في الحساء الصيني ، وقد قصد منها أن تغذي الجسد وتقويه ، لا ان تعالج المرض فحسب. فالطب الصيني يتفق مع الطب الغربي الحديث في انه عندما يصاب الكبد بالمرض، لا يقتصر هذا المرض على الكبد وانما يصيب الجسم كله. وكل ما يستطيع الدواء ان يعمله، يقف عند حد البدء الاساسي بتقوية حيويتنا، عن طريق الاهتمام بهذا الجهاز المعقد كل التعقيد من الاعضاء والأنسجة والسوائل والهورمونات التي يسمونها الجسم البشري ، مع تسليم الجسم نفسه مهمة العناية بنفسه . ويستعيض الاطباء الصينيون عند معالجة مرضاهم عن اقراص الاسبيرين بأقداح كبيرة من الشاي الطبي لضمان فرز «العرق» من اجسادهم، وقد يستعيض المرضى في المستقبل عن أقراص الكينا بحساء السلاحف البحرية المطبوخ مع الفطر ومع قطع من لحاء الكينا . ولا بد من توسيع اقسام الحمية في المستشفيات الحديثة ، أما المستشفى نفسه فسيكون اشبه بمطعم احدى المصحات . وها نحن قد وصلنا اخيراً إلى مفهوم عن الصحة والمرض بحيث يأكل الناس لمنع المرض بدلاً من اخذ الدواء لعلاجه . ولا يؤكد الغربيون كثيراً على هذه النقطة ، اذ انهم لا يذهبون إلى الطبيب إلا عندما يمرضون، ولا يرونه وهم أصحاء. ولا بد قبل الوصول إلى تلك المرحلة من الغاء التمييز بين العلاج الذي يغذي الجسم، والعلاج الذي يشفي من المرض.

وعلينا والحالة هذه ان نهنىء الشعب الصيني على مزجه السعيد بين الدواء والطعام . ولا ريب في ان هذا المزج يقلل من عنصر العلاج في الدواء ، ويزيد من عنصر الغذاء في الطعام . ويبدو ان هناك أهمية رمزية في الحقيقة الواقعة وهي أن إله التخمة ظهر في عصرنا شبه التاريخي، وان إله الفلسفة الطاوية يظهر الآن كنموذج مناسب بين منحوتاتنا الصخرية والبرونزية الأولى . فروح الطاوية موجودة في نفوسنا ، وهي تجعل علومنا العلاجية مشابهة لكتب الطبخ عندنا والعكس بالعكس ، كما تجعل من المستحيل ظهور علمي النبات والحيوان كجزء من العلوم الطبيعية ، وذلك لأن العلماء الصينيين يفكرون دائماً في شكل

مذاق لحم الثعبان أو القرد أو التمساح أو الجمل . فالفضول العلمي في الصين فضول نهمي في الواقع .

ولما كانت جميع القبائل البدائية تخلط بين الطب والسحر ، وكان الفلاسفة الطاويون الصينيون يجعلون من « تغذية الحياة » ومن التطلع إلى الخلود أو الحياة الطويلة هدفهم الاساسي ، فاننا نجد ان الدواء والطعام ، قد اصبحا في متناول ايديهم دائماً . وهناك فصول عدة في كتاب الطبخ الامبراطوري للاسرة المغولية الذي سبق أن اقتبسنا شيئاً منه ، تتحدث عن اطالة الحياة وإبعاد المرض. ولما كانت الفلسفة الطاوية تتعلق تعلقاً عاطفياً بالطبيعة ، فان هناك ميلاً دائماً إلى تأكيد اهمية الفواكه والأطعمة ذات الطبيعة النباتية . وهناك طراز من المزج بين الشعر والانفة الطاوية من الحياة . ويعتبر هذا المزج أكل حبوب اللوتس الطازجة بما فيها من مذاق رقيق صنعه الطل ، اسمى متعة عند المفكر . ولا شك في ان هذا المفكر يود لو شرب الطل ذاته . وتمت حبوب اشجار الصنوبر ودرنة السهم التي تشفي من الجراح السامة ، وغير ذلك من الأعشاب ، إلى نفس الفصيلة التي يقال انها تطيل الحياة ، لأنها تطهر قلب الانسان وروحه . ولا يفترض في الانسان الذي يأكل بذور اللوتس ، أن تكون لديه رغبات بشرية ، كالرغبة في الجنس مثلاً . وهناك أعشاب عدة يأكلها الانسان كجزء من طعامه ، ولكنها تطيل الحياة كالهليون والخس واللوتين وغيرها .

وتمثل العلاجات الصينية ميداناً فسيحاً ، ينتظر من البحث العلمي الغربي الغوص فيه . ولم يكتشف الطب الغربي الا منذ عهد قريب أهمية أكل « الكبد » في تقوية الدم ، بينما كان الصينيون يعتبرونه منذ عهد بعيد غذاء نافعاً للشيوخ. واني لأظن ان الجزار الغربي عندما يذبح خنزيراً يقذف بما يسميه « بالسقط » كالكلى ، والمعدة والاحشاء والكبد والنخاع الشوكي والمخ مع ما في هذه الاشياء من قيمة غذائية ضخمة . ولقد بدأ العلم يكتشف مؤخراً أن العظام هي المكان الذي تتولد فيه الكرويات الحمراء في دم الانسان ، ولا شك عندي في ان

القاء عظام الحمل والخنزير والبقر دون الافادة منها في صنع الحساء ، تبديد لقيمة غذائية ضخمة .

وهناك عدة أطعمة غربية احبها وفي مقدمتها اقراص العسل ، لأن تضمن اسمها بالانجليزية لتعبير الطل ، أمر شائع عند الصينيين . ولو ان طاوياً صينياً قديماً عثر على حبة من حبات « الجريب فروت » لخيل اليه انه اكتشف إكسير الخلود ، اذ ان الطاويين كانوا يتطلعون إلى ما في الثمار الغربية والمجهولة من مذاق رائع . ويعتبر عصير الطماطم من اعظم اختراعات الغرب في القرن العشرين ، وذلك لأن الصينيين كالغربيين كانوا حتى قرن مضى يعتبرون الطماطم مادة لا تصلح للأكل . وهناك ايضاً اكل الكرافس الأخضر ، اذ يشبه كثيراً فكرة الصينيين في اكل الاشياء لفائدتها في بناء انسجة الجسم. ويكون الهليون رائعاً عندما لا يكون أخضر ، ولكن الصينيين يعرفونه . وأخيراً أجد لزاماً علي ان اعترف بحبي الشديد للحم الانجليزي المشوي بل ولجميع الأغذية المشوية. فكل طعام يكون طيباً عندما يطهى ويذاق في البلاد التي تتقن طهيه ، وعندما تتم عملية الطهي في الفصل المناسب لها . وكنت دائماً أحب الطعام الأمريكي عندما يقدم إلي في البيوت الأمريكية ، ولكنني لم أعجب قط بالطعام الذي يقدم الي حتى في أحسن فنادق نيويورك . ولا يمثل الخطأ في هذه الفنادق أو في مطاعمها ، اذ يستحيل ايضاً الحصول على الطعام الجيد حتى في المطاعم الصينية ، الا اذا اوصي على هذا الطعام مسبقاً ، والا اذا كان اعداده بكثير من العناية الفردية .

وهناك عدة عيوب صارخة من الناحية الاخرى في المطابخ الامريكية والاوروبية . وبالرغم من ان المطبخ الغربي متفوق في صناعة المعجنات والحلويات وانواع « الجاتوه »، الا انه يبدو بليداً في تحديد اشكاله . فبعد ان يقضي المرء ثلاثة اسابيع مثلاً في تناول طعامه في فندق أو نزل أو باخرة غربية ، وبعد ان يكون قد اكل الفراخ المصنوعة بالطريقة الغربية ولحم البقر ولحم الضأن

« والفيليه » اكثر من ثلاث عشرة مرة ، يصاب بشيء من الملل . ولا شك في ان اعداد الخضروات يعتبر اقل فروع الطبخ الاوروبي تطوراً ، فالخضار اولاً محدودة في أنواعها ، وهم يكتفون ثانياً بسلقها في الماء ، وهم يفرطون في هذا السلق ثالثاً الى الحد الذي تفقد فيه لونها . ولا يحسن الاوروبيون طهي السبانخ، اذ انهم يفرطون في طهيه ، بينما لو قلي في مقلاة حارة للغاية بالزيت والملح ، ثم رفع عن النار قبل ان يفقد لونه ، مثّل نوعاً من أطايب الطعام . ويكون الخس الذي يعد بنفس الطريقة لذيذاً ، شريطة ان لا يظل في المقلاة طويلاً . وتعتبر « أكباد الفراخ » من المآكل الشهية في الغرب ، وكذلك الحال بكلى الضأن المشوية ، ولكن هناك انواعاً كثيرة من الاطعمة التي تمت الى نفس النوع لم يجربها الغربيون بعد . ويفسر هذا لنا الافتقار الى التنويع في المآكل الغربية . فمن المآكل الشائعة والمألوفة في الصين ، قوانص الدجاج المقلية واكبادها . ويقدم الصينيون رأس سمكة « الشبوط » كطبق خاص بما فيه من لحم لذيذ . وانا اعتبر احشاء الخنزير من الطباق المفضلة لدي وكذلك بعض اجزاء « كرشة » الجاموس . ويمكن عمل حساء رائع منها ، يكون مذاقه دسماً ورائعاً . ويعتبر طبق « الحلزون الكبير » من اطيب الطعام في فرنسا وكذلك في الصين . وهو لا يقل في مذاقه وجودته عن المحار والاسكالوب .

ويرجع الافتقار الى التنوع في الحساء الى سببين، أولهما الافتقار الى التجربة في اعداد خلائط من الخضار مع اللحم، ففي الامكان اعداد مائة نوع من الحساء من خلط خمسة او ستة محتويات من الخضار واللحوم بنسب واشكال مختلفة . ولا يعرف الغربيون مثلاً حساء البطيخ ، وان كان يعتبر اذا أعد إعداداً طيباً مع بعض الاسماك من اطيب المأكولات في الصيف . أما السبب الثاني فهو عجز الغربيين عن الافادة إفادة كاملة من انواع الاسماك والحيوانات البحرية . ولا يعرف الغربيون مثلاً إلا قلي الاسكالوب، بينما يمكن صناعة نوع جيد من الحساء من الاسكالوب المجفف . وينطبق هذا ايضاً على لحم السلاحف، وان كان المرء لا

يرى في الحساء أي لحم . ويعتبر حساء السلاحف المتقن من اجود الاطباق في كانتون ، لا سيما وانهم يعدونه احياناً مع ارجل البط والاوز . وهناك طبق مفضل عند اهالي شيكيانج ، ويطلقون عليه اسم « الزوايا الكبيرة » ، اذ انه يضم اجنحة الفراخ وفخاذها . وفي هذا المزيج الكثير من المذاق اللذيذ . ولعل احسن حساء ذقته في حياتي هو ذاك المصنوع من مزيج من صغار سمك « الشبوط » ومن الاسماك المعروفة بذات الصمامين . ولعل خير اختبار لجودة الحساء المصنوع من الحيوانات البحرية هو ان لا يكون كثير الزيت .

ولعل خير صورة عن احساس الصينيين بالطعام ، تبدو في هذه الفقرات التي اقتبسها هنا من فصل كتبه لي ليوينج عن السرطان البحري في الجزء الخاص بالطعام من كتابه ... « فن العيش » ... فهو يقول ...

« ليس ثمة ناحية في الطعام او الشراب لا استطيع وصف مذاقها دون تفهم وسعة أفق. أما بالنسبة الى السرطان البحري فان فؤادي يحبه ، وفمي يستذوقه ، ولا استطيع نسيانه لا ليوم واحد ولا لسنة ، ولكنني عاجز عن ان اصف بالكلمات اسباب حبي وتذوقي وعدم نسياني له . ولقد بات هذا الشيء يمثل لي ضعفاً في الطعام ، وظاهرة غريبة في الكون . فلقد كنت طيلة حياتي ولوعاً بهذا النوع من الطعام . ففي كل عام ، وقبل ان يحل موسمه ، كنت ارصد بعض المال لهذا الهدف ، ولما كانت أسرتي تقول ان « السرطان البحري هو حياتي » فقد كان هذا المال الذي ارصده يمثل فدية الحياة . وانا لا اذكر انني فقدت هذا الصنف ليلة واحدة في أي موسم من مواسمه ، منذ ظهوره لأول مرة في السوق حتى اختفائه . ويدعوني اصدقائي الذين يعرفون ولعي به وضعفي تجاهه الى العشاء في فصل وجوده ، ولذا فانا اطلق على شهري اكتوبر ونوفمبر من

كل عـــام أنم « خريف السرطان البحري (ابو جلمبو) » .
وكانت لدي خادمة خصصتها للعناية باعداد هذا الطبق واجادة طهيه ، وكنت ادعوها « فتاة ابي جلمبو » . لقد مضت هذه الفتاة ! آه ايهـــا السرطان لقد بدأت حياتي معك ، وستنتهي معك ايضاً ! »

وكان السبب الذي عرضه « لي » في النهاية لولعه بهذا الصنف من الطعام هو الكمال في المتطلبات الثلاث اللازمة لأي صنف وهي ، اللون والمذاق والرائحة . ويشترك الصينيون الذين يمتون الى جميع الطبقات مع لي في مشاعره هذه تجاه « ابو جلمبو » ، ولا سيما للنوع الذي يصطادونه من بحيرات المياه الحلوة .

ويبدو لي ان فلسفة الطعام تتلخص في ثلاثة امور وهي ، ان يكون طازجاً وان يكون طيب المذاق وان يكون حسن التركيب . فلا يستطيع أحسن طباخ في العـــالم ، ان يصنع طبقاً طيب المذاق ، الا اذا توافرت له المواد الطازجة ، ولا شك في ان أي طباخ ماهر ، يقول لك ان نصف فن الطبخ يمثل في عملية الشراء . وقد تحدث يوان تسيتساي الفيلسوف الابيقوري والشاعر الذي عاش في القرن السابع عشر ، بكثير من الاطراء عن طباخه كرجل يعتز بكرامته ، ويرفض ان يطهو الطعام الا اذا كانت محتوياته في مواسمها . وكان الطباخ يتميز بمزاج سيء ، ولكنه اعترف بأنه ظل يخدم الشاعر لأنه كان ذوّاقه للطعام . وهناك طباخ في الستين من عمره في هذه الايام في زيشوين ، لا بد من توجيه دعوة رقيقة اليه لاعداد العشاء لأية مناسبة خاصة ، ولا بد من اعطائه مهـــلة اسبوع ليجمع الأمور التي يحتاجها ويبتاعها ، وان تطلق يده تمام الاطلاق في ان يضع هو قائمة الطعام الذي سيقدم في الوليمة .

وهناك شيء من العزاء للناس العاديين الذين لا يستطيعون شراء الطعام الغالي الثمن ، عند ما يعرفون ان كل شيء يكون حسن المذاق في الفصل الخاص

به ، وان من الافضل الاعتماد على الطبيعة اكثر من اعتمادنا على الحضـــارة في تزويدنا بخير المباهج والملذات . ولعـــل هذا هو السبب الذي يضمن للناس الذين يعيشون في الارياف ، أو الذين يملكون حدائق خاصة بهم ان يحصلوا على اطيب الطعام وان كانوا يفتقرون الى الطهاة الماهرين . ولعل هذا هـــو السبب الذي يدعو الى ضرورة تذوق الطعام في مكانه الاصلي قبل اصدار حكم عليه . لكن مناقشة القيم الابيقورية عن الملذات ، أمر لا جدوى منـــه بالنسبة الى الزوجة التي لا تعرف كيف تبتاع الطعام الطازج ، أو الرجـــل الذي يكون مستعداً لقبول اللحوم المخزونة الباردة .

ويكون تركيب الطعام بالنسبة الى رقته ونعومته وما فيــه من طعم حاذق ، قضية توقيت وتكييف للحرارة المستخدمة في الطهي . وفي وسع المطـــاعم الصينية ان تنتج اطباقاً يستحيل تقديمها ، اذ انها مجهزة بافران رائعة . أمـــا بالنسبة الى المذاق فهناك طرازان من الاطعمة ، اولهما طراز الاطعمة التي تقدم مع « مرقها » الخاص بها ، دون اضافة شيء اليها سوى الملح أو «صالصة حبوب الصويا » ، وثانيهما تلك التي يلذ مذاقها لمزجها بمذاق طعام آخر . فهناك بالنسبة الى اطبـــاق السمك ، تقدم اطباق البط البحري ، والسلمون بصالصتها الخاصة الطبيعية ، بينما يستحسن مزج « صالصة » انواع السمك البدين بعصارة القطاني الصينية . وهناك اطعمة امريكية رائعة تتألف من خلائط من الاطعمة المختلفة ، فهنـــاك بعض المذاقات الطبيعية التي تبدو وقد صنعت خصيصاً لبعضها البعض ، والتي تصل الحد الاقصى من الصلاح للطعام عن طريق مزجها مع بعضها البعض . فهناك جذور الخيزران التي تصلح للأكل مع لحم الخنزير ، لأن كلا منها يضفي شيئاً من المذاق على الآخر . وينسجم لحم الخنزير البارد مع الطعم الحلو . ولعل من ابرز الاطباق التي يصنعها طباخي في شنجهاي ، هو طبق اللحم مع التمر الاصفر . وتصلح بعض الاعشاب الاخرى للطهي مع بيض البط ، كما ان لحم السرطان البحري ينسجم مع صالصة البقول الصينية . وهناك مجموعة كبيرة من المأكولات

مهمتها ان تضفي مذاقها على الاطعمة الاخرى ، كما ان هناك مجموعة اخرى لا مذاق خاص لها، ولذا فهي تعتمد على اقتراض المذاق من الاطعمة الاخرى .

ولعل الخصائص الثلاث الضرورية البارزة للاطعمة الصينية الشهية هي ان تكون بلا لون ولا رائحة وبلا طعم حاد . ولعل السبب الرئيسي في غـلاء اسعارها هو انها تعد دائماً مع الحساء الغالي الثمن .

٨ – بعض العادات الغربية الغريبة

لعل من اكبر الفروق بين الحضارات الغربية والشرقية ، ان الغربيين يصافحون بعضهم البعض عند اللقاء ، بينما يضم الصيني يديه الى بعضها عند تحية شخص يلقاه . واني لأرى ان المصافحة من العادات الغربية المثيرة للضحك ومن اسوئها. وقد اكون من اكثر الناس تقدماً فأعجب بفن الغرب وادبه ، وبالجوارب الحريرية الامريكية ، والعطور الباريسية وحتى البوارج البريطانية ولكني لا استطيع ان افهم كيف يسمح الاوروبيون التقدميون باستمرار هذه العـادة المتوحشة وهي المصافحة بالايدي حتى اليوم . وانا اعرف ان هناك جماعات خاصة وافراداً في الغرب ، يحتجون على هذه العادة ، كما ان هناك اناساً يحتجون على عادة مضحكة اخرى وهي ارتداء القبعات والياقات المنشاة . ولكن يبدو لي ان هؤلاء الناس لم يحققوا نجاحاً ، اذ ينظر اليهم على انهم اناس يهتمون بالتوافه . وانا واحد من الناس الذين يهتمون بالتوافه . واني كصيني اكثر التزاماً بأن اكون ضد هـذه العادة الغربية من الاوروبيين ، واني لأوثر ان اضم يدي الى بعضها ، عندما اقابل الناس أو اودعهم .

ولا شك في ان كل انسان يدرك ان هذه العادة كعادة رفع القبعات هما من بقايا العهود البربرية في اوروبا . ولقد تولدت هذه العادة منذ ايام النبلاء والفرسان

من قطاع الطرق ، اذ كانوا يرفعون خوذاتهم ، وينزعون القفازات الحديدية عن ايديهم عندما يلقون انساناً يودون ان يظهروا امامه بمظهر الود . وقد يكون من المضحك في العصر الحديث ان نكرر نفس الحركات التي كان يعملها أولئك ، بعد ان اصبحنا لا نلبس الخوذ والقفازات الحديدية ، ولكن تلك العادات البربرية تظل قائمة كأدلة على اوضاع تلك الايام ، كما بقيت العاب السيف شاهـــداً على مبارزات تلك العصور .

واني لاعترض على هذه العادة لاسباب منها الصحي . فالمصافحة بالايدي شكل من اشكال الاتصال الانساني يخضع لاجمل الصور . وفي وسع أي طالب في الدراسات الامريكية العليا ان يكتب رسالة الدكتوراه عن « دراسة التوقيت والحركات في صور التصافح بالايدي » ، عارضاً فيها الصور المقبولة من المصافحة ، بالنسبة الى الضغط والزمن ، والاستجابة العاطفية ، وغير ذلك من الأمـور ، ودارساً فيها اشكالها بالنسبة الى وجود الجنسين ، والى ارتفـــاع قامات المتصافحين ، واوضاع البشرة بالنسبة الى المهن والطبقات الاجتماعية التي ينتمي اليها المتصافحون . وليس ثمة شك عندي في ان هـذا الطالب سيحصـــل على شهادة الدكتوراه ، اذا ارفق بحثـــه بعدد من الرسوم والاشكال ، شريطة ان يجعل بحثه متعباً ومملاً .

ولندرس الآن الاعتراضات الصحية على المصافحة . فالاجانب المقيمون في شانجهـــاي ، والذين يرفضون الامساك بنقودنا النحاسية على اعتبار انهـــا مستودعات للجراثيم والمكروبات ، لا يفكرون لحظة واحدة في الضرر الصحي الناجم عن مصافحتهم لتوم أو ديك او هاري في الشارع . وهنا يبدو اللامنطق في اوضح صورة ، اذ كيف يمكن لك ان تعرف ان توم او ديك اوهـــاري ، لم يلمس تلك النقود النحاسية التي ترفض الامساك بها وكأنها سم زعاف ؟ ولعل ما هو اسوأ من هذا ان ترى رجلاً يبدو وكأنه مصاب بالسل ، يغطي فمه بيـــده عندما يسعل ، ليمنع انتقال الميكروب الى الآخرين . ثم لا يتورع بعد لحظات

عن ان يمد يده اليك ليصافحك . ومن هنا تكون عادتنا نحن الصينيين ، بأن يصافح الواحد منا يديه عندما يلقى صديقه ، اكثر انطباقاً على الناحية العلمية . وانا لا اعرف اصل هذه العادة عندنا ، ولكنني اعرف انها من الناحيتين الصحية والوقائية اكثر فائدة من العادة الغربية .

وهناك ايضاً اعتراضات جمالية ورومانسية على مصافحة الايدي. فعندما تمد يدك الى صاحبك، تصبح تحت رحمة هذا الصاحب ، الذي تصبح الحرية متوافرة لديه لشدها بقسوة ، وإبقائها في يده المدة التي يريدها . ولما كانت اليد من اجمل اعضاء الجسم واكثرها تجاوباً ، فانها تتعرض والحالة هذه الى مختلف صور الضغوط. فهناك اولاً طراز اعضاء جمعيات الشبان المسيحيين في المصافحة، فاذا لقيك واحد منهم ، ربت على كتفك بيد ، وهز يدك بالثانية ، هزاً عنيفاً تصبح معه مفاصلك على استعداد للتفجر . ولا يعرف الانسان الذي يقع ضحية مصافحة سكرتير من سكرتيري هذه الجمعيات ، ولا سيا اذا كان لاعباً رياضياً ، اذ كثيراً ما تتفق الصفتان في شخص واحد ، ما اذا كان سيصرخ من شدة المصافحة أو يقهقه عالياً لاخفاء ألمه . ولا شك في ان هذا الطراز الصريح المعبر عن الاعتداد بالنفس في المصافحة، يعني وكأن المصافح يقول ... « اسمع ، لقد اصبحت في قبضتي ، وعليك ان تبتاع بطاقة للحفلة المقبلة ، او تعد بأن تحمل معك الى بلدك نشرة من نشراتنا ، قبل ان ارخي يدك » . ولا شك في انني في مثل هذه الحالات ارضخ لطلبه .

واذا هبطنا السلم من هذه المصافحة العنيفة ، نجد الواناً مختلفة من الصور ، فنجد تلك المصافحة اللامكترثة التي فقدت كل معنى لها ، وتلك المصافحة التي تهتز فيها يد القائم بها وكأنها تريد ان تنسحب معبرة عن الخوف منك . كما نجد تلك السيدة الانيقة من سيدات المجتمع ، التي تمد اليك اطراف اصابعها ، بطريقة توحي اليك ، بأنها تأمرك بالنظر الى اظافر اصابعها الطويلة المصبوغة « بالمانيكور » . ويتضح من هذا ان ضروب العلاقات الانسانية كلها تنعكس

والحالة هذه ، في هذه الصورة من الاتصال الانساني بين شخصين . ويقول احد الروائيين ان في وسعك ان تحكم على شخصية الانسان من طريقته في المصافحة وان تميز بين الرجل الواثق من نفسه والمتخاذل ، وبين الضعيف والهادىء وغير الصادق . واني لأود ان اوفر على نفسي عناء تحليل شخصية الانسان الخلقية في كل مرة القاه فيها ، أو عناء تميّز درجة حبه لي وهل زادت او ضعفت ، من ضغطة يده على يدي .

ولا شك في ان عادة رفع القبعة من اسخف العادات . ففي هذه العادة نجد تحكم قواعد السلوك « الإتيكيت » في الانسان مهما كانت خالية من كل منطق . فعلى السيدة مثلاً ان تبقي على قبعتها على رأسها ، عندما تؤدي الصلاة في الكنيسة أو عندما تحضر حفلة الشاي بعد الظهيرة . ولست ادري اذا كانت هذه العادة منقولة عن عادات آسيا الصغرى في القرن الاول الميلادي ام لا ، ولكنني اشك في انها منقولة عن تعليمات بولس الرسول ، الذي دعا السيدات الى تغطية رؤوسهن اثناء الصلاة ، والرجال الى كشف رؤوسهم ، مقتبساً ذلك من فلسفة اسيوية تدعو الى عدم المساواة بين الجنسين ، وهي فلسفة رفضها الغربيون منذ أمد بعيد . وهناك عادة مضحكة بالنسبة الى الرجال وهي ان ينزعوا قبعاتهم في المصعد اذا كان فيه سيدات . وليس ثمة من مبرر لهذه العادة التي لا معنى لها . فليس المصعد من الناحية الأولى إلا تكملة للدهليز ، واذا كان لا يطلب من الرجال ان ينزعوا قبعاتهم في الدهليز ، فلماذا يرغمون على ذلك في المصعد ؟ ولا شك في ان الانسان يدرك ما في هذه العادة من لا منطق . اذا قدر له ان ينتقل من طبقة الى اخرى في نفس العمارة ، وقد وضع قبعته على رأسه . ولا يمكن من الناحية الاخرى تمييز المصعد من وجهة النظر المنطقية عن أية وسيلة اخرى من وسائل النقل كالسيارة مثلاً . واذا كان في وسع الرجل ان يبقي على قبعته على رأسه وهو مرتاح الضمير ، عندما يقود سيارة في صحبة بعض السيدات ، فلماذا يمنع من ذلك وهو يستقل المصعد ؟

ولا شك في ان عالمنا مجنون. ولكنني لست مندهشاً من ذلك على الاطلاق . فنحن نرى على أي حال ، البلادة الانسانيه حولنـــا في كل مكان ، وحتى في العلاقات الدولية والنظم التعليمية الحديثة .وقد يكون ذكاء الانسان هو الذي دفعه الى اختراع الراديو واجهزة اللاسلكي والهاتف ، ولكن ذكاءه لم يكـــن كافياً ولن يكون كافياً لمنع الحروب . ومن هنـــا فانا راغب في ان ابقي على البلادة قائمة في الامور التافهة . راضياً بتسلية نفسي بها .

٩ – اللاانسانية في الملابس الغربية

ما زلت اتمسك بملابسي الصينية التقليدية . بالرغم من شيوع الملابس الغربية عند جميع العصريين من العرب والاتراك والهنود واليابانيين والصينيـين وبالرغم من ان هذه الملابس تعتبر عالمية في شمولها كالملابس الدبلوماتيـــة الرسمية . وتعرضت لسؤال الكثيرين من خيرة اصدقائي عن الاسباب التي تدعوني الى إيثار الملابس الصينية على الملابس الغربية . اجل انهم يعتبرون انفسهم من أصدقائي ، مع ان سؤالهم هذا لا يبعد كثـــيراً عن تساؤلهم عن الاسباب التي تدعوني الى المشي على قدمي . فهناك ارتباط بين الناحيتين ، وسأحاول تبيان ذلك . ولكن لم يتحتم علي ان اوضح الاسباب التي تدعوني الى ارتداء الملابس الانسانية الوحيدة في العالم ؟ وهل يطلب الى الرجل الذي يرتدي ملابسه الوطنية المريحة في البيت وخارجه ان يشرح الاسباب التي تدعوه الى رفض حصر نفسه في طراز خانق من الملابس يتمثل في الياقات المنشاة ، والصدريات والاحزمة والاشرطـــة ، واربطة الساق ؟ وليست للالبسة الغربية مكانة سوى انهـــا ترتبط ، بما لدى الغربيين من تفوق في البوارج وماكنات الديزل . ولا يمكن الدفاع عنهـــا على اسس جمالية او خلقية او صحية او اقتصـادية ، وانما يكمن تفوقها في الاسباب السياسية ليس إلا .

ولكن هل استمد موقفي هذا من مجرد وضع أريد ان اظهر فيه ، أو هل يكون دليلاً على تقدم معرفتي بالفلسفة الصينية ؟ لا . لا اظن ذلك . فجميع المفكرين من ابناء جيلي في الصين ، يؤيدون هذا الموقف الذي اتخذت . وجميع السادة المهذبين في الصين يرتـــدون الملابس الصينية . يضاف الى هذا ان جميع المفكرين والعلماء وارباب البنوك ، ورجال الاعمال الناجحين في الصين يمثلون في فئتين ، فئة لم يرتد رجالها الملابس الاجنبية ابداً ، وفئة عاد رجالها الى ملابسهم الوطنية في اللحظة التي حققوا فيها اهدافهم السياسية والمالية والاجتماعية . وقد عاد هؤلاء بسرعة الى ملابسهم الأصلية ، لأنهم اصبحوا واثقـين من انفسم ولم يعودوا يشعرون بالحاجة الى تغطية مظهرهم بالظواهر الاجنبية ، لاخفـــاء انجليزيتهم السيئـــة ، او تكوينهم العقلي المتدني . ولا يفكر أي من خاطفي الناس في شانجهاي بخطف صيني يرتدي الملابس الاجنبية ، لسبب بسيط واحد وهو ان المخطوف لا يساوي شيئاً . ترى من هم الذين يلبسون الملابس الاجنبيـة في الصين في هذه الايام ؟ انهم طلاب الكليات ، والكتبة الذين لا يزيد اجرهم على المائة دولار في الشهر ، والمشتغلون بالسياسة الذين يطمعون في الوظائف ، وشبان حزب الكومنتانج ، والاغنياء الجدد ، والمخبولون وضعاف العقول ... وهناك ايضاً امثال هنري بويي (امبراطور الصين السابق) السفيه الذوق الذي استبدل اسمه الصيني باسم اجنبي وملابسه الصينية بملابس غربية ،ووضع نظارتيه على عينيه . ولا ريب في ان منظره هذا يقتل كل فرصة له في العودة الى العرش حتى ولو وقفت جميع حراب اليابانيين خلفه تؤيده . ففي وسعك ان تكذب في كل شيء على الشعب الصيـني ، ولكن ليس في وسعك ان تقنـع افراده بان ذلك الرجل الذي يرتدي الملابس الغربية ، ويضع النظارة السوداء على عينيه ، هو امبراطورهم . وطالما ان ذلك الرجل يرتدي الملابس الاجنبيـــة ويسمي نفسه هنري ، فسيظـــل هناك على ارصفـة ليفربول ، ولن يتمكن من العودة الى الصين .

ويمثل الفرق في الفلسفة بين الملابس الصينية والغربية في أن الاخيرة تحاول

براز الشكل الانساني بينما تميل الأولى الى اخفائه . ولكن لما كان جسم الانسان يشبه الى حد كبير جسم القرد ، فان من الخير اخفاء اكثر ما يمكن من اجزائه . ولا يمكن السماح بالملابس الغربية الا في عالم لا يحس بالجمال . ومن التفاهة القول بأن الجنس البشري الكامل لا يوجد الا نادراً . وعلى كل من يشك في هذه الحقيقة ان يذهب الى جزيرة كوني ليرى بنفسه حقيقة الجمال في الشكل الانساني. ولكن تصميم الملابس الغربية يمكن أي انسان يسير في الشارع من معرفة ما اذا كان محيط خصرك ٣٢ أو ٣٨ . فلماذا يعلن الانسان للعالم حقيقة محيط خصره ، ولماذا لا يكون له الحق في ان يبقي على سره اذا كان محيط خصره اكبر من الحقيقة ؟!

ولعل هذا هو السبب الذي يدعوني ايضاً الى الايمان بتصميم الملابس الاجنبية للنسوة الشابات ذوات القوام الاهيف، وللاطفال الذين لم يتعرض تناسق اجسامهم الطبيعي بعد للصور الحياتية اللامتمدنة التي نعيشها . لكن هذا شيء وان يطلب الى جميع الرجال والنساء ان يكشفوا عن شكل اجسامهم الى عيون العالم كله شيء آخر . وبينما تكون السيدة الجميلة التي ترتدي ملابس السهرة الغربية مشرقة وساحرة بطريقة لم يحلم بها مصممو الازياء الشرقيون منذ أمد بعيد ، فان السيدة العادية التي تتجاوز الاربعين من عمرها والناتجة بدانتها عن الافراط في الطعام والنوم ، والتي تبرز بملابسها الغربية في حفلات دار الاوبرا ، تمثل منظراً من المناظر القبيحة التي اقترحها الغرب . ولا شك في ان الملابس الصينية افضل لها ، وارحم . فهي كالموت تساوي بين الكبير والصغير وبين الجميل والقبيح . ولذا تكون الملابس الصينية اكثر ديمقراطية .

ولعل ما قلته حتى الآن يكفي من ناحية الاعتبارات الجمالية ، واري ان انتقل الآن الى الاعتبارات الصحية والمنطقية . فليس ثمة من رجل عاقل يستطيع

الادعاء بان الياقة المنشاة التي ورثناها عن عهود الكاردينال ريشليو[1] والسير وولتر رالي[2] مفيـدة للصحة ، ولا شك ان جميع المفكرين في الغرب قـد استنكروها منذ امد بعيد . وبينما حققت الملابس النسوية الغربية درجة كبيرة من الراحة في هذا الصدد للجنس الناعم بعد ان كان محروماً منها ، فان الغرب المتعلم ما زال يعتبر عنق الرجل بشعاً ، وان ظهوره منـاف للخلق والذوق ، ولذا يجب اخفاؤه ، في الوقت الذي يحسر فيه عن محيط خصره . ولا شك في ان هذا الابتكار الشيطاني يجعل تهوية الجسم مستحيلة في الصيف ، كما يجعل حمايته حماية مناسبة من البرد في الشتاء امراً متعذراً ، ويجعل التفكير السليم طيلة ايام السنة امراً مستحيلاً ايضاً .

ولو هبطنا من الياقة المنشاة الى الاجزاء الباقية من اللباس لرأينا انهـا تمثل قصة مستمرة وصارخة من تحدي الذوق . والغربي الذكي الذي تمكن من اختراع اضواء النيون وآلات الديزل لم يستطع ان يرقى في ذوقه الى الحـد الذي يمكنه من ان يرى ان ملابسه لا تحرر الا الرأس من اجزاء جسمه كلها . فهناك اولاً ، دون ان ندخل في التفاصيل الملابس الداخلية الضيقة التي تحول دون تهوية الجسم ، وكذلك الحزام والحمالات التي لا تسمح بأي تمييز بـين اوضاع تغذية الجسم ، والصديرية التي تحول دون انثنائه . ولا شك في ان الاخيرة هي اكثر قطع الملابس لامنطقاً . فكل من يدرس الصور الطبيعية للجسم البشري العاري ، يعرف ان

---

(١) الكاردينال الدوق ارمان جان دي ريشليو (١٥٨٥ ١٦٤٢) - سياسي فرنسي ، ولد في باريس . درس اللاهوت ثم اصبح كردينالاً لفرنسا ، كما اصبح وزيراً للويس الثالث عشر . بات الحاكم المطلق بأمره في فرنسا ، وكان حكمـه الاستبدادي من الاسباب التي ادت للثورة الفرنسية .

(٢) السير وولتر رالي (١٥٥٢ - ١٦١٨) من القـادة العسكريين الانجليز ورجال البلاط ، والمستكشفين الجغرافيين ومؤسسي الامبراطورية الاستعمارية البريطانية . ولد من اسرة من النبلاء ، واصبح مقرباً للملكة اليصابات الاولى .

- المعرب -

خطوط الصدر والظهر ليست متساوية الا في حالات نادرة يكون فيها الجسم منتصباً تام الانتصاب . وكل من يرتدي قميصاً منشىً في مقدمته ، يعرف عن طريق التجربة ان هذه المقدمة تندفع الى الامام في كل مرة ينحني فيها الجسم . ولكن الصديرية مصممة على اساس ان هذه الخطوط متساوية دائماً ، ولذا فهي ترغم الجسم على البقاء منتصباً ، ولما كان الانتصاب مستحيلاً دائماً ، فان النتيجة تكون اندفاع نهاية الصديرية ، او تقلصها في تجعدات تضغط على الجسم عند كل حركة . وعندما يكون الرجل ضحية للبدانـة ، فان الصديرية تعرض قوساً مندفعاً ينتهي حتماً في الهواء ، يعود بعده فيتراجع عند الحزام واللباس . أوَ هناك ما هو اشد بشاعة في كل مـــا اخترعه الانسان من هذا ؟ أوَ من الغريب ايضاً ان تبرز حركة للعراة كاحتجاج ورد فعل على هذا القيد الرهيب الذي يقيد الجسم البشري ؟ .

ولو كان الانسان لا يزال يعيش على اربع لكان هناك ما يبرر الحزام ، اذ يمكن تحديد وضعه آنذاك كما يحدد وضع السرج للجواد . أما وقد اتخذ الانسان موقف المنتصب ، فان الحزام يصمم على اساس الافتراض بأنه ما زال من ذوات الاربع، تماماً كما يشير التركيب البدني الى ان العضلات المصفاقية (البريتونية) ، قد صممت للجسم عندما كان الجسم يسير على اربع ، ولعل النتيجة الواقعة لهذا الوضع المنتصب ، هو ان النسوة اصبحن يتعرضن للاجهاض والولادة المتعسرة ، وهو ما لا تعرفه الحيوانات ، وان الرجال اصبحوا ينحنون الى اسفل بسبب الحزام . ويكون شد الحزام شداً وثيقاً الوسيلة الوحيدة لمنع ذلك ، حتى ولو أثر هذا الشد على الحركة الطبيعية لاحشاء الانسان .

وانا على ثقـــة من ان الغربيين بعد ان يحققوا المزيد من التقدم في الامور اللاشخصية ، سيكرسون في يوم ما المزيد من الوقت للعناية بأمورهم الخاصة ، ويمارسون المزيد من المنطق في امور لباسهم . ويدفع الغربيون جزية ضخمة على فلسفتهم المحافظة في موضوع اللبـــاس وعلى خوفهم من الابتكار ، بينما حققت

الغربيات منذ امد طويل، البساطة والمنطق في لباسهن . ولا شك في ان الرجال سيبتكرون في النهاية ، أي بعد قرون طويلة ، لاحقب قصيرة ، لباساً لانفسهم ، يتمشى مع المنطق ، ويتفق مع وصفهم كأناس على قدمين ، تماماً كما فعلت المرأة في لباسها . وستزول من ملابس الرجال الأنطقة والاحزمة والمضايقات ، بحيث تصبح مطلقة الحرية في شكل جميل ومناسب . ولن تكون هناك « جاكيتات » مخصّرة، ومنقلة عند الكتفين ، ومحشوة من الداخل، بل ستكون هناك ملابس تشبه « الروب » الذي يلبسه الرجل في بيته . ولن يكون آنذاك كبير فرق بين الرجال والنسوة في اللباس ، باستثناء ان الاول يلبسون « السراويل الواسعة » وان النسوة يلبسن الاثواب الفضفاضة . وستتغلب اعتبارات الراحة والسهولة ايضاً بالنسبة الى لباس الاجزاء العلوية من الجسم . فستتحرر رقبة الرجل من الياقة وربطة العنق ، وستختفي الصديرية ، ويصبح « الجاكيت » واسعاً وفضفاضاً . وسيظل الرجال دون هذه الجاكيتات اشهراً طويلة في السنة وساعات عدة في اليوم .

ولا شك في ان هذا التحول يمثل ثورة في مفهومنا الراهن عن القميص . ولن يعتبر القميص لباساً داخلياً ، بل سيصبح لباساً خارجياً ذا لون غامق ، بحيث يكون من الحرير في الفصول الحارة ومن الصوف الثقيل في الفصول الباردة ، وبحيث يتم تفصيله بشكل افضل . وفي وسع الرجل آنذاك ان يستغني عن « الجاكيت » اما دائماً أو في حالات كثيرة تستثنى منها الحالات التي يفرضها الطقس أو الرسميات . وللخلاص من الحزام أو الحمالات ، سيكون هناك لباس واحد يجمع بين القميص والبنطلون ، ويرتديه الرجل من رأسه ، تماماً كما تفعل المرأة ، مع اجراء بعض التعديلات حول الخصر ، لاظهار القوام بصورة افضل.

وفي الامكان حتى في هذه اللحظات اجراء بعض الاصلاح عن طريق الغاء الحزام والحمالات ، مع الاحتفاظ بالشكل الحالي للباس الرجل . ويتمثل هذا المفهوم في ان يتم التركيز على التعليق على الكتفين ، مع توزيع الثقل بالتساوي ،

دون تركيزه على البطن عن طريق الضغط والاحتكاك والالتصاق . ويكـون خصر الانسان في مثل هذه الحالة متحرراً ، ولو أننا شرعنا في السير في طريق التقدم ، بالاستغناء عن « الصديري » ، لأمكن ربط قميص الرجل ببنطلونـــه بالازرار تماماً كما هي الحالة في ملابس الأطفال . وعندما يصبح القميص مع الزمن لباساً خارجياً ، فانه سيصنع من قماش افضل . وقد يصنع من قماش يحمل نفس اللون والجودة في قماش البنطلون . اما اذا تضمنت عملية الاصلاح التي نقترحها الابقاء على «الصديرية» كجزء لا بد منه ، فمن الضروري ان ترتبط الصديرية بالبنطلون ، مع الابقاء على الشكل الحالي ، وان كانا في قطعة واحدة . ومن الامكان الاستغناء فوراً عن الحزام أو الحمالات عن طريق ربط الصديرية بشكلها الحالي بالبنطلون بواسطة خمسة أو ستة أزرار في الصديرية ومثلهـا من « العرى » في البنطلون . ولن يكون في الامكان تمييز صورة مختلفة آنذاك عن صورة « الصديرية » الحالية . وعندما نشرع في الابتكار ، ويبدأ الناس بالتفكير في ان تصميم ملابسنا الحالية لا يتفق مع الكون الذي نعيش فيه ، يصبح في امكاننا ان نعدل شكل الصديرية او الغائها ، وذلك عن طريق ربطها بالبنطلون .

ولا يحتاج المرء إلى الكثير من سعة الخيال ليدرك مـــا في اللباس الصيني من منطق من ناحية تكيفه مع الاجواء المختلفة . وبينما يكون الغربي ملزماً بارتداء الملابس الخلفية ، والقميص والصديري ، والجاكيت ، سواء أكانت درجـــة حرارة الطقس تحت الصفر أو فوق المائة ، نرى الكثير من المرونة في لباس الصينيين . وهناك قصة تروى عن الأم الصينية الرؤوم التي تضع معطفاً على ولدها بعد ان يعطس عطسة واحدة ، ثم تتبعه بثانٍ عندما يعطس للمرة الثانية وبثالث عندما يعطس للمرة الثالثة ، وليس في وسع أية أم غربية أن تفعل ذلك ، لأنها تكون قد فقدت صوابها بعد العطسة الثالثة . وكل مـا تستطيع أن تفعله ، هو أن تستدعي الطبيب . واني لاعتقد ان الشيء الوحيد الذي يقي الشعب الصيني من الفناء بامراض السل والنزلات الرئوية هو ارتدائهم الملابس القطنية .

١٠ – عن البيت واجزائه الداخلية

يجب أن يعني تعبير « البيت » جميع أوضاع الحياة أو الجـو المادي الذي يسود بيت الانسان. ويدرك كل انسان أن من المهم للغاية عند اختيار أي بيت ، أن يهتم بما يقع عليه ناظره في خارجه اكثر من اهتمامه بمـا في داخله . ولقـد رأيت رجالاً أثرياء في شانجهاي يعتزون كل الاعتزاز بالمساحة الصغيرة من الأرض التي تحيط بقصر الواحد منهم ، والتي تضم بركة صغيرة من الماء لا يتجاوز نصف قطرها عشرة أقدام حيث تعيش الأسماك ، و « جبلاية » صناعية ، لا يستغرق النمل في صعودها اكثر من ثلاث دقائق ، وكان هـؤلاء الأثرياء يجهلون أن هناك كثيرين من الفقراء يعيشون في أكواخ عنـد أطراف الجبل ، وقد نعموا بمنظر الجبل كله ، واعتبروا النهر والبحـيرة جـزءاً من حدائقهم . وليست ثمة مقارنة على أي حـال بين الفريقين . فهناك بيوت تقع في مواضع جميلة للغاية وسط الجبال ، وهي ليست في حاجـة إلى احاطتها بحدائق صغيرة خاصة تفصلها الاسلاك ، اذ أن سكان هذه البيوت يرون حيثما تطلعوا مناظر هي ملكهم ، تضم السحب البيضاء وهي تصطدم بالجبال ، وتضم الطيور وهي تحلق في السماء ، والالحان الطبيعية التي تصدر عن هدير الجنادل وتغريد الطيور . ولا شك في أن أياً من ساكني هـذه البيوت أغنى بكثير من أي من أصحاب الملايين الذين يعيشون في المدن . وعندمـا يرى الرجل الذي يعيش في المدينة السحب الماخرة في السماء ، فانه لا يراها فعلاً ، لأنه لا يبصر بهـا وهي تصطدم بالجبال الزرقاء . يضاف إلى هـذا أن قـاعدة الصورة التي يراهـا ليست جميلة .

ويتقرر مفهوم الصينيين عن البيت وحديقتـه بالفكرة الاساسية وهي ان البيت نفسه ليس الا جزءاً مما يحيط به ، فهو كالجوهرة في العقـد لا بد وان تكون منسجمة معه . ولعل هذا هو السبب في ضرورة اخفـاء كل اصطناع ، واخفاء الخطوط المستقيمة لجدران البيت وراء الأشجار الوارقـة . ولا شك في أن البيت المربّع الهندسي الشكل ، المصمم وكأنه لوح من الآجر ، مقبول في

بناء مصنع من المصانع ، وذلك لأن الكفاية هي المتطلب الأول في المصنع . أما أن يكون البيت الذي يعيش فيه الانسان مربع الشكل تماماً ، فبشاعة لا تحتمل . واوضح كاتب صيني مفهوم الصينيين عن البيت النموذجي ايضاحاً كاملاً في العبارات التالية ...

« هناك ممر يقوم وراء بوابة البيت ، ويجب أن يكون الممر ملتوياً . وعند نهاية الممر ، هناك ستار الباب الخارجي ، الذي يجب أن يكون صغير الحجم . وتقوم الشرفة وراء الستار ، وهي مستوية الشكل . وعلى جانبي الشرفة أحواض الزهور اليانعة ، وخلف هذه الاحواض جدار غير مرتفع . وإلى جانب الجدار شجرة صنوبر قديمة ، تضم تحتها مجموعة من الصخور الجميلة الشكل . وهناك دهليز يمتد وراء الصخور وهو بسيط في شكله ، يصل إلى ستائر من الخيزران تمتاز بالرقة . ووراء هذه الستائر الخيزرانية يقوم البيت المنعزل . وإلى جانب البيت طريق لا بد من تفرعها . وتلتقي الفروع عند جسر لا بد وان يكون عسيراً على المرور . وهناك اشجار فارعة عند نهاية الجسر ، تظلل ارضاً معشوشبة خضراء . وهناك حفرة صغيرة تمثل خندقاً إلى طرف هذا المرج ، يقف ينبوع في طرفه . ويقوم الينبوع في أسفل تل صغير منحدر . ووراء التل قاعة مربعة الشكل تقف في زاوية منها حديقة كبيرة لزراعة الخضروات . وهناك طائر « الببغاء » الراقص في وسط هذه الحديقة ، يعلن أن هناك ضيفاً في البيت . وتقدم الخمر إلى الضيف عندما يصل ، دون أن تمزج بأي شيء ، وقد يثمل الضيف فلا يميل إلى مغادرة المكان » .

ويمثل سحر البيت في تفرّده . وخصّص لي ليوينج في كتابه « فن الحياة »

عدداً من الفصول للحديث عن البيوت وباطنها، وقد أكد في مقدمته على ضرورة تميّز البيت بالتفردية احياناً وبأن يكون محبباً إلى النفس أحياناً اخرى ، وأنا أرى المتطلب الثاني هو الأهم ، اذ مهما كان البيت الذي يعيش فيه الانسان كبيراً وفخماً ، فلا بد من وجود غرفة خاصة فيه يؤثرها على سواها ، ويعيش فيها ، وكثيراً ما تكون صغيرة ومفتقرة إلى الفخامة، والنظام، ولكنها دافئة ومحببة إلى النفس . ويقول لي ...

« لا يستطيع الانسان أن يحيا دون بيت تماماً كما لا يستطيع المشي دون لباس . وكما يقول أن من الضروري ان يكون اللباس جالباً للبرودة في الصيف والدفء في الشتاء ، فان هذا المتطلب يصح على البيت أيضاً . وقد يكون من الممتع أحياناً أن يعيش الانسان في قاعة يرتفع سقفها عشرين أو ثلاثين قدماً، ولا تدخل أشعة الشمس الا أجزاءها العلوية ، الا أن مثل هذا البيت يصلح للصيف فقط ، ولا يصلح للشتاء . ولعل السبب في أن الانسان يحس بالقشعريرة عندما يدخل قصر موظف كبير ، هو اتساع هذا القصر . ولا شك في أنه أشبه بمن يرتدي لباساً فضفاضاً للغاية من الفراء حول صدره . أما بيت الرجل الفقير ذو الجدران المنخفضة والمساحة الضيقة التي تكاد تتسع لقدم الانسان ، فيتسم بفضيلة الاقتصاد ، ولكنه يصلح لصاحبه ليس إلا ، ولا يصلح لاستقبال الضيوف . ولعل هذا هو السبب الذي يدعونا إلى الاحساس بالضيق دون سبب عندما ندخل كوخ رجل مفكر .... واني لآمل أن تفرط بيوت كبار الموظفين في ارتفاعها وضخامتها . ويجب ان يكون ثمة انسجام بين البيت وساكنيه ، وكأنهم يؤلفون صورة واحدة . وهناك قاعدة يسير عليها الرسامون وهي أن يكون

ارتفاع الجبل الذي يرسمونه عشرة أقدام ، وارتفـاع الشجرة قدماً واحداً ، والجواد بوصة واحدة ، والانسان في حجم حبة الفول . وليس من المناسب مطلقاً ان نرسم شجرة طولها قدمان أو ثلاثة على جبل طوله عشرة أقدام، ولا من المناسب ان نرسم رجلاً في حجم حبة القمح أو الذرة يمتطي صهوة جواد ارتفاعه قـدم واحد . وقد يكون من المناسب لكبـار الموظفين ان ان يعيشوا داخل جدران ترتفع عشرين أو ثلاثين قدماً ، لو ان طول الواحد منهم كان تسعة أقدام أو عشرة . اما اذا خالفوا هذه القاعدة ، فكلما كان البيت الذي يعيشون فيـه مرتفعاً ، كلما بدا حجمهم اصغر واصغر ، وكلما اتسعت المساحة ، كلما بدا من يعيش فيهـا ضئيلاً تافهاً ، أوَ ليس من الأفضل للموظف الكبير أن يجعل بيته اصغر حجماً ، وان يجعل جسمه اضخم هامة ؟ .. وكثيراً ما رأيت عـدداً من كبـار الموظفين أو أقربائهم ، ينفقون الوف الدولارات أو عشرات الألوف منهـا لانشاء حديقة ، وهم يبادرون المهندس المعماري الذي يعهدون اليه بالعمل بقولهم . . « عليك أن تقتبس في تصميم الدهليز ، الشكل الذي بناه فلان ، وفي تصميم الشرفة التي تطل على بركة الماء الرسم الذي نفذه فلان » . وعندما يتم بناء الصرح ، يعلن صاحبه بكل زهو وفخار للناس انه اقتبس كل ما في البيت من تصميمات ، سواء في أبوابه ونوافذه أم في دهاليزه وابراجه من ذلك البيت المشهور دون أي تغيير ... حقاً انه رخص متناه في التفكير ...

« ويجب الامتناع عن الترف والتكلفة البـاهظة في فن العمارة . والسبب في ذلك ان الاعجاب بالبساطـة لا يكون

وقفاً على الناس العاديين وانما يتعداهم الى الاثرياء والنبلاء وكبار الموظفين . فالاتقان لا الفخامة هـــو الشيء المهم في مسكن الانسان، وكذلك تؤثر الاناقة والابتداع على الزخرفة الطاغية . ويميل بعض الناس الى اظهار ثرائهم ، لا لانهم يحبون ذلك بل لأنهم يفتقرون الى الاصالة ، ولأنهم عاجزون عن ابتكار شيء جديد. ولعل هذا هو الذي يدعوهم الى نشدان الفخامة والمظهر . ولو ارتدى شخصان بدلتين جديدتين تتميز اولاهما بالبساطـة والاناقة والابتكار وثانيتهما بالزخرفـــة والاضافات التي تنبض بالثراء ، لكان منظر البدلة الاولى اكثر جذباً للنظر من الثانية . أوَ هناك من لا يعرف قيمة الحرير والقصب والخز، أو من لم يرها؟ ولكن اللباس البسيط المبتكر ، يجتذب النظر اكثر من البسة الحرير والقصب ، لأن ناظره لم ير شيئاً يماثله من قبل ».

وهناك امور تتعلق بتصميم البيوت وباطنها تناولها لي بكثير من التفصيل في كتابه . وتتناول المواضيع التي طرقها البيوت والنوافذ والستائر والمصابيح والموائد والمقاعد ، والارائك والقماطر والاسرة والخزائن وهلم جراً ... ولما كان هذا الكاتب يتميز بعقل مبتكر لماح ، فانه يأتي بالكثير من الجديد حول كل موضوع من المواضيع التي يطرقها . ولذا فقد غدت بعض اختراعاته جزءاً من تقاليد الصين الراهنة. ولعل ابرز هذه الاختراعات شيوعاً «اوراق الرسائل» التي اكتشفها وتصمياته الخاصة بالنوافذ ومقسمات البيوت . وبالرغم من ان كتابه عن « فن الحياة » لم ينل شهرة واسعة الا ان الناس يعرفونه بالنسبة الى الكتيب الذي وضعه عن الرسم في الصين ، والى مسرحياته الهزلية العشر التي الفها ، فقد كان مسرحياً وموسيقياً، وفيلسوفاً ابيقورياً ، ومصمم ازياء ، وخبيراً في الجمال، ومخترعاً .

وخرج لي بافكار جديدة عن الاسرة. وقال ان اول ما كان يتطلع اليه ويعنى

به عندما ينتقل الى منزل جديد ، هو الفراش . وكان السرير الصيني دائماً محاطاً بالستائر ، اشبه ما يكون بالقمطر الكبير او الغرفة الصغيرة ، وله اعمدته ورفوفه وأدرجه المقامة عند العمود ، لوضع الكتب واباريق الشاي والأحذية والجوارب وما لا حد له ولا وصف من الاشياء . ورأى لي ان من الضروري ان تكون هناك اصص للزهور الى جانب السرير. وفكر ان خير وسيلة لضمان ذلك . ان يقيم رفاً رقيقاً وصغيراً من الخشب على قاعدة لا يزيد عرضها على القدم ، وذات عمق يتراوح بين القدمين والثلاثة وان يثبت هذه القاعدة الى الستارة المزخرفة . وهو يقول ان من الضروري لف هذا الرف بالحرير المقصّب ، لتكون شبيهة بالسحابة السابحة المنطوية على كثير من الزيادات . وكان يستخدم هذا الرف في وضع اصص الزهور الموسمية أو في احراق البخور أو الند . ويمضي بعد ذلك فيقول ... « ان جسمي آنذاك لا يظل جسماً . وانما يصبح فراشة تهوم في الفضاء وتأكل وتنام [١] بين الازاهير ، ولا يظل الرجل رجلاً وانما يغدو حورية من حواري الفراديس، تمشي وتجلس وتستلقي . ولقد شعرت ذات يوم وانا نائم في نصف اغفاءة ، بأريج الازاهير العابقة . حتى امتلأت خياشيمي وحلقي واسناني ووجنتاي به ، ثم عاد فخرج من صدري . واحسست بكثير من الخفة في جسمي ، حتى خيل الي وكأنني لا اعيش في هذا العالم الانساني . وعندما صحوت من نومي ، قلت لزوجتي ... ترى من نحن حتى نتمتع بكل هذه السعادة؟ أو لسنا نحجب عن انفسنا كل هذا القدر من السعادة المتاحة لنا ؟[٢] وردت زوجتي بقولها ... « لعل هذا هو السبب الذي يجعلنا دائماً فقراء ووضيعين . انها حقيقة وليست اكذوبة ».

---

(١) المعروف عن اثرياء الصين في العهد الماضي انهم كانوا يتناولون طعامهم وشرابهم في اسرتهم مع جواريهم.

(٢) تقول الفكرة الصينية ان الانسان يولد في هذا العالم ، وقد حمل معه قدره بالنسبة الى السعادة والحظ الحسن، ولا يتغير هذا القدر الا اذا أفرط المرء في التمتع من شيء ما اوحرم نفسه من شيء آخر مما يؤدي الى قصر حياته .

— المؤلف —

ولعل أروع ما حققه «لي» ، كان في مجال الأفكار التي وضعهـا عن النوافذ ، فقد اخترع « نوافذ المراوح » للعوامات التي تطفو فوق البحيرات والتي تستخدم كمساكن لطلب المتعة ، و « نوافذ المناظر » و « نوافذ الزهور » . وكانت فكرة تصميم النوافذ على شكل مراوح مستمدة من عادة الصينيين في رسم الصور الجميلة ونقش الكتابات على المراوح ، وجمع هذه المراوح في « ألبومات » . ولذا كانت فكرة لي في نوافذ المراوح أن يرى الناس الذين يقيمون في العوامة ، والمتطلعون إلى المناظر الجميلة على ضفاف البحيرات ، واولئـك الذين يسيرون على الضفاف والذين يتطلعون إلى السامرين في العوامة ، مناظر وكأنها من الطراز المرسوم على المروحة الصينية . فأهمية النافذة تمثل في الحقيقة الواقعة ، وهي أنها المكان الذي يطل منه الانسان على منظر ، كأن نقول مثلاً أن العين هي « نافذة » الروح . ولذا يجب تصميم النافذة بحيث تطل على أجمل المناظر ، وتمكن الناظر من أن يتطلع إليها وهو في أحسن الأوضاع ، مما يؤدي بهـا إلى أن تنقل الطبيعة إلى داخل البيت « مقترضة » من المناظر الطبيعية الكثير كما يقول لي ...

« وعندما يجلس الرجل في العوامة ، تجتمع في نافـذة المروحة ، أضواء البحيرة ، وألوان الجبال والمعابد والسحب ، والشفق ، وأشجـار الخيزران ، والأزاهير على الضفاف ، والحطابون والرعاة الفتيان ، والشيوخ السكارى ، والسيدات اللائي يتنزهن على الشواطىء ، وتؤلف كلهـا صورة طبيعية رائعة . يضاف إلى هذا أن هذه الصورة تكون حية ومتحركة ، تتبدل طيلة الوقت ، لا عندما تتحرك العوامة فحسب ، لتقدم لنا منظراً جميلاً مع كل حركة من الجداف ، ورؤيا أخرى بعد كل حركة من الشادوف ، بل وعندما تكون العوامـة ملقية مراسيها ، فتتحرك الرياح ، ويتماوج الماء ، مغيراً شكله في كل لحظة . وهكذا نستطيع التمتع بمئات الرسوم الجميـلة للجبال

والماء بل وألوفها ، عن طريق هـذه النافذة التي صممت على شكل مروحة ...

« وقد ابتكرت أيضاً نافذة للتطلع إلى الجبال ، أطلقت عليهـا اسم « نافذة المناظر » بدلاً من أن أسميها « الرسم اللامتعمد » . وسأصف هنا كيف صممت هذه النافذة . فهناك وراء مكتبي الذي أسميه بالشراب الأبيض ، يقوم تل لا يعدو ارتفاعه عشرة أقدام ، وعرضه سبعة أقدام ، مزدان بصورة مصغرة من الجنادل الحمراء والماء الأزرق ، والغابات الكثيفة ، وأشجار الخيزران السامقة ، والطيور المغردة ، والشـلالات المتهاوية ، والأكواخ المسقوفة ، والجسور الخشبية ، وكل المناظر الأخرى التي يراها المرء في أية قرية جبلية. وجاء مثال ، فصنع تمثالاً من الطين لشخصي ، وقد بدت تعبيرات رائعة على وجهي ، وجعل مني صياداً يحمل سنارته في يده ويجلس على ظهر صخرة ، وكان لا بد من وجود الماء لوجود الصخرة . واتفقنا بعد ذلك على ضرورة وجود التل ، وأن يكون هناك مأوى جبلي للرجل العجوز ذي القبعة الخيزرانية ، يلجأ إليه ، ليصيد فيه السمك في شيخوخته . وكانت هذه هي الطريقة التي أتممنا فيها بالتدرج بناء المنظر كله . ويتضح من هذا أن التل المصطنع نشأ من تمثال من الطين ، دون أن تكون هناك في البداية فكرة لنجعل من التل نافذة من نوافذ المناظر . وتبينت فيما بعد ، أنه بالرغم من أن كل هذه المناظر مصغرة ، إلا أن العالم الذي تمثله عظيم للغاية ، وبدت وكأنها تذكرني بالفكرة البوذية التي تقول بأن الحبـة الصغيرة وجبال الهملايا متساويتان في الحجم . وهكذا جلست طيلة النهار أتطلع إلى هذه المناظر ، ولا أستطيـع إغلاق النافذة.

وأحسست ذات يوم بشيء من الالهـام ، فقلت لنفسي ....
« في الإمكان تحويل هذا التل إلى رسم ، وتحويل ذلك الرسم إلى نافذة . وكل ما سيكلفني هذا العمل ، توفـــير نفقات يوم واحد من الشراب ». وطلبت من غلامي أن يقطع لي بضع وريقات صغيرة، وأن يلصقها فوق النافذة وتحتها وإلى جوانبها، لتمثل خلفية الرسم . وعندما أكملت الخلفية ، أصبح التل في المكان الذي يشغله الرسم عادة. وهكذا لم تعد النافذة إذ يجلس المرء إليها ويتطلع ، تمثل نافذة وإنما جزءاً من رسم ، ولم يعد التل يمثل تلاً يقوم وراء بيتي بل جزءاً من الرسم أيضاً . ولم أتمالك نفسي من القهقهة عالياً ، وعندما سمعت زوجتي وأطفالي ضحكي ، جاءوا جميعاً ليروا سبب هـذا الضحك ، فاشتركوا معي فيه . وكان هذا هو الوضع الذي ابتكرت فيه « نافذة المناظر » .

ووضع لي أيضاً أفكاراً جديدة كثيرة في موضوع المناضد والمقاعد والقماطر. وفي وسعي أن أذكر هنا اختراعه لمقعد مريح مدفأ لاستخدامه في الشتاء . ولا شك في أن هذا الاختراع عملي ونافع ولا سيما في الغرف التي تفتقر إلى التدفئة . وهو يتمثل في لوح طويل من الخشب يقوم على منصة خشبية مرتفعة تؤلف جزءاً من المقعد . ويكون عمق المنصة قدمين أو ثلاثة أقدام ، ولهـا صفائح خشبية عمودية تقوم الى جوانبها وترتفع بارتفاع مكتب خفيض . وتزود واجهة المقعد بدرفتين خشبيتين ، وعندما يصعد الانسان الى المنصة ، يغلق الباب الذي يؤلف مع الدرفة العمودية ، الموجودة إلى الجانب ، دعامة للمكتب . وهكذا يجـــد الجالس نفسه مختبئاً وراء المكتب . وتزود المنصة نفسهـا بدرج يضم الرمـاد الساخن والفحم المحترق الخالي من الدخان . ويصنع المقعد بشكل يمكن الانسان من الجلوس والعمل ، وكذلك الاستلقاء فيه في حالة إحساسه بالتعب . ويزعم لي

أن تكاليف تأمين هذا المكان الدافىء والمريح للعمل ، لا تعدو قطعتين من الفحم في الصباح وأخريين بعد الظهر . ويدعي لي أيضاً ، أن في الامكان استخدام هذا المقعد في الرحلات أيضاً باضافة عمودين صلبين من الخيزران يشدان إلى جانبيه ، ويصبح المقعد كالعربة المتحركة التي يتجنب راكبها إصابة قدميه بالبرد، بالاضافة إلى احتفاظه بحرارته طيلة الرحلة ، مهما كان الطعام الذي يتناوله أو الشراب الذي يحتسيه . وفكر بالنسبة إلى فصل الصيف بمقعـد آخر ، يشبه « حوض الاستحمام » ، ويستخدم فيه حوض الصيني ، الذي يملؤه بالماء البارد الذي يصل إلى ظهر المقعد ، فيمنحه البرودة التي يريدها .

واخترع العالم الغربي مختلف أشكال الأسرّة من متحركة ودائرة وهابطة ، وكذلك أشكال الأرائك والمقاعد المتحركة ، ولكنه لم يعمل شيئاً في موضوع الموائد التي تنفصل وتتجزأ ثم تركب ، ولكن الصينيين برعوا في هذا الطراز من الموائد منذ أمد طويل . وقد نشأ مبدأ المائدة التي تتجزأ أو تتركب من لعبة عند الصينيين يسمونها « نيشي » تشبه إلى حد كبير لعبة البيوت التي يقيمهـــا الأطفال من المكعبات الخشبية . وفي إمكان منضدة « النيشي » الصينية ذات الأجزاء الستة أن تؤلف عدة موائد مختلفة الأحجام والأشكال ، فبعضها مربع وبعضها مستطيل، أو على شكل حرف « T » ، أو في صورة زوايا متلاقية في نقطة واحـدة . وتقدر الأشكال التي يمكن أن تتخذها هذه الموائد بأربعين شكلاً .

وهناك طراز آخر يسمى « منضدة الفراشة » أو « تيهشي » ، وهو يختلف عن الطراز الأول في أنه يضم قطعاً مستطيلة وخطوطاً مضلعة ، ولذا فإن عدد الأشكال التي يظهر فيها يكون كبيراً . وتتماثل الأهداف المتوخاة من هـذين الطرازين من المناضد فهما يصلحان للعشاء وللعب الورق، ووضع الأزاهير والتماثيل وغير ذلك من الغايات . وتتألف منضدة الفراشة من ثلاث عشرة قطعة ، تؤلف مناضد مربعة ومستطيلة وماسية الشكل .

وهناك رغبة عارمة عند ربات البيوت في الشرق والغرب على حد سواء لتغيير الترتيبات الداخلية في منازلهن ، ولا شك في أن المناضد الصغيرة الصالحة للتجزئة ، والخاصة بحمل أصص الزهور أو تقديم الشاي ، تمثل الوسيلة الصالحة لإحداث هذه التغييرات . وتظهر الأشكال الناشئة عن هذه المناضد متناهية العصرية ، وذلك لأن الأثاث العصري يؤكد فكرة البساطة التي تتمثل في الاثاث الصيني ايضاً . ويبدو الفن في القدرة على الجمع بين التنوع والبساطة . ولقد رأيت على سبيل المثال منضدة صينية قديمة لحمل المزهريات مصنوعة بحيث لا تبدو قوائمها مستقيمة ، وإنما منحنية في وسطها . ويتطلب عنصر التغيير مع البساطة أن لا تكون المنضدة مدورة أو مربعة ، بل دائرية الشكل مؤلفة من جزئين أو مربعة مؤلفة من مستطيلين ، بحيث يمكن تركيب عدد من الأشكال الهندسية منها . وعندما لا يكون أصحاب البيت في حاجة إلى مائدة كبيرة مربعة أو مدورة للطعام أو للعب ، تقسم المنضدة إلى أجزائها ، ويستخدم كل جزء منها في حمل « المزهريات » أو الكتب . ويمكن صناعة موائد اللعب في أحجام أكبر أو أصغر طبقاً لعدد اللاعبين الموجودين . أما موائد الشاي فتصنع منها أشكال هندسية عدة ، منها المربع ومنها حرف « T » أو حرف « U » أو حرف « S » . ولعل من الممتع حقاً أن يجلس الزائرون إذا كان عددهم قليلاً حول مثل هذه الموائد الصغيرة .

وهناك نموذج كامل موجود في شانجشو اليوم ، للمكتبة المصنوعة من أجود الخشب والتي يمكن تقسيمها إلى عدة مكتبات صغيرة . وهناك مكتبات صغيرة معروفة في الغرب ، ولكن الظاهرة الغريبة في هذا الاختراع الصيني أن في الامكان تقسيم هذه المكتبة الضخمة إلى عدة مكتبات تتدرج في الحجم بحيث تدخل الصغيرة في المكتبة الأكبر منها ، وتؤلف كلها في مجموعها ، شيئاً لا يعدو حجم الحقيبة الكبيرة . ولا شك في أن مثل هذه المكتبة تمثل قطعة أثاث عصرية . ولكن في الإمكان التنويع فيها وتعديلها ، بحيث يستطيع المرء أن يكيّف شكلها على النحو الذي يريده ، وأن يكوّن منها ثلاثة مكاتب أو

عشرة، وأن لا يزيد طول الواحدة منها على ثماني عشرة أو أربعاً وعشرين بوصة، بحيث يمكن وضعها في رأس الأريكة أو عند رأس السرير ، بدلاً من أن تكون هناك مكتبة كبيرة واحدة تظل في مكانها في الغرفة حتى الأبد .

ويبدو أن المثل الأعلى الذي يتطلع إليه الصينيون في باطن بيوتهم ، يتمثل في فكرتين هما البساطة والمساحة . وتتألف الغرفة الحسنة الترتيب عادة من مجموعة من قطع الأثاث المصنوعة عادة من خشب « المهوجني » ، والتي يكون سطحها مصقولاً للغاية ، ومتميزة بالخطوط البسيطة المعقوفة عند الأطراف. ويتم صقل هذا الخشب وتلميعه باليد . وتكون هناك عادة منضدة ذات ألواح خشبية طويلة ، لا أدراج فيها مرتكزة إلى الحائط ، وهي تحمل ، مزهرية كبيرة . وتظهر في زاوية أخرى من الغرفة منضدة واحدة أو اثنتان أو ثلاث ، صغيرة الحجم من خشب « المهوجني » ، تختلف في ارتفاعها ، بحيث تعلوها بعض التحف النادرة . وهناك خزانة للكتب أو مجموعة من المكتبات الصغيرة في جانب من الغرفة ، وهي جد مختلفة في ارتفاعها ومستوياتها . وعلى الجدران تبدو بعض الصور أو المخطوطات الجميلة . ويجب أن تكون الغرفة « خالية من الاكتظاظ ونابضة بالحياة» . ولعل الباحة المرصوفة بالحجارة هي الظاهرة البارزة في تخطيط البيوت الصينية ، إذ أنها تشبه الرواق الاسباني ، وتجسد السلام والهدوء والراحة .



١٠

التمتّع بالطبيعة

١ – الفردوس الضائع

لعل من الأشياء الغريبة حقاً ، أن يكون هناك بين ألوف المخلوقات في هذه الكرة الارضية التي نعيش فيها، مخلوق واحد يسمى الإنسان يتميز بالوعي الذاتي من ناحية، وبالإحساس بما يحيط به من الامور من ناحية أخرى، ويستطيع تبعاً لذلك، أن يحدد موقفه من كل شيء ، بينما تحرم جميع الاحياء الاخرى على هذه الأرض بما فيها جميع الحيوانات ، من الحق في اتخاذ أي موقف تجاه « الطبيعة » . ويبدأ إدراك الانسان في التساؤل عن الكون ، ومحاولة البحث عن أسراره والكشف عن معناه . ولذا فهناك موقف انساني يجمع بين العلم والاخلاق تجاه الكون . فالانسان العلمي يهتم باكتشاف التركيب الكيمائي لباطن الارض التي يعيش عليها وقشرتها ، وسمك الطبقة الاثيرية التي تحيط بالارض وكثافتها ، وطبيعة الاشعة الكونية التي تندفع الى الطبقات العليا من الفضاء ومقدارها ،

وتكوين جبال الكواكب وصخورها، والقانون الذي يتحكم بالحياة بوجه عام. وقد تكون لهذا الموقف العلمي علاقة بالموقف الخلقي ولكنه في حد ذاته، يمثل رغبة خالصة في المعرفة والاكتشاف. ويختلف الموقف الخلقي من الناحية الثانية إلى حد كبير باختلاف صاحبه، فهو أحياناً يتمثل في الانسجام مع الطبيعة، وأحياناً أخرى في محاولة غزوها وإخضاعها، وثالثة في محاولة السيطرة عليها والافادة منها، ورابعة في الزراية المتغطرسة بها. وليس الموقف الأخير تجـاه كرتنا الارضية إلا الثمرة الغريبة للحضارة ولبعض الديانات بوجه خاص. وهو ينبع من أسطورة «الفردوس الضائع» التي أصبحت، وياللغرابة، مقبولة بوجه عام في هذه الايام، كنتيجة للتقاليد الدينية البدائية.

ولعل من المثير للدهشة حقاً، ان لا يشكك إنسان على الاطلاق في قصة الفردوس الضائع. فليس ثمة من يتساءل عن جمـال جنة عدن، وعن بشاعة الكون المادي الراهن الذي نعيش فيه إذا قورن بها. ترى هل توقفت الازاهير عن التفتح منذ حلّت الخطيئة بآدم وحواء؟ وهل نزلت اللعنة الالهية بشجرة التفاح، ومنعتها من حمل الثمار لأن رجلا واحداً قد أخطأ، أو هل قرر الله أن تتحول أزاهيرها إلى لون شاحب بليد؟ وهـل توقفت العنادل والبلابل والكراوين عن الصدح والتغريد؟ أو توقف الثلج عن السقوط على قنن الجبال، واختفت انعكاسات الضوء من مياه البحيرات؟ أو لم نعد نرى الألوان اللازوردية في شفق المغيب، ولا القزحية في كبد السماء قبـل الامطار، ولا الطل يلف القرى؟ أو توقفت الشلالات عن الهدير، والجداول عن الخرير، والاشجار عن إلقاء الظلال الوارفة؟ إذن من الذي اخترع الاسطورة القائلة بأن الفردوس قد ضاع واننا نعيش اليوم في كون بشع؟ اننا والحق يقال، أبناء مارقون ننكر جميل الإله.

ولا بد من كتابة أحجية عن هذا الولد الضال. كان هناك في يوم من الأيام، رجل، لن نذكر اسمه الآن. وجاء هذا الرجل إلى الله وشكا له من أن هـذا

الكوكب الذي يعيش عليه غير صالح للحياة ، وقال انه يريد أن يعيش في جنة أبوابها من اللؤلؤ . وأشار الله أولاً إلى القمر في كبد السماء ، وسأله إذا كان لا يرى فيه لعبة صالحة ، فهز الرجل رأسه بالنفي ، وقال انه لا يريد التطلع إليه . وأشار الله إلى الجبال الزرقاء في الأفق البعيد ، وسأله إذا كانت خطوطها ليست بالجميلة، فرد بأنها عادية ولا تثير أي إعجاب . وعرض عليه الله بعد ذلك أوراق الأقحوان وأزهار « البانسيه » ، وطلب إليه أن يضع أصابعه عليها ، وأن يلمس برفق نسيجها المخملي ، وأن يقرر ما إذا كانت ألوانها رائعة ، فرد الرجل بالنفي . وغالب الله صبره ، وأخذ بيده إلى حوض لتربية الاحياء المائية ، ودله على ما فيه من ألوان رائعة وأشكال متعددة للأسماك ، فرد الرجل بأنها لا تهمه . وأخذه الله بعد ذلك إلى ظلال شجرة وارفة حيث أمر النسيم العليل بأن يهب عليه ، وسأله إذا كان لا يحس بالمتعة مما يراه ، فرد الرجل بالسلب أيضاً . وحمله الله بعد ذلك إلى بحيرة من بحيرات الجبال ، وبيّن له لون الماء ، وعرض عليه صوت الريح وهي تئز بين أشجار الصنوبر في غابة قريبة ، كما عرض عليه جلال الصخر وجمال انعكاساتها على ماء البحيرة ، فقال الرجل ان كل هـذه المناظر لا تثير فيه أي اهتمام . وخيل إلى الله أن هذا المخلوق الذي صنعه لا يتمتع بطبيعة رقيقة وإنه في حاجة إلى مناظر أكثر إثارة ، فأخذه إلى قمة جبـال روكي ، حيث توجد الفوهات البركانية العظيمة ، وكهوف الستالكتايت والستالجمايت ، وينابيع المياه الساخنة ، والأعاصير ، والنباتات المتوحشة ، والثلوج والجنادل ، والصخور الضخمة ، وقنن الجرانيت ، والشلالات ، ثم سأله إن كان لم يفعل كل ما في وسعه ليجعل من هذه الكرة الأرضية شيئاً جميلاً يروق لعينيه وأذنيـه ومعدته ، ولكن الرجل أصر على أنه يريد الجنة ذات الابواب اللؤلؤية ، وإن هذه الارض لا تصلح له . وراح الله يقول له ... « انك فأر دعي ناكر للجميل. فأنت ترى ان هذا الكوكب لا يصلح لك ، ولذا فسأبعث بـك إلى الجحيم ، حيث لن ترى السحب العابرة في السماء، ولا الأشجار المزهرة ، ولن تسمع خرير الجداول ، وحيث ستعيش إلى نهاية أيامك » . وراح الله يبعث به ليعيش في شقة

في إحدى المدن . وكان اسم هذا الرجل « كريستيان » .

ومن الواضح أنــه كان من الصعب إرضاء هذا الرجـــل . وكان لا بد من التساؤل ، عما إذا كان في مكنة الله أن يخلق جنة ترضيه . واني لعلى ثقة من أنه وقد حمل هذه الملايين من العقد ، كان سيضجر من جنـــة الابواب اللؤلؤية في الاسبوع الثاني من وجوده فيها ،لو ان الله بعث به اليها، وان الله كان سيضيق به ذرعاً ويعجز عن خلق شيء يرضي هذا الطفل المدلل . وعلينا الآن ان نقبــل الحقيقة الواقعة ، وهي ان علم الفلك باكتشافاته الضخمة في الفضاء ، بات يرغمنا على قبول هذه الارض التي نعيش فيها على انها الجنة نفسها ، وان الجنة التي نحلم بها لا بد وان تحتل شطراً من الفضاء ، وان احتلالها هذا ، لا بد وان يجعلها في مكان ما بـين النجوم ، الا اذا كانت في تجويف الارض . ولما كان من الواجب العثور على الجنة في احدى النجوم ، وقد يكون لها أقمارهـــا او لا يكون ، فان خيالي يعجز عن تصور كوكب افضل من كوكبنا ، يصلح مقراً للجنـــة . وقد تكون هناك عشرات الاقمار بدلاً من القمر الواحد ، وقد تكون مختلفـــة الالوان منها الاحمر والخملي والازرق والبني والاخضر والبرتقالي والسندسي وهلم جرا ، بل وقد تكون هناك الوان قزحية تزيد على الالوان التي نعرفهـا . ولكنني أرى ان الرجل الذي لا يقنع بقمر واحد ، سيضجر حتمـاً من وجود عشرات الاقمار ، وان الرجل الذي لا يرضى بالثلج يسقط احيانـــاً أو بقوس قزح يبدو في كبـــد السماء مرة بعد مرة ، سيضجر من رؤية الكثير من الثلوج والاقواس القزحية . وقد تكون هناك ستة فصول في السنة بدلاً من اربعـة ، وان يكون هناك نفس النظام في التبدل من الربيع الى الصيف ومن الليـل الى النهار ، ولكنني لا استطيع أن ادرك أي فرق يتركه هذا . فاذا كان الانسان لا يتمتع بالربيع والصيف على الارض ، فكيف يمكن له ان يتمتع بهما في الجنة ؟ وقد ابدو في حديثي هذا وكأنني مجنون كبـير ، أو حكيم فاره . ولكنني على أي حال ، لا اتفق مع البوذي او المسيحي في رغبتهما في الخلاص من عالم الحس والمادة بافتراض جنة لا تحتل مكاناً ، وتقام من بنات الخيال . فأنا افضل الحياة

على هذه الارض لا على غيرهـا . وليس في مكنة احد ان يقول ان الحياة عليها جامدة ورتيبة . وإذا كان هناك انسان لا يستطيع ان يقنـع بما في الطقس من تبدلات ، وبما في السماء من تغير في الالوان ، وبالمذاق الرائع للثمار التي تنضج في فصول مختلفة من العام ، وبرائحة الازاهير المختلفة التي تتفتح بصورة دورية في الشهور المختلفة ، فان من الخير لذلك الانسان ان ينتحر ، بدلاً من ان يحـاول الجري وراء السراب الذي يعيش فيه ، وهو الوصول الى جنة قد يرضى بها الله نفسه ، ولا يرضى بها الانسان .

وليس ثمة من شك في وجود تناسق غامض وكامل بين المرئيات والمسموعات والروائح والمآكل ، وبين حواس البصر والسمع والشم والذوق عندنا . ولا شك في ان هذا التناسق بلغ حداً من الكمال ، بحيث اصبح يؤلف حجة قوية تؤيد علم الغائية الذي سخر منه فولتير [1] كثيراً . ولكن علينا ان لا نكون جميعاً من الغائيين . فمن المحتمل ان يكون الله قد خلقنا لننعم بهذا العيـد الكوني الذي نراه حولنـا أو قد لا يكون . ويتلخص موقف الصينيين في اننا سننضم الى هذا العيد سواء دعينا اليه أو لم ندع . فمن الحمق كل الحمق ان لا نحاول تذوق الطعام عند ما يبدو مغرياً وشهياً . وقد يواصل الفلاسفة بحوثهم الغيبيـة ، ليكتشفوا ما اذا كنا من ضيوف المأدبـة او لا ، ولكن الرجل العاقل يأكل طعامه قبل ان يبرد . فالجوع كثيراً ما يئد المنطق ويقتله .

حقاً ان الكوكب الذي نعيش فيه كوكب رائع . فهناك اولاً ، تبدل الليل والنهار ، والشروق والمغيب ، والليل اللطيف بعد نهار قائظ ، والفجر الهادىء

---

(١) جان فرنسوا ماري فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨) - كاتب فرنسي ومؤرخ ومؤلف مسرحيات وفيلسوف متشكك . ولد في باريس . نفي من بلاده مرات . وسجن في الباستيـل مرات اخرى . وضع عدداً من الكتب والمسرحيـات . اشهرهـا « رسالة عن التسامح » و « معجم الفلسفة » و « كانديد » .

المعرب

الواضح يسبق اليوم الضاج بالعمل . وليس ثمة ما هو افضل من هـذا . وهناك ثانياً ، تبدل الصيف بالشتاء . وقد يكون هذا التبدل رائعاً وكامـلاً ، ولكن الانتقال بينهما يتم بالتدرج عن طريق الربيع والخريف ، وليس ثمة ما هو أجمل من هذا . وهناك ثالثاً الاشجار الصامتة والمتكبرة ، تمنحنا الظـل في الصيف ، ولا تحول بيننا وبين اشعة الشمس الدافئة في الشتاء ، وليس ثمة ماهو اجمل من هذا. وهناك رابعاً الازاهير التي تتفتح والثمار التي تنضج بالتناوب في اشهر السنـة المختلفة ، وليس ثمة ما هو اجمل من هذا ، وهناك خامساً الايام الملبـدة بالسحب والضباب تتبدل مع الايام الصافية المشمسة ، وليس ثمة ما هو اجمل من هـذا . وهناك سادساً ، زخات المطر في الربيـع ، والعواصف في الصيف ، والرياح الجافـة في الخريف والثلج في الشتـاء ، وليس ثمة ما هو اجمل من هـذا . وهناك سابعاً الطواويس والببغاوات والكراوين والبلابل وكلها تغرد اغاريـد رائعة ، وليس ثمة ما هو اجمل من هذا . وهناك ثامناً حديقة الحيوانات بما فيها من قرود ونمرة ودببة وجمال وفيلة ، وذوات القرن ، والتماسيح والحيتان والابقار والخيل والكلاب والقطط والثعالب ، والسناجب ، وصرصار الخمائل ، والانواع التي لا عد لها ولا حصر من الحيوانات ، وليس ثمة ما هو اجمل من هـذا . وهناك تاسعاً الاسماك ذات الالوان القزحية ، واسماك السيف ، والسمك الرعاد ، والحيتان والابلون ، والسرطـان البحري ، واسماك المنوه ، وجراد البحر ، والسلاحف البحرية ، وانواع لا تقدر ولا تحصى من الاسماك ، وليس ثمة ما هو اجمل من هذا . وهناك عاشراً اشجار السرو ، والبراكين التي تبصق النـار ، والكهوف الرائعة ، والقمم المهيبة ، والتلال السامقة ، والبحيرات الهادئـة والانهار المتعرجة والشطآن الظليلة ، وليس ثمة ما هو اجمل من هـذا . ولا شك في ان القائمة لا تعـد ولا تحصى بحيث يستساغ طعمها لدى كل ذوق . والشيء المعقول ، هو ان يمضي المرء الى الوليمة وان يشترك فيهـا ، دون ان يشكو من رتابة الحياة .

٢ - حول الضخامة

تكون الطبيعة دائماً كالمصحة أو المشفى . واذا لم يكن في وسعها ان تشفي الانسان من أي مرض،فان في وسعها ان تشفيه من مرض السوداء.ومن الضروري أن يكون الانسان دائماً في مكانه ،ولا ريب في أن الطبيعة تضعه في هذا المكان. وهناك صورة منظر صيني تحمل اسم « التطلع إلى الجبل بعد هطول الثلج » ، ولكن من الصعب العثور فيها على شخص الانسان الذي يفترض انه المتطلع . ولو أمعن الناظر البحث عن هذا الرجل ، لوجده مقعياً تحت شجرة صنوبر ، دون ان ترتفع قامته على بوصة واحدة في صورة إرتفاعها خمس عشرة ، ودون أن ينال رسمه أكثر من بضع لمسات سريعة من يد الرسام . وهناك صورة اخرى رسمها سونج لأربعة من المفكرين يجوبون أرجاء غابة في الخريف وقد رفعوا رؤوسهم يتطلعون إلى الاغصان المتشابكة لأشجار ضخمة فوقها . وقد يكون من المفيد أن يحس الانسان بضالته أحياناً . وكنت ذات مرة اقضي صيفاً في كولينج ، وكنت مستلقياً ذات يوم على قمة جبل ، فبدأت أرى مخلوقين صغيرين لا يعدو حجم الواحد منهما حجم النملة،على بعد نحو من مائة ميل من نانكين ، يكره الواحد منهما الآخر ، ويدس له الدسائس ، ساعياً وراء فرصة لخدمة الصين في شكل يبدو مضحكاً للغاية . ولعل هذا هو السبب الذي يدعو الصينيين إلى توصية الانسان الذي يحس بالضيق ، بالقيام برحلة في الجبل ، يطهر بها صدره من الاطماع الحمقاء ، والهموم التي لا ضرورة لها .

ويميل الانسان إلى نسيان ضآلته وتفاهته . وقد يحس الانسان بشيء من الغرور عندما يرى عمارة من ناطحات السحاب ذات مائة طبقة ، ولكن هذا الغرور الكاذب لا بد وأن يزول إذا وضعنا تلك العمارة في خيالنا إلى جانب تل من التلال المتواضعة ، وآنذاك تتبين حقيقة « ضخامة » تلك العمارة للانسان . ولعل أبرز ما نحبه في البحر لانهايته ، وأبرز ما نحبه في الجبل ضخامته .

وهناك قمم في هوانج شان، او في الجبال الصفراء تتألف من قطعة واحدة من صخور الجرانيت ترتفع الف قدم على الاقل فوق قاعدتها المرئية على الارض ، وتمتد إلى مسافة ميل واحد طولاً . ولعل مثل هذه المناظر هي التي تلهم الفنانين الصينيين، اذ يرجع الفضل في حب الصينيين للصخور في الصور إلى هدوء هذه المناظر وضخامتها ، وخلودها الظاهري ، وقد لا يصدق المرء ان هناك هذه القنن الهائلة ، إلا اذا زار هوانجشان . وكانت هناك مدرسة من الفنانين في هذه المقاطعة في القرن السابع عشر ، استمدت الهامها من هذه القنن الصماء من الجرانيت .

وقد يحس الانسان بفؤاده يكبر ايضاً عندما يرتبط بما في الطبيعة من ضخامة . وهناك طريقة للتطلع الى منظر طبيعي كصورة سينمائية متحركة ، وآنذاك لا يقنع المرء الا برؤية هذا المنظر في الصور المتحركة . وهناك طريقة أيضاً للتطلع إلى السحب الاستوائية فوق الافق وكأنها مؤخرة مسرح ، فإذا ما رضي بذلك ، لم تعد تعجبه أية مؤخرة ، الا إذا كانت تمثل هذه الضخامة . وهناك طريقة للتطلع إلى الغابات الجبلية ، وكأنها حدائق خاصة ، فإذا ما ارتضاها الانسان لم تعد تعجبه اية حديقة اخرى . وهناك طريقة للاستماع إلى هدير الامواج وكأنها الحان حفلة موسيقية ، فإذا ما ارتضاها ، صعب عليه ان يعجب بحفلة اخرى . وهناك طريقة أخرى لاعتبار نسيم الجبال كجهاز مكيف للهواء . فاذا ما ارضاه ذلك ، لم يعد يعجبه أي جهاز آخر . وهكذا نحس ايضاً « بالكبر » عندما نجد أن الارض كبيرة . ويقول يوان تسي (٢١٠ — ٢٦٣ م) « عن الرجل الكبير » في احدى مؤلفاته الرومانسية العظيمة ... « نحن نعيش في السماء والارض كبيت لنا » .

ولقد وقع اجمل منظر رأيته في حياتي ذات يوم على ساحل المحيط الهندي . حقاً انه كان منظراً رائعاً . كان عرض المسرح في السماء مائة ميل وارتفاعه ثلاثة اميال . وقد مثلت عليه الطبيعة مسرحية استغرقت نصف ساعة ، إذ دفعت بحيوانات التنين ووحيد القرن والاسد الضخمة عبر السماء ،

ورأيت الاسد وقد انتفخت أوداجه ، وانتشرت معرفتــه، بينما تعرّج ظهر التنين وانحنى. وبرزت جيوش يلبس افراد بعضها البزة البيضــاء ، ويلبس افراد البعض الآخر البزة الرمادية ، وامامهم ضباطهم بشرائطهم الذهبية ، يزحفون ويتراجعون ، ويلتحمون في معارك . وتبدلت اضواء المسرح اثناء اشتــداد المعركة والمطاردة ، واندفع الجنود ذوو البزات البيضــاء وقـــد تحولت الى برتقالية ، بينما تحولت بزات الآخرين الى مخملية ، واصبحت مؤخرة الصورة وكأنها نيران حمراء . وعندما بدأ الفنيون في مسرح الطبيعة في التقليل مـــن الاضواء ، تغلب اللون المخملي على البرتقالي ، وتحول الى احمر غامق ، عارضاً في الدقائق الخمس الاخيرة ، منظر مأساة لا يمكن وصفها ، وكارثة رهيبة قبل ان تنطفيء الاضواء . ولم ادفع ملياً واحداً في رؤية هذا المنظر، الذي اعتــبره اعظم ما رأيت في حياتي .

وهناك ايضاً ما في الجبـــال من صمت يطهر النفوس . فالقـــنن صامتة ، والصخور صمـــاء وبكماء ، والاشجــار صامتـــة . وفي هذا الصمت كلــه جلال ورهبة . فكل جبل ضخم ،بما ينطوي عليه من مناظر ، مصح للنفوس . ويحس الانسان بنفسه وهو يقذف بنفسه ، الى صدره ، كأنه طفل رضيـــع ، يرضع من ثدي أمه . وانا لا اؤمـــن بالعلم المسيحي ، ولكنني اؤمن بما في الاشجار القديمة الضخمة من خصائص الشفاء الروحية ، وبما في القرى الجبلية من قدرة لا على شفـــاء الانسان من عظم مكسور ، او جلد ملتهب ، بل على شفاء روحه مـــن الاطماع والامراض ، كجنون السرقـــة ، والسوداء وحب الذات ، والقذارة الروحية ، والرغبة في الاستعباد وحب السيطرة والجشع في الاسهم ، وتعشق الحرب ، والحسد والكره والغرور ، والتبـــاهي الاجتماعي والعناد وجميع صور الانحرافات الخلقية .

٣ – سيدتان صينيتان

يعتبر التمتع بالطبيعة فناً يعتمد على مزاج الانسان وشخصيته ، ومن العسير ايضاح اسلوبه لأن من العسير ايضاح اسلوب أي فن . ومن الواجب ان يكون كــل شيء تلقائياً ، وان ينبع تلقائياً من مزاج فني . ولذا فمن العسير وضع القواعد للتمتع بهذه الشجرة او تلك ، أو هذه الصخرة أو تلك ، أو هذا المنظر أو ذاك في لحظــة معينة ، اذ لا تتشابه المناظر والاشجار ، والصخور . وفي وسع كل من يفهم ان يعرف كيفية التمتع بالطبيعة دون ان يعلمـه احد . ولا شك في ان هافيلوك ايليس وفان دير فيلدي ، كانا جد حكيمين عندما بينا ان من المتعذر وضع القواعد لفن الحب بين رجــل وزوجته وهما في خلوتهما ، في غرفة النوم ، وتحديد ما هو مسموح به وما هو ممنوع ، أو ما هو حسن ومـا هو سيء . وينطبق نفس الشيء على فن التمتع بالطبيعة . ولعل النهج الأمثل ، يكــون في دراسة حياة أولئك الذين كانوا يجسدون المزاج الفني . فالاحساس بالطبيعة ، وحلم الانسان برؤية منظر سبق له ان رآه قبل عام ، ورغبته المفاجئة في زيارة مكان معين ، كلها امور تتحقق في لحظات غير متوقعة . ولا يستطيع صاحب المزاج الفني اخفاء مزاجه اينما ذهب ، كما ان الكاتب الذي يتمتع حقــاً بالطبيعة ، يمضي في وصف منظر ثلج يتساقط ، او ليلة من ليالي الربيع ، ناسياً القصة التي كان قد شرع في كتابتها . وتحفل السير الحياتية الذاتية التي يكتبهـا الصحفيون والساسة عادة بذكرياتهم عن الاحداث الماضية ، بينما تعنى السير التي يكتبها الادباء بالذكريات عن ليلة سعيدة قضوها ، أو عن زيارة قاموا بهـا مع بعض الرفاق الى واد مشهور . واني لأرى على هذا الاساس ان السيرتين الحياتيتين

اللتين كتبهما روديارد كيبلنج[١] ، وجي كي تشيسترتون[٢] مخيبتان للآمال .
ترى ما الذي دفعهما الى اعتبار القصص المهمة التي وقعت في حياتها من التوافه ،
واعتبار القصص التافهة مهمة ؟ فهما يتحدثان دائماً عن الناس ، ولا يذكران
الازاهير والطيور والتلال والجداول .

وتختلف ذكريات ادباء الصين ورسائلهم في هذا الصدد . فلعل اهم ما يعنى به
الاديب الصيني هو ان يحدث صديقه عن ليلة قضاها عند البحيرة ، أو يسجل
في سيرة حياته وصفه ليوم سعيد قضاه ، وكيف مر به هذا اليوم . وهناك
بعض الكتاب الصينيين اسهبوا في كتابة ذكرياتهم عن حياتهم الزوجية . ولعل
خير امثلة على ذلك كتاب ماوبيشيانج عن « ذكريات مع جاريتي » وكتاب
شين سانبو عن « فصول ستة عن حياة عائمة » وكتاب تشيانج تان عن «ذكريات
في ظل ضوء خافت» . وقد كتب الاولان كتابيهما عن زوجتيهما بعد وفاتهما ، أما
الثالث فقد وضع كتابه في شيخوخته وفي حياة زوجته . وسنبدأ ببعض المقتطفات
من الكتاب الثالث ، الذي تمثل فيه شيوفو زوجة الكاتب دور البطلة، ثم نلحقه
بمختارات من الكتاب الثاني الذي تمثل فيه يون زوجة الكاتب دور البطلة ،
ولقد تميزت هاتان السيدتان بالمزاج الطيب وان لم تكونا من الوافرات التعليم، أو
من الشاعرات المجيدات . لكن هذا ليس بالامر المهم . وليس من الضروري ان
يهدف كل انسان الى كتابة الشعر الخالد ، اذ يكفي ان يتعلم الانسان كتابة

---

(١) جوزيف روديارد كيبلينج (١٨٦٥ – ١٩٣٦) – شاعر وقصصي انجليزي . ولد في بمباي في الهند، درس في انجلترا ثم عاد الى الهند حيث عمل في الصحافة . نشر الكثير من دواوين الشعر والقصص التي جعلته شهيراً ، من اشهر كتبه « الضوء الذي فشل » و « كتاب الغابات » و « البحار السبعة » وعشرات غيرها اصبح شاعر التاج .

(٢) جلبرت كيث تشيسترتون (١٨٧٤ ١٩٣٦) – كاتب وصحفي انجليزي . درس الفن في صباه ثم تحول الى الادب والنقد . ومن اشهر كتبه « المدعى عليه » و « ١٢ نموذجاً » ، و « نادي الحرف الغريبة » و « براءة الاب براون » وكثير غيرها .

– المؤلف

الشعر . كوسيلة لتسجيل بعض اللحظات ذات المعاني أو الامزجة الشخصية أو المساعدة على التمتع بالحياة .

ا - شيوفو

كثيراً ما قالت لي شيوفو ... « لا يعيش الانسان اكثر من مائة عام ، يقضي نصفها في النوم والاحلام ، ثم يقضي نصف ما تبقى في الامراض والاحزان ، ونصف ما تبقى في ايام الرضاعة والشيخوخة . وهكذا فان كل ما يتبقى لنا منها هو العشر أو الخمس (الثمن ليس الا). يضاف الى هذا اننا نحن الذين صنعنا من جبلة ضعيفة كالقطن لا نستطيع ان نعيش مائة عام » .

وكان قمر الخريف ذات يوم مكتملاً ، وراحت شيوفو تسأل خادمة لها ان تحمل آلة الشين الموسيقية وان ترافقها في رحلة في البحيرة الغربية تمخر في زورقها عبابها ، وسط ازهار اللوتس . ووصلت بعد ذلك بقليل الى البيت قادماً من النهر الغربي ، وعندما عرفت ان شيوفو قد مضت في زورقها في البحيرة ، ابتعت بعض البطيخ ومضيت للحاق بها . والتقينا عند الجسر الثاني على مقربة من رصيف سوتونجبو ، وكانت شيوفو تعزف لحناً حزيناً هو لحن « الخريف في قصر هان ». وتوقفت وقد جمعت معطفي في يدي استمع الى موسيقاها . وكانت التلال المحيطة بنا قد غرقت ابان ذلك في شفق المغيب ، ورأيت في الماء صور النجوم والقمر وهي تطل من السماء ، وسمعت اصواتاً موسيقية مختلفة ، ولم استطع ان اتميز ما اذا كانت صادرة عن ازيز الرياح أو عن طنطنة الفتاة . ولم تكد تنتهي الاغنية حتى كانت مقدمة زورقنا قد لمست الضفة الجنوبية لحديقة المياه الدائرة . ورحنا نقرع بوابة « دير السحب البيضاء » لاننا كنا نعرف من فيه من الراهبات . ولم نكد نجلس قليلاً ، حتى قدمت الراهبات لنا بعض الحساء المصنوع من بذور اللوتس . وكان لون الحساء ورائحته كافيين لتهدئة

احشاء الانسان لأنه يمثل عالماً مختلفاً عن مذاق اللحم والاغذية الدهنية. وعندما عدنا نزلنا عند جسر توان ، حيث فرشنا حصيراً من الخيزران على الارض ، وجلسنا نتبادل الحديث ردحاً طويلاً. وكان ضجيج المدينة البعيد يضايق آذاننا كصوت الذباب عندما يطن على مقربة منها ... وأخذ عدد النجوم في السماء يقل شيئاً فشيئاً ، وامتد غطاء ابيض فوق سطح البحيرة . وسمعنا صوت الطبل يقرع على اسوار المدينة فأدركنا انها الساعة الرابعة (الساعة الثالثة صباحاً) ، ورحنا نحمل الآلة الموسيقية ، وندفع بزورقنا في طريق البيت .

وكانت اشجار الموز التي زرعتها شيوفو قد اورقت ، والقت بظلالها الخفر على درفات النوافذ . وكان سماع قطرات المطر وهي تسقط على الاوراق في الخريف، وانا مستلق على وسادة، كافياً لبعث الحزن في نفسي . وهكذا وجدت نفسي الهو ذات يوم بكتابة ثلاثة ابيات من الشعر على اوراق الموز ...

أي ثرثار زرع هذه البراعم ؟
انها تقرع آذاننا في الصباح
وتواصل الخفقان اناء الليل

وفي اليوم التالي ، وجدت ثلاثة ابيات اخرى كتبت تحتها وهذه هي ...

انك انت الذي تعيش في قلق العزلة
فاشجار الموز تلد ثمارها .
وتأسف لما انت فيه

وكانت الحروف التي كتبت فيها هذه الاوراق ، دقيقة وقد صدرت عن قلم شيوفو الرشيق . ولكنني تعلمت شيئاً مما كتبته .

وسمعنا ذات يوم صوت الريح والمطر ، وحسرت الوسائد والحصر عن روح

الخريف الباردة ، وكانت شيوفو قد اكملت نزع ملابسها استعداداً لليل. وكنت اجلس الى جوارها اقلب صفحات البوم يضم مائة زهرة ، لاكتب شيئاً تحت كل واحدة منها . وسمعت صوت بعض الاوراق الذابلة وهي تسقط على الارض من النافذة ، وراحت شيوفو تنشد ...

« الأمس افضل من اليوم
واصبحت هذا العام ادنى للشيخوخة مني في العام الماضي »

ورحت اسري عنها بقولي ... « ان الانسان لا يحيا مائة عام كاملة . ترى كيف يتسنى لنا ان نمسح دموع الآخرين (الاوراق الساقطة) ؟ » ووضعت وانا اتنهد فرشاة الرسم . وعندما مضى من الليل اكثر من نصفه ، وارادت شيوفو شيئاً تشربه ، وجدت ان النار في الموقد الارضي قد خمدت ، وان جميع الخدم قد اصبحوا في ارض الاحلام . واخذت المصباح الجازي من المائدة ، ووضعت فوقه قدحاً من بذور اللوتس ، ليسخن وتشربه ، وكانت شيوفو تشكو في السنوات العشر الاخيرة من التهاب في رئتيها ، مما يدفعها الى السعال المستمر في الاشهر المتأخرة من الخريف ، يحرم عليها النوم الا اذا وضعت وسائد عالية تحت رأسها . وكانت تحس في هذا العام بتحسن في صحتها ، وكنا نجلس متقابلين حتى الساعات المتأخرة من الليل . ولعل السبب في شفائها العناية الصحيحة والتغذية .

وصنعت ثوباً مصمماً على شكل زهرة الخوخ لشيوفو ، وقد تساقط الثلج حول جسمها كله ، وكانت تبدو من بعيد وكأنها حورية من الحوريات تقف في عالم من المخلوقات الفانية . وعندما كانت تجلس في الايام الاخيرة من الربيع على الشرفة وقد انتشر جناحاها المصنوعان من الاوراق الخضراء ، كانت الفراشات تهبط عند شعرها المتدلي ، دون ان تعرف ان فصل الرياح الشرقية قد انتهى .

وعادت عصافير الجنة في السنة الماضية متأخرة عن عادتها ، وعندما وصلت كانت نصف براعم الخوخ في خارج النافذة قـد تفتحت . وسقط القش ذات يوم من عش من اعشاش هذه العصافير ، وسقط الى الارض عصفور صغير . وخافت شيوفو ان تسرع قطة الى التهامه ، فحملته ، وعادت الى العش تصلح ما فسد منه. وعادت الينا هذه العصافير هذا العام وهي تطوف حول المنزل. ترى هل ما زالت تذكر تلك التي حمت العصفور الصغير في العام الماضي ؟

وتحب شيوفو لعب الشطرنج ، ولكنها ليست بارعة فيه . وهي ترغمني في كل ليـلة على ان العب معها لعبة « احاديث الاصابع » حتى الصباح . ورحت اقتبس قول شوشوشيا مازحاً... «لقد خسرت معي في لعبة « الطرّة والنقش » ولعبة اقتطاع اوراق الزهرة. واني لاسألك. ما الذي ستدفعينه لي هذا المساء ؟ وقالت وهي تتجنب السؤال ... « أأنت واثق من انني لن اكسب؟ » فقلت.. « أراهنك على هذا النمر الاخضر اللون » . ورحنا نلعب ، وعندما اخرجت لها عـدداً من حجارتها ، واصبحت في وضع سيء ، راحت تضع القطة على لوحة الشطرنج لتزيل ترتيب ما تبقى من الحجارة . وقلت لها ... « اتحسبين نفسك يانج كويفي التي لعبت مع الامبراطور تانج مينجهوانج ؟ » وصمتت ، ولكن ضوء المصباح كان يلقي خيوطه الذابلة على وجهها الذي احمر كالخوخ . ولم نعـد بعد ذلك الى لعبة الشطرنج .

وهناك عدد من اشجار الاكاسيا عند ينبوع هوباو ، تهبط اغصانهـــا على الصخور القريبة منها . وكانت ازاهيرها الصفراء تغطي وقت التفتح الدرجات الصخرية ، كما كان اريجها يدفع الانسان إلى الاحساس بأنه يزور « مملكة الروائح السماوية » . وانا احس بالضعف امـــام الازاهير ، وكثيراً ما اعددت الشاي عندها . وكانت شيوفو تلتقط الازاهير لتزين بها شعرها ، ولكن كثيراً مـــا امسكت الاغصان المتدلية بشعرها ، ولعبت به . وكنت اعود فأصففه لها . وابلله بماء الينبوع . وكنا عندما نعتزم الرحيل ، نحمل معنا بعض الفروع الصغيرة

الى البيت ، ونضعها خلفنا على عربتنا ونحن نجتاز شوارع المدينة ، لنعلم الناس بآخر الانباء عن الخريف الجديد .

ب – يون

نجد في كتاب « فصول ستة عن حياة عائمة » ، ذكريات رسام صيني مغمور عن حياته الزوجية مع يون . وكان الزوجان صاحبي روحين فنيتين بسيطتين ، يحاولان اختطاف كل لحظة من لحظات السعادة التي تمر بهما . وقد سرد الرسام قصتهما باسلوب بسيط لا اصطناع فيه. وخيل الي الى حد ما ان يون اجمل امرأة في الادب الصيني . وكانت حياة الزوجين حزينة ، ومع ذلك فقد تميزت بالمرح النابع من الروح . ولعل من الطريف ان نرى كيف اصبح التمتع بالطبيعة جزءاً حيوياً من وجودهما الروحي . واقتطف هنا بعض الاجزاء من كتابه التي يصف فيها تمتعها باليوم السابع من الشهر القمري السابع ، وباليوم الخامس عشر من نفس الشهر ، وكلاهما من ايام الاعياد ، وكيف قضيا فصلاً من فصول الصيف في مدينة سوشاو . انه يقول ...

«في الليلة السابعة من الشهر القمري السابع من عام ١٧٨٠ ، كانت يون تعد البخور والشموع وبعض البطيخ والفواكه ، لنحتفل معاً بعبادة « حفيد السماء »[١] في القاعة المسماة ... « تخليداً لفؤادي » . وكنت قد صنعت ختمين نقشت عليهما العبارة التالية :.. « لنظل زوجين من هذا الحلول حتى الحلول الثاني». وكانت نقوش ختمي ذات حروف ايجابية وحروف ختمها

---

(١) اليوم السابع من الشهر السابع ، هو اليوم الوحيد في السنة الذي يسمح فيه لعاشقي السماء وهما « حفيد السماء » و « الغازلة » باللقاء في طريق المجرة في السماء .

ذات حروف سلبية ، لنستخدمها في مراسلاتنا . وكان القمر بدراً في تلك الليلة ، وانواره ساطعة جميلة ، وعندما تطلعت الى الجدول الصغير ، كانت تموجاته تبدو وكأنها سلاسل من الذهب . وكنـــا نلبس ملابس حريرية فضفاضة ، ونجلس متلاصقين وقد حملنا مروحتين صغيرتين امام نافـذة تطل على الجدول . وارتفعت عيوننا الى السماء . فرأينا السحب تمخر عبابها ، وهي تتحول في كل لحظة الى الوف الصور والاشكال . وقالت يون ... « يشترك الكون كـــله في هذا القمر . واني لأتساءل ، اذا كان هناك عاشقان آخران ، يحب الواحد منهما الآخر كحبنا ، ويتطلعان في نفس هذه اللحظة الى القمر كما نتطلع ؟ » وقلت ليون ... « لا شك في ان هناك كثيرين من الناس يجلسون الآن في هذه الامسية الباردة ، ويتطلعون الى القمر . وربما كان هناك عدد كبير من النسوة ، يجلسن في غرف نومهن ينتقدن السحب أو يتمتعن بهـا ، ولكن عندما يتطلع رجل وزوجته الى القمر معـــاً ، فانهما لن يتحدثا عن السحب » . وأخذت اضواء الشموع تخفت شيئاً فشيئاً ، وغطس القمر في السماء ، ورفعنا الثمار من مكانها ومضينا الى الفراش .

« وكان اليوم الخامس عشر من الشهر السابع عيـد جميع الارواح . واعدت يون لنا عشاء متواضعاً ، لنشرب معاً والقمر ينادمنا ، ولكن عندما حل المساء ، كانت السماء قـد تلبدت فجأة بالسحب السوداء . وقطبت يون حاجبيها وقالت : ... « اذا كانت مشيئة الله ان نعيش معاً ، حتى تملأ خيوط الشيب الفضية رأسينـا ، فان علينا ان تخرج القمر من وراء السحاب ليطل علينـا الليلة » . واحسست من جانبي بشيء من الضيق ايضاً . وعندما تطلعنـا من النافذة عبر المروج ، رأينا زمر

الصياهد (ضوء الليل) ، تحوم هنا وهنالك ، وكأنها عشرات الالوف من الشموع الصغيرة ، شاقــة طريقها عبر الحشائش واشجار الصفصاف . وبدأنا ننظم قصيدة معاً ، اذ يقول كل منا بيتين من الشعر مرة واحدة ، بحيث يكمل الواحد المقطوعة التي بدأها الآخر ، ثم يبدأ مقطوعة ليكملها الثاني . ولم نكد نكمل عدة ابيات ، حتى رأينا ان ما نقوله هو السخف بعينه . وكانت يون قد دفنت رأسها اثناء ذلك في صدري وهي تخلط بين الضحك والبكاء ، واحسست برائحــة الياسمين من شعرهــا تهاجم أنفي . وربت على كتفها وانا اقول ضاحكا ...

« كان يخيل الي ان المرأة تستخدم الياسمين لتزيين شعرها لانه مدور كاللآلىء . ولم اكن اعرف انها تستعمله لان رائحته تطيب كثيراً عندما تختلط برائحــة شعر المرأة ومساحيقها . وعندما تصبح الرائحة على هذا النحو لا يفوقها أي اريج آخر ، حتي اريج الليمون ». وتوقفت يون عن الضحك وهي تقول... « تعتبر رائحـــة الليمون ، السيد المهذب بين الروائح النباتية المختلفة ، لرقتها وصعوبة تبيّنها . أما ، رائحة الياسمين فرائحة رخيصة عادية ، لانها تقترض اريجها الى حــد ما من الآخرين . ومن هنا يكون تشبيه رائحـــة الياسمين بابتسامة الانسان المداهن » . ورحت اسألها ... « ولمَ والحالة هذه تبعدين عن السيد المهذب، وتشدين نفسك الى الانسان الرخيص العادي ؟ » فردت يون ... « يسرني ان أري السيد المهذب الذي يتعشق الانسانة الرخيصة العادية » . ومضى بنــا الليل حتى وسطه ونحن نتبادل الاحاديث على هذا النحو ، ورأينا الريح تدفع بالسحب بعيداً من السماء ، وشهدنا البدر يظهر من ورائهــا ساطعاً ، وكأنه عجلة عربة ، وسيطر علينا احساس طــاغ

بالسعادة . وأخذنا نشرب الى جانب النافذة ، ولكن لم نكد نشرب ثلاثة اقداح، حتى سمعنا فجأة صوت شيء يسقط تحت الجسر ، وكأن انساناً قد سقط في الماء . وتطلعنا من النافذة فلم نر شيئاً ، وكان الماء هادئاً وكأنه صفحة مرآة ، ولم نسمع سوى صوت بطة تخفق بأجنحتها في المستنقعات. وكنت اعرف ان هناك شبح انسان كان قد غرق على مقربة من الجسر يحوم دائماً في المكان، ولكنني لم اجرؤ على ذكر ذلك ليون لاني كنت اعرف انها شديدة الخوف ، وتنهدت يون وقالت ...
« واأسفاه ، ما مصدر هذا الصوت ؟ » واصابتنا رعدة معاً ، واغلقنا النافذة بسرعة ، وحملنا شرابنا الى داخل الغرفة . وكان هناك مصباح يضيء بنوره الخافت ، ورأينا الستائر تتحرك في الظلام ، وكنا نرتجف خوفاً . واطفأنا النور ، ودخلنا فراشنا وراء الستار ، وادركت ان يون اصيبت بحمى عالية . وسرعان ما ارتفعت حرارتي ايضاً ، واستطال مرضنا زهاء عشرين يوماً . وآمنت بما يقال من ان الكارثة تحل عندما يطفح كأس السعادة ، وكان هذا الحادث نذير شؤم لي ، بأننا لن نستطيع البقاء معاً حتى نصل الشيخوخة » .

وهكذا نجد في هذا الكتاب لمحاً على هذا النحو دافقة بالادب والسحر والجمال؛ تظهر الاغراق في حب الطبيعة ، ولا شك في ان وصفه لقضائهما الصيف معاً ، يكفي لاطلاع القارىء على حقيقة الكتاب ، اذ يقول ...

« وعندما انتقلنا الى شارع تسانجمي ، اطلقت على غرفة نومنا اسم « برج اريج الضيوف » مشيراً بذلك الى اسم يون الذي يعني نوعاً من العطور ، والى قصة ليانج هونج ومينج كوانج ، اللذين عاشا كزوجين يلاطف الواحد منهما الآخر كا

يلاطف ضيفه . وكنا نكره هذا البيت لجدرانه المفرطة في العلو ، وباحتـه المفرطة في الضيق . وكان هناك بيت آخر ، خلف الغرفة ، يؤدي الى المكتبة . وكان في وسع المرء إذا اطل من النافذة الخلفية ان يرى حديقة السيد لو القديمة ، وقد اصابها الفنـــاء . وكانت افكار يون لا تزال تعود الى المناظر الجميلة في صرح تسانج لانج .

« وكانت هناك فلاحة عجوز تعيش في تلك الايام الى الشرق من جسر « أمنا الذهبية » والى الشمال من كينفسيانج . وكان كوخها الصغير محاطاً من كل ناحية بحقول مزروعة بالخضار ، ولها بوابة مصنوعة من الاغصان . وكانت هناك بركة ماء خارج البوابة قطرها ثلاثون ياردة وتحيط بها من جميع جوانبها غابات من الاشجار ... وعلى بعد خطوات الى الغرب من الكوخ ، كانت هناك هضبة ملأى بالآجر المحطم ، يستطيع المرء ان يتطلع منهـــا الى منظر الريف المحيط بالمكان ، وهو ارض منبسطة تمتـد فيها حقول من الخضرة البرية . ويبدو ان المرأة العجوز ، ذكرت المكان ذات مرة ليون ، فظلت هذه تفكر فيه... ومضيت في اليوم التالي اليه فوجدت ان الكوخ يتكون من غرفتين يمكن تقسيمها الى اربع . ولو اضفنا اليه نوافذ من رسوم الورق ، واسرة من الخيزران لاصبح بيتاً بارداً مريحاً يصلح للاقامة ...

« وكان الى جوارنا فيه رجل عجوز وزوجـــه ، يزرعان الخضار لبيعها في السوق . وعرفا اننا سنقضي الصيف هناك ، فجاءا لزيارتنا ، وقـد حملا الينا بعض الاسماك من البركة ، وبعض الخضار من حقلهما . وعرضنا عليهما ثمن ما حملاه ،

فرفضا ، وراحت يون تصنع لها حذاءين لم يقبلاهما الا بعد لأي واقناع . وكان الوقت في شهر يوليو عند ما تلقي الاشجار بظلالها الخضراء على المكان . وكان نسيم الصيف يهب على ماء البركة ، وزيزان الحصاد تملأ الجو بازيزها طيلة النهار ، وصنع لنا الجاران شبكة صيد ، وكنا نجلس في الظل معاً نحاول صيد الاسماك . واذا ما وصل النهار الى آخره مضينا الى الهضبة لنتطلع الى شفق المغيب ، وننظم ابيات الشعر عندما يروق لنا النظم . وكان من الابيات التي نظمناها ...

تبتلع السحب المتوحشة الشمس السائرة في طريق المغيب
ويطلق قوس القمر سهامه من النجوم الثاقبة ...

ولا يمضي وقت قصير حتى يكون القمر قد حفر صورته في الماء ، وبدأت الهوام تئز في كل مكان ، ووضعنا سريراً من الخيزران قرب السياج الشوكي ، لنجلس او نستلقي عليه . وسرعان ما تأتي المرأة العجوز لتبلغنا ان الشراب اصبح دافئاً والطعام معداً، فنجلس لنحتسي بعض الشراب في ضوء القمر . وبعد ان نستحم ونرتدي ملابسنا ، ونحمل المراوح ، نجلس او نستلقي هناك نستمع الى الاقاصيص القديمة عن الجزاء في الآخرة ، يرويها جارنا . وعندما ندخل لننام عند منتصف الليل ، كنا نحس بالراحة والسعادة ، وننسى اننا نعيش في مدينة .

« وطلبنا من البستاني ان يزرع اشجار الاقحوان عند السياج . وتفتحت الزهور في الشهر التاسع، وظللنا هناك عشرة ايام اخرى . وسرت والدتي ايضاً سروراً بالغاً ، وجاءت لترانا هناك . وهكذا رحنا نأكل السرطان البحري وسط

الاقحوان ، ونقضي الوقت هنـاك طيلة النهار . واحست يون بالسعادة كل السعادة ، وقالت ... « علينا ان نبني كوخاً لنا هنا ذات يوم . وسنبتاع عشرة قراريط من الارض ، ونزرع حول الكوخ، الخضار والبطيخ لطعامنا . وستقوم انت بالرسم بينما اعمل انا في التطريز ، وابيع ما اطرزه ، فنجني بعض المال الكافي لشراء الخمر ونظم القصائد عند العشاء . وهكذا نستطيع ونحن نرتدي الملابس البسيطة ، ونأكل الاطعمة العادية ، ان نعيش معاً حياة سعيدة ، دون ان نضطر الى الذهاب الى أي مكان » . ووافقتها تماماً على ما قالته . وما زال المكان قائماً هناك ، أمـا الانسانة التي عرفت فؤادي فقـد قضت ... واأسفاه ، هذه هي الحياة » .

٤ – عن الصخور والاشجار

لا ادري ما الذي سنفعله الآن ، فنحن نبني بيوتنا مربعة الشكل ونجعلها في صف واحـــد ، ونشق شوارعنا مستقيمة ، ونجعلها خالية من الاشجار . فليست هناك أية شوارع متعرجة في المدينة ، ولم تعد هناك بيوت قديمة ، ولا آبار في حدائق البيوت ، واذا كانت هناك قـد ظلت بعض الحدائق الخاصة في المدن فانها ليست الا مجرد صور كاريكاتورية للحدائق . وقد نجحنا تماماً في ابعاد الطبيعة عن حياتنا ، فنحن نعيش في بيوت بلا اسقف ، اذ ان اسقفها ليست الا الاطراف المهملة من البناء ، وهى متروكة في شكلها القديم بعد ان حققت البيوت الغاية منها ، وبعد ان اصبح متعهد البناء مجهداً من عمله ، ويود الاسراع فيما تبقى منه ، ليخلص من العمل . وتشبه معظم البيوت ، تلك الابنية الخشبية التى يقيمها الاطفال الضعفاء ، الذين يتعبون من لعبتهم قبل ان يكملوا البناء ،

فيتركوه غير كامل ، ولا سقف له . أجل لقـــد تركت روح الطبيعة الانسان الحديث المتحضر ، ويبدو لي اننا نحاول تمدين الاشجار نفسها . ولو اننا تذكرنا ان نزرعها في الشوارع الواسعة ، فاننا نعطيها عادة ارقاماً متسلسلة ونطهرها من الحشرات ، ثم نقطعها . ونقص اوراقهـا لتأخذ الشكل الذي نعتبره نحن البشر جميلاً .

وكثيراً ما نزرع الازاهير في مساحة من الارض بحيث نجعلها في شكل دائرة او نجمة أو أي حرف من حروف الهجاء ، ونصاب بالذعر عندما نرى احداها قد خرجت على النظام ، كما نصاب بالذعر عند ما نرى طالباً في الكلية العسكرية ، يخالف الصف في مشيته ، ولذا نسرع الى قصهـا بالمقص . ونحن نزرع في فرساي هذه الاشجار المقصوصة في شكل مخروطي في ازواج ، ونرتبها في تناسق كامل في شكل دائرة صحيحة أو في شكل صفوف مستقيمة الخطوط وكأنها تشكيلات عسكرية . اجل هذا هو مجد الانسان وعظمته وقدرته على تدريب الاشجار وفرض الانضباط عليها كما يدرب الجنود في بزاتهم العسكرية ، ويفرض الانضباط عليهم . ولو ان شجرة واحـدة في زوج متسق طالت عن رفيقتها ، فاننا نسارع الى قطع هامتها ، حتى لا تحـــدث الفوضى في احساسنا بالتنسيق ، وحتى لا تتحدى عظمة الانسان وامجاده .

وتمثل هناك والحالة هذه المشكلة الكبرى في شفاء الطبيعة ، واعادتها الى حالتها الاصلية . انها مشكلة شاقة ومجهدة . فماذا يستطيع المرء ان يفعل بمزاجه الفني ولو كان رائعاً . عندما يعيش في شقة في المدينة وبعيداً عن تربة الارض ؟ وكيف يمكن للانسان ان يزرع مساحة بالعشب ، ويحفر بئراً فيها ، او يقيم « عريشة » من الخيزران ، حتى ولو كان غنياً غنى يمكنه من ان يستأجر عليّة منيفة ؟ ان كل شيء خطأ في خطأ ، ولا يمكن اصلاحه . أوَ بقي امام الانسان ما يعجب به سوى ناطحات السحاب وصفوف النوافذ المضيئة في الليل ؟ . وعندما يتطلع المرء الى هذه الناطحات والى تلك الصفوف المضيئة من النوافذ ، يحس

بمزيد من الغرور والزهو بسلطان الحضارة البشرية ، وينسى ان البشر ليسوا إلا مخلوقات صغيرة تافهة . ومن هنا أحس بالالزام بعدم معالجة هذه المشكلة لأنها عسيرة على الحل .

وعلنا ان نبدأ بمنح الانسان مساحة كبيرة من الارض . ومهما كان المبرر ، فان الحضارة التي تحرم الانسان من الارض مخطئة . ولكن لو فرضنا ان الحضارة المقبلة قدمكنت كل انسان من ان يكون له فدان من الارض ، فانه يجد والحالة هذه ما يبدأ به . ففي وسعه ان يملأها بالاشجار والصخور . وسيحرص كل الحرص على اختيار موقع يكون غاصاً بالاشجار الكاملة النمو ، فاذا لم يجدها ، زرع اشجاراً من النوع الذي ينمو بسرعة كالصفصاف والخيزران . ولن يكون مرغماً آنذاك على ان يحبس الطيور في الاقفاص ، لأن الطيور ستأتي اليه ، وسيكون حريصاً ايضاً على ان يضمن ارضه بعض الضفادع والسحالي والسناجب . وسيكون في مكنة اولاده آنذاك دراسة الطبيعة ، على الطبيعة . لا دراستها في حوض من الزجاج . وسيرى اولاده كيف تفقس الفراخ ، وتخرج من البيض ، ولن يكونوا على جهل مطبق بأمور الجنس والتناسل ، كما هي الحالة بالنسبة لابناء الاسر الطيبة في بوسطن . وسينعم الاطفال برؤية صراع بين السحالي والسناجب ، كما سينعمون بتوسيخ انفسهم ، وما فيه من لذة .

وقد سبق لي ان بينت حب الصينيين للصخور ، أو اشرت اليه على الأقل في الفصول السابقة . ولعل هذا الايضاح يفسر لنا الى حد كاف حب الفنانين الصينيين الى ابراز القمم الصخرية في رسوم المناظر الطبيعية الصينية . وقد يكون هذا الايضاح اساسياً، ولكنه لا يفسر لنا الى حد كاف حب الصينيين للصخور بوجه عام وانشاءهم الحدائق الصخرية . والفكرة الاساسية هي ان الصخور هائلة وقوية وتوحي بالخلود . وهي صامتة لا تتحرك ، وفيها قوة الشخصية كالابطال العظام ، كما انها مستقلة في وجودها ، ومنعزلة عن الحياة

تماماً كالمفكرين المتصوفين . وهي قديمة كل القدم ، والمعروف ان الصينيين يحبون كل ما هو عظيم . يضاف الى هذا انها تملك من وجهة النظر الفنية العظمة والجلال والخشونة والتأنق . وهي تنطوي ايضاً على الاحساس بالخطر . فالقمة الصخرية التي ترتفع سامقة ثلاثة آلاف قدم فوق الارض، تكون ساحرة للنظر لأنها توحي بالخطر .

ومن الضروري ان نمضي الى ابعد من هذا ، اذ لما كان الانسان لا يستطيع زيارة الجبال في كل يوم ، فمن الضروري ان يحمل الصخور الى بيته . ومن هنا تكون الحدائق الصخرية ، والكهوف الصخرية الاصطناعية التي يستطيع السائحون الغربيون في الصين ان يفهموها وان يعجبوا بها ، فكرة تشير الى الرغبة في الاحتفاظ بما توحي به القنن الصخرية المهيبة من خشونة وخطر . وقد لايلام السائحون الغربيون على عدم فهمهم وتقديرهم ، لأن معظم الصخور تصنع بذوق غريب ، وتعجز عن نقل ما في العظمة الطبيعية والجلال من ايحاء . وكثيراً ما يستخدم الاسمنت في ضم قطع الصخور الى بعضها لتشييد الكهوف الصخرية ، ويكون هذا الاسمنت بيناً . ولا شك في ان من الضروري ان تكون الصخور الفنية شبيهة بالرسم الفني .وليس ثمة من شك ايضاً في وجود ارتباط وثيق بين التقدير الفني لمناظر الصخور المصطنعة وبين ذلك التقدير للصخور الجبلية في رسوم المناظر الطبيعية، اذ اننا نجد ان الرسام مي في، الذي عاش في عهد اسرة سونج قد وضع كتاباً عن الاحجار الزرقاء ، كما ان هناك كتاباً آخر وضعه توكوان ، وهو مؤلف عاش في عهد الاسرة نفسها ، يقدم اوصافاً مسهبة لاشكال نحو من مائة نوع من انواع الصخور التي تنتج في اماكن مختلفة والتي تستخدم في الحدائق الصخرية ، مما يشير الى ان وضع هذه الحدائق كان فناً متطوراً في ايام الفنانين العظام في عهد اسرة سونج .

والى جانب هذا التقدير لعظمة الصخور في قننها الجبلية ، نشأ تقدير مختلف للصخور في الحدائق مع التأكيد على الوانها وتركيبها وسطحها ، وجزئياتها .

واحياناً الاصوات التي تصدر عنها عندمـا تدق . و كلما صغر حجم الاحجار ، كلما كان هناك تأكيـد على التركيب وعلى الوان الجزئيات . وقد ساعدت هواية جمع اجمل الاحجار الزرقاء التي يصنع الحبر منها والاختام ، التطور الذي سار في هذا الاتجاه ، اذ انهما من المواد التي يستعملها الاديب في الصين في حياته اليومية . واصبحت الاناقة وجودة التركيب ، والخفة ، والشفافية ، وتداخـل ظلال الالوان ، تحتل منزلة اولى في الاهمية .. تماماً كما حصل بالنسبة الى الاحجار واليشب الفيروزي ، والجاديث ، وزجاجات النشوق فيما بعـد . واصبح الختم المصنوع من حجر كريم ، او زجاجة النشوق الفاخرة ، يكلفان مئـات الدولارات .

وعلى المرء اذا اراد فهم جميع استعمالات الاحجـار في بيوت الصينيين وحدائقهم ان يعود الى المخطوطات الصينيـة . فليست هذه المخطوطات الا دراسة للخط والرتابة والتركيب في حدود الاطلاق . وبالرغم من ان القطـع الجيدة من الصخر يجب ان توحي بالجلال والبعـد عن الحياة . الا ان من المهم كل الاهمية ان تكون الخطوط صحيحة . ولا يعني الانسان بالخطوط مجرد الاستقامة ، او ان تكون في شكل دائرة او مثلث ، وانما يعني بها خطوط الطبيعة المفتقرة الى التهذيب . ولقد اكد « الولد العجوز » لاوتسي في جميع ما كتب اهميـة الصخر اللامنحوت . وعلينـا ان لا نستخف بالطبيعـة ، اذ ان اعظم الاعمال الفنية ، كالشعر الجيد او النثر الادبي ، هي التي لا تظهر فيها اية اشارة للجهـد الانساني ، وتكون طبيعية كالنهر المتعرج ، او السحابة الماخرة ، أو كما تقول الدوائر الادبية الصينية « مفتقرة الى اثر المطرقة والازميل » . وينطبق هـذا على كل مجال من مجالات الفن . فالتقدير يكون للمجال في غرابته ، وفي الخطوط التي توحي بالايقاع والحركة والايماءة . ولا شك في ان تقـدير الجذور الملتوية لشجرة بلوط والتي تستخدم احياناً كمقاعد بلا مسانـد في مكتب الرجـل الثري ، يرتكز الى نفس الفكرة . ولذا فان معظم الصخور التي توجد في حدائق الصينيين الصخرية ، تكون عادة صخوراً غير متقطعة . وقـد تكون احيـاناً

اللحاء المتحجر لشجرة طولها عشرة اقدام او خمسة عشر قدماً ، تقف عمودية منتصبة وحدها ، لا تتحرك وكأنها رجل عظيم ، أو قد تكون صخوراً عثر عليها في البحيرات والكهوف . تحمل في العادة الثقوب ، وتتميز بعدم الاستقامة في الخطوط . واقترح احد الكتاب انه اذا حدث وكانت الثقوب مدورة تماماً فلا بد من ادخال بعض الحصى فيها ، لتحطيم التنسيق في هذه الدوائر . وصنعت حدائق الصخور القريبة من شانجهاي وسوشاو على الغالب من صخور نقلت من بحيرة تايهو وهي تحمل اثار الامواج البحرية السابقة عليها . وقد استؤصلت هذه الصخور من قعر البحيرة . وكان الازميل يعمل فيها احياناً لتصحيح بعض خطوطها . ثم تغطس في البحيرة ثانية لتبقى في قعرها عاماً او نحوه ، وذلك لتزول اثار الازميل عنها بواسطة حركة المياه .

ولعل من الاسهل فهم المشاعر تجاه الاشجار ، لأنها مشاعر شاملة بالطبع . فالبيوت التي لا تحيط بها الاشجار تكون عارية ، تماماً كالرجال والنساء بلا ملابس . والفرق بين الاشجار والبيوت ان الاخيرة تبنى وان الأولى تنمو ، ولا ريب في ان كل ما ينمو يكون دائماً اكثر جمالاً في العين من الذي يبنى . وهناك اعتبارات المنافع العملية التي ترغمنا على ان نبني جدراننا مستقيمة وطبقات بيوتنا مستوية ، ولكن ليس ثمة مايدعو بالنسبة الى ارض الغرف المختلفة ان لا تكون على مستويات مختلفة ايضاً . وهناك على أي حال ميل حتمي الى المطالبة بالخطوط المستقيمة والاشكال المربعة ،ولكن منظرها لا يمكن ان يصبح مقبولاً ، الا إذا كانت مصحوبة بالاشجار . ونحن لا نجرؤ بالنسبة الى الالوان ، على دهان بيوتنا باللون الاخضر ، ولكن الطبيعة تجرؤ ، وقد صبغت اشجارها بهذا اللون .

وتتمثل حكمة الفن في إخفائه . ونحن نتلهف دائماً على التظاهر . وهنا لا بد من اطراء مفكر عظيم يمت الى اسرة مانشو، وهو يوان يوان، فقد تمكن كحاكم، من بناء جزيرة صغيرة في مياه البحيرة الغربية، ويطلق عليها الآن اسم جزيرة

الحاكم يوان . ورفض ان يدخل اليها أي صرح من صنع الانسان ، سواء كان دهليزاً او عموداً او تمثالاً . وقد نسي تماماً انه مهندس معماري عظيم . وتقف اليوم جزيرة الحاكم يوان في وسط البحيرة ، كقطعة مستوية من الارض لا يزيد قطرها على مائة ياردة . ترتفع نحواً من قدم فوق سطح الماء ، ومزروعة كلها باشجار الصفصاف . وعندما تقف اليوم متطلعاً اليها ، في يوم شديد الضباب ، تبدو لك البحيرة السحرية وكأنها طالعة من الماء ، وتعكس اشجار الصفصاف ظلالها على الماء . محطمة ما في سطح البحيرة من رتابة ، ومنسجمة مع ما حققته . وهكذا تكون جزيرة الحاكم يوان منسجمة كل الانسجام مع الطبيعة . وقد لا تكون بارزة للعين كالتمثال القائم على شكل فنار والمجاور لها ، والذي بناه طالب عاد من امريكا ، لكني اقول ان مرأى هذا التمثال يضايق ناظري كلما تطلعت اليه . ولقد اعلنت جهاراً انني اذا تحولت ذات يوم الى جنرال ثائر ، واستوليت على هانشو ، فان اول ما سأفعله كعمل رسمي هو ان احطم هذا الفنار بقنبلة من مدافعي .

ويبدو ان نقاد الصين وشعراءها ، قد اختاروا من الوف انواع الاشجار ، عدداً معيناً اعتبروا اشجاره صالحة للتمتع الفني ، بسبب ما فيها من خطوط واعوجاجات خاصة تعتبر جميلة في النظرة الجمالية وفي وجهة نظر راسمي المخطوطات . وتقول هذه النظرة انه بالرغم من جمال الاشجار كلها ، فان هناك اشجاراً معينة منها تتميز بلمحة خاصة أو بالقوة أو بالروعة . ولهذا نختار هذه الاشجار من المجموعات كلها ، وتصبح مرتبطة بأحاسيس معينة . ومن الواضح ان شجرة الزيتون العادية ، لا تتميز بالشكل غير المهذب ، ولذا نؤثر عليها شجرة الصنوبر ، وبالرغم من ان شجرة الصفصاف جميلة ، الا انه لا يمكن القول مطلقاً انها « مهيبة الشكل » او « باعثة للالهام ». وهناك على هذا الاساس مجموعة صغيرة من الاشجار التي تظهر دائماً في الرسوم الفنية ، والتي يتغنى بها الشعراء في قصائدهم . ولعل أبرزها شجرة الصنوبر التي تسر الناظر اليها بفخامتها ، وشجرة البرقوق لما في شكلها من رومانسية ، وشجرة

الخيزران لما فيها من رقة الخطوط ولما توحي به الى الانسان من قربه من النبيت ، وشجرة الصفصاف لما فيها من جمال ، تذكر الانسان بالغادة الهيفاء .

ولعل شجرة الصنوبر ، كانت دائماً الشجرة الأثيرة عند الفنانين والشعراء . فهي تجسد أكثر من أية شجرة اخرى مفهوم نبل السلوك . فهناك أشجار نبيلة وأخرى غير نبيلة ، وهناك أشجار تتميز بسلوكها العظيم وأخرى بسلوكها العادي. ولذا تحدث الفنانون الصينيون عن السلوك العظيم والقديم لشجرة الصنوبر بنفس الاجلال الذي تحدث به ماثيو ارنولد [١] عن شاعر الاغريق هومر . وقد يكون من المتعذر التطلع إلى هذا السلوك العظيم في الصفصاف بين الأشجار ، كما أن من المتعذر التطلع اليه عند سوينبرن [٢] بين الشعراء . فهناك صور عدة للجمال ، منها جمال الرقة ، وجمال الجلال ، وجمال المهابة ، وجمال الغرابة ، وجمال الخشونة ، وجمال الاناقة ، وجمال القوة ، وجمال الايحاء بالقدم . ولعل هذا الايحاء هو الذي يعطي شجرة الصنوبر مركزاً خاصاً بين الأشجار ، كما تكون حياة العزلة التي يعيشها المفكر الناسك وقد ارتدى معطفاً واسعاً ، وأمسك بعصى من الخيزران في يده يستعين بها في مشيه في الطريق الجبلي ، هي التي تجعل منه النموذج الرفيع للرجل . ولعل هذا أيضاً هو الذي يدفع لي ليوينج إلى القول بأن الجلوس في بستان مليء باشجار البرقوق والصفصاف والأزاهير دون

---

(١) ناقد واديب وشاعر انجليزي مشهور . عاش في القرن التاسع عشر . درس في جامعة اوكسفورد . هوى الشعر والادب في حداثته ، ونشر في عام ١٨٤٩ اول مجموعة من اغانيه . ومن اشهر قصائده « امبيدوكليس على بركان اتنا » . عرف بآرائه المتطرفة التي خالف فيها تعاليم الكنيسة .

(٢) الجرنون تشارلز سوينبرن (١٨٣٧ - ١٩٠٩) شاعر انجليزي ، ولد في لندن ، درس في ايتون واكسفورد ، ولم يحصل على اية شهادة ، كتب مسرحيات شعرية لم تكن ناجحة كثيراً منها « الملكة الأم » و « روزاموند ». نشر عدداً من دواوين الشعر وتعرض لحملات شديدة من النقاد . كان الهامه محدوداً واكثر من التقيد بقيود اللغة .

— المعرب —

وجود أية شجرة من أشجار الصنوبر ، هو كالجلوس في صحبة عدد من الأطفال الصغار والنساء دون وجود استاذ كبير أو رجـــل شيخ يمكن للأنسان أن يتطلع اليه . ولعل هذا هو السبب أيضاً في إعجاب الصينيين بأشجار الصنوبر القديمة أكثر من اعجابهم بالأشجار الفتية ، إذ كلما كانت الشجرة أطول عمراً ، كلما كانت أكثر مهابة وجلالاً . وتقف شجرة الأرز في صف واحد مع شجرة الصنوبر ، لأنها تتمتع بنفس المنظر ، ولا سيما منظر فروعها التي تتدلى وتتشابك. وبينما تكون الفروع التي تمتد إلى أعلى نحو السماء تمثل الشباب والتطلع ، تكون تلك المتجهة إلى الأرض مجسدة منظر الشيخ العجوز الذي ينحني أمام الشباب .

وإني لأقول أن التمتع بأشجار الصنوبر أمر مهم من الناحية الفنية ، لأنـــه يمثل السكون والجلال والعزلة عن الحياة ، وهي ظواهر يتميز بها الناسك الزاهد ، ومن هنا يرتبط هذا التمتع ، كما نرى في الأدب الصيني بالصخور « الصمّاء » وبصور الشيوخ ، يستلقون في ظلالها . وعندما يقف انسان تحت شجـــرة صنوبر يحس وهو يتطلع اليها بهيبتها وجلالها ، وشيخوختها وسعادتهـــا باستقلالها . ويقول لاوتسي « أن الطبيعة لا تتكلم » كما أن شجرة الصنوبر العجوز لا تتكلم . فهي تقف صامتة ، وقورة ، وهي تتطلع من مكانها السامق علينا ، متخيِّلة انها رأت الكثيرين من النـــاس من أمثالنـــا يكبرون ، ثم ينتقلون إلى الكهولـــة فالشيخوخة . وهي كالحكماء الشيوخ ، تفهم كل شيء ، ولكنها لا تتحدث ، وإنما تظل في غموضها وعظمتها .

ويتركز التمتع بشجرة البرقوق في شكلها الرومانسي من ناحية ، وفي أريج زهورها من الناحية الأخرى . ولعل من الغريب أن الأشجار الثلاث المنتقـــاة لتمتعنا الشعري ، وهي شجرة الصنوبر وشجرة البرقوق ، وشجرة الخيزران ، مرتبطة بالشتاء إذ تسمى بصديقات الشتاء الثلاث ، وذلك لأن الصنوبر والخيزران دائمي الخضرة ، بينما تفتح براعم البرقوق في نهـــاية الشتاء واستهلال الربيع . وتجسد شجرة البرقوق بصورة خاصة ، طهر الطبيعة ، وهو الطهر الذي نراه في

هواء الشتاء البارد ذي الصرير . وروعة هذه الشجرة روعة باردة ، وهي تشبه الناسك ، في أنها تحس بالسعادة ، وتترعرع كلما زادت برودة الطقس . وهي تجسد كزهرة الاقحوان، فكرةالسحر فيالعزلة. ويقولشاعر صيني زاهد، يسمى لين هوشينج انه جعل من أشجار البرقوق زوجاته ، ومن طائر اللقلق ولداً له . ويحج الشعراء والمفكرون اليوم إلى المكان الذي كان يتنسك فيه في كوشان في قلب البحيرة الغربية، ويقف على مقربة من ضريحه ، قبر ولده « اللقلق ». ولعل أروع وصف لشجرة البرقوق، برائحتهاالعابقة وخطوطها، يبدو فيبيت منالشعر نظمه هذا الشاعر قال فيه ...

«تسبح رائحتها الواهنة في كل مكان ، وتنحني ظلالها على ما حولها». ويجمع النقاد على أن هذا البيت من الشعر ، قد لخص لباب جمال شجرة البرقوق تلخيصاً لا يمكن لشاعر آخر أن يصل اليه .

وتحب شجرة الخيزران لما في جذعها وأوراقها من هيف ورقة ، وكلما ازدادت رقتها ، كلما ازداد تمتع المفكر بها في عزلته في بيته . ويشبه جمالها ، الجمال الباسم ، وتكون السعادة التي تبعثها بمرآها في نفوسنا وديعة ولطيفة ، ويزداد جمال الخيزران كلما ازداد رقة وهيفاً وتفرقاً . ولذا يكفي لضمان الجمال في واقع الحياة أو في الصور الفنية ان تكون هناك شجرتان أو ثلاث، ولا حاجة إلى وجود غابة. ولعل تقدير شكلها الرقيق، يجعل في امكان الرسام، ان يصور مجرد فرعين أو ثلاثة من فروعها في رسمه ، تماماً كما يكفيه ان يرسم فرعاً واحداً من أزاهير البرقوق ، للتعبير عن جمال شجرته . وتنسجم خطوط الخيزران الرقيقة مع خطوط الصخور غير المشذبة ، ولذا كثيراً ما نجد في الرسوم الفنية مجموعة من الصخور إلى جانب مجموعة من أشجار الخيزران . ولا شك في أن هذه الصخور ترسم لتظهر جمال الرقة في الخيزران .

وينمو شجر الصفصاف في كل مادة ، وعادة إلى جانب ضفاف الأنهار والبحيرات . ولعل شجرة الصفصاف هي الانثى بين الأشجار . وهذا هو الذي

دعا شانج شاو إلى اعتبار شجرة الصفصاف واحدة من الأشياء الأربعة في الكون التي تمس شغاف فؤاد الانسان ، وتؤثر عليه ، وتجعله يتساق مع عواطفه . ويقال عن الراقصات الصينيات من ذوات الخصور النحيلة ان لهن « خصر الصفصاف » ، كما تحاول الراقصات الصينيات بأكمامهن الطويلة ، واثوابهن الطائرة ، تقليد حركات فروع الصفصاف وهي تتلقى مداعبة الرياح . ولما كانت هذه الشجرة تنمو بسهولة ، فهناك اماكن في الصين ، تبلغ مساحتها اميالاً عدة ، وهي مغطاة بها ، وعندما تهب الرياح ، تتماوج هذه الأشجار ويطلق على تماوجها اسم « موجات الصفصاف » . ولما كانت العصافير تهوى الهدهدة على غصونها ، فان وجودها كثيراً ما يرتبط في الواقع أو في خيال الرسام بوجود العصافير ، أو بوجود ازيز الحصاد الذي يتعشق ان يجثم على فروعها ، ويحمل احد المناظر الجميلة العشرة التي تحيط بالبحيرة الغربية اسم « الاصغاء إلى العصافير بين موجات الصفصاف » .

وهناك بالطبع أشجار اخرى ، يعجب الناس بكثير منها لأسباب مختلفة كشجرة « الاسترقيولا » ، التي يحبها الشعراء لنظافتها ، ولنعومة لحائها الذي يدونون عليه قصائدهم بأمواسهم . وهناك ايضاً حب شديد للشجيرات المتسلقة من العوسج التي تلف الأشجار الكبيرة أو الصخور بفروعها . ولا ريب في ان تعرجاتها والتواءاتها حول تلك الأشجار ، تظهر عن طريق المفارقة ، ما في استقامة جذوعها من جمال . وكثيراً ما توحي صورة الشجيرة المتسلقة إلى ناظرها ، بصورة التنّين الغافي ، ولذا فهي تحمل اسمه احياناً . ولعل هذا هو السبب الذي يدعو أيضاً إلى الاعجاب بالأشجار ذات الجذوع الملتوية . وهناك أربع من أشجار الأرز من هذا الطراز عند موتو الواقعة على بحيرة تايهو على مقربة من سوشاو ، وهي تحمل اسماء « الشجرة الطاهرة » و « الشجرة النادرة » و « الشجرة القديمة » و « الشجرة الأنيقة » . وتتميز « الطاهرة » بطولها واستقامة جذعها ، وانتشار غصونها في قمتها و كأنها مظلة. أما « النادرة » فتقعى على الأرض وتمتد في ثلاثة خطوط ملتوية تشبه حرف

« Z » في الانجليزية . أما « القديمة » فعارية في قمتها وعريضة في جذعها ، وقد جف نصف أغصانها وأصبحت شبيهة باصابع الشيخ العجوز. أما «الأنيقة» ، فتتلوى صاعدة في شكل حلزوني حتى تصل إلى غصونها العالية .

ولا شك في أن التمتع بالأشجار لا ينحصر فيها وحدها ، وإنما على أساس ارتباطها بعناصر اخرى في الطبيعة كالصخور والسحب والطيور والهوام والبشر ، ويقول شانج شاو... «تؤدي زراعة الأزهار إلى دعوة الفراشات للالتفاف حولها ، ويؤدي تجميع الصخور إلى دعوة السحب للتجمع فوقها ، وتقود زراعة أشجار الصنوبر إلى دعوة الريح للهبوب عليها... وتؤدي زراعة أشجار الموز إلى هبوط المطر كما تؤدي زراعة أشجار الصفصاف إلى مجيء ازيز الحصاد ». ويتمتع المرء بتغريد الطيور حيث توجد الأشجار ، كما يتمتع بأصوات صرار الليل حيث توجد الصخور ، اذ ان الطيور لا تغرد الا على الأشجار ولا يطلق الصرّار ازيزه إلا بين الصخور . ولا ريب في ان الصينيين يؤثرون نقيق الضفادع وسقسقة الصرار ، وأنغام أزيز الحصاد على حب القطط والكلاب وغيرها من الحيوانات الأليفة . ولعل طائر اللقلق ، هو الوحيد من بين الطيور الذي يمت إلى نفس فئة أشجار الصنوبر والبرقوق ، إذ انه يجسد ايضاً الوحدة والعزلة . وعندما يرى المفكر اللقلق أو مالك الحزين ، يقف جامداً عن الحركة في مستنقعات ماء منعزل بعيد ، وفي وقفته الانفة والأناقة والطهر والصفاء ، يتمنى هذا المفكر لو أنه كان لقلقاً أو مالكاً الحزين .

وتبرز الصورة الأخيرة لانسجام الانسان مع الطبيعة ، وسعادته مع سعادة الحيوانات فيما كتبه شينج بانشياو (١٦٩٣ – ١٧٦٥) في رسالته إلى أخيه الأصغر يعرب له فيها عن رفضه لحبس الطيور في أقفاصها إذ يقول ...

« وبالنسبة إلى ما سبق قوله لك عن حبس الطير في الأقفاص ، أود أن أضيف ، انني لا أكره حبس الطيور لأنني

لا أحبها، بل لأن هناك طريقة اصلح وأنفع للاعراب عن حبك لها . فالطريقة المثلى للاحتفاظ بالطيور تمثل في زراعة مئات الأشجار حول بيتك ، لتجد فيها الظل الأخضر الوارف الذي تقيم فيه مملكتها وأوطانها. وعندما تفيق من نومك عند الفجر ، وتكون لا تزال تتثاءب في فراشك ، تسمع لحناً جماعيــاً من سقسقة الطيور وكأنــه سيمفونية سماوية . وعندما تكون قــد تركت فراشك وبدأت بارتداء ثيابك ، بعد غسيل وجهـك وتنظيف أسنانك ، وشرب قدحك من الشاي ، تبصر ريشها الرائع طائراً هنا وهنالك ، ولا يكاد احدها يجتذب نظرك ، حتى يكون طائر آخر ، قد صرف انتباهك اليه . حقاً انها متعة لا تضاهى بها رؤية طائر مسكين في قفصه الوحيد. ويجب أن ينبع التمتع بالحياة بصورة عامة من النظرة التي تعتبر الكون ميداناً فسيحاً، والأنهار والبحيرات بركة في وسط هذا الميدان، بحيث تستطيع جميع المخلوقات أن تحيا على سجيتها . فهنا تمثل السعادة الحقة والعظيمة . أوَ يمكن مقارنـة هـذه السعادة من ناحية الرقة والعظمة بمـا يحس بـه المرء من سعادة وحشية من حبس طائر في قفص أو سمكة في جرة ماء ؟ ».

٥ – عن الأزهار وتنظيمها

يبدو أن هناك شيئاً من الصدفة العشوائية في تمتعنا بالأزاهير وبتنظيمها على النحو الذي نعرفه اليوم. ويجب الشروع في التمتع بالأزهار على النحو الذي اتبعناه في التمتع بالأشجـار ، وذلـك عن طريـق انتقـاء انواع رفيعـة منهـا ، على أساس الاحساس بتحديـد مراكزهـا ، وربطهـا بالمشاعـر والبيئات المختلفة . فهناك اولاً موضوع الرائحة الـتي تتردد بـين القوة

والوضوح كرائحة الياسمين ، وبين القوة والرقة كرائحة البنفسج وكذلك بين الترفع والغموض كرائحة « الأوركيديا » الصينية ، ويمكن القول بأن الزهرة تكون اكثر رفعة ، كلما رقت رائحتها ودقّت على حاسة الشم . وهناك أيضاً موضوع الألوان والمظاهر والسحر ، وكلها تتباين بتباين انواع الأزهار . فبعضها يكون أشبه بالمراهقات النفرات المتدفقات بالحيوية ، والبعض الآخر شبيه بالسيدات الهادئات الشاعريات والرقيقات . وتبدو بعضها وكأنها راغبة في أن تشرك الناس في سحرها، بينما يبدو البعض الآخر منها، سعيداً بوجوده العابق، راضية بأن تعيش في أحلامها. ويميل بعضها إلى اللون الفاقع، بينما يتميز البعض الآخر منها بالذوق المرهف . يضاف إلى هذا أن الأزاهير ترتبط دائماً بالبيئة المحيطة بها، وبالفصول التي تتفتح فيها. فنحن نربط دائماً في أنظارنا بين الوردة وبين يوم مشمس مشرق من أيام الربيع ، وبين زهرة اللوتس وبين صباح يوم صائف على مقربة من بركة ماء ، وبين زهرة الاكاسيا وبين خريف الحصاد وأعياد منتصف الخريف ، وبين الاقحوان وبين اكل السرطان البحري في اواخر الخريف ، وبين زهرة البرقوق وبين الثلوج ، بالاضافة إلى أنها ، أي الأخيرة تشترك مع النرجس في تكوين جزء من مباهجنا في رأس السنة . وتبدو كل واحدة منها كاملة في بيئتها الطبيعية ، ولعل ابسط شيء لدى عشاق الأزاهير ، ان يجعلوها تنتصب في أفكارنا لتجسد صور مختلفة لمختلف الفصول ، تماماً كما يذكرنا مرأى شجرة عيد الميلاد بالعيد نفسه .

وتقف الاوركيديا والاقحوان واللوتس كالأزهار المنتقاة في الأدب الصيني ، كالصنوبر والخيزران بين الأشجار، لما فيها من مزايا خاصة تجعلها سيدة الأزاهير، وتعتبر الاوركيديا في مقدمتها لما فيها من جمال صارخ . ويؤثر الشعراء الصينيون زهرة البرقوق على غيرها، وقد سبق لنا ان تحدثنا عنها في الجزء السابق من هذا الفصل، وهي توصف بانها « الزهرة الأولى » لأنها تتفتح مع اطلالة العام الجديد. وتختلف الآراء بالطبع ، اذ كانت زهرة عود الصليب « فونيا » تعتبر على مر العصور ، ولا سيما في عهد اسرة تانج « ملكة الأزاهير » . يضاف إلى ذلك أن

هذه الزهرة نظراً لثرائها في الوانها واوراقها، كانت تعتبر رمزاً للثراء والسعادة، بينما اعتبرت زهرة البرقوق، زهرة الشاعر وزهرة المفكر الفقير الهادىء . ومن هنا كانت الزهرة الأخيرة روحية، بينما كانت الأولى مادية. وكان هناك مفكر واحد ، اعرب عن عطفه على زهرة الفونيا (عود الصليب) ، لأنها كانت الوحيدة بين الأزاهير التي تحدت أمر الامبراطورة «وو» من اسرة تانج، عندما أصدرت في لحظة من لحظات نوباتها الجنونية امراً إلى جميع الأزهار في الحديقة الامبراطورية، بأن تتفتح وتزهر في يوم معين في وسط الشتاء ، لأنها رغبت في تفتحها . وكانت الفونيا هي الوحيدة التي جرؤت على تحدي جلالتها الامبراطورية ، فتفتّحت بعد بضع ساعات من الموعد المحدد ، وأمرت الامبراطورة على الأثر بابعاد الالوف من أصص هذه الزهرة بمرسوم امبراطوري من العاصمة سيان إلى لويانج. وظل حب هذه الزهرة منتشراً بالرغم من سخط الامبراطورة عليها، واصبحت لويانج مركزاً لوجودها . واني لأعتقد ان سبب عدم اهتمام الصينيين بالورد ، يرجع إلى ان لونه وشكله يشبهان لون الفونيا وشكلها ، وان كانت الاخيرة تفوق الوردة في جلال منظرها . وتقول المصادر الصينية القديمة انه كان هناك تسعون نوعاً من انواع هذه الزهرة، وكان كل نوع منها يحمل اسماً شاعرياً خاصاً.

وتجسد الاوركيد، على النقيض من الفونيا ، سحر العزلة ، لانها توجد دائماً في الوديان الظليلة المهجورة. ويقال انها تحظى بفضيلة « التمتع بسحرها الوحيد »، دون ان تكترث بما اذا كان الناس يتطلعون اليها ام لا، عزوفة كل العزوف عن الرغبة في الانتقال إلى المدينة . ولو وافقت هذه الزهرة على الانتقال ، فانها تشترط ان تزرع وفقاً لرغباتها والا فانها تموت. ومن هنا كان الحديث دائماً عن الفتاة الجميلة المنعزلة ، أو عن المفكر العظيم الذي يعيش بعيداً في الجبال مستهيناً بالسلطان والشهرة، كما تعيش زهرة الاوركيد المنعزلة في واد مهجور ، ورائحتها خفية ماكرة، وكانها لا تريد ان تبذل اي جهد لامتاع انسان، ولكن عندما يتفهم الانسان رائحتها ، يحس بسعادة سماوية . وهي لهذا ترمز إلى السيد الذي لا يهتم بارضاء الناس ، كما ترمز إلى الصداقة الحقة ، اذ جاء عنها في كتاب قديم ... « يتوقف المرء عن الاحساس برائحة الاوركيد عندما

يدخل بيتاً يعج بهذه الأزاهير ويعيش معها امداً طويلا ، لانه يصبح جزءاً منها ». ونصح لي ليوينج الراغب في التمتع بالاوركيد ان لا يضع ازاهيرها في جميع الغرف بل في غرفة واحدة ، وان يسعد برائحتها كلما مر بهذه جيئة وذهاباً . ولا تحمل زهرة الاوركيد الامريكية نفس الرائحة الماكرة التي تحملها الزهرة الصينية ، ولكنها تتميز عنها في كبرها وجلال شكلها والوانها . ويقال ان المدينة التي انتمي اليها تضم اروع ازهار الاوركيد في الصين ، ويطلق عليها اسم « اوركيد فوكيين ». وتكون الزهرة فاتحة الخضرة، مع نقاط مخملية في وسطها . ولا يعدد طول تويجاتها بوصة واحدة . ولعل اجمل انواع هذه الزهرة ، ذاك المسمى « شين مينجليانج » ، اذ يتميز بلون لا يكاد يرى عندما تغطس الزهرة في الماء. لانها تحمل نفس لون الماء. وتختلف الاوركيد عن الفيونيا في ان انواعها المشهورة لا تسمى باسماء الاماكن التي توجد فيها كالفونيا وانما باسماء اصحابها كزهرة « الجنرال بو » و « امين الميرة شون » و « القاضي لي » و « الاخ الثامن هوانج » و « شين مينجليانج » و « هسو شينجشو ».

ولا ريب في ان الصعوبة البالغة في زراعة الاوركيد ، وما تتميز به هذه الزهرة من رقة ، قد أسهما في رفعة شأنها بين الازاهير . ولعلها الوحيدة بين الازهار التي تذوي بسهولة او تجف اذا أسيء التصرف بها . وهذا هو السبب الذي يحمل عاشق الاوركيد على العناية بها بنفسه ، دون ان يكل امرها الى خدمه، ولقد رأيت اشخاصاً يعنون بها بحنان لا يقل عن حنوهم على ابائهم . ولقد اثارت بوصفها من الازاهير الثمينة موجات الحسد والكراهية بين الاصدقاء ، وكأنها قطعة نادرة من البرونز أو الصيني ، اذ كثيراً ما يرفض الصديق ان يعطي صديقه شتلات منها . وتروي السجلات الصينية قضية مفكر رفض صديق له ان يعطيه بعض شتلاتها ، فسرقها وأدين بالسجن لسرقته . وعبر شين فو في كتابه « فصول ستة عن حياة عائمة » عن هذا الاحساس على النحو التالي :

« تعتبر الاوركيد في المرتبة الاولى بين الازاهير بسبب رائحتها الخفية وسحرها الرائع ، ولكن كان من العسير دائماً الحصول على الانواع التقليدية الفاخرة منها . وعندما توفي

سانبو ، اوصى لي بأصيص من اوركيد الربيع، تتميز ازهارها بتويجات تشبه تويجات اللوتس . وكانت تتسع في وسطها الذي يبيض لونه ، كما كانت تويجاتها نظيفة وفروعها رقيقة . وكان هذا النوع من الانواع التقليدية ، وقد قدرت الهدية وكأنها قطعة من الزمرد الثمين . وكانت يون تعنى بها شخصياً ، عندما اكون في عملي بعيداً عن البيت ، ولذا اينعت ايناعاً رائعاً . وماتت الزهرة بصورة مفاجئة بعد نحو من عامين . وحفرت التراب عن جذورها فرأيتها بيضاء كالرخام ، ولم يكن هناك شيء في جذعها . ولم استطع في البداية فهم السبب في موتها ، وانما عزوته وانا اتألم الى سوء طالعي ، الذي لا يستحق ان يملك مثل هذه الازاهير . واكتشفت فيما بعد ، ان احدهم كان قد طلب من يون بعض الفروع من الزهرة ، فلما رفضت اعطاءه ، قتلها بصب الماء الغالي عليها . واقسمت بعد ذلك ان لا ازرع الاوركيد في حياتي » .

والاقحوان هي زهرة الشاعر طاو يوانمينج كما كانت زهرة البرقوق زهرة الشاعر لين هو شينج ، واللوتس زهرة العقيدة الكونفوشيوسية ورجلها شوليينشي . ولما كانت هذه الزهرة تتفتح في اواخر الخريف فأنها تشترك معه في فكرة « الرائحة الباردة » و « الجمال البارد » . وفي الامكان رؤية التباين بوضوح وسهولة بين جمال الاقحوان البارد وبين جمال « الفيونيا » الصارخ . وهناك مئات الانواع المختلفة ، وانا اذكر ان مفكراً كبيراً يدعى فان شينجتا، عاش في عهد اسرة سونج ، كان الذي ابتدع عادة تسجيل الانواع المختلفة وقد حملها اجمل الاسماء . ويبدو ان التنوع هو جوهر زهرة الاقحوان ، أي التنوع في الشكل واللون . ويعتبر اللونان الابيض والاصفر اللونين التقليديين للزهرة ، بينما يعتبر الاحمر والمخملي من الالوان الخارجة ولذا فهي تحمل درجة خفيضة وقد استخدم اللونين الابيض والاصفر في ظهور اسماء الانواع المختلفة « كالقدح الفضي » و « الاجراس الفضية » و « الاجراس الذهبية » و « الحوض اليشبي » و « الاجراس اليشبية » و « الكرة المزخرفة باليشب » . وحملت بعض الانواع

اسماء بعض مشاهير الحسان من امثال « يانج كويفي » و « هسيشي » . وكثيراً ما شابهت في اشكالها شعر سيدة مقصوص ، أو خصائل شعر منسدلة . ولبعض هذه الانواع رائحة تفوق غيرها ، ويفترض في الانواع الجيدة منها ان تحمل رائحة المسك ، أو رائحة بخور يطلق عليه اسم « مخ التنين » .

وتؤلف زهرة اللوتس أو زنبقة الماء ، طبقة خاصة من الزهر ، واني لأراها اجمل الازاهير ، وذلك اذا نظرنا الى الزهرة بجذعها واوراقها السابحة في الماء ككل . وقد يكون من المتعذر التنعم بالصيف دون ان يكون الانسان محاطاً بازهار اللوتس ، واذا كان الانسان لا يملك بيتاً مجاوراً ابركة الماء ، ففي وسعه ان يزرعها في جرار من الفخار . ولكنه يفقد في هذه الحالة الكثير من منظر الزهر الذي ينتشر على مسافة نصف ميل ، واريجها الذي يفوح في الهواء ، وبراعمها البيضاء المخططة بالأحمر ، وقد ظهر جمالها عن طريق تباينها مع اوراقها الخضراء العريضة ، والماء يسيل عليها وكأنه لآلىء سائلة . وتختلف الزنبقة الامريكية عن زهرة اللوتس . وكتب المفكر شو الذي عاش في عهد اسرة سونج رسالة اوضح فيها اسباب حبه لزهرة اللوتس وأوضح انها كالسيد المهذب ، تنبت من الماء القذر ولكنها لا تتلوث به . وكان يتحدث كأي انسان يتمسك بالعقيدة الكونفوشيوسية . ويمكن الانتفاع بكل جزء من الزهرة ، فجذورها تستخدم في اعداد شراب مرطب ، واوراقها تستعمل في لف الفواكه والاطعمة التي يراد تسخينها ، وأزهارها تستخدم في تمتع الانسان بشكلها واريجها ، وأما بذورها فتعتبر غذاء الحواري ، وتؤكل اما طازجة أو بعد تجفيفها ومزجها بالسكر .

وتحظى زهرة الهتيانج التي تشبه براعم التفاح ، بشهرة واسعة عند الشعراء تفوق شهرة اية زهرة اخرى ، وان كان توفو لم يذكرها مرة واحدة بالرغم من نموها في المقاطعة التي نشأ فيها وهي زيشوين . وهناك تفسيرات عدة لذلك ، ولعل اكثرها منطقاً ذاك الذي يقول ان أمه كانت تسمى هتيانج ، ولذا فقد تجنب ذكر الزهرة احتراماً لأمه . وهناك زهرتان أوثر رائحتهما على الاوركيد وهما الاكاسيا والنرجس . وتنبت الزهرة الاخيرة بصورة خاصة في مدينة شانشاو والتي نشأت فيها ، وكان تصديرها الى الولايات المتحدة الامريكية يؤمن

مئات الألوف من الدولارات الى ان رأت وزارة الزراعة الامريكية ان من الخير حرمان الشعب الامريكي من هذه الزهرة ذات الرائحة السماوية لوقايتهم من انتقال بعض الميكروبات عن طريقها . ولا شك في ان فكرة هذه الميكروبات سخيفة للغاية ، إذ ان عيدان النرجس بيضاء ونظيفة وكأنها قوام حورية من حواري الجنان ، وهي تغري الانسان بان يضعها في اقداح الزجاج او اصص الصيني لا في الوحل . وتعتبر « الاضاليا » زهرة حزينة ، بالرغم من جمالها البسّام ، اذ يقال انها نبعت من نقاط دم طائر الوقواق الذي قيل انه كان قبل حلول روحه ، صبياً يبحث عن اخيه الضائع الذي طردته امرأة أبيه من البيت.

ويعتبر ترتيب الازاهير في اصصها مهماً كأهمية اختيار انواعها وتصنيفها . ويمثل هذا الترتيب فناً ترجع اصوله الى القرن الحادي عشر على اقل تقدير . ويعرض لنا مؤلف كتاب « فصول ستة عن حياة عائمة » ، وهو الكتاب الذي وضع في مستهل القرن التاسع عشر ، وصف فن ترتيب الازاهير بحيث تماثل صورة فنية ، وذلك في فصل عن « مباهج الحياة الصغيرة » يقول فيه ...

« كانت زهرة الاقحوان ، هي الزهرة التي احبها في كل خريف من كل عام . وكنت احب ترتيب هذه الازاهير في اصصها ، لا ان اعنى بزراعتها في قواريرها . ولم يكن هذا ناشئاً عن عدم ميلي الى الزراعة ، وانما نشأ عن افتقار بيتي الى الحديقة ، والى عجزي عن العناية بها شخصياً ، وعندما يرتب الانسان ازهار الاقحوان في « مزهرياتها » عليه ان يختار عدداً فردياً منها لا زوجياً ، وان تكون محتويات المزهرية الواحدة من لون واحد. ومن الضروري ان يكون حلق المزهرية واسعاً، حتى تقف الازاهير بيسر الى جانب بعضها البعض . وسواء أكان عددها صغيراً ام كبيراً ، فيجب ترتيبها بحيث تخرج كلها منتصبة من حلق المزهرية دون ان تكون مضغوطة على بعضها أو منتشرة ، ودون ان تتدلى على اطراف المزهرية. وفي الامكان جعلها منتصبة دائماً كما ان في الامكان نشرها في اتجاهات

مختلفة . ورغبة في الخلاص من رتابة المنظر ، يجب خلطها ببعض البراعم غير المتفتحة ، وان يكون توزيع هذه البراعم بينها ، بشكل غير هندسي . ويجب ان لا تكون الاوراق كثيفة ، ولا العيدان صلبة قاسية . وعلى المرء اذا استخدم الدبابيس في الامساك بالعيدان ان لا يجعلها واضحة للعيان . ويطلق على هذه العملية اسم « الاحتفاظ بوضوح حلق المزهرية » . وعلى المرء ان يضع عدداً من المزهريات يتردد بين الثلاث والسبع على المنضدة ، حسب حجمها ، إذ لو اكثر منها لبدت المنضدة مكتظة بالمزهريات ، وظهرت وكأنها نافذة عرض للاقحوان في السوق . ويجب ان يختلف طول قوائم المزهريات ويتردد بين ثلاث او اربع بوصات وبين قدمين ونصف القدم ، بحيث توازن المزهريات المختلفة في طولها بعضها البعض ، وبحيث يخلق الانتماء بينها وكأنه الانتماء الذي يظهر في وحدة الرسم . ولا شك في ان وضع مزهرية عالية في الوسط وإحاطتها من جانبيها بمزهريتين اقل منها ارتفاعاً ، أو وضع مزهرية خفيضة في المقدمة واخرى عالية وراءها ، أو وضعها في ازواج متناسقة ، يعتبر خلقاً لصورة رخيصة الذوق . ويجب ان تعتمد المسافات بين الزهريات وترتيبها على ذوق الانسان في تأليف الصورة او الرسم .

« وفي حالة استخدام اطباق مفتوحة أو اقداح للازهار ، تكون طريقة اسناد الازهار بخلط مزيج من الصمغ النظيف بلحاء نبات الفرغاج ، ومع قليل من الدقيق والزيت ، ثم تسخين المزيج الى ان يصبح نوعاً من الغراء ، تدهن به المسامير وتلصق بلوح من النحاس . ويمكن تسخين هذا اللوح بعد ذلك والصاقه بقعر القدح أو الطبق . وعندما يبرد اللوح ، تربط

الازهار في مجموعات بأسلاك معدنية وتلصق على هذه المسامير ، ويجب السماح للازاهير بالميل الى الجوانب ، وعدم ابقائها منتصبة وبارزة من الوسط ، ومن المهم ايضاً ان لا تشد العيدان والاوراق الى بعضها . وبعد اتمام هذه العملية يصب بعض الماء في القدح . ويغطى المسند النحاسي برمل ابيض نظيف ، بحيث تبدو الازهار وكأنها نابتة مباشرة من قاع القدح .

« وعندما يقطف المرء فروعاً من الاشجار المزهرة لتزيين المزهريات . عليه ان يتقن قصها وتشذيبها قبل وضعها في المزهرية ، اذ لا يمكن للانسان ان يمضي دائماً لاقتطافها ، وكثيراً ما يكون ما يقطفه الآخرون غير مرض ولا مقنع . وعلى المرء ان يمسك بالغصن في يده ، وان يديره في اتجاهات عدة ، ليرى الطريقة المثلى لوضعه . وعندما يحزم الانسان امره على الوضع الذي اختاره للفرع ، عليه ان يقطع الاغصان الزائدة ، ليظهر جميلاً ونحيلاً . وعليه بعد ذلك ان يفكر في وضع الجذع في المزهرية ، وفي طريقة انحنائه ، بحيث نضمن عندما يوضع هناك ان تكون الاوراق والازهار في احسن حالاتها . واذا اكتفى الانسان بان يحمل عوداً في يده ، وان يختار له وضعاً مستقيماً في المزهرية ، فان النتيجة تكون في ان الجذع سيتصلب ، والفروع ستكون قريبة من بعضها البعض ، وتدور الازاهير والاوراق في الاتجاه الخاطىء ، خالية من كل سحر وتعبير . واذا اراد المرء ان يجعل من عود مستقيم ، معوجاً ، فعليه ان يقطع بالموسى شدخاً في الجذع وان يدخل فيه حصاة صغيرة ، وآنذاك يصبح العود المستقيم منحنياً . اما اذا كان الجذع ضعيفاً للغاية فتجب تقويته بدبوس او دبوسين . ويمكن بهذا الاسلوب خلق الجمال اللازم للزينة من

أوراق الاشجار واغصان الخيزران، والحشائش العادية، ويمكن وضع اغصان الخيزران جنباً الى جنب مع عيدان الكرمة ومع بعض اوراق الحشائش ، فتبدو اذا رتبت ترتيبـــاً صحيحاً ، شاعرية المنظر »

٦ – مزهريات يوان شونجلانج

ولعل من ابدع ما كتبت عن ترتيب الازهار ، الكتاب ، الذي وصفه يوان شونجلانج الذي عاش في نهاية القرن السادس عشر ، والذي أعتبره من الكتاب الاثيرين لدي. ويقدر اليابانيون هذا الكتاب كل التقدير، ويقال ان هناك مدرسة تحمل اسم « يوان » لترتيب الزهور . وقد استهل مقدمته قائـــلاً : «ان وجود التلال والمياه والازاهير واشجار الخيزران خارج نطاق الصراعات من اجل القوة والسلطان، وانشغال عشاق المجد بمتابعة هذه الصراعات عن التمتع بهذه الأمور، قد جعل المفكر المعتكف ، قادراً على اهتبال فرصته ، واحتكار هذه المواضيع لنفسه . وواضح على اي حال ان التمتع بالمزهريات يجب ان لا يعتبر الامر العادي المألوف ، وانمــا البديل المؤقت لدى الناس الذين يعيشون في المدن ، على ان لا ينسيهم تمتعهم هذا ، السعادة العظمى التي تولدها في نفوسهم رؤية التـــلال والبحيرات.»

وبدأ حديثه بدراسة الاعتبار الذي يقول ان على الانسان ان يكون حذراً في تقبل الازاهير لتزيين مكتبه أو مرسمه ، وان من الافضل ان لا تكون هناك ازهـــار مطلقاً ، على ان تكون هناك انواع مشوشة ، ثم راح يشرح الاشكال المختلفة من المزهريات البرونزية والمصنوعة من الصيني. وهناك طرازان يبرزان، طراز الاثرياء الذين يملكون مزهريات برونزية انيقة من ايام اسرة هان ، والذين تتميز قاعاتهم بالفخامة ، مما يدعو الى أن تكون مزهرياتهم ضخمة وان تضم

ازهاراً عالية ذات تفتحات كبيرة. أما الطراز الثاني، فهو طراز المفكرين الذين يجب ان يختاروا الازهـار ذات الاعواد الصغيرة لمزهرياتهم الصغيرة التي تنسجم مع غرفهم الضيقة . ولعل الاستثناء الوحيد هنا يمثل في زهرتي الفيونيا واللوتس اللتين يجب ان توضعا في مزهريات كبيرة لانهما من الزهور الكبيرة .

وهو يحدد طريقة وضع الازهار في مزهرياتها على النحو التالي ...

« على المرء ان يتجنب جعلها مفرطة التباعد أو مفرطـة التقارب ، ويجب ان لا يكون هناك اكثر من نوعين او ثلاثـة من الزهور في مزهرية واحدة ، ويجب ان يهدف ارتفاع الزهور وترتيبها الى تأليف صورة جميـلة . وعلى المرء عند ترتيبه المزهريات ان يحـذر من وضعها في صفوف زوجية او متناسقة أو مستقيمة . فجمال الزهور يكون في صورتها الطبيعية وعدم انتظامها ، تماماً كنثر توسونجبو الذي يتدفق سلاسة ثم يتوقف فجأة . وكشعر لي بو الذي لا يحافظ على ازدواج القوافي . هذا هو الجمال حقاً . وكيف يمكن ان يوجد الجمال ، عندما تكون الاغصان والاوراق متساوية تماماً ويكون الاحمر مختلطـاً بالابيض ؟ ان هـذا المنظر اشبه ما يكون بالاشجار في باحة دور صغار الموظفين الاقليميين أو البوابات الحجرية المؤدية الى الاضرحة .

« ويجب عند اختيار اعواد الازاهير وقصها ، ان لا تكون من النوع الرقيق أو من النوع السميك للغاية . وعلى المرء ان يستعمل نوعاً واحداً من الازهار ليس إلا ، أو نوعين على اكثر تقدير على ان يرتبـا بشكل يوحي وكأنهما ينبتان من عود واحد ... ويجب ان تكون الازاهير منسقة في حجمها مـع

المزهريات ، على ان لا يزيد طول عودها عن اربع أو خمس بوصات عن المزهرية نفسها . ولو فرضنا ان ارتفاع المزهرية قدمان وانها كانت عريضة في وسطها وقعرها ، فان الازاهير يجب ان لا تزيد على قدمين وست أو سبع بوصات ... واذا كانت المزهرية طويلة وضيقة فيجب ان لا يوضع فيها اكثر من عودين احدهما طويل والآخر قصير ، وقد يكون من الافضل ان يكونا اقصر من المزهرية نفسها . ويجب تجنب احتمال ان تكون الازهار مفرطة في نحافة عيدانها ، كما يجب تجنب ابتعاد الميدان عن بعضها ولا سيما عندما تحزم ، لان هذا يفقدها كل سحر . وعند وضع الازهار في مزهريات صغيرة ، يجب عدم السماح للازهار بان تطول عنها باكثر من إنشين . وينطبق هذا ايضاً على المزهريات الضخمة .

« ويجب ان تضم الغرفة التي توضع فيها الازهار منضدة بسيطة ، ومقعداً مريحاً من الخيزران . ويجب ان تكون المنضدة عريضة وسميكة ، وان تكون مصنوعة من الخشب الجيد وذات سطح مصقول . ويجب ان يبتعد المرء عن استعمال المناضد المطلية بالورنيش ، وذات الاطراف المزخرفة ، كما يجب عدم استخدام المقاعد المطلية بالذهب ، وذات القوائم المزخرفة بالالوان » .

ويتحدث المؤلف عن « استحمام » الزهور أو سقايتها ، فيبدي ادراكاً محبباً لأمزجة الزهور واحاسيسها اذ يقول ...

« فللزهور امزجتها الخاصة وسعادتها واحزانها ، واوقات نومها . ولو قام الانسان بعملية استحمامها في الاوقات الصحيحة أي في الصباح والمساء ، فأنه يؤمن لها بذلك النفع الذي يتحقق

لهــــا من المطر . ويكون اليوم ذو السحب الخفيفة والشمس الهادئة والمغيب والقمر الساطع بمثابة صباح للزهور، بينما تكون العواصف والمطر المنهمر والشمس المحرقة والبرد القارص بمثابة مساء لها . وتكون في اسعد حالاتها عندما تستحم قوائمها في الشمس مـــع وقاية جذوعها الرقيقة من الرياح . وتكون في وضع حزين عندما تبدو هادئة أو ثملة . وعندما يكون النهار ملفوفاً بالضباب . وعندما تكون الفروع مائلة ، ومسترخيـة الى هذا الجانب أو ذاك ، وكأنها عاجزة عن الانتصاب ، فانها تكون غارقة في سبات احلامها . وعندمـــا تبدو باسمة ، ومتطلعة الى هنا وهنالك ، والاشراقة تكاد تشع منها ، فانهـا تكون قد صحت من سباتها.ويجب وضعها وهي في «صباحها» في بيت واسع أو رواق خـــال ، أما في « مسائها » فيجب وضعها في غرفة صغيرة ومعزولة ، ويجب ان تترك هادئة وهي في حزنهـــا ، أما عندما تكون سعيدة ، فانها تبتسم وتصفق بأوراقها ، وتداعب الواحدة منها الاخرى . وعندما تنـــام الزهرة تسدل على نفسها الستائر ، فاذا ما أفاقت راحت تصلح من زينتها . وهي تفعل كل هذا لتبهج طبيعتها وتنظم اوقاتها للنوم والاستيقاظ . وافضل وقت لاستحمام الازهـــار هو « صباحها » ، ثم يأتي بعده وقت نومها ، ثم وقت سعادتهـــا . اما غسلها وقت « مسائها » او حزنها ، فهو بمثابة ايقـــاع العقوبة بها .

« ولعل خير طريقة لغسل الازهار ، استخدام الماء الحلو والرقراق من ينبوع ، وصبه عليها برقة وبكميات صغيرة ، تماماً كالرجل الثمل عندما يصحو إذا ما وقف تحت « الدوش » ، أو كالطل الذي يعتبر غذاء للزهرة . وعلى المرء ان يمتنع عن

لمس الزهرة بيديه او اقتطافها باصابعه ، ولا يمكن اسناد هذه المهمة للحمقى او القذرين من الخـــدم . ويقوم المفكرون الناسكون بسقاية ازاهير البرقوق ، كما تقوم الضيفات الساحرات بسقاية زهرة الهتيانج ، والفتيات الصغيرات الانيقات بسقاية الفيونيا ، والإماء الجميلات بسقاية زهر الرمان ، والاطفــال الأذكياء بسقـــاية الاكاسيا ، والجواري الساحرات بسقاية اللوتس ، والاشخاص البارزون من عشاق القـــدم بسقاية الاقحوان ، والرهبان والنحفاء بسقاية ازهار الخوخ . ويجب من الناحية الاخرى ، عدم سقاية الازهار التي تنفتح في البرد ، وانما تجب حمايتها بستائر من القز الحريري » .

ويقول يوان ان هناك فصائل من الازهار تبدو اذا ما وضعت مع اسناف اخرى غيرها في مزهرية واحدة ، وكأنها السيدة مع خادمتها . ولما كان نظام « الوصيفات » قد عرف في الصين منذ اقدم عصور التاريخ ، فقد نشأت فكرة تقول ان السيدات الجميلات ، يظهرن في منتهى الكمال، اذا كانت الوصيفات الى جانبهن . ويجب ان تكون السيدات والوصيفات في منتهى الجمال ، وان كان طراز جمال السيدة يختلف عن طراز جمال الوصيفة . ولا ريب في ان الوصيفات اللائي لا ينسجمن في مظهرهن مع سيداتهن ، يشبهن الاسطبلات التي لا تنسجم مع « العزبة » الريفية . ويحمل يوان هذه الفكرة الصينية القديمة الى الأزهار ، فيقول ان زهرة الكاميليا ، هي وصيفة زهرة البرقوق في المزهرية ، وان زهور التفـاح والبنفسج هنّ وصيفات زهرة الهيتانج ، وان الورود القرفية اللون هي وصيفات الفيونيا ، وان زهور الآس هن وصيفات زهرة الرمان ، وان الزنابق وصيفات اللوتس ، وان زهور الخطمية هن وصيفات الاكاسيا ، وان هيتانج الخريف هي وصيفات الاقحوان ، وان النرجس وصيفات برقوق الشتاء . وتكون كل وصيفة جميـلة في حد ذاتها ، بل لا تقل جمالاً عن سيدتها ، ولكن هذه الوصيفات يتباينّ ايضاً في سحرهنّ واناقتهن . ولا يعني تشبيه هذه الزهور

بأنها من الوصيفات ، تقليلاً من قيمتها أو من جمالها ، فهي تشبه باجمل وصيفات التاريخ ، اذ تشبه زهرة النرجس مثلاً بانها ليانج يوشينج وهي وصيفة إلهة الغزل في السماء ، وزهور الكاميليا والورد بأنها كوصيفات هسيانجفينج ، وشينجوان في ايام اسرة شين المالكة، وزهرة شانفان بانها في رومانسيتها كوصيفة الشاعرة الراهبة يوهسوناشي .

ويتمسك يوان بالفكرة القائلة بان على كل من يحقق نتائج بارزة في أي ميدان من الميادين حتى ولو كان ميدان لعبة الشطرنج ، ان يحب ميدانه الى حد الجنون ، ثم يطبقها على حب الازهار فيقول ...

« اكتشفت ان جميع الناس في العالم الذين يتميزون ببلادة الحديث ، وقبح الصورة ، هم اولئك الذين يبتعدون عن كل هواية ... فقد كان الاقدمون اذا سمعوا بنوع جديد من الزهور ، ارتحلوا عبر الجبال الشاهقة والوديان السحيقة بحثاً عنها ، دون ان يحسوا بجهد أو تعب ، أو بحر او برد ، ومتجاهلين ما يلقونه من عناء في طوافهم وترحالهم . وكانوا اذا رأوا زهرة توشك على التفتح ، نقلوا اسرّتهم ووسائدهم للنوم على مقربة منها ليروا كيف تنتقل من مرحلة الطفولة الى مرحلة النضج ، ثم كيف تذوي وتموت . وكانوا يزرعون الوف الازاهير في حدائقهم ليدرسوا طرق تنوعها ، أو يحتفظون ببضع منها في غرفهم لاشباع رغباتهم . وكان هناك من يستطيع تحديد حجم الزهرة من شم رائحة اوراقها ، بينما كان في وسع بعضهم ان يحدد الوانها من رؤية جذورها . اجل كان هؤلاء هم عشاق الازهار الفعليون، والذين كانوا يحسون بضعف تجاهها ».

ويتحدث عن التمتع بالازهار فيقول ...

« لا شك في ان التمتع بالازهار اثناء شرب الشاي هو افضل الاوقات ، ثم يلي ذلك التمتع بها اثناء الحديث فاثناء احتساء الخمر . ويعتبر الضجيج والصخب في السلوك وفي الحديث إهانة لارواح الزهور . وعلى المرء ان يجلس صامتاً امامها لا ان يلحق بها الاساءة . وهناك المكان والزمان الصالحان للتمتع بالزهور ، أما محاولة ذلك دون الاهتمام بالاوضاع المناسبة ، فانتهاك لقدسية الزهور . ويكون التمتع بالازهار في الطقس البارد عندما يبدأ الثلج بالسقوط ، أو بعد ان يصحو الجو بعد سقوطه ، أو عندما يكون القمر هلالاً ، او الغرفة دافئة . ويكون التمتع بالزهور في فصل الربيع الدافيء في اليوم المشرق ، او اليوم البارد الى حد ما في قاعة جميلة . أما التمتع بازهار الصيف فيكون بعد سقوط المطر وعند هبوب النسيم المنعش ، وفي ظل اشجار الخيزران الجميلة أو في شرفة تطل على الماء . ويكون التمتع بازهار الخريف في ضوء القمر أو عند المغيب ، أو على شفير رصيف من الحجر ، أو على ممر في الحديقة أو على مقربة من الصخور الشاهقة المحاطة بالاشجار المسنة المتسلقة . واذا كان المرء يتطلع الى الزهور دون ان يربط بينها وبين الريح والشمس والمكان ، أو عندما تكون افكاره تائهة ولا رابط بينها وبين الزهور ، فانه لا يمكن ان يتمتع بها ، بل يكون كمن يتطلع اليها وهو في علب الرقص في الليل او حانات الشراب » .

ويعدد يوان في النهاية اربعة عشر وضعاً « مبهجاً » للزهور وثلاثة وعشرين وضعاً « مهيناً » لها ، وهذه هي...

الاوضاع المبهجة للزهور

النافذة المطلة على منظر فسيح ، الغرفة النظيفة ، الأصص القديمة ذات القوائم الثلاث ، الاحجار الزرقاء ، امواج شجر الصنوبر واصوات الانهار ، الرجل المحب للهوايات والشعر ، الراهب الزائر الذي يحب الشاي ، مواطن شيشاد الذي يصل مصحوباً بالخمر ، الضيوف المرتاحون في غرفة واسعة ، ازهار كثيرة في الحديقة ، وصول الصديق الخالي من الهموم ، الكتب عن زراعة الازهار ، ابريق الشاي وقد تصاعد البخار منه ، الزوجة او الجارية تحدثك عن الازهار .

الاوضاع المهينة للزهور

صاحب الزهور يستقبل الضيوف باستمرار ، الخادم البليد يضع عدداً اضافياً من الاغصان فيضيع الترتيب ، الرهبان العاديون يتبادلون الثرثرة ، الكلاب تتقاتل امام النافذة . الاولاد يغنون في الطريق اغاني رخيصة ، النساء القبيحات الصورة يقطفن الزهور ليزينّ شعورهن بها ، الرجال يناقشون قضايا الترقيات والعلاوات ، الاعراب الكاذب عن الحب ، الشعر يقال بقصد التزلف ، الازهار متفتحة قبل ان يسدد صاحبها ديونه ، الاسرة تسأل عن الحسابات والارقام ، كتابة القصائد عن طريق الاستعانة بالمعاجم ، الكتب الممزقة منتشرة هنا وهناك ، عملاء الحكم ، الرسوم القبيحة ، وجوه الفيران والجرذان ، آثار الثعابين والسحالي ، نوم الخدم ، إنصباب الخمر بعد الشروع في لعبات الخمر ، جوار الحانات واماكن بيع الخمور ، قطع الاوراق وقد دونت عليها عبارات رخيصة .

٧- حكم شانج شاو الشعرية

تبين لنـا ان التمتع بالطبيعة لا يكون عن طريق الفن والرسم وحدهما ، وذلك لأن الطبيعة تؤلف جزءاً من الحياة التي نعيشها ككل . فهي تضم كل ما نسمعه من اصوات ، ونراه من الوان واشكال ، ونحس به من امزجة ، ونعيش فيه من بيئات، وليس الانسان الا ذلك الفنان الذي يرى الحياة فيبدأ في اختيار الامزجة الصالحة من الطبيعة ليوفق بينها وبين مزاجه . وهذا هو موقف جميع شعراء الصين وكتابها ، وإن كنت ارى ان خير تعبير عنه يمثل في الحكم الشعرية التي وضعها شانج شاو الذي عاش في اواسط القرن السابع عشر في كتابـه « اشباح الاحلام الحلوة » . وليس هذا الكتاب في الواقع الا مجموعة من الحكم الادبية القديمة التي جمعت في مؤلفات اخرى ، ولكنها لم تصل في جمالها الى تلك التيوصفها شانج شاو . ولا شك في ان هذه الحكم الادبية متصلة بالامثال الشعبية التي استمد منهـا اتصال القصص الاسطورية التي وصفها اندرسين[1] بالاساطير الانجليزية القديمة واتصال الحان شوبيرت[2] الفنية ، بالاغاني الشعبية القديمـة . ولقد نال هذا الكتاب حظوة ضخمة عند ادباء الصين ، حتى ان مجموعـــة من مفكريها ، قـد اضافوا الى كل من حكمه ، تعليقاتهم عليها ، باسلوب جميل رائع . واني لأجد نفسي مضطراً على أي حال الى ترجمة بعض هذه الحكم التي تحدث فيها عن التمتع بالطبيعة . وللكاتب عـــدد من الحكم القيمة عن الحياة

---

(١) هانز كريستيان اندرسين (١٨٠٥ - ١٨٧٥) - من اشهر كتاب قصص الاطفال في العالم . ولد في بلدة اودنيس في الدينمارك . بـــدأ عمله باعداد مسرح للعرائس ، اصدر أول ديوان شعري له في عام ١٨٣٠ بعنوان « الطفل المشرف على الموت » . اشهر كتبه « اساطير اندرسين » وهو يضم عدداً كبيراً من قصص الاطفال .

(٢) فرانز بيتر شو بيرت (١٧٩٧ - ١٨٢٨) موسيقار نمسوي . ولد في فيينا . درس العزف على البيانو والكمان منذ طفولته . وضع اول الحانه وهو في الثالثة عشرة . من اشهر الحانه «مرجريت والمغزل »، واوبريت « التوأمان ». «والفونسو وايستديلا» و « فيرناندو » وغيرها .
- المعرب -

الانسانية ، وهي تؤلف جزءاً حيوياً من مجموع حكمه ، مما يلزمني بادراج بعضها في النهاية .

عن الشيء الصالح

لا بد للازاهير من فراشات، وللجبال من ينابيع ، وللصخور من طحالب ، وللمـاء من نبات « الرشاد » وللاشجار السامقـة من المتسلقات ، وللبشر من هوايات .

وعلى المرء أن يتمتع بالازهار في صحبة الجميلات ، وأن يثمل في ضوء القمر مع الصحاب ، وأن ينعم بلون الثلوج في صحبة كبار المفكرين .

وتؤدي زراعة الازهار الى دعوة الفراشات ، بينما يؤدي تجمع الصخور الى دعوة السحب ، وزراعة أشجار الصنوبر إلى دعوة الرياح ، وإقامة حوض للماء إلى دعوة الطحالب ، وبناء الشرفات إلى دعوة أشعة القمر ، وزراعـة أشجار الموز إلى دعوة المطر ، وزراعة أشجار الصفصاف إلى دعوة أزيز الليل .

ويحس المرء دائماً بشعور مختلف عندما يطل على الجبال من برج عال ، أو على الثلوج من سور المدينة ، أو إلى القمر في ضوء المصباح ، أو إلى السحب الملونة من زورق يمخر به عباب الماء، أو إلى امرأة حسناء في غرفة .

وتبدو الصخور على مقربة من شجرة البرقوق « قديمة» وتحت شجرة الصنوبر « بليدة » وإلى جانب أشجـار الخيزران رقيقـة ، وفي وسط أصص للزهور بديعة ومشوقة .

وتصدر المياه الزرقاء عن التلال الخضر ، إذ أن الماء يقترض لونه من التلال ،

وتنبع الاشعار الرائعة عن الخمر ذات المذاق الرائع ، لأن الشعر يستلهم وحيه من الشراب .

وعندما تلتقي المرآة بامرأة قبيحة ، ويكون حجر الياقوت ملكاً لانسان رخيص، ويكون السيف المرهف في يد قائد عادي، تفقد هذه الاشياء أهميتها ، ولا تحقق غرضها .

عن الأزاهير والنساء

على المرء أن لا يرى الازهار وهي تذبل ، ولا القمر وهو يختفي وراء الافق، ولا النسوة الجميلات وهن يمتن في ريعان الصبا .

وعلى المرء أن يرى الازهار وهي متفتحة بعد أن يكون قد زرعها ، والقمر عندما يصبح بدراً بعد أن يكون قد انتظره طويلاً ، والنسوة الجميلات وهن مرحات وسعيدات . وما لم يتحقق هذا ، فلن يكون ثمة هدف .

وعلى المرء أن يتطلع الى السيدات الجميلات ، في الصباح بعد أن يصلحن من زينتهن ، ويستعملن مساحيقهن .

وهناك وجوه قبيحة ، ولكن المرء لا يتقزز من رؤيتها ، بينما هناك وجوه ليست قبيحة ، ولكن الانسان لا يستطيع النظر إليهـــا . وهناك كتابات مستساغة حتى ولو خالفت قواعد اللغة ، وكتابات أخرى منفرة ، بالرغم من تمسكها بهذه القواعد . وهذه أمور لا أستطيع إيضاحها للمتصنعين من الناس .

وإذا كان هناك من يحب الازهار كحبه للجميلات، فهذا الشخص يحس برقتها الخاصة ، ويتميز بالرغبة في حمايتها .

وتفضل الجميلات الازهار لأنهن يفهمن لغة الانسان ، ولكن الازهار تفضل الجميلات لأنها تتضوع أريجاً . وإذا لم يستطع الانسان أن يوفر لنفسه المتعتين فليؤثر الجميلات على الازهار .

وعندما يرتب الانسان الازهار في مزهرياتها ، عليه أن يراعي أن تكون سعة المزهرية وارتفاعها ، متناسبة مع عدد الازاهير وارتفاعها ، وأن يكون ظل المزهرية وعمقها ، مختلفين عن ظلال الازاهير وأطوالها .

وتكون معظم الازاهير الجميلة والمغرية عديمة الرائحة ، كما تكون الازاهير التي تملك طبقات من التويجات غير مهندمة الشكل . حقاً إن الكمال نادر ، لكن زهرة اللوتس تجمع بين الشكل والرائحة .

وتدفع زهرة البرقوق المرء إلى الاحساس بالسمو الفكري ، بينما تدفعه زهرة الاوركيد إلى الاحساس بالعزلة ، وتدفعه الاقحوان إلى الاحساس ببساطة القلب ، واللوتس إلى الرضى ، والهيتانج إلى الحب ، والفيونيا إلى الفروسية ، والخيزران والموز إلى الرقة ، وهيتانج الخريف إلى المهابة ، والصنوبر إلى التنسك ، والووتانج إلى طهارة القلب ، والصفصاف إلى غزارة العواطف .

ولو كان لحسناء وجه الزهرة وصوت الكروان وروح القمر وتعبير الصفصاف وسحر البحيرة ، وعظام الحور ، وجلد الثلج ، وقلب الشعراء ، لكانت هذه الحسناء مرضية لي .

ولو لم تكن هناك كتب في هذا العالم ، لما قلنا شيئاً ، أما والكتب موجودة فمن الواجب قراءتها ، ولو لم يكن هناك خمر ، لما قلنا شيئاً ، أما والخمر موجودة فيجب أن نشرب ، كما يجب أن تزار الجبال ، ويجب التمتع بالازاهير والقمر كما يجب حب الجميلات وحماية الموهوبين من الرجال .

لعل السبب في أن المرآة لا تصبح عدوة للمرأة القبيحة هو أنهـا لا تحس بقبحها ، ولو كانت تحس ، لهشمتها وحطمتها .

يحس الانسان بالرقة إلى الزهرة الجميلة في مزهريتها التي ابتاعها ، ولا شك في أن رقته تزداد مع الزهرة التي تتحدث إليه .

لو لم يكن هناك خمر وشعر لما كان لوجود الجبال والماء هدف ، ولا معنى للأزهار والقمر دون صحبة الجميلات . لا يقدر للموهوبين الانيقين ولا للجميلات اللائي يعرفن الكتابة العيش طويلاً ، لا لأن الآلهة تحسدهم وتغار منهم فحسب ، بل لأن مثل هؤلاء هم كنوز الاجيال والعصور لا كنوز جيل واحد ، ولذا فإن الخالق لا يرغب في الابقاء عليهم طويلاً في هذا العالم مخافة تعرضهم للنهب .

عن التلال والمـاء

هناك أشياء تمس شغاف فؤاد الانسان أكثر من غيرها في هذا الكون ، وهي القمر في السماء ، وآلة الشين في الموسيقى ، والوقواق بين الطيور ، والصفصاف بين النباتات .

ولا ريب في أن إزعاج القمر بالسحب ، والكتب بالسوس ، والازاهير بالعواصف ، والموهوبين والجميلات بالقضاء المحموم ، يحتاج إلى قلب كقلب بوذا.

ويموت الانسان غير نادم إذا كان هناك في العالم صديق يسر إليه بمكنونات صدره ويطلعه على خفايا فؤاده .

قال كاتب قديم ، انه لو لم توجد في هذا العالم أزهار وجميلات وقمر ، لما ودّ الحياة في هذا الكون . وأضيف إلى ما قاله هذا الحكيم أنه لو لم يكن هناك قلم وحبر وشطرنج وخمر ، لما كان لحياة الانسان أي هدف .

السحر يكمن في نور التلال وخرير الماء وشعاع القمر ورائحة الزهر وسخر الأدب وتعبير الجمال . ولا شك في أن الأرق ينتاب الانسان وهو يحلم بها ، ويفقد الشهية إذا ما فكر فيها .

ويذكّر مرأى الثلج الانسان بالمفكر الرفيع التفكير ، كما يذكره مرأى الزهرة بالسيدة الجميلة ، والخمر بالفرسان البواسل ، والقمر بالأصدقاء المخلصين ، والتلال والماء بالشعر العذب والنثر السلس .

هناك مناظر جميلة على الارض ، وفي الصور والاحلام ، وفي قلب الانسان . ويمثل جمال المناظر على الارض في عمق الخطوط وافتقارها إلى النظام ، وفي الصور في حرية فرشة المصور ودهانه ، وفي الاحلام في رؤاها المختلفة الغريبة ، وفي صدر الانسان في وجود كل شيء في مكانه المناسب .

وعلينا أن لا نكون متعنتين في مطالبنا الفنية بالنسبة إلى الاماكن التي نمر بها في رحلاتنا ، ولكن لا بد من أن نكون متعنتين بالنسبة إلى الاماكن التي نود الاقامة فيها بصورة دائمة ، لنقضي حياتنا فيها .

وتعتبر جذور الخيزران ظاهرة غريبة بين الخضروات ، كما تعتبر جذور اللوشي ظاهرة بين الثمار ، والسرطان البحري ظاهرة بين الاحياء المائية ، والنبيذ ظاهرة بين ما نأكله ونشربه ، والقمر ظاهرة في الكون ، والبحيرة الغربية ظاهرة بين التلال والبحيرات وقصائد سونج الغنائية وشعر يوان المسرحي ظاهرة في الأدب .

ويجب أن يكون الانسان ذا حظ حسن يحدده القدر ليرى التلال المشهورة والانهار ، وما لم يكن الوقت المقدر قد حل ، فإن الانسان لن يراها ، حتى ولو كانت موجودة على بعد عشرة أميال من المكان الذي يعيش فيه .

وتكون الصور في المرآة رسوماً ملونة أما الصور في ظلال القمر فرسوم

تحددها الخطوط . وتكون صور المرآة رسوماً لها خطوطها الثابتة ، أمـــا الرسوم في ظلال القمر فلا هياكل ثابتة لها . وتكون صور التلال والمياه في ظلال القمر ، مناظر جغرافية في السماء ، أمـــا صور النجوم والقمر في الماء فمناظر فلكية على الارض .

عن الربيع والخريف

يعتبر الربيع المزاج الطبيعي لعقل السماء ، بينما يعتبر الخريف مزاجـاً من أمزجتها المتبدلة .

وكان القدماء يعتبرون الشتاء فصلاً أضيف إلى الفصول الثلاثة ، ولكنني أرى أن علينا أن نعتبر الصيف مكمّب الاضافة ، فالنهوض عند الفجر في الصيف ، إضافة الى الليل ، والجلوس في ليل الصيف إضافة للنهـار ، وقيلولة بعد الظهر إضافة الى الاختلاط الاجتماعي . ولقد قال شاعر قديم ... « حقـاً إني أحب ليالي الصيف الطويلة » .

وعلى المرء أن يفرض على نفسه الانضباط منسجماً مع روح الخريف ، وأن يتعامل مع الآخرين وفقاً لروح الربيع .

ويجب أن يكون للنثر الطيب ولقصائد تانج روح الخريف ، أمـا أغاني سونج وأشعار يوان المسرحية فلها روح الربيع .

عن الأصوات

على المرء أن يرهف السمع لأصوات الطير في الربيع ، ولأصوات أزيز الليل في الصيف ، وأصوات الهوام في الخريف ، وصوت هطول الثـلج في الشتاء .

وعليه أن يصغي لأصوات لعب الشطرنج في وضح النهار ، وأصوات المزمار في ضوء القمر ، وأصوات شجر الصنوبر في الجبال، وأصوات الخرير عند الشواطىء المائية . ولو عمل كل هذا لما عاش حياته عبثاً . ولكن عندما يبدأ متسكع شاب في إحداث ضجة في الشارع ، أو عندما يسمع المرء زوجة تعنف زوجها وتبكته ، فإن على السامع أن يصمّ أذنيه .

ويحس من يسمع أصوات الاوز أنه في نانكين ، ويحس من يسمع حفيف المجاذف في الماء أنه في سوشاو ، وشانشاو وهوشاو ، ويحس من يسمع صوت الأمواج وهي تلطم الشاطىء أنه في شيكيانج ، ويحس من يسمع أصوات الأجراس في رقاب الجياد المطهمة وكأنه يسير في الطريق إلى سيان .

ويجب أن يصغي المرء إلى جميع الأصوات وهو في منأى عنها ، ولعل أصوات آلة الشين الموسيقية هي التي تسمع وحدها من قرب ومن بعد .

ويحس المرء بلذة في أذنيه وهو يستمع إلى موسيقى الشين في ظلال أشجار الصنوبر ، وإلى المزمار في ضوء القمر ، وإلى هدير الشلال عند الجدول ، وإلى أناشيد البوذيين في الجبال .

وهناك أربعة أشكال من أصوات الماء ، وهي هدير الشلالات ، وتفجر الينابيع ، وخرير المياه السريعة الجريان ، وحفيف مسائل المياه . وهناك ثلاثة أشكال من أصوات الريح، وهي أصوات أمواج الصنوبر وحفيف أوراق الخريف واصطفاق العواصف مع المياه . وهناك شكلان من أصوات المطر ، وهما صوت وقوع قطرات المطر على أوراق اللوتس وأصوات مياه الأمطار وهي تندفع من أطناف البناء لتقرع درفات النوافذ .

عن المطر

في وسع ما نسميه بالمطر أن يجعل النهار يبدو قصيراً والليل يبدو طويلاً .

وتبدو صورة مطر الربيع في شكل مرسوم امبراطوري بمنح وسام من أوسمة الشرف، كما يبدو مطر الصيف وكأنه مرسوم عفو صادر عن مجرم مدان، ويبدو مطر الخريف وكأنه لحن من الألحان الجنائزية .

ويكون اليوم الماطر في الربيع صالحاً للقراءة ، بينما يكون في الصيف صالحاً للعب الشطرنج ، وفي الخريف لترتيب حاجات الانسان في حقائبه وخزائنه ، وفي الشتاء لاحتساء الخمر .

وإني لأود أن أبعث برسالة إلى إله المطر ، أطلب إليه فيها أن يهطل المطر في الربيع بعد عيد المصباح في اليوم الخامس عشر من الشهر القمري الأول ، وأن يستمر هطوله ، حتى اليوم العاشر الذي يسبق اليوم الثالث من الشهر القمري الثالث ، وهي اليوم الذي تزهر فيه أشجار الخوخ ، ثم يعود فيهطل في وقت زراعة الأرز ، وأن يهطل في الصيف في الأيام العشرة الأولى والأيام العشرة الأخيرة من كل شهر بحيث لا يحول دون تمتعنا بالقمر في حالات اكتماله ، وأن يهطل في الخريف في الأيام العشرة الأولى والأخيرة من الشهرين السابع والتاسع ، لننعم في الشهر الثامن الخالي من المطر ، بقمر الحصاد ، وأن لا يهطل المطر في أشهر الشتاء الثلاثة على الإطلاق .

عن القمر والرياح والماء

يحس المرء بكثير من الأسى ، عندما يرى الهلال يغطس في الأفق مبكراً ، كما يتألم لرؤية القمر الذابل في الربع الثالث وهو يطل في السماء متأخراً .

ويحس المرء وهو يستمع إلى درس بوذي في ضوء القمر ، بحالة نفسية متنسكة ، بينما يحس إذا ناقش مواضيع الفروسية في ضوئه ، بوحي من الشجاعة يسيطر عليه . ويشعر المرء إذا ناقش الشعر في ضوء القمر ، بروحيته تتجدد وتكتسب سحراً في عزلتها ، بينما يحس إذا تطلع إلى حسناء فاتنة ، بعواطفه تزداد عمقاً .

ولعل أحسن طريقة لمغازلة القمر ، هي أن يتطلع إليه الانسان من مكان خفيض عندما يكون في ذروة وضوحه وإشراقه ، وأن ينظر إليه من علٍ عندما يكون معتماً ، ومفتقراً إلى الإشراق .

وتشبه ريح الربيع الخمر بينما تشبه ريح الصيف الشاي ، وريح الخريف الدخان وريح الشتاء الزنجبيل .

عن الراحة والصداقة

لا ينشغل البعض بما يلهو به الآخرون ، إلا إذا كان أفراد هذا البعض يلهون بما ينشغل به الناس .

وليس ثمة ما هو أمتع للإنسان من وقت الراحة واللهو ، ولكن هذا لا يعني على الإطلاق ، أن الانسان لا يعمل شيئاً طيلة هذا الوقت ، فأوقات الراحة تمكن الانسان من القراءة والسفر إلى أماكن معروفة ، وتكوين صداقات نافعة ، واحتساء الخمر ووضع الكتب ، أوَهناك في العالم متع تفوق هذه ؟

عندما تعكس احدى السحب أشعة الشمس ، تصبح سحابة ملونة ، وعندما تسيل مياه الينبوع فوق الصخور ، تتحول إلى مساقط المياه . وهكذا يحمل

الشيء اسماً جديـــداً ، إذا اقترن بشيء آخر . ولعل هـــذا هو السبب في قيمة الصداقة .

وعندما يحتفل الانسان بعيد المصباح في الخامس عشر من الشهر الأول ، عليه أن يشرب الخمر مع اصدقاء يتميزون باللامبالاة ، وعندما يشربها في عيد زورق التنين في الخامس من الشهر الخامس عليه أن يختار أصدقاءه من الأنيقين، وعندما يحتفل بالذكرى السنوية لاجتماع راعي الأبقار مع الفتاة الغزّاله في السماء في اليوم السابع من الشهر السابع ، عليه أن يشرب الخمر مع اصدقاء يتميزون بعـــذب الحديث وسحره . وعندما يتطلع إلى قمر الحصاد في عيد اواسط الخريف عليه ان يشرب خمره مع أصدقاء يتميزون بالهدوء واعتدال المزاج ، أمـــا عندما يصعد إلى قمم الجبال العالية في اليوم التاسع من الشهر التاسع ، فعليه أن يشرب خمره مع اصدقاء يتعشقون الخيال .

والحديث إلى صديق عالم اشبه ما يكون بقراءة كتاب نادر ، والحديث إلى صديق شاعري اشبه ما يكون بقراءة ما وضعه الشعراء والكتاب العظام من شعر ونثر ، والحديث إلى الأصدقاء الذين يتميزون بالحرص والدقة في سلوكهم اشبه ما يكون بقراءة روائع الحكماء والأقدماء . أما الحديث إلى الأصدقـــاء الأذكياء فأشبه ما يكون بقراءة الروايات او القصص الغرامية .

ويتحتم على كل مفكر هادىء ، ان يتخذ له صديقاً مقرباً إلى قلبه . وأنا لا اعني بالأصدقاء المقربين مجرد أولئك الذين أقسموا على الوفاء لنا طيلة حياتهم فحسب ، وإنما هم الذين يظلون على ايمانهم الصادق بنـــا ، ويرفضون تصديق الشائعات عنا ، حتى ولو كانوا على بعد مئات الأميال أو ألوفها منا ، او اولئك الذين اذا ما سمعوا شائعة سيئة عنا حاولوا نفيها وتبديدهـــا ، اولئك الذين يقدمون لنا النصح احياناً عمّا يجب ان نفعله او لا نفعله ، والذين يسارعون إلى نجدتنا عند الحاجة ، أو الذين يقومون بوفاء دين عنـا دون علم منا أو اتخـاذ

قرار في صالحنا ، دون أن يترددوا لحظـــة واحدة مخافة تعرضهم للنقـــد من أجلنا .

ومن الأسهل على المرء أن يجد مثل هؤلاء الأصدقاء بين معارفه على أن يجدهم عند جواريه أو زوجته . ومن العسير ايضاً ايجاد مثل هذه الصداقة بين الحـاكم ووزرائه .

والكتاب المعروف هو الذي يخبرنا بأشياء لم تقل لنـــا من قبل ، والصديق المقرب هو الذي ينفض عن صدره اثقال همومه بتحدثـــه الينـــا عن اسراره العائلية .

ولا تكون الحياة في الريف متعة الا اذا كان الانسان مصحوباً بنفـــر من خيرة أصحابه. وكثيراً ما يضجر الانسان بسرعة من الفلاحين والحطـّابين الذين لا يعرفون الا التمييز بين مختلف انواع الحبوب ، والا التنبؤ باحـــوال الطقس . ولعل من ينظمون الشعر هم أفضل الأصدقاء ، ويتلوهم أولئك الذين يحسنون الحديث والكلام ، ثم يتلوهم اولئك الذين يجيدون الرســـم ، فاولئك الذين يحسنون الغناء ، واخيراً اولئك الذين يفهمون العاب الشراب .

عن الكتب والقراءة

تمثل قراءة الكتب في عهد الشباب، تطلع الانسان إلى القمر عبر شق صغير ، وتمثل قراءتها وسط العمل ، تطلعه إلى القمر من باحة داره ، بينما تمثل قراءتها في سن الشيخوخة تطلعه اليه من شرفة مكشوفة . ولعل السبب في هذا هو تباين عمق الفوائد من القراءة ، بالنسبة إلى عمق تجارب الانسان .

ولا تصدر الأشياء الجميلة التي تستأثر بلب الانسان الا عن اولئك الذين

يستطيعون قراءة الكتب الخالية من الكلمات ، ككتاب الحياة مثـــلاً ، ولا يستطيع فهم أسمى الحكم البوذية الا اولئك الذين يفهمون الحقائق التي يصعب إيضاحها بالتعبير .

ولقد كتبت روائع الأدب الخالدة من القدماء والمحدثين على حد سواء بالدماء والدموع .

ويعتبر كتاب « جميع الناس اخوة » من الكتب الغاضبة، أما كتاب « قصة القرد » ، فكتاب عن اليقظة الروحية ، وكتاب « برقوقة المزهرية الذهبية » كتاب من الكتب المحزنة .

والأدب منظر جميل يمثـــل على المنضدة ، والمنظر الجميل أدب يقـــوم على الأرض .

والقراءة هي أعظم متع الانسان، ولكن هناك غضباً يفوق المتعة من القراءة. ومع ذلك ، فهناك مسرة في مثل هذا الغضب .[١]

وعلى المرء أن يقرأ الآداب القديمة في الشتاء ، لأن عقـــل الانسان يكون حينئذ اكثر تركيزاً ، وعليه أن يقـــرأ التاريخ في الصيف اذ أن الوقت يكون اكثر توافراً له ، وعليه أن يقرأ فلسفة الاقدمـــين في الشتاء لانهـا تنطوي على افكار رائعة ، وأن يقرأ مجموعات مؤلفات الكتاب المتأخرين في الربيع ، لأن الطبيعة تكون آنذاك قد عادت إلى الحياة .

وعندما يتحدث الادباء عن الشؤون العسكرية ، يكون حديثهم على الورق،

---

(١) تعني كلمة « الغضب » هنا احاسيس الانسان الثائرة عندما يقـــرأ التاريخ عن مصرع رجل ظلم او عن سقوط حكومة في ايدي المستبدين والطغاة والخصيان .

– المؤلف –

أما عندما يتحدث القادة العسكريون عن الأدب ، فان حديثهم يكون مجموعة من الشائعات المستندة إلى السماع .

ويجد الذي يجيد القراءة كل شيء قد تحول إلى كتاب ، حيثما مضى ، فالتلال والمياه تصبح كتباً في نظره ، وكذلك الشطرنج والقمر والأزهار . ويجد السائح الممتاز كل شيء يراه قد تحول إلى مناظر جميلة ، فالكتب والتاريخ يصبحان من المناظر الجميلة ، وكذلك الخمر والشعر والقمر والأزهار .

ولقد ذكر أحد الكتاب القدامى انه يود تخصيص عشر سنوات من عمره للقراءة ، ومثلها للسياحة والترحال ، ومثلها لجمع ما حصل عليه من تجارب وترتيبها. وأنا أعتقد ان عملية الجمع والترتيب لا تستغرق مثل هذا الأمد الطويل ، وان سنتين أو ثلاث سنوات تكفي لها . أما بالنسبة إلى القراءة والترحال ، فأنا أعتقد ان ضعفي الزمن المقترح او ثلاثة اضعافه قد لا تكفي لهما . ولا ريب في ان تحقيق هذه الرغبات على هذا النحو يتطلب ان يحيا الانسان ثلاثمائة عام كما يقول هوانج شيوين .

ويقول الأقدمون ان « الشعر لا يصبح جيداً الا عندما يفشل قائله في حياته او يغدو فقيراً ». ولعل السبب في ذلك ان هناك اشياء كثيرة يضطر الفاشل إلى قولها ، وهنا يكون نفعه من فشله . وكيف يمكن لشعر الأغنياء والفاشلين ان يصبح جيداً وهم لا يألمون لفقر ينزل بهم ، ولا يشكون لعدم ارتقائهم ، وعندما تنحصر المواضيع التي يكتبون عنها في الريح والسحب والقمر والندى ؟ ولعل الطريقة الوحيدة لتمكين مثل هذا الانسان من قول الشعر هي ان يرتحل ويسافر كثيراً ، ليسجل في شعره كل ما يراه من جبال وانهار وعادات وطرائق حياة وآلام انسانية في اوقات الحرب والمجاعة . وهكذا يستطيع هذا الانسان ان يستعير آلام الآخرين ، ليجعل منها موضوع اغانيه وتنهداته ، وبذلك يتمكن من كتابة الشعر الجيد ، دون ان ينتظر حلول الفقر أو الفشل به .

تسند العاطفة قعر الكون بينما تصبغ العبقرية سقفه .

من الأفضل للانسان ان يهينه العاديون من الناس على ان يتعرض للزراية من المهذبين ، ومن الأفضل له أن يرده فاحص رسمي عن بابه ، على ان يجهله مفكر مشهور .

على الانسان ان يعيش وكأنه قصيدة ، وعلى الشيء ان يبدو وكأنه صورة جميلة .

هناك مناظر تبدو بديعة وأنيقة ، ولكنها تكون في الواقع حزينة وضائعة ، كمنظر الضباب او المطر مثلاً . وهناك مواقف تبدو شاعرية ولكنها تكون في الواقع عسيرة على الاحتمال ، كالمرض والفاقة مثلاً ، وهناك اصوات تبدو ساحرة عندما تذكر ، ولكنها تكون في الواقع رخيصة كأصوات الفتيات اللاتي يبعن الزهور مثلاً .

لا استطيع ان اكون فلاحاً ، اذ ان كل ما استطيع فعله هو ان اسقي حديقتي . ولا استطيع ان اكون حطّاباً ، اذ ان جل ما استطيع ان افعله هو ان اجتث الأعشاب الضارة .

هناك عشرة اشياء تؤسفني ، بل وتضجرني وهي : (١) ان محافظ الكتب معرضة للعث و (٢) ان يفسد البعوض علينا ليالي الصيف و (٣) ان الشرفة المقمرة سرعان ما تختفي و (٤) ان اوراق الاقحوان كثيراً ما تذبل و (٥) ان النمل الكبير يملأ اشجار الصنوبر و (٦) ان اوراق الخيزران تتساقط على الارض في كميات كبيرة ، و (٧) ان ازاهير اللوتس والاكاسيا سرعان ما تذوي و (٨) ان نبات « البايلو » يخفي الثعابين عادة و (٩) ان للازاهير على شجيراتها اشواكها و (١٠) أن حيوان الدلدل يكون ساماً عندما يؤكل .

من الجمال على قدر كبير ان تقف خارج نافذة ، وان ترى احـــدهم ، يرسم حروفاً على اوراق النافذة من الداخل .

من الافضل للمرء ان يكون زهرة « الحوسان » التي تدعو النـاس الى نسيان الحزن بين الازاهير ، على ان يكون طائر « مالك الحزين » الذي يذرف دموعاً من الدماء تنبت ازهار « الاضاليا » بين الطيور .

يتمثل الكمال في الحياة في ان يولد الانسان في زمـن يخيم عليه السلام ، وفي منطقة تملؤها الجبال والبحيرات ، وتحكمها حكومة عادلة ومستقيمـة ، وان ينتمي الى اسرة تعيش في بحبوحة من العيش ، وان يبني بزوجة عاقلة ، ويـــلد أطفالاً اذكياء .

يمكّن احتفاظ الانسان بالجبال والوديان في فؤاده ، ان يعيش هذا الانسان في المدينة وكأنه يحيا في الغابات الجبلية ، ولا ريب في ان تعلقه بالسحب يحيل القارة الجنوبية الى جزيرة اسطورية .

يمثل الجلوس في عزلة في ليلة هادئة ، دعوة القمر الى مشاركة المرء احزانه ، كما يمثل الجلوس في عزلة في ليلة رائعة ، دعوة الهوام الى مبادلة المرء همومه .

على المرء اذا كان يعيش في مدينة أن يعتـبر الرسوم مناظره الطبيعيـــة الجميلة ، والصور المصغرة في الجرار الصينية حديقته ، والكتب اصدقاءه .

من الخطأ كل الخطأ ان يطلب المرء من مفكر مشهور تعليم اطفـــاله ، وان يمضي الى جبال مشهورة ليعكف فيها على تعلم كتابة المقالات العـــادية ، وان يطلب الى كاتب مشهور أن يكون ظلّه الادبي .

على الراهب ان لا يمتنع عن الخمر ، إذ أنه لا يحتاج إلا إلى الامتناع عـــن الرخص ، ولا يطلب الى الحسنـــاء الشقراء أن تفهم الأدب وكل ما يطلب منها أن تفهم كل ما هو مثير من الناحية الفنيــة .

على المرء ان يدفع ضرائبه مبكراً ، اذا كان يضايقه ان يطالبه جباتها ، وعليه ان يتبرع بين آونة وأخرى إلى المعابد ، إذا كان يريد التمتع بالحديث إلى الرهبان عن البوذية.

من السهل ان ينسى الانسان كل شيء إلا فكرة الشهرة ، ومن السهل عليه ان يقف موقف اللامبالاة من كل شيء إلا من ثلاثة كؤوس من الخمر .

في وسع الخمر أن يحل محل الشاي ، ولكن ليس في وسع الشاي أن يحل محل الخمر . وفي وسع الشعر ان يحل محل النثر ، ولكن ليس في وسع النثر ان يحل محل الشعر . وفي وسع اشعار يوان المسرحية ان تحل محل قصائد سونج الغنائية ، ولكن ليس في وسع هذه ان تحل محل تلك . وفي وسع القمر ان يحل محل المصابيح ولكن ليس في وسع هذه ان تحل محله . وفي وسع القلم ان يحل محل اللسان ولكن ليس في وسع اللسان ان يحل محل القلم ، وفي وسع الخادمة ان تحل محل الخادم ، ولكن ليس في وسعه ان يحل محلها .

يمكن للمرء أن يكبت ما يحس به من ظلم طفيف في صدره بكأس من الخمر ، ولكن الظلم الضخم لا يزول إلا بحد السيف .

على الرجل المنهمك في أعماله أن يجعل حديقته قريبة من بيته ، أما الرجل اللاهي ، فيستطيع أن يجعلها نائية عنه .

هناك اناس يجدون أمامهم متع الحياة في الجبال ولا يحسنون التمتع بها كالصيادين والحطابين والمزارعين والبستانيين والرهبان ، وهناك اناس يرون امامهم متع الحدائق والبيوت والجواري ولا يحسنون التمتع بها ، كالتجار الاثرياء وكبار الموظفين .

وقد يكون من السهل على المرء أن يحتمل الألم ، ولكنه لا يستطيع احتمال

الأكال ، وقد يكون من السهل احتمال المذاق المر ، ولكن من الصعب احتمال المذاق الشديد الحموضة .

قد يكون صحيحاً أن حبر الرجل المترف يجب ان يكون ممتازاً ، ولكن حبر الرجل العامل يجب ان يكون ممتازاً ايضاً . وقد يكون صحيحاً أن من الواجب ان تكون جارية المتعة جميلة الصورة . ولكن من الواجب ان تكون جارية انجاب الاولاد جميلة ايضاً .

يوحي طائر اللقلق للانسان بالفكرة الرومانسية ، كما يوحي له الجواد بالبطولة ، وزهرة الاوركيد بالعزلة والنسك وشجرة الصنوبر بعظمة الاقدمين .

اود لو اقمت ذات يوم حفلة ساهرة للعراة ، استعطف بها ارواح الموهوبين من الرجال في جميع العصور . كما استعطف ارواح الجميلات في مختلف العهود . ولو وجدت راهباً سامي الخلق لدعوته الى هذا الحفل ، ووضعته على رأسه .

من التنكر لنعم الله ، ان يأكل المرء الطعام اللذيذ بسرعة ، وان يمر بالمناظر الرائعة عاجلاً ، وان يعرب عن عواطفه العميقة باصطناع ، وان يمضي اليوم الجميل غارقاً في الاكل والشراب ، وان يتمتع بثرائه غارقاً في الملذات .



١١

التمتّع بالأسفار

١ – حول السياحة والتمتع بالمناظر

كانت السياحة بالماضي متعة . فأصبحت الآن صناعة . وليس ثمة من شك في ان السياحة تتميز هذه الايام بتسهيلات عديدة ووفيرة ، لم تكن ماثلة قبل نحو مائة عام ، وان الحكومات بمكاتب سياحتها الرسمية قد استغلت قطاع السياحة ، بحيث بات الانسان يسافر كثيراً في هذه الايام بصورة تفوق ما كان عليه جده . ومع ذلك فقد غدت السياحة كما يبدو فناً ضائعاً . وعلى المرء لكي يفهم فن السياحة ، ان يتبين قبل كل شيء الصور المختلفة للسياحة الزائفة التي لا تعتبر سياحة على الاطلاق .

فالصورة الأولى للسياحة الزائفة . هي ان يسافر المرء ليحسن قواه الفكرية . ويبدو ان هذه القضية المتعلقة بتحسين عقل الانسان قد وصلت حدود الافراط . واني لأشك كل الشك في ان فكر الانسان يتحسن بمثل

هذه السهولة . لكن هنـــاك على أية حـــال بعض الأدلة عليه في النوادي والمحاضرات . ولكن لو كنا في العادة جادين الى الحد الذي يدعونا الى التصميم على تحسين افكارنا ، فان علينا على الاقل ان نجعـل عقلنا مرتاحـــاً ابان الاجازات ، وان نمنحه عطلة الزاميـــة . ولقد ادت هذه الفكرة الزائفة عن السياحة الى ظهور نظام الادلاء السياحيين الذين يمثـلون اكثر طراز من بـــني الانسان ثرثرة ومضايقة . ولا يمكن للمرء ان يمر بتمثال من البرونز ، دون ان يلفت الدليل نظره الى ان هناك انساناً ولد في الثالث والعشرين من ابريل من عام ١٧٩٢ وتوفي في الثاني من ديسمبر من عام ١٨٥٢ . ورأيت بعض الراهبات يرافقن بعض صغار الطلاب الى مقبرة ، وعندما وقف الجمع أمام احد القبور ، راحت احدى الراهبات تقرأ من كتاب في يدها التواريخ المتعلقة بصاحب القبر ، كتاريخ زواجه ، واسم زوجته ، وأشياء أخرى من السخافات التي لا أشك في انها ضيعت على الاطفال متعة الرحلة كلها . ويتحول الكبار انفسم الى مجموعة من صغار الطلاب ، اذ يحاضرهم الدليل بثرثرته وصخبه ، وكثيراً مـــا يكونون من النوع المجتهد ، فيشرعون في تدوين الملاحظات وكأنهم من الطلاب . ويعاني السائحون الصينيون من الأدلاء كما يعاني السائحون الامريكان ، مع وجود فرق واحد ، وهو ان الأدلاء الصينيين ليسوا محترفين بل من باعة الفواكـــه ، وساقة الحمير ، وصبيان الفلاحين ، وتكون معـــلوماتهم اقل دقة وان كانت شخصياتهم اكـثر حيوية . وقمت ذات يوم بزيارة تـل هوشيو في سوشاو ، حيث عدت من هناك وقد زودت من دليلي بائع البرتقال بمجموعة مضطربة من التواريخ والقصص التاريخية عن الجسر المهيب الذي يرتفع اربعين قدماً فوق بحيرة السيف وعن آثار ضربات هـذا السيف في الجسر ، وعـن المكان الذي كانت فيه الجميـلة تتزين في صبـاح كل يوم . وكان كل ما يريده هذا الدليل ان ان ابتاع منه عدداً من البرتقالات . ولكن هذا الحادث كان فرصة لي لتبين ما يطرأ على القصص الشعبي من تبدل وتعديل ونسخ .

أما الشكل الثاني من السياحة الزائفة فهو الترحال بقصد الحديث ، وان تؤلف المناظر التي يشاهدها المسافر ، مواضيع يتحدث عنها فيما بعد . ولقد رأيت بعض زائري هوباو في هانشاو . وهو مكان مشهور بالشاي الذي يقدمه وبما فيه من ينابيع . يطلبون من المصور ان يلتقط صورهم وهم يرفعون اقداح الشاي الى شفاههم . ولا شك في ان اطلاع بعض الاصدقاء على صورة تظهرك وانت تشرب الشاي مع رفاقك ، يعتبر احساساً شاعرياً رفيعاً . ويمثل الخطر في ان الانسان لا يفكر في الشاي كما يفكر في صورة تناوله له . ويمكن لهذا الوضع ان يصبح كابوساً يتسلط بصورة خاصة على اولئك السائحين الذين يحملون آلات التصوير ، والذين كثيراً ما نشهدهم في الجولات السياحية في باريس ولندن . فهؤلاء السائحون ينشغلون بآلات تصويرهم حتى عن رؤية الأماكن نفسها . وليس ثمة من شك في انهم يستطيعون النظر الى الصور التي التقطوها فيما بعد عندما يعودون الى وطنهم ، ولكنهم يستطيعون ايضاً شراء صور ميدان « ترافلجار » و « الكامب ايليسيه » في نيويورك وبكين دون ان يذهبوا الى لندن وباريس . ولما كانت هذه الاماكن التاريخية تغدو من المواقع التي يتحدث عنها الانسان في المستقبل لا تلك التي يراها ، فان من الطبيعي انه كلما زاد عدد الاماكن التي يزورها كلما اغتنت ذاكرته ، وزاد عدد الاماكن التي يتحدث عنها . ولا ريب في ان هذا الدافع الى التعلم والدراسة ، يجبر السائح على ان يرى اكبر عدد ممكن من الاماكن في اليوم . وهو يحمل جدولاً للاماكن التي تصلح للزيارة ، وعندما يصل الى مكان ما ، يؤشر على اسم هذا المكان في الجدول الذي يحمله . واني لا أشك في ان مثل هؤلاء السائحين يحاولون ان يكونوا من ذوي الفاعلية ، حتى في ايام اجازاتهم .

وينتج هذا الطراز من السياحة الحمقاء، الشكل الثالث من السائحين المزيفين الذين يسافرون وفقاً لجدول معين ، فيعرفون مسبقاً عدد الساعات التي سيقضونها في فيينا أو بودابست . ويعد مثل هذا السائح قبل شروعه في رحلته

جدولاً يتزمت في التمسك بمحتوياته ، وهكذا نجـد هذا الرجل ، يقيد نفسه بالساعة واليوم في ترحاله ، كما كان يقيدها بها في اقامته في وطنه .

واني لأرى ان اهداف السياحة يجب ان تتبدل ، لتتبدل هـذه الاشكال الزائفة منها . فمن الضروري أن يكون الهدف الأول لها، ان يضيع القائم بها، وان يصبح مجهولاً . ويمكن تسمية هذا الطراز من السياحة ، بالسياحة من اجل النسيان . فكل انسان يكون محترمـاً في المدينة التي يعيش فيها مهما كان رأي الحلقات الاجتماعية العليا فيه . ولذا فهو يكون هناك مقيداً بسلسلة من التقاليد والقواعد والعادات والالتزامات . فصاحب المصرف يجد من الصعب عليه ان يعامل في بلده كانسان عادي ، وان ينسى انه من رجال المال ، ويخيل الي ان الهدف من اسفاره ، يكون في ان يجد نفسه في مجتمع ، يحس فيه بأنه انسان عادي . وأنا اعرف ان كتب « التقديم » مألوفـة لدى الناس الذين يقومون بسفرات تتعلق بأعمالهم ، ولكن هذه السفرات تكون خارج نطاق السياحة المجردة. ولا شك في ان فرصة الانسان في اكتشاف ذاته كانسان، تضيع اذا حمل معه عدداً من رسائل التقديم والتعريف ، إذ أنه يعجز عن اكتشاف نفسه بعيداً عن الاحداث المصطنعة المتعلقـة بمركزه الاجتماعي . وبالرغم من ان الانسان ذا المركز الاجتماعي ، يستقبل استقبالاً طيباً من اصدقائه في البلاد الأجنبية التي يزورها ، ويتولون قيادته عبر الطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها ، الا ان متعـة الطالب الكشاف الذي يجد نفسه في غابة معتمداً على ابتكاراته ، تفوق متعـة ذلك الانسان . فهذا الطالب يستطيع ان يقيم الدليل لنفسه على ان في وسعه اذا دخل مطعماً ان يطلب لنفسه طبقاً من الدجاج بالاشارة ، كما يستطيع تبين طريقه في المدينة بواسطة سؤال رجال الشرطة . ولا شك ان مثل هذا السائح يستطيع ان يعود إلى وطنه ، دون ان يعتمد على سائقه أو خادمه .

ويكون السائح الحقيقي أفاقاً بكل ما للأفاق من احساس بالمغامرة ، وتعرض للاغراءات والمباهج . فالسياحة اما ان تكون حياة الأفـاق أو لا تكون .

ويعتمد جوهر السياحة على عدم وجود أية واجبات أو ساعـــات محددة ، أو جيران فضوليين ، أو وفود تستقبل السائح أو هدف معين ، والسائح الصحيح هو الذي لا يعرف المكان الذي يقصده ، ولا يعرف المكان الذي جاء منه . وهو يجهل حتى اسمه واسم عائلته. وقد اكد تولونج هذه النقطة في الصورة النموذجية التي رسمها في « رحلات مينجلياوتسي »، وهي التي ترجمتها إلى الانجلـــيزية في الجزء اللاحق من هذا الفصل . وقد لا يكون له صديق فرد في أية أرض غريبة، ولكن هنا قولاً صينياً مأثوراً وهو ان عدم الاهتمام بانسان معـــين يعني الاهتمام بالجنس البشري كله . ولا شك في ان الافتقار إلى صديق واحد، يعني ان يكون جميع الناس اصدقاء . فالمفتقر إلى الصديق ، يحب الناس جميعاً ويختلط بهم ، ويطوف بينهم ملاحظاً عاداتهم وحسناتهم . ولا شك في ان السائحين الـــذين يطوفون في « الاوتوبيسات » السياحية مع مجموعات السائحين لا يحصلون على هذا الطراز من النفع ، كما لا يحصل عليه اولئك الذين يظلون في الفنادق يتحدثون مع زملائهم من السائحين الذين يمتون إلى نفس البلاد التي جاءوا منها ، او اولئك من السائحين الأمريكيين في باريس ، الذين لا يتناولون طعامهم الا في اماكن محددة يلتقي فيها السائحون الامريكيون ، حيث يتوقعون ان يلقـــوا أولئك الذين وفدوا معهم إلى فرنسا في نفس الباخرة ، وان يأكلوا نفس الأطعمـــة الأمريكية التي ألفوا ان يأكلوها في بلادهم . ويعمل السائحون الانجلـــيز في شانجهاي على النزول دائماً في فندق انجليزي ، حيث يتناولون « الافطـــار » الانجليزي الذي الفوه من لحم الخنزير والبيض وخبز «التوست» والمربى، وحيث يلتقون مع زملائهم في ردهة الكوكتيل في المساء ، دون ان يستمعوا الى مـــا يوجه اليهم من اغراءات للطواف في المدينة. حقاً انهم يحتفظون بقواعد الصحة ، ولكن ما الذي يدعوهم إلى احتمال مشاق الذهاب الى شانجهاي ؟ ان مثل هؤلاء ، لا يفهمون روحية الشعب الذي يزورون بلاده ، ولذا فهم يضيعون على انفسهم احدى الفوائد الضخمة من السياحة .

وتمكن روح الأفاق الناس الذين يأخذون اجازاتهم من ان يصبحوا اقرب إلى الطبيعة . ولذا يصر السائحون من افراد هذا الطراز الأفاق على ان يذهبوا الى المصايف ، حيث يكون عدد الناس قليلاً ، وحيث يستطيع المرء ان ينعم بالعزلة ، وبرفقة الطبيعة . ولا يصرف مثل هؤلاء السائحين وقتاً طويلاً في الحوانيت ليبتاعوا حاجاتهم منها لرحلاتهم واختيار اثواب الاستحمام التي يريدونها من زرقاء وحمراء . ويسمح للسيدة من هذا الطراز بشراء احمر الشفاه ، اذ ان أية سائحة لا بد وان تكون من عشاق الطبيعة واتباع جان جاك روسو ، ولا يمكن للسيدة ان تكون طبيعية الا اذا كان لها احمر الشفاه . ولكن هذا يعود للحقيقة الواقعة وهي ان الانسان يذهب الى المصايف والشواطىء حيث يذهب كل انسان، وتضيع فرصة الارتباط الوثيق بالطبيعة او تنسى . ويمضي الانسان الى ينبوع مشهور ويحدث نفسه قائلاً :... « ها أنا وحدي هنا تماماً »، ولكنه لا يكاد يتناول صحيفة في صالة الفندق بعد العشاء حتى يكتشف ان السيدة « س » قد جاءت الى المكان يوم الاثنين . ويمضي في الصباح التالي في مسيرته وحيداً فيقابل اسرة دادلي ، التي وصلت في القطار في الليلة السابقة . ويكتشف مساء الخميس ، ان السيدة (ج) وزوجها ، يقضيان اجازتهما ايضاً في هذا الوادي المنعزل الرائع . وتدعو السيدة (ج) اسرة دادلي لتناول الشاي ، وتدعو هذه الاسرة السيدة (ج) وزوجها الى لعب البريدج ، ويسمع الانسان صوت السيدة (ج) وهي تهتف قائلة ... أليس هذا رائعاً ؟ كأننا نعيش في نيويورك .

واني لأقترح ان يكون هناك شكل آخر من اشكال السياحة ، وهو ان تكون دون هدف في رؤية شيء او انسان سوى السناجب وجرذان المسك وقاضمات الخشب ، والسحب والأشجار . وحدثتني صديقة امريكية عن ذهابها مع بعض الأصدقاء الصينيين الى جبل على مقربة من هانشاو ، دون ان يكون لها هدف من رؤية اي شيء . وقالت ان الضباب كان مخيماً في الصباح ، ثم تزايد تكاثف الضباب كلما ازداد ارتفاعهم . وكان في وسعهم ان يسمعوا أصوات تساقط الندى على اوراق العشب . ولم يستطيعوا رؤية شيء سوى

الضباب. وشعرت السيدة الأمريكية بشيء يثبط من عزائمها ... ولكن اصدقاءها قالوا لها: «ولكن عليك ان تواصلي الصعود، فهناك منظر رائع في قمة الجبل». ومضت في طريقها معهم، وما لبثت ان رأت صخرة قبيحة على بعد منهم لفتها السحب من كل مكان، وكانت هي المنظر الرائع الذي وعدوها به. وراحت تسألهم .... ما هذا؟ فردوا بصوت واحد، انها زهرة اللوتس المعكوسة. وأحست بالضيق يكاد يقتلها، وكانت على وشك الهبوط من جديد، عندما قالوا ... «ولكن هناك منظراً اكثر روعة في القمة». وكانت ملابسها قد تبللت من الرطوبة، ولكنها استسلمت لارادتهم، ومضت معهم، ووصلوا اخيراً الى القمة، وكان كل ما وجدوه متاهات شاسعة من الضباب والسحب، تتخللها خطوط الجبال النائية في الافق البعيد ... وقالت صديقتي الامريكية محتجة ... «ولكن لم يكن هناك ما نراه». أجل، هذه هي الحقيقة، انها السياحة التي لا تهدف الى رؤية شيء.

وهناك فرق كبير بين رؤية شيء ورؤية لا شيء. فهناك سائحون كثيرون من الذين يعتبرون انفسهم يرون اشياء لا يرون شيئاً، كما ان هناك العكس ايضاً. واني لأحس بالطرافة عندما اسمع مؤلفاً يقول انه سيمضي الى بلد اجنبي ليحصل على «مادة لكتابه الجديد» وكأنه قد استنفد كل ما يمكن ان يراه في بـــلاده او مدينته، أو كأن مواد الكتابة يمكن ان تنضب. أهناك جزيرة او مكان لا يصلح للكتابة؟ ان هذا يوصلنا الى فلسفة الاسفار بانها القدرة على رؤية الاشياء، وهي قدرة تزيل الفرق بين الترحال الى بلد بعيد، وبـــين التجول في الحقول القريبة بعد ظهر يوم من الأيام.

ويصر شين شينجتانغ على ان لا فرق بينهما على الاطلاق. وكل ما يحتاج اليه السائح في تجواله، موهبة خاصة في فؤاده، وقدرة خاصة على النظر، كما ذكر الناقد المسرحي الصيني في نقده الشهير لمسرحية «الغرفة الغربية». ولعل الشيء المهم هو ان يكون للسائح الفؤاد الذي يحس والعين التي ترى. فاذا افتقر اليهما،

كانت زياراته للجبال مضيعة للوقت والمال ، أما اذا توافرا لديه تحققت له المتعة الكبرى من السياحة ، حتى ولو لم يذهب الى الجبال ، وظل في البيت ، يتطلع الى ما حوله ، ويطوف في الحقول ليرقب سحابة عابرة ، او كلباً لاهثاً ، او اخدوداً في الأرض ، او شجرة وحيدة . وهذا ما قاله شين عن الفن الصادق للأسفار :

« قرأت الكثير من صور الرحلات التي كتبها الكثيرون ، وادركت ان القلة فقط تدرك حقيقة فن الاسفار والتجوال . ولا يخشى الرجل الذي يعرف كيف ينظم سفراته ، طول الرحلة التي يقطعها لرؤية البلاد والبحار واكتشاف ما فيهما من اسرار وعظمة . ولكن وجود موهبة لديه في فؤاده ، وقدرة عنده على الابصار ، يمكنه من ان يعرف ان لا ضرورة تحتم عليه اذا اراد استكشاف سر الطبيعة وعظمتها ، ان يمضي الى جميع الاماكن المشهورة من اراضي الدنيا وبحارها . فهو يمضي في احد الأيام الى كهف صخري بعد ان يصرف الكثير من طاقة قدميه وعينيه وعقله ، ثم يمضي في اليوم التالي الى بقعة مباركة اخرى مستخدماً المزيد من هذه الطاقات . وقد يقول له الذين لا يفهمونه .... « لا ريب في انك تقضي وقتاً رائعاً وانت تزور جميع هذه الاماكن في هذه الايام . فلقد زرت بقعة مباركة بعد زيارتك الكهف الصخري ». حقاً انهم لم يفهموا الحقيقة ولم يتبينوها . فهناك مسافة بعيدة بين المكانين وقد تكون عشرين ميلاً او ثمانية اميال او سبعة او ستة او خمسة او اربعة او ثلاثة او ميلين او نصف ميل . ولا شك في انه بتمتعه بموهبته وبقدرته على الرؤية ، أبْصر في المسافة التي قطعها مهما طالت عين ما رآه في الكهف أو في البقعة المباركة .

« ولا شك في ان هناك ما يرعب العين ، ويدهش الروح عندما يجد الانسان ان الطبيعة الأم بما حبيت به من حكمة وطاقة وبراعة ، قد انتجت بصورة مفاجئة ، شيئاً كالكهف الصخري او البقعة المباركة . ولكنني قليلاً ما امعنت النظر في الاشياء الصغيرة في هذا الكون كالطائر والسمكة والزهرة والنبتة الصغيرة ، وريش الطائر ، وحرشفة السمكة ، وتويج الزهرة ، وورقة العشب ، وادركت ان أمّنا الطبيعة قد خلقتها كلها بمنتهى العبقرية والحكمة والطاقة . وكما يقال ان الاسد يستخدم في مهاجمة الارنب البري الصغير نفس الطاقة التي يستخدمها في مهاجمة الفيل ، فان الطبيعة تستخدم في خلق الاشياء الصغيرة نفس الطاقة التي تستخدمها في خلق الاشياء الكبيرة . فالطاقة واحدة ، سواء في خلقها الكهف الصخري أو في خلقها للطائر والسمكة والزهرة ، وورقة العشب ، وريشة الطير وحرشفة السمك ، وتويج الزهرة ، وورقة الشجرة . ومن هنا لا يكون الكهف وحده هو الذي يرعب العين ويدهش الروح في هذا العالم .

« يضاف الى هذا » .. هل سبق لنا ان فكرنا كيف تم خلق الكهف الصخري او البقعة المباركة ؟ يقول شوانجتسي بمنتهى الحكمة ... « لا يعني فهم الانسان لمختلف اعضاء الحصان انه قد فهم الحصان نفسه . فما نسميه بالحصان ، وجد قبل ان توجد اعضاؤه المختلفة » . ولنضرب مثلاً آخر . فنحن نرى الغابات تنمو حول البحيرات العظيمة ، والاشجار والصخور تنتشر حول الجبال الشاهقة . وقد يبهج السائح ان يعرف ان الغابات العظيمة والاشجار والصخور قد اجتمعت لتؤلف البحيرات العظيمة والجبال الشاهقة ، ولكن القمم السامقة تتألف من

الصخور الصغيرة ، كما ان الشلالات الهادرة تتألف من ميـــاه الينابيـع الصغيرة ، ولو فحصنا هذه الامور واحداً واحـدأ ، لرأينا ان الاحجار ليست اكبر من راحة اليد ، وان الينابيع ليست اكبر من مسائل الماء الصغيرة. ويقول لاوتسي: «ان ثلاثين برمقة تؤلف محور الدولاب ، وعندمـــا تفقد هذه البرامق فرديتها تتولد لدينا العجلة . ونحن نعجن الطين لنصنع منـه اناء ، وعندما يفقد الطين وجوده ، تتكون لدينـا أداة بيتية نافعة. ونحن نثقب الجدران لنجعل من هذه الثقوب نوافذ وابواباً، وعندما تفقد هذه النوافذ والابواب وجودها ، يتكون لدينـا البيت الذي نعيش فيـه » . وهكذا عندما نتطلع الى كهف صخري او بقعـــة مباركة ، ونرى القمم العمودية السامقة ، والممرات الجبلية المترامية افقيـــاً ، ونرى تلك التي تتصاعد لتكون هوة ، أو تلك التي تهبط لتؤلف وادياً ، أو تلك التي تمضي منبسطة لتؤلف هضبـــة ، او تلك التي تتعوج فتؤلف سفوحاً ، او تلك التي تمتد عبر الوديان فتؤلف جسوراً ، أو تلك التي تتجمع فتكون اخاديداً ، فاننا ندرك على الفور ، انه مهما كانت ضخامة هذه الصخور واسرارها، فان تلك الضخامة والسر فيها انما ينبعان من الحقيقة الواقعة ، وهي ان اجزاءها فقدت وجودها الفردي . فعندما تفقد هذا الوجود ، لا يعود لدينـا ممرات او هاويات . لكن موهبتنا وقدرتنا الخاصة على البصر لا تبرزان الا في حالة عدم وجودها . ولكن لمـا كانت هذه الموهبة والقدرة الخاصة على البصر لا تبرزان الا في حـالة عدم وجودها ، فلماذا نصر والحالة هذه على الذهاب الى الكهف الصخري والبقعة المباركة ؟

« أوَ لا تنعدم الضرورة في زيارة هذين المكانـين ايضاً اذا

كانت الموهبة الخاصة في فؤادي ، والقدرة الخاصة على البصر ، لا تبرزان الا في حالة فقد هذه الاشياء لوجودها الفردي ؟ أوَ ليست هناك ايضاً اشياء اخرى تفقد وجودهـــا كما سبق لي وقلت ، اذا كانت على بعد عشرين او ثلاثين ميلاً ، أو حتى على بعد ميـل او نصف ميل ؟ وكيف يمكن لي ان اعرف ان سر الكهف الصخري والبقعة المباركة وعظمتها لا توجدان ايضاً في الجسر الصغير المعـــوج ، وفي الشجرة الوحيدة الهرمة ، وفي مسيل من الماء ، أو قرية او اخدود او كلب ؟

« يضاف الى هذا ان ليست هناك ضرورة لوجود هـــذه الموهبة الخاصة او القدرة على البصر ، والا لما وجدنا انسانـــاً واحـــداً في العالم يستطيع ان يفهم فن الاسفار والسياحة ، ويقول شينجتان ، ان ليست هناك مواهب او قدرات خاصة على الابصار ، اذ ان مجرد الرغبة في الطواف ، والقـــدرة على تحقيقها تعنيان وجود الموهبة والقدرة على البصر . ولقد حدد مي في العجوز انواع الصخور على ضوء ما تتميز به من رقـة ووضوح ، ودقـــة وتموج . ولكل مساحة صغيرة من الماء أو قرية او جسر او شجرة او اخدود او كلب على بعد ميـل أو نصف ميل ، الرقة والتعوج والوضوح والدقة . واذا كنـا لا نرى في هذه الاشياء هذه الصفات ، فلأنـنـــا لا نعرف كيف ننظر اليها كما نظر اليها مي العجوز . أما اذا رأينا ما فيها من رقة ووضوح وتعوج ودقة ، فاننا لا نستطيع ان نمنـع انفسنا من التطواف بحرية بينها. وهل هناك غير هذه الصفات في جلال القمم وسرها وفي الممرات الجبلية والهاويات والانهـــار والهضاب والسفوح والجسور والاخاديـد والكهوف الصخرية والبقـاع المباركة ؟ ولا ريب في ان اولئك الذين يصرون على

زيارة الكهوف الصخرية والبقاع المباركة لم يروا الكثير ، أو انهم لم يزوروا شيئاً على الاطلاق . وذلك لأن الذين لا يرون ما في الاخدود أو الكلب من سر وجلال ، لا يرون في الكهوف الصخرية أو البقاع المباركة ، الا كل ما يتعارض مع السرية والجلال .

« ويقول توشان صديق شين : كان كونفوشيوس خير من فهم فن الاسفار والسياحة في التاريخ ، ويتلوه في ذلك وانج هسيشي الذي يعتبر استاذ المخطوطات الصينية . وعندما طلب الى توشان ان يوضح رأيه هذا وان يفسره ، قال ... « لقد عرفت ذلك عن كونفوشيوس من عبارة اوردها وهي ان الأرز لا يكون دائماً كثير البياض وان اللحم المهروس لا يكون دائماً خالياً من الشوائب . وعرفت ذلك عن وانج من رؤية نماذج من مخطوطاته ، فقد كان فيها ما لم يستطيع حتى ولده هسيينشي فهمه » . وقلت لتوشان ... ولكن ما قلته مخرب لكل ما عرفه الجنس البشري . ولقد ابلغني توشان ذات يوم ... « كان وانج يدأب وهو في بيته على عد اوراق جميع الزهور الموجود في باحة منزله ، وكان بذلك يشغل نفسه طيلة اليوم دون ان يتفوه بلحظة واحدة ، بينما كان حواريوه يقفون الى جانبه وقد حملوا مناشفهم في ايديهم ». وقال شينجتان... « ولكن ما الذي يؤيد قولك هذا؟ » ... فرد توشان « يؤيده ما اجده فى فؤادي » . حقاً كان توشان رجلاً رائعاً ، ولعل من المؤسف كل الاسف ، ان العالم لم يكتشف توشان ويعجب بخياله الرومانسي تمام الاعجاب » .

٢ – رحلات مينجلياوتسي[١]

أ – سبب الهروب

كان مينجلياوتسي ، من الموظفين ، ولكنه مل من سير الاوضاع في العالم ومن اضطراره الى قول ما لا يؤمن به ، والى اداء المراسم في الاحتفالات خلافا لرغباته . ترى ما المقصود بأن يقول ما لا يؤمن به ؟ نجد مضيفاً وزائره يتبادلون الانحناءات ، ثم لا يكادان يتبادلون بعض العبارات العفوية عن الطقس ، حتى نراهما لا يجرآن على أي تعليق جديد . وهناك اناس نلقاهم للمرة الأولى ، فنصافحهم ، ونسمعهم يصرون على انهم من اخلص اصدقائنا ، ولكننا لا نكاد نفترق عنهم ، حتى نصبح وكأننا لا نأبه بهم . فعندما نطري شخصاً امامه ، نشبهه بالقديس بويي ، ولكنه لا يلبث ان يفارقنا حتى نتحدث عنه بالسوء ، ونشبهه باللص شيه . وعندما نأخذ حريتنا في تبادل الاحاديث ، نجد انفسنا نصطنع الجلال ، والاختصار ، وان كان هناك الكثير مما نود قوله ، ونروح نتحدث ونتحدث عن المثل النبيلة ، بينما نحن نمثل في الواقع السلوك اللااخلاقي . ولما كنا نخشى ان يحسر الافضاء بكل ما في نفوسنا النقاب عن حقيقتنا . مما يضرّ بنا ، فاننا كثيراً ما نتخلى عن افكارنا ، ونسمح للحديث بان ينساق وراء المواضيع التافهة . وكثيراً ما نلجأ الى التمثيل ، فنصطنع التنهد أو الصراخ لاخفاء افكارنا ، بحيث تغدو آذاننا وعيوننا والسنتنا وانوفنا ، وكأنها ليست لنا ، وبحيث يفقد غضبنا ومرحنا وضحكنا وسخطنا كل أصالة ، هذه هي

---

(١) هذه ترجمة من الصينية من صور تحمل هذا الاسم، وترسم لنا صورة الافاق المثقف المجد، الذي مجده المفكرون الصينيون ، والذي وضع فلسفة سعيدة للحياة تتميز باللامبالاة وحب الحقيقة ، وحرية الطواف بلا هدف ، وقد كتب تولونج هذه الصور ، وهو كاتب عاش في نهاية القرن السادس عشر ، ولكنه لم ينل حقه كمعاصريه من امثال هسو وينشانج ويوان شونجلانج ولي شوور وغيرهم من تقريظ النقاد الصينيين .

التقاليد المقررة للمجتمع وليس في مكنتنا اصلاحها . ومـــا الذي يعنيه اداء المراسم في الاحتفالات خلافاً لرغباتنا ؟ اننا في تعاملنا مع زملائنـا مهما كانت رتبهم ، نواصل الانحناء تلو الانحناء طيلة النهار ، وان كان هؤلاء الزملاء من اقدم اصدقائنا . فنحن نفصم علاقاتنا بالبعض دون سبب ، وكأنهم من اشد اعدائنا ، بينما نتقرب من الآخرين دون سبب ايضاً ، وان لم تكن لهم صلة فعلية بنا . فلا يكاد النبيل يفتح شفتيه ليتكلم حتى نسارع الى القول ... « أجل يا سيدي » ، مع ان في وسعه ان يرفع ذراعه ، لتطير رؤوسنا عن اجسادنا تلبية لأمره. ونرى رجلين يتزاوران ، ويصرفان ايامها في امتطاء الجياد ولعب الورق ، مع ان الواحـــد منهما يكره الآخر ولا يستطيع رؤيته . فزيارة الصديق للسؤال عن صحته يجب ان لا تكون مجرد شكليات فارغة . ترى هل عنى الملوك الاقدمون الذين سنوا هذه المراسم بها ان تكون على هذا النحو ؟ فنحن نرتدي معاطفنـا وانطقتنا ، ونحس وكأننا قرود في اقفاصها ، ولا نستطيع ان نتحرك ، لنحكّ قملة تجرؤ على قرصنا . ونحن نخشى مخالفة القانون حتى اذا كنا نسير في الشارع سيراً عادياً ، ولا نبعد بنظرنا عن انفنا ، اما اذا بعد ، فاننا سرعان ما نتعرض الى تساؤل الناس عن الشيء الذي نتطلع اليه . وعندما نرغب في إراحة انفسنا ، وتشتد هذه الرغبة في صدورنا ، فأننا لا نستطيع التوقف دون ان نبدي سبباً ، وكلمـــا ارتفعت منزلة الموظف ، كلما تعرض لمواجهة السيف امامه ، والنقد وراءه . فالاسباب مهما كانت برودتها او حرارتها تزعج اجسادهم ، ورغبة التملك وخوف الخسارة يزعجان افئدتهم . وهكذا فهم يعانون خسارة اكبر من تلك التي تنشأ عن مجرد خشيتهم من الخطأ . ويقع حتى الذين يتميزون بالنبـــل والشهامة والذين يعجبون بوجودهم ، في هذا الفخ عندما يصبحون من الموظفين . وهكذا اراد مينجلياوتسي تحرير فؤاده واطلاق ارادته ، فبادر الى الرحيل متجولاً في « بلاد اللامبالين » .

وقد يقول احدهم ... « سمعت ان اتباع طاو يعيشون حياة هادئـــة ولا يحسون بالوحدة ، ويعيشون وسط الجماهير ولا يحسون بضجيجها . وهم يعيشون

في العالم ولكنهم يكونون وكأنهم في خارجه، فهم لا يحسون بالقيود ولا بالحاجة الى التحرر منها، اذ سرعان ما تنمو شجرة صفصاف الى شمال الواحد منهم، ويعشش طائر على مقربة من رأسه. ولا ريب في ان هذه هي ذروة حضارة الهدوء والتحرر. وقد تكون الخدمة في المطابخ أو كنس الاوساخ من الارض من اوضع المهن، ولكن القديس لا يتضايق منها. أوَ لا تجعل من روحك خادمة لبدنك عندما تصبح في خشية من قيود حياة الوظيفة، وتتلهف شوقاً للرحيل الى بلاد لا تعرفها».

ويرد عليه مينجلياوتسي ... «في وسع من يعتنق الطاوية ان يغطس في الماء دون ان يبلّ جسمه، وان يقفز في النار دون ان يحترق. وان يخطو فوق الواقع وكأنه خواء، وان ينتقل فوق الخواء وكأنه واقع. ففي وسعه ان يحس بالراحة وكأنه في بيته اينما كان، وان يحس بالوحدة مهما كانت الاجواء المحيطة به. وهذا أمر طبيعي بالنسبة اليه. ولكنني لم اصل الى الطاوية بعد وان كنت احبها. فالواصل اليها هو سيد نفسه، ويغدو العالم متحللاً امامه. ولو قذفت به في رفقة الضجيج والقذارة فسيكون كزهرة اللوتس التي تنمو من الماء الموحل، يلمسها ولكنه لا يلوثها. ولذا فهو لا يختار أين يذهب. ويبدو انني لست اهلاً بعد للطاوية، اذ انني اشبه ما اكون بشجرة الصفصاف التي تجاري الريح، فتهدأ مع هدوئه، وتتحرك مع تحركه. اجل انا كالرمل في الماء، يكون نظيفاً وصافياً اذا كان الماء كذلك، وكثيراً ما حققت الطهر والهدوء في يوم كامل، ولكني لا البث ان افقدهما في لحظة واحدة، وكثيراً ما حققتهما سنة كاملة ثم اضعتهما في يوم واحد. فلم يكن في امكاني قط ان اترك الأمور تسير على هواها كما تشاء، وان لا ازعج نفسي بالبيئة التي تحيط بي. واذا كان في مكنة الامبراطور ان يعتنق الطاوية، فلم اضطر، شاوفو وهسويو الى الذهاب الى جبل شي ونهر يينج؟ ولو كان في مكنة الامير ان يعتنق الطاوية، فلم اضطر ساكيا موني للذهاب الى جبال الهملايا؟ ولو كان في مكنة الدوق النبيل ان يعتنق الطاوية، فلم اضطر شانج ليانج الى ان يطلب اجازة مرضية؟ ولو كان

في مكنة موظف صغير ان يعتنق الطاوية ، فلم اضطر طاو يوانمينج الى الاستقالة من منصبه ؟ انني عازم على تحرير فؤادي واطلاق روحي بالتجول في بــــلاد اللامبالاة »

وسأله الصديق ... « اذن حدثني عن رحلاتك » ويرد مينجلياوتسي قائلاً ...

« يهـدف الانسان الذي يسافر الى تفتح اذنيه وعينيه واطلاق روحه من عقالها . وهو يستكشف الولايات التسع ، ويجوب ارجاء بلاد البرابرة الثماني ، املاً منه في ان يجمع جوهر الروح المقدسة وان يجتمع بكبار الطاويين ، ويأكل من شجرة الخلود ، ويعثر على لباب الصخور . فهو يركب الريح ويبحر عــــبر الاثــــير ويذهب أنى تحمله الريح ، ويعود بعد هذه الجولات فيغلق الباب على نفسه متطلعاً الى الجدار الخالي من كل شيء ، وينهي بذلك حياته . ويبدو انني انسان لم احقــق الطاوية بعد . فانا احب ان أجد المأوى لروحي في جسدي ، وان اتولى تغـذية فضيلتي بالدماثة ، والترحال في الاثير عن طريق التحول الى خواء . ولكنني لا استطيع تحقيق ذلك بعد . ولقد حاولت ان احبس روحي في جسدي ، ولكنها سرعان ما خرجت منه ، وحاولت تغذية فضيلتي بالدماثة ، ولكنهــا سرعان ما تحولت الى عنف في العاطفة ، وحاولت الطواف في الاثير عن طريق التحول الى خواء ، ولكن سرعان ما استبدت بي رغبة عارمــــة . وهكذا عندما عجزت عن الوصول الى السلام في قرارة نفسي ، رحت استخدم الاجواء المحيطة بي لتهدئة روحي ، ولما عجزت عن العثور على المرح في فؤادي ، اقترضت مصباحاً يضيء لي هذا الفؤاد . ومن هنا برزت الغرابة في رحلاتي ...

ب ـ اسلوب الاسفار

.. مضيت مع صديق لي يحب متاهات الجبال ، وكان كل منا يحمل زجاجة

ماء ، ويرتدي قلنسوة ، ويضع في جيبه مائة قطعة نقدية . ونحن لا نحتاج الى اكثر من هذا المبلغ ، وان كنا نحاول دائماً ان نبقي هذا القدر معنا لمواجهة الطوارىء . وهكذا مضينا معاً ، نتسول عبر المدن والقرى ، وعند بوابات البيوت البيضاء والقرمزية وامام معابد الطاويين واكواخ الرهبان . وكنا جد حريصين على ما نسأل الناس اعطاءنا اياه ، فنحن نطلب الارز لا الخمر ، والخضروات لا اللحم . وكانت لهجة تسولنا متواضعة ولكنها لم تكن حزينة . وكنا نترك الناس الذين نطلب منهم العطاء ، سواء حصلنا عليه ام لم نحصل ، اذ ان رائدنا هو دفع الجوع ليس الا . وكنا نحني رؤوسنا باستكانة اذا قسا بعضهم علينا . وكنا اذا تعذرت علينا الشحاذة في مكان ما ، ننفق قطعة أو قطعتين من المائة التي نحملها ، لنعود ، فنعوضها في اقرب فرصة مواتية . ولكننا لم نكن ننفق من هذا المال الا اذا ارغمنا على ذلك .

« وكنا نسير بدون هدف ، ونتوقف في أي مكان نجد انفسنا فيه ، ولا يكون ترحالنا سريعاً ، اذ لا نقطع الا فراسخ في اليوم . وكنا لا نجهد انفسنا مخافة الانهاك والتعب ، وكنا اذا ما وصلنا إلى الجبال ، فرأينا جداولها ، وسحرتنا ينابيعها وصخورها البيضاء . وطيورها المفردة ، نختار بقعة إلى جانب النهر نجلس على صخرة فيها لنتطلع امامنا . وكنا اذا ما لقينا بعض الحطابين أو الصيادين ، أو الفلاحين أو الشيوخ ، لا نسألهم عن اسمائهم ، ولا نعرفهم بأنفسنا ، ولا نتحدث اليهم عن الطقس ، وانما نتبادل معهم بضع كلمات عن سحر حياة الريف ، وسرعان ما نفترق عنهم دون ان نحس بأسى أو أسف .

« وكنا نضطر الى طلب المأوى في اوقات الحر أو القر ، مخافة ان يؤثر علينا الطقس . وكنا اذا لقينا اناساً على الطريق ، تنحينا ، ووقفنا الى جانبها ، لنجعلهم يمرون ، واذا ما وصلنا الى « معدّية » على النهر ، نتأخر حتى نكون آخر من يدخلها . وكنا نمتنع عن ركوبها اذا واجهتنا عاصفة ، اما اذا هبت

العاصفة ونحن فوقها في وسط النهر ، حملنا انفسنا على الهدوء ، وسلمنا أمرنا الى القدر تفهماً منا للحياة ونحن نقول ... « لو قدر لنا ان نغرق ونحن نعبر النهر ، فهذه ارادة السماء . فهل في استطاعتنا ان ننجو اذا استبد بنا القلق؟ » واذا قدر لنا ان لا ننجو فهذه هي نهاية مطافنا . اما اذا نجونا ، فسنواصل رحلتنـــا . فلو حدث واصطدمنا في سيرنا بشاب متهور ، وقسا هذا الشاب علينا في معاملته ، اكتفينا بالاعتذار المهذب له ، ولو قدر لنـــا ان لا يقبل اعتذارنا ، واصر على قتالنا ، فلا بد من ان نتوقف عن رحلتنا . ولكن لو نجونا منـــه ، فسنواصل رحيلنا . ولو مرض احدنا ، توقفنا عن السير ليعنى السليم بالمريض ، وليحاول ان يشحذ له الدواء اللازم له ، ولكنه يحتفظ بهدوئه ، ولا يحس بأية رهبة من الموت . وهكذا يتحول المرض العضال الى مرض بسيط ، سرعان مـــا يشفى المريض منه. ولو قدر لنا ان تكون ايامنا في الحياة معدودة، فستنتهي رحلتنا، ولكن اذا عوفينا من المرض واصلنا مسيرنا . وكثيراً ما كان يحدث ان يثـــير تجوالنا شكوك الحرس أو الشرطة ، فيعتقلوننا على اننا من الجواسيس . وهنا نحاول النجاة من الاعتقال اما بصدقنا او بدهائنا . ولو لم يقدر لنـــا النجاة لانتهت رحلتنا ، اما اذا نجونا ، فاننا نواصلها . وكنا نحاول احياناً قضاء الليل في عش من الحصير أو في كهف من الحجر ، ولكن لو تعذر علينا ذلك ، فاننا كنا نقضيه نائمين أمام معبد ، أو داخل كهف صخري أو الى جوار جدار احد البيوت أو تحت شجرة عـــالية . ومن المحتمل ان تكون الارواح الهائمة في الجبال ، أو الحيوانات المفترسة كالنمرة والذئاب ، تتطلع الينا ونحن في هـــذه الحالة ، ولكن ترى هل كان باستطاعتنا ان نفعل شيئاً ؟ وقد لا تؤذينا الارواح الهائمة ، ولكننا عاجزون عن الدفاع عن انفسنا ضد النمرة والذئاب . ومـــع ذلك فهناك قضاء في السماء يتحكم في مصيرنا . ولذا علينا ان نسلم امورنا لقوانين الكون ، وان لا نحس برهبة او خوف . فلو اكلتنا الوحوش ، لكان هـــذا قضاؤنا ، ولانتهت رحلتنا . اما اذا نجونا، فسنواصل تجوالنا ...»

ج – عند القمم الرهيبة

«.. وكنت قد قررت زيارة الجبال المقدسة الخمسة، والمياه المقدسة الأربعة وجميع الأماكن المقدسة على قمم الجبال، وكذلك الجبال والأنهار المشهورة في الولايات التسع. لكنني حددت زياراتي في تلك الاجزاء التي تقع ضمن مناطق سلطة الولايات التسع والتي كانت اقدام الانسان قد وطئتها. أما بالنسبة الى المناطق التي تقع خارج نطاق الامبراطورية الصينية كجبال الهملايا، والجزر العشر الصغيرة والجزر الثلاث الكبيرة في بحر الصين، فلم يكن في وسعي ان ازورها الا اذا زودت بجناحين. ولم اكن اتوقع مقابلة احد سوى المفكرين الرحل الذين يجوبون ارجاء البحيرات والأنهار، أو رجال الجبال المنعزلين، أما الخالدون، فلم يخيل الي انني سألقاهم، اذ انني لست مزوداً بجسد خالد.

.. وعندما اصعد الجبال المقدسة الخمسة، كنت اقف فوق الرياح السماوية واتطلع الى ما وراء البحار الأربعة، وتبدو امامي الوف القنن الجبلية وكأنها مسامير صغيرة، وتبدو ألوف الأنهار وكأنها متعرجة، وتبدو الوف الأشجار وكأنها كرانب صغيرة. ويبدو نهر المجرّة وكأنه قد هبط من السماء ليلامس رقبتي، كما تبدو السحب البيضاء وكأنها تمر عبر أكمامي، ونسور الفضاء وكأنها في متناول ذراعي، والشمس والقمر وكأنهما يرتبان خصلات شعري. وكان لا بد ان اتحدث بصوت خفيض، لا مخافة ازعاج ارواح الجبال الهائمة فحسب، بل ومخافة ان يسمعني الله وهو جالس في عليائه. وفوقنا يمتد الفضاء الصافي، الخالي من كل ذرة من ذرات الغبار، والممتد الى مدى النظر، بينما تهطل الامطار وتقصف الرعود، وتزأر العواصف تحتنا دون ان نحس بها، ولا نسمع صوت الرعد الا كنأمة طفل رضيع. ويعشى البصر في هذه اللحظة من الضوء ويخيل الي وكأن روحي قد تجاوزت حدود الفضاء، واحس وكأني امتطي الريح في اسفاري، دون ان اعرف وجهة اتجه اليها. وعندما تقترب شمس المغيب من الاختفاء، ويطل قمر الشروق من وراء الافق، تنتشر اشعة السحب في جميع

الاتجاهـــات ، ويتحول اللألاء الأرجواني والأزرق في السماء وحول القمم القريبة والبعيدة من اللون الغامق الى اللون الفاتح في ومضة عين . واسمع عند منتصف الليل اجراس المعبد ، وهدير النمر وقد اختلطا بصرير الرياح ، وارى باب المعبد وقد انفتح على مصراعيـه . فارتدي معطفي ، واخرج لأرى القمر يسير في طريق الانحسار ، وبقايا الثلوج الاخـــيرة وهي لا تزال تغطي المنحدرات العليا ، وضوء الليل وقد تحول الى كتلة لا حدود لها من البيـاض ، والجبال البعيـدة وقد امتدت خطوطـــاً لا تكاد ترى . وأحس في مثل هذه اللحظة بجسدي وقد ذاب في الهواء البارد ، وبجميـــع شهواتي وقد اختفت . ويخيل الي انني ارى إله الجبل المقدس جالساً في جلاله ، يستقبل الارواح التي تقل عنه في مقامها . وأرى خليطاً من الرايات والمحفات ، واسمع الهواء وقـد شحن بالحان المزامير والاجراس . وسقف القصر وقد تغطى بعباءة من السحب ووشاح من الضباب ، وتختلط الأمور في ناظري ، فلا اعرف هل انا قريب ام بعيد . حقاً انها سعادة مثلثة ان يصغي المرء الى موسيقى الالهة ، ولكن لذته لا تلبث ان تزول عندما يقطع صوت الريح هذه الالحان السماوية .

.. وهناك بالاضافة الى هذه الجبال المقدسة الخمسة عـدد من الجبال الشهيرة كجبل زيمنج ، تيينتاي ، وشينهوا ، وكواتسانج وشينتـــانج ، وتيينمو ، وووبي ، ولوشان ، وأومي ، وشونجنان ، وشونجنيـاو ، وووتاي ، وتايو ، ولوفو ، وكويشي وماوشان ، وشيوهوا ، ولينووو ، وأماكن مقـدسة اخرى لا تعد ولا تحصى . وقد اعتبرت مساكن للحور والجنيات ومنازل للارواح . وامضي في طريقي وليس في قدمي الا نعـل بسيط ، وقد حمـلت خيزرانتي في يدي ، وبالرغم من انني قـد لا استطيع زيارتهـا كلها ، فانني اظل اطوف وأطوف ، طالما ان طاقتي تمكنني من ذلك . واشرب الماء من ينابيـــع الآلهة ، واسأل عن اسم « الفأرة الجنية » ، وازدرد ارز السمسم ، واشرب الندى عن اشجار الصنوبر . وعندما اصل الى قمة عالية ، أو هاوية مستقيمة الانحـــدار ترتفع نحو السماء ، ولم تطأها قدم انسان ، اشد نفسي الى حبل ، واتسلق عليه

الى القمة . واصل الى جسر حجري متحطم ، او بوابة قديمة ، اراها مفتوحة امامي ، فادخلهـــا دون خوف او وجل ، أو أصل الى كهف صخري مظلم ، بحيث لا يرى الانسان قاعدته ، ولا ضوء فيه الا بصيص من شق في سقفـــه ، فأضيء مصباحي ، واتوغل فيه دون رهبة . وكلي أمل ان اجد فيه فيلسوفاً طاوياً سامي الفكر ، أو اعشاب خالدة ، أو البقايا العظمية لهيكل فيلسوف طاوي صعدت روحه الى السماء .

..وازور ايضاً الانهار والبحيرات المشهورة . كبحـيرة تونجتينج ويونمينج وشوتانج ووهسيا وشوشو وبينجـــلي واليانجتسي وشينيتانج . وتعتبر هـــذه المساحات الهائلة من الميـــاه الاماكن التي تقيم فيها الاسماك والتنانين وارواح الماء . ونعرف عند ما يكون الهواء هادئاً ، وصفحة الماء ناصعـة كالمرآة ، ان التنين المقدس غارق في سباته . يحمل جوهرة على صدره . وعندمـــا تختلط اضواء المـــاء مع انوار السماء في ظل القمر الساطع ، نعرف ان اميرة ملك التنانين وسيدة النهر قـد خرجت في محفتهـــا على رأس موكب ، وقد حملت مزمارها في يدها ، ووصيفاتها من حولها في اثوابهن الحريرية الزاهيـــة يطأن بأحذيتهن المزخرفة على الامواج المتهامسة . ويستمر هذا الموكب امداً ما ، ثم لا يلبث ان يختفي ، ويحس المرء ببرودة الطقس آنذاك . وسرعان ما تهب ريح صرصر عاتية ، فتسوط الماء بقسوتها ، وتنتشر الامواج الرهيبة ، ونعرف ان روح الطائر الاسطوري شيهيي غاضبة وانها قد تلقى العون من تينيموو ، روح البحر ذات الرؤوس الثمانية والارجل والاذناب الثمانية . وسرعـــان ما تدور الارض العظيمة كرحى طاحون ، وتهتز وتتدحرج ، ويبدو لنا التنـــين شانج العجوز ، وهو يشق طريقـــه الى السماء يحمل اولاده التسعة بين يديه . آه ما اروع هـــذا المنظر . واذا ما اراد المرء التطلع الى جمال المرأة وهي في ابهى زينتها ، فليس ثمة خير من البحيرة الغربيـــة في هانشاو ، حيث تنتشر اشجار الصفصاف على الجانبين ، وتتطلع ازاهير اشجار الخوخ الى صورتها في صفحـــة الماء ، ونعرف آنذاك ان الامبراطورة الجميلة ليهوا ، قد فتحت صندوق زينتها

في الصباح . وعندما تتفتح ازاهير قرن الغزال واللوتس ، صباح يوم مشرق ، ويمتلىء الجو بالاريج العابق ، نعرف ان الجميلتين بيشو وهوتيه خارجتـــان من حمامها المقدس . وعندمـــا يصفو الجو وتشرق الشمس ، ويكتسب كل شيء في الكون سحراً خاصاً به ، ويقف الناس على شرفات منازلهم في الاصبحة ، أو يستقلون زوارقهم في البحيرات في الامسيات وقد حملوا مجـاذيفهم الملونة ، نعرف ان الملكة يانج كويفي في ذروة ابتسامها . وعندما ينتشر الضبـــاب فوق البحيرة ، ويتساقط المطر عليها ، وتلتف الجبال الكثيرة باللون الرمادي الشاحب الذي سرعان ما يتحول الى الوان اخرى غير متوقعة ، نحس بالفرح يغمر نفوسنا ، لاننا نعرف ان هسيشي ، ملكة وو قد قطبت حاجبيها » .

د – عودة الى البشر

ويمضي مينجلياوتسي بعد ذلك في طريقــه فيمر بجسور هسيلنج الستة ، ثم يصعد الى تيينشو ولينجشياو ، حيث يخرج بعد زيارة عدد من قدامى المفكرين للبحث عن تينج طائر اللقلق البري في احد الكهوف الصخرية وسط السحب . وهناك ايضاً شاويين التي تعتبر دير مينجلياوتسي المنعزل . والتي يقوم فيها ايضاً الدير الذي شيد اكراماً لربة الرحمة . ويمضي مينجلياوتسي الى هـــنا ليجمع ازهار اللوتس وليتطلع الى البحر العظيم . آه ... أليست هذه متعة كبرى !! .

وهكذا يمضي مينجلياوتسي بعيداً في طوافه ، سعيداً في فؤاده ، قاطعـــاً الوف الفراسخ على قدميه ، وعندما يحس بالسعادة من منظر يراه أو شيء يسمعه ، يظل في مكانه نحواً من عشرة ايام .

ويقعي في المعبد على ساقيه ليسيطر على الارواح الثلاث الغالية . أوَ ليست الخمسة آلاف كلمة التي يضمها كتاب تاويتشينج في الفلسفة الرائعة ؟ أوَ ضاعت

النواويس الذهبية للكتب الطاوية أو انها ما زالت موجودة ؟ أو ليس من حقه ان يسأل جيرانه عن كتب فوسانج ؟ او يمثل سر كتابي بينفو امام ناظريه ؟ ان الملك الاعظم للكون يوجه عقله الواسع الاستشفاف ، كما ان بوذا يوجـــه حكمته الروحية . وهكذا لا يجـــد نفسه وحيداً في تأملاته وهو يحاول تفهم قانون الكون المتبدل .

ويرى في معبد بوذا تمثاله البرونزي الجليل وهو يضفي على ما حوله هالة من المجد . وتضاء الشموع ، ويمتلىء المكان برائحة البخور الزكيــة الناعمة ، ويرى الطاويين والرهبان وهم جلوس على وسائدهم المصنوعة من القش يشربون الشاي ويأكلون الفاكهة ويتابعون دراساتهم القديمة . وعندما يحسون بالتعب بعــد الجهد الذي يبذلونه ، يسيطرون على عرقهم ، وينتقلون الى مرحلة الهـــدوء . ولكنهم يعودون فيستيقظون بعد امد طويــل ، ويرون القمر وهو يشرق من وراء اشجار الوسطار ، بينما يكون الصمت مخيماً على الكون . وهناك ســادن للمعبد يتعبد ويهجد ويسجد ، بينما يقعي خادم على مقربة من الموقد ، وقد راح في اغفاءة ، يشرف على اعداد العلاجات التي توصي بها الجنيات . وهــل يمكن لأية فكرة دنيوية ان تتسرب الى افكارنا في مثل هذه اللحظـــات ، حتى ولو كانت قابعة فيها ؟ .

وعندما يخرج الى الارض العراء في الريف ، يجـــد جدراناً خفيضة تحيط بأكواخ من الطين صنعت سقوفها من القش . وتهب ريح نفـّاذة عاتية عبر الباب. بينما تعكس شمس هادئة اشعتها على الغابات . وتعود الماشية من ابقار واغنـام الى زرائبها عند السفح ، بينما تطلق الطيور الجائعة اصواتهـــا في الحقول وسط السهل . ويجلس فلاح عجوز بملابسه الرثة وشعره المشوش ، يتناول حمامـــاً شمسياً تحت شجرة توت صغيرة ، بينما تقف امرأة عجوز وقد حملت جرة ماء من الفخار تقدم له طعاماً مصنوعاً من الحنطة . ويحس المرء بالرغم من حزن هذا المنظر ، بجمال الصورة . وليس من حق الطاوي ان يرتحل مطلقـــاً ، اذا كان يعتبر مثل هذه المناظر شيئاً عادياً .

وعندما يدخل مينجلياوتسي إلى مدينة كبيرة تعج بالناس ، وتحتشد بحركة العربات والجياد في شوارعها ، يمضي في طريقه مغنياً ، ومتطلعاً الى الناس ، من أصحاب حوانيت وجزارين ومغنين ، وقــارئي البخت ، والى المتشاجرين، والمشعوذين، ومدربي القرود والمقامرين والرياضيين. أجل، انه يتطلع الى كل من يراه . وعندما تستهويه رغباته ، يلج مشرباً ليطلب كأساً من الخمر ، وسمكــة مقلية وبعض الخضار ، وهكذا يتناول طعامه وشرابــه مع رفيقه . وعندمــا يحسان بالحرارة تسري فيعروقهما، ينشدان بعض الأغاني وينظران إلى من حولهما وقد رضيا عن نفسيهما. ويتطلع الناس بذهول في الشارع الى هذين الرجلين اللذين يرتديان الأسمال البالية، وهما ينعمان بمثل هذا المرح والسعادة ، ويتسرب الشك الى نفوسهم في ان يكونا من الجن وقد لبسا ملابسالناس. ولا تمضي لحظات حتى يختفي مع رفيقـــه عن الأنظار .

ويقيم الامراء والنبلاء وكبار الموظفين وليمة شراب في قصر منيف تحيط به الأسوار العالية. وتقدم الأطعمة على صحاف من الصيني بينما تنتشر الحسان حول الموائد . وتعزف فرقة موسيقية الحانها في القاعة وتخترق هذه الألحان صفحات السحب . ويقف خادم عجوز يحمل عصى في يده في مدخل القاعة . ويمضي مينجلياوتسي مباشرة اليه، يسأله بعض الطعام . ويصرخ في الجمع ، وقد اتسعت حدقتاه ، واحاطت بوجهه المهابة قائلاً ... اوقفوا هذا الضجيج واستمعوا الى طاويّ ينشدكم اغنية « قطرات الندى على الأزاهير » ثم يقول ...

« قطرات الندى تتساقط على الأزاهير ...
آه ما أسعدها من رؤيا ...
لا تخشوا الريح القاصمة العاتية ...
ولكن خافوا من اليوم القادم الهادىء ...

« يسير النهر متهادياً باتجاه الشرق ...

ويتجه نهر المجرة الى الغرب في السماء :
ويقوم المزارعون بفلاحة الحقل
الذي كان في يوم ما مكاناً للبرج البرونزي .
من الخير للانسان ...
ان يقضي يوماً في هذه الأرض الطيبة
على ان يتطلع الى اسماء في المستقبل لا يذكرها ...
اجل عليه ان يغتنم لحظات السعادة وينتهبها .

* * *

« قطرات الندى على الأزاهير
آه ما اجمله من يوم ...
« انها تظل فوقها امداً طويلاً ، مشرقة
وكأنها اللآلىء في نور الصباح .
وعندما تخطط الربى الصاعدة ارض المنبسطات
وتئز الريح في هدأة الليل ...
تنبح الثعالب وتنعق البوم ،
فوق أشجار الحور الشديدة البياض ،
انظر الى المكان الذي تفقد منه الأوراق الحمراء
متساقطة على المرج الذي كان يفوح بالأريج ،
وإلى الطحالب وهي تنمو فوق قصر شيفيان الخرب
آه . عليك ان تغتنم لحظات السعادة وتنتهبها ».

وعندما اكمل مينجلياوتسي اغنيته ، بدا أحد الضيوف غاضباً ، اذ قال... « من هذا الطاوي الذي جرؤ على افساد حفلة شرابنا ؟ اعطوه قطعة من كعك السمسم ، واصرفوه عنا ». وتناول مينجلياوتسي الكعكة ومضى بها . ويهمس ضيف آخر في اذن تابعه قائلاً ... « الحق بسرعة بذلك الطاوي ، وعد به

الينا ». ويسمعه الضيف الأول فيقول ... « ولكننا كنا ننعم بشرابنا ، وقد جاء ليفسد سعادتنا علينا . وهذا ما دعاني الى صرفه بقطعة من كعك السمسم . يكفيه هذا . فلم تريد منه ان يعود الينا . » ويرد الثاني قائلاً ... « يبدو لي ان هناك شيئاً غير طبيعي في هذا الطاوي ، واني لأريد منه ان يعود لأنظر اليه نظرة متفحصة . » وقال الأول ... « ولكنه ليس اكثر من شحاذ. فأي شيء غير عادي فيه . ان كل ما يريده ، بعض بقايا الطعام » ... واشترك في الحديث ضيف ثالث وقال... « ولكن لا يبدو من الأغنية التي انشدها انه مجرد شحاذ».

وتثب فتاة من المغنيات من مكانها، وكانت في ثوب من القز الأحمر وتقول... « في رأيي المتواضع ، ان هذا الطاوي ، جنية هبط من السماء . ففي عينيه رقة ، وفي جبهته تألق ، وفي صوته قوة ووضوح . انه متنكر في شكل شحاذ، ولكن في سلوكه ما ينم على اصله النبيل . ولا شك في ان الأغنية التي انشدها رائعة وعميقة في معناها ، وهي شبيهة باغاني الجنيات في السماء لا بأغاني الرجال على الأرض . وهل في امكان شحاذ عادي ان ينشد مثل هذه الأغنية ؟ انه جنية متنكرة في شكل انسان يطوف في الأرض . أرجو ان تطلبوا اليه العودة، وعلينا ان لا نخسره ».

« ولكن ما هذا الذي تتحدثين به؟ ان كل ما يريده شيء من الشراب. دعوه يأتي ، وسنرى انه ليس اكثر من انسان عادي ؟ »

ولم تقتنع الفتاة ذات الرداء الأحمر وقالت ... « كل ما استطيع قوله ، هو ان حظنا لم يشأ لنا ان ننعم بصحبة الخالدين ».

ووثبت فتاة اخرى ذات ثوب اخضر من القز من مكانها وقالت... « أهناك من يريد المراهنة؟ لندع الطاوي الى العودة، فاذا كان شيئاً غير عادي ، كقديس او فيلسوف أو جنية من السماء خسر الذين يقولون انه انسان عادي الرهان، وإلا كان العكس ... »... وأقر الرجال اقتراحها ، وسرعان ما اوفدوا خادماً

وراء مينجلياوتسي ، ولكنه لم يجده ، اذ كان قد اختفى تماماً . وعاد الخادم اليهم ، ينقل هذا النبأ ... وقال الرجل الأول ... آه ... لقد عرفت انه ليس بالشخص العادي ... وقالت الفتاة ذات الرداء الأحمر ... « يا للأسف ، لقد اضعنا فرصتنا في صحبة انسان من الخالدين ... ها هو لم يكد يخرج من البـاب حتى اختفى تماماً عن الأنظار ».

ومضى مينجلياوتسي بعد ذلك مع عصاه ، ومر بهدوء خـارجاً من بوابة المدينة الخارجية ، ثم مر بنحو من اثنتي عشرة مدينة كبيرة ، دون ان يدخـل أياً منها ، الى ان وصل اخـيراً الى مكان رأى فيه سور مدينة يعشش في قلب سلسلة جبلية . وابصر هناك ابراجاً عالية ورائعة ، ومعابـــد فسيحة وفخمة ، تتفاوت سقوفها في الارتفاع بصورة تفتقر الى الضابط ، وتطل كلها على بحـيرة ماء رقراق تحتها. وكان النهار من ايام الربيع الجميلة ، والطيور تغرد على الاشجار ، والأزاهير كلها متفتحة كامل التفتح . وكان جميع رجال المدينة ونسائها قـد خرجوا في احسن الثياب ، وامتطوا صهوات جيادهم او استقلوا عرباتهم المنقوشة ، لتحية الربيع . ورأى بعضهم يجلسون ، يحتسون الخمر في ظلال بعض الأشجار السامقة ، والبعض الآخر ينتشرون على الحصر فوق الاعشاب بينما كان هناك آخرون قد ارتقوا قمة برج ازرق اللون ، او يستقلون قوارب خضراء في البحيرة ، وابصر بجماعات تسير في صفوف ، وقد تشابكت ايديها تنشد الاغاني الشعبية . وأحس مينجلياوتسي بمنتهى السعادة ، وتوقف هناك مدة طويلة .

ورأى مفكراً جليلاً ذا وجه ناصع وتقاطيع جميلة ، يظهر من بعيد ، وهو يسير الهوينا مرتدياً معطفه الطويل. وعندما تقابلا ، انحنى المفكر لمينجلياوتسي ثم قال ... « وهل يخرج الطاويون لاستقبال الربيع واستعجاله ؟ هناك عدد من الاصدقاء يتنزهون تحت اشجار الكرز امام البرج الصغير الواقع عبر النهر . انهم رفاق مرحون ، ويسعدنا ان تكون معنا . أفي وسعك ان ترافقني ؟ »

وسار مينجلياوتسي سعيداً وراء الشاب المفكر، وعندما وصلا الى المكان، وجد ستة او سبعة من طلاب العلم من زملاء المفكر و كلهم في ريعان الشباب، وذروة الاناقة . وراح رفيقه يقدمه الى الصحب مبتسماً وهو يقول ... « هذا عيد الربيع يا رفاق . ولقد التقيت بهذا السيد الطاوي في طريقي وادركت انه ليس بالانسان العادي الرخيص، فدعوته، وها انا اقترح ان نشرب نخبه . ما رأيكم » ... وردوا جميعاً بالموافقة .

واحتل كل منهم مقعده، وجلس مينجلياوتسي في نهاية المائدة . وبعد ان احتسوا قدراً كافياً من الشراب، وانتشوا فرحين سعداء، أخذ الحديث يتألق وراحوا يصدرون ملاحظات ذكية وبارعة عن مختلف الناس والنبلاء . وراح بعضهم ينشد الاشعار في تحية الربيع، بينما غنى البعض الآخر اغنيات اقتطاف الأزاهير، وراح البعض الثالث يناقش سياسات البلاط، بينما تبادل البعض الرابع الحديث عن فتنة الجبال والغابات في عزلتها . ويدور نقاش مثير، يحاول كل واحد منهم ابانه ان يبّز رفيقه فيه ويتغلب عليه، بينما ظل الطاوي جالساً في هدوء يشغل نفسه بازدراء طعامه . ويتطلع رفيقه الأول اليه مرات عدة وسط الحديث وهو يقول... « يجب ان نسمع شيئاً من هـذا المعلم الطاوي ». ويرد مينجلياوتسي... « ليست هناك حاجة للحديث ايها السادة، فانا انعم باحاديثكم واتمتع بها، وان كنت لم اتمكن من فهم بعضها . فهل في استطاعتي ان أسهم في مناقشاتكم ؟ »

ويمضي الجمع بعد فترة للمشي وسط حقول الارز، والتقاط بعض الازاهير، ينشغل البعض منهم فيقطع فروع الصفصاف الصغيرة. وكان المكان حافلاً بكل مـا هو جميل، من نباتات وازاهير ومناظر ساحرة . ودخل مينجلياوتسي وحيداً في ممر جبلي، ثم عاد اليهم بعد فترة طويلة . وراح الشبان يسألونه ... لم ذهبت وحيداً ؟. ورد مينجلياوتسي ... «لقد مضيت مع برتقالتين وزجاجة من الشراب لاستمع الى تغريد البلابل» ... وقال احدهم ... « انه رجل غير

عادي ، وهذا واضح من حديثه » ... ورد مينجلياوتسي معلناً تواضعه ، وقائلاً انه لا يستحق هذا الاطراء .

وعـاد الرفاق الى الجلوس ثانية ، وقال احدهم ... لا يخلق بنا ان نعود الى بيوتنـا من مثل هذا الجمع . دون ان ننظم بعض الشعر ... وسرعان ما وافقه آخرون ...

واكمل احدهم قصيدته وراح يقرأ ...

« سكرت اشجار الصفصاف بالألق المتهاوج
وتألقت ازهار الخوخ بعد ان غسلتها الامطار ...
لا تخشى من ان يفرغ كأسك الزاهي ...
فهناك حانة عبر النهر ... »

واكمل ثان قصيدته وقال ...

يشترك مطبخي مع الجبال في خضرتها
ويصيب البلل برجي من رذاذ المطر ...
واذا لم تشرب ، والربيع قد جاء .
فسيكون الحرمان نصيبك لأن ايام الريح المطرة قادمة »

وتبعه ثلاثة من الرفاق . قرأوا مـــا اعدوه من شعر . ثم طلب الجميع من مينجلياوتسي ، ان يلقي بدلوه بين الدلاء . ويقف الطاوي على قدميه ، ويتردد ، ولكن الرفاق يصرون ، ثم ينشد قائلاً ...

« اخطو على الضفاف الرملية ...
« حيث السحب حمراء ، والماء صاف رقراق ...

« وتمضي كلاب الجن فزعة مني وهي تنبح
لتختفي هناك في غابة اشجار الخوخ » .

ويدهش الرفاق من هـــذا الشعر ، فيقفون جميعاً ، ليحنوا هاماتهم اجلالاً لمينجلياوتسي وهم يقول ... « يا لله ... أنسمع هذا الشعر السماوي من راهب ناسك . حقاً لقد كنا نعرف انك انسان غير عادي » . ويتحلق الجميع حوله ، يسألونه عن اسمه واسم اسرته ، فيعتذر عن الرد مكتفياً بالابتسام ... ولكنهم يزدادون اصراراً ، ويقول مينجلياوتسي ... « لِمَ تودون معرفة اسمي ؟ انا لست الا انساناً بسيطاً يطوف بين السحب والمياه. وقد اجتمعنا على ابتسامة... في وسعكم ان تطلقوا عليّ اسم « الرجل البسيط الجوّاب بين السحب والمياه » . ودهش الرفاق من هذا الرد، واعربوا عن رغبتهم في دعوته الى المدينة معهم فقال... «اني راهب فقير انعم بحياة الأفاق وتجواله ، واحس بان العالم كـــله مأواي . ولكن لما كنتم على هذا القدر من اللطف ، فسألبي دعوتكم » .

ومضى الجميع الى المدينة ومعهـــم مينجلياوتسي ، الذي تناوب الرفاق استضافته . وهكذا وجد نفسه ينتقل من قاعة رجل ثري ، الى مرسم فنان خفي ، وينعم بالجلسات الادبيـة التي يتخللها الطعام والشراب حيناً ، ليرقب حفلات الرقص والغناء حيناً آخر . ولا يتردد في قبول اية دعوة توجـه اليه . ويسمع الناس بهذا الرجل البسيط الجواب بين السحب والمياه ، فيتسابق الجميع الى دعوته ، ولا يرفض لأحدهم طلباً . فهو يشرب اذا ما قـدم اليه الشراب ، ويناقش الشعر ، والادب ، اذا ما حضر مناقشاتها ، ويمضي الى رحلات الصيد اذا ما دعي اليها ، ولا يرفض لأحد طلباً سوى ان يفشي سر اسمه ، اذ كان يرد على سائليه عنه دائمـــاً بالبسمات . وتصدر عنه في مناقشاته الادبية والشعرية تعليقات رائعة تتناول الادباء والشعراء الاقدمين والمحدثين ، محلـلاً بكثير من الاستشفاف أساليبهم وصورهم الادبية . وكثيراً ما بحث في النظم السياسية عند الملوك القدامى ، واصدر تعليقات لاذعة على الاحداث السائرة ، ساحراً بهـــا الناس الذين شغفوا بما يقول .

وكان واسع العلم بصورة خاصة في تعاليم الطاوية عن الغذاء الروحي . وكان احياناً يبدو متمتعاً كالمفكرين الرومانسيين عندما يشهد الرقص ويسمع الغناء ، ويصغي الى النكات اللاذعة من الشبان الذين كانوا يتعمدونها ليعرفوا رأيه فيها . ولكنه كان يرفض الاذعان الى طلب مضيفه بان يجلس الى جانب غانية ، عندما يشتد الصخب وتطفأ الشموع ، ويظل منتصب القامة في غرابة ، ولا يجرؤ احد على التحدث اليه . وكان اذا مـا رغب في الاغفاء في الليل ، طلب وسادة من القش من مضيفه ، وجلس عليها ليمضي في اغفاءة قصيرة. وهكذا ازداد اعجاب الناس به وعجبهم من تصرفاته .

وهكذا قضى نحواً من شهر في المدينة ، ولكنه طلب ذات يوم ، وبصورة مفاجئة السماح له بالرحيل ، واصر على عزمه بالرغم من توسلات اهل المدينة له بالبقـــاء . وتدفقت عليه الهدايا والعطاءات من اصدقائه ، ونظمت القصائد في وداعه . وعندما اجتمع الرفاق لتحيته مودعين ، ذرفوا الدمع مدراراً لفراقه ، وامسكوا بيديه اظهاراً لما يكنونه من حب له . ووصل مينجلياوتسي الى بوابة المدينة الخارجية ، وبعد ان احتفظ لنفسه بمائة قطعة نقدية ليس إلا ، راح يوزع ما تلقاه من اموال وهدايا على الفقراء ، ثم مضى في طريقه . وعندما سمع الرفاق بما عمله ، تنهدوا آسفين ، لانهم لم يعرفوا حقيقته .

٥ – فلسفة الهروب

وسار مينجلياوتسي في ممر جبلي ليجد نفسه وسط جبال شاهقة ، صخرية . وكانت هناك الوف الاشجار الهرمة وقد علتها المتسلقات من الشجيرات ، ناشرة ظلالها على الارض ، بحيث يسير الانسان ساعات طوالاً دون ان يرى الشمس . ولا يرى في المكان أي اثر لانسان ، حتى ولو كان من الحطابين او الرعاة . ولا

يسمع الا نأمة الطير وهمهمة القرود ، وزئير ريح صرصر عاتية ، ترتجف مفاصله رعباً منها . ويمضي مينجلياوتسي مع رفيقه مسافة طويلة ، الى ان يلقيا فجأة ، رجلاً عجوزاً يتوج الشيب هامته ، وبانت المهابة والرقة في تقاطيعه . وكان الشيخ طويل الشعر بحيث انسدل على كتفيه ، وقد اقعى على صخرة عالية . ومضى مينجلياوتسي اليه ، وانحنى له محيياً ، ووقف الشيخ وتطلع الى الوافد مدة طويلة دون ان ينبس ببنت شفة . وركع مينجلياوتسي امامه وهو يقول ... « هل الأب انسان غير عادي ، حصل على الطاوية ؟ انه التفسير الوحيد للعثور على آثار اقدامه في هذه العزلة الجبلية . انني من حوارييك ، وقد احببت الطاوية ، ووصلت الى اوسط العمر دون ان اكتشفها . وانني لأحس بالحزن من غرور الحياة التي تذبل بسرعة ، وكأنها ومضة سراج يسير في طريق الفناء . أوَتشفق علي يا سيدي ، وتبدد عني غياهب الجهل التي تلفني ؟ » . وتظاهر الشيخ بأنه لا يسمعه . ولكن مينجلياوتسي ظل يلحف على الشيخ حتى استجاب له ، فعلمه بضع كلمات عن ضرورة اللامبالاة والهدوء ، وفكرة التوقف عن النشاط ، ثم مضى عنه في طريقه . وظلت عينا مينجلياوتسي تلحقان بالشيخ حتى اختفى تماماً ، وراح يتساءل عن كيفية وجود مثل هذا الشيخ في هذه العزلة الجبلية .

وواصل مينجلياوتسي طوافه ، والتقى فجأة بصديق قديم له ، وكان كثيراً ما ود رؤية هؤلاء الاصدقاء القدامى الذين ربطه بهم الحب المشترك للشعر والنثر ، او الاحترام المتبادل للشخصية ، او علاقات العمل ، أو القرابة الشخصية او التفهم المتبادل لمكنونات الصدر ، أو الثقة المتبادلة في المستقبل . ومضى مباشرة الى بيت صديقه ، دون ان يخفي هويته . ويتلقاه هذا بالتحية والانحناء ، وعندما رأى ان مينجلياوتسي يرتدي ثياباً غريبة ، اصابته الدهشة ، وراح يوجه اليه اسئلة عدة . وقال مينجلياوتسي ... « لقد قررت اعتزال العالم ، واصبح شيشين تونجمينج الاستاذ الذي اسير على تعاليمه » . وسأله الصديق ... « وهل تزوج اولادك وبناتك جميعاً ؟ » . فرد مينجلياوتسي ... « لا . لم يتزوجوا بعد ، ولكن عندما يتزوجون جميعاً ، سأتحرر من جميع همومي ،

واصبح كمياه النهر الاصفر في صفائها . ولقد صعد تسيبينج الطاوي الى السماء ولم يعد ، ولكنني ما زلت اتطلع الى العودة الى جبال وطني . لأعيش منسجماً مع طبيعتي الاصيلة » . وقدم له صديقه طعاماً نباتياً ، وراحـا يتحدثان عن الايام التي خلت ، والتي انقضى عليهـا نحو من ثلاثين عاماً ، ويتبادلان الضحكات ، وكأن ما مر بهما كان من الاحلام . ويحني الصديق هامته ويتنهد ، معربـاً عن حسده لمينجلياوتسي ، للحياة الخالية من الهموم التي يعيشها .

وقال الصديق ... « أوَ لست حقاً خالياً من الهموم . ان الناس يغرقون في لجج البحث عن السلطان والمال والامجاد الدنيوية . وكثيراً ما ارى رجـلاً شيخاً ، جلل الشيب هامته ، يسير ببطء في موكب رسمي ، محاولاً التعلق بهذه التفاهات التي لا يريد منها الفكاك . ولو حدث وصرف ذات يوم من وظيفته ، تجهم عابساً ، غضباً وحزناً . واذا ما سأل عن العربة اذا كانت على أهبـة ، تباطأ في السير لأنه لا يريد مغادرة مكانه ، واذا ما خرج من بوابة المدينة التي طرد منها ، ظل يتطلع اليها بعد خروجه . واذا ما عاد الى مزرعته ، رأى ان من المهانة له ان يستأنف عمله في زراعة الارز والكرنب والبقول ، ويظـل آناء الليـل واطراف النهار ، متعطشاً لسماع الانباء عن المدينة ولا ينفك عن كتابة الرسائل الى اصدقائه في البلاط ، وهواجس العودة الى وظيفته تسيطر على كل كلمـة يكتبها الى ان يموت . وكثيراً ما يحدث ان يصل الامر الامبراطوري باعادتـه الى منصبه اليه وهو يلفظ انفاسه الاخيرة ، أو يفد الرسول بعد ان يكون قد اغمض عينيه للمرة الاخيرة ببضع ساعات . أوَليست هذه الاوضاع مضحكة ؟ ترى كيف عودت نفسك على التحرر من مثل هذا الوضع في الوقت المناسب .

فرد مينجلياوتسي قائلاً ... « كنت في اوقات فراغي . أمعـن النظر في الحياة . ويبدو لي انني استيقظت من احلامي عندما احسست بمـا في الحياة من مـآسٍ . وكنت اتطلع الى السماوات ، واستغرب من اسراع الشمس والقمر

والكواكب ونهر المجرة في سيرها غرباً اناء الليل واطراف النهار ، وكأنها من البشر الذين يعملون دائماً ... ورأيت ان اليوم يمضي ولا يعود ، ومــع ان الغد يأتي إلا انه غير اليوم . وتمضي السنة ولا تعود وبالرغم من مجيء سنة جديدة ، الا انها تختلف عن السنة التي مضت ، وهكذا تظل ايام الطبيعة تطول وتطول، بينما ايام حياتي تقصر وتقصر ، ولا أحس بأن لي من الزمن سوى الستة والثلاثين الفاً من الايام التي قد أعيشها . اجل، تطول سنوات الطبيعة ، وتقصر سنوات حياتي ، وليس لي منها سوى مائة عام . يضاف الى هذا ان هــذه السنوات أو الايام التي نعيشها لا تمر دائماً على النحو الذي نريدها فيه ، ففيهــا الكثير من الطقس السيء والحزن والقلق والسعي وراء العيش . ترى أهناك لحظات كثيرة في عمرنا ، يكون النهار فيها جميلا ، والرفقة ممتعة ، والقمر بــــدراً ، والريح هادئة ، والفؤاد مستريحاً ، والروح سعيدة ، والغناء والموسيقى والخمر تملأ كل دقيقة من دقائقها ، وتضفي عليها السعادة والهناء . ؟

.. وتسير الشمس والقمر في مدارهما، بسرعة العيار الناري، وعندما يصبح قرصاهما على استعداد للاختفاء وراء الافق الغربي ، لا تستطيع ذراع أي رجل مهما كان قوياً ان تحول بينهما وبين الاختفاء أو ان تشدهما للسير باتجاه الشرق ، وليس في استطاعة بلاغة سوشين وشانج يي ان تقنعهما بالرحيل شرقــاً ، كما ان ليس في استطاعة ذكاء شوتليتسي وبين يينج ان تحملهما على تغيير اتجاههما ، أو في مكنــة شينجوي باخلاصها ، الذي ضربت به الامثال اذ ضربت نفسها بقوس قزح ، وتحولت الى طائر ، محاولة ان تملأ البحر بدموعهــا ان تؤثر على فؤاديهما وان تحملهما على الاتجاه شرقاً . ولقد رأى الكتاب الذين عالجوا هــذا الموضوع عبر العصور ، ان هذه القضية مسألة أسى أزلي .

..وتطلعت الى الارض حيث تساوت الشواطىء العالية مع الوديان، وامتدت الوديان السحيقة لترتفع الى الجبال السامقة ، وحيث تجري ميــــاه الانهار والبحيرات ليلاً ونهاراً باتجاه الشرق لتصب في البحر . وتقول فانج بينج وهي

من جنيات الطاويين ... « لقد رأيت البحر يتحول الى حقل من اشجار التوت وبالعكس ثلاث مرات منذ تسلمت عملي » .

.. ونظرت إلى الاشياء الحية في هذا العالم ، وكيف تولد وتنمو وتكبر ، وتشيخ ثم تمرض وتموت ؛ فتطحنها عجلة الحياة ، ويجف عودها كما يجف الزيت في مقلاة عندما توضع فوق النار ، أو كما تنطفىء الشمعة بعد ان يهتز ضوءها في الريح ، وتجف دموعها بعد سقوطها على المنضدة ، أو كزورق مزقته الامواج المرتفعة ثم اخذت تضرب به ذات اليمين وذات الشمال ، فيطوف دون ان يعرف إلى أي مكان يتجه . يضاف إلى هذا ان رغبات الانسان السبع تواصل اشعال النار في فؤاده كما ان متع الجسد تضويه ، فيحس احياناً بالافراط في خيبة الامل ، واحياناً اخرى بالزهو والتسامي ، واحياناً ثالثة بالافراط في القلق . ولو لم يكن يعرف ان عمره لن يطول عن مائة عام ، لوضع خططه لكي يعيش الف عام ، وبالرغم من قعوده كالزيت فوق النار ،فان مطامعه تتعدى حدود الكون . أهناك والحالة هذه ، ما يدعو إلى العجب ، اذ كان هذا الانسان يتـــدهور بسرعة عندما يصل حدود الشيخوخة ، ويكون قد استنفد طاقاته ، وتروح روحه جائلة في كل ما حولها ؟ .

.. ورأيت امراء ونبلاء وقادة عسكريـــين ورؤساء وزارات ، تؤلف سقوف بيوتهم المتقاربة خطوطاً في السماء وكأنها من السحب . وعندمـا تقرع الاجراس يتناول الوف الناس الطعام في بيوتهم ، وعندمـا تفتح بواباتهـــا في الأصبحة تفد جماهير الزائرين اليهم . وهم يقيمون المآدب في الليل والنهار ، وتمتلىء قاعاتهم بالنسوة في أبهى زينتهن . وعندمـــا يمر بهم راهب مسكين ، ينهال صراخهم عليه وكأنه الرعد ، فلا يجرؤ حتى على التطلـــع الى القصر . ولكن تنقضي الاعوام ، ويمر عشرون عامـــاً او ثلاثون ، ويعود الراهب فيمر بالقصر نفسه ، فيرى الحديقة وقد امتلأت بالاعشاب البرية اذ لا تجـد من يعنى بها ، والجدران وقد تهدمت ، والشمس الباردة مطـــلة على خرائب القصر

الذي فقد سقفه . وتحول المكان الذي كان في يوم ما مسرحاً للحفلات والغناء والرقص والمرح الى مرعى لصبيان الرعيان . ترى هل عرف ساكنو القصر وهم في ذروة مجدهم ، يمرحون ، ويحتفلون ، ان يوماً كهذا سيحل بهم ؟ ولِمَ تنقضي امجاد هذا العالم في ومضة عين ؟ وهل كانت حديقة شينكو وبرج تونجتاي ، وقاعة بيهسيانج وبركة تيبي ، هي التي تحولت وحدها الى خرائب ، بعد مرور مئات السنين والوفها ؟. وكنت في ايام راحتي ، اخرج من المدينة ، وامضي الى التلال حيث ارى سلسلة من الهضاب الملأى بالقبور . ترى أهي قبور يين وهان وشين ووي ؟ وهل كان اصحاب هذه القبور من الامراء والنبلاء أم من الاتباع والخدم؟ وهل كانوا من الابطال أم من الجانين ؟ أنّى لي ان اعرف هذا من رؤية هذا التراب الاصفر . ان ما اعرفه انهم كانوا في حياتهم يتعلقون بالامجاد والثراء ، وكانوا في اطماعهم يحسدون بعضهم بعضاً ، وكانوا يخططون لأمور لم يكن في وسعهم تحقيقها ، ويكسبون اشياء ما كان في امكانهم استخدامها . ترى هل كان فيهم من لا يقلق ولا يخطط ولا يكافح ؟ لكنهم أغمضوا عيونهم ذات صباح في غفوتهم الابدية ، وخلفوا كل همومهم وراءهم .

.. ولقد توقفت عند مقرات الموظفين ومساكنهم ، وتساءلت عن عدد اولئك الذين اتخذوا اماكن غيرهم ، واصبحوا يمثلون دور اصحابها . ولقد تطلعت الى سجلات الموظفين في المحاكم ، وتساءلت عن المرات التي محيت فيها الاسماء القديمة ، لتحل محلها اسماء جديدة . ومررت بالممرات الجبلية . والمضائق النهرية ، وارتقيت الجبال العالية لأطل منها على السهول ، ورأيت مواكب لا تنتهي من الزوارق والعربات ، وتساءلت عن عدد المسافرين الذين حملتهم . وكنت اتنهد في حسرة صامتاً ، واحس بدموعي تتساقط وبرغبات فؤادي تخبو لتتحول الى رماد » .

ويرد صديقه ... « سمعت من يينتسي ان سانشيو كان سعيداً ، لأن ليس ثمة موت ، وان شينج ملك شي ، ذرف العبرات وحزن حزناً شديداً ، عندما

سمع بوجود الموت ، وان الحكماء من الناس انتقدوه لأنه لم يفهم الحيـاة . أوَ لا تحس الى الافتقار الى حكمة اولئك الذين يفهمون الحياة عنـــدما تحس بالحزن وتذرف العبرات بسبب ما تتميز به الحياة من سرعة في الانقضاء ومن افتقـــار الى الاستقرار ؟ » .

ويرد مينجلياوتسي ... « لا ... لقد حزنت لأن الحياة غـير مستقرة ، وقد افقت من هـذا الاحساس الحزين . فقـــد خشي الملك شينج ان يكون سلطانه ومجده مؤقتين وكان يريد ان يتمتع بهما الى الابد ، وان يستنزف كل ما في الحياة الانسانية من سعادة . لكنني على النقيض من ذلك ، أحس بعــدم استقرار الثراء والسلطان ، وارغب في ان ابقيهما بعيداً عني ، لأسير حياتي على اسس عادية . ومن هنا تختلف اهدافنا » .

ويقول صديقه ... « اذن هل توصلت الى الطاوية ؟ »

فيقول مينجلياوتسي ... « لا لم اصل اليها . وانما انا محب لها » .

... اذن لم هذا التجوال اذا كنت تحب الطاوية ؟

— لا تخلط بين اسفاري وبين الطاوية . كل ما حدث هو انني مللت من قيود حياة الوظيفة ، ومتاعب الشؤون الدنيوية ، فقررت ان ارتحل لأحرر نفسي منهما . أما بالنسبة الى استكمال « مشاغل الحياة العظيمة » فعليّ ان انتظر حتى اعود ، واعتزل الناس .

— وهل انت سعيد بهذا الطواف . وانت لا تحمـل الا زجاجـــة الماء والقلنسوة . ولا تعرف الا الشحاذة والغناء وسيلة للعيش ؟

— سمعت من استاذي ان فن تحقيق السعادة يمثل في الابقاء على اعتـــدال مسراتك . وعند ما يصل الناس الى مأدبة تذبح فيها الخراف والابقار ، وتقدم

فيها اطايب الطعام الناتجة عن البحر او البر ، يحسون بالتمتع في البـــداية ، ولكن عندما يصلون الى حد الشبع ، ينتـــابهم شعور من التقزز ، ويؤثرون على هذه الاطايب اطعمة عادية بسيطة من الارز والخضروات ، التي تتميز بالاعتدال والصلاح لصحة الانسان ، والتي تملك مذاقاً دائماً بعد ان يتعود عليها الانسان . ويحس الناس بالمتعة ايضاً في البداية عندما يكونون في حفـــلات تضم النساء والاطفال ، ويكون فيها احدهم يقرع الطبـل بينما يعزف الآخر على الشينج ، وتدور احداث عدة في القاعة . ولكن بعد ان تزول الاثارة الاوليـــة ، يحس الانسان بشعور من الحزن والأسى . وهو لهذا يؤثر على هذه الحفلات الصاخبة ان يجلس هادئاً وكتابه في يده ، وبالرغم من انني كنت موظفاً في يوم ما ، الا ان كل ما كنت امتلكه لم يعد مجموعة من الكتب . وكنت ارتحــــل في البداية ومعي هذه الكتب ، ولكن عندما خفت ان تكون سبباً في استثارة حسد ارواح الماء وحقدها ، فقد القيت بها في الماء . وها انا لا املك الآن سوى هذا الجسد . أوَ لا يظل والحالة هذه سحر الحياة موجوداً معـي طالما انني لا أحس بالمتاعب ، واشعر بالهدوء يلفني ، وبالحرية تصاحب جسدي وروحي ؟ وها انا اذهب حيث اشاء ، لا رفيق لي الا هذه الزجاجة ، وذلك الجراب ، واحل حيث اشاء ، وآخذ كل ما اريد . واذا ما حللت ببيت لم اسأل عن اصحابه ، واذا ما غادرته لم اذكر لهم اسمي . وانا لا احس بالضيق عندما اظل وحيداً في العراء، ولا اشعر بالاختناق عندما اكون في صحبة رفاق يسودهم الصخب . ومن هذا سيتبين لك ان تعلم الطاوية هدف آخر من اهداف اسفاري » .

وعندما سمع صديقه قوله هذا ، رد والابتسامة على شفتيه ... « أحس وانا اسمع ما تقول ، وكأنني تلقيت جرعة من دواء مسكّن . فقد فارقتني الحمّى المزعجة دون أن احس » .

« .. وتتلو ذلك مناقشة عن جوهر الديانات الثـــلاث ووجود الله وبوذا والجن والاشباح » .

ولم تمض فترة حتى دخل شاب الى المكان، واشار بأصبعه الى مينجلياوتسي ، وهو يهتف قائلاً .... « اخرج من هنا ايها الشحاذ . على الراهب ان ينصرف هادئاً بعد ان يتناول طعامه . ولو واصلت الثرثرة على هذا النحو من السخف ، لاعتبرتك ساحراً ، وشكوتك الى المحكمة » . ولفّ الشاب كمه حول ذراعه وكأنه يستعد لضرب مينجلياوتسي ، ولكن الاخير يكتفي بالابتسام دون ان يرد عليه . وينتهي الشجار اثر تدخل احد المارة .

ويمضي مينجلياوتسي وهو ينشد اناشيده . ويتوقف عندما جن الدجى ، عند احد الخانات ، فيرى امرأة حسنة اللباس تسترق النظر من باب الخان . وتقترب منه شيئاً فشيئاً . وتشرع في مداعبته بكثير من المكر . ويتصور مينجلياوتسي انها روح شريرة ، ويظل في مكانه هادئاً ... وتقول المرأة ... « انني من الجنيات ، ولقد جئت لانقاذك لأنني اعرف انك كنت تبذل قصارى جهدك لتعلّم الطاوية . يضاف الى هذا ان ثمة موعداً بيني وبينك منذ الحلول الروحي السابق . ارجو ان لا تشك في . وسأرافقك الى الارض المسحورة » . وتذكر مينجلياوتسي ان لوشينجتسي تعرض عندما كان يتعلم الطاوية في شينجشان ، لمثل هذا الخداع من ساحرة ، سرعان ما سلمته عبداً ذليلاً إلى روح شريرة ، ففقد عينه اليسرى ومات دون ان يصل إلى الطاوية . وتعتبر روائع الادب الصيني القديم . ان فشل لوشينجتسي يعود الى افتقاره إلى السيطرة الكاملة على عقله، وإلى وجود الرغبات الشريرة في فؤاده . ومن الطبيعي ان تحطم الاشباح وارواح الثعالب حياة الناس الذين تتولى إغراؤهم ، ولذا يجب على الناس تجنبها ، ولكن حتى ولو اقترف القديسون وكبار الحكماء مثل هذه الخطيئة ، وتعرضوا للخديعة ، فإن من الخطأ أن يسيطروا على عقولهم وان يحافظوا على ارواحهم . وهكذا يظل مينجلياوتسي جالساً في هدوء كما كان ، وتختفي المرأة دون ان يعرف حقيقتها ، وهل كانت من أرواح الثعالب او الاشباح .

ويواصل مينجلياوتسي رحلاته ثلاث سنوات ، طائفاً بجميع ارجاء العالم

تقريباً ، ويستخدم كل ما يراه ويسمعه ويلمسه ، وكل ما يلقاه من اوضاع ويحضره من اجتماعات في تهذيب عقله ، ويقيم مينجلياوتسي الدليل على ان تجوال الافاق لا يخلو من المنافع .

ويعود بعد هذه الاسفار الطويلة إلى وطنه . فيبني كوخاً له في جبال زيمينج ، ويظل فيه حتى نهاية ايامه .

* * *

١٢

التمتّع بالثقافة

١ – حسن الذوق في المعرفة

يهدف التعليم كما تهدف الثقافة اول ما يهدفان الى تنمية حسن الذوق في المعرفة وحسن الشكل في السلوك . وقد لا يكون الرجل المثقف أو الرجل المتعلم النموذجي بحكم الحتمية هو ذاك الذي يقرأ كثيراً، أو يتعلم كثيراً ، ولكنه ذاك الانسان الذي يحب ويكره على نحو سليم وصحيح . ولا ريب في ان معرفة ما يحب وما يكره هي في الواقع والحقيقة التذوق السليم للمعرفة . وقد لا يكون اكثر ضيقاً للانسان من مقابلة انسان في حفل يكون عقله محشواً بالتواريخ والارقام ، ويكون واسع الاطلاع على الشؤون الدولية في روسيا أو تشيكوسلوفاكيا ، ولكنه في الوقت نفسه يحمل افكاراً ووجهات نظر خاطئة في كل ناحية . ولقد لقيت امثال هذا الانسان ، ووجدت انهم يتقدمون عند مناقشة أي موضوع بحقائق وارقام يحفظونها عن ظهر قلب ، ولكن آراءهم ، تكون من الطراز الذي لا يحتمل. وقد يتميز هؤلاء بسعة العلم والحصافة، ولكنهم

لا يتميزون على الاطلاق بحسن الذوق والقدرة على التمييز . فسعة العلم أمر ينتج عن صم الحقائق والارقام والمعلومات وحفظها ، بينما يكون الذوق والقدرة على التمييز أمرين يتعلقان بالحكم الفني. وعندما يتحدث الصينيون عن المفكر يميزون عادة بين دراسته وسلوكه وذوقه ، وقدرته على التمييز . وينطبق هذا القول بوجه خاص على المؤرخين ، فقد يوضع كتاب التاريخ وهو طافح بالمعلومات ولكنه يظل مفتقراً الى الاستشفاف والاستقراء والقدرة على التمييز وعلى الحكم والتفسير بالنسبة لاحداث التاريخ وشخصياته ، بحيث يظهر المؤلف ، وهو يخلو من كل اصالة او عمق في الفهم ، وعندما ننقد مثل هذا المؤرخ ، نصفه بانه خال من ذوق المعرفة . ولعل اسهل الامور ان يكون المرء غزير المعلومات ، وان يجمع اكبر قدر من الحقائق والتفاصيل . وهناك حقائق كثيرة في كل حقبة تاريخية معينة ، يمكن للمرء ان يحفظها عن ظهر قلب ، ولكن القدرة على التمييز في اختيار الحقائق المهمة ، امر شاق جداً ، ويعتمد على وجهات نظر الانسان ومعلوماته .

ويتضح من هذا ان الرجل المتعلم هو ذلك الانسان الذي يعرف حقاً ما يحبه وما يكرهه . ونحن نطلق على هذه الطاقة اسم الذوق الذي يعني في الوقت نفسه السحر . ويتطلب وجود الذوق او القدرة على التمييز، طاقة من التعمق في التفكير ، واستقلالاً في الحكم، وعزوفاً عن الرغبة في ان يسمح لنفسه بأن تخدع بأي مظهر من مظاهر الخداع ، اجتماعياً كان ام سياسياً ام ادبياً ام فنياً ام اكاديمياً . وليس ثمة من شك في اننا نحاط في حياتنا الراشدة بمختلف ضروب الخداع ، كخداع الشهرة والثراء والوطنية والسياسة والدين والشعر والفن ، وبالمخادعين من الطغاة وعلماء النفس . وعندما يقول لنا عالم بالتحليل النفسي ان لأوضاع الهضم في سني الطفولة علاقة بالطموح والمشاكسة والاحساس بالواجب في سنوات الرشد ، وان الامساك يؤدي الى طبيعة البخل ، فان رد فعلنا على هذه الاقوال كلها ، لا تعدو حدود التأثر بالطرافة . وعندما يخطىء الانسان ،

فانه يكون على خطأ ، وليس ثمة حاجة الى تأثر الانسان بالاسم العريض وتهيّبه له ، ولا الى احساسه بالاحترام البالغ للكتب التي قرأها او تلك التي لم يقرأها .

وهكذا نجد ارتباطاً وثيقاً بين الذوق والشجاعة ، ولا شك في ان الشجاعة او الاستقلال في الحكم ، من الفضائل النادرة بين الناس . ونحن نجد هذه الشجاعة او الاستقلال متوافرين في طفولة جميع المفكرين والكتاب ، ولكنهما لا يحققان شيئاً لديهم في المستقبل . وقد يرفض هذا المفكر او الكاتب ان يحب شاعراً معيناً ، وان كان لم يخف ولعه به في حداثة سنه ، اما اذا احبه فهو قادر على ان يبرر هذا الحب ، مستنجداً في تبريره هذا بقدرته على الحكم الذاتي . ولعل هذا هو ما نطلق عليه اسم الذوق في الادب . وهو يرفض ايضاً ان يعلن رضاه عن مدرسة الرسم الحديثة ، اذا كانت هذه المدرسة تتعارض مع غرائزه الفنية ، وهذا هو الذوق في الفن . وهو يرفض ايضاً ان يتأثر بأي اسلوب فلسفي أو اية نظرية شائعة ، حتى ولو كان وراءهما ، اسم احد المشهورين . وهو يرفض ان يقتنع بأي مؤلف الا اذا كان هذا المؤلف قد اقنعه في قرارة نفسه ، واذا ما تحقق هذا الاقناع كان المؤلف على حق ، أما اذا لم يقنعه ، فهو على حق والمؤلف على خطأ . وهذا هو الذوق في المعرفة . ولا ريب في ان مثل هذه الشجاعة الفكرية أو الاستقلال في الحكم يتطلبان ثقة ساذجة وطفولة في الذات ، وان كانت الذات هي الشيء الوحيد الذي يستطيع الانسان ان يتعلق به . ولا ريب ايضاً في ان الطالب يصبح في اللحظة التي يتخلى فيها عن حقه في الحكم الشخصي ، عرضة لتقبل كل ما في الحياة من خداع .

ويبدو ان كونفوشيوس ادرك ان العلم بلا تفكير ، اكثر خطورة من التفكير الذي لا يدعمه علم ، فقد ذكر « ان التفكير بلا علم ، يجعل الانسان متهرباً ، بينما يؤدي العلم بلا تفكير الى كارثة » . ولا ريب في ان كونفوشيوس ، رأى الكثير من هذه النماذج في حياته التعليمية حتى اصدر مثل هذا التحذير ، وهو تحذير نحن في اشد الحاجة الماسة اليه في مدارسنا العصرية ، فمن المعروف ان

التعليم العصري ، والنظام المدرسي الحديث ، يميلان الى تشجيع العلم على حساب القدرة على التمييز ، وينظران الى حفظ المعلومات غيباً ، على انه غاية في حد ذاته ، وكان القدر الكبير من جمع المعلومات ، يجعل الانسان متعلماً ، ولكن لم لا يشجعون الفكر في المدارس ؟ ولم شوه النظام التعليمي ، السعي وراء المعرفة ، واحاله الى نظام آلي موحد ، والى صمّ سلبي للمعلومات ؟ ولم يكون تأكيدنا على المعرفـــة اكثر من تأكيدنا على الفكر ؟ ولم نطلق على خريج الجامعة لقب المتعلم ، لمجرد انه حضر العدد المقرر من المحاضرات الاسبوعية في عـــلم النفس وتاريخ القرون الوسطى وعـــلم المنطق واللاهوت ؟ ولم اخترعنا نظم العلامات المدرسية والشهادات ، وجعلناهما يحتلان في عقل الطالب المكانة التي كان من الواجب تخصيصها للاهداف الحقة للتعليم ؟

ان السبب في كل هذا في منتهى البساطة . فلقد تبنينا هذا النظام ، وذلك لاننا نعلم الناس في صورة جماهيرية ، وكأنهم في مصنع ، اذ المعروف ان كل ما في المصنع يسير في صورة آلية جامدة . ويتحتم على المدرسة لحماية اسمها ، ووضع المعايير لانتاجها ، ان تزود خريجيها بالشهادات . وتتطلب هذه الشهادات وضع نظام الدرجات وما ينطوي عليه من تحديد العلامات التي لا بد من وضعها على اساس الامتحانات والاختبارات . ويتبين من هذا ان هناك تسلسلاً منطقياً في هذه الامور التي لا مفر منها . ولكن نتائج الامتحانات والاختبارات الآلية ، اكثر خطورة مما نتصور ، وذلك لأنها تؤكد ضرورة حفظ الحقائق غيباً اكثر من تأكيدها لتطور الذوق والحكم . ولقد مارست مهنة التعليم بنفسي وعرفت ان من الاسهل وضع مجموعة من الاسئلة عن السنوات التاريخية ، عن وضعها عن الآراء الغامضة المتعلقة بالاسئلة الغامضة . ومن السهل ايضاً وضع الدرجات على اوراق الامتحانات .

ولعل الخطورة في كل هذا ، تكمن في اننا بعد وضعنا لهذا النظام ، نصبح معرضين لنسيان حقيقة صادقة ، وهي اننا تحولنا عن الهدف الصحيح للتعليم ،

وهو تنمية الذوق الحسن والمعرفة. ولعل من المفيد ان نذكر ما قاله كونفوشيوس وهو ان « الدراسة التي تعني صم الحقائق، لا تمكن الانسان من ان يصبح معلماً». وليست هناك اية مواضيع الزامية او كتب لا بد من قراءتها حتى ولو كانت من مسرحيات شكسبير . ويبدو ان المدرسة تسير على اساس فكرة حمقاء ، وهي ان في مكنتنا تحديد الحد الادنى من التعلم في التاريخ والجغرافيا » ، وهو ما نراه ضرورياً لأي انسان متعلم ، وانا اعتبر نفسي من خيرة المتعلمين ، وان كنت لا اعرف تماماً اسم عاصمة اسبانيا ، وكنت في يوم ما اظن ان هافانا اسم جزيرة قريبة من كوبا . ويكمن الخطر في تحديد قدر من الدراسات الالزامية ، في ان الرجل الذي يكمل هذه الدراسات ، يصبح بحكم الواقع عارفاً بكل ما يطلب الى الانسان المتعلم ان يعرفه . ولذا فمن المنطق ان يتوقف خريج الجامعة عن القراءة والتعلم بعد تخرجه ، لأنه يظن نفسه قد عرف كل ما يجب ان يعرف .

وعلينا ان نتخلى عن الفكرة القائلة ، بأن في الامكان اختبار معرفة الانسان أو قياسها بأية صورة من الصور . وقال شوانجتسي وهو على حق فيما قاله ... « لعل من المؤسف ان الحياة محدودة ، وان المعرفة بلا حدود » . « ولا شك في ان السعي وراء المعرفة ، شبيهة باكتشاف قارة جديدة ، أو بمغامرة تقوم بها الروح » كما قال اناتول فرانس ، وستظل تمثل متعة لا عذاباً ، اذا حافظ المرء على عقله المتفتح ، والمتسائل والفضولي والمغامر . وعلينا ان نستعيض عن صم المعلومات السلبي وفق خطة موحدة ومقررة ، بالمثل الداعي الى اعتبار السعي وراء المعرفة متعة فردية ايجابية نامية. وعندما يتم الغاء الشهادات او الدرجات ، أو عندما تعامل كما يجب ان تعامل ، يصبح السعي وراء المعرفة عملاً ايجابياً ، اذ يضطر الطالب الى سؤال نفسه عن الاسباب التي تدعوه الى الدراسة . ويجيب الطالب على هذا السؤال الآن في منتهى البساطة . فهو يدرس في السنة الاولى ليرتقي منها الى السنة الثانية ، وهكذا دواليك حتى ينهي دراسته الجامعية . ولكن من الواجب ازالة جميع هذه الاعتبارات العرضية التافهة ، وذلك لأن السعي وراء المعرفة امر يهم صاحبه وحـــده ، ودون سواه . فمعظم الطلبة

يدرسون في الوقت الحاضر ، لارضاء مسجل الجامعة ، أو لارضاء ابائهم واساتذتهم وزوجاتهم في المستقبل . فهم يريدون ان لا يظهروا بمظهر الناكر للجميل لذويهم الذين ينفقون على تعليمهم الجامعي الكثير ، او لارضاء استاذ لهم يقدرهم ويعجب بهم ، أو ليضمنوا الحصول على مرتب عال بعد تخرجهم ، يؤمن لهم سبيل القيام بأود اسرهم . واني لأعتقد ان مثل هذا التفكير لاخلاقي . فمن الضروري ان لا يهم السعي وراء المعرفة الا الانسان نفسه ، وآنذاك يصبح التعليم متعة وعملاً ايجابياً .

٢ - الفن لهو وشخصية

يمثل الفن عملية مزدوجة هي الخلق والرياضة الروحية . واني لاعتقد ان الفن كرياضة روحية او كحركة صافية للروح الانسانية هو الشيء الاهم . وبالرغم من تقديري الجم لجميع صور العمل الخلاق الخالد ، سواء من الرسم أو من العمارة او الادب ، فانا اعتقد ان روح الفن الاصيل يمكن ان تغدو اكثر شمولاً وان ترقى بالمجتمع عندما يتمتع الكثيرون من الناس بالفن كمجرد تسلية ، دون تطلع الى تحقيق الخلود . وكما ان قيام الطلبة الجامعيين بلعب التنس أو كرة القدم بمهارات ليست ضخمة ، اهم بكثير من انتاج الجامعة لعدد من ابطال الرياضة أو نجوم كرة القدم للاشتراك في المسابقات العامة على الصعيد القومي . فان قدرة جميع الاطفال والراشدين على الخلق في اوقات فراغهم ، اهم بكثير من قدرة الامة على خلق امثال رودين[١] . واني لاوثر ان اجد جميع طلاب

---

(١) فرنسوا اوجست رودين (١٨٤٠ - ١٩١٧) - نحات فرنسي مشهور . ولد في باريس من اسرة فقيرة . درس فن النحت عند النحاتين الكبار . عاش ست سنوات في بروكسل ليعود منها الى باريس ليغدو اشهر نحاتي عصره . بيعت اعماله الفنية باموال طائلة ، ومعظمها معروض في متحف باريس .

- المعرب -

المدارس يعلمون صنع التماثيل من الطين ، وجميع رؤساء البنوك والخبراء الاقتصاديين يقومون باعداد بطاقات معايدتهم وتصميمها مهما كانت محاولاتهم مثيرة للسخرية ، على ان تكون هناك قلة ليس الا من الفنانين تحترف الفن . وانا اعني بهذا انني أوثر الهواية على الاحتراف في كل شيء . فانا احب الهواة من الفلاسفة والشعراء والمصورين ، والسحرة والمعماريين الذين يشيدون بيوتهم والموسيقيين وعلماء النبات والطيارين . واني لاطرب لهاوٍ يعزف لحناً موسيقياً في أية أمسية بطريقة عادية نفس الطرب الذي احس به من الاستماع لعزف فرقة موسيقية من الدرجة الاولى . وهناك كثيرون يتمتعون بالالعاب السحرية التي يقوم بها الحواة الهواة في الحفلات الخاصة ، اكثر من تمتعهم بألعاب الحواة المحترفين في المسارح . كما ان الآباء يتمتعون بالمسرحيات التي يمثلها اولادهم الهواة على مسرح المدرسة ، اكثر من تمتعهم برؤية فرقة تمثيلية محترفة ، تؤدي احدى مسرحيات شكسبير ، فنحن نعرف ان اعمال الهواة تلقائية ، ولكن هذه التلقائية تنطوي على الروح الاصيلة للفن . ولعل هذا هو السبب الذي يدعوني الى تعليق اهمية كبرى على التصوير الصيني الذي يقوم به المفكرون في اوقات فراغهم دون ان يكون ثمة احتراف . ولا شك في ان الفن يسمو على الاتجار عندما يحافظ اهل الفن على ما فيه من حركة روحية .

ولعل من خصائص اللهو ان الانسان يلهو دون ان يكون ثمة سبب للهوه ، ودون حاجة الى هذا السبب . فاللهو هو في حد ذاته سبب لا نتيجة . وقد اثبت تاريخ التطور البشري هذه الحقيقة . ولا يمكن للصراع من اجل الوجود ، ان يكون السبب في الجمال ، بل ان هناك صوراً له ، كثيراً ما تكون قاضية على الحيوان نفسه ، كامتداد القرون الطويلة للوعل نفسه . ولقد رأى داروين[1]

---

(١) شارل داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢) - من اكبر الفلاسفة البريطانيين ومن علماء الطبيعة ، وقد اشتهر بالنظرية التي عرفت باسمه ، واولع منذ حداثته بعلم الحياة وتعرف نظرياته بعلم اصول الاجناس عن طريق الاختيار الطبيعي .

انه لا يستطيع ان يعزو ما في الحياة النباتية والحيوانية من جمـــال الى نظرية الانتقاء الطبيعي ، ومن هنا كان عمله على ادخال نظرية ثانوية عظيمة اخرى وهي نظرية الانتقـاء الجنسي . ولا شك في اننا نعجز عن فهم الفن وجوهره ، اذا لم نتبين انه ، أي الفن ، مجرد تدفق للحيوية البدنية والعقلية ، متحرر ومنطلـق وقائم دون وجود أي سبب لتحرره وانطلاقه ووجوده . ولا ريب في ان هذا القول هو لباب المفهوم القائل بأن « الفن يكون من اجل الفن ذاته ». وانا لا أرى ان من حق الساسة ان يناقشوا هذا المفهوم ، وان يقولوا عنه شيئاً ، وذلك لأنه يمثل حقيقة لا تقبل المناقشة بالنسبة الى الجذور النفسية لكل عملية خلق فنية . ولقد وصف هتلر بعض اشكال الفن الحديث على انها عمل لا اخلاقي ، ولكنني اعتقد ان الرسامين الذين رسموا صورة هتلر ، ليعرضوها في متاحف الفن ارضاء له ، كانوا من اللااخلاقيين . فعملهم لم يكن في الواقع فناً ، وانما كان تعهيراً للفن. واذا كان الفن التجاري يلحق الضرر بروح الفن الخلاق، فإن الفن السياسي يقتلها حتماً . فالحرية هي لباب الفن وجوهره. ولا شك في ان محاولة خلـــق الفن السياسي ، محاولة لعمل المستحيل،اذ ان القائمين على المحاولة لا يستطيعون ان يتبينوا ان الفن لا يخلق عن طريق القوة ، كما ان الحب لا يشرى بالمال[١] .

وعلينا اذا اردنا فهم جوهر الفن ان نعود الى اساسه البدني كتدفق للحيوية. ويطلـق على هذا الاساس اسم الحافز الفني أو الخلاق . ولا ريب في ان استعمال تعبير « الايحاء » يعني ان الفنان نفسه لا يعرف مصدر هذا الحافز . فهو موضوع دافع داخلي ، كالدافع الذي يحس به العالم ، عندما يسعى للوصول الى الحقيقة ،

---

(١) يثير المؤلف هنا موضوع الالـتزام في الفن . ولكن مناقشته تبدأ من اساس خاطىء ، وهو افتراض وجود القوة لضمان الخلق الفني الملتزم . وقد يصح هذا بالنسبة الى المجتمعات الخاضعة للنظم الديكتاتورية ولكنه لا يصح بالنسبة الى المجتمعات الاشتراكية ، اد ان التزام الفنان فيهـا يكون نابعاً عن عقيدة وايمان ، لا نتيجة ضغط وارهاب .

– المعرب –

أو كحافز المكتشف لاكتشاف جزيرة جديدة . فليس ثمة سبب ملموس لهذا الحافز . ولقد شرعنا اليوم عن طريق المعرفة الحياتية (البيولوجية) ، في تبين ان هناك ما ينظم حياتنا العقلية كلها، وان هذا المنظّم يتمثل في زيادة الهرمونات في الدم أو نقصها أو توزيعها ، لأن ذلك يؤثر على مختلف اجهزة الجسم وعلى الجهاز العصبي الذي يسيطر على هذه الاجهزة كلها ، وليس الغضب والخوف الا نتيجة زيادة الادرينالين في الدم أو قلته . وليست العبقرية نفسها في رأيي الا نتيجة الزيادة الكبيرة في افرازات بعض الغدد . وهناك قصصي صيني مغمور ، لم يكن يعرف شيئاً عن الهرمونات في الجسم ، اصاب كبد الحقيقة عندما قال «ان أسباب نشاطات الجسم تعود الى وجود بعض «الديدان» في الجسم. وليست الرغبة الجنسية العارمة الا قضية دودة تتحرك بسرعة في احشاء الانسان وترغمه على اشباع شهوته » . وهو ينسب الطموح ، والرغبة في الاستفزاز وحب الشهرة والسلطان الى ديدان اخرى معينة ، لا تتيح للانسان فرصة للراحة ، الى ان يحقق الهدف من طموحه . وترجع كتابة أي كتاب ، ولنقل اية قصة ، الى وجود نوع معين من الديدان التي تفرض على الكاتب ان يخلق شيئاً ، دون ان يكون ثمة سبب آخر . ولو خيرت ان أومن بالهورمونات او الديدان لاخترت الاخيرة ، اذ ان اسمها اكثر ايحاء بفاعليتها .

وعلى ضوء هذا نستطيع ان نقول ، ان الرجل الذي تتوافر اعداد كبيرة من هذه الديدان في جسمه ، يجد نفسه مضطراً الى خلق شيء أو آخر ، لأنه لا يستطيع ان يقاومها . وعندما يتميز أي طفل بقدر مفرط من الحيوية ، تتحول مشيته الى قفز أو ركض . وعندما تزداد الحيوية عند أي رجل ، تتحول مشيته الى وثوب او رقص . وهكذا يصبح الرقص مشياً ناقصاً ، على اعتبار انه تبديد في الحيوية من الناحية النفعية لا من الناحية الجمالية . فالراقص لا يمضي الى النقطة التي يريدها مباشرة وفي خط مستقيم ، وانما في خط متعرج ، واحياناً في خط دائري . ولا يحاول الانسان وهو يرقص ان يكون « وطنياً » في رقصه ،

كما ان اصدار الأمر الى الانسان بأن يرقص طبقاً لإيديولوجية معينة ، تحطيم لروح اللهو في الرقص ، وقضاء على ما فيه من افتقار الى الفاعلية . ولا يمكن للانسان العقائدي الذي يسير وراء هدف معين ، ان يتابع هدفه رقصاً ، بل عليه ان يتابعه مشياً او جرياً . ومن هنا يكون فهم العقائديين لقداسة العمل لا لقداسة اللهو ، ولكن الانسان عمل كثيراً في الميدان الحضاري ، واجهد نفسه اكثر من أي حيوان آخر ، ولذا فمن حقه ان يجد بعض الوقت للهو والفن .

ولا شك في ان هذا الفهم للطبيعة الصادقة للفن ، واعتباره لهواً ، قد يوضح مشكلة العلاقة بين الفن والاخلاق . فليس الجمال الا الشكل السليم ، وهناك شكل سليم في السلوك كما في الصورة السليمة أو الجسم الجميل . ومن هنا يكون الفن اكثر اتساعاً من الرسم والموسيقى والرقص ، لأن هناك شكلاً سليماً في كل شيء . فهناك شكل سليم عند الرياضي الذي يشترك في مسابقة ، وعند الرجل الذي يعيش حياة جميلة من طفولته حتى شبابه فكهولته فشيخوخته مع الحرص على اختيار الشكل الذي يناسب كل مرحلة من هذه المراحل . وهناك شكل سليم في المعركة الانتخابية التي تخاض على اسس سليمة ، ووفق مناورات سليمة تؤدي في النهاية الى النصر . وهناك شكل سليم ايضاً في ضحك الانسان أو في تقززه وبصاقه . فلكل نشاط انساني شكله وتعبيره ، وتقع جميع هذه الصور والتعبيرات ضمن اطار الفن وفي حدود تعريفه . ومن المتعذر والحالة هذه حصر فن التعبير في حقول الموسيقى والرقص والرسم وحدها .

وتتضح على ضوء هذا التفسير الشمولي للفن ، العلاقة الوثيقة بين الشكل السليم في السلوك وبين الشخصية السليمة في الفن ، كما تتضح اهميتها . فقد يكون هناك ترف في حركاتنا البدنية ، كما في حركات أية سيمفونية شعرية . ولما كنا نتميز بالافراط في الحيوية ، فان ثمة يسراً وجلالاً وتمسكاً بالشكل في كل ما نعمله . وينبع اليسر والجلال من الاحساس بالقدرة البدنية ، والاحساس بالطاقة

على تحقيق الشيء بصورة جميلة . ولو شئنا الحديث بصورة اكثر اطلاقاً وشمولاً لقلنا ، اننا نرى الجمال في كل انسان يؤدي عملاً بصورة صحيحة . فالدافع إلى القيام بعمل صحيح وبطريقة صحيحة ، حافز جمالي . ومهما كان حكم الانسان على جرائم القتل أو المؤامرات ، فإنها تبدو جميلة اذا نفذت بصورة صحيحة . وفي تفاصيل حياتنا العادية الكثير من اليسر والجلال والمقدرة . ولا ريب في ان جميع الأمور التي نسميها « لطائف الحياة » تقع ضمن هذه القائمة . ولا شك في أن الاجادة في الاطراء والمديح ، تعتبر اطرءاً جميلا ، كما أن الاطراء الذي يشوبه سوء الذوق يعتبر اطراءاً فظاً .

ولقد وصل تطور لطائف الحياة والكلام والعادات الشخصية مرحلة عالية في عهد اسرة شين التي عاشت في القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد في الصين . وكان هذا هو العهد الذي شهد شيوع « احاديث اوقات الفراغ واللهو » . فقد تميزت ألبسة النسوة في هذا العهد بالافراط في التصنع ، كما اشتهر عدد كبير من الرجال بالاناقة . وكانت هناك « موضة » اطلاق « اللحى الجميلة » ، كما الف الرجال التجوال في ثياب فضفاضة ، وكان تصميمها يتم ، بحيث تستطيع يد الانسان ان تصل الى أي جزء من جسمه اذا اراد حكه . وهكذا كان الجلال يرافق كل شيء . واصبحت « المنشة » المصنوعة من شعر ذيل الجواد ، اداة اضافية يستخدمها الانسان في يده عند الحديث ، ليدفع بها عن نفسه البعوض او الذباب . وقد سجلت لنا كتب الادب الكثير من محاضر هذه الاحاديث والحركات التي ترافقها ، كالهش « بالمنشة » للتعبير عن وضع أو مزاج . واصبحت المروحة ايضاً اداة مساعدة في الحديث ، اذ يستهل المرء حديثه فاتحاً اياها أو ضاماً لأجزائها ، تماماً كما يفعل الأمريكي العجوز بنظارتيه وهو يتحدث . ولم تكن للمنشة او للمروحة من الناحية العملية أية فائدة تفوق فائدة « المونوكل » للرجل الانجليزي ، ولكنهما اصبحتا جزءاً من الحديث كما غدت العصا تؤلف جزءاً من عملية المشي . ولعل من اجمل طرائف الحياة التي شهدتها في الغرب ،

أن يقف الرجل وقفة عسكرية « بروسية » عندما يحيي سيدة منحنياً لها في في قاعة ، أو ان يضع الرجل ساقاً وراء الاخرى وهو ينحني لتحية فتاة جميلة ، حقاً ان هاتين الحركتين جميلتان ، ومن المؤسف انهما قد زالتا بعد ان اصبحتا جد شائعتين ورخيصتين .

وهناك لطائف إجتماعية عدة تطبق في الصين . فالصينيون يعنون اشد العناية بحركات اصابعهم وايديهم وأذرعهم . ولا ريب في ان اسلوب التحية المتبع عند أهل منشوريا من اجمل الاساليب . فعندما يدخل الرجل الى الغرفة ، يبقي على احدى ذراعيه مستقيمة وملتصقة بجانبه ، ثم يثني احدى ساقيه ، محنياً قامته ، واذا كانت الغرفة ملأى بالحاضرين ، دار الرجل دورة كاملة متخذاً من ساقه المستقيمة محوراً ، ليحيي جميع الموجودين . وفي وسع المرء ان يرقب ايضاً تهذيب لاعب الشطرنج وهو يرتب احجار الشطرنج على اللوحة . فهو يمسك باحد هذه « البيادق » الصغيرة من بيضاء أو سوداء باصبعيه ، ثم يدفعه بلطف ، بحركة خارجية من ابهامه ، وبحركة داخلية من « سبابته » ، ليضعه على اللوحة . ويقوم الانسان الصيني المهذب بحركات لطيفة عندما ينتابه الغضب . فهو يرتدي ثياباً فضفاضة موشاة بالحرير ، واذا ما أحس بشيء من الغضب ، لوح بذراعه اليمنى أو بذراعيه ، وخرج من الغرفة .

ولعل من اجمل الأمور الاستماع الى حديث موظف صيني من الكبراء . فكلماته تنطلق مصحوبة بايقاع جميل ، وتعكس الانغام الموسيقية للهجة اهل بكين رجعاً موسيقياً رائعاً يتردد بين الارتفاع والهبوط . وهو ينطق مقاطعه بعناية وبطء ، كما يرصع عباراته بكلمات مستمدة من اللغة الادبية الصينية . وعلى المرء ان يستمع الى قهقهته ، فهي ممتعة حقاً . أما بصاقه فيكون في ثلاث ضربات موسيقية ، تمثل الاولتان منها تطهير الحلق استعداداً للأخيرة التي تنفذ بصورة قوية . وقد لا يهتم المرء بما يخرج من ميكروبات مع البصاق اذا تحقق بصورة جمالية ، اذ انه يستطيع احتمال الجراثيم ولا يستطيع احتمال الخروج على الجمالية .

وتكون الضحكة منتظمة وطبق ايقاع فني جميل، فيه الكثير من الاصطناع، ولكنه ينتهي بصورة فنية ولا سيما اذا كان الضاحك صاحب لحية بيضاء .

وتعتبر هذه الضحكة عملاً فنياً مهذباً ، اذ تمثل عند الممثل جزءاً من تمثيله، ومن هنا يكون اعجاب مرتادي المسارح بها ، مما يدفعهم الى التصفيق لها . ولا شك في انها تمثل عملاً شاقاً للغاية ، اذ ان هناك اشكالاً مختلفة من الضحكات، فهناك ضحكة السعادة ، وضحكة الشماتة ، وضحكة الاستهزاء والزراية ، وضحكة اليأس التي تصدر عن الانسان الذي يحس بالهزيمة أمام قوة الظروف الطاغية . ويرقب رواد المسارح هذه الامور كلها ، كما يرقبون ايماءات الممثل وخطواته . ولا شك في أن الممثل يعنى بكل حركة تصدر عنه ، سواء أكانت حركة ذراع أو هزة رأس أو لفتة عنق ، أو انحناءة ظهر ، أو حركة كم ، أو خطوة قدم. ويصنف الصينيون التمثيل إلى صنفين، صنف الغناء وصنف التمثيل. وهناك مسرحيات يكون التركيز فيها على الغناء ، بينما هناك مسرحيات درامية اخرى يكون التركيز فيها على التمثيل . وهم يعنون بالتمثيل حركات الجسد والوجه واليدين ، والتعبير بالعواطف والخلجات . ويتحتم على الممثل الصيني ان يتعلم طريقة هز رأسه ليعبر عن الاستهجان ، ورفع حاجبه ليعبر عن الشك ، ويداعب لحيته ليعبر عن هدوء نفسه ورضاها .

وبتنا الآن على استعداد لبحث مشكلة الاخلاق والفن. ولا شك في أن الخلط بين الفن والدعاية في بعض البلاد، وتقبل الكثيرين من المثقفين لهذا الخلط ، يجعل من الضروري بالنسبة إلى كل انسان مثقف ، ان يتفهم هذه المشكلة تفهماً كاملاً . لكن دعاة هذا الخلط ، يبدأون بمعالجة الموضوع بداية خاطئة ، اذ يتجاهلون دور الفرد ، كالشخصية الخلاقة من ناحية ، وموضوع الخلق من الناحية الثانية ، ويؤثرون عليه دور الدولة أو الطبقة الاجتماعية . وبينما يجب أن يرتكز الأدب والفن على أساس العواطف الفردية أو الشخصية ، فإن هؤلاء يطلبون تركيزهما على أساس العواطف الجماهيرية أو الطبقية ، دون عرض تباين العواطف بصورة

واقعية بتباين الأفراد [1] ، واذا ما استبعدنا موضوع الشخصية الفردية لم يعد في وسعنا أن نناقش مشكلة الفن والأخلاق مناقشة صحيحة .

وليست للفن أية علاقة بالاخلاق ، الا من ناحية معينة واحدة ، وهي أن العمل الفني تعبير عن شخصية الفنان . فالفنان صاحب الشخصية العظيمة يخلق فناً عظيماً ، والفنان ذو الشخصية التافهة يخلق فناً تافهاً ، والفنان ذو الشخصية العاطفية يخلق فناً عاطفياً ، والفنان ذو الشخصية الخليعة يخلق فناً خليعاً ، والفنان ذو الشخصية الرقيقة يخلق فناً رقيقاً ، والفنان ذو الشخصية الناعمة يخلق فناً ناعماً . وهنا تظهر العلاقة بين الفن والاخلاق . ويتضح من هذا أن الاخلاق ليست شيئاً يمكن أن يفرض من الخارج ، وطبقاً للنزوات المتقلبة لحاكم فرد مستبد ، أو طبقاً للسنن الخلقية المتبدلة عند رئيس دائرة دعائية ، وإنما هي شيء يجب أن ينبع من الذات كالتعبير الطبيعي عن روح الفنان. وليست المسألة قضية خيار ، بل هي حقيقة لا مفر منها ولا مناص ، فليس في امكان الفنان الوضيع الفؤاد ان ينتج صورة عظيمة ، كما ان ليس في امكان الفنان العظيم الفؤاد ان ينتج صورة وضيعة ، حتى ولو تعرضت حياته للخطر من جراء هذه الصورة .

وهناك نظرية صينية طريفة للغاية تتعلق بشخصية الرجل . وهناك ايضاً فكرة عن تصنيف الفنانين والشعراء . ويتضح من هذا أن هناك انواعاً كاملة من التعبيرات المتعلقة بشخصية الانسان كما تظهر في عمل معين يقوم به . فيقال عن

---

(١) يشير المؤلف هنا ، الموضوع الذي طال عنه النقاش ، وهو هل يكون الفن للفن ، أو للمجتمع ، وما يتفرع عنه من مواضيع تتناول مشكلة الالتزام أو اللاالتزام . ونحن لا ننكر اهمية الفرد، ولا انه اساس المجتمع ، ولكننا نرى ان الحرية المطلقة للفن دون التزام بالمجتمع ، هي اشبه باطلاق الحرية للفرد في التصرفات والعادات والسلوك ، دون قيود من قوانين المجتمع ونظمه. ومن هنا يكون المؤلف هو الذي يستند في مناقشته الى اساس خاطىء، وهو الحرية المطلقة للفن على انه تعبير فردي ، يجب ان يتحرر من قيود الالتزام .

- المعرب -

المقامر السيء الذي يظهر خلقاً أو ذوقاً سيئاً في لعب القمار انه صاحب شخصية مقامرة سيئة ، ويقال عن الانسان الذي يشرب الخمر ، ويتصرف تصرفات معنية بعد احتساء بعض الكؤوس انه صاحب شخصية سيئة في الشراب ، ويقال نفس القول عن الشخص الذي يسيء التصرف عند لعب الشطرنج. ويطلق على أقدم الكتب الصينية في نقد الشعر اسم « شخصيات شعرية » ، وقد صنف فيه واضعه مختلف الشعراء . وهناك كتب مماثلة في نقد الفن ايضاً .

ولعل مما يتصل بهذه الفكرة اتصالاً وثيقاً ، الرأي السائد بأن شخصية الفنان هي التي تقرر انتاجه وعمله ، فالشخصية هنا تجمع بين الفن والاخلاق ، وهي تميل إلى تأكيد فكرة الفهم الانساني ، وسمو الفكر ، والتعالي على الحياة ، وغياب الوضاعة والتفاهة والرخص . ولا شك في ان تعبير « الشخصية » هنا قريب من تعبير « الاسلوب » عند الانجليز . فالفنان الذي يخرج على التقاليد ويعمل في نطاق اللامعقول، يتبع اسلوباً لا تقليدياً ولا معقولاً، أما الفنان الساحر فيجمع بين السحر والرقة في اسلوبه ، كما ان الفنان العظيم ذا الذوق السليم ، لا يتزمت في تمسكه بالمنهجية ، وهكذا تكون الشخصية هي روح الفن . وقد ارتضى الصينيون دوماً وبصورة ضمنية الرأي القائل بأن ليس ثمة فنان يستطيع الوصول إلى العظمة ، إلا اذا كانت شخصيته الجمالية والخلقية عظيمة ، ولا شك في أن اسمى القواعد في الحكم على المخطوطات والرسوم ، لا تكون فيما يبديه الفنان من جودة في الاسلوب وانما في تمتعه بالشخصية العالية اولاً . وقد يتوافر في عمل فني الاسلوب الجيد ، ولكنه يتميز بالشخصية الوضيعة ، وآنذاك يمكن القول عنه بانه يفتقر الى « الشخصية ».

ونصل من هذا إلى المشكلة الرئيسية في جميع الفنون. ويقول تسينج كوفان وهو من اعظم قادة الصين العسكريين وساستها في إحدى رسائله الخاصة أن هناك مبدئين حيين للفن في المخطوطات وهما الشكل والتعبير ، وان أحد كبار الخطاطين في عصره وهو هوشاوشي ، اقره على نظريته ، واعرب عن اعجابه

ببعد نظره . ولما كانت الفنون كلها محدودة، فهناك مشكلة آلية ، وهي مشكلة الاسلوب الذي لا بد من وصوله إلى الابداع . ولكن لما كان الفن يعتبر امـــراً روحياً ايضاً ، فإن العنصر الاساسي في جميع صور الخلق ، هو التعبير الشخصي. ولا ريب في أن تفوق تفردية الفنان على اسلوبه هو الأمر المهم في كل عمل فني . ويعتبر اسلوب الكاتب الشخصي ومشاعره كما تظهر في احكامه ، ومواضع حبه وكرهه ، الشيء المهم في وضع أي كتاب . وهناك خطر ماثل دائماً في أن يتفوق الاسلوب على الشخصية أو التعبير الشخصي، ولعل المشكلة المعقدة التي يعاني منها جميع المبتدئين سواء في الرسم أو فيالكتابة أو فيالتمثيل، هيالانطلاق الكامل. والسبب في هذا في منتهى البساطة، وهو أن المبتدىء يخشى دائماً من الشكل أو الاسلوب. ولكنأيشكل يفتقر إلىالعنصرالشخصي ،لا يعتبر شكلاًصحيحاًعلىأي حال . وهناك ذبذبة في كلشكل صحيح ، ولعل هذه الذبذبة هي التي تستهوي النظر بجمالها عند التطلع اليها ، سواء أصدرت عن بطل من ابطال لعب الجولف في ناديه ، أو عن رجل يسعى إلى النجاح ، أو عن نجم من نجوم كرة القدم وهو يحمل الكرة راكضاً في الملعب. فيجب أن ينطلق التعبير، وأن لا يحد الاسلوب من قوة هذه الانطلاقة ، التي يجب ان تتم بحرية وسعادة . وتظهر هـذه اللمحة الجميلة في القطار عندما يصل إلى احد المنعطفات ، أو في الزورق وهو يسابـق الريح ، باشرعته المشرعة . وهناك نفس المنظر في طائر يفر من قفصه ، أو في نسر يهاجم فريسته ، أو في جواد فائز يصل إلى شريط النهاية قبل غيره .

ونحن نطلب ان يكون لكل فن طابعه ، وليس هذا الطابع إلا ما يوحي به العمل الفني أو يكشف عنه من شخصية الفنان وروحه وقلبه . وإذا فقـد العمل الفني طابعه وشخصيته ، اعتبر عمـــلاً مقيتاً ، وليس في إمـــكان أي شكل او اسلوب مهـما اكتملا ان ينقـــذاه من الموت والافتقار إلى الحيوية . ويتحول الجمال نفسه إلى تفاهة اذا فقد ذلك الطابع الفردي الذي نسميه بالشخصية . وتجهل معظم الفتيات اللائي يتطلعن إلى أن يصبحـــن من

كواكب هوليود هذه الحقيقة ، إذ انهن يلجأن أمام المنتج السينمائي الباحث عن المواهب ، إلى تقليد مارلين ديتريش أو جين هارلو ، وهن لا يعرفن انهن يثرن ضجر ذلك المنتج وملله . وهناك وجوه جميلة كثيرة وتافهة ، بينما هناك جمال فردي قليل . فلم لا تدرس هاته الفتيات اسلوب ماري دريسلر في التمثيل بدلاً من تقليد مارلين ديتريش في الزي والمشي . فالفن واحد ، وهو يعتمد على مبدأ واحد من التعبير والشخصية ، سواء أكان الفنان يمثل في فلم سينمائي ، أو يضع الرسوم لمؤلف أدبي . ولست أشك في أن في وسع الانسان أن يتعلم سر الاسلوب في الكتابة عن طريق التطلع إلى تمثيل ماري دريسلر أو ليونيل باريمور . فتعهد ما في الشخصية من سحر هو الأساس المهم في كل فن ، إذ مهما صنع الفنان فإن طابعه يظهر في عمله .

ويكون تعهد الشخصية عملاً يجمع بين الخلق والجمالية ، وهو يتطلب الدراسة والتهذيب في وقت واحد . والتهذيب شيء اقرب إلى الذوق وقد يولد مع الفنان ، لكن المتعة العظمى من النظر إلى كتاب من كتب الفن ، تتحقق عندما يكون التهذيب معززاً بالدراسة . وتظهر هذه الحقيقة بصورة خاصة في الرسم والمخطوطات . وفي وسع المرء ان يحكم إذا نظر إلى مخطوطة ، ما إذا كان كاتبها قد رأى الكثير من مخطوطات وي أم لا . ولو كان الكاتب قد رأى الكثير منها ، فإن دراسته هذه ، تعطي اسلوبه شيئاً من الطابع القديم ، وإن كان عليه أن يضيف اليه شيئاً من روحه وشخصيته وهما امران يتفاوتان بتفاوت الاشخاص . ولو كان الكاتب صاحب روح عاطفية رقيقة ، فإن أسلوبه سيتميز بالرقة والعاطفة ، أما إذا كان من الطراز الذي يحب القوة والضخامة ، فان أسلوبه سيتميز بالقوة والضخامة أيضاً . وهكذا نستطيع أن نرى في الرسوم والمخطوطات ولا سيما في الاخيرة ، مجموعة كبيرة من المزايا الجمالية ، او طرزاً مختلفة من الجمال . وليس في وسع أحد ان يفصل بين جمال الانتاج الذي تم وبين جمال روح الفنان الذي أتمه . وهناك جمال في النزوات والغرائب ، وفي القوة والخشونة ، وفي الضخامة وفي الحرية الروحية والشجاعة والاقدام

والسحر الرومانسي ، والكبت والجلال الناعم ، والصرامة والبساطة والجمود ، والتزمت والسرعة بل وحتى في البشاعة المصنوعة . لكن هناك شكلاً واحداً من أشكال الجمال يعتبر مستحيلاً ، لأنه غير موجود ، وهو جمال الجهد أو الحياة المجهدة .

٣ – فن القراءة

اعتبرت القراءة أو التمتع بالكتب دائماً من مباهج الحياة المثقفة ، وكثيراً ما احترمها حتى اولئك الذين لا يسمحون لأنفسهم بالتنعم بهذا الامتياز . ومن اليسير علينا أن نفهم ذلك إذا قارنا بين حياة الانسان الذي لا يقرأ على الاطلاق وحياة ذلك الانسان الكثير القراءة . ويكون الرجل الذي لم يألف القراءة سجيناً في عالمه المباشر والقريب منه زماناً ومكاناً . فحياته مجموعة من التصرفات الرتيبة ، فهو يحددها عن طريق الاتصال والتحدث إلى قلة من المعارف والاصدقاء ، ولا يرى إلا ما يقع في جواره القريب . وليس لهذا الرجل خلاص من سجنه هذا . ولكن عندما يمسك بكتاب ، نراه يدخل على الفور عالماً مختلفاً ، وإذا كان الكتاب الذي يقرؤه جيداً ، فإنه يصبح على اتصال فوري بواحد من خيرة المتحدثين في العالم . ويسوقه هذا المتحدث معه وينقله إلى بلاده ، او إلى عصر آخر غير عصره ، أو ينفض اليه شيئاً مما يثقل فؤاده ، أو ناحية من نواحي الحياة التي يجهل القارىء عنها كل شيء . وهكذا يصل المؤلف القديم بين القارىء وبين روح قديمة ، وعندما يمضي في قراءته ، يشرع في تصور ما كان عليه شكل ذلك المؤلف القديم ، وأي طراز من الناس كان . ولقد اعرب كل من مينسيوس وسياشيين ، والاخير اعظم مؤرخي الصين عن نفس الفكرة . ولا ريب في ان القدرة على الحياة ساعتين من مجموع اثنتي عشرة ساعة في عالم آخر ، والانتقال بأفكار الانسان من حاضره القريب ، امتياز

يحسده اولئك الناس الذين حبسوا انفسهم في سجنهم البدني . ولا ريب في ان التبدل في البيئة مشابه من ناحية الآثار النفسية للتبدل الناشيء عن الترحال .

ولكن هناك ما هو اهم من هذا . فالقاريء يحمل دائماً الى عالم من الفكر والتفكير . ولو كان ما يقرؤه الانسان شيئاً يتعلق بالاحداث المادية ، فهناك فرق بين رؤية هذه الاحداث شخصياً أو العيش معها ، وبين القراءة عنها في الكتب ، وذلك لأن هذه الاحداث تكتسب طابع المنظر ، ويصبح القاريء ، متطلعاً اليها من بعيد . ولهذا فإن أفضل القراءة هي التي تحملنا إلى هذا المزاج التأملي ، لا إلى ذلك المزاج ، الذي يشغله التقرير عن الاحداث . وأنا لا اعتبر الوقت الطويل الذي ينفقه الانسان في مطالعة الصحف وقتاً للقراءة ، وذلك لأن معظم قرائها يعنون بالحصول على المعلومات والاخبار المتعلقة بالاحداث والوقائع ، دون ان تتولد لديهم أية قيمة تأملية .

ولعل خير قاعدة عن الهدف من القراءة هي تلك التي وضعها هوانج شانكو ، الشاعر الذي عاش في عهد اسرة سونج ، وصديق سوتونجبو ، والتي قال فيها ... « يحس المفكر الذي تمضي عليه ايام ثلاثة دون أن يقرأ شيئاً ، أن حديثه قد فقد نكهته ، كما يرى أن وجهه اصبح كريهاً اذا ما نظر اليه في مرآته » . ولا ريب في ان ما عناه هذا الشاعر ، هو أن القراءة تضفي على الانسان شيئاً من السحر والنكهة ، وهما هدف القراءة وغايتها . ولا شك في ان مثل هذه القراءة الهادفة هي التي تعتبر فناً . ولا يهدف الانسان من القراءة الى تحسين تفكيره ، اذ ان مجرد شروع الانسان في التفكير على هذا النحو ، يفقد القراءة كل متعة لها . ولو قال الانسان لنفسه ... « عليّ ان اقرأ مؤلفات شكسبير ومسرحيات سوفوكليس [1] وكل ما وضعه الدكتور

---

(١) سوفوكليس (٤٩٦ – ٤٠٥ ق.م) – كاتب مسرحي وشاعر يوناني كبير . ولد في اسرة نبيلة وتلقى تعليماً جيداً . وضع عدداً من المسرحيات منها « اجاكس » و « انتيجون » و « اوديب الملك » و «ايليكترا » و « نساء تراقيا » وغيرها . – المعرب –

ايليوت [1] لأصبح انساناً متعلماً ، فإن مثل هذا الانسان لا يتعلم على الاطلاق . فقد يرغم نفسه ذات ليلة على قراءة مسرحية هملت لشكسبير ، فـاذا ما فرغ منها ، بات و كأنه قد افاق من كابوس ، ولم يفد منهـا شيئاً سوى تمكنه من القول بأنه قد قرأ هملت . ولا شك في ان الانسان الذي يجد نفسه ملزماً بقراءة كتاب ، لا يفهم شيئاً عن فن القراءة . ولا شك في ان هذا الطراز من القراءة ، الذي يجعل العمل هدفاً له ، لا يختلف في قليل أو كثير عن اقبال عضو مجلس الشيوخ على قراءة جميع الملفات والتقارير قبل اعداد خطابه . والقراءة في مثل هذه الحالة تكون بمثابة طلب المشورة والمعلومات من الكتـاب ، وليست قراءة على الاطلاق .

ويرى هوانج ان القراءة الهادفة الى تنمية سحر الانسان في مظهره ، ونكهته في حديثه ، هي الطراز الوحيد المقبول من القراءة . ويجب ان يفسر هـذا السحر المظهري على انه شيء يختلف كثيراً عن الجمال البدني . ولا شك في ان هوانج ، لم يعن بقوله انه « اصبح كريهاً في مرآه » ، القبح البدني . فهناك وجوه قبيحة تتمتع بالسحر في الحديث وأخرى جميلة تتميز بالقبح في الحـديث . وانا اعرف صديقاً لي يشبه رأسه القنبلة في بشاعتها ، ومع ذلك فإن مرآه يسرني دائمـاً . ولعل اجمل وجوه الكتاب الغربيـين الذين رأيتهم في الصور هو وجه جي . كي تشيسترتون [2] ومع ذلك فإن هذا الوجه يتميز بالقبح في شكـل الشارب

---

(١) الدكتور شارل ايليوت (١٨٣٤ - ١٩٢٦) من كبار اساتذة الجامعات وعلمـاء التربية في اميركا . درس في جامعة هارفرد ثم اصبح رئيساً لها . من اشهر كتبه « اربعة زعماء امريكيين » و « الطريق الى السلام » .

— المعرب -

(٢) جلبرت كيث تشيسترون (١٨٧٤ - ١٩٣٦) كاتب انجليزي مشهور . عمل امداً في الصحافة . من اشهر كتبه « الفارس الفظ » و « المتهم » و « نادي المهن الغريبة » و « العصر الفيكتوري » و « حكمة الاب براون » وكثير غيرها .

المعرب

والنظارات ، والحواجب الكثة ، والتجعـدات . ومع ذلك يحس الانسان ان وراء هذه الجبهة افكاراً رائعة كثيرة ، على استعداد دائماً ، للتفجر من هاتـين العينين النفاذتين . ولعل هذا هو ما يدعوه هوانج بالوجه الجميـل ، الذي لا تكسبه المساحيق جماله ، وانمـا يكسب هذا الجمال من قوة التفكير . وتعتمـد نكهة الحـديث على طريقـة الانسان في القراءة . ولا شك في ان وجود هذه النكهة او انعدامها يعتمدان على طريقة الانسان في القراءة . فلو كان القارىء قادراً على استخلاص ما في الكتب من نكهـة ، فإن هذه النكهـة تظهر في أحاديثه ، كما لا يستطيع إلا إبرازها فيما يكتبه .

وعلى هذا الاساس ، اعتبر النكهة او الذوق القاعدة في كل قراءة .. ونحن نعرف ان الذوق عامة قضية إنتقاء فردية ، كما هو الوضع بالنسبة إلى الطعام . ولعل خير طريق صحية للطعام ، هـي ان يأكل الانسان ما يحب ، إذ ان الانسان يكون واثقاً آنذاك من هضم ما يأكله . ولا فرق بين القراءة والاكل . فما يصلح لهذا قد يضر ذاك ، وليس في مكنة أي استاذ ان يرغم طلابـه على حب ما يحبه في قراءاته ، ولا يستطيع والد ان يرغم أبناءه على ان يكون لهم نفس ذوقه . وإذا كان القارىء لا يتذوق ما يقرؤه ، فإنه يضيع وقتـه في القراءة . ويقول يوان شونجلانج ... « في وسعك ان تترك الكتب التي لا تحبها وحدها ، وان تجعل غيرك يقرؤها » .

ويمكن القول في ضوء هـذا ان ليست ثمة كتب تجب قراءتها كحتميـة مطلقة . فرغباتنا الفكرية تنمو كالشجرة او تسير كالنهر . وطالما كانت لهذه الشجرة فروعها السليمة ، فستنمو سليمة ، وطالما أن الماء مستمر من الينبوع ، فسيظل النهر جارياً . وعندما يصطدم الماء بصخرة من الجرانيت، يلتف حولها، وعندما يجد نفسه في واد منخفض ممتـع ، يسير ببطء ليتمتـع بالمكان الذي وجد نفسه فيه ، وإذا ما وصل إلى منخفض جبلي عميق ، ارتضى البقـاء فيه ليشكل بحيرة ، اما إذا وجد نفسه يسير فوق جنادل ، غذّ سيره ، وجرى

بسرعة . وهكذا فإن النهر لا بد واصل الى مصبه في البحر أو غير البحر دون جهد منه أو سعي وراء هدف . وليست هناك كتب تعتبر قراءتها حتمية على كل انسان ، وانما هناك كتب لا بد للانسان من قراءتها في وقت معين ، ومكان محدد ، وظروف معينة ، وفي فترة زمنية محددة من حياته . ولو فرضنا أن هناك كتاباً كالكتب السماوية لا بد من قراءته من كل انسان ، فان هناك زمناً لهذه القراءة . واذا لم تكن افكار الانسان وتجاربه الحياتية ، قد وصلت الى رتبة معينة تمكنه من قراءة رائعة من الروائع ، فان هذه الرائعة لا بد ان تترك اثراً سيئاً في مذاقه . ويقول كونفوشيوس ... « عندما يصل الانسان الى الخمسين ، يتحتم عليه ان يقرأ كتاب التبدلات » ، وهذا يعني ان على الانسان ان لا يقرأه وهو في الخامسة والاربعين . ولا يمكن للانسان ان يتذوق ما في كتابات كونفوشيوس من نكهة خاصة ، أو حكمة ناضجة ، الا اذا أصبح هذا الانسان نفسه ناضجاً .

وقد تكون لنفس الكتاب ، اذا قرأه قارىء واحد في اوقات مختلفة ، نكهات مختلفة ايضاً . فنحن قد نحس بالمتعة من قراءة كتاب ، اذا كنا نعرف مؤلفه شخصياً ، أو اذا كنا قد رأينا صورته ، وقد نحس بنكهة مغايرة لنفس هذا الكتاب ، اذا عدنا فقرأناه بعد ان تقع القطيعة بيننا وبين مؤلفه . ويحس المرء بنكهة معينة اذا قرأ كتاب التبدلات وهو في الاربعين من عمره ، ثم يعود فيحس بنكهة مغايرة اذا عاد فقرأه وهو في الخمسين ، أي بعد ان يكون قد مر بالمزيد من التغيرات في حياته . وعلى ضوء هذا يمكن القول بأن في وسع الانسان ان يعود الى قراءة جميع الكتب الجيدة ثانية وان يحقق من قراءته لها فائدة جديدة ومتعة . ولقد قرأتُ كتابي « ويستوورد هو » و « هنري ايزموند » في ايام دراستي الجامعية ، وبالرغم من انني كنت قادراً على التمتع بالأول في صباي ، الا انني لم أحس بمتعة قراءة الثاني الا بعد ان اعدت التفكير فيه في وقت لاحق ، وخيل الى ان فيه سحراً اكثر من ذاك الذي تميزته عندما قرأته لأول مرة .

ويتضح من هذا ان القراءة عملية تتكون من فريقين هما المؤلف والقاريء . ويكون الكسب من القراءة ناتجاً عن اسهام القاريء في فائدتها بخبرته واستشفافه كما يكون ناتجاً عن المؤلف نفسه . ولقد تحدث شينج يوشوان الكونفوشيوسي عن « مختارات كونفوشيوس » فقال ... « هناك عدة صور من القراء ، يقرأ افراد احدى الصور المختارات ، فلا يشعرون بحدوث شيء ، بينما يقرأها آخرون فيسرون ببضعة اسطر منها . ويقرأها فريق ثالث ، فيشرع افراده في التلويح بايديهم والرقص بأرجلهم بدون وعي » .

ولا شك في ان اكتشاف الانسان للمؤلف الذي يؤثره ، من الاحداث المهمة للغاية في تطور الانسان الفكري ، فهناك ما يسمى بالتقارب بين الارواح ، وعلى المرء ان يعثر بين الكتاب من قدامى ومحدثين على الكاتب الذي تتشابه روحه مع روحه . ولعل هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق النفع من القراءة . وعلى المرء ان يكون حراً في اختيار الكاتب الذي يعجبه . وليس في وسع أحد، ان يختار لآخر هذا الكاتب . فاختياره كالحب من النظرة الاولى، اذ ان الاعجاب بالكاتب احساس غريزي . وهناك امثلة مشهورة عن اختيار الكتاب . فهناك مفكرون فصلت بينهم القرون الكثيرة ، ومع ذلك فقد تشابهوا في طراز احساسهم وتفكيرهم ، حتى ان اللقاء تم بينهم على صفحات كتاب ، وكان هذا اللقاء اشبه بحادث اكتشاف الانسان لصورته . ونحن نتحدث في العرف الصيني عن تشابه الارواح نتيجة تناسخها ، فنقول ان سوتونجبو ، هو التجسيد لحلول روح شوانجتسي أو طاو يوانمينج وان يوان شونجلانج هو التجسيد لحلول روح سوتونجبو . ورووى هذا انه عندما قرأ شوانجتسي للمرة الأولى ، أحس و كأنه كان يفكر منذ طفولته بكل ما فكر فيه شوانجتسي ، وانه حمل نفس آرائه . وعندما اكتشف يوان شونجلانج ذات ليلة معاصراً له كان يجهله ويدعى هسووينشانج ، في ديوان شعري صغير له ، قفز من فراشه وهتف بصديقه ، وراح الرجلان يقرآن الديوان معاً ، ويصرخان طرباً ، حتى ان تابعهما ذهل من

تصرفها . واكتشفت جورج ايليوت[1] ان ماساً كهرئياً اصابها عندما قرأت روسو لأول مرة . وأحس نيتشه[2] بنفس الاحساس عندما قرأ شوبنهاور[3]، وان كان الاخير ذا طبيعة هادئة على النقيض من نيتشه ذي الطبيعة العنيفة الحادة المزاج . ولعل هذا يفسر لنا ثورة الثاني فيما بعد على استاذه .

ولا ريب في ان القراءة النافعــة هي تلك التي تتمثل في اكتشاف القارىء للكاتب الذي يؤثره . فالأمور تسير على ما يرام ، كما تسير عند العاشق الذي يحب معشوقته من النظرة الأولى، لانها تمثل عنده النموذج في وجهها ولون شعرها، وطولها ، وصوتها ، وحديثها ، وابتسامتها . ولا حاجة للطالب الى استاذ يدله على الكاتب الذي يحبه ، اذ انه يمثل في نظره النموذج في اسلوبه وذوقه ووجهة نظره ، وطريقة تفكيره . ويبادر هذا القارىء الى التهام كل كلمة يكتبها هذا الكاتب ، ويسهل عليه هضمها ، لوجود التقارب الروحي بينه وبين كاتبه الاثير لديه . فقد فرض عليه الكاتب سحره ، وهو سعيد بأن يؤخذ بهذا السحر، وان يحاول تقليد كاتبه في صوته واسلوبه وطريقته في الابتسام والحديث . وهكذا يجد نفسه يسير على خطى كاتبه ، مستمداً من كتبه الغذاء لروحه . وقد ينقضي

---

(١) جورج ايليوت (١٨١٩ – ١٨٨٠) ، الاسم الادبي لماريان إيفانز . ولدت في لندن في اسرة محافظة ومتدينة ، ولكنها ما لبثت ان تعرفت الى بعض المفكرين المتشككين فأثروا عليها . عاشت مع احد الكتاب دون زواج . من اشهر كتبها « ادم بيد » و« مناظر من حياة الاكليروس » و « ساليس مارنر » و « روماللا » وكثير غيرها .

(٢) فريدريك نيتشه (١٨٤٤ – ١٩٠٠) – فيلسوف الماني ، يمت الى اسرة بولونية . اصبح استاذاً في جامعة بال . اصيب بالجنون في اخريات ايامه . تقوم فلسفته على تقسيم البشرية الى طرازين ، الاقوياء والضعفاء او السادة والعبيد ، أو النبلاء والدهماء . ويقوم الصراع بينهما على اساس الاخلاق التي يؤيد هو عنصر القوة فيها .

(٣) ارثر شوبنهاور (١٧٨٨ – ١٨٦٠) ، فيلسوف المــاني . ولد من اسرة ثرية في دانزيج، درس في جامعتي برلين وجوتنبرغ . يتمثل نظامه الفلسفي في كتابه «العالم ارادة وفكرة». تأثر بافلاطون وكانت . آمن بالغيبيات . ويعتبر من المثاليين .

– المعرب –

السحر بعد بضع سنوات ، وقد يمل من هذا الحبيب ، فيبحث عن حبيب آخر ، واذا ما تنقل في حبه بين ثلاثة او اربعة كتاب، وازدرد كل ما كتبوه وهضمه ، بعث ككاتب جديد . وهناك عدد من القراء لا يقعون في حب احد ، ويكونون كالشباب الذين يكتفون باللهو مع هذه او تلك ، لعجزهم عن التعلق بواحدة معينة . وقد يكون في وسع هؤلاء القراء ان يقرأوا لجميع الكتاب ، ولكنهم لن يحققوا بدورهم شيئاً في عالم الكتابة .

ولا شك في ان هذا المفهوم عن القراءة يستبعد اعتبارها واجباً او فرضاً . وهناك في الصين من يشجعون الطلبة على اجهاد أنفسهم في القراءة . فهناك مفكر مشهور كان يربط يده في جرس ، فاذا ما نام اثناء القراءة، رن الجرس فاستيقظ ليتابع قراءته . وهناك مفكر آخر ، عهد الى خادمة له بان تظل واقفة الى جانبه وهو يقرأ في الليل ، فاذا ما أغفى ، أيقظته . لكن هذا التصرف لا معقول ولا منطقي . فاذا كان الانسان يغفو وهو يستمع الى حديث مؤلف عظيم قديم في كتابه ، فان عليه ان ينصرف الى فراشه . وليس في وسع اية وسيلة يستخدمها ، ان توقظه ليعي ما يقوله ذلك المؤلف ، لانه يكون قد فقد كل احساس بمتعة القراءة . ولا شك في ان المفكرين الذين يتمتعون بالقراءة ، لا يحسون بما يسمونه الاجهاد ، اذ انهم يحبون الكتب ، ويقرأون لانهم لا يستطيعون ان يمنعوا انفسهم عن القراءة .

أما وقد حللنا هذه القضية ، ففي امكاننا ان نجد الحل لقضية الزمان والمكان ايضاً . فليس ثمة وقت ومكان صالحين للقراءة . واذا ما توافر مزاج القراءة لأي انسان ، بات في وسعه ان يقرأ انـّى يشاء . واذا ما عرف متعة القراءة ، فسيقرأ في المدرسة او في خارجها ، أو حتى بالرغم عنها . ولقد رد تسينج كوفان في رسالة عائلية على أخ له اصغر منه أعلن عن رغبته في المجيء الى العاصمة للدراسة في مدرسة افضل من تلك التي يدرس فيها في بلدته فقال ... «إذا توافرت الرغبة في الدراسة لأي انسان، كان في وسعه ان يدرس في مدرسة

ريفية أو حتى في مدرسة تقوم في الصحراء أو في شارع مكتظ بالناس ، أو حتى لو عمل كحطاب أو كراع للخنازير . أما اذا لم تكن هذه الرغبة متوافرة ، فان اية مدرسة لا تكون صالحة له ، بل انه لا يستطيع ايضاً الدراسة حتى ولو كان في جنة من جنان الأحلام ، أو في دارة ريفية جميلة » . وهناك اناس يتخذون لأنفسهم موقفاً متعجرفاً وهم يجلسون الى مكاتبهم للقيام ببعض القراءات ، ثم يبررون عجزهم عن القراءة اما ببرودة الغرفة ، أو بأن المقعد الذي يجلسون عليه غير مريح ، او بأن الضوء في الغرفة قوي . وهناك كتاب يبررون عجزهم عن الكتابة بوجود عدد كبير من البعوض ، أو بأن الورق الذي يكتبون عليه مصقول للغاية ، أو بأن الضجيج في الشارع يعوقهم عن الكتابة . ولقد اعترف اويانج هسيو المفكر العظيم الذي عاش في عهد اسرة سونج ، بأنه كان يجيد الكتابة في ثلاثة اماكن ، على الوسادة وعلى ظهر الجواد ، وفي بيت الخلاء . وعرف عن المفكر الكبير كو شيينلي الذي عاش في عهد اسرة شينج انه كان « يقرأ مؤلفات كونفوشيوس وهو عار من ثيابه » في الصيف . وهناك من الناحية الاخرى مبررات لعدم القراءة في جميع فصول السنة لكل من لا يحب القراءة وقد عددها الشاعر ...

ان الدراسة في الربيع خيانة لجمال الطبيعة
والصيف هو احسن الفصول للنوم
وعندما يأتي الخريف ...
يسرع الشتاء خطوة في المجيء ...
ويكون ذلك مبرراً للتوقف حتى الربيع .

اذن ما الفن الصحيح في القراءة ؟ ان الرد البسيط على هذا السؤال ، هو ان يحمل الانسان كتاباً ليقرأه ، عندما يكون مزاجه مستعداً للقراءة . ولا شك في ان القراءة التلقائية هي اكثر القراءات مدعاة للمتعة . وقد يحمل المرء معه كتاب « ليساو » او اشعار عمر الخيام ثم يسير مع حبيبته جنباً الى جنب على

شاطىء النهر يقرأ لهـــا فيه ، واذا حدث وكانت السحب الجميلة تظللها ، ففي وسعها ان يتركا الكتاب وان يركزا قراءتها في السحب ، أو يجمعان بين قراءة الكتاب والسحب . وقد يزداد المزاج صلاحاً للقراءة ، اذ امسك المرء بغليونه في يده ، أو تناول قدحاً من الشاي . وكثيراً ما يحدث في الليالي الثلجية ، ان يجلس المرء أمام الموقد ، وقد وضع ابريق الشاي امامه على النار ، والى جانبه حقيبة الطبـــاق والغليون ، وجمع نحواً من عشرة كتب ، تبحث في الفلسفة والاقتصاد والشعر وسير الحياة ، ثم يأخذ في تقليبها واحداً اثر آخر ، الى ان يجـد ضالته في احدها . ويرى شين شينجتان ، ان قراءة كتاب ممنوع خلف ابواب مغلقة ، في ليلة ثلجية ، هي اعظم متعة ينعم بها الانسان . ولقد وصف شين شيجو ، المزاج الصـالح للقراءة بقوله ... « كان الاقدمون يطلقون على الكتب والرسوم صفة الرقة والنعومة ، ومن هنا يكون اسلوب اللهو والفراغ هو أحسن الاساليب في تقليب صفحات كتاب أو البوم للصور » . ففي مثل هـــذا المزاج النفسي يكون الانسان قادراً على الصبر والاحتمال . ويقول نفس المفكر ... « ويتسامح الاستاذ الحقيقي مع الاخطـاء المطبعية عندما يقرأ التاريخ تماماً كما يتغافل السائح الحقيقي عن الطرق السيئة عندما يرتقي جبلاً ، وكما يتجاهل هذا السائح وجود جسر ضعيف عندما يكون في طريقه لمشاهدة سقوط الثلج ، أو كما يتجاهل الراغب في حيـاة الريف وجود الناس العاديين حوله ، ويتجاهل المتطلع الى الازاهير مذاق الخمر ان كان سيئاً » .

وعثرت على خير وصف لمتعة القراءة في السيرة الحياتية التي كتبتها شاعرة الصين العظيمة لي شينجشاو (١٠٨١ – ١١٤١) عن نفسها . فقد ذكرت انها كانت تمضي وزوجها الى المعبد حيث تباع بعض الكتب والمخطوطات القديمة في اليوم الذي كان يتسلم فيه مكافأته الشهرية كطالب في الاقاديمية الامبراطورية ، وكانا يبتاعان بعض الفاكهة في طريق العودة ، وعندما يصلان الى البيت ، يتفحصان ما اشترياه من كتب ، وهمـا يقضمان الفاكهة او يشربان الشاي ، ويقارنان بين هذه الكتب والنسخ السابقة منها ، ثم تقول ...

« اتميز بقوة ذاكرة قوية. وكنا اذا ما عدنا الى البيت نجلس في قاعته في هدوء بعد تناول العشاء ، نحتسي اكواب الشاي ، ونشير الى اكوام الكتب على ارففها ، ثم نشرع في المراهنة على تحديد جملة كنا قد قرأناها ، ويذكر كل منا الكتاب الذي توجد فيه هذه الجملة ، والصفحة التي تضمها ، والسطر الذي تقع فيه . وكان كاسب الرهان يستطيع ان يشرب شايه قبل رفيقه . وعندما يصدق قول احدنا ، كان يرفع كوبه ويحتسي الشاي منه وهو يقهقه عالياً ، وكثيراً ما انسكب الشاي على لباسه قبل ان يشربه . حقاً لقد كنا راضين بهذه الحياة ، ونود ان نصل الى الشيخوخة ، ونحن فيها . ولذا فقد احتفظنا بعزتنا وكبريائنا ، وان كنا نعيش في فقر وهمّ ... وزادت مجموعات كتبنا مع مضي الوقت ، واصبحت الكتب مكوّمة فوق المناضد والمكاتب والاسرة ، وكنا نسعد بمرآها ، ونحس بالمتعة العقلية في وجودها ، ونضع خططنا ونناقشها في حضورها ، ونختبر السعادة التي يحس بها اولئك الذين يهوون تربية القطط والكلاب والجياد ، وسماع الموسيقى ورؤية الرقص ... »

وقد كتبت الشاعرة هذه الصورة في ايام شيخوختها وبعد وفاة زوجها ، عندما غدت سيدة عجوزاً وحيدة ، تهرب من مكان الى آخر اثناء غزو القبائل للصين الشمالية .

٤ – فن الكتابة

يعتبر فن الكتابة اوسع بكثير من فن اساليبها. وقد يكون من المفيد للمبتدىء الذي يتطلع الى ان يصبح كاتباً ان يبعد عن نفسه أي شعور بالقلق والتخوف

من اسلوب الكتابة ، وان يتوقف عن الاهتمام بالقضايا المصطنعة ، وأن يغوص في اعماق روحه لينمي شخصية ادبية له ، تعتبر اساساً في كل تأليف . وعندما يتم وضع الاساس ، وتخلــق الشخصية ، يأتي الأسلوب كنتيجة طبيعية ، تصلح دقائقه نفسها بنفسها . وقد لا يهم كثيراً اذا ما عني المبتدىء بدقائق البلاغـــة وقواعد اللغة ، شريطة ان يتمكن من خلق شيء صالح . وهناك قراء محترفون يعملون دائماً في دور النشر ، ومهمتهم ، تشكيل الكتابة وتنقيطها . يضاف الى هذا ان المعرفة بقواعد اللغة، لا تخلق الاديب ، اذا لم تكن له شخصيته الادبية. ويقول بافون[1] ... « ان الاسلوب هو الانسان » . وليس الاسلوب طريقة ، او نظاماً يتبعه الكاتب ،أو زخرفة لفظية ، وانما هو الانطباع العام الذي يحمله القارىء عن فكر الكاتب، وعمقه أو اصطناعه ، واستشفافه او افتقاره الى هذا الاستشفاف ، وعن بعض المزايا الاخرى كسرعة البديهة وحاضر النكتــة ، والسخرية اللاذعة ، والتفهم الاصيل ، والرقة ، والنعومة ، والشك الدمث أو الدماثة الشكوكة ، والصلابة والاصرار العام ، والمنطق العملي ، والموقف العام من جميع الاشيــاء . ومن الواضح ان ليس ثمة كتاب مدرسي لتنمية الاسلوب الساخر ، أو دراسات معينة لتنمية الدماثة الشكوكة أو قواعد محددة للمنطق العملي ، أو قوانين ثابتة لرقة الاحاسيس .

وعلينا ان نتعمق في بحث فن الكتابة ، وعندما نتعمق فعلاً نجد ان هـــذا الفــن يضم موضوع الادب كله ، والفكر ووجهات النظر والاحاسيس والقراءة والكتابة . ولقد اضطررت وانا اشن حملتي الادبية في الصين لاعـــادة مدرسة التعبير الذاتي (هسينج لينج) ولتنمية اسلوب اكثر اشراقاً وذاتية في النثر ،

---

(١) جورج لويس ليكليرك بافون (١٧٠٨ – ١٧٨٨) – كاتب وعالم فرنسي . درس القانون ثم تحول الى العلم . من اشهر كتبه « التاريخ الطبيعي » ، وقد ضمنه بعض نظرياتـــه عن التطور . وكان له فضل في تقدم علم الحياة .

– المعرب –

الى كتابة المقال تلو المقال ، مبدياً رأيي في الادب عامة ، وفي فن الكتابة بوجه خاص . وحاولت ان اكتب سلسلة من الحكم الادبية تحت عنوان « رماد سيجارة » . وها انا أدرج هنا بعض هذه الحكم ...

أ – الاسلوب والشخصية

يتحدث اساتذة الأنشاء عن الادب كما يتحدث النجارون عن الفن . ويحلل النقاد المؤلف الأدبي على ضوء اسلوب الكتابة كما يقيس المهندسون ارتفاع الابنية وتركيبها بأجهزتهم وادواتهم .

فليس هناك اسلوب محدد أو تكنيك للكتابة . ولقد رفض جميع كتاب الصين العظام الذين اقدرهم فكرة وجود التكنيك .

وليس التكنيك في الكتابة بالنسبة الى الادب الا التزمت بالنسبة الى الدين ، واشغال العقول التافهة بالتوافه .

وكثيراً ما يصاب المبتدىء بالذهول من مناقشة التكنيك في الرواية والمسرحية والموسيقى والتمثيل . وهو لا يتبين ان لا شأن لتكنيك الكتابة بولادة أي كاتب عظيم ، كما لا شأن لتكنيك التمثيل بولادة أي ممثل عظيم . وهو قد لا يعرف شيئاً عن وجود شيء يدعى الشخصية ، وهي الاساس في كل نجاح في الفن والادب .

ب – الاعجاب بالادب

عندما يقرأ المرء لعدد من خيرة الكتاب ، ويحس بأن احدهم يصف الأمور وصفاً واضحاً ، وان آخر ، يظهر الكثير من الرقة والنعومة ، وان ثالثاً يعبر

عن الأشياء بصورة كاملة ، وان رابعاً يتميز بالسحر الاخاذ ، وان خامساً يبعث في نفسه النشوة ، وان سادساً يسقيه الخمر ويسكره ، فعليه ان لا يتخوف من الاعراب عن اعجابه بهم ، وتقديرهم ، شريطة ان يكون هذا الاعجاب اصيلاً . وبعد ان تتوافر له التجارب الواسعة في القراءة ، يصبح له الاساس الاختباري الصالح لتقرير معنى النعومة والطراوة والقوة والسلطان والاشراق والحدة والرقة والسحر . وعندما يكون قد تذوق جميع هذه النكهات ، يصبح قادراً على تمييز الغث من السمين في الادب ، دون قراءة أي كتاب مدرسي .

ولعل القاعدة الأولى بالنسبة الى طالب الادب هي تعلم التمييز بين مختلف النكهات . فالنعومة والطراوة تمثلان احسن النكهات ، ولكن من الصعب على الكاتب ان يصل اليها . وليس ثمة الا خيط رفيع بين النعومة وبين السطحية المجردة .

وقد يحاول الكاتب الذي يفتقر الى العمق والاصالة والابتكار ، أن يكتب في اسلوب مبسط ينتهي منه الى السخف المجرد . والسمكة الطازجة هي التي تطهى وحدها في زيتها ، أما السمك المجفف ، فيجب ان يطهى مع الزيوت الاخرى ، وان يجوّد مذاقه بالفلفل والبهارات ...

ولا شك في ان الكاتب الممتاز هو كشقيقة يانج كويفي التي ذهبت لمقابلة الامبراطور دون زينة او مساحيق . وكانت جميع حسناوات البلاط الأخريات في حاجة اليها . ولعل هذا هو السبب الذي يجعل قلة من الكتاب يجرؤون على الكتابة في انجليزية مبسطة .

ج – الاسلوب والفكر

تعتمد جودة الكتابة او رداءتها على مـا فيها من سحر ونكهة . وليست هناك اية قواعد للسحر ، لانه ينبع من كتابة الانسان كما يتصاعد الدخان من

الغليون ، او كما تصعد السحابة من قمة الجبل ، دون ان تعرف الوجهة التي تتجه اليها . وخير الاساليب هو ذاك الذي يشبه « السحب الماخرة في السماء والمياه الجارية » كأسلوب سوتونجبو .

والاسلوب مزيج من اللغة والفكر والشخصية . وهناك اساليب تتألف من اللغة ليس إلا .

ويندر ان يجد المرء افكاراً واضحة مغلفة في لغة غير واضحة ، وان كان من الشائع ان يجد افكاراً غامضة يعبر عنها بوضوح . ولا ريب في ان مثل هذا الأسلوب يفتقر الى الوضوح .

وتمثل الافكار الواضحة التي يعبر عنها بلغة غير واضحة ، اسلوب الرجل الاعزب الذي لا يجد نفسه مضطراً للتفسير والتبرير لزوجة لا وجود لها، كأسلوب عمانوئيل كانت[١] مثلاً . وكثيراً ما يلجأ صمويل بتلر[٢] نفسه الى الغموض والأحاجي .

وكثيراً ما يصطبغ اسلوب الانسان بصبغة اسلوب الكاتب الذي يتعشقه . فهو يحاول ان يقلده في طرائق تفكيره وطرائق تعبيره. ولعل هذه هي الطريقة

---

(١) عمانوئيل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤) - من اعظم الفلاسفة في العصر الحديث ، واعظم مفكر في شؤون ما وراء الطبيعة ، درس الفيزياء والنظريات الطبيعية . حاول التوفيق بين ديكارت وليبنتيز في رسالته عن « معرفة الطبيعة»، والتوفيق بين نيوتن وليبنتيز في كتابه « تاريخ الطبيعة العام ونظرية السماء » . كتب رسالة عن « وجود الله » ودرس العقل الانساني وحلله . اشهر كتبه « غيبيات الاخلاق » و « العقل العملي » .

(٢) صمويل بتلر (١٧٧٤ - ١٨٣٩) - بحاثة في الادب الكلاسيكي ، درس في كمبريدج . تميز بغموض الاسلوب في الكتابة ، وضع كتباً قليلة منها « الحياة والعادات » و « التطور » و « الذاكرة اللاواعية »

- المعرب -

الوحيدة لتنمية الأسلوب عند المبتدىء . وعندما ينضج الانسان يجد اسلوبه عندما يكتشف ذاته .

لا يمكن لأي انسان ان يتعلم شيئاً من الكتاب اذا كان يكره مؤلفه ، على اساتذة المدارس ان يعوا هذه الحقيقة تمام الوعي .

يولد جزء من شخصية الانسان معه ، وكذلك اسلوبه . أما الجزء الباقي منهما فيكون ملوثاً .

يكون الانسان الذي لا يجد كاتباً يؤثره على غيره انساناً ضائعاً . فهو يظل كالبيضة غير الصالحة للفقس ، أو الارض غير المسمّدة . فالكاتب الأثير لدى النفس ، هو اللقاح للروح .

هناك كاتب أثير لكل انسان في العالم ، ولكن على هذا الانسان أن يجشّم نفسه عناء اكتشاف هذا الكاتب .

الكتاب اشبه بصورة الحياة أو المدينة . وهناك قراء يتطلعون إلى صور نيويورك وباريس دون أن يروا هاتين المدينتين. أما الانسان الحكيم فهو الذي يقرأ الكتاب والحياة معاً . وليس الكون الا كتاباً كبيراً ، وليست الحياة الا مدرسة كبيرة .

يقلب القارىء الصادق مؤلفه ليعرف كل مكنوناته ، كما يقلب الشحاذ ملابسه بحثاً عن القمل فيها .

يثير بعض المؤلفين قراءهم بصورة مستمرة وممتعة تماماً كما يثير القمل الذي يملأ ملابس الشحاذ صاحبها . فالحك شيء كبير .

لعل خير الطرق لدراسة أي موضوع ، هي في الشروع في قراءة الكتب التي تتناول ذلك الموضوع من زاوية معادية . ويضمن المرء بهذه الصورة ، أن لا

يقبل أي نفاق أو تصنع. ويصبح بعد قراءة هذا الكاتب المعادي اكثر استعداداً لقراءة الكتاب الذين يعالجون الموضوع من زاوية ودية . ويمكن عن هـذا الطريق تنمية العقل الناقد .

تكون للكاتب دائماً اهتمامات غريزية بالكلمات . فلكل كلمة عنده حيـاة وشخصية، لا تسجل عادة في معجم، الا في المعاجم التي تشبه معجم اوكسفورد المختصر للجيب .

يكون كل قاموس جيد صالح للقراءة كقاموس اوكسفورد .

هناك منجمان للغة، احدهما قديم والآخر حديث. ويكون الأول في الكتب، بينما يكون الثاني في لغة الناس العاديين. ويبحث ادباء الدرجة الثانية عن الكلمات في المناجم القديمة ، أمـا ادباء الدرجة الأولى ، فهم وحدهم القادرون على استخلاص شيء من المنجم الجديد. وتكون الخامات في المنجم القديم مستصنعه، أما في المنجم الجديد فلم تستصنع بعد .

ميّز وانج شونج (٢٧ — ١٠٠ م) بين الاخصائيين والباحثين ، كما ميز بين الكتاب والمفكرين . واني لأعتقد ان الأخصائي يتحول إلى بحاثة عندما تتسع معرفته ، كما يتحول الكاتب الى مفكر عندما تعمق حكمته .

وتتألف كتابة الباحث من العبارات التي يقترضها من غيره ، وكلما زاد عدد المراجع والمصادر التي يقتبس منها، كلما بدا افضل كبحاثة. أما كتابات المفكر فتنبع من احشائه وافكاره ، وتزداد قيمة المفكر ، كلمـا زاد اعـتماده على عصارة فكره .

يكون البحاثة كالغراب الاسود الذي يطعم صغاره ، فيبصق ما ازدرده من فمه ، أما المفكر فأشبه ما يكون بدودة القز ، التي لا تقدم لنا أوراق التوت ، بل الحرير .

هناك فترة مخاض للأفكار تسبق الكتابة ، تماماً كفترة المخاض في رحم الأم قبل الولادة . وعندما يتمكن الكاتب الأثير من إيقاد الشرارة في روح قارئه ، ليدفع اليه بتيار من الافكار الحية ، فإن هذه الحالة تشبه حالة الحمل . وعندما يسرع الانسان الى المطبعة قبل ان تمر افكاره في مرحلة المخاض ، فإنه بذلك يكون مصاباً بالاسهال ، ولا يعاني من آلام المخاض . وعندما يبيع كاتب ضميره ، فيكتب أشياء تخالف معتقداته ، فإن ما يكتبه يكون « اسقاطاً للجنين » ، اذ ان الرحم لم يحمل بعد . وعندما يحس الكاتب بتشنجات عنيفة تشبه تلك التي يحس بها من يصيب ماساً كهربياً ، ولا تهدأ نفسه الا بعد ان يدون افكاره على الورق ، اذ يحس بعد ذلك بالراحة الكبرى ، فانه يكون قد ولد ادباً . ومن هنا يكون حب الكاتب لما ينتجه اشبه بحب الأم لأطفالها الرضّع. وتكون الكتابة افضل ما تكون عندما تكون صادرة من الانسان ذاته ، كما تكون المرأة أجمل ما تكون عندما تكون زوجة لرجل آخر .

تزداد حدة القلم بالمراس والتجربة تماماً كمخرز الاسكافي الذي يتحول بصورة متدرجة الى ابرة للتطريز . ولكن افكار الانسان تصبح اكثر اتساعاً يوماً بعد آخر ، تماماً كما تتسع مجالات نظره عندما يواصل الصعود الى قمة عالية .

عندما يكره كاتب شخصاً ما ، ويفكر في ان يتناول قلمه ليكتب فيه هجواً مقذعاً ، دون أن يكون قد رأى الجوانب الطيبة فيه ، عليه ان ينحي القلم جانباً ، لانه لم يصبح اهلاً لكتابة ذلك الهجو في ذلك الانسان .

د ـ مدرسة التعبير الذاتي

يعتبر الاتجاه الكتابي الذي يسمى عادة « مدرسة هسينج لينج » والذي بدأه ثلاثة اخوة من اسرة يوان في نهاية القرن السادس ، والذي كثيراً ما يطلق عليه

اسم « مدرسة كونجان » نسبة الى المنطقة التي وجد فيها هؤلاء الأخوة ، مدرسة للتعبير الذاتي . وتعني كلمة « هسينج » في العبارة الاولى « الطبيعة الشخصية »، كما تعني كلمة « لينج » روح الانسان .

فليست الكتابة الا التعبير عن طبيعة الانسان وطابعه وما تلهو به روحه . وليس ما يسمى « بالوحي السماوي » الا تدفق هذه الروح ، وهي نتيجة افراط في حركة الهرمونات في الدم .

وعندما نقرأ لاستاذ عظيم قديم ، أو لكاتب كبير ، فاننـــا بذلك نرقب تدفق روحه الحيوية هذه . وعندما يجف هذا التدفق احياناً ، أو عندما تهبط معنويات أي انسان، تصبح كتاباته او مخطوطاته مهما كان شأنـــه، مفتقرة الى الحيويـــة .

ويفد هذا « الوحي السماوي » في الصباح ، بعد ان يكون الانسان قـــد نام نومة مريحة ، رأى فيها احلاماً عذبة ، واستيقظ وحـــده دون وجود من يوقظه . وبعد ان يتناول شاي الصباح ، يشرع في قراءة الصحف ، فلا يجـــد فيها أنباء مزعجة ، ثم يسير الهوينا الى غرفة مكتبه ، حيث يجلس الى جانب نافذة مضيئة وعلى مكتب نظيف، بينما تكون الشمس في الخارج مشرقة والنسيم عليلاً . وفي وسعه في هذه اللحظة ان يكتب المقالات الرائعة ، والشعر الجيد، والرسائل المتأنقة ، وان يرسم خير الصور مع اشفاعها بالشروح .

ويتألف ما يسمى بالذات أو الشخصية من مجموعة من الاعضاء والعضلات والاعصاب والعقل والأحاسيس والثقافة والفهم والتجارب والميول . فهو والحالة هذه يجمع بين الطبيعة وبين الثقافة ، أو بين الغرائز المولودة مع الانسان وبـين الخصال التي تعهدها بالتنمية . وتتقرر طبيعة الانسان عند ولادتـه أو قبـــل ذلك ايضاً . وهنـــاك من يتصفون بالوضاعـة والقسوة فطرياً وهنـــاك من يتميزون بالصراحـــة والشهامة والاستقامة وكبر الفؤاد بصورة طبيعية . وهناك آخرون يولدون وقـد تميزوا بالضعف والنعومة والركون الى الهموم

بطبيعتهم . فمثل هذه الأمور تخلق في النخاع الشوكي للانسان . وليس في مكنة أي استاذ مهما كان عظيماً أو أي والد مهما كان عطوفاً ان يغير طراز شخصية الانسان الطبيعية . وهناك ايضاً خصال تكتسب بعد الولادة عن طريق التعليم والتجربة ، ولكن لما كانت افكار الانسان وآراؤه وانطباعاته تنبع من مختلف المصادر وتتأثر بشتى المؤثرات ، في فترات متفاوتة من حياته ، فإن هذه الآراء والميول ووجهات النظر تتميز بكثير من اللااستقرار والافتقار إلى الثبات. فهناك من يحب الكلاب ويخشى القطط ، بينما هناك من يحب القطط ويخشى الكلاب . وعلى هذا فإن دراسة نماذج الشخصية الانسانية ، تكون من اكثر العلوم تعقيداً .

وتتطلب مدرسة التعبير الذاتي أن نعبر عن طريق الكتابة ، عن افكارنا ومشاعرنا ، ومواضع حبنا الصادق وكراهيتنا الاصيلة ، وعن مخاوفنا وهواياتنا الصحيحة. ويكون التعبير دون أية محاولة لاخفاء السيء من الصالح ، ودون أي خوف من سخرية الآخرين ، أو من مناقضة الحكماء القدامى أو السلطات المعاصرة .

ويجب كتاب مدرسة التعبير الذاتي ان يضمنوا مقالتهم فقرة بارزة للغاية ، وأن يضمنوا هذه الفقرة جملة بارزة جداً ، وان يعبروا عما يريدون قوله في مثل هذه الجملة . وهم عندما يصفون منظراً أو احساساً أو حادثاً ، لا يعالجون إلا المنظر الذي رأوه بانفسهم ، والاحساس الذي شعروا به ، والحادث الذي يفهمونه . ولا شك في أن ما يتفق مع هذه القاعدة يعتبر ادباً ، وما يخالفها لا يعتبر من الأدب على الاطلاق .

ولا شك في ان الفتاة لين تيبو في رواية « حلم الغرفة الحمراء »، كانت تنتمي إلى هذه المدرسة ، عندما قالت ... « عندما يكون ثمة بيت جميل من الشعر قاله شاعر، فليس من المهم ان يكون الايقاع الموسيقي لكلماته متفقاً مع القواعد المقررة او لا » .

وتحتقر مدرسة التعبير الذاتي في حبها للمشاعر الاصيلة، الزخرف في الاسلوب، بصورة طبيعية . وهي لهذا تنادي دائماً بالنكهة الصافية والناعمة في الكتابة . وهي تقبل القاعدة التي وضعها مينسيوس والتي تقول « ان القدرة على التعبير هي الهدف الوحيد للكتابة ».

وليس الجمال الأدبي الا قدرة على التعبير .

ولعل المخاطر الماثلة في هذه المدرسة ان ينحط اسلوب الكاتب إلى التناهي في البساطة كما حدث ليوان شونجلانج ، أو إلى الاقبال على التطرف في الافكار كما وقع لشين شينجتان، أو ان تختلف آراؤه اختلافاً كبيراً مع آراء ذوي المكانة الثابتة في عالم الفكر ، كما حدث للي شووو . ولعل هذا هو السبب الذي دفع النقاد الكونفوشيوسيين إلى كراهية هذه المدرسة كراهية شديدة. ولكن كتاب هذه المدرسة هم في الواقع الذين انقذوا الفكر والادب الصينيين من الالتزام المطلق والموت . ولا شك في ان مكانتهم ستتثبت في الحقب القادمة .

وكان الادب الصيني التقليدي الملتزمت يهدف بوضوح إلى التعبير عن آراء الحكماء الأقدمين ، لا عن آراء مؤلفي هذا الادب ، ولذا كان الموت يصيب ادبهم . أما ادباء هذه المدرسة فقد هدفوا إلى التعبير عن افكارهم لا عن افكار الحكماء الأقدمين ، ولذا ظل ادبهم حياً .

وهناك احساس بالكرامة والاستقلال عند كتاب هذه المدرسة ، وهو الذي يحول بينهم وبين الجموح والصدور بأشياء تفزع الناس . وإذا كانت ضمائرهم قد ارتاحت من ان بعض ما رأوه كان متفقاً مع آراء كونفوشيوس ومينسيوس ، فإنهم لن يجمحوا إلى حد الاختلاف مع الحكيمين العظيمين ، اما إذا شعروا ان ضمائرهم غير مرتاحة ، فلن يتورعوا عن معارضتها . وليس في امكان اي مال ان يرشوهم ولا في امكان اي تهديد بالخروج على المألوف ان يثنيهم عن رأيهم .

والادب الاصيل احساس بالتساؤل عن الكون والحياة الانسانية .

ويمكن للانسان الذي يحافظ على صفاء رؤياه وسلامتها ، ان يحمل هـــذا الاحساس بالتساؤل ، ولذا فهو ليس في حاجة إلى تشويه الحقيقة ، ليظهرهـــا بمظهر الروعة . وتبدو افكار كتاب هذه المدرسة ووجهات نظرهم دائماً جديدة وغريبة، لأن القراء ألفوا الرؤى المشوهة من غيرهم .

ولا ريب في ان اوجه ضعف الكاتب هي التي تجعله عزيزاً على ناقد مدرسة التعبير الذاتي . فجميع كتاب هذه المدرسة يعارضون في تقليـــد القدامى او المحـدثين ، وهم يعارضون ايضاً في وجود اي تكنيك لقواعد الادب . وكان الاخوة الثلاث (يوان) يؤمنون بضرورة « اطلاق فم الانسان ومعصمه لأن هذا الاطلاق يؤدي بصورة طبيعية الى صورة صحيحة » . وكانوا يرون ان « العبقرية هـي اهم شيء في الادب » . ورأى لي ليوينج ان « السحر والاثارة اهم شيء في الادب » ، كما رأى يوان تسي تساي ان ليس ثمة تكنيك للكتابة . وآمن كاتب مبكر عاش في عهـد اسرة سونج ويدعى هوانج شانكو ان « سطور الكتابة وشكلها يأتيان عفواً ، تماماً كالثقوب التي تحدثها الحشرات في الاخشاب».

هـ – الاسلوب الشائع

يكون الكاتب الذي يستعمل الاسلوب المألوف مكشوفاً ، فهو يعرض نقاط ضعفه ، ولذا فهو منزوع السلاح .

ويجب ان لا تكون العلاقة بين الكاتب والقاريء، كالعلاقة بين ناظر المدرسة الصارم وبين طلابه ، وانما كالعلاقة بين الاصدقاء الذين يألفون بعضهم . وهـذا هو السبيل الوحيد لتوليد الدفء .

والكاتب الذي يخشى استعمال تعبير « المتكلم » في كتابته ، لا يمكن ان يغدو كاتباً بارعاً .

انا احب الكاذب اكثر مما أحب قائل الحقيقة ، واحب الكاذب المفضوح اكثر من حبي للكاذب المتستر . ولا ريب في ان اقباله على فضح نفسه دليل على حبه لقرائه .

أثق بالأحمق المفضوح وأشك في القانوني .

يعتبر الاحمق المفضوح خير دبلوماتي يمثل بلده ، اذ انـــه يستطيع كسب قلوب الناس .

المجلة التي تصدر مرة كل اسبوعين هي خير المجلات في نظري ، اذ نستطيع ان نجمع مجموعة من خيرة المتحدثين في غرفة صغيرة مرة كل اسبوعين ، وندعهم يتحدثون مع بعضهم ، ويصغي القراء الى احاديثهم التي تستغرق زهاء ساعتين . وتشبه هذه المجلة اثر الحديث الممتع الذي يدور في الليل ، فاذا ما آوى قارؤه الى فراشه ، وافاق في صباح اليوم التالي ليذهب الى عمله في المصرف أو في دائرة المحاسبة أو في المدرسة حيث يلصق الاعلانات التي يصدرها لطلبته ، ظل يحس بمذاق الحديث الذي قرأه في تلك الليلة الماضية .

هناك مطاعم فاخرة صممت لاستيعاب حفلات العشاء الكبيرة في قاعاتهـا الملأى بالمرايا ، وهناك مطاعم صغيرة صممت لتقديم الشراب . وكل ما اريده ، ان اجمـــع صديقين او ثلاثة ، وان نمضي معاً لاحتساء بعض الشراب في المطعم الصغير ، لا ان اذهب الى مآدب العشاء التي تضم الاثرياء وذوي الاهمية . فالمتعة التي نحصل عليها في المطاعم الصغيرة حيث نأكل ونشرب ونتحدث، فنتشاكس، ونقلب الكؤوس ، ونصب الخمر على ملابس بعضنا البعض ، شيء لا يستطيع حاضرو المآدب الفخمة تفهمه ، ولذا فهم لا يحسون بفقده .

وهنا قصور الاثرياء وحدائقهم ، ولكن هناك ايضاً اكواخـا صغيرة في الجبال . وبالرغم من ان هذه الاكواخ تؤثث احياناً بمنتهى الذوق والاناقة ، فان اجواءها تكون مختلفة تماماً عن اجواء صروح الاثرياء ذات البوابات الزعفرانية اللون والنوافذ الخضراء ، والحاشدة بفصائل كثيرة من الخـدم والخادمات . وعندمـا يلج الانسان الباب ، لا يسمع نباح الكلاب الأمينة ، ولا يرى وجوه الخـدم والبوابين المتغطرسة ، وعندما يغادر القصر لا يرى زوجاً من الأسود الحجرية يتطلع اليه . وقد وصف كاتب من القرن السابع عشر ، الوضع وصفـاً دقيقاً فقال ... « يتمثل الوضع وكأن شو وشينج وشانج وشووو ، يجلسون معاً ويحيي الواحـد منهم الآخرين في قاعة فوشي ، وفجأة يفد سوتونجبو وتونجفانج سو ، اللذان يدخلان الى القاعة نصف عاريين ، وحافيي القدم ، وسرعان مـا تجري عملية المصافحة وتبادل النكات واللطائف . وسيتطلع النظارة في دهشة ، ولكن هؤلاء السادة يظلون ينظرون الى بعضهم البعض في تفهم صامت »

و – ما هو الجمال ؟

يعتمد الشيء الذي يسمونه الجمال في الادب والجمال في الاشياء ، كثيراً على التبـدل والحركة ، وهو يرتكز الى الحياة ، فكل شيء حي عرضة دائماً للتبدل والحركة ، وكل ما يتبدل ويتحرك ، يكون جميلاً في صورة طبيعية . وهـل يمكن ان تكون هناك قواعد محددة للادب والكتابة ، عندما نرى ان الصخور الجبلية والاخاديد والجداول ، تملك جمالاً من الغرابة والخشونة ، يفوق جمـال القنوات ، ومع ذلك فقد تم صنعها ، دون أي تدخل من حسابات المهندسين ؟ وتعتبر مجموعات الكواكب ، ادب السماوات ، كما تعتبر الجبال المشهورة والانهار العظيمة ادب الارض . وتهب الرياح وتتبدل السحب ، وتتولد لدينـا صورة ديباجة مقصبة ، ويفد الجليد وتتساقط الاوراق ، وتتولد لدينا صورة الخريف .

ترى هل تفكر الكواكب في مداراتها وسط الكون باعجاب الناس بهـــا على الارض ؟ ومع ذلك فنحن لا نرى بعضها الا في صورة عارضة . وتتقلص قشرة الارض وتتمدد ، وتقذف جبالاً ، وتشكل بحاراً عميقة . ترى هـــل خلقت الارض عن وعي الجبال المقدسة الخمسة لنعبدها ؟ ومع ذلك يقف جبل تايهـــو وجبل كونيلين ، بما فيهما من رتابة رائعة ، وتقف قمة « الفتـــاة اليافعة » و « الصبي الجني » تطل علينا موحية لنا بالمسرة. ولا شك ان هذه القمم كلها ، ليست الا ضربات يد الخلاق العظيم ، وهو الاستاذ الاكبر للفن . وهل في وسع السحب التي تمخر عباب السماء مندفعة من قمم الجبال ، والتي تلقى سياط الرياح الجبلية العنيفة ان تجد الوقت لتفكر في الأمور التي تسترعي انتباهنا ؟ ومـــع ذلك فهي تتخذ صوراً شتى كصور حراشف السمك ، وقطع الديباج ، وكلاب الصيد ، والاسود الزائرة ، والعنقاء الراقصة وذي القرنين الواثب ، وكأنها من روائـــع الادب . وهل تجد اشجار الخريف التي احست بلذعات الحر والبرد ، وتدمير الجليد،والتي تشغل نفسها في الابطاء في لفظ انفاسها الاخيرة والاحتفاظ بحيويتها ، الوقت الكافي لتأخذ زينتها ، لتعجب السائح الذي يسير على الطريق الرئيسية القديمة ؟ ومـــع ذلك فهي تظهر باردة وطاهرة ، حزينة ومهجورة ومتفوقة في جمالها على رسوم وانج وي ومي في .

وهكذا يكون لكـــل شيء في الكون جماله الادبي . فجمال الكرمة التي جف عودها يفوق جمال مخطوطات وانج هسيشي ، كما ان غرابـــة الصخور المتدليـــة اكثر تأثيراً من النقوش على ضريح شانج مينجلونج . ويتضح من هذا اننا نعرف ان الجمال الادبي للاشياء ينبع من طبيعتها كما نعرف ان تلك التي تؤدي طبيعتها ، تخفي نفسها وراء خطوط جميلة . ومن هنا يكون جمال الخط والشكل اصيلاً لا عارضاً . ولقد وجدت حوافر الجواد لتضمن له السرعة في الجري ، كما خلقت مخالب النمر لينهش بها فريسته ، وارجل اللقلق ليخوض بها مياه المستنقعات ، وكف الدب ليسير بها فوق الثلج . ولكن هل يفكر الجواد او النمر او اللقلق او الدب ، بجمال اعضائه هذه، وما فيها من شكل وتناسب؟

ان كل ما يحاول الواحد منها ان يعمله ، هو ان يؤدي دوره في الحياة ، وان يتخذ شكلاً صالحاً للحركة . ولكننا نرى خف الجواد ومخلب النمر ، وارجل اللقلق ، وكف الدب، فنرى الجمال فيها كلها، إما في شكل خطوطها وتعاريجها ومـا يوحيه منظرها من قوة ، أو في شكل رقبتها ، ودقة خطوطها ، وخشونة مفاصلها . وهنا تمثل حركات كل حيوان كالفيل او الاسد او الثعبان ، أو التنين او البقرة او الغزال شكلاً من اشكال الجمال الذي يصور في الكلمات والرسوم. وينبع جمالها من شكلها أو من حركتها ، وليست اشكال اجسامهـا الا ثمرة اعمالها البدنية ، وهذا هو سر الجمال في الكتابة . فعندما تتطلب صورة الحركة هذا الجمال ، فمن الضروري ان لا يكبت ، وعندما لا تتطلبه هـذه الصورة يجب ان تتوقف الحركة . ومن هنا تكون الرائعة الادبية امتـداداً للطبيعة نفسها ، وقد تولد جمالها من شكلها ونبع سحرها بصورة عارضة . ولهذا فنحن اميل الى جمال الحركة منا الى جمال النسب الثابتة . فلكل شيء حي ومتحرك جماله وقوته ، وبداعة شكله وخطوطه .



١٣

العلاقة مع الله

١ – عودة الدين

هناك كثيرون يدعون معرفة الله، ومعرفة ما يحبه ويكرهه، ولذا يستحيل علي ان اعالج هذا الموضوع دون ان اعرض نفسي للحملات التي تتهمني بالزندقة من البعض ، وبالتنبؤ من البعض الآخر . فهل من حقنا نحن المخلوقات البشرية التي يمثل الواحد منا اقل من واحد من بليون من قشرة الارض التي تمثل بدورها اقل من واحد من بليون من الكون العظيم ، ان ندعي اننا نعرف الله ؟ .

ومع ذلك فلا يمكن لأية فلسفة للحياة ان تكمل ، ولا لأي مفهوم عن حياة الانسان الروحية أن يكون صالحاً ، الا اذا خلقنا علاقة مرضية ومنسجمة لانفسنا مع حياة الكون الذي يحيط بنا . فللانسان اهميته الخاصة ، وهو اهم موضوع في دراساتنا ، وهذا هو جوهر علم الانسنة . ومع ذلك فان الانسان يعيش في كون رائع ، لا يقل في روعته عن الانسان نفسه ، ولا يمكن لمن

يتجاهل العالم الاكبر الذي يحيط به وجذوره ومصيره ، أن يعيش حياة مرضية حقة .

ولعل المشكلة في الديانة المتزمتة المستقيمة ، انها تخلط في حديثها عن عملية التطور التاريخي في عدد من الأمور التي تقع خارج نطاق الدين نفسه ، كعلم الطبيعة والفلك والجريمة ومفاهيم الجنس والمرأة . ولو ان الدين اقتصر على ملكوت الضمير الخلقي ، لما كانت عملية اعادة توجيه الدين على ما هي عليه من الضخامة اليوم . فمن الاسهل التصدي لفكرة « الجنة » و « الجحيم » عن محاولة التصدي للفكرة المتعلقة « بالله » [1] .

يضاف الى هذا ان العلم يقدم للانسان المسيحي الحديث احساساً اعمق واكثر جدة عن اسرار الكون ، ومفهوماً جديداً عن المادة كمتطلب متحول للطاقة ، وعن الله نفسه على حد تعبير جيمس جنيز [2] اذ قال ... « يبدو الكون اقرب الى الفكرة العظيمة منه الى الآلة العظيمة » . وتبرهن الحسابات الرياضية نفسها وجود ما لا يمكن حسابه رياضياً . ويتحتم على الدين ان يتراجع ، وبدلاً من تحديد الكثير من الأمور في ملكوت العلوم الطبيعية على النحو الذي كانت تحدد فيه ، يجب القول ، بأن هذه الامور ليست من اختصاص الدين في

---

(١) لن نناقش آراء المؤلف في هذا الفصل . لأن مناقشته تتعدى حدود اختصاصنا ، لا سيما وانه لا يتحدث عن دين معين ، وانما يتحدث عن الدين بوجه عام ، ودون تحديد . وان كنا نرى ان بعض الديانات ، كالدين الاسلامي مثلاً لا تنحصر في القضايا الروحية فقط ، وانما تعالج القضايا الاجتماعية ايضاً ، فالاسلام ينظم امور المجتمع ، بقدر تنظيمه للامور الروحية .

(٢) السير جيمس جنيز (١٨٧٧ – ١٩٤٦) – عالم رياضي انجليزي . درس في كمبريدج ، ثم اصبح استاذاً للرياضة فيها . اصبح رئيساً لجمعية علماء الفلك الملكية . له دراسات مهمة في عالم الذرة . من اشهر مؤلفاته « النظرية الديناميه للغازات » و « النظرية الرياضية للكهرباء والمغناطيس » و « الكون المجهول » و « الكون حولنا » . وله دراسات مهمة في الذرة .

– المعرب –

شيء . وعليه ان لا يحدد اعتماد صحة الكثير من التجارب الروحية على مواضيع لا صلة له بها على الاطلاق، كالقول بان عمر الانسان على الارض اربعة آلاف عام، أو مليون عام أو القول بأن الارض كروية او مسطحة، او في شكل مائدة شاي معرضة للوقوع لولا انها محمولة على رأس فيل هندي او قرن ثور، أو ظهر سلحفاة صينية . فعلى الدين ان يحصر نفسه في ملكوت الاخلاق ، أي في ملكوت الضمير الخلقي الذي يتميز بكرامة خاصة يمكن ان تضاهى من جميع النواحي بدراسة الزهور وما في الكون من اسماك وكواكب . ولقد قام القديس بطرس بأول العمليات الجراحية في تشريح الدين اليهودي ، وأدى بذلك خدمة عظيمة عن طريق فصله بين الطعام والدين . ولا شك في ان الدين يكسب الكثير لو فصل ايضاً عن علم طبقات الارض ، وعلم التشريح المقارن . وعلى الدين ان يتوقف عن اقحام نفسه في علوم الفلك والتشريح وطبقات الارض وفي محاولة الحفاظ على التقاليد الفولكلورية القديمة . وعلى الدين ان لا يتحدث عندما يتجادل علماء الحياة، وبذلك يزيد احترامه عند الناس الى حد كبير .

وعلى الانسان بالنسبة الى الدين الحديث ، ان يحصل على ما ينشده من غفران بنفسه ودون حاجة الى تدخل الكنيسة . وهناك دائماً احتمال في ان نسلم انفسنا الى « الروح العظمى » في جو من العبادة والطقوس ، تماماً كما يركع الانسان وهو يصلي دون ان ينبس ببنت شفة ، متطلعاً الى النوافذ ذات الزجاج الملون ، بالرغم من كل ما يفكر به عن العقائد اللاهوتية . وتصبح العبادة على هذا الصعيد تجربة جمالية تخص الانسان نفسه ، وتكون مشابهة في الواقع والحقيقة ، لتجربة تطلع الانسان الى الشمس وهي تغرب في الافق وراء الاشجار والتلال . ويكون الدين بالنسبة الى مثل هذا الانسان عملاً نهائياً من اعمال الوعي ، اذ يمثل تجربة جمالية مشابهة تماماً لتجربة الشعر .

ولكن مثل هذا الانسان لا بد وان ينظر بشيء من الزراية الى الكنائس على

النحو الذي تمثل فيه الآن . فالاله الذي يعبده هو غير الاله الذي يتقربون اليه في الكنائس بالقرابين اليومية الصغيرة . وهذا الاله ، لا يأمر الريح بالهبوب شمالاً ، اذا ابحر عابده باتجاه الشمال ، او بالهبوب جنوباً ان ابحر هذا العابد باتجاه الجنوب . وهو يرى في شكر الله على الريح المواتية له ، وقاحة بل انانية ، اذ انه يعني بذلك ان الله لا يحب الآخرين الذين يبحرون في الاتجاه المعاكس لاتجاهه في نفس الوقت . فالدين في رأيه ترابط روحي ، بين روحين لاتطلب احداهما شيئاً من الاخرى . وهو لهذا لا يستطيع فهم الكنائس باوضاعها الحالية ، بل يذهل من عملية التحول الغريبة التي مر بها الدين . ويزداد ذهوله ، اذا حاول تعريف الديانات على النحو الذي توجد فيه في هذه الايام . فهل الدين مجرد تمجيد للوضع القائم ،مشفوع ببعض العواطف الباطنية الخفية ؟ أو هل هو حقائق خلقية احيطت بهالات من الغموض والزخرف بحيث اختفت طبيعتها الصحيحة لتمكن رجال الدين من كسب ارزاقهم؟ أوَ لا يمثل الغموض بالنسبة الى الدين ما يمثله « التركيب السري » لعقار كثر الاعلان عنه ؟ أو هل يكون الدين عملية شعوذة تتناول اللامرئيّ والمجهول ، لأن اللامرئيات والمجاهيل تألف الشعوذة ؟ وهل يعتمد الايمان على المعرفة ، او أن الايمان يبدأ من نقطة انتهاء المعرفة ؟ أو هل يكون الدين كرة تقذفها الراهبة امام النظارة ، ليمسك بها راهب آخر بنفس الاسلوب الذي يمسك به الكرة ؟ وهل الدين وسيلة للحفاظ على نقاوة العنصر الآري او النوردي أو لمعارضة الطلاق وتحديد النسل ، وتسمية كل مصلح اجتماعي ، بالشيوعي أو بالرجل الاحمر ؟ وهل يتلقى المسيح تولستوي [١] بين ذراعيه وسط عاصفة ثلجية عنيفة ، بعد أن اعلنت الكنيسة الشرقية حرمانه من الدين ؟ أو هل يقف رجل الدين خارج أية

---

(١) الكونت ليونيقولافيتش تولستوي (١٨٢٨ – ١٩٢٠) – كاتب روسيا وشاعرها العظيم . كان من دعاة الاصلاح الاجتماعي بالرغم من انتمائه الى النبلاء . من اشهر كتبه ، « الحرب والسلام » و « انا كارنينا » و « اعترافاتي » و « ماهية الدين » .

– المعرب

كاتدرائية ، ليشير إلى اولاد الاغنياء في اثوابهم المترفة داعياً إياهم إلى الشعور مع الفقراء ؟

ولو عرّينا الدين من جميع هذه الصور ، لظلت لدينا منه صورة كافية ، تمثل الاحساس البسيط بالاجلال لما في الحياة ومسؤولياتها من جمال وعظمة وغموض ، بعد ان نكون قد نزعنا عنه ما احاطه به علم اللاهوت عبر القرون والاجيال ، من صور تدعي الصحة والصدق . وهكذا يصبح الدين مبسّطاً ، ومقنعاً للكثيرين من الناس في عصرنا . فالفناء الروحي في التعبد الذي عرفته القرون الوسطى ، آخذ الان في الانحسار بصورة واضحة ، كما أن هناك كثيرين من الناس اليوم يرتضون بالموت على أنه نهاية ، دون التفكير في الخلود ، الذي كان من أقوى اسباب الاستهواء التي اعتمد عليها الدين في القرون الماضية .

وانشغال المرء بالخلود ، ظاهرة مرضية . وقد أفهم رغبة الانسان في الخلود ، ولكنني أقول ان تأثير الديانة المسيحية ، هو الذي جعل هذا الخلود يحتل المنزل الاول في اهتمام الانسان . فقد تحولت الفكرة من مجرد أمل وخيال يقعان في ملكوت الخيالات الشعرية ، إلى قضية تستأثر بالاهتمام ، واصبحت الشغل الشاغل للرهبان في حياتهم . وعندما يتجاوز الانسان الخمسين من عمره ، تزول خشيته من الموت ، سواء أكان مسيحياً أو وثنياً ، ولعل هذا هو السبب الذي يدعوه إلى عدم التخوف منه ، ومما بعده من جنة أو جحيم . ونجد الذين يتجاوزون هذا السن ، دائمي الحديث بمرح عن قبورهم وما سينقش عليها من عبارات وعن الحسنات النسبية لحرق الجثث بعد الموت . وانا لا اعني بهذا مجرد اولئك الذين يثقون بذهابهم إلى الجنة ، وانما اولئك الذين يحملون ايضاً نظرة واقعية للاوضاع على اعتبار أن انطفاء الحياة ، يشبه انطفاء الشمعة التي لن تعود الى الاضاءة . وهناك كثيرون من كبار مفكري العالم في هذه الايام ، لم يتورعوا عن اظهار عدم ايمانهم بالخلود ، وعدم اهتمامهم به مثل اتش. جي

ويلز [١] والبرت اينشتاين [٢] ، والسير ارثر كيث [٣] ، وكثير غيرهم . ولكنني لا اعتقد ان رفض فكرة الخوف من الموت تتطلب عقلاً كبيراً كعقول هؤلاء .

وقد استعاض بعض الناس عن فكرة الخلود الشخصي للروح ، بافكار عن خلود اشياء أخرى كخلود العنصر ، أو خلود العمل ، أو خلود الاسم . ويكفينا عندما نموت ، ان نترك اعمالاً تخلدنا ، وتترك آثارها على الآخرين ، وتلعب دوراً مهما صغر في حياة المجتمع الذي كنا نعيش فيه . فقد نقطف الزهرة ونقذف باوراقها الى الارض، لكن رائحتها الجميلة تظل عابقة في الهواء . ولا شك في ان هذا الطراز من الخلود اكثر عقلانية وبعداً عن الانانية . وفي وسعنا ان نقول على ضوء هذا ان رجالاً من امثال لويس باستور [٤] ولوثر

---

(١) هربرت جورج ويلز (١٨٦٦ – ١٩٤٦) - روائي انجليزي مشهور . درس العلوم العسكرية ثم تحول الى الادب . من اشهر قصصه « الزيارة الرائعة » و « الحب والمستر لويشام » و «المستر بوبي»و« الزواج ». كان من الاشتراكيين الفابيين.ومن اشهر كتبه « مختصر تاريخ العالم » و« مختصرتاريخ الجنس البشري » .

(٢)البرت اينشتاين (١٨٧٩ – ١٩٥٥) – من اشهر علماء الطبيعة . ولد في المانيا من أسرة يهودية ودرس في مونيخ . هو صاحب نظرية « النسبية » التي عرفت باسمه . حصل على جائزة نوبل . هاجر الى امريكا بعد قيام النازية واقام فيها .

(٣) السير ارثر كيث (١٨٧٩ – ١٩٤٤) – مؤرخ بريطاني وعالم بأصول الاجناس . درس في ادنبرة ثم في اوكسفورد . كتب عن البوذية . من اشهر كتبه « فلسفة البوذية » و « تاريخ الهند » و « حكومات الامبراطورية البريطانية » .

(٤) لويس باستور – (١٨٢٢ – ١٨٩٥) – اشهر علماء الكيمياء . ولد في دول الفرنسية ودرس في باريس . اكتشف الجراثيم والعقارات المكافحة لها . دراساته البكتريولوجية هي اساس علم الطب الحديث .

– المعرب –

بيربانك [١] وتوماس اديسون [٢] ما زالوا يعيشون بيننا . أو يهم ان كان هؤلاء الناس قد ماتوا ، طالمـــا ان اجسادهم ليست بالشيء المهم ، وليست الا التعميم المطلق لتجمع دائم التغير من المركبات الكيماوية . فالانسان يرى ان حياتـــه ليست إلا نقطة في نهر دائم الجريان ، وهو لهـذا يود لو اسهم بدوره في جريان هذا النهر العظيم للحياة . ولو ضعفت الانانية عند الانسان لاكتفى بهذا القـدر القليل من الاسهام .



(١) لوثر بيربانك (١٨٤٩ – ١٩٢٦) – عالم امريكي في النبات . قام بتجارب عظيمة في تربية النباتات وخلق انواعاً جديدة من التركيبات النباتية .

(٢) توماس اديسون (١٨٤٧ – ١٩٣١) – مخترع امريكي مشهور . اليه يرجع الفضل في اختراع الراديو اللاسلكي وعدد من اهم الاجهزة في الهاتف والبرق .

– المعرب –

١٤

فن التفكير

١ - الحاجة الى أنسنة التفكير

التفكير فن لا علم . ولعل من اهم الفروق بين التفكير في الصين وبينه في الغرب ، هو ان ثمة الكثير من المعرفة المتخصصة في الغرب ، والقليل من المعرفة الانسانية ، بينما يهتم المفكرون في الصين بمشكلة العيش ، ويفتقرون الى الكثير من العلوم المتخصصة . ونحن نشهد غزواً من التفكير العلمي يجتاح مجالات المعرفة المؤنسنة في الغرب . وقد تميز هذا الغزو برفيع التخصص ، وبالاستعمال المفرط للتعابير العلمية وشبه العلمية . وانا اتحدث هنا عن التفكير العلمي على صعيد الحياة اليومية ، لا عن التفكير العلمي الاصيل في مجالاته العلمية ، اذ لا يمكن الفصل بينه وبين المنطق التفكيري من ناحية والتصور من الناحية الاخرى . ويكون هذا التفكير العلمي على صعيد الحياة اليومية ، متناهياً في منطقه وموضوعيته ، ورفيعاً في تخصصه ، وذرياً في طريقته واستشفافه .

ولا شك في ان الفرق بين طرازي التفكير الشرقي والغربي يعود حتماً الى التعارض بين المنطق وسلامة التفكير . فالمنطق اذا خلا من سـلامة التفكير ، تحول الى شيء لا انساني ، وسلامة التفكير ان خلت من المنطق ، اصبحت عـاجزة عن اختراق اسرار الطبيعة .

ترى ما الذي يعثر عليه الانسان ان اوغل في دراساته في مجـالات الادب والفلسفة الصينيين ؟ يجد الانسان اولاً ان ليست هناك علوم ، او نظـريات . او عقائد ، أو حتى مدارس متباينة في الفلسفة . فقد حطمت سلامـة التفكير وروح العقلانية جميع النظريات والعقائد. ويقول الشاعر بوشوبي « ان المفكـر الصيني . استخدم الكونفوشوسية في تنظيم سلوكه ، واستخدم البوذية في جلاء عقله . واستخدم التاريخ والرسوم والجبال والانهار والخمر والموسيقى والغناء في تهدئة روحه » فهو يعيش في العالم وكأنه في خارجه .

ويتضح من هذا ان الصين تحولت الى بلاد لا يحاول فيها كل انسان جاهداً ، ان يفكر . كما لا يحاول فيها كل انسان جاهداً ان يعيش.[١] وقد تحولت الى بلاد أضحت الفلسفة فيها نفسها قضية سلامة تفكير مبسط ومتواضع، يمكن شرحها في بيتين من الشعر، كما يمكن شرحها في مجلدات كثيرة. اجل تحولت الى بلاد لا وجود للمدارس الفلسفية فيهـا ، ولا وجود اذا شئنا التعميم ، للمنطق أو الغيبيات أو المهاترات الاكاديمية. ففيها يقل التزمت العقائدي ويقل التعصب الفكري والعملي،

---

(١) قد يصح هذا القول بالنسبة الى الصين قبل ثورتها العظيمة التي قلبت حياة الصينيـين ، رأساً على عقب . فاحالتهم الى شعب مجد عامل . وشعب مفكر . خاض ميادين العـلم والتقنية والتصنيع ، فتوصل الى الذرة . وقطع في سنوات ، ما قطعته الامم المتقدمة في اجيال وقرون . ولعل هذه الصور التي رسمها المؤلف لحياة الصين قبل الثورة . وقبل تحولها العظيم . هي الدافع الى تعريب هذا الكتاب لتبيان الفرق بين ما كانت عليه الصين في الماضي ، ومـا اصبحت عليه صين اليوم .

– المعرب –

وتقل المصطلحات المطلقة . فليس في إمكان العقلانية الآلية ان تنتعش فيها ، لأن أهلها يكرهون فكرة الحتمية المنطقية . وهي تتحول الى بلاد ينعدم فيها المحامون العاملون في الحياة العملية ، كما ينعدم رجال المنطق في ميدان الفلسفة . فأهلها يستعيضون عن النظم الفلسفية المدروسة بإحساس عميق في الحياة . ويستعيضون عن كانت وهيجيل ، بكتاب المقالات وواضعي الحكم القصيرة . ودعاة الالغاز البوذية والاحاجي الطاوية .

ويعرض لنا ادب الصين في مجموعه ، بيداء من الاشعار والكتابات القصيرة ، التي قد يضيق بها من لا يفهمها ولا يقدرها، ومع ذلك فهي تتميز بالتنوع الكامل . وبالجمال الذي لا ينفذ ، تماماً وكأنها المناظر الجميلة في المناطق اللامتحضرة والطبيعية . فليس عندنا في الصين الا كتاب مقال ، وكتاب رسائل ، يحاولون تجسيد مشاعرهم تجاه الحياة في مقال قصير أو رسالة مقتضبة لا يتجاوز تعداد كلماتها بضع مئات ، بل لعلها أقصر بكثير من أي موضوع انشائي يكتبه طالب في مدرسة امريكية. ويجد المرء في هذه الكتابات العرضية والرسائل واليوميات والمذكرات الادبية والمقالات المنظمة ، تعليقات قصيرة على شرور الحظ ، وتسجيلات لاحداث متنوعة، كانتحار سيدة في قرية مجاورة ، أو حفلة ممتعة من حفلات الربيع ، أو الاحتفال بعيد وسط الثلوج ، أو الإبحار في قارب في ليلة مقمرة ، أو قضاء ليلة في معبد كانت العواصف والرعود لا تنقطع فيها عن الدوي في الخارج ، وما تضمنته الاحاديث التي دارت ابان هذه الاحداث من تعليقات . ونحن نجد مجموعات كبيرة من الكتاب الذين يقولون الشعر ، والشعراء الذين يكتبون النثر ، ولا يتعدى ما يكتبونه بضع مئات من الكلمات ، يعبرون في سطر واحد منها عن فلسفة كاملة للحياة . ونجد كتاباً للاحاجي والحكم والرسائل الخاصة، لا يحاولون مطلقاً ان يوحّدوا بين ما يكتبونه في كل متكامل . ولقد حال هذا دون ظهور المدارس والاساليب المحددة في الكتابة . فروح العقلانية هي التي تكبح جماح الادراك ، كما تحدده قدرة الكاتب على الاحساس الفني . وهنا لا بد من القول ، بوجود شيء من الافتقار الى الثقة بالادراك .

وقد لا يكون من الضروري ان نشير الى ان الملكة المنطقية تعتبر سلاحاً قوياً من اسلحة العقل الانساني اذ يمكنه من غزو مجـالات العلم . وانا اعرف ايضاً ان التقدم الانساني في الغرب ، خاضع لسيطرة سلامة المنطق ، ولقدرة الروح الناقدة التي تفوق في عظمتها روح المنطق ، والتي تمثـل في رأيي اسمى صور التفكير في الغرب . وقد لا اجد لزاماً علي ان اعترف بان الروح الناقدة تطورت في الغرب اكثر من تطورها في الصين . وانا اشير في حديثي عن اوجه الضعف في التفكير المنطقي ، الى نقص واضح في الفكر الغربي بل وفي السياسات الغربية . فللمنطق سحره ايضاً ، وانا اعتبر ان تطوير الرواية البوليسية ثمـرة مهمة من ثمار العقل المنطقي ، وهي صورة ادبية لم يفلح الصينيون مطلقـاً في تنميتها وتطويرها . ولكن الافراط في الانشغال بالتفكير المنطقي ينطوي على الكثير من العيوب ايضاً .

ولعل ابرز خصائص التفكـير والدراسات الغربية ، ما ينطويان عليه من تخصص ، وتقسيم ميادين المعرفة الى دوائر مختلفة . ولا شك في ان الافراط في تطوير التفكير المنطقي والتخصص ، وما انطوى عليه من خلق تعبيرات تقنية جديدة ، قد خلق حقيقة غريبة اتصفت بها الحضـارة الحديثة ، وهي رجوع الفلسفة الى المؤخرة ، ليحل علما السياسة والاقتصاد محلها ، وتقبل الناس لهـذه الحقيقة دون أي وخزة من ضمير . ولقد اصبح الشعور السائد عند الناس العاديين بل وعند المتعلمين ايضاً ، ان الفلسفة « موضوع » يستطيع الانسان ان يعيش بدونه . ولا شك في ان هذه النظرة تمثل نقصاً غريباً في الثقافة العصرية ، اذ ان الفلسفة التي يجب ان تكون قريبة من قلوب الناس واعمالهم ،اصبحت بعيدة عن الحياة . ولم تكن الفلسفة كذلك في الحضارات العريقة للرومان والاغريق . كما لم يكن شأنها كذلك في الصين . حيث كانت دراسة حكمة الحيـاة تؤلف الشغل الشاغل للمفكر الدارس . وهناك احد تعليلين لهذه النظرة الجـديدة ، وهي ان يكون الانسان العصري قـد اصبح غير مهتم بمشاكل العيش التي تؤلف الموضوع الاســاسي للفلسفة ، او اننا قد بعدنا كثيراً عن المفهوم الأصلي للفلسفة . وقـد اتسعت آفاق معرفتنا كثيراً ، واصبحت لنا دوائر عـدة للمعرفة

يقوم على حراستها ، وبمنتهى الحماسة ، الاخصائيون فيها ، وهكذا لم تعد الفلسفة تحتل المنزلة الاولى بين دراسات الانسان ، وانما باتت المجال الوحيد الذي لا يرغب أي انسان في التخصص فيه . ولعل خير مثل على صورة التعليم المعاصر ، ما اعلنته احدى الجامعات الامريكية من ان « دائرة علم النفس قد تلطفت ففتحت ابواب الشعبة الرابعة فيها الى طلبة الشعبة الثالثة في دائرة علم الاقتصاد» ويفهم من هذا الاعلان ، ان استاذ شعبة الاقتصاد الثالثة قد سلم امر العناية بطلابه الى استاذ شعبة علم النفس الرابعة ، مشفوعة بحبه وبركاته ، بينما سمح استاذ الشعبة الرابعة من علم النفس لطلابه بان يدخلوا الى الحرم المقدس لشعبة الاقتصاد الثالثة ، نتيجة حسن ضيافة رئيس هذه الشعبة . وهكذا اصبحت الفلسفة التي كانت تمثل « ملكة المعرفة » في وضع يشبه الوضع الذي وجد امبراطور الصين نفسه فيه في ايام الحروب بين ممالك الصين المختلفة ، فلم يعد قادراً على جباية الجزية من الدول التابعة له ، ورأى سلطته وملكه يتقلصان يوماً بعد آخر ، ولم يبق على الولاء له ، الا نفر قليل من افراد الرعية الجياع والمفتقرين الى التغذية .

فلقد وصلنا الى مرحلة من الثقافة الانسانية لم تعد المعرفة فيها وحدة متكاملة ، وانما باتت مقسمة الى خانات وبنود ، واصبح التخصص لا التكامل العنصر الغالب عليها ، وبات رجالها من الاخصائيين لا من فلاسفة الحكمة الانسانية . ولا شك في ان هذا الافراط في التخصص في المعرفة لا يختلف كثيراً عن الافراط في التخصص في المطبخ الامبراطوري الصيني في الماضي . ولقد تمكن احد الموظفين الصينيين الاثرياء ، بعد انهيار احدى الاسر المالكة ، من الحصول على فتاة كانت تعمل في مطبخ القصر الامبراطوري ، فاستخدمها طباخة لديه . وأحس بالاعتزاز من وجودها في بيته ، فوجه دعوات الى لفيف من اصدقائه ، للمجيء الى بيته لتذوق الطعام الذي تعده الطباخة الامبراطورية . وعندما اقترب موعد الوليمة ، راح يطلب الى الفتاة ان تعد عشاء فاخراً ، فردت بانها لا تستطيع اعداد أي عشاء ...

وسألها الموظف ... اذن ما الذي كنت تفعلينه في مطبخ الامبراطور ؟

فردت بقولها ... كنت اساعد في اعداد بعض الفطائر للعشاء .

– اذن هيّا واعدّي الفطائر لضيوفي ...

وسرعان ما اشتد غيظه عندما سمعها تقول ... « آه انا لا استطيع اعداد الفطائر . فقد تخصصت في تقشير البصل لحشو الفطائر التي تقدم في العشاء الامبراطوري » .

ولا ريب في ان وضعاً مماثلاً يسود اليوم ميدان المعرفة الانسانية ، والدراسات الاكاديمية . فهناك عالم في الحياة لا يعرف الا القليل عن الحياة والطبيعة الانسانية ، وهناك عالم نفسي يعرف شيئاً قليلاً آخر عنها ، وهناك عالم في طبقات الارض يعرف شيئاً عن التاريخ القديم للجنس البشري ، وهناك عالم في الاجناس البشرية يعرف شيئاً عن عقل الانسان البدائي ، ومؤرخ يستطيع اذا كان ذا عقل مبتكر ان يعلمنا شيئاً عن حكمة الانسان وحماقاته كما انعكسا في تاريخ الانسان القديم ، وعالم نفس ، يستطيع ان يفهمنا بعض الشيء عن سلوكنا، وان كان كثيراً ما يحدثنا عن بعض السخافات الاكاديمية . وكثيراً ما يبدو لي بعض المربين من علماء النفس في منتهى السخف عندما يكونون على خطأ ، ولكنهم يكونون اشد سخفاً عندما يكونون على صواب . ويبدو لي ان عملية التخصص لم تكن مصحوبة بعملية سريعة وضرورية من التكامل ، بحيث يمكن توحيد جميع نواحي المعرفة ، وجعلها تخدم الغاية الأولى وهى حكمة الحياة . ويبدو اننا بتنا الآن على استعداد لخلق بعض التكامل في المعرفة ، وذلك على ضوء ما تبذله جامعتا ييل وهارفرد من جهود . ولكن ما لم يعمل العلماء الغربيون على اداء هذه المهمة باتباع طريقة مبسطة ، واقل منطقاً في التفكير ، فإن هذا التكامل لن يتحقق . ولا يمكن تحقيق الحكمة الانسانية عن طريق ضم اجزاء المعرفة المتخصصة الى بعضها ، أو عن طريق دراسة المعدلات

الأحصائية وانما يمكن تحقيقها عن طريق بعد النظر والاستشفاف وتفوق سلامة التفكير والمزيد من سرعة البديهة ، والالهام الذاتي البسيط .

وهناك فرق واضح بين التفكير المنطقي ، والتفكير المعقول ، وفي الامكان تجسيده في صورة الفرق بين التفكير الاكاديمي والتفكير الشعري. ولدينا الكثير في عالمنا المعاصر من الامثلة على التفكير الاكاديمي ، ولكن ليس لدينا الا القليل عن التفكير الشعري . ويعتبر ارسطو وافلاطون من ابرز المفكرين العصريين ، لا لأن الاغريق القدامى الذين عاش هذان الفيلسوفان في عهدهم كانوا من العصريين ، بل لأن هذين الرجلين يعتبران من رواد الفكر الحديث . ولقد كان ارسطو بالرغم من هذه النظرة النابعة من الانسنة ، وبالرغم من عقيدته عن الوسط الذهبي ، رائد الكتاب الحديثين ، اذ انه كان اول مفكر جزّأ المعرفة الى خانات متفرقة ، بينها الفيزياء والنبات والاخلاق والسياسة . وكان كذلك اول انسان شرع في الحديث الاكاديمي الذي لا يفهمه الانسان العادي ،والذي جاء علماء الاجتماع والنفس المعاصرون فبزّوه فيه . وبالرغم من ان افلاطون كان صاحب استشفاف انساني واقعي ، الا انه كان الى حد كبير مسؤولاً عن عبادة الافكار والمطلقات التي سادت عصر الافلاطونية الجديدة ، والتي بدلاً من ان تتلطف بمزيد من الاستشفاف ، اصبحت شائعة عند كتاب اليوم الذين ما زالوا يتحدثون عن الافكار والعقائد وكأنها ذات وجود مستقل . فعلم النفس الحديث وحده هو الذي اخذ في الايام الاخيرة يحرمنا من وجود بعض خانات المعرفة كالعقل والارادة والعاطفة ، ويقتل فينا « الروح » التي كانت تؤلف كياناً حقيقياً عند علماء اللاهوت في العصور الوسطى . ولقد قتلنا « الروح » ولكننا خلقنا الوف الشعارات الاجتماعية والسياسية الغربية التي تسيطر على افكارنا ، وأخذنا في تحويل الدولة الى كائن يضيع فيه الفرد .

ويبدو ان الانسانية في حاجة الى طراز متجدد من التفكير يكون اكثر شاعرية ، ويستطيع ان يرى الحياة ككل متكامل . ويقول المرحوم جيمس

هأرفي روبنسون[١] « يعرب كثيرون من المراقبين عن ايمانهم الصادق ، بأنه ما لم يرتفع التفكير الى مستوى ارفع مما هو عليه الآن ، فان الحضارة ستمنى بنكسة حتمية » . ويقول الاستاذ روبنسون ان « الوعيية والاستشفاف قد يقفان موقف الشك من بعضهما ، ولكن في الامكان خلق الصداقة بينهما » . ويبدو لي ان علماء النفس والاقتصاد المعاصرين قد اكثروا من الوعيية ، وقللوا من الاستشفاف. وهذه نقطة لا يمكن الأفراط في التأكيد عليها ، اذ هناك خطر في تطبيق المنطق على الشؤون الانسانية . ولكن التفكير العلمي احتل مكانة عظيمة في عصرنا الراهن ، بحيث بات التفكير الاكاديمي يسيطر بالرغم من جميع التحذيرات على ملكوت الفلسفة ، وبات التفكير السخيف مسيطراً بأن في الامكان دراسة العقل الانساني على نفس الاسس التي يدرس فيها نظام المجاري ، ودراسة تموجات الفكر الانساني وقياسها وكأنها تموجات لاسلكية . وقد تكون النتائج مزعجة في تفكيرنا اليومي ، ولكنها مفجعة في سياساتنا العملية .

٢ – العودة الى سلامة التفكير

يكره الصينيون تعبير الحتمية المنطقية، اذ لا وجود لهذه الحتمية في الشؤون الانسانية . وقد بدأ عدم ايمان الصينيين بالمنطق نتيجة عدم ثقتهم بالكلمات ، ثم مضى هذا الافتقار الى الايمان متمثلاً في كرههم الغريزي لما تنطوي عليه النظريات والنظم الفكرية من تعاريف وغايات.ولكن هذه الكلمات والتعاريف والنظم الفكرية هي التي خلقت المدارس الفلسفية المختلفة . ومع ذلك فقد بدأ

---

(١) روبنسون (١٨٧٢ – ١٩٤٥) – من علماء اللاهوت والفكر الديني . تميز بغرابة الطبيعة . من اهم مؤلفاته كتاب عن علم النفس .

– المعرب –

انحطاط الفلسفة نتيجة انشغال الناس بالكلمات . ويقول كوانج تينجان الكاتب الصيني « لا يتحدث الحكيم العاقل ، وانما يتحدث الانسان الموهوب ، أما البليد فهو الذي يناقش». ولقد قال هذا الكاتب قوله هذا بالرغم من ان الملك الذي كان يعيش في عصره كان يعشق المناقشة .

فهذه هي قصة الفلسفة الحزينة ، وهي تتلخص في ان الفلاسفة يمتون الى فئة المتحدثين لا الى فئة الصامتين . فجميع الفلاسفة يحبون الاستماع الى اصواتهم ، وها نحن نجد ان لاوتسي نفسه الذي علمنا اولاً ان الخالق هو الصامت العظيم الأول ، وانه لم يتحدث ، عاد فاقتنع بأن يترك وراءه للاجيال اللاحقة ، قبل ان ينسحب الى ما وراء مضيق هانكو كوان ليقضي ما تبقى من حياته في عزلة وغموض ، نحواً من خمسة الاف كلمة . ولا شك في ان كونفوشيوس نفسه ، يعتبر نموذجاً للفيلسوف العبقري المتكلم، فقد زار اثنتين وسبعين مملكة ليتحدث الى ملوكها . ولا يخرج سقراط عن هذا الاطار ، فقد كان يطوف شوارع اثينا، ويستوقف المارة فيها ، ليوجه اليهم بعض الاسئلة ، وليستمع الى نفسه وهو يحاول ان يرد عليها بأجوبته الحكيمة . ومن هنا يصبح القول « بان الحكيم لا يتكلم » ، قول نسبي . ومع ذلك يظل الفرق قائماً بين الحكيم والموهوب ، وذلك لأن الاول لا يتحدث الا عن الحياة ، كما يحس هو بها ، بينما يتحدث الموهوبون عن عبارات الحكماء ، ويناقش البلداء ما يقوله الموهوبون . ونحن نجد عند السفسطائيين اليونان نموذج المتحدثين الذين يتعشقون اللهو بالكلمات وتبادلها ، والتكنيات التي تحملها . وهكذا تحولت الفلسفة التي كانت تمثل حب الحكمة الى حب للكلمات . وادى نمو هذا الاتجاه السفسطائي الى وقوع الطلاق بين الفلسفة والحياة ، والى استكماله فيما بعد . وأخذ الفلاسفة مع مضي الزمن ، يكثرون من استعمال الكلمات شيئاً فشيئاً ، ويطيلون الجمل التي تتضمنها هذه الكلمات . واختفت حكم الحياة لتحل محلها الجمل ، ثم عادت هذه فأخلت محلها للحوار والمناقشات التي سرعان ما اخلت مكانها للمقالات ، لتجيء بعدها

التعليقات والبحوث اللغوية . فقد ازدادت الحاجة الى الكلمات لتحديد معانيها وتصنيفها ، وازداد عدد المدارس الفكرية ، لتحل محل سابقتها وتتباين معها . واستمرت العملية ، الى ان اختفى الاحساس المباشر والوثيق والفوري بالحياة وفهمها ، واصبح من حق الرجل العادي ان يسأل محدثه قائلا ... « ترى عمّ تتحدث؟ » ... ومع ذلك فقد ظل بعض المفكرين عبر المراحل اللاحقة لتاريخ الفكر يحسون بالاثر المباشر للحياة نفسها ، من امثال جوتـــه[1] وصمويل جونسون[2] وايمرسون[3] ووليام جيمس[4] ، وقـد رفضوا التحدث بلسان « المتكلمين » ، وظلوا يعارضون وبصورة قوية روح التصنيف . وكان هؤلاء هم الحكماء الذين حفظوا لنا المعنى الصادق للفلسفة ، وهي حكمة الحياة . وهجروا في معظم الحالات اسلوب الحوار والمناقشات وعادوا الى اسلوب الحكم القصيرة. وعندما يفقد المرء القدرة على التحدث بلغة الحكم القصيرة ، يلجأ الى اسلوب الفقرات ، واذا مـا عجز عن التعبير بوضوح عمّا يريد في اسلوب الفقرات ، لجأ الى الحوار ، واذا ما فشل في الحوار لجأ الى اسلوب المقالات .

---

(١) جوهان وولفجانج جوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) شاعر المانيا العظيم وكاتبها المسرحي وفيلسوفها. ولد في فرانكفورت ومن اسرة رخية العيش .. درس في جامعة ليبزيغ ، الف عدداً من دواوين الشعر والمسرحيات والكتب. اشهرها آلام فيرتر، وفاوست، ودكتور جوريس ومحمد.

(٢) صمويل جونسون (١٧٠٩ - ١٧٨٤) - من اشهر الكتاب والشعراء والنقـــاد الانجليز . كان والده صاحب مكتبة . فنشأ من صباه مولعاً بالقراءة . ثم درس في اكسفورد حيث بز اقرانـه في الاداب القديمة . عمل في الصحافة حقبة طويلة . من اشهر قصائده « تفاهة الرغبات الانسانية » ومن اشهر كتبه « تصورات » و « حياة شعراء انجلترا » .

(٣) رالف والدو ايمرسون (١٨٠٣ - ١٨٨٢) - من اشهر كتاب امريكا وشعرائها وفلاسفتها ولد في بوسطن ودرس في هارفرد . رسم قسيساً ثم ترك خدمة الكنيسة . طاف كثيراً في اوروبا . من اشهر كتبه « فلسفة التاريخ » و « الشعر والخيال » و « الطبيعة » و « الاخلاق الادبية » و « المجتمع والوحدة » .

(٤) ويليام جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠)- فيلسوف امريكي . درس في هارفرد واصبح محاضراً فيها ثم استاذاً . من اهم كتبه « مبادىء علم النفس » و « ارادة الايمان » و « الخلود الانساني » و « مثل الحياة » .

- المعرب -

ويكون حب الانسان للكلمات خطوته الأولى في طريق الجهل ، ويكون حبه الثاني للتعاريف خطوته الثانية . وكلما ازداد اقبال المرء على التحليل ، كلما زادت حاجته الى التعريف ، وكلما مال الى التعريف ، كلما سعى الى الكمال المنطقي المتعذر ، وذلك لأن استهداف الكمال المنطقي دليل على الجهل . ولما كانت الكلمات هي مادة فكرنا ، فقد اصبحت جهود التعريف ، ممدوحـــة ، وكان سقراط هو الذي بدأ جنون التعريف في اوروبا . ويكمن الخطر في اننا بعد وعينا للكلمات التي نعرّفها ، نصبح اكثر اضطراراً لتعريف الكلمات التي استخدمناها للتعريف ، ويصبح هذا بدوره الشغل الشاغل لفلاسفتنا . وهناك فرق واضح بين العبارات التي تؤدي دوراً مهماً ، وتلك التي لا تؤدي أي دور ، أو بين الكلمات التي تؤدي واجبهـا في حياتنا اليومية ، وتلك التي توجـد في ندوات الفلاسفة وبين تعريفات سقراط وفرنسيس بيكون[1] من ناحيـــة وتعريفات الاساتذة العصريين من الناحية الاخرى . ولقد تمكن شكسبير الذي تميز بمعرفته الوثيقة للحياة ، من السير دون ان يحاول تعريف أي شيء ، او لأنه لم يحاول ان يعرّف شيئاً ، ولذا فقد كان لكلماته « هيكل » افتقر اليه الكتاب الآخرون ، وامتلأت لغته بذلك الاحساس الانساني بالمأساة والعظمة الذي نفتقر اليه اليوم . وليس في وسعنا ان نحدد كلماته بواجب معين واحد ، كما لا نستطيع تحديد أي مفهوم واضح له عن المرأة . فمن طبيعة التعبيرات انها تحاول خنق تفكيرنا ، وحرمانه من تلك الخصائص المشرقة والخيالية الزاهية للحياة نفسها .

ولكن اذا كانت الكلمات لا بد ان تقطع علينا تفكيرنا في عملية التعبير ، فان حب النظام قد يكون اكثر خطراً على الوعي اليقظ بالحياة . وليس النظام

---

(١) فرانسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٨) – فيلسوف بريطاني ورئيس لوزراء مملكة بريطانيا . درس في كمبريدج وظل يشغل عشرين عاماً منصب كبير مستشاري الملك ، ومنح لقب لورد فيرولام . وضع عـــدداً من الكتب منها « تاريخ هنري السابع » و « مقـــالات » و « تقدم العلم » و « حكمة العلماء » وكثير غيرها .

– المعرب –

الا انحرافاً من الانحرافات عن الحقيقة ، وكلما ازداد هذا النظام منطقاً ، كلما كان هذا الانحراف العقلي اكثر فظاعة . ولعل من اول الاسباب التي تدعو الى ان تزداد غرابة الفلسفة عن الحياة ، الرغبة الانسانية في رؤية ذلك الجانب من الحقيقة التي نراها بطريق الصدفة ، وفي تطوير هذا الجانب ورفعه لتجعل منه نظاماً منطقياً كاملاً . وينتج عن هـذا ان كل من يتحدث عن الحقيقة يصيبها بالضرر ، وان كل من يحاول اقامة الدليل على صحتها ، يزدريها ويشوّهها ، وان كل من يعطيها علامة فارقة ، ومدرسة فكرية تقبلها ، وان كل من يعلن ايمانه بها يتولى دفنها . وينتج عن هـذا ايضاً ان الحقيقة التي تتحول الى نظام منطقي ، تموت وتدفن ثلاث مرات ، ولعـل اللحن الجنائزي الذي ينشدونـه جميعاً في تشييع جثمان الحقيقة يتلخص في العبارة التالية ... « لقد كنا على حق كامل ، وكنت على خطأ تام ». وقد لا يكون من المهم تحديد صفة الحقيقة التى يدفنونها، ولكن المهم هو انهم هم الذين يتولون عملية الدفن . فهكذا تعاني الحقيقة وتتألم على ايدي المدافعين عنها ، وهكذا تنشغل جميع فروع الفلسفة ومدارسها القديمة والحديثة في اثبات شيء واحد ، وهو انني على حق كامل ، وانك على خطأ تام . ولا شك في ان الألمان بفلسفتهم الكاملة قد كتبوا المجلدات لاثبات حقيقة صغيرة محدودة ، مما أحالها الى سخف ، وبذلك كانوا اكثر الناس إساءة للفلسفة ، وان كان هذا الوباء الفكري قـد ساد جميع المفكرين الغربيين وهم يزدادون سوءاً ورغبة في المطلقات .

وأدى هذا المنطق الذي نزعت منه الأنسنة الى ظهور حقيقة نزعت منهـا الانسنة ايضاً . ولقد باتت لدينا الآن فلسفة بعيدة كل البعد عن الحياة نفسها ، وقد تراجعت عن كل عزم لديها على تعليمنا معنى الحيـاة ، وحكمة العيش ، وفقدت ذلك الاحساس الوثيق بالحياة والوعي بها وهما لباب الفلسفة وجوهرها. وكان هذا الاحساس الوثيق بالحياة هو الذي اسمـاه ويليام جيمس « مادة التجربة » . واني لأشعر مع مضي الوقت بأن فلسفة ويليام جيمس ومنطقـه سيصبحان اكثر ضرراً ، وايذاء لطريقة الغربيين الحديثة في التفكير . وعلينـا

قبل ان نعمل على أنسنةالفلسفة الغربية ان نضمن أنسنة منطقها. وعلينا ان نعود الى طريقة في التفكير تتميز بالتطلع المتلهف الى الاتصال بالواقع والحياة والطبيعة الانسانية ، اكثر من تلهفها الى ان تكون صحيحة ومنطقية ومستقرة . وعلينا ان نستعيض عن المرض الفكري الذي جسده ديكارت[1] بقوله ، « انا افكر ، اذن فأنا موجود » بقول اكثر انسانية وعقلاً من الطراز الذي عبر عنه والت ويتمان[2] بقوله « يكفيني ان اكون كما انا ». وليست الحياة في حاجة الى الركوع امام المنطق لتستمد منه الدليل على وجودها .

ولقد قضى ويليام جيمس حياته وهو يحاول الدفاع عن طريقة التفكير عند الصينيين والبرهنة عليها ، دون ان يعرفها ، ولعل الفرق الوحيد يمثل في انه لو كان صينياً لما كتب كل ما كتبه لمناقشة رأيه ، بل اكتفى بمقال لا يزيد على خمسمائة كلمة ، أو بجمل في مفكرته اليومية للتعبير عمّا يؤمن به . وكان لا بد من ان يصيبه الخجل من الكلمات ، لانه كان يعرف انه ان اكثر منها ، زادت احتمالات عدم فهمه . ولكن ويليام جيمس كان صينياً في احساسه الواعي بالحياة وبصور التجارب الانسانية ، وفي ثورته على هذه العقلانية الآلية ، وفي حرصه على الابقاء على الفكر سائلاً ، وفي ضجره من الناس الذين يتصورون انهم اكتشفوا « المطلق » العظيم الاهمية ، والحقيقة الشاملة ، وادرجوهما في نظام فلسفي ذاتي الاكتفاء . ولقد كان صينياً ايضاً في اصراره على اهمية احساس الفنان بالواقع الذي يراه ، اكثر من احساسه بالواقع الذي يتصوره . فالفيلسوف هو ذلك الانسان الذي يركز جميع قدراته الحسية في نقطة معينة ، ويرقب سير الحياة ،

---

(١) رينيه ديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠) — فيلسوف فرنسي . ولد في تورين ودرس عند اليسوعيين . خدم في جيش هولنده . من اشهر كتبه « مطارحات النهج » و « افكار في الفلسفة الاولية » و « مبادىء الفلسفة » .

(٢) والت ويتمان (١٨١٨ — ١٨٩٢) شاعر امريكي ، ولد في لونج ايلاند . من اشهر قصائده « اوراق العشب » و « الرواد » و « غصون الخريف » وغيرها .

— المعرب —

وهو على استعداد دائم للاحساس بالغرابة من رؤية الغاز وشواذ وغرائب جديدة وغريبة . ولا شك في انه في رفضه لقبول أي نظام لا لعدم صحته ، بل لانه نظام ، يضرب عرض الحائط بجميع المدارس الفلسفية الغربية . ومن الصحيح ما يقوله من ان هناك فرقاً واضحاً بين المفهوم الوحداني والمفهوم المجموعي للكون ، وان هذا الفرق لعب دوراً واضحاً في تاريخ الفلسفة . ولقد مكن الفلسفة من ان تنسى قصورها العاجية الجميلة وان تعود الى الاتصال بالحياة .

يقول كونفوشيوس ان «الحقيقة لا تستطيع ان تتخلى عن الطبيعة الانسانية ، اذ لو تخلت عنها لم تعد تمثل حقيقة » . وهو يقول ايضاً في سطر واحد نفس ما عبر عنه جيمس وهو ان «الحقيقة لا تستطيع ضمان العظمة للناس ، بل ان الناس هم الذين يضمنون العظمة للحقيقة » . أجل فالكون ليس بالقياس المنطقي أو المقولة المنطقية ، وانما هو مخلوق ، فهو لا يتكلم ولكنه يحيا ، وهو لا يناقش ولكنه يقيم حيث هو . ويقول كاتب انجليزي موهوب ... « ليس العقل الا مادة من مواد الغموض، ولقد قبع العقل والمعجزات وراء الوعي المعتز، خجلين من نفسيهما . وقد يأسن الحتمي ويتعفن بينما يعيش الشك والأمل كالاخوين . وقد لا يكون من سوء الحظ ، ان يكون الكون شرساً ميالاً الى المشاكسة كجناح العقاب . فالطبيعة معجزة في حد ذاتها ، وقد يعود الشيء نفسه، ليظهر في صورة مغايرة ، ولعل كل ما يحتاج اليه علماء المنطق في الغرب هو القليل من التواضع ، وذلك لان خلاصهم يمثل في ظهور من ينقذهم من رؤوسهم التي ملأها هيجل غروراً .

٣ – كن معقولا

تمثل سلامة التفكير أو روح العقل النقيض للمنطق . واني لأرى ان روح العقل تمثل اسمى ما في الثقافة الانسانية وأرفعه ، وان الانسان المعقول هو أرفع

طراز للانسان المهذب . فليس في امكان انسان ان يصل الى الكمال ، ولكن في امكانه أن يعمل على أن يكون انساناً معقولاً ومقبولاً . وإني لأتطلع بالفعل إلى ذلك الوقت الذي يصبح فيه الناس في هذا العالم مسيّرين بهذه الروح المعقولة في شؤونهم الشخصية والقومية . فالامم المعقولة تعيش في سـلام ، كما أن الأزواج المعقولين يعيشون في سعادة . ولن اشترط في اختياري الأزواج لبناتي ، سوى أن يكونوا من المعقولين . فليس في وسعنا ان نتصور أزواجاً وزوجات كاملين وكاملات ، لا ينشب النزاع بينهم ، ولكن في وسعنا ان نتصورهم من المعقولين الذين لا يقع النزاع بينهم إلا بصورة معقولة، والذين سرعان ما يتصالحون . ولا يمكن ان نضمن السلام والسعادة إلا في عالم من المعقولين ، ولا شك في أن عصر المعقولين سيكون عصر السلام، إذ أنه سيكون العصر الذي تسوده روح العقل.

ولعل روح العقل هو خير ما تستطيع الصين تقديمه إلى الغرب . وأنا لا أعني بان دعاة الحرب من الصينيين معقولون ، ولكنني أقول أن روح العقل هي لباب الحضارة الصينية والجانب الرائع فيها . وقد اكد امريكيان عـاشا طويلاً في الصين هذا الاكتشاف الذي توصلت اليه . ويقول أحدهما وقد عاش ثلاثين سنة في الصين ، ان أساس الحياة الاجتماعية فيها يرتكز إلى كلمة واحـدة وهي «شيانجلي» أي: «تكلم بعقل» . ولعل خير تعليق على أي نزاع في الصين هـو القول ... « هل هذا معقول » ، كما ان اشد ادانة لأي انسان تتمثل في انـه لا « يتكلم بعقل » . وكل من يعترف في أي نزاع قضائي ، بأنه غـير معقول ، يدان ويخسر قضيته .

وسبق لي ان قلت في كتابي « بلادي وشعبي » ان « الغربي يكتفي من أيـة فرضية يسمعها بأن تكون سليمة من الناحية المنطقية . أما الصيني فلا يكتفي بذلك ،وإنما يطلب منها أن تكون ايضاً متفقة مع الطبيعة الانسانية . فالاتفاق مع الطبيعة الانسانية أهم في الواقع في نظر الصيني من السلامة من الناحية المنطقية ». وتمثل كلمة « شينجلي » الصينية ، معنى « المعقولية » عنـد الغربيين ، وهي

تتألف بدورها من كلمتين « شينج » وتعني الطبيعة الانسانية ، و « لي » وتعني العقل الخالد. فالأولى تمثل العنصر الانساني المرن ، بينما تمثل الثانية القانون الثابت للكون. والرجل المثقف هو ذاك الذي يفهم القلب الانساني وقوانين الأشياء فهماً كاملاً ، ويدعى الكونفوشيوسي ان في وسعه ان يصبح من الحكماء عن طريق العيش المنسجم مع الطرائق الطبيعية للقلب الانساني والطبيعة . ولكن هذا الحكيم ليس اكثر من انسان معقول ، مثل كونفوشيوس ، الذي يعجب الناس به لسلامة تفكيره ، ولخصائصه الانسانية الطبيعية .

وأنسنة التفكير لا تعني شيئاً سوى التفكير المعقول . فالرجل المنطقي يغتر باستقامته التلقائية ، ولذا فهو لاانساني ، وهو والحالة هذه على خطأ ، بينما يشك الانسان المعقول في انه قد يكون على خطأ ، ولذا فهو دائم الصواب . ولعل الفرق بين الرجل المعقول والرجل المنطقي يظهر دائماً في الحواشي التي تذيل بها الرسائل . وأنا اميل دائماً إلى هذه الحواشي في رسائل اصدقائي ، ولا سيما تلك التي تتناقض منها كلية مع النص الوارد في الرسائل نفسها . فهي تتضمن جميع الافكار اللاحقة المعقولة ، والترددات ، ولمح العبقرية وسلامة التفكير . ولا شك في أن المفكر الأصيل ، هو ذاك الذي يصل فجأة عن طريق الالهام ، وبعد ان يكون قد قطع شوطاً في الاصرار على اقامة الدليل على صحة فرضية يراها بالحجج الطويلة والملتوية ، انه كان على خطأ ، فيقضي بلمحة من لمح المعقولية على كل ما كتبه ويقر بخطئه . ولعل هذا هو ما أسميه بأنسنة التفكير .

ولنتصور رسالة كتب الانسان المنطقي نصها ، ثم ذيلها انسان معقول بحاشية من عنده. فقد يكتب والد إلى ابنته رسالة يرد فيها على ما وجهته اليه من رجاء، بأن يمنحها الفرصة لدخول الجامعة ، ويمضي معدداً الأسباب المنطقية التي تحول بينه وبين تحقيق رغبتها ، بكثير من الاصرار والعناد ، قائلاً ان له في الجامعة ثلاثة أولاد ينفق عليهم ، ولا يستطيع ان يتحمل نفقات جديدة ، وان امها مريضة وتحتاج اليها في البيت لرعايتها وهلم جرا . وبعد ان ينتهي الوالد من

رسالته ويوقعها ، يضيف اليها العبارة التالية ... « لا بأس يا جولي ، اعـــدّي نفسك للجامعة في الخريف ، فسأدبر امري بشكل من الاشكال ».

ولنتصور رجلاً يكتب إلى زوجته معلناً لها قراره باتخاذ الاجراءات اللازمة لطلاقها ، ومعدداً سيلاً من الأسباب التي تدعوه إلى ذلك كخيانتها له ، وعـدم قيامها بواجباته المنزلية وهلم جرا . وكانت أسبابه منطقية بل ومحقة ، ولو عهد إلى محام بقضيته على اساسها لكسبها فعلاً على اسس منطقية . ولكنه لم يكـــد ينتهي من رسالته ويوقعها ، حتى تدهمه فكرة اخرى ، فيشطب كل ما كتبه ، ويكتب بوضوح .. «عليّ اللعنة يا عزيزتي صوفي ... حقاً إنني رجل قذر . ها انا عائد إلى البيت احمل معي باقة من الزهر ».

وبالرغم من ان الحجج الواردة في الرسالتين منطقية تماماً وصحيحة ، إلا ان الرجل المنطقي هو الذي يوردها ، أما في الحاشيتين ، فقد كان الانسان هو الذي يتكلم ، أي الوالد الانسان، والزوج الانسان. وهنا يمثل واجب العقل الانساني؛ فهو غير ملزم بتقديم حجج منطقية بليدة ، وإنما عليه ان يحافظ على توازن عاقل وسط بحر متلاطم ومتفير من الحوافز والأحاسيس والرغبات . وهنـــا تكون صورة الحقيقة في الشؤون الانسانية ، وهي انها ما نريده ان يكون حقيقة فعلاً. ففي الامكان الرد على الحجج الدامغة بشيء من العاطفة ، وعلى السلامة المنطقية بشيء من الحب . ولعل السلوك البعيد عن المنطق في الشؤون الانسانية ، هـــو اكثر صور السلوك اقناعاً . فالقانون نفسه يقر بعجزه عن تطبيق العدل المطلق، عندما يلزم القاضي بالعودة إلى « تفسير معقول » لمادة قانونية ، أو عندما يسمح لرئيس الدولة بالعفو عن انسان ادانه القانون .

ولا شك في ان روح العقل تؤنسن تفكيرنا كله ، وتجعلنا اقل ثقة باننا على صواب . وهي تميل إلى دفع افكارنا إلى الاسترخاء ، ثم تجمعها ، وتوجههـــا في صورة سلوكنا . ولعل التعصب والتزمت في جميع صورهما الفكرية والسلوكية ،

وفي حياتنا الفردية والقومية وزواجنا وديننا وسياساتنا هما النقيض لروح العقل. وإني لأقول اننا في الصين نتميز بقلة التعصب والتزمت . وبالرغم من ان جماهيرنا تتعرض للاثارات العاطفية ، الا ان روح العقل قد انسنت إلى حد كبير جميع تصرفاتها . وبالرغم مما يرافق قولي هذا من تحفظات ، الا انه صحيح على أي حال . فهذه الروح ، هي التي تجعل من حكامنا وآلهتنا وازواجنا مجرد بشر. ولم يكن امبراطور الصين قط من أنصاف الآلهة كامبراطور اليابان ، وقد رفض المؤرخون الصينيون الفكرة القائلة بأن الامبراطور يحكم بأمر من السماء ، فعندما يخطىء امبراطور الصين ، كان الصينيون يقطعون رأسه ، وقد وقع هـــذا بالفعل بالنسبة إلى عدد كبير من الملوك والاباطرة في مختلف العصور . ولم نجعل من حكمائنا قديسين وانبياء ، وإنما كنا نعتبرهم اساتذة الحكمة ، ولم نجعل من آلهتنا صوراً للكمال ، وإنما عرضناهم للاتهام بالفساد والرشوة كموظفينا . فنحن نستنكر كل ما يخرج على حدود المعقول ، لأنه مناف للطبيعة الانسانية ، وفي وسع الانسان المغرق في قداسته أو في كماله ان يكون خائنـــاً ، لأنه يكون شاذاً من الناحية النفسية .

وهناك في ميدان السياسة الكثير من البعد عن الانسانية في منطق الناس وفي ادارة دفــة الأمور في بعض البلاد الأوروبية . وقد لا أحس بالرعب من النظريات الفاشية والشيوعية ، وانما أحس به من الروح المتعصبة التي تتبع في نشر عقيدتيهما ، وفي طريقة دفع هاتين العقيدتين الى العقول عن طريق المنطق . ولعل النتيجة الوحيدة لهذه الروح ، هي الخلط بين القيم ، والمزج بين السياسة والعنصرية ، والفن والدعاية ، والوطنية والعلم ، والحكم والدين ، وحقوق الفرد وحقوق الدولة . فليس في مكنتي ان اقبل تحول الدولة الى صورة إله ، يمنع الفرد من حقه في التفكير والاحساس ، ونشدان السعادة .

ويقول البيرت بوفيليت ، ان اليسار المتطرف واليمين المتطرف يلتقيان . فكلاهما يؤمن بالقوة والسلطان وهما في رأيي اقوى مظهر للبلادة في الفكر

الغربي ، وكلاهما يستمد وحيه من المنطق . أوَ في وسع أي انسان ان يدرك انه وهو يعيش في النصف الثاني من القرن العشرين ، يعاني من الاخطاء المنطقية التي ارتكبها اسلافه قبل مائة عام ؟

وفي وسعنا ان نقول ان روح العقل لم تعد سائدة في اماكن كثيرة في اوروبا، وانما السائدة هي روح التعصب . واذا ما تطلع المرء الى صورة اوروبا الآن أحس بشيء من العصبية التي لا تنبع من وجود التناقضات في الاهداف القومية والحدود الدولية والمطامع الاستعمارية وانما من الحالة العقلية التي تسود حكام اوروبا ، وذلك لأن في الامكان حل تلك التناقضات عن طريق روح العقل . ويشبه الوضع موقف ذلك الانسان الذي يستقل سيارة أجرة في مدينة غريبة وسرعان ما يفاجئه شعور من عدم الثقة بالسائق . وقد لا يكون الوضع سيئاً اذا كان السائق لا يعرف خريطة المدينة ، ولا يعرف كيف ينقل الراكب الى المكان الذي ينشده بالطريق المباشر ، لكنه يسوء جداً ويصبح مفزعاً للراكب اذا سمع السائق يحدث نفسه حديثاً غير مفهوم ، مما يحمله على الشك في سلامة عقله . وتزداد عصبية الراكب اذا رأى السائق مسلحاً بغدارة ، ووجد نفسه عاجزاً عن الخروج من السيارة . وقد يكون هناك ما يدفع المرء الى الاعتقاد بأن هذه الصور المزيفة للعقل الانساني ، لا تمثل هذا العقل ، وانما هي مجرد انحرافات ومراحل مؤقتة من الجنون ، لا بد ان تنتهي وتزول . وفي وسع الانسان ان يعرب عن ثقته بقدرات العقل الانساني ، وان هذا العقل بالرغم من تحديده ، اسمى بكثير من عقل سائق تلك السيارة ، وان في وسعنا ان نعيش سعداء ، لاننا نكون قد تعودنا على العيش بتعقل .

فهرست الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

